نوادر الأصول

في معرفة أحاديث الرسول

تأليف

أبي عبد الله محمد الحكيم الترمذي

الجزء الثاني

تحقيق وتعليق

الدكتور

أحمد عبد الرحيم السايح

الدكتور

السيد الجميلي

دار الريان للتراث

الطبعـة الأولـى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

يطلب من

دار الريان للتراث

الادارة : ٣٥٠ شارع الأهرام - الجيزة تليفون / ٨٥٤٦٨٧ - ٨٥٢٠١١

القاهـــرة : ١٧٧ شارع الأهرام - تليفون - ٥٣٦٥٩٩
معرض ٨ بجراج الأوبرا .
٤٣ أ شارع رمســيس .
١ شارع البورصة من شارع قصر النيل تليفون / ٧٧٧٥٩١
١ شارع أحمد سعيد - بالعباسية .
ميدان أحمد عرابى - سفنكس - المهندسين .

مصر الجديدة: ٢٢شارع الأندلس - خلف المريلاند - تليفون / ٢٥٨٢٠١٤

الاسـكندرية : سيدى بشر - طريق الكورنيش - برج رامادا (الدور الأول) .

[الأصل التاسع والأربعون والمائة فى أن الكلام عليك لا لك وضروبه]

عن أم حبيبة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمراً بالمعروف، أو نهياً عن منكر، أو ذكر الله تعالى»(١)، فاللسان ترجمان القلب يعبر عما فى القلب من العلم فيرمى به إلى الأسماع فيولج القلب ان خيراً فخير وإن شراً فشر.

قال صلى الله عليه وسلم: «الأذنان قمع».

قال كعب لعائشة رضى الله عنها فى نعت الإنسان قال: «عيناه هاد وأذناه قمع، ولسانه ترجمان ورجلاه بريد، وكبده رحمة، ورئتاه نفس، وطحاله ضحك، وكلوتاه مكر، والقلب مهلك فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا فسد الملك فسدت جنوده، قالت: هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينعت» والكلام على ضروب منها ما يخلص للآخرة ويصفو فذاك مندوب إليه، موعود عليه خير ومنها ما يخلص للدنيا ولا نصيب للآخرة فيه فذلك مزجور(٢) عنه، موعود عليه

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب الزهد ـ باب كلام ابن آدم عليه لا له (٦٠٨/٤) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد بن ختيس. وأخرجه الحاكم فى المستدرك ـ كتاب التفسير ـ باب كلام ابن آدم عليه لا له (٥١٢/٢) ولم يعقب عليه. وأخرجه ابن ماجه فى سننه ـ كتاب الفتن ـ باب كف اللسان فى الفتنة (١٣١٥/٢).

(٢) مزجور عنه: منهى عنه.

الوبال، والعقوبة، ومنها مايتجارى الناس فيا بينهم فى أمر معاشهم مما لابد منه فى الأخذ والإعطاء فى تصرفهم وأحوالهم فذاك مأذون له فيه، والحساب من ورائه والناس فى أمر دينهم على ضربين فضرب منهم يعاملون الله تعالى على الوظائف كعبيد الغلة يؤدون الغلة وما بقى فهو لهم، فقد خلى بينهم وبين ذلك ثم هم فى تصرفهم وأحوالهم يدبرون لأنفسهم، ويهتمون لها، ويكدون ويسعون لنوائبهم، وينفقون على أنفسهم وعيالهم مشاغيل القلوب والأبدان، متعبون بذلك فهم على تدبير أنفسهم يمضون وباختيارهم الأمور يعملون، وغموم ذلك متراكم على قلوبهم يحتاجون إلى توفير الغلة على المولى وتدبير معاشهم، ومرمة أمور عيالهم، فهكذا من يعامل الله تعالى على هذا السبيل عهد إليه ربه عز وجل من أداء فرائضه واجتناب محارمه فى الجوارح السبع من جسده، وفى ماله، ووعده على ذلك الجنة وعلى تضييعه أوعد النار قال الله تعالى:

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (٣)

فهو يقطع عمره بهذا ويقتضى منه الثواب غدا فإذا قدم على ربه عز وجل حاسبه وحصل أموره وبلى(٤) سرائره فإذا وجده قد وفر حقوقه فيما عهد إليه اعتقه من رق العبودية ومكن له فى جواره مايكون له جزاء لسعيه، ووقاء لكده فهؤلاء إن نطقوا باذنه ينطقون فما صفا للآخرة فلرجاء ثوابه الذى وعد وما كان للمعاش، ومتصرف الأمور فيما أذن لهم فيه وقفوا للحساب، فذاك عليه لا له حتى يتخلص منه فإن تخلص منه لا له ولا عليه فنعم مايتخلص مع أنه لاينفك مع الخلاص من حسرة موجعة للقلب، مفجعة للنفس إذ يرى أكثر عمره قد أهدره وأبطله فإن أهل الغفلة حظهم من أعمارهم يوم القيامة الساعات التى كانوا فى أمور آخرتهم من أعمال البر وسائر ذلك هدر وإنما يثابون على أعمال البر

(٣) البقرة (٢/٤٠).

(٤) بلا: من يبلو أى يختبر، سرائره: دخائله.

لأنهم عملوها على ذكر الآخرة، فأما ماعملوها على العادة والشهوة وحظ النفس فلا (٥) نية لهم ولا حسبة فهو بطال غافل ينكشف له الغطاء يوم الحسرة (٦) والندامة.

قال تعالى:

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ (٧)،

فهؤلاء ان نطقوا فعن علومهم وعقولهم ينطقون وإن صمتوا ففى أحوالهم يتفكرون وإياهم يذكرون وبدنياهم يشتغلون، وفى منامهم وشهواتهم يرتاحون، وهذا صفة هؤلاء المستورين المعروفين عند العامة بأعمال البر وبالعدالة والصلاح، والرياسة والعلم فإنهم قد رضوا من حظهم بما نالوا من مرفق النفس، والوصول إلى النهمة ورضوا من دينهم بهذه الأعمال التى تستروا بها ليحمدوا عند الخلق بذلك، ولا تلحظ قلوبهم إلى مالك الملك الذى يراهم على هذه الصفة حتى يستحيوا منه. وأما الضرب الآخر فهم يعاملون الله تعالى على العبودة كعبيد الخدمة انتبهوا من رقدة الغافلين فدبروا لأنفسهم أمراً علموا إنه قد مضى التدبير من قبل خلق السموات والأرض وأثبته فى اللوح المحفوظ فأتمنوه على أنفسهم وألقوا بأيديهم سلما وفوضوا أمورهم إليه وشغلهم جلاله، وجماله، وعظمته، ومجده، عن أن يتفرغوا لأنفسهم، فيفكروا ويدبروا لها أو يهتموا لرزق أو يهربوا من حكم أو يتخيروا عليه فى شىء من الأحوال، عزاً وذلاً وفقراً وغنى وصحة وسقماً ومحبوباً ومكروهاً وقد وقفوا بقلوبهم بين يديه ناظرين إلى جلاله مبهوتين فى جماله منفردين بوحدانيته متعلقين بكرمه ينتظرون رزقه ويراقبون تدبيره، ويتوخون من الأمور محابه وآذانهم مصيخة إلى دعوته متى يدعون فيجيبون، فكلام هؤلاء فى المندوب إليه مما صفا

(٥) فى نسخة [ولا نية].
(٦) أى يوم القيامة.
(٧) مريم (٣٩/١٩).

للآخرة، وفى المأذون لهم مما يتجارى بين أهل المعاش فى أحوالهم، قد صاروا شيئاً واحداً لأنهم له وفى خدمته، وأموره فإن نطقوا فعنه ينطقون، وإن صمتوا فإياه يذكرون، وبه يشتغلون، وفى نجواه يرتاحون، وقوله صلى الله عليه وسلم: «كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا هذه الخصال» أراد بذلك الضرب الأول، وأما الضرب الثانى، فهم أولياء الله تعالى، وخاصة عبيده فهم أمناء الله تعالى، وخدمه فأعمالهم ومتقلبهم كلها له فلا تبعة عليهم فى ذلك.

وقال عليه السلام حكاية عن الله تعالى: «إذا أحببت عبدى كنت سمعه وبصره ولسانه فبىّ يسمع وبىّ يبصر وبىّ ينطق وبىّ يعقل» فإذا كان ممن به ينطق إذا نطق فكيف يكون عليه فى ذلك تبعة.

[الأصل المائة والخمسون فى أن من غير الحق من العلماء يمسخ وسر ما يمسخون به]

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تكون فى أمتى فزعة فيصير الناس إلى علمائهم فإذا هم قردة وخنازير» (١)، فالمسخ تغيير الخلقة وإنما حل بهم المسخ لأنهم غيروا الحق عن جهته، وحرفوا الكلام عن موضعه فمسخوا قلوب الخلق، وأعينهم عن رؤية الحق، فمسخ الله تعالى صورهم، وبدل خلقتهم، كما بدلوا الحق باطلاً، فعلماء السوء على ضربين منهم مكب على حطام الدنيا لا يمل من جمعه فتراه شهره ودهره يتقلب فى ذلك كالخنزير على المزابل يصير من عذرة(٢) إلى عذرة قد أخذ بقلبه دنياه وألزمه خوف الفقر وألهجه باتخاذه عدة للنوائب لا يتفكر عليه تقلب أحوالها ولا يتأذى بسوء رائحتها قد احتشت من الحرام ووسخت حلالها (٣) من تراكم الشهوات، فأفعال هذا الضرب وإكبابه (٤) على هذه المزابل كإكباب الخنازير، فإذا حلت السخطة مسخوا هؤلاء فى صورة الخنازير إن جوز المسخ فى هذه الأمة وإن لم يجوز ذلك فيحمل على أن معناه معنى

(١) أورده الهندى فى «كنز العمال» ٢٨٠/١٤ .. وقال: تفرد به الحكيم عن أبى أمامة. وذكره السيوطى فى «الجامع الكبير» (١١٨٤/٧) وقال: أخرجه الحكيم الترمذى عن ابن أمامة.

(٢) العذرة: فناء الدار، سميت بذلك لأن العذرة كانت تلقى فى الأفنية. وتجمع على (عذرات). كذلك يقال للمنهمك فى غيه: خلع عذاره.

(٣) فى نسخة أخرى [ووسخ حلالها من تراكم الشبهات].

(٤) إكبابه: تهالكه وانهماكه.

الخنازير، والضرب الثاني هم أهل تصنع، وترائي، ومخادعة، وتزين للمخلوقين شحاً على رياستهم، يتبعون الشهوات ويلتقطون الرخص، ويخلون بسوء السريرة (٥)، ويخادعون الله بالحيل في أمورهم، دينهم المداهنة (٦)، وساكن قلوبهم المنى، وطمأنينتهم إلى الدنيا، وركونهم إلى أسبابها رضوا من هذا كله بالقول دون الفعل فلما حلت السخطة مسخوا قردة فإن من شأن القردة المداهنة واللعب، والبطالة، ومن شأن الخنزير الإكباب على الزابل والعذرات.

(٥) السريرة: الطوية.
(٦) المداهنة: المصانعة.

[الأصل الحادى والخمسون والمائة فى ضروب البكاء وهى عشرة]

عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنى قارئ عليكم سورة ألهاكم فمن بكى فله الجنة فقرأ فمنا من بكى ومنا من لم يبك، فقال: الذين لم يبكوا قد جهدنا يا رسول الله أن نبكى، فلم نقدر عليه فقال: إنى قارئها عليكم الثانية فمن بكى فله الجنة ومن لم يقدر أن يبكى فليتباك»(1)، البكاء على ضروب(2)، وينتشىء من أسباب مختلفة بكاء من فجعة النفس وهو بكاء مصائب النفس يهان ويضرب، ويظلم فى نفسه وماله، فيبكى ويتولد منه صداع الرأس وضعف البصر، وبكاء الخدعة وهو بكاء اللصوص يبكون والسرقة فى أحضانهم لا يفارقونها، وتورث من القسوة والمقت(3)، وبكاء المباعدة وهو بكاء النساء، وهو يورث الفترة، وبكاء خوف الوعيد، وهو بكاء من آمن بوعيد الله تعالى؛ فرق قلبه بفجعة النفس، وهو يوجب الجنة ونزول الرحمة، وبكاء الحزن وهو من المراقبة وهو أن يعلم أنه لا يكون إلا ما شاء الله تعالى، وقد شخصت آماله نحوه، ولا يصل إلى ذلك فلفقد ما يأمل تأخذه الأحزان. وهذا البكاء يورث نوراً فى القلب، وبكاء الفرح، وهو لوجدان ما يأمل، ويورث من

---

(1) أشار إليه السيوطى فى «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور» (٦/٣٨٧) وعزاه للحكيم الترمذى فى النوادر. وذكره الهندى فى «كنز العمال» (١/٥٩٦). وأورده الشجرى فى «الأمالى» (١/١١٤).

(2) ضروب: جمع ضرب، أى أنواع.

(3) المقت: الكراهة.

الطمأنينة والثقة وحسن الظن به، وبكاء الخشية، فمن العلم بالله عز وجل، ووجود السبيل إلى القربة رق قلبه من الرحمة التى قرب قلبه منها. ويورث الخشوع، وبكاء الشوق، وهو يورث القربة، وبكاء الحنين إذا تحنن الله تعالى على عبد وقسم له الحظ من اسمه الحنان فرأفته مظلة عليه تكتنفه (٤) وتحوطه فتثير البكاء منه من سابغ (٥)، وهذا البكاء يورث الدنو(٦) والعطف والشفقة، وبكاء القبضة وهو الذى يقال له الدنو فهو الذى أبكاه قال الله تعالى:

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ (٧)،

قال عليه السلام فيما يذكر عن ربه تعالى أنه قال لموسى عليه السلام: «أما البكائون من خشيتى فلهم الرفيق الأعلى لا يشركهم فيه أحد» وقال خالد بن معدان رضى الله عنه: ما بكى عبد من خشية الله تعالى، إلا خشعت لذلك جوارحه، وكان مكتوباً فى الملأ الأعلى باسمه فلان بن فلان منور قلبه بذكر الله تعالى.

وعن مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: الباكى من خشية الله تعالى تهتز له البقاع التى يبكى عندها وتغمره الرحمة ما دام باكياً. وقال عمر بن ذر رحمه الله تعالى: إن البكاء من خشية الله يبذل (٨) بكل قطرة أو دمعة تخرج من عينيه أمثال الجبال من النور فى قلبه ويزاد فى قوته من العمل، ويطفىء بتلك المدامع بحوراً من النار. وعن مفضل ابن مهلل قال: بلغنى أن العبد إذا بكى من خشية الله تعالى ملئت جوارحه

---

(٤) تكتنفه: تحتويه وتشتمله وتستره، والأصل فى الكنيف أنه الساتر.

(٥) سابغ: تام.

(٦) الدنو: القرب.

(٧) النجم (٥٣/٤٣).

قال مجاهد رضى الله عنه: أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار. راجع أبا حيان فى البحر المحيط (٨/١٦٨).

(٨) فى نسخة [يبدل] وهو تصحيف من الناسخ.

نوراً واستبشرت ببكائه وتداعت بعضها بعضا من هذا النور، فيقال: هذا غشيكم من نور البكاء، وقال فرقد السنجي رحمه الله تعالى: قرأت فى بعض الكتب: أن العبد إذا بكى من خشية الله تعالى تحاتت عنه ذنوبه كيوم ولدته أمه ولو أن عبداً جاء بجبال الأرض ذنوباً وآثاماً لوسعته الرحمة إذا بكى، وإذا بكى على الجنة تشفع له الجنة تقول: يارب أدخله علىّ كما بكى علىّ، وإذا بكى خوفاً من النار فالنار تستجير له من ربه تقول: يارب أجره منى وبكى خوفاً من دخولى.

وعن كعب رضى الله عنه قال: «من بكى خوفاً لله تعالى من ذنب غفر له ذلك الذنب، ومن بكى اشتياقاً إلى الله تعالى أباحه الله تعالى النظر إليه متى شاء».

وقال الله تعالى فى بكاء الحزن:

﴿ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ (٩)،

وقال فى بكاء الفرح:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ (١٠)،

وبكى عليه السلام على ابنه إبراهيم، فقيل: «أتبكى يارسول الله؟ قال: إنما هذه رحمة ومن لا يرحم لا يرحم».

وأما حديث جرير رضى الله عنه، فقد خاطب عليه السلام العامة والمياسير وقرأ عليهم: التكاثر والسؤال عن النعيم، وفيه وعيد على أثر وعيد فخوف الوعيد أبكاهم فقال من بكى فله الجنة.

---

(٩) التوبة (٩/٩٢).

(١٠) المائدة (٥/٨٣).

قال الله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ (١١)،

وقوله عليه السلام: فليتباك أى يتمثل لربه فى صورة البكاء حتى يلحقه بهم فى الثواب، وأما بكاء السابقين وبكاؤهم بكاء أهل الخشية، والمشتاقين والمحزونين، وبكاء من أبى الله تعالى وأضحكه وهو إذا نظر إلى جلاله أبكاه، وإذا نظر إلى جماله أضحكه، ومن وراء هذه منزلة أخرى أشرف من هذه وهو بكاء الدنو فتلك غمرات القلب صاحب هذا قلبه منفرد فى وحدانيته فإذا أدناه أبكاه للرقة التى تحل به فإذا رجع إلى مرتبته هابه فقلص دمعه، وانتشفت الهيبة رقته، فيبس فإذا أدنا رق فبكى فالدنو منه بر لعبده فالبر يرقه ويبكيه.

قال هارون بن زياد رحمه الله: إن البكاء مثاقيل لو وزن بالمثقال الواحد مثل الجبال لرجح به البكاء وان الدمعة لتنحدر فتطفىء البحور من النار، وما بكى عبد الله مخلصاً فى ملأ من الملأ إلا غفر لهم جميعاً ببركة بكائه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أن عبداً بكى فى أمة من الأمم لأنجى الله تلك الأمة من النار ببكاء ذلك العبد، وما من عمل إلا له وزن وثواب إلا الدمعة فإنها تطفىء بحوراً من النار، وما اغرورقت عين بمائها من خشية الله إلا وحرم الله جسدها على النار وإن فاضت على خده لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة».

(١١) إبراهيم (١٤/١٤).

[الأصل الثاني والخمسون والمائة في أن الشكر اعتراف والصبر بالتسليم]

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من نعمة وإن تقادم عهدها فيجددها العبد بالحمد إلا جدد الله تعالى له ثواباً وما من مصيبة وإن تقادم عهدها فيجدد لها العبد الاسترجاع إلا جدد الله له ثوابها وأجر والشكر على النعمة بخفف أثقالها والصبر على الشدة يحرز لك ثمرتها»(1)، والشكر معرفتك بان هذا منه فأداء فرائضه وحفظ الجوارح عن مساخطه، والتكلم بالحمد لله إتمام الشكر فإنه اعتراف بان هذه النعمة منه، والصبر على المصيبة والثبات على حفظ الجوارح لئلا نعصى، والتكلم بالاسترجاع اعتراف بالتسليم له. وكما أن الإيمان هو المعرفة لله تعالى بوحدانيته، والطمأنينة به والتسليم له قلباً والتكلم بلا إله إلا الله اعتراف بذلك وبحقيقة العمل به ثم العبد مأمور بتجديد الإيمان بهذه الكلمة.

قال عليه السلام: «جددوا إيمانكم بلا إله إلا الله» فإذا كان إيمانه يتجدد بهذه الكلمة، فكذلك حمده واسترجاعه يتجدد وهذا لأن العبد يتكلم بلا إله إلا الله ثم يدنسها ويكدرها بسوء أفعاله، لأن من شرط المؤمنين في هذه الكلمة أن لا يكون لقلوبهم وله في شيء إلا إلى الله

---

(1) أورده السيوطي في «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (١/١٥٦)، وعزاه للحكيم الترمذي بسنده عن أنس.

أنه لا إله غيره، فإذا نابتهم النوائب (٢)، وظهرت الحوائج، ولهت قلوبهم إلى المخلوقين فقد دنسوا هذه الكلمة وأخلقوها فأمروا بالتجديد والاستقبال بالتكلم بها، وكان من شأن الصديق رضى الله عنه أن يقول: كان كذا ولا إله إلا الله وفعلت كذا، ولا إله إلا الله، وهذا تفسير قول معاذ رضى الله عنه: تعال (٣) نؤمن ساعة، أى نذكرة ذكراً يجمع قلوبنا عنده، ويكون الوله إليه، فكذلك الحمد والاسترجاع يدنسان ويخلقان بضدهما من الأفعال التى تظهر من العبد فيجددان ذلك فيكتب لهما ثوابهما، يومئذ لأنه جددها بالقول، قال عليه السلام: «الحمد لله رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده».

(٢) النوائب: المصائب، جمع نائبة.
(٣) فى نسخة أخرى [تعالوا] وهو تحريف خطير.

[الأصل الثالث والخمسون والمائة فى حقيقة الاستغفار]

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن استطعتم أن تستكثروا من الاستغفار فافعلوا فإنه ليس شىء أنجح عند الله تعالى ولا أحب إليه منه»(١)، والاستغفار سؤال العبد من الله تعالى الستر. والغفر الغطاء. وهذا لأن الله تعالى أجتبى عبده واختاره للإيمان وجعل نوره فى قلبه فهداه لنوره وأحيا به وجعل للنور الأعظم الذى فى قلبه ستراً من نور وقاية ولباساً له وحب ذلك عن أعين الثقلين(٢)، فهذا النور الظاهر هو كسوة النور الباطن.

قال تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ (٣)،

والمؤمن فى بهاء هذا الستر يمشى على أرضه والخليقة ينظرون إليه بعين الجلال، والشرف، فإذا هم بالمعصية وعزم عليها تجافى عنه الستر، فإذا عملها تباعد عنه، وبقى العبد عارياً من البهاء والجلال والشرف فإن

---

(١) ذكره الهندى فى «كنز العمال» (١/٤٧٧)، حيث ذكر الحديث وقال: تفرد به الحكيم، وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٣/١٨٢)، وعزاه للحكيم الترمذى.

(٢) الثقلان: الإنس والجن.

(٣) الأعراف (٧/٢٦). ولباس التقوى ذلك خير، أى أن خير من الثياب؛ لأن الفاجر وإن كان حسن الثوب فإنه بادى العورة، وقيل فى التفسير: إن لباس التقوى هو الحياء. راجع «الدر المنثور» (٣/٧٦)، والطبرى (٨/١١٠).

أصر لم يزدد إلا ضعة ودنساً، ولم يزدد الستر إلا بعداً ونزاهة عنه فإذا ندم رجع إليه بقلبه فدن هناك أى أقام. وإقامة عزمه: أن لا يبرح عن مقام الطاعة، فإذا سأل المغفرة قال: أستغفرك أى أسألك أن ترد على الستر فيصير فى ذلك النور مستوراً وبدو ذلك من آدم عليه السلام كان لباسه ستره وهو النور فلما عصى، انكشف النور وعرى فذلك قوله تعالى:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ (٤)،

قال: جعل على عورة كل واحد منهما نور فلا يرى واحد منهما عورة الآخر، وقد جعل الله تعالى لهذه الجارحة (٥) من الآدمى شأناً عجيباً لأنه أداة الذرية فى صلبه إلى يوم القيامة والصلب باب الذرية. والفرج أداة الشهوة. ولهذا سأل داود سليمان عليهما السلام عن كلمات أن من أخبره بها ورثه العلم والنبوة، فمن جملته قال له: أين باب الشهوة منك؟ قال: الفرج، فقال: أين باب الذرية منك؟. قال: الصلب.

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: «أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه، فقال: هذا أمانة خبأتها عندك فلا تبسل (٦) منها شيئاً إلا بحقها»، وقد خلق الله تعالى آدم ليذرأ مَن مِن صلبه هذا الخلق؛ فجعل مبتدأ خلقه من الموضع الذى يذرؤ منه الخلق، ثم جعل الحياة فى القلب وجعل هذه الأداة ركناً من أركان القلب، ومنه ينشىء الريح بغتة فيقويه ليقدر على استعماله. فبروح الشهوة يقوى ويقدر على الاستعمال، وخبأها عنده وجعلها أمانة لئلا يستعملها إلا فيما خلقت له، ثم خلقت منه حواء وستر عليها ذلك منها فلمن ينكشف الستر عنهما حتى عصيا فعريا.

---

(٤) الأعراف (٧/٢٠).
(٥) وتجمع الجارحة على جوارح.
(٦) تبسل: تنتعى أو تهلك.

قال وهب رضى الله عنه: «الإيمان عريان فلباسه التقوى، وزينته الحياة، وماله الفقه، فالمؤمن بين الخلق فى ذلك اللباس يوقر ويعظم ويبجل ويهاب وليس يرى من تقواه إنما يرى عليه طلاوة اللباس وزهرته ولبق حركاته وتصرفه فى الأمور وعليه مهابة ذلك اللباس».

ومن جبير بن نفير رضى الله عنه قال: «صلى الله عليه وسلم يوماً بالناس صلاة الصبح فلما فرغ أقبل بوجهه على الناس رافعاً صوته حتى كاد يسمع من فى الخدور وهو يقول: يا معشر الذين أسلموا بألسنتهم، ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عثراتهم، فإنه من يتبع عثرة أخيه المسلم يتبع الله عثرته ومن يتبع الله عثرته يفضحه، وهو فى قعر بيته، فقال قائل: يا رسول الله وهل على المؤمن (٧) من ستره، فقال: ستور الله تعالى أكثر من أن تحصى»، إن المؤمن ليعمل بالذنوب فيهتك عنه ستراً ستراً حتى لا يبقى منه شىء فيقول الله تعالى للملائكة: استروا على عبدى من الناس فإن الناس يعيرون ولا يغيرون فتحف به الملائكة بأجنحتها يسترونه من الناس، قال: فإن تاب قبل الله منه ورد عليه ستوره، ومع كل ستر تسعة أستار فإن تتابع فى الذنوب قالت الملائكة: ربنا غلبنا وأقذرنا فيقول الله عز وجل للملائكة: استروا على عبدى من الناس؛ فإن الناس يعيرونه ولا يغيرون، فتحف به الملائكة بأجنحتها يسترونه من الناس فإن تاب قبل الله تعالى منه فإن عاد قالت الملائكة: ربنا إنه قد غلبنا وأقذرنا، فيقول الله تعالى للملائكة: تخلوا عنه، فلو عمل ذنباً فى بيت مظلم فى ليلة مظلمة، فى جحر أبدى الله عنه وعن عورته، وقال سلمان الفارسى (٨)

---

(٧) فى نسخة أخرى [وهل على المؤمنين]

(٨) هو سلمان الفارسى من أكابر الصحابة وقد كان فارسياً شرح الله صدره للإسلام، أصله من مجوس أصبهان عمر طويلاً، وكان يسمى نفسه «سلمان الإسلام» وبلغ حبه أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مدى بعيداً، حتى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال: «سلمان منا أهل البيت» هذه الوليجة والوشيجة الإيمانية كان لها أثراً طيباً لا يخفى على أحد، ولم ينكره أحد. وقد جعل أميراً على المدائن التى توفى فيها سنة ٣٦ هـ، راجع حلية الأولياء (١ / ١٨٥) =

رضى الله عنه: إن المؤمن فى سبعين حجاباً من نور فإذا عمل خطيئة بعد الكبائر ثم تناساها حتى يعمل أخرى يهتك منها حجاب من تلك الحجب، ولا يزال كذلك فإذا عمل كبيرة من الكبائر تهتك عنه تلك الحجب كلها إلا حجاب الحياء، وهو أعظمها حجاباً، فإن تاب تاب الله عليه، ورد تلك الحجب كلها فإن عمل خطيئة بعد الكبائر ثم تناساها حتى يعمل أخرى قبل أن يتوب يهتك عنه حجاب الحياء، فالعبد لايزال فى عيب يحدثه، وستر يزول عنه، والستر الأعظم قائم فإذا أذنب كبيرة عرى فقوله عليه السلام: «ليس شىء عند الله أبجح من الاستغفار لأنه ستر نوره» ولهذا قال عليه السلام لله: «أفرح بتوبة العبد من رجل وجد ضالته فى مفازة (٩) مهلكة عليها طعامه وشرابه».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآنى حزيناً فقال: «ما لى أراك حزيناً يا أبا هريرة، فقلت: كان بينى وبين أهل بيتى شىء فعجلت إليهم، فقال: أين أنت ثكلتك أمك عن الاستغفار. فوالذى بعثنى بالحق إنى لأستغفر فى اليوم والليلة مائتى مرة، فأكثر من الاستغفار فإن فى الأرض أمانين يوشك أن تفقدوا أحدهما عن قريب وهو موت نبيكم» قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(١٠) فإنه يجىء يوم القيامة محدقاً بأعمال الخلائق له زئير حول العرش يقول: الهى حقى حقى فيجيبه الجبار جل جلاله فيقول: خذ حقك فما يترك من سيئات بنى آدم إلا اجتحفها بالجملة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال عليه السلام: «من أدمن الاستغفار جعل الله له من هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب» أشار إلى الإدمان إلى الاستغفار لأن الآدمى لا يخلو من ذنب أو عيب ساعة فساعة.

=الطبقات الكبرى (٥٣/٤) وما بعدها، ومروج الذهب (٣٢٠/١)، وصفة الصفوة (٢١٠/١).

(٩) مفازة: صحراء، لاماء فيها ولا نبات، جمعها مفاوز.

(١٠) الأنفال (٣٣/٨).

ولذلك قال عليه السلام: «خياركم كل مفتن ثواب» فإن أدمن على الاستغفار خرج من العيوب والذنوب، ودخل فى الستر الأعظم وعادت عليه الستور فالإدمان عليه يحط الذنوب. قال الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١٠)،

فإن كان العبد متيقظاً مشرفاً على أموره فكلما أعيب وأذنب اتبعهما استغفاراً لم يبق فى وبالهما وعذابهما، وإذا كانت منه العيوب والذنوب ولها عن الاستغفار تراكمت الذنوب والعيوب، فجاءت الهموم والضيق والعسر، والكد، والنصب فى الدنيا، وفى الآخرة عذاب، وإذا استغفر خرج من العيب، والذنب، فصار له من الهموم فرجاً، ومن الضيق مخرجاً، وأسبغ عليه الرزق وهو قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (١١)،

والتقوى اجتناب العيب والذنب فإذا وقع فيه لا يستقر حتى يتوب.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال عليه السلام: «ما من رجلين مسلمين إلا بينهما ستر فإذا قال أحدهما لصاحبه هجرا (١٢)، هتك ستر الله تعالى».

قوله: «لا شىء أنجح عند الله ولا أحب إليه من الاستغفار» فأقرب الأشياء من الشىء كسوته ووقايته ولعظم قدر الشىء يجعل له وقاية وكسوة وستراً.

وكل شىء له نفاسة وخطر جعل فى ستر فهو محظور عن الجميع مستور، فإذا أذنب العبد تباعد عنه الستر لنفاسته ونزاهته، فإذا ندم

(١٠) الأنفال (٨/٣٣).
(١١) الطلاق (٦٥/٣).
(١٢) الهجر: الهذيان.

فالندم والتوبة بدؤهما من النور الذى فى قلبه هو الذى يندمه ويقتضيه الرجوع إلى الله تعالى ويهديه، لذلك فلما أتى به وسأل الستر فإنما يسأل بالنور الذى فى قلبه فيحبه لحرمة ذلك النور.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (١٣)،

فالتوابون هم الذى رجعوا إلى الله تعالى، وتطهروا بقربه من نجاسة الذنوب ورجاسة العيوب.

قال عليه السلام: «إذا تاب العبد فقبل الله توبته أنسى الحفظة ما كان يعمل وقيل للأرض ولجوارحه اكتمى عليه فلا تظهرى مساويه أبداً».

وهكذا من شأن الخلق إذا أحب أحدهم آخر واستقبله فى طريق وهو سكران التفت يمنة ويسرة هل رآه أحد على تلك الحالة ثم ستره وأدخله منزلاً وأنامه إشفاقاً عليه وكراهة أن يراه على تلك الحالة أحد، وإذا استغفر العبد غفر الله له قال تعالى:

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ (١٤)،

وقال عليه السلام: «إبع من أعطيهن لم يمنع من الله من أربع من أعطى الدعاء لم يمنع الإجابة، قال الله تعالى:

﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (١٥)،

---

(١٣) البقرة (٢/٢٢٢).
(١٤) نوح (٧١/١٠).
(١٥) غافر (٤٠/٦٠).

ومن أعطى الاستغفار لم يمنع المغفرة، قال الله تعالى:

﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ (١٦)،

ومن أعطى الشكر لم يمنع الزيادة، قال الله تعالى:

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (١٧)،

ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول، فإنه قال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (١٨)،

وهذه كلها على الحقائق لا على التجويز، فحقيقة الاستغفار أن يرى العبد عند الذنب خروجه من ستر ربه وتعريه، فيأخذه الحياء كما يستحى إذا سلب عنه ثوبه فى ملأ عظيم فيعرى فى ذلك الملأ فينقبض من الحياء، وحقيقة الشكر أن يرى النعمة منه رؤية القلب خلقه، وتربيته وسياقته وإيصاله إليه فيأخذه من أثقال ذلك من الخجل ما يأخذه ممن أهدى إليه نعماً كثيرة مرات(١٩) ومرات ودفعات، وحقيقة التوبة أن يرى إباقه من مولاه فيرجع إليه بندم واعتذار ووجل، وحياء فيعزم على التوطن عنده بين يديه أشد من عزم من أبق من الآدمى وقد أحسن إليه كل الإحسان ومناه العتق والبر واللطف فلما عاد إليه تأسف على نفسه تلظياً من فعله، وثقل عليه أن يتراءى له من شدة ما يعلوه من الحياء فهو يتستر منه بكل شيء ويتوطن أن لا يفارقه إلى الممات، وحقيقة الدعاء أن يسأله سؤال من أحضر قلبه كما أحضر بدنه بتضرع،

---

(١٦) نوح (٧١/١٠).

(١٧) إبراهيم (١٤/٧).

(١٨) الشورى (٤٢/٢٥).

(١٩) وردت بالأصول (كرات) وهو تحريف خطير من الناسخ.

وسؤال مضطر فقير وجد إذن دخول على ملك عطوف رحيم ؛ فإذا عامل العبد مع الله فى هذه الخصال الأربع على غير ما وصفنا فيشبه ذلك فعل السكران والنائم، وقولها ولا يعبأ[٢٠] عند العقلاء بفعلهما ولا قولها.

فالمخلط سكران والمستقيم، وهو الورع النائم، وإنما يفوز بهذه الخطة العظيمة المتنبهون عن الله تعالى. مزق شعل أنوار الله حجب قلوبهم ثم أحرقها فانحسر القلب لأمر عظيم فصارت هذه الأربع كلها عطاياه فأعطى الاستغفار والتوبة والشكر والدعاء، فأما من دون هؤلاء أمروا أن يتطهروا من الأوساخ والإدران التى على قلوبهم، حتى يعطوا النور فتكون هذه الأربع لهم عطاء على الحقيقة فيجابوا إلى ما وعدوا لأن الله تعالى لم يعد إلا على الحقيقة، والحقيقة هى بلوغ الصفة التى رسم الله تعالى لعباده فيما بينهم، فمن دعا حقاً، واستغفر حقاً، وشكر حقاً، وتاب حقاً، يجاب، قال عليه السلام: «إذا فتح الله على عبد الدعاء فليدع فإن الله يستجيب له».

وقال أبو حازم رحمه الله لانأمن أن أمنع الدعاء أخوف منى من أن أمنع الإجابة، فالدعاء هو العدو إلى الله تعالى بالقلب؛ فإذا كان القلب فى حبس النفس لايستطيع العدو إليه، والتوبة الرجوع إلى الله تعالى بالقلب، فإذا كان القلب فى حبس النفس لم يقدر، والاستغفار سؤال الغطاء من الذنب للعرى، فإذا كان النفس حجاب القلب لا يقدر أن يرى عريه حتى يسبل الستر، والشكر رؤية النعمة، فإذا كان النفس حجاب القلب لا يقدر أن يرى نعمه، فإذا أتى بهذه الأشياء فلم يأت به على الحقيقة فأما إذا أعطى النور وعدا القلب إليه عند الحاجة فسأل

(٢٠) لا يعبأ بكذا: لا يكترث.

أجيب وأسعف به وإذا أعطى النور فرأى الاباق منه رجع إليه مع النور فتاب قبل منه، وإذا رأى العرى فسأل الستر أعطى المغفرة، وإذا رأى النعمة فشكر قبل منه فأعطى الزيادة لأن الله تعالى يستأدى من الخلق الحقائق دون المجاز.

[الأصل الرابع والخمسون والمائة في أن الغنى في النفس والتقى في القلب]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه» (١)، الحاجة في النفس لأنها معدن الشهوات وشهواتها لا تنقطع فهي أبدا فقيرة لتراكم الشهوات عليها، واقتضائها وخوف فوتها قد برح بها، وضيق عليها فهي مغبونة وخلصت فتنتها إلى القلب فصار مفتوناً فأصمته عن الله تعالى، وأعمته فإذا أراد الله بعبد خيراً قذف في قلبه النور فامتزق الحجاب وانحسر النور الأصلي، وأشرق هذا النور الوارد في القلب والصدر فذاك تقواه به يتقي مساخط الله تعالى، وبه يحفظ حدوده، وبه يؤدي فرائضه، وبه يخشى الله تعالى ويصير ذلك النور وقايته يوم الجواز على الصراط فيه يتقي النار حتى يجوزها إلى دار الله تعالى فهذا تقواه في قلبه، وأما غناه في نفسه فإنه إذا أشرق الصدر بذلك النور تأدى إلى النفس فأضاء ووجدت النفس لها حلاوة وروحاً ولذة تلهيه عن لذات الدنيا وشهواتها وتذهب مخاوفها وعجلتها وحرقتها، وبلاهتها تحيى بحياة القلب وتستضيء بنور القلب فتطمئن لأن القلب

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه - كتاب العلم - باب فيمن لا يشبع من العلم ويجمع العلم ص ٥٠. وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (١/١٧)، وعزاه للحكيم الترمذي في النوادر، والديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة ورمز له بالضعف، وأورده السيوطي كذلك في «الدر المنثور» (٦/٩٩)، وعزاه للحكيم عن أبي هريرة.

صار غنياً بانتباهه عن الله تعالى، والنفس جاره وشريكه ففى غنى الجار غـنـى، وفـى غـنى الشريك غنى، والتقوى فى القلب وهو النور، والغنى فى النفس، وهو الطمأنينة.

[الأصل الخامس والخمسون والمائة فى تفسير قوله تعالى قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى]

عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾

على ألبر والتقوى والتواضع وذلة النفس (١)

البر: ما افترض الله تعالى على العبد. والتقوى: الكف عما نهى الله تعالى عنه. والتواضع: أن يضع مشيئته فى أموره لمشيئة مولاه، وذلة النفس: ترك المنى فى عطاياه فى الدرجات، وفى إقامة هذه الأربع صفو العبودة، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «قدم وفد اليمن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أبيت اللعن فقال عليه السلام: سبحان الله أمما يقال هذا للملك، ولست ملكاً أنا محمد بن عبد الله، قالوا: إنا لا ندعوك باسمك، قال: فأنا أبو القاسم، قالوا: يا أبا القاسم إنا قد خبأنا لك خبيئاً، فقال: سبحان الله إنما يفعل هذا بالكاهن، والكاهن والمتكهن والكهانة فى النار، فقال له أحدهم: فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ قال: فضرب بيده إلى حفنة حصباء (٢) فأخذها فقال: هذا يشهد أنى رسول الله، قال: فسبحن فى يده وقلن نشهد

---

(١) آل عمران (٣١/٣). والحديث ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (١٧/٢)، وأبو نعيم فى الحلية (٢٣١/٧)، والقرطبى فى التفسير (١٣٣/٢).

(٢) حصباء: هى الحصى، والحاصب: الريح الشديدة تثير الحصباء.

أنك رسول الله، فقالوا: أسمعنا بعض ما أنزل عليك فقرأ: والصافات صفاً، حتى انتهى إلى قوله تعالى:

﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (٣)

وإنه لساكن ما ينبض منه عرق وأن دموعه لتسبقه إلى لحيته، قالوا له: إنا نراك تبكى أمن خوف الذى بعثك تبكى؟ قال: من خوف الذى بعثنى أبكى إنه بعثنى على طريق مثل حد السيف إن رغبت عنه هلكت ثم قرأ:

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ (٤)،

إنما صار فى مثل حد السيف لأن طريق الأعمال على النفس ومبتدأه من القلب وطريقها على النفس فإذا مرت فلم يلتفت إلى النفس فقد صفا العمل وصفت العبودة فهذه منزلتان إحداهما أشرف من الأخرى؛ فالأولى: أن يبتدئ العمل من القلب فيخرج إلى الأركان، ونفسه حية تحب أن تشركه فى ذلك، والثانية: أن تموت النفس ويقوم القلب فى مقام الهيبة فيخرج العمل إلى الأركان فلا يلتفت إلى النفس، ولا بالنفس حراك فتشخص إليه طرفا فهذا صفو العبودة يعمل ما يؤمر، ولا يتكلف من تلقاء نفسه ولا يدبر لنفسه بل فوض ذلك إلى مولاه لأن من شأن المحب أن لا تكون له نهمة دون لقاء الحبيب، فإذا لم يهتد إليه، ووجد دليلاً يؤديه إليه أن يعفو أثر الدليل حتى يؤديه إليه، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ (٥)،

(٣) الصافات (١٠/٣٧). أتبعه: لحقه، الشهاب الثاقب: الكوكب المضيء. من القرطبى (٦٧/١٥، ٦٨)، وجامع البيان (٢٧/٢٣).
(٤) الإسراء (٨٦/١٧).
(٥) هود (١١٢/١١).

فالإستقامة فى السير أن لا يلتفت يميناً وشمالاً ولا يعرج على شىء فيشتغل به دونه ».

واجتمع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفاضوا فى الذكر فرقوا فطربت نفوسهم، وقالوا: لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله تعالى فنعمله، فجاءت المحبة من الله تعالى فأنزل الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (٧)

ليظهر صدق ما نطقوا به فخرجوا إلى القتال (٨)، فلم يكن من بعضهم الذى قالوا، فأنزل الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٩)

ثم قالوا: إنا لنحب ربنا فامتحنوا فأنزل الله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (١٠)،

فإن من شأن الكريم أن يحب من أحبه ولم ينل حبه أحد إلا من بعد حبه له كما قال الله تعالى:

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (١١)

والاتباع فى سيرته علامة المحقين وسيرته العبودة فى هذه الخصال الأربع على ما ذكرنا.

---

(٧) الصف (٦١/٤). معنى الآية أنهم يثبتون فى القتال ولا يبرحون؛ فكأنهم بنيان مستقيم قوى قد رُصَّ رصاً، وقد ذهب الفراء ومنذر بن سعيد إلى أن المراد بذلك مرصوص بالرصاص، وقد ذكر هذا الرأى الطبرى (٢٨/٥٦)، وأبو حيان (٨/٢٦٠).

(٨) العيال [فى نسخة أخرى] وهو تصحيف من الناسخ.

(٩) الصف (٦١/٢).

(١٠) آل عمران (٣/٣١).

(١١) المائدة (٥/٥٤).

[الأصل السادس والخمسون والمائة فى سر الحياء والتقى والصبر بالتمثيل]

عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحياء زينة والتقى كرم وخير المراكب الصبر وانتظار الفرج من الله تعالى عبادة» (¹)، الحياء من فعل الروح، والروح سماوى وعمل أهل السماء يشبه بعضه بعضاً فى العبودة، والنفس أرضى شهوانى ميال إلى شهوة عقيب شهوة، ومنية على إثر منية لا تهدؤ ولا تستقر، فأعمالها مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً مرة عبودة، ومرة ربوبة، ومرة استسلام، ومرة تملك، ومرة عجز، ومرة اقتدار، فإذا ريضت النفس، وذللت وأدبت انقادت، وكان السلطان والغلبة للروح جاء الحياء، والحياء خجل الروح عن كل أمر لا يصلح فى السماء فهو يكاع، ويزين الجوارح والأمور وهو زينة العبد فنه العفة، والوقار والحلم، وقوله والتقى كرم، فالكرم ما انقاد، وذل، ولذلك سمى شجرة العنب: كرماً لأنها حيث ما مددتها امتدت وذلت لك، قال عليه السلام: «لا تقولوا للعنب كرماً إنما الكرم قلب المؤمن» (²)، فإذا ولج(³) النور القلب رطب ولان،

---

(١) أورده السيوطى فى «الجامع الصغير» (١٥٣/١)، وكذلك أورده السيوطى فى «الدر المنثور» (٩٩/٦)، وأشار إلى تفرد الحكيم به عن جابر، وذكره العجلونى فى «كشف الخفاء» (٢٣٩/١)، وقال: رواه الترمذى وابن أبى الدنيا فى الفرج.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه عن وائل، وصححه السيوطى فى الجامع الصغير (٢٠٢/٢).

(٣) ولج: دخل.

وبرطوبته ولينه ترطب النفس، وتلين، وتذهب كزازتها (٤)، وييبسها وطفئت حرارة الشهوات بالنور الوارد على القلب لأنه من الرحمة، والرحمة باردة فانقاد القلب فأتى وقوله وخير المراكب الصبر: فالصبر ثبات العبد بين يدى ربه فى مقامه لأموره وأحكامه خف أو ثقل أحب أو كره، يسر أو عسر، فهو خير مركب ركب به إلى الله تعالى، وهو مركب الوفاء بالعهد، فإن الله تعالى خلق الدنيا ممراً لعبيده إلى دار السلام، فالقوم المختارون يأخذون الزاد ويمرون، ومن الوفاء أن لا يلتفت إلى شيء سوى الزاد.

قال الله تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٥)،

أى فارهبوا من نفوسكم إلىّ والهرب والرهب بمعنى واحد، وقوله: انتظار الفرج من الله عبادة لأن فى انتظار الفرج قطع العلائق والأسباب إلى الله تعالى، وتعلق القلب به وشخوص الأمل إليه والتبرى من الحول والقوة فهذا خالص الإيمان.

---

(٤) الكزازة: اليبس والانقباض.

(٥) البقرة (٢/٤٠)، وأفوا بعهدى أى أوفوا لى بما قبلتموه من أمرى ونهيى فى قولى لكم أفعل كذا، ولا تفعل كذا، (أوف بعهدكم) أى أوف لكم بما وعدتكم عليه من الجزاء. راجع تفسير الطبرى بنحو ذلك (١/٥٥٧).

[الأصل السابع والخمسون والمائة فى فضل ماء زمزم]

عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «زمزم لما شربت له» (١)، فزمزم سقيا الله وغياثه لولد خليله إسماعيل عليهما السلام، فبقى غياثاً لمن بعده فى كل نائبة (٢) إن شربت لمرض شفيت، وإن شربت لغم فرج عنك، وإن شربت لحاجة استغنت (٣)، وإن شربت لنائبة صلحت، لأن أصله من الرحمة بدا غياثاً فلأى شىء شربه المؤمن؛ وجد غوث ذلك الأمر.

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب المناسك- باب الشرب من زمزم (٢/١٠١٨) وعقب عليه بقوله: قال السيوطى هذا الحديث مشهور على الألسنة كثيراً. واختلف الحفاظ فيه فمنهم من صححه ومنهم من حسنه ومنهم من ضعفه والمعتمد الأول. وأخرجه أحمد فى «المسند» من حديث جابر (٣/٣٥٧). أخرجه البيقهى فى السنن -كتاب الحج- باب سقاية الحاج والشرب منها ومن ماء زمزم (٥/١٤٨).

(٢) نائبة: نازلة، وفى نسخة أخرى [عن كل نائبة] وهو تحريف.

(٣) فى نسخة أخرى [استغيث] وهو تصحيف.

[الأصل الثامن والخمسون والمائة في أن عمل الأنبياء والأولياء في الدارين خدمة وعبودة]

عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل البيت كأحدكم يخيط ثوبه، ويعمل كأحدكم»(١)، هكذا شأن الأنبياء والأولياء عليهم السلام لأنهم عبيد الله تعالى، على العبودة وقفوا بين يديه، ورأوا أن هذه الأعمال التى للدنيا والآخرة كلها تدبير الله تعالى فى أرضه وأنها كلها معلقة بعضها ببعض، وأنها لله تعالى فما استقبلهم من أمر لم يؤثروا عليه شيئاً ولا اختاروا من تلقاء أنفسهم أمراً فلزموه، ورفضوا لما سواه لأنهم يحبون أن يكونوا كالعبيد ما وضع بين أيديهم، عملوه عبودة حتى يلقوا الله تعالى بها فيضع عنهم رق العبودة، ويرضى عنهم هذا بغيتهم، وأما الآخرون اختاروا من الأعمال، وآثروا هذا على ذلك، وذاك على هذا طلباً للأفضل؛ لينالوا من نعيم الجنان، ورفضوا كثيراً من الأعمال ضيعوا به حقوقاً، واعتبر هذا بحديث جريج الراهب حين نادته أمه وهو فى الصلاة يا جريج أرنى وجهك من الصومعة فقال: صلاتاه فأثرها على أمه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو كان جريج الراهب فقيهاً عالماً لعلم أن إجابة أمه من عبادة ربه».

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند من حديث عائشة رضى الله عنها (٦/١٢١) وأخرجه البيقهى فى دلائل النبوة (١/٢٤٤)، وذكره الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (٧/١٤٢)، ورجاله رجال الصحيح.

فمن فقه عن الله تعالى أمره ورأى تدبيره لم يجد بداً من رفض الاختيار فلا يؤثر أمراً على أمر ولا حالاً على حال.

وكان عليه السلام لما بعث أصحابه إلى تبوك أمر عليهم زيد بن حارثة، وقال: «إن قتل زيد فجعفر أمير عليكم، فقال جعفر رضى الله عنه يا رسول الله أتؤمر علينا زيداً، قال: إنك لا تدرى فى أى ذلك خير».

وروى أن موسى عليه السلام قال: «يا رب أى عبادك أكبر ذنباً، قال: الذى يتهمنى، قال: ومن يتهمك يا رب؟ قال: الذى يستخيرنى فإذا خرت له لم يرضى بذلك».

فمن جعل أمور الآخرة وأمور الدنيا كلها لله تعالى، وأراد بذلك إقامة العبودة فقد سقطت عنه مؤنة الاختيار، ولا تملكه الأحوال ولا الأعمال.

[الأصل التاسع والخمسون والمائة في المقة (1) والصيت وعلامة أهلها]

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المقة من الله في الأرض، والصيت في السماء، فإذا أحب الله تعالى عبداً نادى جبريل في السماء إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبوه فتنزل المقة في الأرض» (2)، أراد بالصيت اضطراب الصوت والنداء، وقوله تعالى:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ (3)،

قال ملاحة وحلاوة.

وقوله تعالى:

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (4)،

(1) المقة: المحبة، يقال ومق فلاناً: إذا أحبه.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الأدب ـ باب المقة من الله تعالى (١٠/٤٦١)، وأخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب البر والصلة ـ باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده (٤/٢٥٤٠)، وأخرجه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة (٥/٢٥٩). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء في المحبة والبغضة والثناء الحسن وغيره (١٠/٢٧١)، عن أبي أمامة وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله وثقوا.

(3) طه (٢٠/٣٩).

(4) مريم (١٩/١٣). وحناناً: أي رحمة، ومن ذلك قيل تحنن عليه، وأصله من حنين الناقة على ولدها. راجع غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٣.

قال معبد الجهنى (٥) رضى الله عنه : الحنان المحب . وقال على كرم الله وجهه : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى :

﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (٦)،

ما هو يا رسول الله، قال: «المحبة يا على فى صدور المؤمنين، والملائكة المقربين، ياعلى إن الله تعالى أعطى المؤمن ثلاثاً: المقة والمحبة، والملاحة، والمهابة فى صدور الصالحين فمن اصطنعه لنفسه قبل نفسه فوجد له حلاوة، وملاحة، ومن دعاه فأجابه وصدقه فى الإجابة قربه فقبل قلبه فوجد له فى القلوب وده، وهو المحبة قال الله تعالى:

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ (٧)،

فكان لايراه أحد إلا أحبه حتى فرعون الذى كان يذبح أولاد بنى إسرائيل من أجله كان يرشفه فى حجره، فمن كان من بعده على مثل سبيله، وطريقه إليه فله الحلاوة، والملاحة ومن سار إليه حتى وصل فنال القربة فله الود فى القلوب، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل عبد صيت فإن كان صالحاً، وضع فى السماء، وإن كان سيئاً وضع فى الأرض».

---

(٥) هو معبد الجهنى البصرى، أول من قال بالقدر فى البصرة، وقد تلقى الحديث عن أكابر الصحابة، وقد ذاع مذهبه فى القدر وانتشر وقد خرج على الحجاج بن يوسف البصرى فقتله صبراً، بعد تعذيبه، قيل إن عبد الملك بن مروان شنقه وصلبه بدمشق لقوله فى القدر سنة ٨٠هـ. راجع البداية والنهاية (٩/ ٣٤)، وميزان الاعتدال (٣/ ١٨٣) وتهذيب التهذيب (١٠/ ٢٣٥).

(٦) مريم (١٩/ ٩٦).

(٧) طه (٢٠/ ٤١).

[الأصل المائة والستون فى الاستعاذة من النفاق وثمراته]

عن أم معبد رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم طهر قلبى من النفاق، وعملى من الرياء، ولسانى من الكذب، وعينى من الخيانة فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور» (١)، وعن حنظلة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما جاءنى جبريل إلا أمرنى بهاتين قال: تقول: اللهم أرزقنى طيباً واستعملنى صالحاً» والنفاق ما كان ذا لونين يقين وشك وإخلاص ورياء وغير ذلك، وإنما سمى نفاقاً لأنه يدخل عليه الأمر من بابين من باب الله تعالى فيقبل عنه من طريق الإيمان، ومن باب النفس، فيقبل عنها من طريق الشهوة، وكذلك نافقاه اليربوع يدخل من هذا الباب، ويخرج من الباب الآخر، وكذلك النفقة تأخذ باليد وتنفق بالأخرى، فسأل عليه السلام ربه عز وجل أن يطهر قلبه من آفات النفس فأجملها فقال: طهر قلبى من النفاق، وعملى من الرياء.

روى أبو سعيد الخدرى، رضى الله عنه قال: «كنا نوب رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرقه أمر أو يأمر بشىء قال: فكثر أهل النوب والمحتسبون ليلة حتى كنا نتحدث، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذه النجوى ألم تنهوا عن النجوى فقلنا تبنا إلى

(١) أشار إليه السيوطى فى «الجامع الصغير» (١/٦٠) وقال: أخرجه الحكيم والخطيب البغدادى عن أم معبد الخزاعية ورمز له بالضعف. وأخرجه الخطيب البغدادى فى «تاريخ بغداد» (٥/٢٦٨) عن أم معبد الخزاعية.

الله يا رسول الله إنا كنا في ذكر المسيح نتخوف منه فقال: ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح قال: بلى يا رسول الله، قال: الشرك الخفى رجل يعمل لمكان رجل»، وقوله عليه السلام: «ولسانى من الكذب» فإن اللسان يعبر به عن مكنون القلب، وإذا قال بلسانه ما لم يكن كذبه الله تعالى، وكذبه إيمانه لأنه إذا قال لشىء لم يكن إنه قد كان فقد زعم ان الله تعالى خلقه وإذا أخبر أنه قد كان، ولم يكن الله تعالى، كونه فقد افترى على الله تعالى.

ولذلك قال أبو بكر رضى الله عنه: «الكذب مجانب للإيمان» فإيمانه فى قلبه يكذبه فسأل أن يطهر لسانه من ذلك، وقوله عليه السلام: «وعينى من الخيانة» فخيانة العين المسارقة، كأنه يريد أن يسرق ممن لا يسرق منه، ويستخفى ممن لا تخفى عليه لمحة فإنه لا ينظر، ولكنه يلحظ سرقة واختلاساً لمكان المخلوقين، وقد غفل قلبه عن أن يراه أبصر الناظرين.

قال الله تعالى:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ (٢)

وقوله فى الحديث الآخر: «أرزقنى طيباً، واستعملنى صالحاً» سأله عيش أهل الجنان(٣)، رزقهم طيب وأفعالهم صالحة كلها ليس فيها فساد فإن العباد على ضربين منهم من وضع يديه فقيل له: اعمل هذا، ودع هذا، واقبل على هذا وجانب هذا. بين له الشريعة ثم قيل له سر فيها

---

(٢) غافر (٤٠/١٩).

قال قتادة: خائنة الأعين: هى همزة بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله. راجع قوله فى الطبرى (٢٤/٣٦)، والقرطبى (١٥/٣٠٣)، ولسان العرب لابن منظور (١٦/٣٠٣).

(٣) أهل الجنان: أهل الجنة.

مستقيماً وخذ الحق واجتنب الباطل وكثيراً مايقع فى التخليط، والأغاليط ويشوبه ماليس منه، ومنهم من جازوا هذه الخطة، وعافو المنتهى، ونسوه طهرت قلوبهم، وأركانهم، فاستعملهم ربهم فى الشريعة لمحابه، وبما قد علم أن صلاحهم فى ذلك فسأل عليه السلام الاستعمال صالحاً.

[الأصل الحادى والستون والمائة فى دعائه صلى الله عليه وسلم للأمة عشية عرفة وغداة المزدلفة]

عن عباس بن مرداس رضى الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لأمته عشية عرفة بالمغفرة والرحمة فأكثر الدعاء فأجابه أنى فعلت إلا ظلم بعضهم بعضا فأما ذنوبهم فيما بينى وبينهم فقد غفرتها قال: يا رب إنك قادر أن تثيب[1] هذا المظلوم خيراً من مظلمته، وتغفر لهذا الظالم فلم يجبه تلك العشية فلما كان الغداة غداة المزدلفة اجتهد فى الدعاء فأجابه إنى قد غفرت لهم فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقيل تبسمت فى ساعة لم تكن تتبسم فيها فقال: تبسمت من عدو الله إبليس، انه لما علم أن الله قد استجاب لى فى أمتى أهوى يدعو بالويل، والثبور[2] ويحثى على رأسه ويفر».

قد نالتهم المغفرة عشية عرفة، وستروا من الذنوب والحق تعالى يناشدهم ويقتضى تبعات الخلق ولا مرد له ولا معارض، فلو تركهم والحق سبحانه وتعالى لأخرجهم من الستر حتى يعودوا إلى الحالة الأولى

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه ـ كتاب المناسك ـ باب الدعاء بعرفة (٢/١٠٠٢). وأخرجه أحمد فى المسند (١٤/٤)، وأخرجه البيقهى فى «السنن الكبرى» ـ كتاب الحج ـ باب ما جا فى فضل عرفة (١١٨/٥). وأورده الزبيدى فى «أتحاف السادة المتقين» (٣٩٤/٤). وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» ـ كتاب الحج ـ باب فضيلة الوقوف بعرفة والمزدلفة (٢٥٦/٣). وقال: رواه الطبرانى فى الكبير وفيه راو لم يسم وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) الثبور: الهلاك.

عـراة فـعـطـف الله تـعالى عليهم، ولم يخيب أضيافه وزائريه والمنيخين (٣) بـفـنـائـه يـسـتـعـطـفونه ويسألونه سؤال المساكين فيضمن الحق جل جلاله ضـمـان الـكـريم الـوفـى، وخـلا عنـهـم فـصـاروا إلى تطواف بيته المحرم، لائـذين (٤) به بعد أن أرضوا الحق تعالى، وتطهروا من الأدناس فحباهم وخلع على قلوبهم من النور وتلك عرائس الضيافة.

---

(٣) المنيخين: من أناخ أى أبرك فبرك.
(٤) لائذين: من لوذ ولاذ يلوذ أى لجأ.

[الأصل الثاني والستون والمائة في صفة الأولياء وحقيقة الولاية والتحذير من إهانتهم]

عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى أنه قال: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وإني لأسرع شيء إلى نصرة أوليائي؛ لأني لأغضب لهم كما يغضب الليث الحرب، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض روح المؤمن؛ يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه وما تعبد لي عبدي المؤمن بمثل الزهد في الدنيا، ولا تقرب إليّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً، وبصراً، ويداً، ومؤيداً، إن سألني أعطيته، وإن دعاني استجبت له، وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة لو أعطيته إياه لدخله العجب، فأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو افقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا السقم، ولو صححته لأفسده ذلك، إني أدبر عبادي بعلمني بقلوبهم إني عليم خبير» (١)، وفي رواية عائشة

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/٢٦٤)، وأورده أبو القاسم المقدسي في «المقاصد السنية» ص١٤٠، وأحمد في مسنده (٦/٢٥٦)، كما أورده الهندي في «كنز العمال» (١/٣٩٠)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢٦٩).

رضى الله عنها: «فإذا أحببته كنت بصره الذى به يبصر، ولسانه الذى به ينطق، وأذنه الذى بها يسمع، وفؤاده الذى به يعقل، ويده الذى بها يبطش، ورجله الذى بها يمشى».

قوله: من أهان لى ولياً» فالولى من ولى الله هدايته، ونصره وأخذه من نفسه ورفعه بمحل على جاهد فصدق الله فى جهده حتى إذا استفرغ (٢) وسعه فى ذلك ألقى نفسه. بين يديه ضرعاً مستكيناً مستغيثاً به صارخاً (٣) إليه مضطراً، وقال تعالى:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ (٤)،

فأجابه الله تعالى ورحمه، وأخذه من نفسه بنور فتح لقلبه من الغيب فاشتعل ناراً أحرقت شهوات نفسه، وأشرق الصدر بنوره فكشف السوء، وجعله من خلفائه اماماً من أئمة الهدى، وجعله ربيعاً يشم أزهاره، وخريفاً يجتنى أثماره، وولى إقامته على طريقته حتى رتب له ما عنده، وهو قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥)

وقال عليه السلام: «المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله تعالى، وذلك أفضل الجهاد»، فمن أهان هذا الولى فقد خرج إلى مبارزة الله تعالى؛ يريد أن يسلبه ما أخذ ويأخذ منه ما قد رفع فيضعه، وقوله: وإنى لأسرع شىء إلى نصرة أوليائى فإن من تدبير الله تعالى أن الحق عز

(٢) استفرغ وسعه: بذل قصارى جهده.
(٣) الصارخ: المستغيث، وهو أيضاً المغيث.
(٤) النمل (٢٧/٦٢).
(٥) العنكبوت (٢٩/٦٩).

وجل والرحمة مقتضيان فى شأن الخلق فالحق تعالى يقتضى عبودته فمن لم يقبلها فهو ذرأ(٦) النار.

قال تعالى:

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (٧)،

ومن قبلها فوفى بها فلا حساب، ولا عذاب، ويدخل الجنة بسلام ومن قبلها فوفى ببعض وضيع بعضاً اقتضى الحق تعالى ذلك، والنار منتقمة تأخذ من جسده وتدع كما وفى ببعض وترك بعضاً فإذا قال: جاءت المشيئة جاءت الرحمة فأخذته من الحق تعالى، فأنقذته من العذاب فإن الحق تعالى يقتضى الغضب والنار، وتجيء الرحمة لمن سبقت له رحمته غضبه فأخذته من الحق، قال تعالى:

«سبقت رحمتى غضبى». (٨)

وهذا لعامة الموحدين فأما الأولياء فإنما نالوا الولاية بالرحمة العظمى، فمن نازعه أو آذاه أو ظلمه، فالرحمة خصمه، والحق عز وجل خصم الجميع. فقد اجتمع الحق والرحمة فى طلب ثأره من ظالمه؛ فلذلك كان أسرع شيء إلى نصرة أوليائه عليهم السلام، والرحمة من المشيئة والحق من القدرة.

ومما يؤيد ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل الله فيقوم أبوبكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، فيقال

---

(٦) ذرأ: خلق.

(٧) هود (١١/١١٩).

(٨) لأن رحمته سبحانه وتعالى وسعت كل شيء، لكنها مكتوبة للمتقين.

لأبي بكر رضى الله عنه : قم على باب الجنة فأدخل فيها من شئت برحمة الله تعالى ، ورد منها من شئت بقدرة الله تعالى . ويقال لعمر رضى الله عنه : قم عند الميزان فثقل ميزان من شئت برحمة الله ، وأخف ميزان من شئت بقدرة الله . ويقال لعثمان رضى الله عنه : خذ هذه العصا فذد (٩) بها الناس عن الحوض ، ويقال لعلى رضى الله عنه : ألبس هذه الحلة فإنى قد خبأتها لك منذ خلقت السموات والأرض إلى اليوم » .

فقد بين عليه السلام منازل القوم أنهم أهل الله عز وجل ، وخاصته وأنه ينكشف ذلك لأهل الموقف . غدا يظهره عليهم عند خلقه وقد صاروا أمناء الله تعالى ، ووقفت قلوبهم بين يديه رافضين لمشيئتهم ولذلك سماهم أهل الله والأهل ، والآل بمعنى يؤلون إليه فى كل شيء فيبرز لأهل الموقف مقاومهم بقلوبهم وضمائرهم التى كانت فيما بينهم وبين الله تعالى كرامة لهم ، وتنويهاً بأسمائهم فى ذلك الجمع ، فكان الغالب على أبى بكر رضى الله عنه الرحمة فى أيام الحياة . والغالب على عمر رضى الله عنه القيام بالحق وتعزيزه، وكأنهما كانا ممن هو فى قبضته يستعمله ، فاستعمل هذا بالرحمة ، وهذا بالحق ، فهذا وقف عند باب الجنة يطلب أهل الموقف بالرحمة ليوردهم الجنة ، وذا يقف عند الميزان ، ويطالب أهل الموقف بالعدل ، وهو قوله عليه السلام : « بى يسمع وبى يبصر وبى ينطق » ، ومنه قول عمر رضى الله عنه « حيث أتاه رجل ، والدم يسيل على وجهه من الشجة ، فقال : ويحك من فعل بك ؟ قال : على ، فقال على رضى الله عنه : رأيته مقاوماً (١٠) امرأة فأصغيت إليها فساءنى ما سمعت ، فشججته ، فقال عمر رضى الله عنه : أصابتك عين من عيون الله تعالى ، وان لله تعالى فى الأرض عيوناً فهذا قوله عليه السلام : بى يسمع وبى يبصر وبى يبطش . وأما عثمان رضى الله عنه فكان الغالب

(٩) يذود بالعصا عن الحوض : يمنع عنه السقاة ويطردهم .
(١٠) فى نسخة أخرى [رأيته مفاوضاً] وهو تحريف خطير من الناسخ .

عليه إغاثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نوأيبه بالمال فحكمه فى شأن الحوض ليذود من لم يستحق من الحوض شراباً فإن الحوض غياث الخلق يومئذ ، وأما على كرم الله وجهه ، فالغالب عليه النفاذ فى علم التوحيد ، وبه كان يبرز على عامة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنهم ، ويدل على ذلك خطبة فإنه بالغ فى التوحيد ، والثناء على ربه تعالى ، وبرز على غيرلاه ، والحلة التى خبأها له هى حلة التوحيد فهذا قسم الله تعالى لهم وحظوظهم منه فيظهرها الله تعالى يوم القيامة على أحوالهم ، قال عليه السلام : «أرحم أمتى بأمتى أبوبكر، وأقواهم فى دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان» .

وقوله : ما ترددت فى شىء ترددى عن قبض روح عبدى» فإن الموت خلق فظيع منكر لا بد للأحباب أن يذوقوه ، وأمر ثقيل مر لا يخلو من أن يكرهوه ، وقد علم الله تعالى أنه يشتد عليهم ، ويتأذون به فتردد فى فعله لكراهة مساءتهم وقد قضى الله تعالى على نفسه حتماً أنه يفعله ، فمشيئته لموتهم تردد بين الحق والرحمة . فالحق تعالى ينفذ الموت ، والرحمة تدفعه والمشئة مترددة بينهما مرة إلى الرحمة ، ومرة إلى الحق ، فمن كان أيام الحياة اهتش إلى ذكر الله شوقاً إليه ؛ فغليان الشوق فى قلبه مراجل ، وهذا الشوق فى القلب بالرحمة فتلك الرحمة تتحرك له عند كل نائبة وأعظم نوائبه الموت ، يريد خلاصه ، والحق من ناحيته يقتضيه أن ينقذ الموت عليه ، والمشيئة من الله تعالى مترددة فيما بينهما مرة إلى هذا . ومرة إلى ذلك ، ولا بد من الموت فأما غير هؤلاء فليس لهم هذا الحال فإذا جاءت المشيئة مع الحق نفذ أمره ، قال تعالى :

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (١١)

---

(١١) ق (١٩/٥٠).

فالحائد من الموت أيام الحياة يأخذه الحق بتنفيذ الموت، وليس للرحمة حركة فى الدفع عنه لأن المشيئة لم تتردد بينها فنفذ وقوله: «إنى لأغضب لهم كما يغضب الليث الحرب» فالليث كريم لا يؤذى حتى يجترأ عليه، فإذا اجترئ عليه اصطفاه فكسر ودمر على من ظفر به، فمن آذى ولى الله تعالى؛ فإنما يجترئ على الله تعالى، يريد أن يحاربه فيأخذ منه ما اصطفاه لنفسه فيفسد شأنه، ويهدم تربيته وبنيانه، فإن الولى إذا بلغ غاية الصدق فى السير إلى الله تعالى ومجاهدة النفس، وفطم نفسه عن سيىء الأخلاق، وقد انقطعت حيلته، وبقى بين يديه ينتظر رحمته انتخبه الله تعالى للولاية، ووكل الحق به يهديه، ويطهره ويسير به إليه، وترد إليه الأنوار من قربه وتطهر نفسه، وتميت من الأخلاق الرديئة فذاك تربية الله تعالى له فإذا تم البنيان والتربية كشف الغطاء، وأشرق على صدره نوره، وجعل لقلبه إليه طريقاً لا يحجبه عنه شىء فهو ولى الله يتولاه فى أموره، وهو يكلؤه ويستعمله، فمن يتعرض له ويظلمه فقد اجترأ على الله تعالى يريد أن يهدم بنيانه ويفسد تربيته فغضب الله له.

وهذا مثل قوله عليه السلام: «إياك ونار المؤمن لا تحرقك وإن عثر كل يوم سبع مرات فإن يمينه بيد الله تعالى إذا شاء أن ينعشه نعشه» وأراد بالمؤمن ههنا المؤمن البالغ، وهو الولى لله تعالى، الذى احتظى من النور والقربة، وقد تولاه الله تعالى، فإذا تعرضت له بمكروه فنار نوره تحرقك، فأما العامة من المؤمنين معه نور التوحيد ولا حظ له من نوره فليس له نار تحرق، ولهذا حذرك عليه السلام أن يشتبه عليك أمره، فإذا رأيته عثراً، ووقع فى زلة أن تنظر إليه بعين الإزراء كسائر العامة فإن يمينه بيد الله تعالى لأنه صار فى قبضته وقد أخذه من نفسه فهو يمسكه وهو يحفظه فإذا عثر فتلك العثرة كانت فى تدبير الله تعالى له؛ ليجدد عليه أمراً، وليرفعه إلى ما هو أعظم شأناً وليست تلك عثرة رفض إنما

هـى عـشرة تـدبير كذا دبر له كما دبر لداود عليه السلام تلك الخطيئة ثم انـظر إى شـيء كـان له بعد الخطيئة من الكرامة، والقربة وظهر له من الله تـعـالى الـزلـفة (١٢) والعطف عليه، فيكون للأولياء عثرات يجده الله تـعالى لهم بها كرامات، ويبرز لهم ما كان مغيباً عنهم من حبه إياهم، وعـطـفـه عـلـيهـم فـيـنعشهم فهو مع ذلك الذنب يمينه بيد الله لم يكله إلى نـفـسه، ولا تخـلـى عـنـه وإنما يجرى عـليه الذنب ثم ينعشه فيدخله الله الجـنـة، ويدخل الذى يعير به النار، وقوله: وما تقرب إلىّ عبدى المؤمن بمثل أداء ما افترضته، فإنما فرض الله تعالى الفرائض من الصلاة والصوم والزكاة والحج ليحط بها عنه الخطايا وليتطهر بها العبد، قال تعالى:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾

إلى قوله:

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (١٣)،

فـإن الـعـبد قد يلهو عن العبودة ويطيع الهوى ويركب الخطايا والذنوب، فهذه سيئات قد قبحته وشانته، فإذا صلى فالقيام تذلل وتسليم، والركوع خـشـوع، والـشـجـود خـضـوع، والجلوس رغبة وضرع فهذه حسنات تذهب السيئات وتظهر الزين وتستر الشين، وأما الزكاة فقال تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (١٤)،

---

(١٢) الزلفة: القربى.

(١٣) هود (١١/١١٤).

(١٤) التوبة (٩/١٠٣).

وأما الحج فإن الله تعالى أمر بالوقوف ثم قال فى آخره:

﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ (١٥)،

أى يرجعون مغفورين قد حطت عنهم الآثام، فهذه الفرائض فرضها عليهم لتكون دواء للداء الذى اكتسبوه، فإذا أقامها، فقد تطهر فصلح للقربة فإذا تنفل بعد ذلك استوجب المحبة فإن النفل فى المغازى كالعطف من الأمير على الواحد من أهل العسكر يخصه به، والنفل زيادة على القسمة خارج منها يبره الأمير على قدر عنأه فى الحرب، وبلائه فإذا تنفل العبد بزيادة على الفرض، ينفل القربة والمحبة فإذا أحبه أحياه واختاره، وأوصله إلى حبة القربة ولكل شيء حبة، وحبة كل شيء وسطه، وجوفه ولبابه، فنال القربة بأداء الفرائض ونفل بالمحبة بالتطوع فأوصل إلى أقرب القربة، وحبته فهناك يحيى قلبه بالحى الذى لا يموت فإذا أحياه به كان سمعه وبصره وفؤاده ولسانه، وقوله: وما تعبد لىّ عبدى بمثل الزهد فى الدنيا هكذا شأن العبد يزهد فى كل شيء لم يقدر له فى اللوح، فما أعطى علم أنه كان قدر له فقبله، وما منع علم أنه لم يكن قدر له فرفع عنه باله، فإذا فعل ذلك فقد أبرز صدق العبادة وتهاون بالدنيا فلم يلحظ إليها فهذا منه تصديق إيمان وتحقيق لأنه لما أيقن بالآخرة، ونظر إليه بنور اليقين تلاشت الدنيا فى عينه فى جنب ما أعد الله له فى الآخرة فصغرت عنده وزهدت، وإذا قل الشيء فى عين المرء تهاون به فإنما أبصروا قلة الدنيا بنور الإيمان الذى أبصروا به كثرة الآخرة وعظمها فنيلوا بذلك، وشرفوا وأعرضوا عن جميعها إلا ما قدر لهم فى اللوح فعظموا ذلك القدر الذى أوصل إليهم لأنهم علموا أن هذا وصل إليهم بتدبير الله تعالى، وصنعه، وعطفه، ورحمته، فعظم شأن ذلك عندهم ففرحوا، واستبشروا وحمدوا ربهم، وتوسعوا فى ذلك فمن بلغك عن

(١٥) البقرة (٢٠٣/٢).

أحد من أئمة السلف رحمهم الله أنه فرح بشيء مما أوتى أو عظمه، فإنما عظمه أو فرح به لا من طريق قدر الشيء بل فرحه بتدبير الله تعالى، وصنعه له كيف دبر له ما قسم له فى اللوح ولها عما سوى ذلك فأنعم فيه النظر كى لا تغلط، وتظن بهم ظن السوء فالزاهدون متعبدة فعبدوه بالزهد حتى تقربوا إليه وأعرضوا عن الدنيا، والأولياء عبيد تعبدوه بالعبودة، وتقرّبوا إليه حتى أعرضوا عن النفس فمن أعرض عن الدنيا أقام الزهد ومن أعرض عن النفس أقام العبودة.

عن الحسن رضى الله عنه: «بنى الإسلام على عشرة أركان:

أحدها: الإخلاص بالله تعالى وهى الفترة ومعنى ذلك أن الخلق فطروا على المعرفة فليس أحد يقدر أن ينكره فهم يقرون به ويعرفونه معرفة الفطرة، وقد استوى فيه الخلق قال تعالى:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (١٦)،

وقوله: الإخلاص بالله أى المؤمن لما أدركته الهداية وجعل الله تعالى له نوراً فأحياه خلص الله تعالى أمره.

الثانى: الصلاة وهى الملة ومعنى ذلك أنها تشتمل على أفعال مضمومة بعضها إلى بعض فصيرت فعلاً واحداً، وكذلك يجتمع الخلق بأجسادهم على هذا الأمر الواحد فتكون صلواتهم مضمومة بعضها إلى بعض، فتكون صلاة واحدة والملة ما ضمت، ولذلك سميت الخبزة المضمومة إلى الحفرة ملة.

---

(١٦) الروم (٣٠/٣٠).
فطرة الله أى خلقة الله التى خلق الناس عليها، وقد اختلف العلماء اختلافاً كثيراً فى تفسير الفطرة كما ورد فى الطبرى (٢١/٢٦) والقرطبى (١٤/٢٥).

الثالث: الزكاة وهى الطهرة ومعناه أن الزكاة طهرة لهم من أدناسهم قال تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (١٧)،

فإن الله تعالى جعل المال سبباً لقوام معاشهم، وخلقهم محتاجين مضطرين، والمضطر مفزعة إلى من اضطر إلى نفسه، فترك مفزعه، وجعل الباب الذى صير سبباً مفزعاً لحاجته فمال بقلبه عن الله تعالى، ولهذا سمى مالا لميل القلوب عن الله تعالى إليها فقد دنس بذلك فقيل: تصدقوا أى أعطوا من هذا المال ما يظهر صدق أقوالكم إنا لله وإن الأموال منه فى أيدينا وسميت صدقة لأنه يظهر بالإعطاء صدق أقوالهم، فتصير صدقاتهم طهارة لهم من أدناسهم إذا أصابه من الحلال يصير دنساً لميل قلبه عن الله تعالى، فكيف بالحرام والشبهة فالحرام لا يطهرها شىء والشبهة موقوفة، والحلال متقبل وقد أمر الله تعالى بالصدقة من مكاسب الحلال والغنائم.

الرابع: الصيام وهى الجنة وقال عليه السلام: «حفت الجنة بالمكاره، والنار بالشهوات» (١٨)، وفى الصيام ترك الشهوات فإذا تركها فقد ترك حفاف النار فصار جنة له من النار.

الخامس: الحج وهى الشريعة، فإن الله تعالى دعاهم إلى أن يؤمنوا به، ويسلموا إليه وجهاً وجعل البيت معلمة فهناك آثاره وآياته وقد كان من قبل خلق الأرض زيدة بيضاء فأقتضاهم الإجابة له بإتيانهم المظهر

---

(١٧) التوبة (١٠٣/٩).

(١٨) الحديث متفق عليه، عن أبى هريرة، لكن فى البخارى (حجبت) بدل (حُفت) فى الموضعين، وذكره صاحب التميز ص٦٩. وذكره العجلونى فى «كشف الخفا» نقلاً عن التميز (١١٥٢/٤٣٤/١).

الأعلى، وهو العرش قلباً وبإتيانهم المعلم الذى على الأرض بدناً، وهما طريقان لهم إليه.

١ **السادس:** الجهاد وهى العزة ومعنى ذلك أن الله تعالى دعا العباد إلى أن يوحدوه فأجابته طائفة، وامتنعت طائفة، وتعززوا بالكبر الذى فى صدورهم، والقوة التى فى أبدانهم، والنعمة التى أسبغها عليهم، فقال للطائفة المجيبة أنتم أنصارى وأوليائى:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ (١٩)،

فثارت هذه الطائفة حمية لله تعالى، ونصرته، وولايته فقتلوهم وأخذوهم، وأسروهم، قال الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٠)،

فالجهاد هو العزة.

السابع: الأمر بالمعروف وهو الحجة، لأن المرسلين بعثوا لذلك، فمن فعله من بعدهم فهو من خلفائهم يقيم حجة الله على خلقه.

الثامن: النهى عن المنكر وهو الواقية، قال الله تعالى:

﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ (٢١)،

وقال عليه السلام: «إن الظالم إذا لم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعذاب» (٢٢)، وروى النعمان بن بشير رضى الله عنه يقول:

(١٩) محمد (٤/٢٧).
(٢٠) المنافقون (٨/٦٣).
(٢١) المائدة (٧٩/٥).
(٢٢) فى نسخة أخرى [بعقاب].

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على منبرنا هذا يقول: «مثل القائم على حدود الله، والمداهن فى حدود الله، والساكت عنه، والراكب حدود الله كمثل قوم ركبوا سفينة؛ فاقترعوا منازلها فأخذ أحدهم القدوم فنقر السفينة، فقال أحدهم لآخر يخرق السفينة ويريد أن يغرقنا فقال له الآخر: دعه فإنما يخرق مكانه، فإن تركوه هلك وهلكوا، وإن أخذوا على يديه نجا ونجوا» فإذا غيروا ونهوا كان ذلك واقية للعذاب.

التاسع: الطاعة وهى العصمة فإن طاعة الأئمة منوط (٢٣) بطاعة الله تعالى وهى عصمة بهم، يعصمهم الله تعالى، ويسكن الفتنة ويقمع أهل الريب (٢٤) ويقوم الحج، والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فالسلطان شأنه عظيم، وهو رحمة من الله تعالى، فطاعتهم عصمة.

والعاشر: الجماعة، وهى الألفة فإن الله تعالى جمع المؤمنين على معرفة واحدة وشريعة واحدة ليألف بعضها بعضاً بالله تعالى، وفى الله فيكونون كرجل واحد، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٢٥)،

فإذا لم يخرج إلى حدث، ولا إلى بدعة فهو فى الألفة معهم والله أعلم وأحكم.

---

(٢٣) منوط: معلق.
(٢٤) الريب: الشك.
(٢٥) الحجرات (٤٩/١٠).

[الأصل الثالث والستون والمائة فى مذاهب أهل الأهواء]

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً من هم ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : هم أصحاب الأهواء وأصحاب البدع وأصحاب الضلال من هذه الأمة ياعائشة ، إن لكل ذنب توبة ما خلا أصحاب الأهواء والبدع ليس لهم توبة أنا منهم برئ وهم منى براء » (١) ، أهل الأهواء قوم استعملوا أهواءهم والأهواء ميالة عن الله تعالى فحيث ما مالت اتبعها قلوبهم لأنه لم يكن فى قلوبهم من النور ما يصدهم عن اتباعها قال الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ (٢) ،

وسميت زيغاً لأنها زائغة بالقلب عن الله تعالى وأهل الأهواء كلما استحلوا شيئاً ركبوه واتخذوه ديناً حتى ضربوا القرآن بعضه ببعض وحرفوه فنهم من يرفض حتى جحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونسبوا

---

(١) ذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » (٢/١٠٧) وعزاه للخطيب ورمز له بالحسن وأورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٣/٦٣) . وأخرجه الطبرانى فى الصغير (١/٢٠٣) .

(٢) آل عمران (٣/٧) .

الزيغ : الجور والعدول والميل . يقال زاغ عن الحق . إذا حاد عنه . والفتنة فى الآية هى الكفر . وقال بعض المفسرين معناه إرادة الشبهات واللبس . وهذا الرأى هو المختار عند الطبرى فى جامع البيان (٦/١٩٧) .

الرسالة إلى على كرم الله وجهه (٣)، ومنهم من اتخذه رباً فدخل عليه فقال: أنت ربى فقام علىّ فوطئه بقدمه حتى قتله، وأحرقه بالنار، ومنهم من أبدعوا من تلقاء أنفسهم بدعاً فما زالت بهم تلك البدع حتى أدتهم إلى الخروج على على رضى الله عنه وإلى حربه، وهم الخوارج (٤) وأهل حروراء. وقوم قد تزهدوا بغير علم فأداهم الجهل إلى أن أبدعوا من تلقاء أنفسهم بدعاً، وحسبوا أن الزهد فى الدنيا تجنب الأشياء فعلاً والعزلة من أهل الدنيا؛ فضيعوا الحقوق، وقطعوا الأرحام، وجفوا الخلق، واكفهروا فى وجوه الأغنياء وفى قلوبهم من شهوة الغنى أمثال الجبال الشامخات ولم يعلموا أن أصل الزهد موت الشهوات من القلب فما اعتزلوها بالجوارح اكتفوا به، وحسبوا أنهم استكملوا الزهد حتى تأدى بهم الجهل إلى أن طعنوا فى الأئمة الذين عرفوا بسعة المعاش، وكثرة المال، حتى عابوا الأنبياء، وطعنوا على سليمان عليهم السلام، وقوم زعموا أنهم توكلوا على ربهم، وأن الطلب شك وأن الرزق يأتى فى وقته فقعدوا رفضاً للطلب، والمكسب فضيعوا (٥) الأهلين والأولاد. فى خلال ذلك يتدنسون فى أبواب المطامع، ويخادعون الله تعالى فى معاملته، وقوم اتخذوا العلم الذى هو حجة الله تعالى على عباده حرفة، وصيروها مأكلة فأكدوا بها رياستهم، واحتظوا به من القلوب، وصحبوا بها الملوك ختلا (٦) لما فى أيديهم من الحطام فلينوا لهم فى القول طمعاً

---

(٣) وهؤلاء الروافض لحاهم الله وقبحهم خرجوا على الإسلام وقد قاتلهم الإمام على وأعمل فيهم السيف، وحرقهم بالنار، ونفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن، ورأى البغدادى فى كتابه «الفرق بين الفرق» ص ٢١ أن هذه الفرقة ليست من فرق الإسلام.

(٤) الخوارج: فرقة تشعبت إلى عشرين فرقة اجتمعت ـ على افتراق مذاهبها ـ على تكفير على وعثمان، والحكمين، وأصحاب الجمل، ومن رضى بتحكيم الحكمين، والاكفار بارتكاب الذنوب، ووجوب الخروج على الحاكم الجائر.

راجع مقالات الاسلاميين للأشعرى (١٥٦/١) والفرق بين الفرق ص٧٣.

(٥) فى نسخة أخرى [فضيقوا] وهو تصحيف وتحريف معاً.

(٦) ختلا: غدرا، وخيانة.

لما فى أيديهم وداهنوهم (٧) لما يرجون من نوالهم وساعدوهم على تجبرهم وجورهم (٨) وقوم مفتونون نسبوا إلى الدين والتقطوا الرخص، وزلات العلماء فاتخذوها ديناً وتدرعوا (٩) بذلك إلى شهواتهم، وزينوا للخلق بذلك تستراً على أحوالهم السيئة من تعاطى الأشربة المحرمة، والمكسبة الرديئة، وأشباه ذلك، وقوم هم أهل الضلالة كالمشبهة، والقدرية، والجبرية، والجهمية وأشباههم مالت قلوبهم وأبدعوا وضلوا عن الله تعالى فإن الله تعالى اقتضى للعباد الإسلام ديناً، والإسلام تسليم النفس. والدين الخضوع لله تعالى بتسليم النفس إليه قال الله تعالى:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (١٠)،

فجعل الدين فى تسليم النفس إليه فدانوا بأن سلموا نفوسهم إليه قبولاً لأمره، وطاعته فأنزل كلاماً فرقاناً يفرق بين الحق والباطل، وأمر بالاعتصام به وأشار إلى دار السلام أن هذا مصيركم وإليها أدعوكم فقال:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ (١١)،

وهو عهده الذى أنزل قال:

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ (١٢)،

ودل على الطريق المستقيم إليها من غير تعريج ولا تلوية، ودبر فى هذا الطريق فرائض معلومة وسنناً وأخذ زينة ليوم العرض عليه فالزائغون

---

(٧) داهنوهم: من المداهنة وهى المداجاة.

(٨) الجور: الظلم.

(٩) تدرعوا: وأدّرعوا، لبسوا الدروع.

(١٠) آل عمران (٨٥/٣).

(١١) آل عمران (١٠٣/٣).

(١٢) يونس (٢٥/١٠).

تركوا الخضوع لله تعالى، وتسليم النفس إليه ففارقوا دينهم؛ فصاروا شيعاً وأحزاباً، وزين لهم سوء أعمالهم، وسد عليهم باب القدر فاستبدوا وتعمقوا فى طلبه حتى هلكوا وأداهم ذلك إلى أن برؤا الله من قدرته وشاركوه فى مشيئته إفكاً وافتراء وسد عليهم باب درك الكيفية فاستبدوا يطلبون الكنة والكيفية، حتى عدلوه بخلقه، وسد عليهم باب التعمق فما زالوا ينزهونه حتى تاهوا فى الإلحاد عنه فنفوا عنه ما لم ينف عن نفسه الكريمة.

وقال عليه السلام: «قد افترقت بنوا إسرائيل اليهود منهم على إحدى وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة، قيل: يا رسول الله من هذه الواحدة؟ قال: السواد الأعظم». (١٣)

وعن عمر رضى الله عنه قال: أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أعرف الحزن فى وجهه فأخذ بلحيته فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، قال: وأتانى جبريل فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قلت: أجل فإنا لله وإنا إليه راجعون فم ذاك يا جبريل؟ قال: إن أمتك مفتتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير فقلت فتنة كفراً وفتنة ضلالة، قال: كل ذلك سيكون، قلت: ومن أين ذاك، وأنا تارك فيهم كتاب الله تعالى؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم يمنع الأمراء الناس حقوقهم؛ فلا يعطونها فيقتلوا، ويتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون، قلت: يا جبريل، فيم يسلم من يسلم منهم؟ قال: بالكف والصبر ان أعطوا الذى لهم أعطوه وإن منعوا تركوه».

---

(١٣) أى الجمهور والجماعة.

وعن أفلح مولى رسول الله عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث: ضلالة الأهواء، واتباع الشهوات فى البطن والفجر والعجب».

وإنما صاروا هؤلاء فرقاً لأنهم فارقوا دينهم، فبمفارقة الدين تشتت أهواؤهم فافترقوا فأما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده قد اختلفوا فى أحكام الدين، فلم يفترقوا لأنهم لم يفارقوا الدين، وإنما اختلفوا فيما أذن لهم النظر فيه، والقول باجتهاد الرأى، واختلفت آراؤهم فاختلفت أقوالهم، وقد أمروا بذلك فصاروا باختلافهم محمودين، لأنه أدى كل واحد منهم على حياله ما أمر من جهد الرأى(١٤) والنظر فيه، وكان ذلك الاختلاف رحمة من الله تعالى على هذه الأمة حيث أيدهم باليقين ثم وسع على العلماء منهم النظر فيما لا يجدون ذكره فى التنزيل ولا فى سنة الرسول عليه السلام، حتى يلحقوه ببعض، وكانوا أهل مودة وعطف متناصحين أخوة الإسلام فيما بينهم قائمة فكل مسألة حدثت فى الإسلام فخاض فيها الناس، واختلفوا فلم يورث ذلك الاختلاف عداوة بينهم ولا بغضاً ولا فرقة علم أن ذلك من مسائل الإسلام يتناظر فيه ويأخذ كل فريق بقول من تلك الأقوال ثم لا يكونون على أحوالهم من الشفقة والرحمة والألفة والمودة والنصحة كما فعل الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم.

وكل مسألة حدثت فاختلفوا فيها فردهم اختلافهم فى ذلك إلى التولى والإعتراض، والرمى بالكفر علم أن ذلك ليس من أمر الدين فى شىء بل حدثت من الأهواء المردية(١٥) الداعية صاحبها إلى النار وتورث العداوة والتباين والفرقة لأنها من التى ابتدعها الشيطان فألقاها

(١٤) فى نسخة أخرى [من جهة الرأى] وهو تحريف خطير من الناسخ.
(١٥) المردية: المهلكة.

على أفواه أوليائه ؛ ليختلفوا ويرمى بعضهم بعضا بالكفر لأنه لما خلت قلوبهم من خشية الله تعالى، وخوف عقابه بما قدمت أيديهم من ذكر الموت، والأهوال التى أمامهم، والاهتمام بصحة الأمور وطلب الخلاص فيما بينهم والانتباه لحسن صنيعه بهم، وطلب النجاة من رق النفوس إلى حرية العبودة لربهم عز وجل، فلما خلت من هذه الأشياء قلوبهم، وجد العدو فرصة فألقى إليهم مثل هذه الأشياء التى يعلم المستنيرة قلوبهم أن هذا تكلف، وخوض فيما لا يعينه، مثل قولهم فى الجبر والقدر والاستطاعة قبل الفعل ومعه وطلب كيفية صفات الله تعالى، وفى الايمان مخلوق هو أم لا ؟ وفى القرآن ما هو؟ وفى الإمامة من استحقها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ حتى أداهم ذلك إلى أن رفضوا الصحابة رضوان الله عليهم وأظهروا شتمهم، فلولا خذلانهم ونكوس قلوبهم، لكانوا لا يشتغلون بمثل هذا وهم قوم قد مضوا إلى الله تعالى بأعمالهم، وهو يقسم لهم المنازل بهواه ويحمل بعضاً على بعض.

قال الله تعالى :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١٦)

وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغا ومعلما وهاديا فخرج من الدنيا، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وعلم وهدى، وأبلغ فى النصيحة فأين القول منه للأمة فى هذه الأشياء وأين هدايته، وتعليمه لهم، ولم يوجد من الرسول صلى الله عليه وسلم خبر واحد فى ذلك فإن كان بعث مبلغا وقد بلغ ولم يكتم شيئا من الوحى فأين هذا فى الوحى، وفى السنن التى جاءت عنه وقد أدت عنه أئمة الدين آداب الإسلام فى

(١٦) البقرة (١٣٤/٢).

طعامهم ، وشرابهم ، ونومهم ، وخلائهم ، ووضوئهم ، ولباسهم ومشيهم وزيهم وتركوا هذه الأشياء التى أدى اختلاف القائلين عنه إلى اكفار بعضهم بعضا ؛ ليعلم أن هذه من مسائل الفتنة وأنها تؤدى إلى الحيرة وأن الكلام فى ذلك مما لم يؤذن فيه .

[الأصل الرابع والستون والمائة في أن أحب الأصوات إلى الله صوت عبد لهفان]

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من صوت أحب إلى الله تعالى من صوت عبد لهفان، قالوا يا رسول الله وما اللهفان؟ قال عليه السلام: عبد أصاب ذنبا فكلما ذكر بذنبه امتلأ قلبه فرقا (١) من الله تعالى فقال يا رباه» (٢). اللهفان على مخرج فعلان إذا كان الشيء بالغا غايته فهو غاية التلهف على ما فاته بالتوجع، والفرق نفار القلب والعبد إذا أشتد (٣) هيبته وهو الغالب، على قلبه وذكر ذنبه نفر قلبه بما يلاحظه، فذاك الفرق، فإذا امتلأ قلبه من ذلك فرق فنادى نداء من ينحط من مهوى لا يدري ما قعره فهو في الانحطاط ينادي نداء مستغيث يتلهف على ما فاته من مكان القربة بغاية التلهف يا رباه نداء ندبة (٤) الثكلى نداء توجع وحرقة وللفرق (٥) شأن عظيم لأنه عاين القلب سلطانا عظيما، وهو في محل ملك الملك، فلم يتمالك القلب أن لا يفرق لأنه فتح له من ملك الهيبة ما فرقه.

---

(١) فرقا: خوفا وفزعاً.

(٢) عزاه الهندي في «كنز العمال» (٤/٢٢٧) للحكيم الترمذي وأبو نعيم والديلمي عن أنس بن مالك. وأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/٢١٦). وأخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤/٢٩).

(٣) كذا ورد بالأصل.

(٤) ندبة الثكلى: نواح وعويل الثكلى.

(٥) الفرق: الخوف والفزع.

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن، وبين يديه رجل، فسقط فمات فقال عليه السلام: «إن الفرق فلذ كبده» أى قطعه لأن الكبد متصل بالقلب[٦] من شقه الأيمن فحرارته أحرقت الكبد.

(٦) هذا على سبيل المجاز.

[الأصل الخامس والستون والمائة فى سنن المرسلين]

عن مليح بن عبد الله الخطمى، عن أبيه عن جده رضوان الله عليهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خمس من سنن المرسلين الحياء، والحلم، والحجامة، والسواك، والتعطر»(١) وفى رواية أبى أيوب أربع من سنن المرسلين التعطر، والحياء، والنكاح، والسواك.

معناه هذه الخمسة من شأنهم أما الحياء فإن النور إذا دخل القلب تخلص الروح من أسر النفس فصار إلى طبعه السماوى، فالحياء خجالة الروح وتلكيه عن كل عمل لا يحسن فى أهل السماء فصار الحياء من شأنهم، لطهارة الروح من أسباب النفس، وأما الحلم فهو سعة الصدر، وانشراحه لورود النور، وأما الحجامة فلأجل أن للدم حرارة وقوة وللنور حرارة فإذا لم ينقص من حرارة الدم أضر به، وتبيغ الدم فقتل لأن النور غالب على صدورهم، وقلوبهم فتغلى من ذلك دماؤهم فإذا لم يأخذوها فارت وأضرت وكان عليه السلام يلقى من الصداع من نور الوحى، فيغلف رأسه لابالحناء، ليخفف عن رأسه بالحناء سلطان تلك الحرارة.

ومما يحقق ذلك ما روى عنه عليه السلام أنه قال: «ما مررت بملأ من الملائكة ليلة أسرى بى إلا قالوا يا محمد مر أمتك بالحجامة»(٢) وإنما خصت هذه الأمة من أجل زيادة النور.

---

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب الطب ـ باب التداوى بالعسل والحجامة وغير ذلك (٥/ ٩٠) وأخرجه البزار فى مسنده ـ كتاب الصلاة ـ باب السواك (١/ ٢٤٤).

(٢) راجع كتاب الطب النبوى للإمام ابن قيم الجزية بتحقيق السيد الجميلى ط. دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ لبنان.

قال عليه السلام «ما أعطيت أمة ما أعطيت أمتى من اليقين» وأما السواك فلأنه طريق التنزيل، والوحى الوارد، وموضع نجوى الملائكة فكانوا يقصدون تطييبها وتطهيرها لئلا يؤذى الملك، وتضيع حرمة الوحى، وأما النكاح فإن الأنبياء عليهم السلام زيدوا فى النكاح بفضل نبوتهم فإنه إذا امتلأ الصدر بالنور وفاض فى العروق التذت له النفس، والعروق فأنارت الشهوة، وقواها. وريح الشهوة إذا قويت فإنما تقوى من القلب والنفس، فعندها تجد القوة، قال عليه السلام: «أعطيت قوة أربعين رجلا فى البطش، والنكاح، وأعطى المؤمن قوة عشرة».

قال ابن عمر رضى الله عنهما: ما أعطى أحد من الجماع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطيت أنا. وأما التعطر فإن الطيب يذكى الفؤاد، وأصله من الجنة حين تستر آدم عليه السلام بورقة منها فرحم، وتركت عليه، فمن ذلك أصل الطيب ففى تذكية الفؤاد، قوة القلب، والجوارح؛ لأن حسن القلب بالفؤاد لأن الأذن عليه والبصر له، والنور بين القلب والفؤاد والرؤية للفؤاد.

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ (٣).

والفؤاد اللحمة الظاهرة والقلب اللحمة الباطنة وإنما هى بضعة واحدة بعضها مشتمل على بعض، فأظهر فهو فؤاد فإذا كان الفؤاد منحرفا لم يع شيئا من النور.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ (٤).

أى منحرفة لا تعى شيئا ولا تعقل، وهو قوله عليه السلام «أتاكم أهل اليمن ألين قلوبا وأرق أفئدة».

(٣) النجم (١١/٥٣).

(٤) إبراهيم (٤٣/١٤).

وأفئدتهم هواء: أى لا تعى ولا تفقه شيئاً من الخير، وهذا هو أولى الأقوال بالصواب عند الإمام الطبرى (١٥٩/١٣).

[الأصل السادس والستون والمائة فى ذكر الفاجر بما فيه للتحذير منه]

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضوان الله عليهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتورعون عن ذكر الفاجر متى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس»(١). الفاجر هو الذى يفجر الحدود فإن الإسلام كحظيرة حظرها الله تعالى على أهله فلا يتعدون حدود الحظائر فإذا ثلم(٢) أحدهم الحظيرة بالخروج منها متخطيا إلى ما ورائها فقد فجرها ونعنى بالفاجر، الفاجر الموحد دون الكافر فإن المشرك لا حرمة له ولا يتوقى لذكره وقد تورعوا عن ذكر المسلم لحرمة التوحيد ولأنه عليه السلام كان يحث على الستر وهو يقول من ستر المسلم ستره الله تعالى، ومن هتك سترا لأخيه هتك الله تعالى ستره فهابوا هذا الأمر، وكفوا فقال لهم عليه السلام: «أترعون عن ذكر الفاجر» معناه إذا غلب عليه الفجور وقد أعلن به وهتك ستره فإذا لم يبق له سترا استحال أن يستر أويكتم أمره وفى كتمان أمره خيانة، ولهذا قال عليه السلام: متى يعرف الناس ثم بين نفع الذكر فقال يحذره الناس وإنما هذا الذكر لمن احتسب به النصيحة للعامة لئلا يعثر(٣) مسلم به فأما من ذكر تشفيا لغيظه أوتنقيا لنفسه، فهو خارج عن هذا الحديث حتى يذكره على تلك النية.

---

(١) أخرجه البيهقى فى «السنن الكبرى» كتاب الشهادات -باب الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث (١٠/٢١٠). وذكره الخطيب البغدادى فى «تاريخ بغداد» (١/٣٨٢). وذكره الألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/٥٢) حديث رقم ٥٨٣.

(٢) ثلم: جرح.

(٣) وردت فى نسخة أخرى [يفتر] وهو تحريف وتصحيف معاً.

[الأصل السابع والستون والمائة فى أن لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى وعرض الأعمال]

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب تمور فى جوها فالله الله فى إخوانكم من أهل القبور، فإن أعمالكم تعرض عليهم»(1). الأرواح أنواع: أرواح تجول فى البرزخ فتبصر أحوال الدنيا، والملائكة تتحدث فى السماء عن أحوال الآدميين، وأرواح تحت العرش، وأرواح طيارة فى الجنان على قدر أقدارهم من السعى أيام الحياة إلى الله تعالى، والعبودة له فى محلهم.

قال سلمان رضى الله عنه: أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الأرض، حيث شاءت من السماء والأرض، حتى يردها الله تعالى إلى جسدها فإذا ترددت الأوراح هكذا علمت أحوال الأحياء وإذا ورد عليهم ميت التقوا به، فتحدثوا وتساءلوا عن الأخبار، وخرج من تدبير الله تعالى أن وكل بهم أيضا ملائكة تعرض أعمال الأحياء عليهم كى إذا عرضوا عليهم ما يعاقبون به فى الدنيا ويصابون به من أنواع المصائب من أجل الذنوب كان عذر الله تعالى ظاهرا مكشوفا عند الأموات بأنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى.

---

(1) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٠٧/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه. قال الذهبى: فيه مجهولان. أهـ.

وقال عليه السلام: «تعرض الأعمال يوم الاثنين ويوم الخميس على الله تعالى، وتعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة؛ فيفرحون بحسناتهم، ويزدادون وجوههم بيضا ونزهة، فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم».

وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله تعالى يعتذر إلى آدم يوم القيامة بثلاثة معاذير يقول الله تعالى: يا آدم لولا أنى لعنت الكذابين وأبغض الكذب، والخلف، وأعذب عليه لرحمت اليوم ذريتك أجمعين من شدة ما أعددت لهم من العذاب، ولكن حق القول منى لمن كذب رسلى وعصى أمرى، لأملأن جهنم منهم أجمعين، ويقول الله تعالى: يا آدم، إنى لا أدخل أحدا من ذريتك النار، ولا أعذب أحدا منهم بالنار إلا من قد علمت فى سابق علمى أنى لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى شر مما كان فيه لم يراجع ولم يعتب، ويقول له: يا آدم قد جعلتك اليوم حكما بينى وبين ذريتك، قم عند الميزان، فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم، فمن رجح منهم خيره على شره مثقال ذرة فله الجنة، حتى تعلم أنى لا أدخل النار منهم إلا ظالما».

فإذا ستر الله على عبد فى دنياه عند الأحياء ستر الله عليه عند الأموات وذلك لمن ولى الله تدبيره ستره، لئلا يرى الخلق من الأحياء والأموات معايبة.

روى أن أبا أيوب الأنصارى رضى الله عنه خرج غازيا فى أرض الروم فقص عليه قاص فقال «ليس أحد من بنى آدم يعمل عملا أول النهار إلا عرض على معارفه من أهل الآخرة فى آخر النهار، ولا عمل عملا فى آخر النهار إلا عرض على معارفة من أول الغد فقال أبو

أيوب: إن ذاك لكذلك اللهم لا تفضحني عند سعد بن عبادة، ولا عند عبادة بن الصامت مما عملت بعدهما فقال القاص: والله الذى لا إله غيره ما كتب الله لعبد ولايته إلا ستر عورته، وأثنى عليه بأحسن عمله»، ومعنى ولاية التدبير إن الله تعالى شرع السبيل، وهدى القلوب، ورزق العقول وأكد الحجة بالرسل، وبما جاؤا به من البيان وأيد بالملائكة يهدون ويسددون وقيل لهم سيروا إلى الله تعالى سيرا مستقيما فى هذا الصراط، فإن عرضتكم نفوسكم بخلاف ما أمر الله تعالى فجاهدوها، وسلوا الله المعونة فهذا تدبيره الذى وضعه للجميع، فمن صدق الله تعالى فى مجاهدة النفس، حتى بلغ أقصاها لم يقدر على أكثر من أن يمنع قلبه من الكفر، كما يمنع جوارحه من العمل، فهذا غاية جهاد النفس، وتصحيح الباطن والظاهر ونهاية الصدق فلقد أتى بالوسع وحال الطبع باق على تركيبه من الشهوة، واللذة، والغضب، والرغبة، والرهبة، ومن هذه الأشياء، حدثت المعاصى إلى القلوب، ومنه إلى الأركان فيجأر(٢) إلى الله تعالى لكدورة الأخلاق، فإنها تكدر عليه إيمانه فلا يصفو فعندها يرحمه الله تعالى عند انقطاع أسبابه وتغوثه بها صارخا، مضطرا فيأخذه من تدبيره الذى وضعه لعباده، ومن مجاهدة النفس إلى تدبيره الذى وضعه لعباده، ومن مجاهدة النفس إلى تدبير نفسه فهو القادر على ذلك، فيوكل به الحق تبارك وتعالى، حتى يسير به إلى منازل القربة. فلما سار فى القربة زيد مركبا من النور ليسير به إلى محله فى القربة، فكل نور يزاد يموت من طبعه بقدر ذاك لأنه يزاد بكل نور قربة وتخطى إلى محله فيزداد بالله تعالى علما منه، وخشية فالحق تبارك وتعالى يربيه بهذه الأنوار حتى إذا انتهت التربية وتغير الطبع عن النفسية إلى خلق الإيمان جذب جذبة إلى محل القربة، وانكشف له الغطاء عن جلال الله تعالى وعظمته، فانتبهت(٣) فيه وإذا الهوى قد طاوعته، والنفس قد مات

(٢) يجأر: يصيح.
(٣) فى نسخة أخرى [فانتبهت] وهو تحريف.

فحيى قلبه بالله تعالى فهو الصدق فهذا وإن كان صديقا ، فلم يخل من ذنب كان فى سابق علم الله تعالى وجرى بذلك القلم فى اللوح المحفوظ ، فهو يعمله لا محالةَ لكنه فى ستر عند الأحياء وفى ستر عند الأموات ، والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم وأحكم .

[الأصل الثامن والستون والمائة فى أن المرض للمؤمن تمحيص[1] للذنوب]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المريض إذا برئ من مرضه، وصح كمثل البردة تقع من السماء فى صفائها ولونها»[2] المؤمن يتلوث فى شهواته فتدنس الأفعال، وتوسخ الأركان، وتكدر الطلاوة فإذا رحمه وأراد به خيرا أسقمه حتى يطهره ويصفيه، فالمرض للمؤمن تمحيص من الآثام كالفضة تلقى فى كيرة ينفخ عليه، يزول خبثه، وتصفو فضته، فتصلح للضرب، والسكة، والتشرف باسم الملك على وجهه فشبهه بعد البرء بالردة صفاء وطيبا وطهارة ونظافة.

---

(١) تمحيص: تنقية واختبار.

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد -كتاب الجنائز- باب ما يجرى على المريض (٢/٣٠٣) وقال: رواه البزار والطبرانى فى الأوسط وفيه الوليد بن محمد الموقرى وهو ضعيف. وأخرجه الديلمى فى «مسند الفردوس» (٤/٧٠). وذكره الزبيدى فى «أتحاف السادة المتقين» (٥٢٦/٩).

[الأصل التاسع والستون والمائة فى حسن المجاورة لنعم الله تعالى]

عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى كسيرة ملقاة فمشى إليه فمسحها فقال: «يا عائشة أحسنى جوار نعم الله تعالى فإنها قل ما نفرت عن أهل بيت فكادت ترجع إليهم»(١) حسن المجاورة لنعم الله من تعظيمها، وتعظيمها شكرها، والرمى بها من الاستخفاف بها وذلك من الكفران، والكفور ممقوت مسلوب، فارتباط النعم فى شكرها وزوالها فى كفرانها، ومن عظمها فقد ابتدأ فى شكرها، ومن صغرها أو استخف بها فقد تعرض لزوالها، وفيها رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم خصالا غير واحدة، منها الاستخفاف بالنعمة والفساد والإسراف.

والله لا يحب الفساد، ولا يصلح عمل المفسدين، ولا يحب المسرفين، ولا يحب كل خوان كفور.

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه ـ كتاب الأطعمة ـ باب النهى عن إلقاء الطعام (١١١٢/٢)، وذكره الخطيب البغدادى فى «تاريخ بغداد» (٢٢٩/١١).

[الأصل المائة والسبعون فى تفسير المروى للآية هل جزاء الإحسان إلا الإحسان]

عن أنس رضى الله عنه قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** (١) ثم قال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «إن ربكم يقول هل جزاء، من أحسنت إليه بأن هديته للتوحيد إلا أن أسكنه دارى فى جوارى، وهل جزاء من قربته بالمعرفة قلبا حتى يعرفنى إلا أن أقربه فى المسكن نفسا حتى ينظر إلى، وهل جزاء من أكرمته بمعرفتى إلا أن أغفر له ذنوبه، وأتجاوز عن سيئاته وأصفح عنه تكرما كما تكرمت، وجدت عليه بتوحيدى هل جزاء من ابتدأته بهذه النعم العظيمة فننت عليه بها إلا أن أحفظها عليه حتى أختم له بها وأتمم عليه وله كرامتى.

---

(١) الرحمن (٦٠/٥٥) والحديث أخرجه السيوطى فى «الدر المنثور» (١٤٩/٦) وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (١٤٠/٤).

[الأصل الحادى والسبعون والمائة فى أن الكلمة من الباقيات خير من الدنيا بحذافيرها (١)]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أن الدنيا كلها بحذافيرها فى يد رجل من أمتى ثم قال: الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك»(٢) معناه من أعطى الدنيا ثم أعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها لكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها لأن الدنيا فانية والكلمة باقية. قال تعالى:

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (٣).

وفى رواية لكان ما أعطى أفضل مما أخذ(٤).

---

(١) بحذافيرها: جميعها.

(٢) أخرجه الخطيب فى «تاريخ بغداد» (٥/٤٦٦)، وأخرجه ابن عساكر فى «التاريخ» (٢/٢٧٦)، وفى «فيض القدير» (٥/٣٠٤) أن السيوطى ذكره فى الجامع الصغير وعزاه لابن عساكر عن أنس ورمز له بالضعف.

(٣) الكهف (١٨/٤٦).

الباقيات الصالحات: قيل هى الصلوات الخمس، وقيل بل هى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وقد بسط الطبرى القول فى مختلف الآراء فى تفسيره (١٥/١٦٥) وما بعدها، فراجعه إن شئت.

(٤) كذا ورد بالأصول.

[الأصل الثاني والسبعون والمائة في ذكر جملة من مكارم الأخلاق]

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما محق الإسلام محق البخل شيء قط ومن كف غضبه، كف الله عنه عذابه، ومن حفظ لسانه ستر الله عورته، ومن اعتذر إلى الله في الدنيا قبل الله تعالى معذرته»(1) بنى أس الإسلام على السماحة والجودالسماحة والجود لأنه هو تسليم النفس والمال لحقوق الله تعالى، فإذا جاء البخل فقد ذهب المال، ومن بخل بالمال كان بالنفس أبخل، ومن جاد بالنفس كان بالمال أجود، فالبخل يمحق الإسلام ويبطله، ويدرس الإيمان وفيه سوء الظن بالله تعالى، ومنع حقوقه والاعتماد على المال دون الله تعالى، وقوله «من حفظ لسانه ستر الله عورته» إنما يحفظ من أعراض المسلمين كيلا يهتك أستارهم فعاجل الله تعالى ثوابه بأن ستر عورته، وقوله: «من كف غضبه كف الله عنه عذابه» فعذابه النار، وحشوها غضبه وإنما تلظت وتسعرت بغضب الله تعالى، فإذا كف غضبه فقد تواضع لله تعالى فكف عنه غضبه، وإذا كف غضبه فمن ورائه الرضى عن الله تعالى، وقوله من اعتذر إلى الله في الدنيا قبل الله معذرته، فالكريم يقبل العذر إذا اعتذر إليه صادقا كان أو كاذبا لأن اعتذاره ندم وتوبة وإقبال إليه فيأبى الكريم أن يخيبه من معذرته.

قال عليه السلام «ما من أحد يعتذر إلى أخيه فلم يقبل عذره إلا كان عليه كخطيئة صاحب مكس وهو العشار».

(1) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» كتاب الإيمان -باب الشح يمحق الإسلام- (١٠٢/١) وقال: رواه أبو يعلى. وفيه علي بن أبي ساره وهو ضعيف وفي «فيض القدير» (٤٦٥/٥) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» وعزاه لابي يعلى عن أنس ورمز له بالحسن.

[الأصل الثالث والسبعون والمائة فى قدر تعظيم الدنيا والمداهنة(١) والسيئات]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا عظمت أمتى الدنيا نزعت منها هيبة الإسلام وإذا تركت الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر حرمت بكرة الوحى وإذا تسابت أمتى سقطت من عين الله تعالى»(٢) شرط الإسلام تسليم النفس وبذلها لله تعالى عبودة، فإذا عظم ما صغر الله تعالى، وحقرها وقد أخذت بقلبه فسبته ذهبت العبودة ولم يقدر على بذل النفس لله تعالى، فكان إسلامه مدخولا (٣) وإذا فسد الباطن ذهبت الهيبة لأنه لو هابه لم يستقر قرارا، حتى يصلح باطنه وإنما يهابه من صلحت سريرته.

قال عليه السلام «تمام البر أن تعمل فى السر عمل العلانية» وإذا عظمت النفس الدنيا آثرها على حقوق الله تعالى، ولا يجتمع تعظيم الحقوق، وتعظيم الدنيا فى قلب، فأما إذا أسلم نفسه ووجهه إلى الله تعالى، وبذل نفسه لله تعالى عبودة صار من رجال الله تعالى، وعبيده، وخاصته فتعلوه مهابة كما إذا صار عبدا للملك ظهر عليه من بهجة ملكه وغناه ووجدت له هيبة فعبيد الله صدقا. عليهم من الله تعالى طلاوة،

---

(١) المداهنة: المواربة، والمصانعة.

(٢) رواه الزبيدى فى «اتحاف السادة المتقين» (٤/٥١٥) وكذا ورد فى «فيض القدير» (١/٤٠٤) وذكره السيوطى فى «الجامع الصغير»، وعزاه للحكيم الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) مدخولا: غريبا مقحماً على فطرته متصنعاً غير خالص.

وحلاوة، وملاحة ومهابة فإذا غيروا وبدلوا فعظموا الدنيا بخراب قلوبهم، فقد أرتجعوا فى نفوسهم فذهبت الهيبة لأنه الآن ليس من عبيد الملك إنما هو عبد نفسه، وهواه ودنياه وشهواته (٤) وسلطانه، وقوله وإذا تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرمت بركة الوحى فإن فى ترك ذلك خذلاناً للحق تعالى، وجفوة للدين، وفى ذلك ذهاب البصيرة وفقد النور فيصير القلب محجوباً فيحرم بركة الوحى؛ فيقرأه ولا تعى أذنه منه شيئاً قد حرم فهمه، وهو من أعلم الناس باللغة وأبصرهم بتفسيره وقد عمى عن لطائفه، ومعانيه، ووعده ووعيده، وأمثاله لأنه إذا وقع من لسانه فى أذنه صار إلى قلب صدره مظلم فكأنه قد غرق فى لجة إنما هو كلام يدخل سمعه؛ فإذا صار إلى الصدر صار فى عمى.

والذى أشرق صدره بالنور فعلى قلبه ينابيع الفهم يلتذ باللطائف أحلى من القطايف، ويفرح بالوعد ويحذر بالوعيد و يرغب ويرهب ويعتبر ويتعظ فهذا بركة الوحى، وقوله وإذا تسابت أمتى سقط من عين الله تعالى لأن بدوه الكبر والاستحقار بالمسلمين، والحسد، والبغى، والتنافس فى أحوال الدنيا فهذا سقط من عين الله.

والساقط من عينه قد خرج من كلاءته وحفظه ورعايته فليستعد للخذلان فى نوائب الدين والدنيا فإنه إذا زالت عنه رعايته ذهبت عصمته، وله فى كل نائبة ورطة حتى تؤديه إلى الورطة الكبرى سلب الدين والانتكاص (٥) على العقبين ومن سقط عن عينه لم يبال فى أى واد هلك، والعياذ بالله تعالى منه.

---

(٤) فى نسخة أخرى [وشيطانه] تحريف خطير من الناسخ.

(٥) الانتكاص: من النكوص، وهو التراجع والتدابر، والتزايل والتخاذل.

[الأصل الرابع والسبعون والمائة فى إيداع العهد بالدعاء بعد الصلاة]

عن أبى بكر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال فى دبر الصلاة بعدما يسلم هؤلاء الكلمات كتبه ملك فى رق فختم بخاتم ثم رفعها إلى يوم القيامة فإذا بعث الله العبد من قبره جاءه الملك ومعه الكتاب ينادى أين أهل العهود حتى يدفع إليه، والكلمات أن يقول: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم إنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا إنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك فلا تكلنى إلى نفسى فإنك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير وإنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل رحمتك لى عهدا عندك تؤديه إلىّ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد»(1) صاحب هذا العهد يتحلى بهذا العهد الذى عهد إلى ربه من الأسباب ويكون متعلقه رحمته ولا يثق إلا بها ولا يلحظ النجاة إلا بها، ويجعل هذا العهد فى الدنيا كالوديعة عند ربه وإنه أمله، ورجاؤه فمن كرم ربنا أن لا يقطع رجاءه ولا يخيب أمله.

قال الله تعالى:

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ (2).

واتخاذ العهد من صدق لا إله إلا الله والوفاء بها وهو أن لا يعتمد قلبك شيئا سواه فى أمر آخرة ولا دنيا فيكون هو كافيك وحسبك من الدارين.

---

(1) ذكره الهندى فى «كنز العمال» (٦٣٩/٢) وعزاه للحكيم الترمذى عن أبى بكر. وأورده السيوطى فى مسند «جمع الجوامع» (١٠٦٣/١) من مسند أبى بكر ونسبه للحكيم الترمذى.

(2) مريم (٨٧/١٩).

[الأصل الخامس والسبعون والمائة فى سر الكلمات العشر بعد الصلاة]

عن بريدة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال عشر كلمات عند دبر كل صلاة وجد الله عندهن مكفيا مجزيا، خمس للدنيا، وخمس للآخرة، حسبى الله لدينى، حسبى الله لدنياى، حسبى الله لما أهمنى، حسبى الله لمن بغى على، حسبى الله لمن حسدنى، حسبى الله لمن كادنى بسوء، حسبى الله عند الموت، حسبى الله عند المسائلة فى القبر، حسبى الله عند الميزان حسبى الله عند الصراط، حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب»(١) هذه مواطن نوائب العبد فى دنياه وآخرته، وقد جعل له فى كل موطن سببا، وعدة يقطع به تلك النائبة، فإذا أعرض عن العدة، والسبب وضرب عنه صفحا، وأغتنى بالله تعالى كافيا وحسيبا كفاه الله تعالى، وكان عند ظنه به، فعدته فى دينه العهد الذى أنزل، وهو الحبل الذى أمر بالاعتصام به، وعدته فى دنيا التوكل، والكسب من الطيب، وعدته فيما أهمه الحبل التى وضعت لكل هم وحيلة، وعدته فى البغى الأحتراز والتجافى والأخذ بالحزم، وعدته فى الحسد التواضع والمقاربة للحاسد، وعدته فى المكايدة بالسوء سد الأبواب التى منها يجد الكائد السبيل عليه، وعدته فى الموت العمل الصالح، وعدته فى المسائلة فى القبر تصحيح الأمر للجواب، وعدته عند الميزان كثرة الأعمال لثقل الوزن.

---

(١) ذكره الهندى فى «كنز العمال» (١٥٥/٣) وعزاه للحكيم الترمذى عن بريدة، وذكره القرطبى (٣٠٣/٨) وعزاه للحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول» عن بريدة.

وعدته عند الصراط النور للجواز، فإذا لها عن هذه العدد، وكان الله تعالى شرح بها صدره ولم يشخص أمله إلى شيء سواه ولا لحظ إلى خلق، ولا إلى فعل، وقال: حسبى الله عند كل موطن فقد تعلق بربه تعالى، ومن تعلق به لم يخيبه، وكان له فى تلك المواطن كظنه به.

قال عليه السلام فيما يروى عن ربه تعالى: «أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا دعانى» وكان إبراهيم عليه السلام لما وضع فى المنجنيق ليرمى به فى النار جأرت[2] السموات والأرضون والملائكة والخلق والخليقة بكاء وعويلا، قالت: يارب عبدك يحرق بالنار فأذن الله لهم فى نصرته إن استغاث بهم ودعاهم إلى نصرته، ورمى فى الهواء إذ عارضه جبريل عليه السلام بلوى من الله تعالى، فقال: يا إبراهيم هل من حاجة فقال: «أما إليك فلا حسبى الله»[3] قال الله تعالى:

﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [4].

فولى الله تعالى نصرته إذ لم يفزع إلى أحد سواه فلم يكله إلى أحد من خلقه، فهذا صدق قوله: حسبى الله. فإذا لم يكن العبد فى قلبه من الحقيقة ما كان لإبراهيم عليه السلام فإن لكل مقال حرمة والله تعالى لا يضيع حرمته، فإذا ردد هذه الكلمات نفعته فى هذه المواطن بأن كن شفعاء إلى الله تعالى، وإذا تكلم بها على يقظة وانشراح صدر وجد الله تعالى فى هذه المواطن قد كفاه.

قال عليه السلام «إذا قال العبد حسبى الله سبع مرات قال الله تعالى: صدق عبدى لأكفينه صادقا أو كاذبا».

---

(٢) جأرت: صرخت.
(٣) حسبى الله: كفانى سبحانه وتعالى.
(٤) الأنبياء (٢١/٦٩).

[الأصل السادس والسبعون والمائة فى أن حسن الجواب فى خلال الخطاب من لطافة الفهم من قراءة الرحمن من الوحى]

عن جابر رضى الله عنه قال: قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال: «ما لى أراكم سكوتا للجن كانوا أحسن ردا منكم ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة فبأى آلاء ربكما تكذبان إلا قالوا ولا بشىء من نعم ربنا نكذب فلك الحمد»(١) حسن الرد فى الجواب من لطائف الفهم وأجساد الجن من نار ولم يشغلهم شغل الآدميين فجوهرهم أرق وجوهر الآدمى أغلظ لأنهم من تراب، وهذه السورة قد عدد الله تعالى فيها النعم وخاطب بعديده الثقلين(٢) وقال فى ذكر كل نعمة «فبأى آلاء ربكما تكذبان» فكل هذا القول سؤال يحتاج إلى رد الجواب فيه، وأثنى عليه السلام على مؤمنى الجن بحسن ردهم الجواب، ومن رتبة الخطاب أن لا يترك الخطاب الذى له جواب مهملا ليكون المستمع كالغافل، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتوا على هذه الآية «أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى» قالوا اللهم بلى(٣) وإذا مروا بذكر النار استعاذوا

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة الرحمن (١٧٧/٩). ورواه البيهقى فى «دلائل النبوة» (٤٨/٢). وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» كتاب التفسير. تفسير سورة الرحمن (٤٧٣/٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبى. وذكره السيوطى فى مسانيد «الجامع الكبير» (٣٢٩/٢).

(٢) الثقلان: الإنس والجان.

(٣) بلى: تأتى فى الإجابة على السؤال المنفى.

بـالله ، فـاقـتضاهم عليه السلام فى وقت قرائته عليهم ما وجده من الجن ، واسـتـحـسـنـه منهم وكان من أصحابه عليه السلام من يشغله ذرو كلامه عـن الـنظر فى معناه إجلالا لكلام الله تعالى ، ودهشا فى ذكره ، ومنهم مـن يـتـعلق قلبه بأول الآية فيشغله أولها عن ذكر ما بعدها كما صلى على بـن فـضـيـل بـن عـيـاض رضى الله عنه خلف إمام قرأ سورة الرحمن فلما انـفـتـل قـيـل لـه : يـا عـلـى ألم تـسـمع إلى ما أعد الله للمؤمنين من نعيم الجـنـان ؟ فـقـال : شـغـلـنـى مـا قـبـلها عن ذكر الجنان يعنى ذكر النار ، وسـلـطـان كـلام الله تعالى على القلوب ، على قدر ما فيها من العلم بالله تـعـالى ، والخشية له والحظ من القربة ، وإنما ينزل من القلب كلام كل واحد منهم على قدر منزلته عنده .

قـال عـلـيـه الـسـلام : « مـن أحب أن يعلم ما منزلته عند الله فلينظر ما لله عنده من المنزلة فإن الله تعالى ينزل من العبد حيث أنزله العبد من نفسه » .

[الأصل السابع والسبعون والمائة فى كلمات الفرج والمغفرة والتلقين]

عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين قالوا: يا رسول الله فكيف هى للحى، قال: أجود وأجود»(١) وتسمى هذه الكلمات عند أهل البيت كلمات الفرج يدعون بها فى النوائب والشدائد، وذلك ما روى على كرم الله وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه ورسلم: «ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن غفرت لك ذنوبك مع أنه مغفور لك، لا إله إلا الله العلى العظيم، لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين».

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه -كتاب الجنائز- باب تلقين الموتى لا إله إلا الله (٢١٩/٦). وأخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الجنائز- باب ما جاء فى تلقين المريض عند الموت والدعاء له عنده (١٩٧/٣) من رواية أبى سعيد. وقال أبو عيسى: حديث حسن غريب صحيح. وأخرجه أبو داود فى سننه -كتاب الجنائز- باب فى التلقين (١٩٠/٣). وأخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الجنائز- باب ما جاء فى تلقين الميت لا إله إلا الله (٤٦٤/١).

[الأصل الثامن والسبعون والمائة فى حكمة الصدقة لم صارت بعشر والقرض بثمانية عشر]

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت على باب الجنة مكتوبا القرض بثمانية عشر، والصدقة بعشر، فقلت: ياجبريل، ما بال القرض بثمانية عشر والصدقة بعشر، قال: لأن صاحب القرض لا يأتيك إلا وهو محتاج وربما وضعت الصدقة فى غنى»(١) المتصدق حسب له الدرهم بعشرة فدرهم صدقته وتسعة زائدة فصارت له عشرة والقرض على ضعف الصدقة فدرهم قرضه يرجع إليه فلا يحسب بقى تسعة فتضاعف فيكون ثمانية عشر والله أعلم وأحكم.

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الصدقات- باب القرض (٢/٨١٢). وأخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده من حديث أبى أمامة (٥/١٥٥). وذكره الزبيدى فى «اتحاف السادة المتقين» (٥/٥٠١) وقال: رواه الحكيم فى النوادر وأبو نعيم فى الحلية، والبيهقى. كلهم عن أنس.

[الأصل التاسع والسبعون والمائة فى بيان أفضل ما أعطى الناس]

عن أبى بكر رضى الله عنه، وكان يخطب وقال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامى فيكم ثم بكا ثم أعادها ثم بكى ثم أعادها ثم بكى فقال: «إن الناس لم يعطوا شيئا أفضل من العفو والعافية فاسألوهما الله سبحانه»(١) العفو والعافية مشتق أحدهما من الآخر إلا أن العفو يستعمل فى نوائب الآخرة والعافية تستعمل فى نوائب الدنيا، وأصل ذلك التفضل عليه أن يتفضل على عبده فلا يعاقبه، ولا يبتليه، والعفو الدرس ومعناه أن يدرس عنه آثار الذنوب، والبلاء عن جوارحه فإن لكل نعمة تبعة، ولكل ذنب نقمة فى الدنيا أوفى الآخرة، فإذا درست عنه التبعات والنقمات تخلص بهذا فى العفو والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الدعاء- باب الدعاء بالعفو والعافية (٢/١٢٦٥). وأخرجه الحاكم فى المستدرك -كتاب الدعاء- باب سؤال العفو والعافية (١/٥٢٩) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى. وأخرجه أحمد فى المسند من حديث أبى بكر الصديق (١/٣).

[الأصل الثمانون والمائة فى الإلحاح فى الدعاء وسر كونه محبوبا]

عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله يحب الملحين فى الدعاء»(١) الالحاح ملق والمؤمن حبيب الله وكلما كثر سؤال الحبيب فهو أحب إلى محبه والله تعالى يحب صوته.

قال عليه السلام: يقول الله تعالى لجبريل عليه السلام: يا جبريل قد قضيت حاجة فلان وأجبت دعوته، ولكن احبسها عنه فإنى أحب صوته.

وعن وهب رضى الله عنه قال: إن الله تعالى يقول «أنزل البلاء استخرج منه الدعوة» وإنما صار الملح محبوبا لأنه لاينقطع رجاؤه فهو يسأل فلا يرى إجابة فلا يزال يلح، ولا ينقطع رجاؤه ولا يدخله اليأس، فذلك لعلمه بالله تعالى وصحة قلبه، وصدق عبودته، واستقامة وجهته فمن صدق الله فى دعوته استعمل اللسان، وانتظر بالقلب مشيئته فلا يضيق، ولا ييئس، لأن قلبه صار معلقا بمشيئته، فانتظاره المشيئة من أفضل ما يقدم به على ربه، وهو صفو العبودة، واستعماله اللسان عبادة لأن فى السؤال اعترافا بأنها له، وانتظار مشيئته لقضائه عبادة فهو بين عبادتين وجهتين، وأفضل الدعاء من داوم عليه.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (١٦٨٦/٢) وعزاه للحكيم الترمذى والطبرانى فى الدعاء. وذكره ابن حجر فى الفتح الربانى فى ترجمة كتاب الدعوات (٩٥/١١) وقال: أخرج الطبرانى فى الدعاء بسند رجاله ثقات إلا أن فيه عنعنة بقيه عن عائشة مرفوعاً «إن الله يحب الملحين فى الدعاء».

قال عليه السلام: «ليدع أحدكم ولا يقولن قد سألت ولم يستجب لي».

قال عليه السلام: «إن العبد المؤمن، يستجاب له فإذا قال العبد يارب، قال الله تعالى: لبيك فإذا سأله حاجة فإما أن يعجل له حاجته وإما أن يصرف عنه شرا بدل حاجته وإما أن يدخر له في آخرته ما هو خير له مما سأل فلم تسقط دعوته على كل حال» وأما أهل اليقين فإنهم يدعون، ويلحون فإن أجاب قبلوا وإن تأخر صبروا وإن منع رضوا، وأحسنوا الظن، وهم في الأحوال ساكنون مطمئنون ينتظرون مشيئته. قال سفيان الثوري رحمه الله: أتيت أبا حبيب العدوي أسلم عليه، وما كنت رأيته قط قال: لي أنت سفيان الثوري الذي يقال؟ قلت نعم: نسأل الله تعالى بركة ما يقال. ثم قال: يا سفيان ما رأينا خيرا قط إلا من ربنا. قلت: أجل قال: فما لنا نكره لقاء من لم نر خيرا قط إلا منه. ثم قال لي: يا سفيان منع الله إياك عطاء منه لك، وذاك أنه لم يمنعك من بخل، ولا عدم، وإنما منعه نظرا واختياراً يا سفيان إن فيك لأنسا، ومعك شغلا. سلام عليك ثم أقبل على غنيمته، وتركني فالإعطاء أحب إلى أهل الجود من الأخذ للسؤال، وهم يلتذون بالجود والإعطاء، أكثر مما يلتذ الآخذ بالنوال لأن الأخذ خلق الفقراء، والإعطاء خلق الأغنياء، وهو خلق أهل الجنان، وهو خلق الله الأعظم، وكان من دعاء سفيان رحمه الله يا من يحب أن يسأل، ويغضب على من لا يسأل، ويامن أحب عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله، وليس أحد غيرك كذلك يا كريم، ويامن أبغض عباده إليه من لا يسأله، ولم يطلب إليه وليس أحد غيرك كذلك يا كريم، ويامن أحب عباده إليه من سأله العظيم، ولم يعظم عليك وعزتك عظيم، يا عظيم، وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: «أطلب إلى العلف لشاتك، ولا تستحي أن تسألني صغيرا، ولا تخف مني بخلا أن تسألني» والله أعلم.

[الأصل الحادى والثمانون والمائة فى قراءة القرآن فى أربعين ليلة]

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يقرأ القرآن فى أربعين ليلة فاستزاده حتى رجع إلى سبع (1). فالأربعون مدة الضعفاء وأولى الأشغال، ويكون ختمه فى السنة تسع مرات، ومدة الأربعين مرددة فى الأشياء كثيرة وأما توقيت السبع فإنه للأقوياء الذين يقوون على سهر الليالى، واحترفوا العبادة، وتفرغوا من اشغال النفس والدنيا.

قال رجل يا رسول الله من قرأ القرآن فى سبع، قال: ذاك عمل المقربين، قالوا يا رسول الله فمن قرأه فى خمس؟ قال: ذاك عمل الصديقين، قالوا يا رسول الله فمن قرأه فى ثلاث، قال ذاك عمل النبيين، وذاك الجهد، ولا أراكم تطيقونه إلا أن تصبروا على مكابدة الليل أويبدأ أحدكم بالسورة وهمه فى آخرها قالوا يا رسول الله وفى أقل من ثلاث، قال: «لا ومن وجد منكم نشاطا فليجعله فى حسن تلاوتها». أراد عليه السلام بذلك المداومة عليه وأن يصيرها عادة، ولو قرأ فى يوم وليلة لكان عظيم القدر.

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب فى كم يقرأ القرآن (٩/٩٤). وأخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب الصوم ـ باب النهى عن صوم الدهر وتفضيل صوص يوم وإفطار يوم (٨/٤٢). وأخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب القراءات ـ (٤/١٩٧) وقال أبو عيسى: حديث حسن غريب. وأخرجه أحمد فى المسند (٢/١٦٢).

وكان عثمان رضى الله عنه ختم فى ركعة واحدة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يقرأه فى سبع تيسيرا على الأمة.

عن أوس رضى الله عنه قال: احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقلنا له فقال إنه طرأ على حزب من القرآن، فأحببت أن لا أخرج من المسجد حتى أقضيه. فقلنا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف تحزبون؟ قالوا ثلاث سور وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل ما بين قاف فأسفل.

ودلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول على حسن التلاوة فإن القرآن موعظة والله تعالى يحب أن تعقل مواعظه، ونصائحه، ولطائفه، فإذا خاطب عبده بشيء يريد إظهار ما لهم عنده من الأثرة، والمحبة، ويحب أن يعجل أوائل بره فى عاجل محياهم، ليتلذذوا به، ويفرحوا فإذا مر عليه التالى بهذه هذا، وقلبه فى عماء (٢) من ذلك مقته كما أن واحدا منا إذا كلم آخر بشيء يريد به بره وإلطافه، فاستمع إلى كلامه بأذنه لاهيا عن ذلك بقلبه سقط عن عينيه فكيف برب العالمين، وقد أدب الله تعالى، ودلهم على الترتيل فقال تعالى:

﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ (٣).

وقال تعالى:

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ (٤)

---

(٢) المقت: الكراهة.

(٣) المزمل (٤/٧٣).

الترتيل فى القراءة: التبين لها، يقال: كلام ترتيل: أى مرتل، وثغر رتل إذا كان المستوى الثبات. راجع لسان العرب (١٣/ ٢٨١) وانظر بسط القول فى شرح معنى الآية فى الطبرى (٢٩/ ٨٠) والقرطبى (١٩/ ٣٦).

(٤) الإسراء (١٧/١٠٦).

وقال تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٥)

دلهم على الترتيل والتؤدة، والتدبر ليصل إليهم نفع ذلك، فأفضلهم قراءة أعقلهم عنه فمن أسرع القراءة وعقل عنه كان فى نور عظيم، ومنزلة عليه لفضل نوره ومن قصر ذلك، فالتفكر والتدبر خير له وأنفع.

(٥) ص (٢٩/٣٨).

[الأصل الثانى والثمانون والمائة فى أن النفس لا تموت حتى تستكمل رزقها]

عن حذيفة رضى الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فدعا الناس بيده هكذا فقال: «اجلسوا وأقبل الناس، فقال بيده هكذا اجلسوا ثم قال: إنى رأيتكم تطلبون معايشكم هذا رسول رب العالمين جبريل نفث فى روعى: أن لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها وإن أبطأ عليها فاتقوا الله أيها الناس، وأجملوا فى الطلب، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تأخذوه بمعصية فإن الله لا يدرك ما عنده إلا بطاعته»(١) الروع القلب، والنفث هو من الروح ويشير فى قوله «هذا رسول رب العالمين» أن جبريل عليه السلام، شاهده فى ذلك الوقت والأرزاق معلومة، وقسط كل نفس(٢) واصل إليها وإن هربت منه، ولا تموت حتى يستوفى ما قسم لها، فحذرهم عليه السلام(٣) عن الغفلة، ودلهم على إجمال الطلب، وهو أن يحسن نيته فى طلبه، ويطلبه للعفة، ولقوام الدين، والقيام بما أمر الله تعالى فى ذلك، ويحفظ فيه الجوارح، ويبذل النصيحة، ويراعى الأمانة، ويتجنب الخيانة، والحلف

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب التجارات- باب الاقتصاد فى طلب المعيشة (٢/٧٢٥). وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» -كتاب البيوع- باب لم يكن عبد يموت حتى يبلغ أخر رزق هو له (٢/٤) وصححه الحاكم وأقره الذهبى. وأخرجه البيهقى فى «السنن الكبرى» -كتاب البيوع- باب الاجمال فى طلب الدنيا وترك طلبها بما لا يحل (٥/٢٦٤).

(٢) فإن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله.

(٣) كذا ورد بأكثر الأصول والأصح (من الغفلة).

والكذب، والغش، ويطلبه مع ذكر آخرته كما قال تعالى:

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (٤).

طهر قلوبهم خوف ذلك اليوم، وأذهل نفوسهم عن شهوة تستخفهم، أوفتنة فى طلبها تستفزهم، وأمات خوف العقاب منهم كل حرص، وأكسلهم ثقل الحساب عن طلبه فتخلصوا بذلك من فتنه.

---

(٤) النور (٣٧/٢٤).

[الأصل الثالث والثمانون والمائة فى أجر الصبر الجميل عند المصيبة]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى إذا وجهت إلى عبد من عبادى مصيبة فى بدنه أوفى ولده، أوفى ماله فاستقبله بصبر جميل استحييت يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أوانشر له ديوانا»(١) الصبر ثلاث: صبر الموحدين وهو ان لا يسخطوا على ربهم ولا يجوروه، فلموجب إيمانهم صبروا، واعترفوا أنه عدل فى ذلك ثم أهملوا جوارحهم فى المعاصى لحرقة تلك المصيبة(٢) فهو صبر الظالمين. والثانى: صبر المقتصدين: فإنهم صبروا بالقلب، والجوارح، فرضوا بالقلب عن ربهم، وحفظوا جوارحهم عن المعصية بسبب ما نزل بهم لكن فى النفس شدة، وكزة، ومرارة، وعسر ولم يملكوا أكثر من ذلك فهذا صبر قد أذهبت النفس بشؤمها جماله. والثالث: صبر المقربين فهو الرضاء لم تجد لوعة المصيبة مساغا فى قلوبهم، لما فيها من الحلاوة واللذاذة بقرب الله تعالى، لأن النور لما اشتعل فى صدورهم بعد امتلاء القلب منه وأحرقت شهوات النفس، ومناها وصار الصدر مستنيرا من نور القلب، وشرح الله صدره بالإسلام لم يبق فى النفس غل ولا كزة، ولا مرارة، ولا عسر انتبهت النفس عن نومها وخرجت من مشيئتها، وأفاقت عن سكرتها فصارت مشيئة الله تعالى عندها أحلى من مشيئته

(١) ذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (٢/ ٨٣) وقال: الحكيم الترمذى عن أنس وأشار إلى ضعفه. وذكره الزبيدى فى «اتحاف السادة المتقين» (٩/ ٤٧، ٤١٢) وقال: قال العراقى: رواه ابن عدى فى الكامل من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) فى نسخة أخرى [تلك المعاصى].

وصار بدل المرارة حلاوة، وعوض العر غنى فأين ما برزت مشيئته فى شىء من حجب غيبه وقفت قلوبهم عند مشيئته، وهم الصادقون فى قولهم: «ما شاء الله كان» فصبر المخلطين صبر ايمان محشو بالجزع وصبر المقتصدين رضاء مع كزة النفس، وصبر المقربين رضاء القلب، ورضاء النفس لأنه قد انكشف لهم أنه قد أوصلهم إلى أشرف الأشياء لعطفه، ورأفته، وهو معرفته، فلم يتهموه بعد ذلك فى حال من أحوال نفوسهم، فكيف ما دبر لهم من محبوب أومكروه، وقع ذلك منهم موقع بر ورحمة، وعطف، ورأفة كما قال معاذ رضى الله عنه حين اشتد به النزع فى الطاعون فيغشى عليه ثم يفيق فيقول: اخنقنى خنقك رب، فوعزتك لا تزداد بذلك عندى إلا حبا، وكان الربيع بن خيثم رضى الله عنه ربما خرج إلى صلاته فى مرضه، فغشى عليه، فيجده إخوانه صريعا فى الطريق، فيرشون عليه الماء حتى يفيق فيقول: يا رب، غط ما شئت إن تغط فوعزتك لا تزداد بذلك عندى إلا حبا. فيقال له إنك لفى سعة أن لا تكلف نفسك هذا فيقول: فكيف بهذا الذى ينادى حى على الصلاة لا أقدر أن لا أجيبه. وروى أبو موسى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الصبر رضاء» قوله: فاستقبله بصبر جميل، استحييت أن أنصب له ميزانا، لأن العبد إذا صار يتلقى أحكامه بالرضى، وهو جمال الصبر صار من أوليائه وخاصته، والخاصة لا يحاسبون، ولا يفتشون، ولا يقابلون فى الثواب بالاعمال، بل يرفعون إلى معالى الدرجات بالحظوظ التى كانت فى قلوبهم من ربهم ويسامحون بالنوال فى الدرجات، كما سامحوا بنفوسهم ولم يكن لهم شىء أعظم منها فألقوها بين يديه عبيدا كما خلقهم فثوابهم بغير حساب، ونوالهم بغير مقدار، وقربتهم بغير حد ولا ضبط.

[الأصل الرابع والثمانون والمائة في طلب الخير والتعرض لنفحات رحمة الله]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اطلبوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله تعالى نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم»(١) فالنفحة الدفعة من العطية فيعطى فى دفعة واحدة ما يأتى على كثير من النعم، والنفحات من فتحات باب خزائن المنن، فإن خزائن الثواب بمقدار وعلى طريق الجزاء، وخزائن المنن تغرق الواحدة منها لأنها منه يمن جودا، وعطفا ووقت الفتحة غير معلوم، وإنما غيب علمه عنهم ليداوموا على طلبها بالسؤال المتدارك، ويكونوا متعرضين له فى كل وقت وكل حال فإنه إذا داوم على ذلك كان وشيكا أن يوافق دعوته الوقت الذى يفتح فيكون قد ظفر بالغنى الأكبر وسعد سعادة الابد كملك قدر الأرزاق على عبيده، وجنده شهرا شهرا، ثم له فى خلال ذلك عطية من سماحة، وجود فيفتح باب الخزانة فيعطى منها ما يعم ويستغرق جميع الأرزاق الدارة التى أخذوها مدة سنين فمن وافق ذلك من الملك استغنى آخر الأبد، ولا يدرى أى وقت يسمح ويعطف فينبغى أن يديم الاختلاف إليه فى اليوم مرار ارجاء أن يوافق تلك

---

(١) أخرجه الخرائطى فى «مكارم الأخلاق» باب ما يستحب للمرء من ستر عورة أخيه المسلم وما له من الثواب (٢/ ٩٨٤) حديث رقم ٤٩٨. وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٣١) وقال: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح. وأخرجه البغوى فى شرح السنة (١٧٩/٥).

الساعة. قال لقمان عليه السلام لابنه: «يا بنى عود لسانك أن تقول اللهم اغفر لى فإن لله ساعات لا ترد»، وقال الحسن: أكثروا الاستغفار على أحوالكم فإنكم لا تدرون أى حين تنزل المغفرة.

[الأصل الخامس والثمانون والمائة فى عشرة الحليم وتجربة الكريم الحكيم]

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا حليم إلا ذو عثرة ولا حكيم إلا ذو تجربة»(١) الحليم المنشرح صدره الذى يتسع صدره لمساوئ الخلق، وسوء سيرتهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبر الناس على أقذار الخلق، وقال الحسن رضى الله عنه: ما سمعت الله تعالى نحل عباده شيئا أقل من الحلم.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ (٢).

وقال:

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (٣).

إنما عظم حلمهما بما اتسع صدرهما للأمر العظيم الذى حل بهما من الذبح فاتسع صدر إبراهيم عليه السلام لذبح ولده، وصدر الغلام عليه السلام

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب الأدب - باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (١٠/ ٥٣٩). أخرجه الترمذى فى سننه - كتاب البر والصلة - باب ما جاء فى التجارب (٤/ ٣٧٩). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» - كتاب الأدب - باب لا حليم إلا ذو عثرة ولا حكيم إلا ذو تجربة (٤/ ٢٩٣). وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وأقره الذهبى.

(٢) هود (١١/ ٧٥).

(٣) الصافات (٣٧/ ١٠١).

لتسليم نفسه لله تعالى، فالحليم من يسلم النفس لربه عز وجل عبودة فى جميع ما يأمر، وفيما يحكم عليه فى الأحوال، والحلم والملح واحد(٤) كما لا تطيب الأطعمة إلا بالملح لا تطيب النفس إلا بالحلم.

قال على كرم الله وجهه: «الحلم كظم الغيظ وملاك النفس».

وفى الخبر أن أيوب عليه السلام كان أحلم الناس وأصبره وأكظمه لغيظه. وقوله: لا حليم إلا ذو عثرة أى لا يتسع الرجل لما يرى من الخلق إلا بعد ما يعثر فإذا رأى عثرته رحم الخلق، واتسع لهم واتقى أن يلوم أحدا بعيب أويعيره بذنب. وكان داود عليه السلام يشدد على الخطائين، ولا يجالسهم وقال: يا رب لا تغفر للخطائين لشدة الغيرة لله تعالى، وكثرة الحنق(٥) عليهم، فلما عثر كان ينظر إلى أغمص مجلس فى بنى إسرائيل، ويقعد معهم ويقول مسكين بين ظهرانى مساكين رب اغفر الخطائين كى تغفر لداود معهم. وقوله: لا حكيم إلا ذو تجربة. فالعقل يدل على الرشد، والحكمة نور يكشف عن مكنون الأمور، ولا تستكمل الحكمة مع كشف الغطاء، واطلاعه بالقلب، حتى يطالع الأمور بمباشرة النفس فإن كل شيء تجده القلوب فمباشرة النفس مع القلوب أثبت، وآكد، فالحكيم قد انكشف له الغطاء فيرى عواقب الأمور وزينها وشينها، فإذا رأى ذلك بالجوارح، كان ذلك عيانا لا يرفع ولا ينسى فبعد التجارب تستكمل الحكمة لأنها كانت قبل التجربة معاينة القلب فصارت معاينة العين وكان ذلك علم اليقين فصار الآن عين اليقين ولهذا قيل أن العقل بالتجارب.

---

(٤) لأن مادة الاشتقاق واحدة وهى الحاء المهملة واللام والياء والميم.
(٥) الحنق: الغيظ.

[الأصل السادس والثمانون والمائة في أن فزع وعد القرآن يورث الشيب وسر اللحظات]

عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: قالوا يارسول الله نراك قد شبت قال: «شيبتني هود وأخواتها» الفزع يذهل النفس فينشف رطوبة الجسد وتحت كل شعرة منبع ومنه يعرق فإذا انتشف الفزع رطوبته (١) يبست المنابع فيبس الشعر فابيض لذهاب رطوبته ويبس جلده كالزرع إذا ذهب سقياه يبس وابيض ولهذا يسرع الشيب إلى المحرور(٢) لانتشاف الماء لأن المرة يابسة فتأدت إلى المنابع فيبست وابيض الشعر فالنفس تذهل لوعيد الله تعالى، فتذبل وينشف ماءها (٣) ذلك الوعيد والهول الذي حل بها فمنه تشيب.

قال الله تعالى:

﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ (٤).

وسورة هود وأخواتها مثل الحاقة، وسأل سائل، وإذا الشمس كورت، والقارعة، ففيها ذكر الأمم وما حل بهم، فتذهل منه النفوس وتشيب منه

---

(١) ذكره الزبيدي في «اتحاف السادة المتقين» (٩/٤٦٣) وقال: قال العراقي: رواه العقيلي في «الضعفاء». وأبو نعيم في «الحلية». وقد ذكره ابن حبان في «الثقات». وكذلك رواه الحكيم في «نوادر الأصول». كما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/١٧٤).

(٢) وردت في إحدى النسخ [الممرور] وهو تحريف خطير من الناسخ.

(٣) هذا على سبيل التشبية التمثيلي.

(٤) المزمل (١٧/٧٣). راجع البحر المحيط (٨/٣٦٥).

الرؤس ولو ماتوا من الفزع لحق لهم ولكن الله تعالى يلطف بهم فى تلك الأحايين. حتى يعوا وحيه وتنزيله قال تعالى:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (٥).

وروى أنه عليه السلام تلا آية، وعنده شاب فخر ميتا فقال عليه السلام: «إن الفرق فلذ كبده» أى قطعه، فأهل اليقين بارز على قلوبهم لحظات الله تعالى، والعفو جنايب لولا ذلك ما استقر لهم قرار من هول أخذه، واللحظة قد شملت القدرة والحلم إلا أن أهل اليقين قد اطمأنت قلوبهم، فارتفعت فى سعة عفوة. قال محمد بن الحنفية رضى الله عنه أن لله ثلاثمائة وستين لحظة يلحظ بها إلى كل عبد من عبيده فى كل صباح فإذا أخذ أخذ بقدرة وإن عفا عفا بحلم. وكتب على بن الحسين رضى الله عنهما إلى الحجاج جواب كتابه الذى كان يوعده فيه «بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن لله عز وجل فى كل يوم ثلاثمائة لحظة يلحظ بها إلى أهل الأرض فمن أدركته تلك اللحظة صرف الله عنه شر الدنيا والآخرة، وأعطاه خير الدنيا والآخرة» وأرجو من الله أن يدركنى بعض لحظانه فيصرف عنى شره، ويرزقنى ما وعدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ هذا الكلام هرقل، فقال: لا يخرج هذا إلا من أهل بيت نبوة.

---

(٤) الحشر (٥٩/٢١).

[الأصل السابع والثمانون والمائة فى النهى عن الاعتزاز بالعبيد]

عن عمر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من اعتز(١) بالعبيد أذله الله تعالى»(٢) الاعتزاز الامتناع من الأشياء التى تنوبه فإن امتنع بمن لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فذاك من العزة والاعتزاز بالعبيد من الجهل بالله، وجهله به سبب لضعفه فى كل الأمور، وقد دلهم الله تعالى على ما فيه رشدهم.

فقال:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ (٣)

والاعتصام به والاعتزاز من ذرى الإيمان، ومن اعتصم بالمخلوقين، واعتز لعرض الدنيا فهو المخذول فى دينه، الساقط عن عين الله تعالى، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: ما من عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له من ذلك مخرجا وما من عبد يعتصم بمخلوق دونى إلا قطعت أسباب السماء من بين يديه وأسخطت الأرض من تحت قدميه.

(١) أى من طلب العزة.

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه -كتاب التفسير- تفسير سورة الواقعة (٥/٤٠٢) وقال أبو عيسى: حديث حسن. وأخرجه الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٧/٣٧) وقال: رجاله ثقات. وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» -كتاب التفسير- سورة هود (٢/٣٤٣) وقال الحاكم صحيح وأقره الذهبى.

(٣) الحج (٢٢/٧٨).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: إنى والجن والإنس فى نباء عظيم أخلق ويعبد غيرى وارزق ويشكر غيرى.

[الأصل الثامن والثمانون والمائة فى خصال طعم يحصل بها طعم الإيمان]

عن عبد الله بن معاوية العامرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث من فعلهن طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده بأنه لا إله إلا هو، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، ولم يعط الهرمة، ولا الذرية، ولا المريضه، ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله لم يأمركم بخيره، ولم يأمركم بشره، وزكى نفسه فقال رجل: وما تزكية نفسه قال أن يعلم أن الله معه حيثما كان»(١).

فالزكاة ثلاثة زكاة القلب: لا إله إلا الله، وزكاة المال: إخراج ما افترض الله فيه منه زكاة النفس عملها بأن الله تعالى معه حيثما كان، فإذا علم ذلك استوت سريرته وعلانيته وهابه واستحيى منه فى كل وقت، ومكان، والهيبة والحياء وثاقان(٢) لنفس العبد من جميع ما كره الله سرا وجهرا وظاهرا وباطنا، والنفس فى هذه الأحوال تخشع لهيبته، وتذل، وتخمد شهواته وتذبل حركاته، وانبعاثه، وتخجل وتنقبض للحياء منه، فإذا كان من الله تعالى لعبده تأييد بهذين فاكتنفاه(٣) فقد استقام وأردنا بالعلم علم القلب، لا علم اللسان فإن علم اللسان أصله من

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه -كتاب الزكاة- باب زكاة السائمة (١/٢٩٩). وأخرجه البخارى فى «التاريخ الكبير» (٥/٣١). وأخرجه البيهقى فى «السنن الكبرى» -كتاب الزكاة- باب لا يأخذ الساعى فما يأخذ مريضاً ولا معيباً (٤/٩٥).

(٢) وثاقان: مثنى وثاق وهو القيد.

(٣) اكتنفاه: احتوياه، وغشياه وستراه، والكنيف هو الساتر.

القلب ولا قرار له لأنه شرارة من شرر الإيمان، وهى حجة الله تعالى على ابن آدم، وعلم القلب علم اليقين، قال صلى الله عليه وسلم «العلم علمان علم بالقلب فذاك العلم النافع وعلم على اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم، فالزكاة هى الطهرة والنماء. فإذا قال العبد صادقا من قلبه هذه الكلمة فإنما قوله من النور الذى أحيى الله تعالى به قلبه فذلك النور طهر جميع جسده، ولصدق هذه الكلمة ثلاث منازل أوله الظالمون، وأوسطه المقتصدون، وآخره المقربون. فالظالمون زكوا قلوبهم وجوارحهم بهذا القول ثم دنسوها بالمعاصى، فهو مع ظلمه شريف المنزلة رفيع القدر لم يخرج بظلمه نفسه من ولاية الله تعالى، ومن رحمته، ولا زالت عنه حرمته، وإن تابوا زالت الأدناس وصاروا من أهل نور الطاعات. والمقتصدون زكوا قلوبهم بهذه الكلمة، وزكوا أموالهم وأجسادهم بالإيتمار بأمر الله، والتناهى عن نهيه، ثم ثبتوا على تزكية الأموال، والأجساد ودنسوا قلوبهم بالرغبة، والرهبة والشهوة والغفلة، والحرص والعجلة ومحبة النفس وهواها ومحبه الدنيا، وأحوالها والمقربون زكوا بما زكى به المقتصدون، وأقبلوا على قلوبهم فرعوها عن أن تتدنس بشىء مما ذكرنا فكان مرعى قلوبهم بين يديه لم يكن للدنيا ولا للنفس هناك دنو ولا لحاظ، فتزكية قلوب الظالمين بنور التوحيد وجاءت الشهوات بظلمتها، وأحاطت بالقلب ولم يكن لنوره الذى أعطى ما يحرق هذه الشهوات، وتزكية قلوب المقتصدين بنور الإنابة فإنه إذا أناب العبد استنار قلبه بنوره، فأخرجه من سكر الظالمين فأفاق فخاف العقاب ورجا الثواب وأبصر الآخرة حتى صارت نصب عينيه، وتزكية قلوب المقربين نور القربة، فأحرق الشهوات وامتلأ القلب من نور التوحيد، وأشرق الصدر بنوره فأيقظه من نومة الغافلين فانتبه وفى المقربين قوم مصطفون مجتبون (٤) هم خاصة المقربين وهم المحدثون فتزكية قلوبهم نور وجهه

---

(٤) مجتبون: مصطفون مختارون، من الاجتباء.

الكريم، فهم في قبضته يتصرفون، فالظالمون علانيتهم أكبر من سريرتهم، وهو الجور(٥) والمقتصدون استوت سريرتهم وعلانيتهم، وهو العدل، والمقربون فضلت سريرتهم علانيتهم فللحظة من سرائرهم أعظم من أعمال الثقلين(٦) عمر نوح عليه السلام.

قال ابن مسعود رضى الله عنه أن الرجل من هذه الأمة يبلغ عمله يوما واحدا ما يكون أثقل من سبع سموات وسبع أرضين فى الوزن.

ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبل أحد فقال: رب رجل من أمتى يعدل الحرف الواحد من تسبيحه هذا الجبل.

وقوله: أن يعلم أن الله معه حيث ما كان فهذه تزكية النفوس، وهذا العلم علم الإنابة فإنه إذا أناب استثار فبقى خوفه معه فقيده عن المعاصى سرا وجهرا وهو علم القلب الذى قال عليه السلام فذاك العلم النافع.

والظالم إنما يعلم علم إيمان أن الله تعالى معه ثم لا تأخذه مخافة هذا العلم حتى يقيده عن المعاصى سرا وجهرا فذاك هو العلم الذى قال عليه السلام «هو علم اللسان» وأما المقرب فعلمه علم يقارب المعاينة.

قال عليه السلام «أن تعبد الله كأنك تراه».

وكلم عروة بن الزبير عبد الله بن عمر رضى الله عنهم فى الطواف بشىء من خطبة ابنته فلم يجبه فلما لقيه بعد ذلك قال: إنا كنا نتراأى الله سبحانه وتعالى فى الطواف بين أعيينا فذاك الذى منعنى من جوابك.

---

(٥) الجور: الظلم.
(٦) الثقلين: الإنس والجن.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن أفضل إيمان العبد أن يعلم أن الله معه حيث ما كان» وهذا علم اليقين لا علم القلب، ولا اللسان. فالموحدون علموا أن الله تعالى معهم وقررهم إيمانهم به ثم لم يعملوا فى قلوبهم، وراء ذلك شيئا والمقتصدون أعطوا علم الإنابة وهو النور الذى إذا أناب أعطى، فوجد المخافة فقيده ذلك النور الذى ورد على قلبه عما كره الله تعالى ووقف به على سبيل الاستقامة، والمقربون من أعطى اليقين، وانكشف الغطاء عن قلبه بنوره، وهو نور الأنوار فنظر إلى جلال الله تعالى، وعظمته فاندست أعضاؤه بعضها فى بعض وصارت نفسه الشهوانية كشجرة أصابها الحريق فيبست حتى صارت جذعا، وصارت أركانه كوعاء فيه حبوب عذرا وضعفا، وعجزا، ثم أحله مرتبة من مراتبه بين يديه فأحيا قلبه فقوى بالله تعالى، وخبث شهواته، ورطب جسده وانبسطت جوارحه، وانفتقت أعضاؤه، وعاش فى غذائه، ونجواه وبشراه بقية محياه مراقبا لأموره كأنه يراه و فحياؤه منه أكثر من حياء ملأ عظيم ضمهم أشراف المسلمين، وهيبته له أكثر من هيبته من ملك من ملوك الدنيا بل يدق حياؤهم فى جنب إحيائه منه، وهيبته لذلك الملك فى جنب هيبته له وهو الذى قد علم حق الحق أن الله تعالى معه فلولا أن الله تعالى يلطف له حتى ينبسط منه، ويؤنسه، ويقويه لاحتمال ذلك لما قدر عليه، ولا صلح للمعاش والعشرة.

[الأصل التاسع والثمانون والمائة في أن الأرض تنادى بنى آدم كل يوم سبعين مرة]

عن ثوبان رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الأرض لتنادى كل يوم سبعين مرة يا بنى آدم كلوا ماشئتم واشتهيتم فوالله لأكلن لحومكم وجلودكم»(1) هذا نداء متسخط فيه وعيد يقع على من أكل بشهوة ونهمة، وغفلة. فإن الله تعالى سخر لنا لنشكر لا لنكفر، والشكر ذكره عند كل نعمة وقبولها والحمد عليها، فإذا غفل عن هذا كله فقد أكل منها بغير حق فسلطت الأرض عليه لتأكله كما أكل منها بغير حق، فأما الأنبياء والأولياء عليهم السلام فلا تسخط الأرض عليهم، بل تفرح بكونهم على ظهرها وتفخر بقاعها بمنقلبهم عليها فإذا وجدتهم في بطنها ضمتهم ضمة الوالدة الوالهة الواجدة بولدها، ولأنهم أكلوا بالله ولله وفى ذات الله تعالى، ومن كان كذلك، فالأرض أذل وأقل من أن تجترئ عليه لأن الأرض دون النار.

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن النار تنادى جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى.

وقال عليه السلام: إن النار تنزوى وتنقبض عند ورود المؤمن.

---

(1) أورده السيوطى فى «الجامع الصغير» وعزاه للحكيم عن ثوبان ورمز له بالصحة ووافقه المناوى «فيض القدير» (2/321). وأخرجه السيوطى فى «الجامع الكبير» (2/1747) ونسبة للحكيم عن ثوبان، وذكره الهندى فى «كنز العمال» (15/244) وعزاه للحكيم عن ثوبان.

وقال عليه السلام: يجعل الله النار على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم.

فإذا كانت النار تخمد لمر عبد فكيف تجترئ الأرض على أكله.

وروى فى الخبر: أن الشهداء لا تأكلهن الأرض.

وروى: أن من أذن سبع سنين لم يدود فى قبره. فإذا كان الشهيد والمؤذن قد امتنعا من الأرض بحالتيهما فحالة الأنبياء والصديقين، والأولياء عليهم السلام أرفع من هذا وأجل فإنهم هم الشهداء أيام الحياة والدعاة إلى الله تعالى على بصيرة.

وروى جابر رضى الله عنه قال لما أراد معاوية رضى الله عنه أن يجرى العين إلى جنب أحد عند قبور الشهداء أمر مناديا فنادى فيهم: من كان له قتيل فليخرج؟ إليه قال جابر: فخرجنا إليهم فوجدناهم رطابا فرأيتهم بعد نحو من أربعين سنة (٢) يتثنون على رقاب الرجال كأنهم رجال نوم فأصابت المسحاة قدم حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فثارت أصبعه فانبعث دما.

ثم الأولياء على ثلاث مراتب منهم من أكل بالله تعالى، وهم الأرفع وهو من كان فى قبضته قد انفرد به وخلص قلبه إلى وحدانيته فيه يقوم، وبه يقعد، وبه ينطق على ما أشار إليه صلوات الله وسلامه عليه فإذا أحببت عبدى فكنت سمعه، وبصره الحديث، ومنهم من أكل لله تعالى، ومقامه دون مقام الأول، وهو عبد ألقى نفسه بين يديه سلما يراقب أموره فهو يمضى فيها كالعبيد لا يؤثر أمرا على أمر، ولا يدبر لنفسه تدبيرا بل يراقب تدبيره، ويعمل له ومنهم من أكل فى ذات الله سبحانه وتعالى، وهو دون الثانى بدرجة، وذاك عبد قد شغف بحب الله

---

(٢) فى نسخة أخرى ما بين المعقوفين ساقط.

تعالى، وذكر آلائه يبتغى فى جميع متقلبه رضاه فهم كلهم أهل ولاية الله تعالى، وحرام على الأرض لحومهم، ودماؤهم، لأنهم عبيد الله تعالى وخاصته، والأرض سخرة لهم، فالأرض تمضى فى سخرتها، والعبيد يمضون فى حقوق الله تعالى، فإن الله تعالى جعل الأرض ممرا للآدميين، ليأخذوا منها الزاد ليقطعوا هذه السفرة فهى بلغتهم قل أو كثر ضاق أو اتسع، فالمنتبه اطلع على هذا المطلع فأخذها تزودا، ووجهه إلى الله تعالى، وقلبه مع الله تعالى يسير إليه ركضا يقطع الليل والنهار، كلما ذكر الموت ارتاح لعلمه بأن الموت يذهب به إليه، ويقدم به عليه، إذ ليس لأحد أن يقدم على مولاه الذى هو عطشان إلى لقائه إلا بعد ورود الموت الذى وكله به، والرسول الذى جعله بين يديه، فإذا صار إلى ملحده لم يكن بينه وبين الأرض الأكل جميل.

قال عليه السلام إنها تستأذن ربها فى أن تدخل عليه فى لحده فى صورتها التى خلقت فيها فإن لكل شىء صورة فيؤذن لها فتدخل عليه فى تلك الصورة، وتؤنسه وتبشر به وتقول: طال ما كنت تمشى على ظهرى، وإنا إليك مشتاقة ويبكى ظهر الأرض عليه أربعين صباحا وتقول فى بكائها يا رب عبدك كان يذكرك فى فجاجى وبقاعى أسفا على ما فاتها وافتقدت من ذلك، والسماء تبكى عليه فتقول: يا رب عبدك كان ينزل عليه رزقه منى، ويصعد عمله إلى، فلا يزال ذلك دأبها من البكاء، وهذا لأن الله تعالى. جعل هذه الأرض سخرة للآدمى، لتكون له قواما قطعا لعذره، وخلق الآدمى لعبودته، وإقامة حقوقه فإذا اشتغل العبد فى إقامة حقوقه، ونهمته وهمته، وهواه ذلك فالسخرة له سليمة طيبة بلا وبال، وإذا أحدث فى السخرة حدثا لم يكن له بأن اشتغل عن إقامة حقه بها بما سخر له عادت عليه وبالا وصارت عليه فتنة، وقد تحولت العبودة عن الواحد إلى الاعداد.

قال الله تعالى:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ (٣).

فهذه الآية لها ظهر وبطن (٤) فأما ظاهره فهو المشرك والموحد، وباطنه رجلا فيه شركاء متشاكسون أى قلبا فيه شركاء قد سبوه وادعوه كل على ناحيته يدعيه فكل همة لها شقص من قلبه، فقد صار فيه شركاء أحزابا ففى قلبه أفراح شهوات الدنيا وأحوالها اللذيذة، وسلطان الكل قائم على قلبه، يزاحم صاحبها فهم متشاكسون أى متشاقصون فيما بينهم، وهو مفتون بكل شهوة قد سبت شعبة من قلبه.

روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه باع حمارا له فقال: كان لنا موافقا ولكنه أذهب شعبة من قلبى فبعته.

وقال عليه السلام: من تشعبت به همومه فى دنياه لم يبال الله فى أى واد هلك. وباع عمر رضى الله عنه حمارا له فقال قد كان موافقا لنا ولكنه أذهب شعبة من قلبى فبعته فهذا قلب فيه فتنة المال، والأهل، والولد، والعز وحب الرياسة والثناء، والمحمدة، وفتنة العلم ورجلا سالما لرجل أى قلبا سلما للواحد الفرد، فالمخذول من عبيده من قلبه بين هذه الشركاء، فكلهم يدعيه ويستعبده، وكلهم ساخط عليه إذ لا ينال غاية تهمته والمؤيد من أخذ الله تعالى بقلبه فجذبه إليه جذبة فأقامه فى فرديته.

(٣) الزمر (٢٩/٣٩).

متشاكسون: مختلفون يتنازعون ويتباغضون، ويتشاحنون فيه، قيل فلان شكس: أى متعب الخُلُق. راجع «لسان العرب» (٤١٧/٧، ٤١٨) وتفسير الطبرى (١٣٦/٢٣، ١٣٧) ولكن قتادة رأى أن المتشاكس هو الرجل الكافر، والشركاء هم الشياطين. ونقل ذلك عنه الطبرى (١٣٧/٢٣) والسيوطى فى «الدر المنثور» (٣٢٧/٥) فراجعه بتصرف.

(٤) هذا قول الحكيم الترمذى، وهو على عهدته.

وقد قال عليه السلام : إن هذه الدنيا خضرة حلوة فاتقوها .

وقال صلى الله عليه وسلم« إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بحقه ، بورك له فيه ونعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ». فالأخذ بحقه أن يأخذه بحاجة إليه للتزود ، والأخذ بغير حقه أن يأخذه بشهوة التمتع .

[الأصل التسعون والمائة فى سر مكارم الأخلاق]

عن عائشة رضى الله عنها تقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مكارم الأخلاق عشرة تكون فى الرجل، ولا تكون فى ابنه وتكون فى الابن، ولا تكون فى أبيه، وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده، يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة: صدق الحديث، وصدق البأس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنايع، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذمم للجار، والتذمم للصاحب، وإقراء الضيف، ورأسهن الحياء، وكل خلق من هذه الأخلاق مكرمة لمن منحها»(١) قال عليه السلام: «إن الاخلاق مخزونة عند الله فإذا أراد الله بعبد خيرا منحه منها خلقاً»، والأخلاق الطبيعية كالأكل والشرب وغير ذلك والأخلاق التى ركب عليها الأدمى تلك أخلاق الطبيعة وقد عم الجميع ثم الله تعالى منايح من فضله لعبد من عبيده يختصهم بمشيئته مناً منه عليهم من المخزونات عنده، قال عليه السلام «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٢) فهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام قبله صلى الله عليه وسلم كانت معهم هذه الأخلاق وبقيت منها بقية بعث هو ليتممها. وقال عليه السلام: «إن لله مائة وسبعة عشر خلقا فمن أتى بواحد منها دخل الجنة».

---

(١) ذكره المناوى فى «فيض القدير» (٢/٥) وقال: ذكره السيوطى فى الجامع الصغير وعزاه للحكيم الترمذى والبيهقى فى «الشعب» ورمز له بالضعف. وذكره الألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٥٣/٢) وقال ضعيف جداً.

(٢) أورده مالك في «الموطأ» بلاغاً عن النبى صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عبد البر هو متصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة وغيره مرفوعاً. راجع التميز ص ٣٥.

وقال عليه السلام «إن الله تعالى يحب معالى الأخلاق فإذا جعل من محابه فى عبد من عبيده انجاه محبوبه»، وقال عليه السلام «إن الله تعالى قسم بيْنكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم»، فالله تعالى يحب العبد على أخلاقه إذا تخلق بها له فإذا تخلق بها لدنيا كان من حرمة تلك المكرمة التى أعطيها أن يعقبه منها معروفا فإن كان ظالما تيب عليه، ورزق الإنابة، وإن مات على غير توبة، غفر له بحرمة ذلك الخلق. وإن كان كافرا خفف عنه العذاب. قال عليه السلام لأم حبيبة رضى الله عنها «ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة».

وقال: إنه لينال بحسن الخلق درجة الصائم القائم، وقال عليه السلام: رأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه، بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأدخله على الله تعالى.

وعن على رضى الله عنه قال: سبحان الله ما أزهد الناس فى الخير عجبت لرجل يجيئه أخوه المسلم فى حاجته لا يرى نفسه للخير أهلا فلو كنا لا نرجوا جنة ولا نخشى نارا ولا ثوابا ولا عقابا لكان ينبغى لنا أن نطلب مكارم الأخلاق، فإنها مما تدل على سبيل النجاح. فقام رجل فقال: فداك أبى وأمى يا أمير المؤمنين سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم وما هو خير منه لما أتانا سبايا طىء، وقعت لى جارية حماء حواء لعساء لمياء عيطاء مسنونة الحدين، صلتة الجبين، مقرونة الحاجبين، صغيرة الأذنين، شماء الأنف، مقبوضة الهامة، درماء الكعبين، خدلة الساقين، لفاء الفخذين، خميصة (٣) الخصرين، ممكورة الكشيحين، مسقولة المتنين، فلما رأيتها أعجبت بها وقلت: لأطلبن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعلها فى فيئ فلما تكلمت نسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلى عنى،

(٣) خدلجة الساقين، مكورة الكشحين [نسخة أخرى].

ولا تشمت بى أحياء العرب فإنى ابنة سرة قومى كان أبى يفك العانى، ويحمى الذمار، ويقرى الضيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشى السلام، ولم يرد طالب حاجة قط وأنا ابنة حاتم طئ، فقال: يا جارية هذه صفة المؤمن حقاً لو كان أبوك إسلاميا لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق، فقام أبو بردة رضى الله عنه فقال: يا رسول الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال: يا بردة لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق.

فأما ما عده رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرا منها صدق الحديث وهو من الأيمان لأن الكذب مجانب للإيمان لأنه إذا كذب فقال: كان كذا ولم يكن فقد افترى على الله تعالى.

قال أبو بكر رضى الله عنه الكذب مجانب للإيمان، وقوله صدق البأس لأنه من الثقة بالله تعالى شجاعة، وسماحة، وإعطاء السائل من الرحمة، والمكافاة بالصنائع من الشكر وحفظ الأمانة من الوفاء، وصلة الرحم من العطف، والتذمم للجار من نزاهة النفس، وكذلك التذمم للصاحب، وإقراء الضيف من سخاوة النفس، والحياء من عفة الروح، وكل خلق من هذه الأخلاق مكرمة عظيمة يسعد بالواحد منها صاحبه فكيف لمن جمعت له المكارم. والأخلاق الحسنة كثيرة وكلها تقرب إلى الله تعالى، ولكن هذه مكارم تلك الأخلاق، فكل مكرمة منها تمنح العبد فهى له شرف، وفضيلة فى الدنيا، ورفعة ووسيلة فى الآخرة.

[الأصل الحادى والتسعون والمائة فى الخصال الأربع التى تطهر الجسد والقلب]

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أربع خصال إذا أعطى العبد فلا يضره ما عزل (١) عنه من الدنيا: حسن خلقه، وعفاف طعمة، وصدق حديثه وحفظ أمانة» (٢) هذه خصال كلها تطهر الجسد والقلب، فأما حسن خلقه فأن يكون حسن العشرة مع الخلق حسن الخلق مع أمر الله تعالى ونهيه، حسن العشرة. والخلق مع تدبير الله تعالى وأحكامه، وعفاف طعمة بأن يطعم ما لا يشوبه الحرام، ولا الشهوة ولا المطامع، وصدق الحديث فإن يعف لسانه، وحفظ أمانة بأن يحفظ جوارحه، وما أؤتمن عليه.

---

(١) أى لا يضره ما حبس عنه، ولم ينله، وفى نسخة [ما عدل عنه].

(٢) أخرجه أحمد فى «المسند» عن عبد الله بن عمر (٢/ ١٧٧)، وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» - كتاب الرقاق - باب أربع إذا ضَن فيك لا يضرك ما فاتك من الدنيا (٤/ ٣١٤)، ولم يعقب عليه الحاكم ولا الذهبى، وذكره المنذرى فى «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٢)، وقال: رواه أحمد والطبرانى وإسنادهما حسن. ثم ذكره مرة أخرى (٤/ ٢٦)، وقال: رواه أحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى والبيهقى بأسانيد حسنة.

[الأصل الثانى والتسعون والمائة فى فضل صلاة الفجر يوم الجمعة]

عن أبى عبيده رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس من الصلوات أفضل من صلاة الغدوة يوم الجمعة فى جماعة، وما أحسبه شهدها أحد منكم إلا مغفورا له»(١) يوم الجمعة اصطفاه الله تعالى، واستأثر به على الأيام وختم فيه آخر الخلق وهو آدم عليه السلام وفيه قبضه وجعله يوم الجزاء، وفيه تقوم الساعة، وفيصل فصل القضاء، وفيه زيارة الأحباب إلى الله تعالى فى الفراديس (٢)، وصلاة الغدوة فإن الله تعالى يشهدها، وملائكته عليهم السلام كما قال عليه السلام ثم قرأ:

﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٣).

ولذلك قال عليه السلام «من صلى الصبح فى جماعة فهو فى ذمة الله تعالى، فإذا وافق العبد شهوده فى يومه دخل فى سترة وذمته» فالستر المغفرة، والذمة الجوار، والحصن من العدو.

(١) ذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (١٣٨/٢) وعزاه للحكيم الترمذى والطبرانى عن أبى عبيدة ورمز له بالحسن، وذكره المناوى فى «فيض القدير» (٥/ ٣٨١)، وأورده الهيثمى فى «مجمع الزوائد» -كتاب الصلاة- باب فى صلاة الصبح يوم الجمعة فى جماعة (١٨٢/٢)، وأخرجه البزار فى مسنده -كتاب الصلاة- باب فيمن صلى الصبح يوم الجمعة فى جماعة (٢٩٨/١).

(٢) جمع مفرده الفردوس، وهو حديقة فى الجنة.

(٣) الإسراء (٧٨/١٧).

قرآن الفجر: قراءة الفجر، كان مشهوداً أى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار.

[الأصل الثالث والتسعون والمائة في تمثيل بلال رضى الله عنه بالنحلة]

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر ببلال رضى الله عنه وهو يقرأ من هذه السورة، وهذه السورة وقال أخلط الطيب بالطيب، فقال عليه السلام: «اقرأ السورة على نحوها ثم قال: مثل بلال كمثل نحلة غدت تأكل من الحلو والمر ثم يمسى حلوا كله»(١). النحلة مأمورة بذلك، وجعل الحلو والمر رزقا لها فإن فى الحلو شفاء وداء، وفى المر شفاء وداء، فأمرت بالجمع بين ذلك، ليكون الداء بالشفاء، والشفاء بالداء فيعتدل، فلا يضره ويكون شفاء قال الله تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ (٢) الآية.

فذلك لله تعالى مطيعة فاتخذت بيوتا من الأماكن التى تسير إليها واتبعت رزقها من حيث ذكر لها، فالمر من الثمار كريه على كل دابة ونفس لكن النحلة كما سخرت للآدمى، فذلت وانقادت كذلك فيما صرفت إليها من الرزق سخرت لأكلها حلوا كان أومرا، وقد نجد

---

(١) أورده السيوطى فى «الجامع الصغير» (١٥٥/٢)، للحكيم الترمذى ورمز له بالحسن، وذكره السيوطى فى «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور» (١٣٣/٤)، وقال: أخرجه الطبرانى فى الأوسط بسند حسن، وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد». -كتاب المناقب- باب فضل بلال المؤذن (٩/ ٣٠٠)، وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده حسن.

(٢) النحل (٦٨/١٦). وأوحى ربك إلى النحل: ألهمها، وقال بعض المفسرون: المعنى سخرها. وربما يكون الوحى إلى النحل كلاماً، وإشارة، وتسخيراً.

الدواب في مرعاهن بتقين كثيرا من الكلأ ونبات الأرض، فلا يقربن وذوات الأجنحة يتقين كثيرا من الثمار فلا يقربنه، وسخرت النحلة لأكل كل الثمرات، حلوها ومرها، ومحبوبها ومكروهها، واتخذت النحل بيوتا بما أوحى إليها لتكون أوعية لما يجعل الله تعالى في مأكولها من الشفاء للآدميين، ولولا تلك البيوت لكان الذي يخرج منها يذهب فسادا فهذه البيوت وإن كانت مساكنها فهي للعسل، ولأمر الله تعالى، وسائر الهوام، والدواب والطيور تتخذ المأوى، والأوكار لقرارها ثم أمرها الله تعالى أن تأكل من كل الثمرات فإن لكل ثمرة نفعا، فإذا أكلت من الكل، فقد جمعت النفع كله في أكلها وإذا تركت شهوتها استوى عندها محبوب الثمار ومكروهها لما ذلت لأمر الله تعالى، وصار هذا الأكل لله تعالى، لا لنفسها إذ لو آثرت المحبوب على المكروه، لكان أكلها لنفسها فلما ذلت له عز وجل في أكل الثمرات فيما وافقته وفيما لم توافقه صار ذلك شفاء بمنزلة الأدوية يخلط من كل نوع فإذا أذلت النفس ذهبت الكراهة وانتظمت الطاعة في أكلها لله تعالى لا لنفسها، وحسب شهوتها ونهمتها صار ما في جوفها من المأكول حلوا وصار شفاء لأسقام الآدميين ألا ترى أن البقرة صار لبنها شفاء، ولحمها داء لأنها تأكل من كل الشجر، قال عليه السلام «عليكم بألبان البقر فإنها ترم»(٣) أي تأكل من كل الشجر.

وقال عليه السلام «لبنها دواء وسمنها شفاء ولحمها داء» إنما صار لبنها دواء لأنها تأكل من كل شجر، وصار لحمها داء لأنها تأكل بالنهمة لأنها جعمة ولهذا ترعى من كل الشجر حلوه ومره لجعامتها لأنها

(٣) رواه الحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً، قال الشيباني في التمييز ص١٠٥، ص١٠٦: «وقد تساهل في تصحيحه» ثم استرسل في قوله: «وقد ضحى النبي صلى الله عليه وسلم عن نسائه بالبقر، وكأنه لعدم تيسير غيره أو لبيان الجواز، وإلا فهو لا يتقرب إلى الله تعالى بالداء، وقيل: إنما خصص ذلك بالبقر في الحجاز ليبسه ويبوسة لحم البقر ورطوبة ألبانها وسمنها، واستحسن هذا التأويل». أهـ.

ذللت لله تعالى بأمر ربها كالنحل فإنها لم يلق إليها ما ألقى إلى النحل إلهاما من الله تعالى، ولهذا ترعى من المزابل، وترتع من القاذورات لجعامتها فصارت لحمها داء، واللبن الذى حدث عن أخلاط الشجر دواء، وللنهمة عليها صارت لحماتها منزوعة البركة، وكل شيء لا يبارك فيه فهو داء فى الدنيا، والآخرة فأما النحلة ذلت بإلهام الله تعالى، وأكلت من الحلو والمر لله تعالى فصار ما فى جوفها شفاء، ولهذا نهى عليه السلام عن قتل النحلة لأن فى خلقها جوهرا يتقدم الجواهر، وقد شرحناه فيما قبله وثمرة هذه الآية لمن صفا فكره فيها إن الله يعلمك أن النحلة التى سخرتها لك ذلت لى فاستوى، عندها فى المطعم محبوبها ومكروهها، وتركت نهمتها، وشهوتها، فجعلت ما فى بطنها حلوها، ومرها حلوا كله، وجعلته شفاء من الأسقام فكيف بالآدمى المسخر له إذا ذلت نفسه لى فتركت نهمتها وشهوتها رياضة لها حتى استوى عندها المكروه، والمحبوب من أحوالها، ويصير ذلك المكروه كله عنده حلوا محبوبا يكون كلامه شفاء للمذنبين، وأفعاله شفاء للناظرين إليه من المعاصى، ورؤيته حياة قلوبهم وأما تمثيل فعل بلال رضى الله عنه بالنحلة، فإنه إذا قرأ قصد آيات الرحمة وصفات الجنة فيتلوها نظاما، وإنما يقصد من القرآن ما طيب نفسه فأمره عليه السلام أن يقرأ السورة على نحوها كما جاءت ممزوجة، والله تعالى علم بدواء العباد، وحاجتهم إذ لو شاء لصنفها أصنافاً كل صنف على حده لكنه مزجها ليعمل على القلوب على المزاج، ولا يفهم نظامه إلا الأنبياء والأولياء عليهم السلام وحرام على قلوب الثفتت إلى أحوال النفس أوحجبت عقولها عنه لشهوة أن تفهم نظامه، فنظامه فى جميع كلامه نظام يعجز عنه الواصف والمفكر، ومن هذا النظام تخرج اللطائف، وكان بلال رضى الله عنه عجز عن إدراكه فقصد ما تطيب به النفوس من آيات الرحمة فأمره النبى عليه السلام أن يقرأ على نظام رب العزة وهو أعلم بالشفاء، فإنه سماه «شفاء لما فى

الصدور»[٤] فإن فى الصدور داء النفوس، وهى الشهوات وإذا جاءت مواعظ الله تعالى جاءت بالشفاء معها فذهب الداء ثم مثل شأن بلال رضى الله عنه بالنحلة تغدو، فتأكل حلوا ومرا ثم يمسى كلها حلوا فكذلك المؤمن يتلو آية الوعد فيسر قلبه ثم يتلو آية الوعيد فينكسر قلبه فهو بين خوف ورجاء فهذا حلو وذاك مر ثم يطمئن إلى رحمة الله تعالى، وإلى معرفة بربه فيصير حلوا كله، قال تعالى:

﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

اقشعرت الجلود من هول الوعيد الذى حل بقلوبهم، فهذه مرارة ثم أطمأنت جلودهم، وقلوبهم إلى ذكر الله تعالى، بما عرفوه كريما رحيما سمحا جوادا ودودا، رؤفا، فطابت نفوسهم، ولانت جلودهم، فإذا تلا وعده رجاء وإذا تلا وعيده خاف، ثم التوحيد لا يدعه حتى يجذب قلبه إلى ربه تعالى فيطمئن إلى عطفه فشبهه بالنحلة تأكل حلوا، ومرا ثم أمسى فعاد كله حلوا.

---

(٤) يونس (١٠/٥٧).
(٥) الزمر (٣٩/٢٣).

[الأصل الرابع والتسعون والمائة في سر دعوات نبوية]

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله علمني دعاء أدعوا به قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»(1). قد اعترف بالظلم ثم التجأ إليه التجاء مضطر، لا يجد لذنبه ساترا غيره، ثم سأله المغفرة من عنده، وإن كانت الأشياء كلها من عند الله تعالى، إلا أن لله تعالى رحمة قد عمت الخلق في أرزاقهم، ومعاشهم وأحوالهم، ثم له رحمة الإيمان خص بها المؤمنين، وله رحمة الطاعة قد خص بها المتقين، وله رحمة قد خص بها الأولياء، فبها نالوا الولاية قال الله تعالى:

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (2).

إلى أن قال:

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾

وله رحمة قد خص بها الأنبياء عليهم السلام فبها نالوا النبوة قال الله تعالى:

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه -كتاب الصلاة- باب الدعاء قبل السلام (٢/٣١٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه -كتاب الذكر والدعاء- باب استحباب خفض الصوت (١٧/٢٧)، وابن ماجة في سننه -كتاب الدعاء- باب دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم (٢/١٢٦١)، وأحمد في المسند من حديث أبي بكر الصديق (١/٤).

(2) آل عمران (٣/٧).

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ (٣).

سألوه رحمة من عنده.

(٣) مريم (١٩/٥٠). راجع جامع البيان للطبرى (١٦/٦٠)

[الخامس والتسعون والمائة فى سر قوله تعالى هو أهل التقوى وأهل المغفرة]

عن أنس رضى الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «هو أهل التقوى وأهل المغفرة»(١) فقال عليه السلام قال ربكم جل وعز: أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله فمن اتقى أن يجعل معى(٢) إلها كان أهلا أن أغفر له.

وفى رواية أخرى: أنا أهل أن أغفر له.

فالعبد إذا اتقى أن يجعل معه إلها آخر فربنا أهل لذلك لأنه لا إله غيره فهو أهل أن يتقى دعوى الشرك لأحد فى ربوبيته وإلهيته ولو أشرك به، لفعل محالا لا يكون وليس بكائن فمن اتقى كان أهلا أن يستر عليه ذنوبه وعيوبه وبقية ظلمة النار وحرها.

قال تعالى:

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ (٣).

---

(١) المدثر (٧٤). أى حقيق بأن يتقى عذابه ويطاع، وحقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه، لأن هذا وعده، والكريم لا يخلف وعده.

(٢) والحديث: أخرجه الترمذى فى سننه -كتاب تفسير القرآن- تفسير سورة المدثر (٥/٤٣٠)، وقال: هذا حديث غريب. وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» -كتاب التفسير- سورة المدثر (٢/٥٠٨)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبى، وأخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الزهد- باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٢/١٤٣٧)، وأخرجه أحمد فى «المسند» من حديث أنس (٣/١٥٨).

(٣) الفتح (٤٨/٢٦).

وفى الرواية الأخرى: فأنا أهل أن أغفر له، ومعناه أغفر لمن وحدنى، واتقى أن يجعل معى إلها، وهذا رد على من قال: أن أهل التوحيد يبقى فى النار أبدا وما أتى من لفظ الخلد، أراد به طول المكث.

قال الله تعالى:

﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ (٤).

أى أبطأ عن الآخرة إليها.

وقال عليه السلام: «خيرنى ربى بين لقائه وبين الخلد فى الدنيا فاخترت لقاء ربى» ولا شك أن الخلد فى الدنيا لا يكون أبدا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله عز وجل «إنى لأجدنى أستحيى من عبدى يرفع يديه ثم أردهما» قالت الملائكة إلهنا ليس لذلك بأهل، قال الله تعالى: «لكنى أهل التقوى وأهل المغفرة أشهدكم أنى غفرت له».

---

(٤) الأعراف (١٧٦/٧). أخلد إلى الأرض: ركن إلى الدنيا، وسكن إلى خلابتها. راجع المعنى فى جامع البيان (٧١/٩).

[الأصل السادس والتسعون والمائة في ديدان القراء والتمسك بالسنة]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يكون فى آخر الزمان ديدان القراء فمن أدرك ذلك الزمان، فيتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ومنهم وهم الأنتنون، ثم تظهر قلانس البرود، فلا يستحيى يومئذ من الرياء (١) والمتمسك يومئذ بدينه كالقابض على جمرة، والمتمسك بدينه أجره كأجر خمسين. قالوا أمنا أومنهم؟ قال بل منكم» (٢)، وفى رواية ابن مسعود رضى الله عنه قال عليه السلام: «يأتى على الناس زمان المتمسك فيه بسنتى عند اختلاف أمتى كالقابض على الجمر».

القراء على ثلاثة أنواع: ديدان القراء، والصادقون، والصديقون، فأما ديدان القراء: هم الذين تنسكوا فى ظاهر الأحوال تصنعا ليأكلوا به الدنيا قد رموا أبصارهم إلى الأرض ومدوا باعناقهم تيها وتكبرا واعجابا بظاهر أحوالهم، يقصرون الخطى ويتمارون، وينظرون إلى أهل الذنوب بعين ازدراء (٣) حقارة لهم وعجبا بأنفسهم، أعطوا القوة على لبس الخشن والصبر على ترك ملاذ الدنيا وشهواتها، وسخت نفوسهم بترك جميع

---

(١) فى نسخة أخرى [من الربا] وفى أخرى [الزنا] وكله تصحيف من النساخ.

(٢) ذكره الزبيدى فى «أتحاف السادة المتقين» (١/٣٤٩)، وقال: أخرجه الحكيم الترمذى فى النوادر، وذكره الهندى فى «كنز العمال» (١٤/٢٥٥)، وعزاه للحكيم الترمذى، وأخرجه أبونعيم فى «حلية الأولياء» (٣/٣٥).

(٣) الازدراء: الاحتقار، من يزدرى: يحتقر. وفى نسخة أخرى [الإزراء] من الزراية فيقال: زرى على فلان أى عابه، وطعن فيه.

اللذات في جنب لذة ثناء الخلق عليهم، والتعظيم لهم، والنظر إليهم بعين الإجلال، وسولت لهم نفوسهم أنه إنما تنال الرفعة العظمى عند الخلق بترك ظاهر الدنيا، ولذاتها حتى تنال ملكا بلا سلاح، وجندا بلا ارتزاق، وغنى بلا خزانة وعبيدا بلا ملك(٤)، فسبت قلوبهم بما مناهم فأقبلوا على ترك الدنيا وذمها وذم من تناولها، والطعن على من وسم(٥) بالغنى من أئمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أذاهم جهلهم. إلى أن خرجوا على من وسع عليه هذه الدنيا من الرسل عليهم السلام طعنا ورميا فمرقوا من الدين، وعظم شأن هؤلاء في أعين الخلق حين تركوا هذا(٦) الحطام وكبر في صدورهم ذلك وحسبوا أنه لم يبق وراء هذا شيء وأن هذا عبد قد بلغ الغاية، ولا يعلمون أنه ترك شيئا قليلا مما لا يزن جميع ذلك عند الله تعالى جناح بعوضة، قد تركوا الدنيا من حيث يظهر للخلق، وأخذوها من حيث يخفى عليهم. اتخذوها بتركها في الظاهر، واكتسبوا عند الخلق منزلة نالوا في الباطن بتلك المنزلة أوفر مما تركوها وأسهل مما تناولوها، يزرون على أهل الغنى ويجفون أهل الذنب، ويشمئزون عن مخالطة العامة. العبوس في وجوههم، والتماوت في أركانهم، وعجب النفس في صدورهم، وسوء الخلق في أفعالهم، وضيق الصدر في عشرتهم، الواحد منهم في نفسه أعظم من ملء بلدته رجالا يهابهم الناس هيبة سوء الخلق لا هيبة الحق والخشية، هم الأنتنون لأنهم في نتن من الأمور ودناءة وصدورهم أنتن من أمورهم لأنهم يموتون على الدنيا عشقا همتهم، هواهم ودينهم مناهم، وتبعهم غواة وهم من الصدق عراة، قد ملكوا القلوب بتصنعهم وريائهم وهجروا الخلق من أجل دنياهم، كأنهم يقولون ضعوها حتى نرفعها، وتخلوا عنها حتى نملكها.

---

(٤) سبت قلوبهم: من السبي، وهو الأسر.
(٥) وسم بالغنى: اقصف، فهو موسوم به.
(٦) تأمل أسلوب الترمذى في تمثيل متاع الدنيا بالحطام.

روى فى الخبر: أن الله تعالى يقول لتارك الدنيا زهدت فى الدنيا راحة تعجلتها، ويقول للعابد عبدتنى فحملك العباد فوق رؤسهم هل أحببت فى وليا، أوعاديت فىَّ عدوا، وعزتى لا ينال رحمتى من لم يوال فى ولم يعاد فى».

وصنف آخر تصنعوا للخلق بزى أهل المسكنة، والفقر من حسن اللابس، وطول القلانس، وطرة اللحى، وحف الشوارب، ليتمكنوا فى صدور المجالس، وليستدروا الحطام من الشياطين والآبالس، فالمتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ظهور هذا كالقابض على الجمر لأن هذين الصنفين قد تمكنوا من صدور الخلق لغلبة الجهل، فهم المقتدى بهم، والمنظور إليهم فهم عند الخلق علماء وفى الملكوت جهال.

قال عليه السلام «إن الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعا من قلوب الناس ولكن بقبض العلماء فإذا ماتوا اتخذ الناس رؤساء جهالا فضلوا وأضلوا» فمن تمسك بالسنة بين ظهرانيهم بعد تمكنهم من الرياسة ونفاذ القول فيهم، فقد هتك سترهم، وكشف عورتهم وأبان كذبهم، وحط رياستهم، وقطع مآكلهم، وقد بارزهم بالمحاربة، وهم يستعدون لمحاربته ينتقصونه ويطلبون الغوايل منه فصارت مؤنتهم عليه أعظم من مؤنة محاربة الكافرين لأن الكافر لا حرمة له، والقلب والأركان قد تعاونوا عليه فى اهلاكه وهذا معه حرمة الإيمان فاحتجت إلى أن تداريه، وتداهنه، وتلاطفه، وترفق به وتراقب الله تعالى فى شأنه، وتحتمل أذاه، وتحفظ جوارحك، حتى لا تعتدى، وقلبك حتى لا يجور وهمك فيه، حتى لا يغش وتنتظر الفرج من خالقك، وترى تدبيره فيه وفيك، فلذلك شبهه بالقابض على الجمر، لأن الجمر يحرق اليد وهذا يحرق القلب، والكبد من تغييره الحق عن جهته واغترار الخلق به وتحتاج أن تعاشره معاشرة يسلم إيمانك وإيمانه، وتذب(٧) عن الحق الذى به ألف الله تعالى العباد، وجمعهم

(٧) تذب عن الحق: تدافع عنه.

عليه ذبا لا يدخل عليه من ناحية أخرى بما يؤذيه ويثلمه (٨) وتحفظ قلبك مع الله تعالى فى هذه الأحوال، لأن هذا المسكين قد غلب عليه سكرتان: سكرة الجهل، وسكرة حب الدنيا، وخطاب السكارى على سبيل العدل، والإنصاف أمرّ من الصبر وأشد من القبض على الجمر.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه «أنتم اليوم على بينة من ربكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون فى سبيل الله ثم تظهر فيكم سكرتان: سكرة العيش، وسكرة الجهل، وستحولون إلى غير ذلك يفشو(٩) فيكم حب الدنيا فإذا كنتم كذلك لم تأمروا بمعروف، ولم تنهوا عن منكر، ولم تجاهدوا فى سبيل الله والقائمون يومئذ بالكتاب والسنة فى السر والعلانية السابقون الأولون».

هذا شأن ديدان القراء. وأما الصادقون، فهم قوم تابوا صدقا فتاب الله عليهم، فأعطاهم نورا قذفه فى قلوبهم فشرح صدورهم من الذى أشرق فى قلوبهم، وبرد وهج حر نفوسهم، وسكن غليان شهواتهم فأقبلوا على تصحيح أمورهم، فيما بينهم وبين الله تعالى، وعن التخلى عن كل ما نهى الله عنه، دق أو جل، وجاهدوا أنفسهم فى ذات الله تعالى حق جهاده، فلم يزل هذا دأب أحدهم يجاهد نفسه فى شأن الاستقامة لله تعالى على سبيل الطاعة ويأتيه المدد من الله تعالى نور على نور حتى قوى على ترك كثير من (١٠) الحلال تحسنا مما نهى الله تعالى عنه حتى دق نظره فى الأشياء وورعه عن دقيق الأمور التى يخاف منها غدا فثبت على ذلك يرجو الثواب، ويخاف العقاب ويطلب الخلاص فى الإتيان بما أمر، والتناهى عن كل ما نهى ويعلم أنه لا يثاب غدا إلا على

---

(٨) يثلمه: يكسره ويهدمه أو يضعف ركنه.

(٩) يفشو: ينتشر.

(١٠) أى يترك هذا الحلال المباح حتى لا يقع فى المتشابه المفضى إلى المحظور، ورعاً وسداً للذريعة.

الصدق، مشغول بنفسه لايتفرغ لغيره فيعيبه أويزرى عليه فى ريبة قد أوثقه خوفه من الله تعالى وثاقا شغله عن جميع الخلق برعاية هذه الجوارح السبع التى وكل برعايتهن وأخذ عليه العهد والميثاق فيهن يطلب إلى الله تعالى فكاكهن مما انفلق به من الأعمال السيئة والعون على رعايته إياهن فيما بقى من عمره المأتم نهاره والنوح ليله، والصلاة نحلته، والصوم عادته، وكل ما شغله عن أمره فالهرب منه عزيمة قد تحصن من الخلق بعزلته وباينهم (١١) بهمته مبتهلا إلى الله تعالى فى طلب المغفرة لجماعته، وأهل ملته، وهو على مثل هذا الحال يطلب معيشته، ويقوت عياله، ويحسن اليهم ويعطف عليهم، فإن كان عنده سعة أنفق من سعته وألا يجرى من وجوه المكاسب أسلمها وأحمدها عقبى، وجد فيه واجتهد حفظا للجوارح فى طلبها، وأداء الأمانة، وإنصاف الخلق فى تناولها، واجتزاء باليسير لنفسه، وسعة على عياله، وعفة عن المطامع الخبيثة ونزاهة عن شبهات الدنيا، والمكاسب الرديئة، وصيانة لوجهه ودينه عن المعايش الشائنة لدينه، وكان فى طلبها كالمضطر الذى لا يجد عنه مندوحة (١٢) ليطلبها على خطر وحذر، مخافة أن تدعوه نفسه إلى فتنة، وبلية، ويقصد بذلك أن تطمئن نفسه.

كما قال سلمان رضى الله عنه: النفس إذا احرزت رزقها لما طمأنت بطلبها على أحسن هيئة وأجمل طلب مع قلب واثق بالله تعالى فى رزقه ونفس قنعة لم يفتنها حرصها حتى يدعوها إلى تناول شبهة أوطلب رخصة قال تعالى:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (١٣).

---

(١١) باينهم: فارقهم وتميز عنهم.
(١٢) لا مندوحة عن كذا: لا مصرف عنه، ولا مفر منه.
(١٣) النور (٣٧/٢٤).

فهؤلاء هم المقتصدون أهل الاستقامة أعينهم مادة إلى الثواب، والتفاتهم إلى أعمالهم عليها يعتمدون وبها يدلون، وفيها يفكرون، وعليها ينطقون، وإياها يطلبون، حتى إذا ورد وأعرصه (١٤) القيمة، وانكشف الغطاء، صارت رؤسهم بين أرجلهم من الحياء فلولا رحمة الله تعالى التي قد شملتهم من الدنيا إلى ذلك الموقف، لكانوا من الهالكين. وأما الصديقون، قوم فتح لهم الطريق إلى الله تعالى فروا إليه لا يعرجون (١٥) على شيء، ولا يلتفتون إلى جنة ولا نار، ولا ثواب، ولا عقاب، حتى وصلوا إلى الباب فمازالوا إلى بابه يرفعون إليه شكواهم، حتى فتح لهم وأشرق على قلوبهم بنور جلاله فشغفوا به، وشغلوا عن كل شيء سواه فوقفوا بين يديه للعبودة صدقا وفوضوا إليه أمورهم وائتمنوا على نفوسهم، وآثروا مختاره كيف ما دبر لهم واختار رضوا عن الله تعالى في الأحوال، ورضي الله عنهم عز وجل في الأمور يقبلون النعمة منه ويتلقون أوامره ونواهيه بالبشاشة والسماحة، يراقبون أمره ويقفون عند حكمه، وهم مع الله تعالى في كل أمر وحال، فسلطان الله على قلوبهم قد أمات من نفوسهم الشهوات، فلا يخافون من خيانة النفس، وخروجها عليهم من مكامنه، كما قال عليه السلام «ما لقى الشيطان عمر إلا خر لوجهه وما سمع حسه إلا فر» فهؤلاء أهل اليقين وهم السابقون المقربون، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ذلك هو الفضل الكبير.

---

(١٤) عرصة القيامة: ساحتها، والجمع عرصات.

(١٥) لا يعرجون عن شيء: لا يتلبثون عنده.

[الأصل السابع والتسعون والمائة فى شرف الخبز وقوام الروح]

عن عائشة رضى الله عنها قالت: «دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى كسيرة ملقاة فشى إليها، فسحها وقال: ياعائشة أحسنى جوار نعم الله فإنها قل مانفرت عن أهل بيت فكادت ترجع إليهم»(١) الخبز غذاء الجسد، والغذاء قوام الروح، وقد جعل الله تعالى الخبز أشرف الأرزاق، قال عليه السلام «أكرموا الخبز، فإن الله عز وجل أنزله من بركات السماء وأخرج له من بركات الأرض»(٢)، فإكرامه أن لا يوطأ، ولا يطرح فإذا رمى به أو طرحه مطرح الرفض والهوان، كان قد كفر النعمة وجفاها، وفى سعة الرزق قوة عظيمة على الدين، فإذا جفاها صيرت للنعمة العظمى نفرة وإذا نفرت لم تكد ترجع لأنها قد وسمتهم بالجفاء، وقال بعض التابعين الدنيا ظئر(٣) والآخرة أم، ولكل يتبعها بنوها، فإذا جفوت الظئر نفرت وأعرضت، وإذا جفوت الأم عطفت لأن الظئر ليس لها عطف الأمهات، وهذه النعمة تخرج من هذه الأرض المسخرة هى بمنزلة الظئر تربيك.

---

(١) تقدم معنى هذا الحديث وقد رواه ابن أبى الدنيا عن عائشة رضى الله عنها، وأخرجه الحاكم وابن ماجة أيضاً بنحوه عن عائشة.

(٢) ذكره الإمام الشيبانى فى التميز ص ٢٧ وقال: ـ «له طرق عن عبدالله بن يزيد عن أبيه مرفوعاً به وكلا ضعيفة مضطربة، وبعضها أشد فى الضعف من بعض.

(٣) الظئر: المرضع بغير وليدها.

[الأصل الثامن والتسعون والمائة فى أن المؤمن يبلى ويصفى]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المريض إذا برئ وصح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء فى صفائها ولونها»(١). يقدم الله تعالى إلى العباد أن يحفظوا جوارحهم من أن يتدنسوا ليصلحوا الدار القدس فى جوار القدوس فتركوا الرعاية، وضيعوا الحفظ، فتدنسوا، وتوسخوا فدلهم على أن يتطهروا بالتوبة فلم يفعلوا لأنهم تابوا من البعض وأصروا على البعض، على الجهد من نفوسهم الشهوانية ثم دعاهم إلى هذه الفرائض مثل الصلاة والزكاة والحج، وصوم رمضان ليتطهروا بها قال تعالى فى شأن الصلاة:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ﴾ (٢)

وقال فى الزكاة:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (٣).

وقال فى الحج:

---

(١) الهيثمى فى «مجمع الزوائد» - كتاب الجنائز - باب ما يجرى على المريض (٢/٣٠٣)، وقال: رواه البزار والطبرانى فى الأوسط وفيه الوليد ابن محمد الموقرى وهو ضعيف، والديلمى فى «مسند الفردوس» (٤/٧٠)، والزبيدى فى «أتحاف السادة المتقين» (٩/٥٢٦)، وقال أخرجه الحكيم الترمذى والبزار والديلمى وابن عساكر.

(٢) هود (١١/١١٤).

(٣) التوبة (٩/١٠٣).

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (٤).

أي مغفورا له.

وقال عليه السلام: «الصوم جنة»(٥) فدلهم على هذه الفرائض، ليتطهروا بها خلطوها وغشوها وأدوها مع النقصان، والوسوسة والمكاسب الرديئة فلم يك هذا مما يطهرهم، إذ لا تطهر النجاسة بالنجاسة، ولا ينفى الوسخ بالوسخ فلما رأى الله تعالى حالهم هذه وأنهم قد توسخوا، وتدنسوا وكدرت طينتهم فأبى أن يضيعهم وقد إكتنفتهم(٦) رحمته فداواهم بهذه الاسقام ليعصمهم(٧) ويطهرهم ثم يدلو بهم ويشفيهم كما تداوى الشفيقة من الأمهات لولدها بمر الأدوية البشعة لما تأمل من شفائه عن سقمه، فسلط الله تعالى عليهم الأسقام حتى إذا تمت مدة التمحيص خرج منها كالبردة فى الصفاء، فى القلب واللون فى الوجه طلاوة وحلاوة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى: «أبتلى عبدى المؤمن فإن لم يشكنى إلى عواده أطلقته من إسارى ثم أبدلته لحما هو خير من لحمه ودما هو خير من دمه ثم ليأتنف العمل»(٨) وشتان بين ما دويت بالفرائض جوارحك، وبين ما داواك ربك، فداواؤك قل ما يخلو من العجب، والرياء(٩) والتخليط والشبه، وما داواك لا رياء فيه، ولا عجب، ولا صلف، ولا تخليط، وإنما هى أسقام حل بلحمك ودمك ومخك وقوداك ليأخذها، ويبدلك خيرا منها أويقبضك إليه طاهرا حتى

(٤) البقرة (٢٠٣/٢).
(٥) رواه أحمد والنسائى والقضاعى عن معاذ بن جبل مرفوعاً، واتفق عليه الشيخان برواية (الصيام جنة) وذكره العجلونى (١٦٣٣/٤٣/٢).
(٦) اكتنفهم: تفشاهم وسترهم.
(٧) يمحصهم: يفتنهم وينقيهم.
(٨) يأتنف العمل: يستأنفه ويبتدئه.
(٩) الرياء: من أجل الناس والسمعة.

إذا وصلت إلى العرصة واضطررت إلى الجواز على الصراط إلى دار الله، وجدتك النار قد تطهرت إما بالتوبة أوبالفرائض أوبالأسقام والمصائب التى احتسبتها وصبرت عليها فطهرك وأعطاك ثواب الصابرين وإن حمدته كتبك من الحامدين، وقدم عليه بغير تمحيص مع دنس المعاصى وأوساخها، فالنار بالمرصاد قد أعدت منتقمة من الأعداء، ومطهرة للموحدين، فإذا مر عليها اخذت فى الممر من جوارحه تلك الأدناس فتأكل من لحمه ودمه ثم يبدل لحما طريا وجسدا يصلح لدار السلام(١٠).

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه وضع يده على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه حمى فوجدها من فوق اللحاف فقال: يا رسول الله ما أشدها عليك فقال عليه السلام: انا كذلك يشتد علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر فقلت: يا رسول الله أى الناس أشد بلاء قال: الأنبياء قلت ثم من؟ قال: الصالحون إن كان الرجل ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة ونحوها وإن كان الرجل ليبتلى بالقملة حتى تقتله وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء.

(١٠) دار السلام: من أسماء الجنة.

[الأصل التاسع والتسعون والمائة فى تخير المغبون]

عن على كرم الله وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المغبون لا محمود، ولا مأجور إذا استرسل فى وقت المبالغة فاشترى فغبن لم يقع عند البائع موقع المعروف، فيحمد ولا يحتسب بما زاد على قيمته ليسر فيؤجر»(١) فالكيس يماكس مستقصيا ولا يخرج ماله الذى أؤتمن عليه، وجعل قواما له باطلا بلا حمد ولا أجر وفى المكاس شرائط، وهو أن يحفظ لسانه وأمانته، وعهده يماكس، لا لحرص على الدنيا، ولا رغبة فيها وهو مع ذلك حافظ لدينه ودين صاحبه لئلا يأثم أويؤثم.

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر برجلين يتبايعان، وأحدهما يقول للآخر: لا أعطيك، وقال الآخر: لا أزيدك، فمر الرجل بالسلعة قد أشتراها فقال عليه السلام: قد وجب إثم أحدهما.

وساوم معاذ رضى الله عنه رجلا سلعة فقال لا أعطيك، فانصرف معاذ ثم دعاه فقال: هل لك فيه قال لا إنى أكره أن أعينك على إثم.

(١) ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» -كتاب البيوع- باب فى الغبن فى البيع (٤/٧٥)، وقال: رواه الطبرانى فى الكبير، وأخرجه الخطيب فى تاريخه (٤/١٨٠)، وابن عساكر فى تاريخه (٤/٣١٥)، والطبرانى فى الكبير (٣/٨٤).

[الأصل المائتان فيما يقال عند إهلال الهلال]

عن طلحة بن عبد الله رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال قال: «اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ربى وربك الله»(١) وفى رواية أخرى قال: «إلهى وإلهك وربى وربك الله الحمد لله الذى سخرك لنا».

اليمن السعادة والإيمان الطمأنينة بالله تعالى كأنه سأله دوامها، والسلامة والإسلام أن يدوم له الإسلام، ويسلم له شهرة وقوله: «ربى وربك الله» فإن من الناس من كان يسجد للشمس، والقمر دون الله تعالى، فقال تعالى:

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ (٢).

وقوله:

(الحمد لله الذى سخر لنا هذا). (٣).

فخاطبه أن الإله إليه الربوبية، وهو الملك له، وأنت مسخر لنا يحمده

(١) أخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الدعوات- باب ما يقول عند رؤية الهلال (٥/ ٥٠٤)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» -كتاب الأدب- باب الدعاء عند رؤية الهلال (٤/ ٢٨٥) ولم يعلق عليه الحاكم، وأخرجه أحمد فى «المسند» من حديث ابن عمر (١/ ١٦٣).

(٢) فصلت (٤١/ ٣٧).

(٣) فالمحمود هو الله تعالى الذى سخر هذه المنظومات لخدمة الإنسان ومعاونته على شئون حياته.

على تسخيره إياه شكرا له ، فقد سخره ليضيء لأهل الأرض ، وقدره منازل ليعلم عدد السنين والحساب ، ويكون معلم مواقيت حجنا وديوننا وعدد نسائنا وعند مستهل كل شهر حكم وأمر معلوم والله تعالى أعلم بالصواب .

[الأصل الحادى والمائتان فى الحسنة الحديثة والذنب القديم]

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع ادراكا من حسنة حديثة لذنب قديم، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين»(١).

الحسنة نور والسيئة ظلمة فإدراك النور الظلمة سريع لأن الحسنة نور مبتدأة من نور الإيمان، والإيمان هدى الله فبنور الإيمان يحسن طلبه وبقوة هدى الله تعالى يسرع إدراكه فلما كان فى الحسنة نور ربه كان هادى الحسنة حتى يلحق السيئة بسرعة ومركب(٢) الحسنة فإن مركب الحسنة نيته والنية من نور التوحيد، فمن كان مركبة نور التوحيد فلحاقه بمن يطلب سريع فى أسرع من الطرف فطلبه أحسن طلب لأن معه هداه، ومن ولى الله هداه فهداه فى لحظة أو أسرع ومن ولى الله إبلاغه فدركه فى أسرع من الطرفة والقديم والحديث عند الله بمنزلة، وإنما يتفاوت هذا عند الآدمى، وسائر المخلوقين ولأن السيئة قد تقدمت فى الصحيفة(٣) موضع تخليطها(٤) منذ أعوام كثيرة والحسنة الحديثة لذلك الذنب هى التوبة، وهى طالبة لموضعها من الصحيفة أحسن طلب، وأسرع إدراك

---

(١) ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» -كتاب التفسير- سورة هود (٣٩/٧)، وقال: رواه الطبرانى وفيه ملك بن يحى بن عمرو البكرى وهو ضعيف وكذلك أبوه، وذكره القرطبى فى تفسيره (١١٢/٩) وعزاه للحكيم الترمذى عن ابن عباس.

(٢) مركب: ركوب، وهى المصدر الميمى من ركب.

(٣) أى صحيفة الأعمال.

(٤) التخليط: من الاختلاط والفساد.

حتى تصير مكتوبة تحت السيئة أنه تاب ثم تضىء تلك الحسنة فى مكانها حتى تعلو الظلمة التى على السيئة.

وفى الخبر أنه إذا تناول العبد الصحيفة يوم القيامة أعطى منها ما يلى السيئات فيجد تحت كل سيئة مكتوبة تاب وتلك حسنة تضىء بمكانها فتستر على السيئات فيقرأها العبد فربما أتى العبد على عظيمة يشتد عليه النظر إليها فتدركه رحمة من ربه فى ذلك المكان فتستر عليه تلك العظيمة، ويقال له جاوزها، لأنه قد كان دعاء أيام الحياة بأحسن التجاوز فإذا انتهى إلى آخرها غفر له ما فيها فيصير جميع ما فيها بياضا لأن التوبة قد علت السيئة بضوئها ثم يقلب الصحيفة، فيقرأ الحسنات والخلق ينظرون إلى صحيفته حسنات فإذا قلبها نظروا إلى الوجه الآخر فرأوها قد علت بضوئها فيقولون طوبى لهذا العبد لم يذنب ذنبا قط فقبل حسناته فعند ذلك ينادى:

﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ (٥) الآية.

(٥) الحاقة (١٩/٦٩)، يقال: هذا بمعنى هاكم اقرؤا كتابيه، وقد روى ذلك قتادة عن أكابر الفضلاء وقد ذكر رأيه هذا القرطبى والطبرى (٣٨/٢٩) وقول هاكم اقرأوا بإبدال الهمزة من الكاف. راجع لسان ابن منظور (٣٧٢/٢٠) وتفسير القرطبى (٢٦٩/١٨).

[الأصل الثانى والمائتان فى أن عرامة الصبى من ذكاة فؤاده]

عن عمر بن معد يكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عرامة الصبى فى صغره زيادة فى عقله فى كبره»(١) العرم المنكر وصار ذلك من ذكاوة فؤاده، وحرارة رأسه، والناس يتفاضلون فى أصل البنية فى الفطنة والكياسة، والحظ من العقل، والعقل على ضربين: ضرب منه يبصر أمر دنياه وهو من نور الروح وهو موجود فى عامة ولد آدم عليه السلام، إلا من كان فيه خلل أوعلة وبينهم فى ذلك العقل تفاوت عظيم، وضرب منه يبصر أمر آخرته وهو من نور الهداية والقربة وذاك موجود فى الموحدين مفقود فى المشركين وبين الموحدين فى ذلك العقل تفاوت عظيم. وسمى عقلا لأن الجهل ظلمة، وعمله على القلب فإذا غلب النور وبصره فى تلك الظلمة زالت الظلمة وأبصر فصار عقالا للجهل، فالصبى إذا رؤى منه زيادة بصيرة فى الأمور، وذكاؤه فهم قيل عارم.

والعرم بلغة أهل العرب(٢) المسناة وهو السد وهى عربية يمانية فالصبى يسد أبواب البلاهة بزيادة ذلك النور فيكايس فى الأعمال،

---

(١) ذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (٢/٥٩)، وقال: أخرجه الحكيم عن عمرو بن معديكرب وأبو موسى المدينى فى آماليه عن أنس ورمز له بالصحة، وذكره المناوى فى «فيض القدير» (٤/٣١٠)، وأشار إليه الهندى فى «كنز العمال» (١١/٩١).

(٢) العرم: المسناه لا واحد لها من لفظها، وقيل: واحدها عرمة، وقيل العرم هو السيل الذى لا يطاق، راجع مختار الصحاح ص٤٢٨ بتصرف.

ويهتدى للطائف الأمور، ومحاسنه بالنور الزائد المتقد فى دماغه، فإذا أدرك مدرك الرجال، وجاءه نور الهداية من الله تعالى فأمن كان الذى ركب فى صغره عونا له فى جميع أموره فصار بذلك زيادة فى عقله، ومن لم يكن له ذلك فى صغره فيكون فيه نقص العقول الدنياوية من البله والحمق، فإذا جاءه العقل الثانى افتقد العون ولم يكن له فى النوائب هداية الطبع وإنما له هداية الإيمان فحسب وقد اجتمع للعارم هداية الطبع وهداية الإيمان والله أعلم.

[الأصل الثالث والمائتان فى حق الولد على الوالد]

عن أبى رافع رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله للولد علينا حق كحقنا عليهم قال: «نعم حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة، والسباحة، والرماية وأن لا يرزقه إلا طيبا»(١) الكتابة عون له على الدين والدنيا، والسباحة منجاة من الهلاك، والرماية دفع عن مهجته، وحريمه وشرف له عند لقائه العدو، ولا يرزقه إلا طيبا لئلا ينبت لحمه على سحت فتنزع منه البركة وهذه الخصال رؤس الآدب.

---

(١) ذكره الزبيدى فى «أتحاف السادة المتقين» (٦/٣١٨)، وقال: رواه الحكيم وأبوالشيخ فى الثواب، والبيهقى وإسناده ضعيف، وذكره السيوطى فى «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور» (٣/١٩٤) وعزاه لابن أبى الدنيا فى ـكتاب الدمى ـ والبيهقى فى شعب الإيمان. وأورده السيوطى كذلك فى «الجامع الصغير» (١/١٤٩) ورمز له بالضعف.

[الأصل الرابع والمائتان فى حال التائب واتباع الذنب بالحسنة]

عن أبى سعيد الأنصارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والندم توبة»(١) التائب حبيب الله تعالى إن الله يحب التوابين، والحبيب يستر الحبيب، ويحب زينه فإن بدا شين(٢) ستره فإذا أحب الله عبدا فأذنب ستره فصار كمن لا ذنب له فإن الذنب يدنس العبد، والرجوع إلى الله تعالى بالتوبة يطهره لأن بالرجعة يصير فى محل القربة منه، ومحل القربة ينوره ويذهب دنسه.

قال عليه السلام: «إذا أذنب العبد نكتت فى قلبه نكتة سوداء فإذا عاد نكتت أخرى، فإذا تاب صقل قلبه، فذهبت النكتة، وصارت كالمرآة تتلألأ».

ومن ههنا قال الشعبى رضى الله عنه: إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنبه. حدثنا بذلك عبد الله بن الوضاح النخعى قال: حدثنا ابن يمان عن سفيان عن عاصم الأحول عن الشعبى واعتبر بهذه الرأفة والرحمة التى وضعها فى الآباء والأمهات ثم تراهم كيف محل أولادهم منهم فى محل البطالة والفساد من الرحمة عليهم والشفقة والرفق بهم والتأنى، والانتظار،

---

(١) ذكره الزبيدى فى «أتحاف السادة المتقين» (٨/٥٠٣)، وذكره الهيثمى فى «فيض القدير» (٣/٣٧٦)، أن السيوطى ذكره فى «الجامع الصغير» ورمز له بالحسن.
(٢) الشين: العيب.

والاحتراق عليهم مما يخافون عليهم من الوبال (٣)، وفرحهم بالتوبة إذا هم تابوا إلى الله تعالى فاعتبر بهذه الرأفة التى فى جميع الأمهات والآباء لو جمعها فوضعها فى أم واحدة أوأب واحد لولد واحد لكان لا يتراءى له فساد هذا الولد وسيىء عمله من عظيم الشفقة عليه، والمحبة له وكان ذلك ساترا له فكيف بالخالق البارئ الماجد الكريم البر الرحيم، الذى يدق جميع رأفة أهل الدنيا ورحمتهم جنب رحمة من المائة المخلوقة، ثم ماذا تكون تلك فى جنب الرحمة العظمى التى شملت كل خير للعبيد فهذا العبد المؤمن له كل هذا الحظ فإذا تاب صار فى كنفه (٤) وهو فى الأصل حبيبه فيدق ذنوبه فى جنب ماله عنده من الرأفة، والرحمة وإن الله تبارك وتعالى اسمه لما وقعت خيرته وجبايته على عبد من عبيده ثم أخرجه أمه إلى الدنيا فأدركته الهداية بما سبقت له من الجباية وكتب عليه هذا الذنب أنه سيصيبه لا محالة فلما أصابه لم يتركه حيران فلم يغلق عنه باب التوبة وتكرم على أن يرجع إليه عبده صدق الرجوع أن لا يقبله وإذا قبله صار كمن لا ذنب له فى معنى القبول.

---

(٣) الوبال: الهلاك.

(٤) كنفه: جواره وشره.

[الأصل الخامس والمائتان فى أن الالتفاع لبسة أهل الإيمان]

عن ابن عمر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الالتفاع لبسة أهل الإيمان والتردى لبسة العرب»(١) الالتفاع الالتحاف بالثواب متقنعا وهو أستر، وكان عليه السلام يكثر التقنع وذلك للحياء من الله تعالى، لأن الحياء فى العين والفم وهو من عمل الروح، وسلطانه فى الرأس ثم هو متغش فى جميع الجسد وروى أن من أخلاق النبيين التقنع، وهذا من آداب الأنبياء والأولياء عليهم السلام، لأنهم أبصروا بقلوبهم أن الله تعالى يراهم فصارت الأمور كلها لهم معاينة يعبدونه كأنهم يرونه ففى الأعمال التى فيها حشمة يلعوهم الحياء، والحياء من الإيمان فلذلك قال: لبسة أهل الإيمان.

قال أبو بكر رضى الله عنه أنى لأدخل الخلاء فأقنع رأسى حياء من الله تعالى، والتردى لبسة العرب توارثوه فى الجاهلية من آبائها كانوا فى إزار ورداء والالتفاع ورثه بنوا إسرائيل عن أنبيائهم عليهم السلام، لأنهم قطعوا أعمارهم بالعبادة وكانوا أصحاب لفاع.

---

(١) أورده الهيثمى فى «مجمع الزوائد» -كتاب اللباس- باب الارتداء والالتفاع (٥/ ١٢٧)، وقال: رواه الطبرانى وفيه سعيد بن سنان الشامى وهو ضعيف جداً. ونقل عن بعضهم توثيقة. ولم يصح، وأورده السيوطى فى «الجامع الصغير» (١/١٢٢)، وقال: أخرجه الطبرانى عن ابن عمرو ورمز له بالضعف، وعزاه الهندى فى «كنز العمال» (١٥/٢٠٢) للحكيم الترمذى والطبرانى عن ابن عمر.

[الأصل السادس والمائتان في أن الاعتبار في الاجتهاد بعقد العقل]

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل كيف عقله؟ فإن قالوا غير ذلك قال لن يبلغ»(١) وذكر له عن رجل من أصحابه رضي الله عنهم شدة عبادة واجتهاد فقال: كيف عقله؟ قالوا ليس بشيء قال: لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون.

العقل نور خلقه الله تعالى، وقسمه بين عباده على مشيئته فيهم وعلمه بهم، فروى أن النبي عليه السلام قال: «لما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال له: أقعد فقعد، ثم قال له: انطق فنطق، ثم قال له: اصمت فصمت، فقال: وعزتي وجلالي وكبريائي وسلطاني وجبروتي ما خلقت خلقا أحب إلى منك ولا أكرم على منك بك أعرف، وبك أحمد، وبك أطاع، وبك آخذ وبك أعطي، وإياك اعاتب، ولك الثواب، وعليك العقاب، وما أكرمتك بشيء أفضل من الصبر» وقال عليه السلام: إن أول شيء خلق الله تعالى القلم، ثم خلق النون، وهي الدواة، ثم قال له اكتب قال: وما أكتب قال: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أثر أو رزق أو أجل

---

(١) ذكره السيوطي في «اللآلىء المصنوعة» (٦٧/١)، وذكره الزبيدي في «أتحاف السادة المتقين» (٤٩٠/٨)، وذكره الشوكاني في «الفوائد المجموعة» ص٤٧٧، وقال: رواه ابن عدي عن ابن الدرداء مرفوعاً. وفي إسناده مروان بن سالم متروك.

فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة» وذلك قوله تعالى:

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ ﴾ (٢).

ثم ختم على «فى» القلم، فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة ثم خلق العقل فقال: «وعزتى لأكملنك فيمن أحببت، ولأنقصنك فيمن أبغضت».

فسم الله تعالى العقل بين خلقه على عمله بهم ثم قسم بين الموحدين عقل الهداية على علمه بهم فتفاوت القسم فكل ما استقر فى عبد كان دليله على مقاديره الذى كان فيه يومئذ، فكل فعل فعله يلهم العقل صاحبه فى كل ما أذن له، وما خطر عليه، فكل من كان حظه من العقل، أوفر فسلطان الدلالة فيه أعظم، وأنور ومن شأن العقل الدلالة على الرشد والنهى عن الغى، فكان عليه السلام إذا ذكر له عن رجل شدة اجتهاد، وعبادة سأل عن عقله لما قد علم أن العقل هو الذى يكشف عن مقادير العبودة، ومحبوب الله تعالى، ومكروهه لأن العبادة الظاهرة قد تكون من العادة، وقد تكون من المساعدة فإن كان العقل يدله على العبادة الظاهرة كان علامته أن يتورع عن مساخط الله تعالى، فكان العقل مما عقل عن الله تعالى ما أمره، ونهاه فائتمر بما أمره وانزجر عما نهاه، فتلك علامة العقل فإذا تعبد عن عقل، تعبد عن بصيرة، وإذا تعبد عن عادة ومساعدة فلم يحسن الظن به.

لذلك قال صلى الله عليه وسلم: «لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله» معناه لا يعجبنك ظاهر ما ترون حتى تعلموا بأى شىء عقد(٣) عقله به فإن كان عقله عقيد هواه لا يتورع ولا يتقى قال: لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون.

---

(٢) القلم (٦٨/١).

(٣) فى نسخة أخرى [عقدة] وهو تحريف من الناسخ.

قال عليه السلام: «الورع سيد العمل، ومن لم يكن له ورع يرده عن معصية الله تعالى إذا خلا بها لم يعبأ الله سائر عمله شيئا» فلذلك مخافة الله تعالى فى السر والعلانية والاقتصاد فى الفقر والغنى والصدق عند الرضاء، والسخط ألا وإن المؤمن حاكم على نفسه يرضى للناس، ما يرضى لنفسه، والمؤمن حسن الخلق وأحب الخلق إلى الله تعالى أحسنهم خلقا ينال بحسن الخلق درجة الصائم القائم، وهو راقد على فراشه.

قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: إنكم لتعملون أعمالا لهى أدق عندكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات(٤).

وقال عليه السلام: «يا عائشة، إياك والمحقرات فإن لها من الله تعالى طالبا» وقال عليه السلام: «إن الله ناجى موسى فكان فيا قال: يا موسى إنه لن يتقرب إلى المتقربونَ بمثل الورع عما حرمت عليهم فإنه ليس من عبد يلقانى يوم القيامة إلا ناقشته الحساب(٥) وفتشته عما كان فى يديه إلا ما كان من الورعين فإنى أجلهم وأكرمهم وأدخلهم الجنة بغير حساب».

وقال عليه السلام «ثلاث من لم يأت بهن يوم القيامة فلا شىء له ورع يحجره عن محارم الله تعالى، وخلق يدارى به الناس، وحلم يرد به جهل السفيه» وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: بأى شىء يتفاضل الناس؟ قال: بالعقل فى الدنيا والآخرة قلت أليس

---

(٤) الموبقات: المهلكات، جمع موبقة.

(٥) وقد ورد فى الحديث الصحيح عن عائشة رضى الله عنها: «من نوقش الحساب عُذّب» فقالت يا رسول الله: إنك دائماً تدعو: «اللهم حاسبنى حساباً يسيراً» فقال: إنما ذلك العرض، وما من أحد يناقش يومئذ يا عائشة إلا هلك.

يجزى الناس بأعمالهم؟ قال: ياعائشة، وهل يعمل بطاعة الله تعالى إلا من عقل فبقدر عقولهم يعملون، وعلى قدر ما يعملون يجزون.

وقال عليه السلام: «إن الرجل لينطلق إلى المسجد، فيصلى فصلاته لا تعدل جناح بعوضة وإن الرجل ليأتى المسجد فيصلى فصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنها عقلا قيل وكيف يكون أحسنها عقلا فقال: أورعهما عن محارم الله تعالى، وأحرصهما على أسباب الخير وإن كان دونه فى العمل والتطوع». وعن طاووس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مهاجرى وأنصارى فقال المهاجرى: يا رسول الله حقى ثابت وما قضى لى شيئا، قال الأنصارى: صدق يا رسول الله إن حقه ثابت، وما قضيته شيئا، فقال عليه السلام: فأد إليه فقال: أما دعواه فقد أديت إليه وأما حق ثواب معروفه فإنه على أكافئه فقال المهاجرى: صدق يا رسول الله فقال: عليه السلام: تبارك الذى قسم العقل بين عباده أشتاتا إن الرجلين ليستوى عملهما، وبرهما، وصومهما، وصلواتهما لكنهما يتفاوتان فى العقل، كالذرة فى جنب أحد وما قسم الله تعالى لخلقه حظا هو أفضل من العقل، واليقين.

قال وهب رضى الله عنه أجد فى سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدو(٦) الدنيا إلى انقطاعها من العقل فى جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل رفعت من بين جميع رمال الدنيا، وقال إن الشيطان لم يكن يكابد شيئا أشد عليه من المؤمن العاقل إنه ليكابد مائة ألف جاهل فيسخرهم، ويكابد المؤمن العاقل فيضعف عنه، وما من شىء أحب إليه من فتنة العاقل، وفتنة عاقل أحب إليه من غواية ألف جاهل. وقال عليه السلام «إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يقرب الناس الزلف على قدر عقولهم».

---

(٦) بدو: يقصد ابتداء.

وعن أنس رضى الله عنه قال: قيل يا رسول الله رجل يكون قليل العمل كثير الذنوب قال: كل آدمى خطاء فمن كانت له سجية عقل، وغريزة يقين لم يضره ذنوبه شيئا، قيل وكيف ذاك يا رسول الله قال: كلما أخطأ لم يلبث أن يتوب فيمحى ذنوبه، ويبقى فضل يدخله الجنة. قال ابن مسعود رضى الله عنه، ومن أعقل ممن خاف ذنوبه واستحقر عمله.

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت: يا رسول الله كيف؟ قال: اجتنب مساخط الله، وأد فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل بالصالحات من الأعمال تزدد فى الدنيا عقلا، ومن ربك قربا وعليه عزا».

عن كعب رضى الله عنه قال: تجد الرجل يستكثر من أنواع البر، ويحتاط فى صنائع المعروف، ويكابد سهر الليل، وشدة ظماء الهواجر، وهو فى ذلك لا يساوى عند الله جيفة حمار، قالوا: وكيف قال ذاك من قلة عقله، وسوء رعته، ولعلك تجد الرجل العاقل نائما بالليل مفطرا بالنهار لا يظهر لك و بره ولا ينسب إلى صنائع المعروف، وبينهما كما بين المشرق والمغرب قيل: وكيف ذاك قال: لأن ربنا افترض على عباده أن يعرفوه ويطيعوه ويعبدوه، وإنما يطيعه، ويعرفه، ويعبده من يعقل فأما الجاهل فإنه لا يعرفه، ولا يطيعه، ولا يعبده».

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل خلق العقل أكثر من عدد الرمل، فمن الناس من أعطى حبة من ذلك، ومنهم من أعطى حبتين، ومنهم من أعطى مدا(٧)

(٧) المُدّ: مكيال، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز، ورطلان عند أهل العراق.

ومنهم من أعطى صاعا ومنهم من أعطى فرقا(٨)، وبعضهم وسقا فقال ابن سلام: من هم يا رسول الله؟ قال: العمال(٩) بطاعة الله على قدر عقولهم، ويقينهم، وجدهم، والنور الذى فى قلوبهم مهدى». قال: شهدت عمر وعنده ابن مسعود وأبو موسى رضى الله عنهم فقال أبو موسى: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «رب رجل يعمل بطاعة الله فلعل الحرف الواحد من تسبيحه، وتحميده وبره أثقل من أحد ثم على قدر ذلك يتفاضل عمله».

قال ابن مسعود رضى الله عنه إن من المؤمنين من يكون عمله يوما واحدا أثقل من السموات والأرض.

قال عمر رضى الله عنه: فكيف ذاك قال: إن الله قسم الأشياء بين عباده على قدر ما أحب أن يقسمه، ولما خلق الخلق أقسم بعزته أنه أحب خلقه إليه وأعزهم عليه وأفضلهم عنده وأرجح عباده أحسنهم عقلا، وأحسنهم من كان فيه ثلاث خصال: صدق الورع، وصدق اليقين، وصدق الحرص على البر والتقوى، فبكى عمر رضى الله عنه بكاء نشج منه.

وقال عليه السلام: «قسم الله العقل ثلاثة أجزاء فمن كان فيه فهو العاقل. حسن المعرفة بالله تعالى، وحسن الطاعة، وحسن الصبر لله تعالى» فحسن المعرفة الثقة بالله فى كل أمرك، والتفويض إليه، والأيتمار على نفسك، وأحوالك فى الوقوف عند مشيئته لك فى كل أمره دينا ودنيا، وحسن الطاعة أن نطيعه فى كل أمر ثم لا تلتفت إلى نوال فتتخذه عدة دون الله تعالى، وحسن الصبر أن تصبر فى النوائب صبرا لا يرى عليك أثر النائبة من الاستكانة وأن تتلقى حكمه بالرضاء كما تتلقى ما وافق نفسك فيستوى عندك المحبوب والمكروه.

---

(٨) الفَرَق: مكيال معروف بالمدينة، وهو ستة عشر رطلاً وقد يحرك.

(٩) وقد قال الإمام ابن قيم الجوزية: «كل حديث ورد فيه العقل لا يصح».

[الأصل السابع والمائتان فى تفسير المغربين]

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فيكم مغربون قلت يا رسول الله: ما المغربون؟ قال: الذين يشترك فيهم الجن»(1) فالجن والإنس ابتليا بالعبادة، ولهما الثواب، وعليهما العقاب، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالنذارة إلى الجن والرسالة إلى الآدميين فأنذرهم، وعلمهم القرآن فللجن مساماة بابن آدم فى الأمور والاختلاط فنهم من يتزوج فيهم، وكانت بلقيس ملكة سبأ أحد أبويها من الجن، وربما غلب الجن الآدمى على أهله، فيأخذ بقلبها، ويعذبها، والامتناع منهم باسم الله تعالى فإذا أحب الآدمى أن يطرده من مشاركته طرده باسم الله.

قال عليه السلام: «ستر بين عورات بنى آدم، وبين أعين الجن إذا وضع الرجل ثوبه أن يقول بسم الله» قال مجاهد رضى الله عنه: إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه قال: فذلك قوله تعالى:

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ (2).

---

(1) أورده السيوطى فى «الجامع الصغير» (٣/٣١٩) وعزاه للحكيم الترمذى، وذكره الهندى فى «كنز العمال» (١٦/ ٣٥٤). وأرجو مراجعة تفسير القرطبى (١٠/٢٨٩) وعزاه للحكيم الترمذى.

(2) الرحمن (٥٥/٥٦) و(٥٥/٧٤).

قال أبو عبيدة -رحمه الله- لم يطمثهن: أى لم يمسهن فراجعه فى الطبرى (٢٧/٨٧) ولسان العرب (٢/٤٧١) والبحر المحيط لأبى حيان (٨/١٩٨).

لكن رأى الفراء أن المقصود بقوله «لم يطمثهن» هو لم يفتضهن من افتضاض البكارة للعذراء. والطمث: النكاح بالتدمية، ومن ثم قيل للحائض طامث. اسم فاعل. راجع القرطبى (١٧/ ١٨١).

[الأصل الثامن والمائتان فى سر شهادة العطاس]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حدث بحديث فعطس عنده فهو حق»(١) العطسة تنفس الروح وتحننه إلى الله لأنها من الملكوت فإذا تحرك ساطعا عند حديث فهو شاهد يخبرك عن صدقه وحقه. قال عليه السلام «إن الله يحب العطاس، و يكره التثاؤب فإذا عطس أحدكم، فحمد الله فحق على كل مسلم سمعه يشمته، والتثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإن أحدكم إذا قال: هاه ضحك الشيطان منه»، وقال عمر رضى الله عنه: لعطسة واحدة عند حديث أحب إلى من شاهد عدل.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الفأل مرسل والعاطس شاهد عدل» قوله الفأل مرسل مثل ما يروى أنه صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول فى العسكر يا حسن، فقال: أخذنا فالك من فيك.

واستقبله بريدة فى طريق الهجرة فقال: ما أسمك قال: بريدة فالتفت إلى أبى بكر رضى الله عنه فقال برد أمرنا قال: ممن؟. قال:

(١) أورده الهيثمى فى «مجمع الزوائد» ـ كتاب الأدب ـ باب فيمن حدث بحديث فعطس عنده (٨/٥٩). وذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (٢/١٧٠) وعزاه للحكيم الترمذى عن أبى هريرة وأشار لحسنه. وأورده النووى فى «الأذكار» ص١٢٠ ـ كتاب السلام ـ والاستئذان وتشميت العاطس وما يتعلق بها. باب تشميت العاطس وحكم التثاؤب، وقال: كل إسناده ثقات متقنون إلا بقية بن الوليد فمختلف فيه.

من أسلم قال: سلمنا يا أبا بكر، ومعناه أن هذه الأسماء مما يرسله الله تعالى حتى يستقبلك كالبشير لك فإذا تفاءلت فقد أحسنت به الظن، والله سبحانه وتعالى (٢) عند ظن عبده.

وعن أنس رضى الله عنه قال: عطس عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عطسات متواليات فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عثمان ألا أبشرك هذا جبريل يخبرنى عن الله تعالى أنه قال: ما من مؤمن يعطس ثلاث عطسات متواليات إلا كان الإيمان فى قلبه ثابتا.

---

(٢) لأن حسن الظن بالله تعالى من أهم موجبات الخير، لأنه سبحانه وتعالى وعد بالاستجابة لدعاء عبده المؤمن إذا لاذ به واتجه إليه.

[الأصل التاسع والمائتان في النهى عن الجلوس على القبور]

عن أبى مرثد الغنوى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها»(١) نهى أن يوطأ القبر أو يجلس عليه استهانة به إقامة لحرمة المسلم بعد موته. وعن معاذ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره أن توطأ القبور إعظاما للمسلمين وإكراما لهم ويكره أن تتخذ القبور مسجدا وقبلة يصلى إليها فإن أهل الجاهلية كانوا يفعلون ذلك.

وروى بشر بن الخصاصية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يمشى فى القبور فى نعلين فقال: «يا صاحب السبتين اخلع»، وفى رواية أخرى «ألق سبتيك لا تشغله» هذا يدل على إقامة الحرمة وتعظيم شأن المسلم أن يمشى المرء على أعظم مدفونة قد اختبأها الرب عز وجل واختارها لمحبته ملكا فى الجنان فى جواره، وقال عليه السلام لمن رآه جالسا على قبر: «انزل عن القبر لا تؤذ صاحبك ولا يؤذيك» معناه أن الأرواح تعلم بترك إقامة الحرمة وبالاستهانة فتتأذى بذلك.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه -كتاب الجنائز- باب النهى عن الجلوس على القبر والصلاة عليه (٣٨/٧). وأخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الجنائز- باب ما جاء فى كراهيته المشى على القبور والجلوس عليها والصلاة إليها (٣٥٨/٣) وقال: حديث صحيح. وأخرجه أحمد فى المسند عن حديث مرثد الغنوى (٤/ ٢٣٥).

[الأصل العاشر والمائتان فى أن أبا بكر رضى الله عنه ويومه خير من مؤمن آل فرعون]

عن عمر رضى الله عنه قال: «ما نيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نيل منه ذات يوم أنه كان يطوف بالبيت فدخلوا عليه فقطعوا عليه الطواف، وأخذوا بتلابيبه وقالوا أنت الذى تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا قال: هو ذاك، وأبوبكر رضى الله عنه ملتزمه من خلفه، وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وعيناه تهملان فخلوا سبيله» (١)، مرتبة أبى بكر رضى الله عنه من الدين ومحله من الإسلام أن يذب (٢) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده، ولم يهب شرقى الدنيا وغربيها، وقال الحسن رضى الله عنه: «عاتب الله تعالى جميع أهل الأرض غير أبى بكر فقال:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (٣).

وعن سالم بن عبيد قال: لما قبض النبى صلى الله عليه وسلم قال رجل من الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير. قال عمر رضى الله عنه: سيفين فى غمد لا يصطلحان ثم أخذ بيد أبى بكر فقال: من له هذه الثلاثة ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ثم بايعه فبايع الناس أحسن بيعة وأجملها.

---

(١) لم نقف على تخريجه.

(٢) يذب: يدافع.

(٣) التوبة (٩/٤٠).

وعن علي رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث فأرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل هذا يجاؤه وهذا يتلتله إلا أبوبكر، وله ضفيرتان فأقبل يجأ ذا ويتلتل ذا ويقول بأعلى صوته: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، والله إنه لرسول الله فقطعت إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذ فقال علي رضي الله عنه: ليوم من أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون إن ذلك رجل كتم إيمانه فأثنى الله تعالى عليه في كتابه وهذا أبوبكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله تعالى.

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنهم قالوا لها: ما أشد شيء رأيت المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كان المشركون قعوداً في المسجد الحرام يتذاكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقول في آلهتهم، فبيناهم كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاموا إليه بأجمعهم وكانوا إذا سألوه عن شيء صدقهم فقالوا له: ألست تقول في آلهتنا كذا قال: بلى، فتشبثوا به بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقيل له: أدرك صاحبك فخرج من عندنا وإن له غد ائر فدخل المسجد، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقبلوا إلى أبي بكر فرجع إلينا أبوبكر فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه وهو يقول: (تباركت ياذا الجلال والإكرام).

[الأصل الحادى عشر والمائتان فى المصافحة وسرها]

عن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إذا التقى المسلمان كان أحبها إلى الله أحسنها بشرا لصاحبه ، فإذا تصافحا أنزل الله تعالى عليها مائة رحمة ، تسعون منها للذى بدأ بالمصافحة وعشرة للذى صوفح» (١) ، المؤمن عليه سمة الإيمان ووقاره وبهاء الإسلام وجماله فأحسنها بشراً أعقلها عن الله تعالث ما من الله عز وجل عليها ويظهر بشره لعلمه بالله تعالى ، ولمنة الله على عبده ، ولأن المؤمن عطشان إلى لقاء ربه شوقاً إليه ؛ فإذا رآى المؤمن أهتش إلى ذلك روحه وتنسم قلبه روح ما وجد من آثار مولاه فيطمئن ويبشر بذلك فيظهر بشره وإنما صار أحب إلى الله تعالى بما له من الحظ من الله تعالى ، ولأن الذى يظهر البشر لأخيه ير أخاه المؤمن لأن فى ذلك إظهار المودة له .

«وروى أن يحيى بن زكريا عليها السلام إذا لقى عيسى عليه السلام بدأ بالسلام فسلم عليه ، وكان لا يلقاه إلا باشاً متبسماً ، ولا يلقى عيسى إلا محزوناً شبه الباكى ، فقال له عيسى : إنك تبسم (٢) تبسم

(١) أورده السيوطى فى «الجامع الصغير» (١/ ٢٠) وقال: أخرجه الحكيم الترمذى وأبوالشيخ عن عمر وحسنه. وأخرجه البزار فى مسنده - كتاب الأدب - باب السلام والمصافحة (٢/ ٤١٩). وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» - كتاب الأدب - باب المصافحة والسلام ونحو ذلك (٨/ ٣٧).
(٢) أصلها تبتسم، وقد حذفت إحدى التاءين للتخفيف.

رجل يضحك كأنك آمن فقال يحيث: إنك لتعبس تعبس (٣) رجل يبكى كأنك آيس فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إن أحبكما إلىّ أكثركما تبسماً»، وأما المصافحة هو الأخذ باليد، وهو كالبيعة لأن من شرائط الإسلام الأخوة قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٤)

وقال:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (٥)

شرط الله تعالى فيما بينهم الأخوة والولاية، فإذا لقيه فصافحه كأنه يبايعه على هاتين الخصلتين ففى كل مرة يلقاه يجدد بيعته فيجدد الله تعالى لهما ثواباً كما يجدد المصاب الاسترجاع (٦)؛ فيجدد له ثواب المصيبة ويجدد صاحب النعمة الحمد فيجدد له ثواب الشكر فللسابق إلى تجديد له تسعون رحمة كتمسكه بالولاية، والأخوة، وإقامة الحرمة، وأول ما ظهرت البيعة يوم الميثاق.

ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما: «الركن يمين الله يصافح به عباده يوم القيامة» لأنهم يوم الميثاق بايعوا الله فافحوا الحجر فلما أنزله من الفردوس، وضع فى ركن البيت، ودعى الناس إليها ليجددوا بيعتهم فكلما تمسحوا فذلك منهم بيعة متجددة».

---

(٣) تعبس: من العبس وهو كلوح الوجه، والتعبس: التجهم، ويوم عبوس هو يوم شديد. راجع مختار الصحاح ص٤٠٩.

(٤) الحجرات (١٠/٤٩).

(٥) التوبة (٧١/٩).

(٦) أى يقول إنا لله وإنا إليه راجعون.

[الأصل الثانى عشر والمائتان فى فضل يوم عاشوراء وسر التوسيع فيه]

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع الله عليه فى سنته كلها» (١)، الأصل فى ذلك أن سفينة نوح عليه السلام استوت على الجودى يوم عاشوراء، فقيل له:

﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ (٢)

أى الموحدين وأمم سنمتعهم، ثم يمسهم منا عذاب أليم وهم المشركون، وكانوا كلهم فى صلبه وهذا السلام والبركات إلى آخر الدهر، وقيل له أهبط؛ لتبوء لأهلك وولدك متبوء صدق. ومستقرا لمعاشك بهذا السلام وهذه البركات، فمن أراد أن يأخذ بحظه من تلك البركات فوافى ذلك اليوم كان فى تلك الهيئة هيئة من يبوء لأهله، وعياله مرمة لمعاشهم ويزيد فى وظائفهم ويهيىء لهم لينالهم حظه من ذلك السلام، وتلك البركات، لأن الله تعالى استقبلهم بالدنيا بعد أن غرقها وخربها شرقاً

(١) قال الإمام أحمد: «لا يصح هذا الحديث» أ هـ. وقد رواه الطبرانى عن أنس مرفوعاً، وذكره السيوطى نقلاً عنه فى «الجامع الصغير» (٢/١٨٢) والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد وفى إسناد هذا الحديث الهيثم بن شداخ وهو مجهول. كذا ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/٣٤٥) وأورده الشجرى فى «الأمالى» (١/١٧٦) من رواية أبى سعيد ورواه العقيلى عن أبى هريرة، وقال: سليمان بن أبى عبدالله مجهول، والحديث غير محفوظ، وكل طرقه واهية ضعيفة لا تثبت.

(٢) هود (١١/٤٨).

وغربا فلم يبق فى جميع الدنيا إلا سفينة نوح عليه السلام بمن فيها فرد عليهم دنياهم يوم عاشوراء ، وأمروا بالهبوط للتبوئة ؛ والتهيىء لأمر المعاش مع السلام والبركات عليهم وعلى الأمم الموحدين الذين فى صلبه ، فمن أتى عليه ذلك اليوم فكأنه فى وقته يهبط من السفينة ؛ ويهيىء لعياله معاشاً ، وتناله السلامة ، والبركات لذلك .

وروى أن من اكتحل يوم عاشوراء بكحل إثمد لم يتجع عينه تلك السنة وعوفى من الرمد ، وقال عليه السلام : «خير أكحالكمْ الإثمد فإنه ينبت الشفر ويجلو البصر» .

فالاكتحال مرمة العين وفى الكحل قوة للبصر ، فإنه يجليه ، ويذهب بالغشاوة ، ومايتجلب من المآقين من فضول الدموع ، والبلة الطبيعية ينشفه الإثمد ولايدعه يتلبث فيصير غشاوة وغيماً على حدقتيه ، وفيد مدد للروح ، لأنه بصر الروح فى الباطن متصل ببصر العين ؛ فإذا ذهبت الغشاوة وصل النفع إلى بصر الروح ووجد لذهابه راحة وخفة ، فإذا كان منه فى هذا اليوم مرمة النفس نال البركة والسلامة ، وعوفى من الضيق ، ووسع عليه سائر سنته وإن كانت مرمة الروح عوفى من الرمد .

[الأصل الثالث عشر والمائتان فى أن العبد يسأل عن صدق لا إله إلا الله والفرق بين أهل الكلمة وأهل القول بالكلمة]

عن أنس رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١)

قال: عن «لا إله إلا الله».

معناه عن صدق لا إله إلا الله والوفاء بها.

قال الحسن رضى الله عنه: «ليس الإيمان بالتحلى، ولا بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلوب، وصدقته الأعمال» ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً، دخل الجنة، قيل يا رسول الله ما إخلاصها، قال: أن تحجزه عن محارم الله تعالى».

قال عليه السلام: «إن الله تعالى عهد إلىّ أن لا يأتينى أحد من أمتى بلا إله إلا الله لم يخلط بها شيئاً إلا وجبت له الجنة قالوا: يا رسول الله وما الذى يخلط بلا إله إلا الله؟ قال: حرصاً على الدنيا وجمعاً لها ومنعاً لها يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة».

---

(١) الحجر (٩٢/١٥) أخرجه أبو شيبة فى «المصنف» - كتاب الزهد - باب كلام أنس (٣٦٥/١٣). وذكره الطبرى فى تفسيره (٤٢/١٤) من طريق ابن إدريس عن ليث.

وثمرة هذه الكلمة لأهلها وأهلها من رعاها حتى قام بوفائها، وصدقها، ومن لم يرعها فليس من أهل لا إله إلا الله إنما هم من أهل قول لا إله إلا الله. فأهل قول لا إله إلا الله من كان مرجعه إلى القول به، والعمل بهواه، وأهل لا إله إلا الله من كان مرجعه إلى إقامة هذا القول وفاء وصدقاً.

قال عليه السلام: «لا إله إلا الله يمنع العباد من سخط الله تعالى ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله ردت عليهم، وقال الله تعالى كذبتم».

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال قول لا إله إلا الله يرفع سخط الله عن العباد حتى إذا نزلوا بالمنزل الذى لا يبالون ما نقص من دينهم إذا سلمت دنياهم فقالوا عند ذلك قال الله تعالى لهم كذبتم».

وصدق لا إله إلا الله أن يقف عند صنع الله تعالى، وعند أمره كالعبيد، أما صنعه فهو أحكامه عليك، وتدبيره فيك مثل العز والذل والصحة والسقم والفقر والغنى وكل حال محبوب ومكروه فنقف هناك كالعبيد لا تعصى الله فى جنب ما حكم عليك، ودبر لك، ويحكم به عليك، وأما أمره فهو أداء الفرائض واجتناب المحارم؛ فلا تعصيه فى ترك فريضة ولا إنهتاك محرم، وهذا أدنى منزلة فى صدق لا إله إلا الله لأنه يعد فى حفظ الجوارح، وأما المنزلة الأعلى أن يكون مع هذين حافظاً لقلبه، قد راض نفسه وماتت شهواته فما ورد عليه من أحكام الله تعالى رضى بها، واهتشت نفسه إلى قبولها حياله وإعظاماً وما أعطى من الدنيا قنع بها، وكان كالخازن الذى يعطيه مولاه شيئاً يأتمنه عليه فهو يمسكه بالأمانة يرقب متى يومىء إليه حتى يبذلها من غير تلجلج، وما ورد عليه

من أمره ونهيه أنفذ من غير أن يلتفت إلى عوض عنها فى عاجل أوثواب فى آجل، فهؤلاء هم السابقون راضوا أنفسهم، وفطموها عن الشهوات، فلما جاءهم أمر الله وأحكامه انقادوا وذلت نفوسهم لأمره إعظاماً لجلاله، ذلة العبيد الذين قد استسلموا لسيدهم، وهم المبهوتون فى طاعة الله تعالى لا يفرقون بين أمور الدنيا والآخرة قد استوت عندهم لأنهم لله وبالله لا يخطر على بالهم عند تصرهم فى الأمور اختيار الأمور والأحوال؛ فإن كان فى مرمة نفس أوإصلاح معاش فهو لله وإن كان فى أمر الآخرة فهو لله تعالى، فأعمارهم غير معطلة كلها عبادة لمليكهم، عبدوا الله بنومهم كما عبدوه بسهرهم، وبأكلهم كما عبدوه بجوعهم، وعبدوه بتناول الدنيا وأخذها كما عبدوه بتركها إنما نظرهم إلى تدبيره لهم فعلى أى حال سار بهم إليه ساروا طيبة بذلك نفوسهم حسنة أخلاقهم فإنهم نظروا إلى المقتصدين الذين لم يروضوا أنفسهم ولا فطموها عن الشهوات إلا أن خوف الوعيد حال بين نفوسهم وبين المعاصى فحجرهم عن أعمال أهل الهلكى، وحملهم على أعمال أهل النوال لما اطمعوا من الثواب؛ كفعل الدواب تتلكأ وتبطىء فى السير حتى إذا أحست بالدنو(٢) من المنزل استقلت الحمولة، وجدت للسير تحنناً إلى الأوازى أوأحست بالسوط من راكبها فتهتاج فى السير مجداً، فهؤلاء قد استحيوا من أن يكون شبيهاً بهم وأن تكون عبادتهم طمعاً فى الثواب أورهبة من العقاب، فإن هؤلاء انقادوا لله تعالى من أجل نفوسهم، وليس هذا بخالص العبودة إنما خالص العبودة لقوم هامت قلوبهم فى حب الله تعالى، وهابت فى جلاله وعظمته، فانبعثوا لأعمال البر شغوفاً بهم لعلمهم إنه يحب ذلك وامتنعوا من الآثام هيبة له وإجلالاً لمعرفتهم أنه مساخطه، ومكروهه. فهذان الصنفان هم أهل لا إله إلا الله، قال عليه السلام: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى القبور، ولا فى

---

(٢) الدنو من المنزل: القرب منه.

النشور كأنى أنظر إليهم وهم ينفضون التراب عن رؤسهم وهم يقولون: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن» (٣)، والناس فى الحزن على درجات، وكل يحمد الله على إذهاب حزنه؛ فالمتقون حزنهم قطع النار، وفوت الجنة، ومجاهدة النفس أيام الحياة. والصديقون حزنهم تقصير شكر ما لزمهم من العصمة والتوفيق بأن وفقهم للطاعات، وعصمهم من الآثام، فوجدوا أنفسهم مقصرين فى شكره ينتظرون العفو، والعارفون على صنفين، وحزنهم على وجهين، فصنف منهم حزنه حزن العاقبة وهو الغالب على قلبه فإنه اشتاق إلى الله تعالى فرقى به إلى درجة الجلال والجمال فسكن شوقه لطعم لذة ما نال من القربة فر فى العبودة بقوة حظه من الجلال، وعظم عمله لغد بقوة حظة من الجمال فهو مطمئن ساكن، ولهذا قيل لواحده منهم إما تشتاق، فقال: إنما يشتاق الغائب، فاستعظموا هذا وصيروه غاية الأمر ولا يعلمون أن وراء هذا درجة فيها تنافس الأنبياء، والأولياء عليهم السلام المجذوبين المحدثين وهو حزن القلق فإنه يقلقل أحشاءهم إلى آخر رمق من الحياة حتى تخرج أرواحهم بغصة من الكمد لأنهم خلصوا إلى فردانيته (٤) وتعلقوا بوحدانيته، فظمئت أكبادهم عطشاً إلى لقائه، وهذا هو الذى أقلق موسى عليه السلام؛ حتى حمله على سؤال الروية ثم عاش أيام الدنيا عطشان إلى لقائه و فحال أن يستقر العارف حتى يتكشف له الغطاء يوم الزيادة ويصل إلى ما سأل كليم الله عليه السلام لأنه كلما ازداد العبد إليه قرباً زاد مولاه دنواً فازداد هيماناً ووهلاً حتى يقلق، ويكمد، ويحترق من نيران الشوق.

---

(٣) فاطر (٣٥/٣٤).

(٤) فردانيته: وحدانيته

[الأصل الرابع عشر والمائتان في أن الأمثال من معدن الحكمة وأن المرأة لم مثلت بالسيف المصقول]

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مرّ لقمان عليه السلام على جارية في الكتاب فقال لن يصقل هذا السيف» (١)، هذه كلمة تمثيل من معدن الحكمة، وعامة الحكمة من الأمثال لأن الأمثال أنموذج الآخرة، والملكوت، وبالخلق حاجة إلى معاينة الأجل وإنما يعاينوه بالعاجل، ولهذا ما ضرب الله تعالى الأمثال في تنزيله الكريم وعجل لأهل الدنيا من نعيم الجنان أنموذجاً من الأنوار والطيب والذهب والفضة واللؤلؤ والزبرجد، وسأر الجواهر لأنهم لو لم يروا ذلك في الدنيا لم يفهموا منه تلك الصفة فوصف لهم ثلاث درجات: درجة فضة، ودرجة ذهب، ودرجة نور، وأمسك عن وصف سائر الدرجات إذ ليس عندهم أنموذجاتها فيفهمون بها عنه ما يصفه فقال: «لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين» (٢)، والسيف أمره وجي لا يكاد يلبث بصاحبه فكذلك المرأة شهوتها من بين الشهوات كالسيف من بين الأسلحة، روى أن إبليس لما خلقت المرأة قال: أنت نصف جندي، وأنت موضع سري (٣)، وأنت سهمي الذي أرمي بك فلا أخطيء، وذكر الله تعالى في تنزيله الكريم حب الشهوات، فبدأ

---

(١) لم نجد أصلا لهذا الحديث.

(٢) السجدة (١٧/٣٢).

(٣) في نسخة أخرى [مربع] وهو تحريف خطير من الناسخ.

بذكر النساء، فقال عز من قائل:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ [٤]

ليعلم أنها أقوى الشهوات وقال:

﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [٥]

أى فى شأن النساء، وقال تعالى:

﴿ لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [٦]

ولا يكون السكن إلا من الاضطراب، والجولان، وذكر الله تعالى فى تنزيله الكريم شأن ثلاثة من أنبيائه وأعلام أرضه ابتلوا بهنّ يوسف وداود ومحمد عليهم السلام؛ فأما يوسف فابتلى بامرأة العزيز فلما تزينت له وروادته:

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ [٧]

فلم تزل فى مراودته ومخادعته حتى خلت به فى بيتها، وغلقت الأبواب، فقالت له: يا يوسف ما أحسن صورة وجهك، قال: فى الرحم صورنى قالت: ما أحسن شعرك، قال: هو أول شىء يبلى منى فى قبرى، قالت: ما أحسن عينيك، قال: بهما أنظر إلى ربى، قالت: ارفع بصرك فانظر فى وجهى، قال: أخاف العمى فى آخرتى، قالت: أدنو منك وتتباعد عنى، قال: أريد الاقتراب من ربى، قالت: فادخل القيطون معى، قال: القيطون لا يسترنى من ربى، قالت: فراش الحرير قد فرشته قم فاقضى حاجتى، قال: إذن يذهب من الجنة نصيبى، قالت: إنك

---

(٤) آل عمران (١٤/٣).
(٥) النساء (٢٨/٤).
(٦) الروم (٢١/٣٠).
(٧) يوسف (٢٣/١٢).

لجرىء على سخطى ، قال : أريد بذاك مرضاة ربى ، قالت : أنت عبدى اشتريتك بمالى فتعظم علىّ ، قال : بجرمى وخطيئتى أشتريتنى ، قالت : ضع يدك على صدرى ، قال : إنه لا صبر لىّ على احتراق جسدى إذا زرعت فى أرض غيرى ، قالت : يا يوسف ، الجنينة قد عطشت قم فاسقها ، قال : الذى بيده مفاتيحها أحق بسقيها ، قالت : أعتقتك من الرق وجعلتك بمنزلة زوجى ، فبأى حول امتنعت منى ، قال : بحول ربى الذى فى السماء معمره ، ومكان سيدى الذى فى الأرض سلطانه ، أخافه على نفسى ، قالت : إنى مسلمتك إلى المعذبين ، قال : ذاك فعل إخوتى ، قالت : النار قد التهبت قم فاطفئها ، قال : أخاف أن يحرقنى بها ربى ، فلم تزل تخدعه ، وتراوده حتى هم بها فلما حل سراويله ورد يده إلى جيب قميصه ليخلعه ، ويدخل معها فى فراشها ناداه مناد من السماء ثلاث مرات مهلالاً يا يوسف فإنك إن واقعت الخطيئة محى اسمك من ديوان النبوة ، فلم يكترث (٨) لذلك الصوت ، وغلبه ما حدث فيه من الشهوة فمثل الله تعالى له أباه فى مثل صورته التى عهده فيها فنظر إليه غضبان عاضاً على أنملته (٩) المسبحة بوعده، فلما رأى ذلك يوسف عليه السلام كف وهرب مولياً نحو الباب واتبعته سيدته فتداركا عند الباب ينازعها ليخرج ، وتجره من خلفه ليرجع ، فانقد قميصه من دبر:

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٠)

فلما رأى ذلك يوسف عليه السلام أفشاها فقال :

﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ (١١)

(٨) لم يكترث : لم يأبه ، ولم يحفل بالشىء.
(٩) راجع المنار فى تفسير القرآن.
(١٠) يوسف (١٢/٢٥).
(١١) يوسف (١٢/٢٦)

حتى آل الأمر إلى أن شاع أمرها فى النساء، وقبح عليها الأمر، فجمعت النساء، وجعلت عبداً واستعانت بهن عليه وأوعدته وهددته إذ لم يفعل ذلك: «ليسجنن أوعذاب أليم» وليكونن من الصاغرين قال: رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن، فلبث فى السجن بضع سنين أى عشر سنين، فلما انتهت مدة عقوبة الهم، وجاء أوان الخروج منه قال لذلك الذى كان حبسه الملك ثم أخرجه أذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين أى ثلاث سنين، فلما انتهيت مدة عقوبة قوله اذكرنى عند ربك جاء جبريل عليه السلام فقال له إن الله تعالى يقول لك: أتحب أن يكلك الله فى شىء من أمرك إلى فرعون عنده، قال يوسف عليه السلام: أعوذ من ذلك برأفة ربى، ورحمته فخرج من السجن، وآتاه الله تعالى ملك مصر وخوله خزائن أرضها حتى جمع بينه وبين يعقوب عليهما السلام، وجمع شمله فى أخوته وأهل بيته وانتقلوا إلى مصر.

وروى أن امرأة العزيز أصابتها حاجة فقالوا لها لو أتيت يوسف فسألته، فاستشارت الناس فى ذلك، فقالوا لها: لا تفعلى ذلك فإنا نخاف عليك، قالت: كلا إنى لا أخاف ممن يخاف الله تعالى، فدخلت عليه فرأته فى ملكه فقالت: الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكاً بطاعته، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته، فقضى لها جميع حوائجها ثم تزوجها فوجدها بكراً، فقال لها: أليس هذا أجمل مما أردت، فقالت: يا نبى الله إنى ابتليت فيك بأربع: كنت أجمل الناس كلهم، وكنت أنا أجمل أهل زمانى، وكنت بكراً، وكان زوجى عنيناً، وأما داود عليه السلام فإنه قعد فى المحراب، والزبور فى حجره يقرؤه إذا طائر بين يديه عليه من الألوان أكثرها، وسليمان عليه السلام صغير يلعب عنده فلما أهوى ليأخذه طار من الكوة، وقيل إنه كان إبليس، فظهر له فى هيئة طائر ليفتنه فأخرج داود عليه السلام رأسه فوقع بصره على أمرأة حسناء

تغتسل على رأس بركة فى بستانها تحت محراب داود عليه السلام؛ فرأت ظله فى البركة وأنه قد اطلع عليها إنسان فحركت شعرها، فجللت جميع جسدها بشعرها، فرجع داود عليه السلام الكوة بجسده، وبقى القلب هناك، فخرج من المحراب وقدص بيت المرأة لينقلها إلى نسائه؛ لتكون لنفسه فى ذلك شفاء مما حدث حتى يقدم زوجها أوينتظر ما يكون، فوقف على مدرجته ملكاً يقول أحدهما لصاحبه لقد أكرم الله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، عن مثل هذا الممشى، فلم ينتفع بما سمع حتى صار من أمره إلى أن كتب إلى صاحب البعث أن يقدم زوجها إلى التابوت وكان من قدم لذلك لا يرجع حتى تفتح المدينة أويقتل فقدم زوجها فى نفر إلى التابوت فقاتلوا حتى قتلوا، وأعتدت المرأة فخطبها، وتزوجها، واشتغل عنها بالتوبة وأقبل على العبادة متداركاً لما سلف منه حتى شغل عن أمور بنى إسرائيل، وجعل يأكل قويهم ضعيفهم، فلا يجد الضعيف غياثاً، ويقيم شهراً ببابه، فلا يصل إليه لشغله بما أحدث من الأمر حتى طمع فيه سفهاء بنى إسرائيل وأئتمروا فى خلعه، فانطلقوا إلى ابن له أكبرهم سناً وأعزهم عليه، وهو يكره فخدعوه، ومنوه الملك، وقالوا: أنت أكبر ولد أبيك، وقد كبر أبوك وشغل، وعجز عن السياسة، وضاعت حقوق الناس، وأحكامهم وأنت أحق من يدارك ذلك، ولا نراه يكره ذلك فإن هو عاتبك فى ذلك أخبرته أنك إنما فعلت ذلك نظراً له، وشفقة عليه حين خشيت الأمم، وضياع الناس، وخشيت على ملكه الأعداء فلم يزالوا يخدعونه حتى بايعهم، فلم يشعر داود عليه السلام؛ حتى خلع وأصبح ابنه يبايع الناس، ويدعو إلى نفسه فلما بلغ ذلك داود عليه السلام عرف أنه عقوبة لذنبه فخاف الفتنة، والبلاء فهرب بنفسه ومعه أمير جنده وصاحب مشورته حتى إذا كان ببعض الطريق وهو يريد جبلاً يتحصن فيه لقيه رجل من بنى إسرائيل قد غلب القضاة، والحكام قبل داود فلما ولى داود عليه السلام أنصف منه الضعيف، وأقام عليه الحدود فلما نظر الرجل داود فى مذلة البلاء قال: الحمد لله الذى نزع

ملكك، وأهانك، وأذلك، وأفردك إلى نفسك وفرق عنك جموعك فسل ابن أخت داود الذى هو أمير جنوده سيفه ليضربه فقال له داود عليه السلام: مهلاً فارن هذا ليس هو الذى يسبنى على لسانه، ولكن الله هو الذى يسبنى على لسانى، بذنبى، وخطيئتى، ومتى كان يطمع هذا أويزومنى منى حتى يأذن الله له فتى فلم يظلمنى ربى وأنا الذى ظلمت نفسى، فلما انطلقوا هاربين كمنوا فى تلك الجبال لا يأمنون القتل، وكان لداود عليه السلام صاحب شورى يقال له نوفيل فغضب عليه، وعزله واستبدل به فقال ابن داود عليه السلام لنوفيل: كيف الرأى فى أمره قال: أن تطأ فراشه حتى يستيقن الناس أنه ليس لداود بقية عندك قال: كيف الرأى فى قتاله قال: إن كنت تريد من يوم من الأيام فعجله اليوم مادام مخذولا مسخوطا عليه وأن أخرت أمره حتى يتوب الله عليه، ويغفر له لم تطقه فهو الذى قتل جالوت (١٢) وبز طالوت ملكه وأذل رقاب الملوك ثم استشار ابن داود آخر فقال له سمعت بابن نبى قتل أباه أم هل سمعت بنبى أذنب فلم تقبل نوبته أم ماذا تقول لربك يوم القيامة وقد قتلت نبيه وإياك، ووطئت فراشه، وما وجه من قتل أبا نبيا، ونكح أمه، ما أعلم يقبل ممن فعل هذا صرف ولا عدل، فإن كان لا محالة أنت ضابط هذا الملك، وبما أجمعت عليه من عقوق أبيك، وخلعه فلا تطلبه، ولا نقتله فإن كان الله تعالى قد أذن بفنائه، فما أكثر معاريض البلاء التى تكفيك ذلك منه، وإن كانت له مدة حياة يستكملها ألقيت لم تأثم بربك، ولم تفرط بوالدك فقال: الرأى رأيك، وما أسمعك عرضت بغش ولا أدخرت نصيحة، وأنا متابعك على ما فى قلبك، وكاف عن داود ما كف عنى فإن قاتلنى حميت نفسث مخافة أن يظفر فيقتلنث، فقال له الرجل: إن داود لن يقاتلك حتى يقبل الله تعالى توبته ويأذن له لقتالك وان ظفر بك احياك وامنك فأنه

---

(١٢) بز: سلب.

أعظم حلما وأوسع عفوا من أن يقتل ولده، ولبث داود عليه السلام من يوم خرج إلى أن رجع إلى ملكه سنتين، وانقطع الوحى، فلما رد الله تعالى إليه ملكه سرح ابن أخته وهو أمير جنده فأمره أن يدخل المدينة ثم يدعو إلى داود عليه السلام ويخبر بنى إسرائيل أن الله تعالى قد قبل توبته، ورد إليه ملكه، فاتبعوه إلا قليل منهم انحازوا إلى ابنه وكرهوا أن ينظروا إلى وجه داود عليه السلام بعد الذى كان منهم فاستقبلوا فقاتلوا قتالا شديدا، حتى قتلوا وكف ابن داود عليه السلام فلم يقاتل حتى قتل أصحابه ثم إنه هرب حياء من أبيه وأن لا يرى أبوه وجهه فتبعه ابن أخت داود وعهد إليه داود عليه السلام وحذره أن يقتله وقال له إياك أن تقتله فإنى قاتلك به إذا خالفت أمرى فإنه أعز ولدى على، ابتلانى الله تعالى به ليذلنى وينقمنى بذنبى، ويهيننى بخطيئتى، وينزع ملكى ثم تداركنى عفوه، ورحمته فعفا عنى وقبل منى وقبل توبتى فينبغى لى أن أعفو كما عفا وأرجو له من التوبة ما رجوت لنفسى؛ فليس هو بأعظم جرما منى.

فالحذر على دمه فلحقه فوجده قد علقته شجرة دخل عود منها برأسه فاقتلعه من السرج، وزلت الدابة من تحته حتى اقتلعه العود فبقى معلقا وذهبت الدابة فطعنه ابن أخت داود بالرمح حتى اعتدل فيه وترك وصية داود عليه السلام، ثم انصرف وتركه حتى مات معلقا فغضب داود عليه السلام وقال: إنى قاتلك عاجلا أو آجلا فوطن (١٣) نفسك على ذلك، واستبقاه داود عليه السلام لأنه كان رجلا منصورا بعيد الصوت والنكاية فى العدو، فكره أن يعجل قتله، فلما حضرته الوفاة أوصى سليمان عليه السلام بقتله فقتله ساعة رفع يده من قبره فلما تيب عليه التوبة الظاهرة، ورد الله تعالى إليه ملكه، واطمأن نزل عليه الملكان فتسور(١٤) المحراب

(١٣) وطن نفسه على ذلك: أى مهد لها وعودها على تقبله.
(١٤) تسور المحراب: تسلقه.

على ما قص الله تعالى وانكشف عنه الغطاء عن فعله؛ فبرز صارخا متململا وسجد سجدة العويل، والنوح دام فى ذلك أربعين صباحا، حتى نبت العشب حول[١٥] رأسه من دموع عينيه؛ فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا داود ارفع رأسك فقد غفر لك، فقال يا جبريل كيف بالرجل قال: إن الله تعالى قد أعاضه الجنة، وقد غفر لك فارفع رأسك، وأما محمد صلى الله عليه وسلم فإنه وافى باب زيد بن حارثة، ووقع بصره على أمرأته زينب بنت جحش رضى الله عنها وهى فى خمار أسود، وكانت وسيمة، وذات هيئة، وهى واقفة فى صحن الدار فوقعت فى نفسه[١٦] فقال: بكفيه على عينيه وتولى، وقال سبحان مقلب القلوب والأبصار فرجع إلى منزله فلما آوى زيد إلى فراشه عجز عنها، وحيل بينه وبين اتيانها، فلما رأى ذلك أحس بأمر حادث من الله فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطلقها، فأعتل بعلل تطييبا لقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: اتق الله يا زيد وأمسك عليك زوجك، فلم يزل زيد عن عزمه الذى عزم الله على قلبه فكما قلب قلب محمد صلى الله عليه وسلم فهواها؛ كذلك قلب قلب زيد حتى طلقها، وانقضت عدتها فنزل القرآن الكريم بتزويجها منه فولى الله تعالى تزويجها منه على لسان جبريل فلما نزل قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [١٧]

قام عليه السلام فدخل عليها بغير إذن وهى لا تعلم شيئا فقعد عندها، فأما يوسف عليه السلام حين البلاء قال: «معاذ الله إنه ربى أحسن

---

(١٥) هذا القول يفتقد السند الصحيح، والدليل الراجح.

(١٦) تقدم أن أشرنا إلى هذه الرواية من المدخولات وقررنا أنا نختلف مع من أخذوا بها كالإمام الطبرى.

(١٧) الأحزاب (٣٧/٣٣).

مثواى » (١٨) اعتصم بالله تعالى وأخذ العدة من التعوذ به وذكر إحسان من ملكه وكفران نعمته أن يخون فى أهله وأما داود عليه السلام حين شخص له البلاء اعتصم بالحيل، ونقل تلك المرأة إلى نسائه؛ لتطمئن النفس، وأما محمد صلى الله عليه وسلم فزع إلى الله تعالى فردا حين شخص له البلاء، واعتصم بفرادنيته، فقال سبحان مقلب القلوب فذكر نزاهته ومشيئته فتعلق بها وتضرع إليه أن لا يقلبها إلى ما لا يليق به، ولا يحسن عنده فكان عقبى نطق يوسف عليه السلام أن تركه حتى هم بها وكاد الأمر أن يكون ثم تداركه برحمته التى بها نال الاستخلاص، وصرف عنه بالبرهان، وهو جبريل فى صورة يعقوب عليه السلام، وهو سبب من الأسباب، وكان عقبى تعلق داود عليه السلام أن تركه حتى هم بما هم من شأن أوريا حتى مضى الأمر إلى آخره، ثم نبه بالملكين وعاتبه وملأ المشرق والمغرب جزعا على مأتمه للمصيبة التى حلت به وللحرقات التى هاجت منه وصارت إنابته، وتوبته حديثا فى العالمين؛ ليكون مددا للنواحين أيام الدنيا، وكان عقبى تعلق محمد صلى الله عليه وسلم أن ولى خلاصة من ذلك بنفسه فردا ومنع زيدا من إتيانها وأخذ بقلبه عنها حتى طلقها ثم ولى تزويجها منه فردا وأنبأه من طريق الوحى أن قد زوجناكها وأخرج ذلك من تدبير أهل الدنيا حيث تزوجوا بولى، ورضاء وشاهدان، ومهر فهذه مرتبة رفيعة لمحمد صلى الله عليه وسلم حين أخرج تزويجه زينب من تدبيره لعامة من خلقه فزوج أمته من عبده وولى ذلك بكرمه ورحمته وأشهد الوحى على

---

(١٨) يوسف (٢٣/١٢).

انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (١٦٥/٩) ط. دار الكتب. وجامع البيان للطبرى (١١٠/١٢) بتصرف.

قال أبو السعود فى تفسيره (٦٢/٢): «وهذا إشارة إلى أنه منكر خطير يجب الاستعاذة بالله منه. وذلك عندما أراه الله سبحانه وتعالى البرهان الجلى الواضح على ما فيه من غاية القبح ونهاية السوء» بتصرف.

ذلك وجعل مرتبته صداقا لها منه، وأعلم الأمة محل هذه القلوب الثلاثة أين كانت منه وبروز قلب محمد صلى الله عليه وسلم على سائر القلوب.

[الأصل الخامس عشر والمائتان فى أن أبا موسى أوتى مزمارا من مزامير آل داود عليه السلام]

عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقد أوتى أبو موسى مزمارا من مزامير آل داود، فبلغ ذلك أبا موسى فقال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لقراءتى لحبرته لك تحبيرا (١).

الرمز والزمر بمعنى واحد إلا أن الرمز بالشفتين، والزمر بالحنجرة، بتحريك الشفتين فإذا كان بصوت فهو كلام لأنه يدخل السمع، فيكلم الصوت القلب أى يؤثر فيصور معانى ذلك الصوت الذى نطق به فى الصدر وإذا كان بغير صوت، فهو رمز لأنه إشارة إلى حروف شفتيه، فيقوم مقام الصوت، فيفهم منه وأما الرمز فإذا خرج الصوت من جو الصدر إلى جو الرأس حرك الحنجرة المركبة بعضها على بعض حتى يرد الصوت، و.يرجعه فإذا تردد صارت له صداء وبذلك الصداء يتلون الصوت، فيصير ألوانا فتلذذ به لأن بين اللونين تدبيرا من تدبير الله، تعالى ولطفا من لطفه؛ ففصل بين اللونين حتى إذا سمعت الأول ورد الثانى ثم عاد الأول فورد على السمع طريا ثم عاد الثانى فورد طريا فتلك الطراوة على السماع، وجود اللذة ولهذا إذا دام اللون سميح وفقدت لذته فأخبر عليه السلام أن هذه الأصوات الزائدة على أصوات

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه «كتاب فضائل القرآن» باب حسن الصوت بالقراءة (٢٤١/٦). وأخرجه النسائى فى سننه «كتاب الافتتاح» باب تزيين القرآن بالصوت (١٨٠/٢). وأحمد فى المسند من حديث سعد بن أبى وقاص (٤٥٠/٢).

العامة من عطاء ربنا وفضله، وإنما يؤتى من يشاء من رحمته فلما بلغ ذلك أبا موسى رضى الله عنه عظمت منه الله تعالى عليه أن ركب فى جسمه وخلقته شيئا له موقع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من عطايا ربه فقال: لو علمت إنك تسمع لقراءتى لجبرته تحبيرا والتحبير تلوين الصوت، ومنه برد(٢) حبرة إذا كان ذا الوان. وقال تعالى:

﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (٣)

وخص أهل اليقين بهذا لأن النور يفتح سدد تلك الطرق التى هى مخارج الصوت فيصفو.

قال عليه السلام: «لم يبعث نبى إلا حسن الصوت حسن الصورة» (٤) وأبو موسى رضى الله عنه كان من أولياء الله تعالى المشتعلة قلوبهم بنوره سلام الله عليهم الذين لا تملكهم نفوسهم، بل أوفرهم حظا فلم يكن تأخذه محمدة الخلق، فتملكه فلذلك أمكنه أن يقول لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحبرته تحبيرا، يبتغى بذلك سرور رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال عليه السلام المخلص من لا يحب أن يحمده الناس فى شىء من عمله).

وأحق من ينفق عليه صوته الممنون عليه بذلك هو الرسول عليه السلام لأن الصوت الحسن حلية القرآن (قال عليه السلام لكل شىء حلية وزينة وحلية القرآن الصوت الحسن).

---

(٢) برد حبرة: هى برود يمنية، وتجمع أيضا على حبرات، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها ويحبها، راجع أساس البلاغة للزمخشرى ص١٤٩ ط. دار الشعب بمصر سنة ١٩٦٠م.

(٣) الروم (١٥/٣٠)

فهم فى روضة يحبرون: أى يسرون كما ذكر الطبرى (١٩/٢١) ولسان العرب (٢٣٠/٥) والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (١٢/١٤). والحبرة هى السرور. غريب القرآن ص٣٤٠.

(٤) أى حسن الخلق.

والدليل أن أبا موسى رضى الله عنه كان من الأولياء أنه نزل قوله سبحانه وتعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (٥)

قال عليه السلام نعم قوم هذا وأشار إلى أبى موسى رضى الله عنه فما لبثوا إلا يسيرا، حتى قدمت سفائن الأشعر بين وقبائل اليمن من طريق البحر وكان لهم بلاء فى الإسلام فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت عامة فتوح العراق على يدى قبائل اليمن فى زمن عمر رضى الله عنه.

وعن زيد بن أسلم رضى الله عنه أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر فى نفر منهم لما هاجروا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فلك وقد أرملوا من الزاد فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٦)

فقال الرجل ما الأشعريون بأهون الدواب على الله، فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه أبشروا أتاكم الغوث ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءا خبزا ولحما فأكلوا منها ما شاءوا ثم قال بعضهم لبعض لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول

(٥) المائدة (٥/٥٤).

(٦) هود (٦/١١).

انظر الدر المنثور للسيوطى (٢١/٣) وجامع البيان للطبرى (٣/١٢) والقرطبى (٥/٩).

الله صلى الله عليه وسلم ليقضى به حاجته فقالوا للرجلين اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنا قد قضينا منه حاجتنا ثم أنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله فما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به فقال: ما أرسلت إليكم شيئا فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع وما قال لهم فقال صلى الله عليه وسلم ذلك شيء رزقكموه الله سبحانه.

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقدم عليكم قوم هم أرق أفئدة منكم فقدم الأشعريون فيهم أبو موسى رضى الله عنه فجعلوا يرتجزون ويقولون غدا نلقى الأحبه محمدا وحزبه) وقوله من مزامير آل داود (فإن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان داود عليه السلام يقرأ الزبور بسبعين صوتا يلون فيها وكان يقرأ قراءة يطرب منها المحموم، وكان إذا أراد أن يبكى نفسه لم تبق دابة فى بر ولا بحر إلا سمعن لصوته.

وعن عبيد بن عمير رضى الله عنه قال: كان داود عليه السلام يأخذ المعرفة فيضرب بها ثم يقرأ عليهم يريد أن يبكى بذلك ويبكى، والمعرفة تهيج من معدن السرور ما فيه لا من موضع الحزن فدل أن هذا بكاء الشوق يبكى داود عليه السلام، ويبكى المشتاقين لأن المشتاق الهائم من طول الغيبة عمن اشتاق إليه يشتد حزنه وفى باطن حزنه السرور، لأن الحب أصله والسرور من الحب والشوق من السرور والحزن من أجل الشوق فإذا لاقى قلبه أصوات السرور بكى.

[الأصل السادس عشر والمائتان فى بئس العبد من ثمانية أوجه والتحذير عنها]

عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى بئس العبد عبد سهى، ولها، ونسى المبدأ والمنتهى، بئس العبد عبد بغى وعتا ونسى المقابر والبلى، بئس العبد عبد يحتال بالدين الدنيا، بئس العبد عبد يختل(١) الدنيا بالشبهات، بئس العبد عبد يذله الرعب من الحق، بئس العبد عبد طمع يقوده بئس العبد عبد هوى يضله(٢).

قوله تجبر واعتدى احتشى من الشهوات وعمل بهواه وجبر الخلق على هواه وصار ذلك له عادة واعتدى فى جبريته، ونسى الجبار الأعلى الذى له الجبر وقد صغرت الدنيا بمن فيها، والملكوت فى ملك جبروته، ودق. وقوله سها ولها سهوه بالأمانى، ولهوه بالشهوات، ونسى المبدأ من أين خلق، ونسى المنتهى، إلى أين يرد، وقوله بغى وعتا أى طلب العلو كلما رأى من الدنيا دزجه أحب أن ينال ذلك، ويسلُب غيره ليتفرد بها دون

(١) ذكره الزبيدى فى «اتحاف السادة المتقين» (٣٤١/٨). وأخرجه الحكيم فى «المستدرك» كتاب الرقاب ــ باب ذكر ذمائم العباد (٣١٦/٤) عن أسماء بنت عميس مرفوعاً.. وقال الحاكم: هذا حديث ليس فى إسناده أحد منسوب إلى نوع من الجرح.

وأخرجه الترمذى فى سننه كتاب صفة القيامة (٦٣٢/٤) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس اسناده بالقوى.

(٢) أى عبد مقود بهواه يضلله.

نظرائه (٣) وعتا يبس قلبه فإن حرارة شهوته انتشفت رطوبة قلبه، وما ركب فيه من الرأفة، والرحمة الخلقيه ونسى أن القبر متضمنه، ومحتوى على أركانه، ومبلى لحمه ودمه أكلا، وقوله يحتال الدنيا بالدين فهو متصنع مداهن (٤) همته فيما يعرض له فى العاجل من النهمة متى ينالها البعد قلبه عن الآخرة، مترصد للتوثب على الدنيا لينالها، وليظفر بها منتهزا لفرصتها يتحلى بظاهر الإيمان ليتطارد به الدنيا، وصير معالم الإيمان شبكة لحطامها، وأوساخطها يظهر الخشوع بالتماوت ليحظى عند أهل الدنيا، فينال من عزها وجاهها ويتحازن (٥) عند لقاء الخلق، ويتنفس الصعداء (٦) يظهر الاهتمام لدينه، والتحسر على إدبار (٧) أمره، وأسفه على مايفوته من الدنيا، ويمتنع من قبول النزر (٨) اليسير من الدنيا؛ ليكون فى هيئة الزاهدين، ولئلا ينكسر جاهه عند الخلق، ويصير عندهم فى صورة الراغبين ومع ذلك قد هيأ على كل باب من منالات (٩) الدنيا بابا من أبواب الدين، ليختله من أيديهم يظهر الزهادة ليمال عليه بالدنيا، ويظهر العبادة لتكفى مؤنه، ويظهر الورع، ليؤتمن على الأموال، ويظهر الانقباض ليهاب ويظهر الشدة على أهل الريب (١٠) ليشار إليه بالأصابع، ويطلب الرياسة ليحكم فى الخلق فى معاملته تحكم الملوك، ويطلب العز لنفاذ مشيأته فيهم.

---

(٣) نظراء الرجل: أترابه ولداته وأحزابه.

(٤) مداهن: مصانع موارب مداجى.

(٥) يتحازن: يصطنع الحزن.

(٦) يتنفس الصُعَداء: بضم الصاد المهملة وبالمد: التنفس الممدود. راجع مختار الصحاح ص ٣٦٢.

(٧) إدبار أمره: ذهابه.

(٨) النزر: الوتح اليسير.

(٩) منالات: جمع منال، وهو النوال.

(١٠) الريب: والارتياب هو الشك.

قوله يختل الدنيا بالشبهات، فهو رجل فر من الحرام ويغمص عند الشبهة يخادع الله تعالى بذلك، ويقول أفر من الحرام، وقوله يذله الرعب عن الحق إذا استقبله حق من حقوق الله تعالى، فأراد أن يقيمه جاءت النفس بسوء ظنها فخوفته، وجوه المهالك حتى ترعبه فتذله قد علاه الرعب من سوء الظن، فانكسر قلبه وانخلع جبنا.

(قال عليه السلام شر ما في الإنسان حرص هالع وجبن خالع).

وقوله طمع يقوده هو أن يتمنى أمرا من شهوات الدنيا، فلا يزال يتمنى، ويفكر حتى يجد طمعه في الفكر الذى جال فى صدره فإذا وجد القلب طمعه قادته تلك الشهوة، وقوله هوى يضله، هو ترك الحق فى أموره وفى سيره إلى الله تعالى، حتى يقع فى الباطل، والهوى والزيغ عن سواء السبيل.

[الأصل السابع عشر والمائتان فى سر دعوات أبى ذر رضى الله عنه]

عن على رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أتاه جبريل عليه السلام فبينما هو عنده إذ أقبل أبو ذر فنظر إليه جبريل فقال: هو أبو ذر قلت: ياأمين الله وتعرفون أنتم أبا ذر فقال: نعم، والذى بعثك بالحق إن أبا ذر أعرف فى أهل السماء منه فى أهل الأرض وإنما ذلك لدعاء يدعو به كل يوم مرتين، وقد تعجبت الملائكة منه فادع به فسل عن دعائه فقال عليه السلام: ياأبا ذر دعاء تدعو به كل يوم مرتين قال: نعم فداك أبى وأمى ما سمعته من بشر وإنما هو عشرة أحرف ألهمنى ربى إلهاما وأنا أدعو به كل يوم مرتين أستقبل القبلة فأسبح الله مليا، وأهلله مليا، وأحمده مليا، وأكبره مليا، ثم أدعو بتلك العشر الكلمات اللهم إنى أسألك إيمانا دائما وأسألك قلبا خاشعا، وأسألك علما نافعا، وأسألك يقينا صادقا، وأسألك دينا قيما وأسألك العافية من كل بلية، وأسألك تمام العافية، وأسألك الشكر على العافية، وأسألك الغنى عن الناس قال جبريل يا محمد، والذى بعثك بالحق لا يدعو أحد من أمتك هذا الدعاء إلا غفرت له ذنوبه وإن كان أكثر من زبد البحر، وعدد تراب الأرض، ولا يلقاك أحد من أمتك وفى قلبه هذا الدعاء إلا اشتاقت إليه الجنان، واستغفر له الملكان، وفتحت له أبواب الجنة، ونادت الملائكة يأولى الله ادخل من أى باب شئت(١). إيمانا دائما أن يدوم له توحيده حتى يختم له بذلك، فلا يسلبه

(١) أورده السيوطى فى «مسند الجامع الكبير» (١٠٣/٢) ونسبه للحكيم الترمذى وذكر سنده.

فيلقى ربه بإيمانه وأن يكون له يقين يصير أموره معاينة، ولا ينقطع ذكر الله تعالى عن قلبه على كل حال غلبته شهوة أورغبة أو غضبه فلكته نفسه صار إيمانه فى قلبه كشمس قد انكسفت فذهب ضوءها فسأل إيمانا دائما، أى يدوم له شمسه فلا تنكسف حتى يكون صدره مستنيرا بنور اليقين فى كل أمر.

(ومنه قول أبى الدرداء رضى الله عنه حين بلغه أن فلانا أعتق مائة رقبة إيمان ملزوم باليل والنهار ولسانك رطب بذكر الله تعالى أفضل من ذلك.

وقال ابن رواحة رضى الله عنه إذا دام الإيمان على القلب دام الذكر ومن هـهنا قال معاذ رضى الله عنه «تعالى نؤمن ساعة» وقال عليه السلام «أشد الأعمال ذكر الله تعالى على كل حال، وقلبا خاشعا ماتت شهواته فذلت النفس لله تعالى ، وخشع القلب مما طالع من جلال الله تعالى، وعظمته وعلما نافعا هو الذى تمكن فى الصدر، وتصور بالنور الذى أشرق فى الصدر فتصور الأمور حسنها، وسيئها؛ فيأتى حسنها، ويجتنب سيئها فذلك العلم النافع من نور القلب، والعلم الذى تعلمه فذلك علم اللسان إنما هو شيء قد استودع الحفظ، والشهوة غالبة عليه قد أحاطت وأذهبت بظلمتها ضوءه ويقينا صادقاً ينفى الشك، ولا يغلب الشهوة وهو يقين التوحيد، ويقين آخر نور مشرق للصدر غالب للشهوات، صارت أمور الدنيا، والآخرة وأمر الملكوت معاينة قد ورث قلبه الخشية، والمحبة والهيبة والتعظيم لله عز وجل، ودينا قيما أى الخضوع لله تعالى بأمره ونهيه بأن يكون مسيره إليه فى الشريعة على سبيل الاستقامة لا زيغ فيه ولا بدعة فيحل ما أحله ويحرم ما حرمه ويؤدى فرائضه ويجتنب مساخطه قال الله تعالى:

= وذكر الهندى فى «كنز العمال» (٦٧٨/٣) وذكر تفرد الحكيم بروايته.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) الآية

وأعلاه أن يدين لله تعالى؛ حتى لا يلتفت إلى أحد سواه فيكون هو ملجأه، ومفزعه، والعافية من كل بلية بلية تعجيل عقوبة العبد مثل ما نزل بيوسف عليه السلام من لبثه فى السجن بالهم وبلية امتحان مثل ما نزل بأيوب عليه السلام قال الله تعالى:

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ (٣)

وبلية كرامة مثل ما نزل بيحيى بن زكريا الذى لم يعمل خطيئة قط ولم يهم بها فذبح ذبحا وأهدى رأسه إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل، فسأل العافية من ذلك كله والعافية أن لا يكله إلى نفسه، ولا يخذله بل يكلؤه ويرعاه فى كل هذه الوجوه، ودوام العافية أن تدوم له فلا تنقطع، وتمام العافية أن تكون عافية لا شوب (٤) فيها والشكر على العافية فإن به ترتبط النعمة ويجلب المزيد، والغنى عن الناس بالاستغناء بالله تعالى وفيه الخروج من الرق إلى الحرية.

---

(٢) البينة (٥/٩٨).
قال الشيخ الصاوى فى حاشيته على الجلالين (٣٤٣/٤): «وخص الصلاة والزكاة لشرفها» أهـ.
(٣) ص (٤٤/٣٨).
انظر لسان العرب لابن منظور (٤٦٩/٢) وجامع البيان للطبرى (٢٠٨/٢٣).
(٤) لا شوب فيها: لا تخليط فيها، والشائبة والشوائب الأقذار.

[الأصل الثامن عشر والمائتان في أن العين حق]

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «العين حق ولو كان شيء سابقا القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا» (١) قال أبو عبد الله رحمه الله كان الله ولا شيء ثم أبدا ملكه، وربوبيته، ثم خلق الخلق لإظهار ملكه وربوبيته ليدينوا له عبودة، ولا يشتغلوا بالأشياء عن صانع الأشياء فيلهيهم عنه، ويفتتنوا بهم فإذا أعجب واحد بشيء من خلقه غير ذلك الحال ليفسد إعجابه، وكان هذا حق من فعله لأن شرطه حين خلق الخلق أن ينتظروا إلى صنعه ويرونه محمودا، قوله لو كان شيء سابقا القدر لسبقته العين فإن الله تعالى قدر المقادير قبل الخلق بخمسين ألف سنة؛ فليس شيء من الخلق سبق القدر لأنهم خلقوا بعد القدر وإنما قدر الخلق؛ ليخلق ويظهر ملكه، وربوبيته فيحمدوه، ويعبدوه ويضيفوا الأشياء إلى وليها، وصانعها كما روى أن الله تعالى قال:

«ما خلقت الجن والإنس لحاجة كانت بي إليه ولكن لأبين به قدرتي، ولأعرف به الناظرين نفسي ولينظروا في ملكي، وتدبير حكمتي، وليدين الخلائق كلها لعزتي، ويسبح الخلق بحمدي، ولتعنو الوجوه كلها لوجهي» (٢).

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الطب ــ باب العين حق (٢٠٣/١٠). وأخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب السلام ــ باب الطب والمرض والرقى (١٧١/١٤). وأخرجه الحاكم في «المستدرك» كتاب معرفة الصحابة ــ باب إذا رأى أحدكم شيئا يعجبه فليبرك (٤١٢/٣).

(٢) تعنو: تخضع وتذل.

فمن غفل عن الله تعالى، ونظر إلى الأشياء بعين الغفلة فيعجب بها وتصير فتنة عليه، ومن شرط الله تعالى عليهم أن يعتبروا وعبروا عن الأشياء إلى خالقها فإذا لم يعتبروا وبقوامع الأشياء عجبا وفتنة أمفسد ذلك الشيء عليهم كي ينبئهم ويعير عليهم عجبهم وقد تقدم شرط القدر على الخلق فلو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، لقربه وجواره له، ولا يسبقه لأن القدر قبل أن يخلق الخلق، وقوله فإذا استغسلتم فاغسلوا_، هكذا جرت السنة أن العاين يتوضأ أويغتسل ليغسل بتلك الغسالة هذا المعان فيخف ما به وينحل من ثقله كما ينحل صاحب الأخذة من سحره، فإن أخذة المعان من قبل الحق فإن الحق عز وجل يقتضى أن ينسبوا الأشياء إلى وليها ومالكها، ولا يرضى أن تضاف إلى غير خالقها فإذا أخذت الأشياء عن الأسباب فى حالة الغفلة عن الله تعالى، والشرط النظر إلى صنع الله تعالى، ولطفه فى صنعه، وبره بالعبد وعطفه عليه فاقتضى الحق تعالى شكره لولث الخلق، فإذا نظروا إلى الأشياء فاعجبوا بها ناشد الحق وليها فى إفساد ما به أعجبوا لأن تلك النعمة حدثت من الملك من خزائن المنة على أيدى لطفه فغيرها العباد بعمى النفوس عن جهتها، فغير الله تعالى ما بهم، قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (٣) الآية

فغير الله تعالى الحال وأفسد عليها إعجابها رحمة للناظر، والمنظور إليه ليكون للناظر عبرة وللمنظور إليه خروجا من أن يكون سببا لما كره الله تعالى من فتنة المعباد من دونه فأمر هذا العاين أن يغتسل فإن الغسالة

---

(٣) الأنفال (٨/٥٣).

قال السدى _ رحمه الله _: «نعمة الله على قريش محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به، وكذبوه، فنقله الله إلى المدينة، وحل بالمشركين العقاب» أهـ. من القرطبى (٨/٢٩).

مرفوضة تعافها (٤) النفس وجعل الله الشفاء فيما رفضت نفسها، وعافته إذ ليس شيء في الأرض مما يلائم النفس إلا ولها فيه شهوة وإليها نزوع، فإذا استشفى هذا المعان بما قد رفضت نفس العاين، وليست لها فيه شهوة ولا إرادة تخلصت من آفة النفس تقربا إلى الله تعالى بخلافها، والرد عليها تأميلا للشفاء، وحسن ظنه به فحقق الله تعالى أمله، ويفى بالظن فيعافيه، وصارت النفس مزجورة مذمومة بفعلها.

(وعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من يموته من أمتى بالنفس بعد كتابه، وقضائه يعنى بالعين.

وعن أنس رضى الله عنه قال: كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيم مريض فسأل عنه يوما فقالوا إنه لمثبت (٥) يا رسول الله، قال: أفلا استرقيتم فإن ثلث منايا أمتى من العين، وإنما صار كذلك لأن هذه الأمة فضلت باليقين على سائر الأمم؛ فحجبوا بيقينهم بالشهوات، فعوقبوا بأفة العين رحمة من الله لهم فإنه لما فضلهم باليقين، وهو التأييد الأعظم لم يرض منهم بأن ينظروا إلى الأشياء بعين الغفلة وتتعطل منة الله تعالى عليهم وتفضله إياهم والله أعلم.

---

(٤) تعافها النفس: تمجها.

(٥) مثبت: موجع مريض، وفى نسخة أخرى [إنه لميت] وهو تحريف خطير من الناسخ.

[الأصل التاسع عشر والمائتان فى الاستعاذة بالله تعالى]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن استجاركم بالله فأجيروه ومن أتى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافئتموه» (١) الاستعاذة بالله تعالى دخول فى مأمنه وحريمه، ومن التجأ إلى ملك فى الدنيا هاب طالبه أن يتكلف عنه أذى، وكف عنه إعظاما لمن التجأ إليه، ولم يرض الملك أن يتكلف الطالب منه بعد ذلك مكروها، وأن خذله عد ذلك منقصة فكيف ممن دخل فى عياذ الله وجواره، وقوله من سألكم بالله فأعطوه فالسؤال بالله أن يسأل ربه أن يسأل (٢) هذه الحاجة له فكأنه صير الرب عز وجل سائلا بينه وبين صاحبه إذا سأل بحق والله تعالى لا.يرد وإذا سأل بباطل فإنه لن يسأل بالله تعالى وإنما يسأل بالشيطان.

(سأل رجل على بن أبى طالب رضى الله عنه شيئا فلم يعطه فقال: أسألك بوجه الله تعالى، فقال له: كذبت ليس بوجه الله سألتنى إنما وجه الله الحق ولكن سألت بوجهك الخلق.

---

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» كتاب الزكاة- باب حكم من سأل الله واستعاذ بالله (٤١٢/١) وقال الحكيم: حديث صحيح على شرط الشيخين. وأقره الذهبى. وأخرجه أحمد فى «المسند» من حديث ابن عمر (٦٨/٢). وأخرجه النسائى فى «سننه» كتاب الزكاة- باب من سأل بالله عز وجل، عن ابن عمر (٨٢/٥).

(٢) فى نسخة أخرى [يسأله] وهو تحريف.

وقال صلى الله عليه وسلم: من سألكم بالله فأعطوه وإن شئتم فدعوه.

قال معاذ رضى الله عنه فإن سأل، وهو مستحق فإن لم تعطوه فأنتم ظلمة وإن عرفتم أنه غير مستحق أو اشتبه عليكم فلم تعرفوا أنه سأل بحق فيجوز أن لا تعطوه) وأما المعروف فإنه يكافىء فإن لم يجد المكافأة فالدعاء أكبر من المكافأة بالشيء لأن الذى أعطاه عوضا من الدنيا، وهذا قد كافأه بالمسئلة من الله تعالى نوالا، ونوال العبد يدق فى جنب نوال الله تعالى، والعبد إذا صنع إليه معروف فلم يجد ما يكافئ به اشتد عليه لكرم طبعه، وكونه عارفا بالصنائع شاكرا له فأثقله معروفه فأعوزته الحاجة من الخلائق من أثقال معروفه ففزع إلى الله تعالى؛ وسأله أن يكافئه عنه، وهو يحب هذا الخلق من المؤمن فإنه محض(٣) الشكر فقمن(٤) أن يستجيب له.

(٣) محض الشكر: خالصه.
(٤) قمن: حرى.

[الأصل العشرون والمائتان فى أن القلب ملك والأركان عبيد]

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ارن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب» (١) القلب ملك والأركان عبيد، وإنما يعمل كل ركن فى معمله بمشيئة القلب وأمره، والقلب عن مشيئة الله تعالى شاء لم يكله إلى أحد سواه، ولم يطلع عليه أحدا يضع فيه ما شاء، ويرفع منه ما شاء، والنور والتوحيد فيه والطاعات منه، وفكر ذلك كله فى الصدر وعنه تصدر الأمور، ولذلك سمى صدرا والقلب لتقلبه، والقلب معدن النور، ومستقر التوحيد ومنظر الرب سبحجانه وتعالى والصدر موضع التدبير والفكر، والنفس معدن الشهوات، فإذا وجدت النفس طريقا إلى القلب مرت بشهواتها إليه فدنست الإيمان.

(قال عليه السلام: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل» (٢). وقال أيضا عليه السلامغ الإيمان حلو نزه فنزهوه) ونزاهته أن تفطم نفسك عن الشهوات حتى لا يصل إلى قلبك منه بمنزلة ماء صاف جرى إليه ماء كدر، فذهب بصفائه أوعسل ماذى وصل إليه

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب فضل من استبرأ لدينه (١٢٦/١).
وأخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب المساقاة ـ باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٣١٩/٢).
وأخرجه أحمد فى المسند من حديث النعمان بن بشير (٨٧٠/٤).

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير، والبيهقى فى الشعب مرفوعا، وسنده ضعيف.

الصبر فغيره عن حالته لأنه إذا استقر فى قلب المؤمن توحيد رب كريم ودود ظهر له وداده، وكرمه، وبره فقد وجد حلاوة التوحيد، ونزاهته فإذا جاءت شهوات النفس فوجدت سبيلا إلى القلب فخالطته، وكدرته ومازجت حلاوته فدنست، وكدرت فأى خسران أعظم من هذا، ومن خلع عليه ملك خير خلعة فى خزانته فدنسها بقلة التوقى لها عن مواضع الدنس، أو لم يكن محقوقا أن يسلب فيهان أم ليس على حياء من فعله فى اليوم الذى دخل على الملك بتلك الخلعة فما ظنك بمن خلع الله تعالى عليه التوحيد فدنسه، فانظر ماذا حل به إذا دخل عليه، والقلب مثله مثل ملك له عبيد لهم هيئة وشارة ومراكب، وزى الأغنياء والملك فقير معدم ليس له مادة، ولا كنز فإذا نظر إليه العاقل يقول: ليس لهذا الأمر نظام، ولا له دوام فإنه معدم، وهذه الهيأت التى أراها لا تدوم وسيحتاج إلى مثلها، وليس له مدد وإن برز له مناوى يكون زوال ملكه، وضياع هؤلاء العبيد وتغيير أحوالهم وإن كان الملك ذا كنوز ومادة والعبيد فى هيئة بذة يقول فى نفسه له بيوت أموال من الكنوز ففى ساعة واحدة يصيرهم فرسانا بجميع آلتهم، ويكسوهم من الكسوة ويعطيهم من العدة ما يعرفهم لغناه فكذلك من كان قلبه بين يدى الله تعالى فى غناه وسلطانه، وقد احتظى منه الحظ الأولى من جلاله، وعظمته وكبريائه ومجده فهو فى تلك الأنوار مشرق صدره بها، فإذا رأى أركانه معطلة من أعمال البر لم يحيره ذلك لأن الملك غنى فعرى الأركان لا يضره إذ لا يترك فرضا وإنما يترك فضلا ولا تستبين الفضائل فى جنب ما تفضل الله تعالى به عليه من معرفته التى برز بها على الخلق وقد عرف الله تعالى معرفة وثق به فى جميع أحواله وفوض أموره إليه ناظرا إلى تدبيره مر اقباله قابلا لأحكامه قنعا بالذى يؤتى من دنياه مؤتمرا بأمره، مطمئنا به ليست له همة ولا نهمة، ولا قرار إلا الخلاص من هذا السجن الذى أخذ بنفسه قد ضاقت عليه الدنيا، وصارت سجنا لطول احتباسه لأنه ظمأن إلى لقاء مولاه، وأى شىء ألذ من لقاء العبد سيده الذى كان

أمله من الدنيا والآخرة فأما الأباق(٣) من العبيد الذين جهلوا سيدهم لا يحب لقاء سيده، وهل شيء أثقل عليه من لقائه لأنهم استطابوا الحرية، وتعجلوها بتقلبهم فى دنياهم وشهواتهم، وهربوا من العبودة فلو وجدوا لذة العبودة لم يهربوا وإنما فقدوا لذة العبودة لجهلهم بمن لهم بمن له العبودة فهم وإن كانوا قد عرفوه ولم يشكوا فيه بعد أن أيقنوا وعلموه علم اللسان إلا أنهم جهال به لم ينكروه لأنه لم يتراءى على قلوبهم نور جلاله، ولا حل بقلوبهم عظمته، ولا تجلى عليها كبرياؤه، ولا طالعت مجده، وسلطانه ولا عاينت منتة، وإحسانه، ولا فهمت تدبيره ولطفه فى الأمور ولا انتبهت لربوبيته، ولا شربت بالكأس إلا وفى من محبته، ولا ظمئت من الشوق إليه، ولا ولهت(٤) وله العكف ببابه ولا تفسحت فى ساحات توحيده متأنسا بجماله ولا انفردت لأحديته، ولا حييت بحياته، ولا خلصت لوحدانيته ولا طابت بنسيم قربه، ولا انشرحت صدورهم بذلك من قلوبهم بل علموا علما مجملا اقتضاهم الإيمان الإقرار بذلك قولا، والاعتقاد له قلبا، وصدورهم غير منشرحة بباطن علمه فمن جهل هذا اكتفى بهيئة العبيد، والملك فقير معدوم، والعاقل ينظر إلى صلاته وصيامه وحجه وجهاده وأعمال بره، وكأنه نظر إلى أركانه وجوارح كهيئة العبيد عليهم هيئة مرتفعة ومراكب سرية وأسلحة وافرة، وإذا نظر إلى باطن أحدهم، وجد خوف الرزق على قلبه كالجبال كاد يموت من همه، وخوف الخلق، وسقوط منزلته عن قلوبهم ووجد فيهم الفرح بمدح الخلق لهم والثناء عليهم، وحب الرياسة، وطلب العلو، والتبصبص للأغنياء، والاستحقار للفقراء والأنفة منهم، والاستكبار فى موضع الحق، والحقد على أخيه المسلم، والعداوة، والبغضة وترك الحق لمخافة ذلك ينزل به والقول بالهوى والرغبة فى الدنيا والحرص عليها،

(٣) أباق العبيد: الهاربون من مواليهم، يقال أبق العبد إذا هرب من مولاه، فإن لم يكن عبداً فليس بآبق.

(٤) ولهت من وله، والوله الحزن وقيل هو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد أو الحزن أو الخوف «ابن منظور لسان العرب».

والشح والبخل وطول الأمل والأشر، والبطر والغل والغش والمباهاة والرياء والسمعة والاشتغال بعيوب الخلق والمداهنة، والإعجاب بالنفس، والتزين للمخلوقين والصلف والتجبر، وغرة النفس، والقسوة والفظاظة، وغلظ القلب، والغفلة وسوء الخلق، وضيق الصدر، والفرح بالدنيا، والحزن على قوتها، وترك القناعة، والمراء فى الكلام، والجفاء والطيش والعجلة، والحدة وقلة الرحمة، وقلة الحياء والاتكال على الطاعات، وفضول الكلام، والشهوة الخفية، وطلب العز، واتخاذ الأخوان فى العلانية على عداوة فى السر والتماس المغالبة، والانتصار للنفس، والتعظيم للأغنياء من أجل غناهم، والاستهانة بالفقراء من أجل فقرهم، والغيبة والحسد، والنميمة والجور(٥) والعدوان فهذه كلها مزايل قد انضمت عليها طويات صدره، وظاهره العبادة وأنواع أعمال البر فإذا انكشف الغطاء عن هذه الأشياء بين يدى الله تعالى، كان كم بلة فيها أنواع الأقذار غشيت بالديباج(٦) فلما رفع عنه الغطاء أخذت بالأنف من نتنها وأعرض الناظرون عن قبحها فهذا المتصنع المرائى(٧) عبد شهواته لم يقدر أن يخلص من عمله، ونفسه متقدة بنار الشهوة، وقلبه مشحون بهوى نفسه ولو اجتهد فى إخلاص الصلاة والصوم فهو محتاج إلى أن يخلص فى مشيته، وركوبه ونزوله وأكله وشربه، ومنطقه، وصمته وأخذه وإعطائه، وجميع معاملاته، ولو أخلص هذا كله أليس هذه المازبل معه، فهذه كلها عيوب والعبد إذا كثرت عيوبه انحطت قيمته، والعاقل لا يغره ما رأى من ظاهر أحواله إذا طلع على باطنه فوجده كما وصفنا كمن رأى ملكا له عبيد فى زى وهيئة ومراكب، والملك بنفسه ليست له مادة من الأموال، وإذا رأى عبدا أركانه معطلة من أعمال البر وقلبه ملك من الملوك مملوءة خزائنه أموالا وبيوته جواهر، والأموال غناه بالله تعالى، وأى

---

(٥) الجور: الظلم.

(٦) الديباج: الحرير.

(٧) المرائى: المُصانع، المداهن الموارب.

غنى أغنى ممن استغنى بالله تعالى، إذ الغنى بالأموال منقطع والغنى بالله تعالى دائم إذ هو حى لا يزول وأما الجواهر فحكمة صفاته، وقد عجز عن دركها العامة وإنما خص بها الأنبياء والأولياء عليهم السلام أهل خدمة الله تعالى، فإنه قد انفرد بالفرد الواحد واحتظى من جلاله، وعظمته، وكبريائه، ومجده وجماله فتواضع له وخشعت جوارحه لخشوع قلبه وعظم أمر الله وحفظ حدوده، وراقب تدبيره أعظاما لجلاله، وهيبته وتذللا لربوبيته، فعنده الرأفة بالخلق والرحمة لهم، واللين والرأفة والحلم وسعة الصدر، وتعظيم أمر الله تعالى، والإخلاص له، وحراسة القلب، ودوام الفكر، والقناعة، والرضى، والأنابة، والشوق إليه والتبرم بالحياة واليقظة فى الأمور، والمعاينة لها والرزانة، والصيانة، والشفقة، والعطف، والتأنى والوقار والسكون والذكر الدائم، والرهبة والرغبة والخوف والرجاء والأنس بالله تعالى، والسرور به والسخاء، والجود والبشاشة، والنصيحة وسلامة الصدر صار كمن رأى عبدا فى هيئة رثة والملك صاحب كنوز وجواهر، فعلم هذا العاقل أن هذه الهيئة لا تضر عبيده؛ لأنه متى عرض لهم أمر فتح لهم بابا من خزائنه، فعرفهم فكذا هذا القلب قد امتلأ خيراً وامتلأت جوارحه من هذا الخير فلساعة من عمره بهذه الصفة أفضل من اعمال الثقلين(٨) دهرا، وإذا تعطلت أركانه عن كثير من أعمال البر، فهو فى الخبر كله دائم عليه بدوام قلبه على ذلك، وقليل من عمله أزكى من عمل ذلك المخلط سنين كثيرة.

روى أن رجل جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى ما به من الضر قال: ما بلغ بك ما أرى قال: بأبى أنت وأمى السقم والحاجة قال: له أفلا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن أذهب الله عز وجل عنك ما بك قال: بأبى أنت وأمى ما أحب أن لى مما ترى بى وقعة

(٨) الثقلان: الإنس والجان.

بدر، وأحد فقال عليه السلام: ياأخا الأنصار وأين نقع وقعة بدر وأحد من موضع الفقير القانع، وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا بالجنة فلم ير له صوم ولا صلاة فقيل له فى ذلك فقال: إنى أبيت وليس لأحد فى قلبى غل ولو أعطيت الدنيا ما فرحت بها، ولو أخذت منى لم أحزن عليها.

وعن أبى بكر بن عبد الله المزنى رضى الله عنه قال: إن أبا بكر رضى الله عنه لم يفضل الناس بكثرة صلاة ولا صوم وإنما فضلهم بشىء كان فى قلبه.

وعن الحسن رضى الله عنه قال إن عمر لم يغلب الناس بالأعمال إنما غلبهم بالصبر واليقين والزهد.

وقال عبد الله رضى الله عنه أنتم اليوم أكثر صلاة وصوما وجهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم كانوا خيرا منكم، قالوا مم ذاك قال: كانوا أزهد فى الدنيا وأرغب فى الآخرة.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن ربه عز وجل إنه قال «ياموسى إنه لن يتصنع المتصنعون بمثل الزهد فى الدنيا، ولن يتقرب المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم، ولم يعبدنى العابدون بمثل البكاء من خشيتى، فأما الزاهدون فأمنحهم الجنة حتى ينزلوا منها حيث شاؤا وأما الورعون عما حرمت عليهم فإنه ليس من عبد يلقانى يوم القيامة إلا ناقشته الحساب وفتشته عما فى يديه إلا ما كان من الورعين فإنى أجلهم وأكرمهم وأدخلهم الجنة بغير حساب وأما البكاؤن من خشيتى فلهم الرفيق الأعلى لا يشركون فيه.

---

(٩) وفى حديث عائشة رضى الله عنها: «من نوقش الحساب عذب».

وقـال عـلـيـه السلام: «الورع سيد العمل»(٢) ومن لم يكن له ورع يـرده عـن مـعـصـيـة الله تـعـالى إذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله شيئا فذلك مخافة الله فى السـر والعلانية والاقتصاد فى الفقر والغنى، والصدق عند الرضى والسخط ألا وإن المؤمن حاكم لنفسه يرضى للناس ما يرضى لـنـفسه، وهذه الخصال لا تكون إلا لأهل القلوب. وقال أنس رضى الله عـنه «ما أعرف اليوم فيكم شيئا كنت عهدته على عهد رسول الله صلى الله عـلـيـه وسـلـم لـيـس قولكم لا إله إلا الله»، فصلاح القلب، صلاح الجسـد، وعـمـارتـه عـمـارة ديـنـه. قال عليه السلام «من كان له قلب صالح تحنن الله عليه».

وقـال عـليه السلام: «بالقلوب الصالحة يعمر الله الأرض وبها يخرب الأرض إذا كانت على غير ذلك».

(١٠) فى نسخة أخرى [سيد الأعمال الورع].

[الأصل الحادى والعشرون والمائتان فى أن الوسوسة من برازخ الإيمان]

عن أنس رضى الله عنه أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجدون فى صدورهم من الوسوسة فقال: «كيف أنتم فى ربكم قالوا ألا نشك فى ربنا ولأن يقع أحدنا من السماء فيتقطع أحب إليه من أن يتكلم بما يجد فى صدره فقال عليه السلام الله أكبر ذاك محض(١) الإيمان» وكان ثابت يقول اللهم أكثر لنا منه(٢).

قال أبو عبد الله أحكم الله تعالى الإيمان فى قلوب من اجتباهم وهداهم وأبرز أسماءهم بالسعادة فى اللوح المحفوظ، وأخرجه يوم الميثاق فى أصحاب اليمين، وفزع الشيطان من أن يوسوس إليهم فى توحيدهم ما يبطله عنهم وكيف يجوز ذلك وقد أخذ الله بقلبه وناصيته، وفى قلبه نوره فكيف يقوم العدو لنوره حتى يطفئه إذ ليس أحد ينشرح صدره بالله تعالى، وبالنطق بلا إله إلا الله إلا بمنة الله عليه فلن يسلط عليه العدو

---

(١) محض الإيمان: خالصه وصريحه. يقال فلان محض الضريبة أى نقى الطوية حسن الدخيلة.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ــ كتاب الإيمان ــ باب بيان الوسوسة فى الإيمان (١٥٣/٢) من رواية أبى هريرة. وأخرجه أبو داود فى سننه ــ كتاب الأدب ــ باب فى رد الوسوسة (٣٢٩/٤). وأخرجه أحمد فى المسند من حديث أبى هريرة (٣٥٦/٢). وأروده الهيثمى فى «مجمع الزوائد» كتاب الإيمان ــ باب فى الوسوسة (٢٣٨) عن أنس ابن مالك بلفظ رواية الحكيم. وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح إلا يزيد ابن ابان الرقاشى..

حتى يبطله، والله عز وجل أكرم من أن يرتجع فى منته، ويسلط عليه العدو ألا ترى إلى قوله للعدو «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» (٣) وكفى بربك وكيلا أى مانعا شيطانه من أن يدخل عليه فى قلبه فيفسد توحيده، لأن التوحيد هو الإيمان وذلك نور الله تعالى فى قلبه قال تعالى:

﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (٤)

والقلب هو البضعة الباطنة والبضعة الظاهرة يقال لها فؤاد وفيها العينان والأذنان، والقلب يقلبه الله تعالى ولم يكله إلى أحد ولم يطلع عليها أحدا من خلقه وإنما سلطان الشيطان فى الصدر لأنه بيت القلب، والنفس معدن الشهوات قال تعالى:

﴿ يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ (٥)

فالشيطان يزين ويشير، ويمنى، ويحدث فى صدور الناس الشهوة التى فى النفس حتى يضله ويفتنه، وليس يجد المؤمن فى نفسه شهوة الكفر لأن الله تعالى نزعها بإيصال الإيمان إلى حبة قلبه ثم بقى شهوة الأشياء فى قلبه ثم حرم وأحل، ليبلوه بالمجاهدة فى هذه الشهوات فإذن المؤمن قد حلاه الله تعالى بالإيمان، وطهره، وطيبة وزين قلبه وليس للكفر شهوة فى النفس حتى يدخل الشيطان فيه بظلمته فيزين له الشرك حتى يفسد توحيده ولا له إليه سبيل. فإذا وسوس فى صدره أنكر القلب بما فيه من النور وإنكاره محض (٦) الإيمان لأنه اهتاج فاستنار وصار كجمرة قد

---

(٣) الإسراء (١٧/٦٥).

(٤) الحجرات (٤٩/٧). راجع مختصر ابن كثير (٣/٣٦١).

(٥) الناس (١١٤/٥).

إنه إبليس اللعين. الذى يوسوس فى صدور الناس. ويخنس فى قلوبهم إذا ذكر الله كما قال الفراء، وابن عباس وغيرهما كما نقل ذلك السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٢٠). والطبرى فى التفسير (٣٠/٢٢٨).

(٦) محض الإيمان: صريحه وخالصه.

علاها الرماد لخمودها فلا تكاد تضيء مما علاها فوصلت إليه نفخة فطار عنها رمادها فتوقدت، وتلظت واستضاء البيت، بتوقده فازدادت تلك الجمرة فصارت محضة لما طار عنها الرماد فكذلك القلب فيه الإيمان، وقد سقم وعلاه رماد حريق الشهوات فإذا جاءه الوسواس بكيده، وحديثه يريد به نقض توحيده كان ذلك كمن ينفخ فى تلك الجمرة لتتقد ويطير عنه الغبار، وتلك النفخة هى أمر من الله تعالى، خفى يلطف له من لطفه ليفى له بما توكل له من قوله، وكفى بربك وكيلا فلما صار إيمانه ذا غبار رحمه ولطف له من حيث خفى على العباد بالعصمة فمنع كيده من أن يفسد عليه توحيده، واهتاج الإيمان منكرا لما جاء به ونافرا عنه فطار عنه رماد الشهوات، ودخانه واستوقدت جمرة الإيمان فأضاءت الصدر فلذلك صار محض الإيمان لأنه فى ذلك بلا رماد ولا دخان.

ولهذا قال ثابت رضى الله عنه «اللهم زدنا منه» سأل الزيادة من لطف الله تعالى لعبده. وقال عبد الله رضى الله عنه حيث سئل عن الوسوسة فقال «ذاك برازخ الإيمان» والبرزخ الحاجز بين الشيئين.

ولهذا قال عليه السلام: «مثل المؤمن مثل الفرس فى آخيته يجول ويجول ثم يرجع إلى آخيته» فيحق على المؤمن أن يقل عبؤه بوسوسته فأخسأ ما يكون إذا استحقر له ولم يعبأ به فمن اعتراه ضعف فى قلبه حتى يخاف على نفسه فذاك لضيق صدره وقلة إنشراحه، وظلمة الشهوات والذنوب فإن وسوس إليه فى التشبيه فالرد عليه أن يقول فى نفسه كل ما تصور فى صدرى، فالرب سبحانه وتعالى بخلافه فإنه لا يتصور فى صدرى إلا مخلوق له كيفية، ومثل، وربى لا يدرى كيف هو ولا مثل له، ولا كيفية فما تمثل فى صدرى فهو غير ربى، ثم جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله ربى لا أشرك به شيئا» لتطيب بها نفسه بما ضاق منه صدره ليخرج من ضيقه بها إلى السعة.

[الأصل الثانى والعشرون والمائتان فى أن النجوم أمان لأهل السماء والعلماء الصديقون أهل بيت النبوة أمان للأمة]

عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأمتى»(1) فالنجوم هن الطوالع السوائر الغوارب عطارد والمريخ وزحل والمشترى والزهره، وسميت نجوما لأنها تنجم أى تطلع من مطالعها فى أفلاكها.

قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا ﴾ (2)

وما عدا ذلك كواكب. قال تعالى:

﴿ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ (3)

---

(1) أخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف» كتاب الفضائل- باب فضل أهل البيت (336/12) عن سلمة بن الأكوع بلفظه. وذكره ابن حجر فى «المطالب العالية» كتاب المناقب- باب فى الحسن والحسين (74/4) وقال بالهامش قال البوصيرى: رواه ابن أبى شيبة وعنه أبو يعلى ومدار إسناد الحديث على موسى بن عبيده وهو ضعيف.
وذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (189/2) وعزاه لأبى يعلى عن سلمة بن الأكوع، ورمز له بالحسن. وأورده الهيثمى فى «مجمع الزوائد» كتاب الفضائل- باب فى فضل أهل البيت رضى الله عنهم (174/9) وقال: رواه الطبرانى وفيه موسى بن عبيده الزبيدى وهو متروك. ورواه أحمد فى «المسند» من حديث أبى موسى الأشعرى (99/4).

(2) الأنعام (97/6).

(3) الصافات (6/37). راجع أبا حيان فى بحره المحيط (352/7).

فالكواكب معلقات من السماء كالقناديل والنجوم لها مطالع ومغارب فهن أمان لأهل السماء فإذا ذهبت أتى أهل السماء ما يوعدون.

وعلى هذا يأول قوله عليه السلام «مثل أصحابى مثل النجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»(٤) وليس المراد به من لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوبايعه أورآه مرؤبة واحدة وإنما أراد من لازمه غدوة وعشية وكان يتلقى الوحى منه طريا ويأخذ عنه الشريعة التى جعلت منهجا للأمة وينظر منه إلى آداب الإسلام وشمائله، فصاروا من بعده أئمة أدلة فيهم الاقتداء، وعلى سيرتهم الاحتذاء، فكانوا يمسون عنده ويصبحون عنده ولازموه فى السفر والحضر، وتفقهوا فى دين الله، وعرفوا الناسخ والمنسوخ، والسنن وهم الذين أثنى الله عليهم، وأمر نبيه عليه السلام بالصبر معهم فقال:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ (٥)

فهؤلاء هم النجوم الأدلة وشبههم عليه السلام بالنجوم لأن بهم الاقتداء وهم من الأصحاب قليل عددهم كالنجوم لأنهم أهل بصائر ويقين، وجاز لهم اجتهاد الرأى بفضل اليقين، والبصائر فلما اختلفوا فى اجتهادهم جاز لكل أحد لم يكن من أهل النظر، والتمييز أن يأخذ بقول من أقوالهم تقليدا له، ومن كان من أهل النظر فاختار قولا من أقوالهم مجتهدا مستنبطا كان له ذلك، وأما غير هؤلاء فهم مثال الكواكب يضئن لأنفسهم وليسوا بأدلة ولا أئمة وقوله أهل بيتى أمان لأمتى، فأهل بيته من خلفه من بعده على منهاجه وهم الصديقون والأبدال الذين روى على كرم الله وجهه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلا كلما مات منهم رجل،

(٤) ورد فى نسخة أخرى [بأيها اقتديت اهتديت] وفى سنده مقال.
(٥) الكهف (٢٨/١٨).
راجع التفسير الكبير للفخر الرازى (١١٨/٢١) فى سبب نزول هذه الآية.

أبدل الله مكانه رجلا ، بهم يسقى الغيث وينصر بهم على الأعداء ، ويصرف عن أهل الأرض بهم البلاء »(٦) فهؤلاء أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمان هذه الأمة فإذا ماتوا فسدت الأرض ، وخربت الدنيا قال الله تعالى:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (٧)

وهذا لأن البيت من تبوئة الذكر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ليبوئ لذكره في الأرض ، فبدأ بمكة فطرد ونفى الذكر ثم جعل الله تعالى له مهاجرا ، ومستقرا ، فمن هاجروا إليه ، ولزموه فصاروا أهل الذكر فهم أهل بيته ومن آووا إليه ولم يصيروا من أهل الذكر فليسوا من أهل بيته ، بل هم من أصحابه وتباعه . قال تعالى:

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ (٨)

وهم المهاجرون والأنصار فتبوؤا الدار والإيمان فصاروا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبوئة الذكر وإنما يكون من أهل التبوئة من بوء لذكره على طريقه صافيا غير مغشوش صادر من إيمان غير مغشوش ولا سقيم وسقمة أن يمازجه شهوة النفس حتى تميل به عن الله تعالى وتنقله عن أمره وتلهيه عن ذكره . قال تعالى:

﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (٩)

إذ الإيمان هو طمأنينة القلب إلى الله تعالى فى كل أمر فإذا آمن به

---

(٦) ضعيف الإسناد، فتأمل.

(٧) البقرة (٢/٢٥١).

(٨) الأنعام (٦/٨٩).

أى فإن يكفر بآياتنا كفار عصرك يا محمد فقد استحفظناها واسترعيناها رسلنا وأنبياءنا. راجع تفسير الشيخ الصابونى (٧/٣٩٠) بتصرف.

(٩) المنافقون (٦٣/٩).

راجع ما قاله أبو حيان فى البحر المحيط (٨/٢٧٤).

على الجملة ثم مال يمينا وشمالا ليطمئن إلى الخلق والأسباب فذلك غش الإيمان إذ خلط به ماليس منه، فأما الأنبياء والأولياء عليهم السلام قد اطمأنوا إليه يراقبون ما يخرج من حجب الغيب من مشيئته، وتدبيره فيقبلون منه اهتشاشا وتسارعا لمشيئته وأحكامه قد اختبئوا(١٠) له وانخشعت نفوسهم، لأن شهواتهم قد ماتت من هيبة جلاله تعالى وتقدس، فالمستحقون للذكر هم أهل الذكر وهم الذين(١١) ذكرهم الله تعالى بحقيقة الذكر وهو أن لا يبقى على قلبه مع ذكره فى ذلك الوقت ذكر نفسه، ولا ذكر مخلوق فذاك الذكر الصافى الذى لا غش فيه.

قال عليه السلام: يقول الله عز وجل «من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»(١٢) هذا فيمن شغله ذكر الخالق فكيف بمن شغله الخالق بأنسه هذا فيمن شغله الخالق بأنسه فكيف بمن شغله الخالق بجلاله، وجماله وكيف بمن شغله الخالق فى فردانيته بنفسه فى وحدانيته، وهم الذين أشار إليهم عليه السلام فقال: «سيروا فقد سبق المفردون، قيل يا رسول الله من المفردون، قال: الذين أهتروا(١٣) فى ذكر الله يأتون يوم القيامة خفافا يضع الذكر عنهم أثقالهم»(١٤) فالمهتر إذا نطق يشبه كلامه كلام من لم يستعمله عقله لأن العقل يخرج الكلام على اللسان بتدبير وتؤدة وتأنى، وهذا المهتر إنما ينطق به فكأنه الماء على لسانه يجرى حتى يشبه الهذيان فى بعض أحواله عند العامة وهو فى الباطن مع الله تعالى من أصفى الناطقين وأصدقهم، والمهتر فى

---

(١٠) أخبتوا: من الإخبات وهى الخشية والخشوع.
(١١) فى بعض الأصول [الذى] وهو تحريف من الناسخ.
(١٢) السائلين: الضارعين بالسؤال.
(١٣) أهتروا فى نسخة أخرى [المستهترون] والحديث أخرجه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة، والطبرانى عن أبى الدرداء، وصححه السيوطى فى الجامع الصغير (٣١/٢).
(١٤) رواه مسلم فى صحيحه.

اللغة الشيخ الكبير الذى قد أفند عقله، وهو يهتز فى الكلام، كالخرف فهذا قد خمد نور عقله لنور وجهه الكريم بمنزلة قمر طلعت عليه شمس فخمد نور القمر بضوء الشمس، فلم يعمل عقله ذلك العمل ومن خمد عقله للقرب، والدنو فقد استوجب من الله تعالى كرامة انطق لسانه، وحفظ عليه شأنه وأيده، وعصمه فصار بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبوئه الذكر على الوجه الذى بينا والأهل والآل بمنزلة واحدة إذ الهاء والهمزة أختان تجزئ إحداهما عن الأخرى، وإنما قيل أهل لأنه حيث ما ذهب به فهو راجع إلى ذلك المستقر فكذا الآل حيث ما تفرق والنسب يؤل إلى الأصل، فأهل البيت كل من رجع نسبه إلى ذلك الأصل فكذا أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى قد أخذ الرسول عليه السلام من خلقه فاختصه لنفسه واصطفاه لذكره فكان فى كل أمر قلبه راجعا إلى الله تعالى من عنده يصدر ومعه يدور وإليه يرجع فكان هذا بيتا أشرف وأعلى من البيت الذى هيأ له فى أرضه، وهو النسب، فكان هذا البيت عاليا على ذلك البيت ألا ترى أنه غلب على النسب نسبة ما أكرمه الله تعالى به من الأمانة فكان يقال محمد بن عبد الله ثم يقال محمد الأمين لأنه أعلى منه فلما جاءت الكرامة غلب على هذا الأسم فقيل: نبى الله ورسوله فكذا كان له بيت النسبة، وأهل بيت النسبة فلما جاء بيت الكرامة والنبوة فغلب على ذلك البيت كان كل من رجع قلبه إلى الله تعالى على طريقه من أهل ذلك البيت، وهم الأربعون الذين خلفوه من بعده حتى تقوم بهم الأرض وبهم يمطرون ويرزقون ولا يجوز أن يحمل على أهل بيت النسب لمعان.

أحدها أنه روى فى الحديث «فإذا ذهب أهل بيتى أتى أمتى ما يوعدن» فكيف يتصور أن يذهب أهل بيته حتى لا يقى منهم أحد وهم أكثر من أن يحصى، وبركة الله تعالى عليهم دائمة، ورحمته مظلة من فوقهم.

وقد قال عليه السلام: «كل سبب ينقطع إلا سببى ونسبى»(١٥) والثانى أن أهل بيته نسبة بنو هاشم، وبنو عبد المطلب ولم يكونوا أمانا لهذه الأمة حتى إذا ذهبوا ذهبت الدنيا، والثالث أنه قد يوجد منهم الفساد كما يوجد فى غيرهم، ومنهم المحسن، ومنهم المسىء فبأى شىء صاروا أمانا لأهل الأرض، فعلم أن المرّاد به من به تقوم الدنيا وهم أعلامه وأدلة الهدى فى كل وقت، فإذا تفانوا لم يبق للأرض حرمة فعمهم بالبلاء.

فإن قال قائل بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقربهم منه صاروا أمانا لأهل الأرض قيل حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيمة جليلة، وفى الأرض ما هو أعظم من حرمة ذريته، وهو كتاب الله فلا نجد ذكره فى الحديث، ثم الحرمة لأهل التقوى لأنه إنما عظمت حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفضل النبوة، وما أكرمه الله تعالى به، والدليل على ذلك ما روى أبو هريرة رضى الله عنه قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة، وعندها صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «بنى عبد مناف، يا بنى عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، يا صفية عمة رسول الله، اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا سلونى من مالى ما شئتم واعلموا أن أولى الناس بى يوم القيامة المتقون وأن تكونوا أنتم مع قرابتكم، فذلك لا يأتينى الناس بالأعمال وتأتونى بالدنيا تحملونها على أعناقكم فتقولون يا محمد، فأقول هكذا ثم تقولون يا محمد، فأقول هكذا أعرض بوجهى عنكم، فتقولون يا محمد أنا فلان ابن فلان، فأقول أما النسب فأعرف وأما العمل فلا أعرف نبذتم الكتاب فارجعوا إلى قرابة بينى وبينكم».

وروى أنه قال: «جهارا غير سر إلا أن أوليائى منكم ليسوا بأبى فلان لكن أوليائى منكم المتقون من كانوا وحيث كانوا».

(١٥) فى نسخة أخرى [كل بيت ينقطع إلا بيتى ونسبى].

وما زالت الطبقة الزائغة المفتونة بحب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم نسبا ما زالت بهم فتنتهم حتى عمدوا(١٦) إلى كل شيء من هذه الأشياء فنسبوه إليهم، وحرموا غيرهم ذلك إعجابا بهم، وفتنة وأن الله فضلهم بأن طيب عنصرهم، وطهر أخلاقهم، واختار قبيلتهم على القبائل فلهم حرمة التفضيل والأثرة وحرمة الاتصال برسول الله صلى الله عليه وسلم فيحق علينا أن نحبهم حبالا يرجع علينا بوبال، وظلمة وهؤلاء الغلاة جاؤا بأحاديث مختلقة وأكاذيب(١٧) منكرة حتى أداهم ذلك إلى أن طعنوا فى الشيخين المهديين المرضيين الذين كان على كرم الله وجهه ينكل من فضله عليهما فقال «لا أجد أحدا يفضلنى عليهما إلا جلدته حد المفترين».

وبلغ من إفراط هؤلاء أن رووا أحاديث مختلقة يريدون أن يقيموا لعلى رضى الله عنه فضلا وقد فضل الله عليا رضى الله عنه بأشياء كثيرة وفضائل جمة قد أغناه عن مثل ذلك لكنهم تركوا لظلمة قلوبهم، وشقاء جدهم تلك الأشياء وأقبلوا على الكذب وتأولوا قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ (١٨)

إنما هم على وفاطمة، والحسن والحسين رضوان الله عليهم، وهى لهم خاصة وكيف يجوز هذا ومبتدأ هذا الخطاب، قوله عز وجل:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾

إلى قوله:

﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١٩)

(١٦) عمد إلى كذا: قصد إليه.
(١٧) لاسيما من الروافض والشيعة المتطرفة.
(١٨) الأحزاب (٣٣/٣٣).
(١٩) الأحزاب (٣٣/٢٨ ـ ٢٩).

ثم قال:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ﴾

إلى قوله:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾ (٢٠)

ثم قال:

﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ (٢١)

وهذا كلام منسوق بعضه على أثر بعض، فكيف صار هذه المخاطبات كلها لنساء النبى عليه السلام قبلا وبعدا، وينصرف ما فى الوسط إلى غيرهن، وهو على نسق ونظام واحد لأنه قال:

﴿ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾ (٢٢)

ثم قال على أثره:

﴿ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾

فكيف صار الكاف الثانى خطابا للنساء والأول لعلى وفاطمة رضى الله عنهما، وأين ذكرهما فى هذه الآيات فإن قال: إن كان الخطاب لنسائه فكيف قال:

﴿ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ﴾

ولم يقل عنكن قلنا إنما ذكره لأنه ينصرف إلى الأهل والأهل مذكر فسماهن باسم التذكير وإن كن إناثا.

---

(٢٠) الأحزاب (٣٣/٣٣).
(٢١) الأحزاب (٣٣/٣٤).
(٢٢) الأحزاب (٣٣/٣٧).

وقد يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما نزلت هذه الآية دخل عليه على وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم فعمد النبى عليه السلام إلى كساء فلفها عليهم، ثم ألوى بيده إلى السماء فقال: هؤلاء أهلى اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

فهذه دعوة منه لهم بعد نزول الآية أحب أن يدخلهم فى الآية التى خوطب بها الأزواج رضوان الله عليهم أجمعين.

[الأصل الثالث والعشرون والمائتان فى أخلاق المسافرين]

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا اجتمع القوم فى سفر فليجمعوا نفقاتهم عند أحدهم فإنه أطيب لنفوسهم وأحسن لأخلاقهم»(١) فى النفوس ضيق وشح(٢)، وللشىء عندهم قدر وما أتى الشح والبخل وتعظيم الشىء إلا لضعف يقينهم، وظلمة صدورهم، لأن اليقين نور فى قلبك فإذا تمكن صارت عين قلبك ذا بصيرة أبصر الغيب(٣) بذلك النور فتريك ما فى الملكوت فتصغر عندك الدنيا بما فيها كما أن بصر عين الرأس يريك الأشياء فى الدنيا فإذا ضعف اليقين يعجزك عن رؤية الآخرة، وعظيم ما فى الملكوت وبين اليقين تفاوت فأوفرهم حظا من اليقين أكثرهم معرفة وأغزرهم علما بما فى الملكوت، وأخشاهم لله تعالى، وأعلمهم بتدبيره وأغناهم بغناه وهذا قليل فى الناس، وقد عجزت العامة من هذا لما يرون الأشياء بالأسباب، وتعلقت بذلك قلوبهم ومنها افتتنوا، حتى عصوا الله فى جنبه فحال أن لا يكون للشىء قدر عندهم إلا أن الله تعالى عصم طائفة منهم لخوف العقاب عن تناول حرامها وأوساخها ثم هم مع ذلك لها يغضبون ولها يرضون وبها يفرحون، ومن أجلها يحزنون وعظم قدر ما فى أيديهم من الحطام حتى لا تسخو نفس أحدهم أن يخرج

(١) ذكره السيوطى فى «الجامع الكبير» (٣٢٢/١) وعزاه للحكيم الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن حده. وذكره الهندى فى «كنز العمال» (٧١١/٦).
(٢) الشح: الحرص.
(٣) فى نسخة أخرى [أبصرت الغيب فتضعف عندك].

من يده فلسا إلا على ذكر الخلف من الله تعالى فى دنياه كما قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ (٤)

أوعلى ذكر الثواب فى الآخرة أن يعطيه قصورا، وحورا، وحبورا، وسرورا، ولا تسخو نفوسهم على إتعاب جوارحهم وأعمالهم لله تعالى فى شىء من أعمال البر الأعلى نوال (٥) الثواب غدا ولم ينتهوا عن محارم الله تعالى إلا على خوف العقاب ركضا فهؤلاء عبيد عبدوا الله من أجل نفوسهم لم تأخذهم هيبة عظمته، وسلطان كبريائه فيركض بهم فى ميدان الطاعة ركضا وميدان الهرب عن مساخطة ركضا إجلالا لرؤية الله تعالى إياهم على الأحوال وتوخيا لمحابه وتلذذا لعبودته فإذا اجتمعت هذه الطائفة التى للشىء عندهم قدر فى السفر وانفرد كل واحد منهم لطعامه كانت فى ذلك وحشة ونزعت البركة، وفيه ذهاب الألفة وظهور الفرقة والتصور بصورة أهل البخل والدناءة وإذا أنفق أحدهم على الجماعة لم يقم بذلك وعجز عنه فالسبيل فى ذلك ما ندبهم عليه السلام إليه أن يجمعوا نفقاتهم إلى أحدهم حتى ينفقها عليهم فيكون أطيب لنفوسهم وأحسن لأخلاقهم، فكل واحد إنما أخرج من يده مقدار كفايته وهو طيب النفس بذلك ولا يحتشم من الأكل ولو أنفق واحد واحد يحتشم أحدهم من صاحبه ويستحيى ويثقل عليه حتى تجىء نوبته وربما انقطع السفر وذهبت النوبة ففيما دل عليه السلام تسكين النفوس من وجهى الحشمة والتثاقل، والنفوس ساكنة والأيدى مجتمعة والألفة باقية والبركة نازلة، والبخل، والشح زائل وخلق الإسلام قائم وسمى التناهد لأن النفس تنهد أى تسارع إليها وقد سبق ذكر النهد فى التنزيل مما قص

(٤) سبأ (٣٤/٣٩).
راجع حاشية زاده على البيضاوى (٣/٩٣).
(٥) فى نسخة أخرى [سؤال الثواب].

الله تعالى فى شأن أهل الكهف من قوله:

﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ (٦)

وقد قال عليه السلام «إن أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدى».

وقال عليه السلام «ألا أنبئكم بشراركم قالوا: بلى يا رسول الله قال: من أكل وحده، ومنع رفده وجلد عبده».

وقال أبو أمامة رضى الله عنه فى قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ (٧)

وهو الذى يأكل وحده، فأرشد عليه السلام العامة إلى النهد فأما الكرام ملوك الدين فهم أرفع شأنا من أن يتناهدوا لأن قدر الشىء عن قلبهم ساقط ومن طبيعتهم السخاء والجود، وقل ما يجرى فيما بينهم إذا انفردوا عن العامة وزن أوعدد ومجرى أمورهم على صدق الأخوة يأخذ أحدهم من مال أخيه عند الحاجة، فطابت بذلك نفوسهم لأنه لا يأخذ لرغبة فيه أوشهوة أوقضاء نهمة بل يتناوله لله تعالى، وعرف أخوه ذلك منه، وأمنه على نفسه وماله وشهد له قلبه بالشفقة والعطف، والرحمة فلا يتهمه على نفقة ولا على إمساك.

---

(٦) الكهف (١٨/١٩).

الوَرِق: الفضة دراهم كانت أو غير دراهم. إنظر لسان العرب لابن منظور (١٢/٢٥٥) ومختار الصحاح ص٧١٧.

(٧) العاديات (١٠٠/٦).

الكنود: الكفور. والأرض الكنود هى التى لا تنبت شيئاً. راجع غريب القرآن ص٥٣٦ والكنود كفران النعمة. وبالفتح الكفور كالكناد والكافر. من القاموس المحيط (١/٣٤٦) بتصرف.

قال الحسن رضى الله عنه إن كان الرجل ليدخل يده فى كيس أخيه فما يسأله كم أخذت. وقال أبو جعفر رضى الله عنه يدخل أحدكم يده فى كيس أخيه قلنا لا قال: لستم باخوة. وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ليس لى ثوب أتوارى به قال: فمالك جيران قال: بلى قال فهل منكم أحد له ثوبان قال: نعم قال فيعلم إن لا ثوب لك قال: نعم قال: فيعود عليك بأحد ثوبيه قال: لا قال: ماذاك بأخ. ودخل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه على عمر رضى الله عنه وهو يصلى، فعمد إلى مزوده فأخذ منه سويقا وتمرا فأكله وفعل الحسن رضى الله عنه مثل ذلك.

ودخل أبو أيوب السختيانى رحمه الله كرم صديق له فأكل منه بغير إذن وإنما كف الناس عن ذلك بعد مضى السلف رحمهم الله لتغير القلوب، فلا يأمن بعضهم بعضا لفقد الرحمة والعطف، وذهاب الألفة وظهور الحسد فامتنعوا من أن يتناول أحدهم شيء صاحبه إلا بإذنه، ومن بعد الإذن تأنى ونظر واحتياط، وحذر، ولم يبق لأحد على غيره أمن وثقة إلا أؤلئك الأربعون البدلاء العارفون الذين دقت الدنيا أعينهم فى جنب الآخرة ودقت الأخرة فى جنب ملك الله تعالى وعظيم ما أبرز من غيبة ودق ما أبرز من ملكه فى جنب عظمته وجلاله فهم الذين لا قسمة بينهم ولا وزن ولا عدد يتناول أحدهم ما شاء من مال أخيه من غير إذن وكان عليه السلام يعمل فى مال أبى بكر رضى الله عنه كما يعمل فى مال نفسه كما قد عرف (٨) منه وهل كان يفعل فى مال غيره مثل ذلك فإن مخالطة المطبوع على السخاء أطيب، والتناول من ماله أشهى والأكل من طعامه أطيب وأحلى لأجل سقوط قدر ذلك عن قلبه.

---

(٨) لما قد عرف منه [نسخة أخرى].

ولهذا كان أبو بكر رضى الله عنه تصدق بماله كله ولا يكاد أهل الانتباه واليقظة يدخلون بيوت البخلاء، ويتناولون من أطعمتهم إلا ويجدون ثقل ذلك على قلوبهم ويفتقدون ذلك الطيب وتلك الحلاوة واللذة من طعامهم لأنهم قد أحسوا بما فى نفوسهم من قدر ذلك الشىء عندهم فيذهب طعمه وطيبه.

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى به نزل على القوم الذين ذكرهم الله تعالى فى تنزيله ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، وعلمهم الشريعة ومستقرهم بأرض الصين من وراء نهر الرمل فسألهم عن معاشهم فقالوا نزرع ونحصد، ونجمعه فى برية من الأرض فيخرج كل من احتاج إلى شىء فيأخذ منه وسائره متروك هناك، فهذا صدق الأخوة فى أهل الهداية بالحق والعدالة فصار العدل مقومهم، والحق عز وجل هاديهم، وقد كانت أوائل هذه الأمة على هذا السبيل وقد أثنى الله تعالى فى تنزيله الكريم عليهم فقال عز من قائل:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٩)

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ (١٠)

وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما افتتح خيبر قسم الغنائم بين المهاجرين دون الأنصار فلم يجدوا فى صدورهم ضيقا ولا حسدا ولا شكا ولا وجدا (١١) على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فعله حين ضربوا بالسيوف حتى غنموا ثم أعطى الغنيمة للمهاجرين دونهم فأثنى الله تعالى عليهم وشهد لهم بالصدق وسقوط قدر الشىء عن قلوبهم وقول الله تعالى

(٩) و(١٠) الحشر (٥٩/٩).
راجع حاشية الصاوى على الجلالين (٤/١٩٠).
(١١) الوجد: الحرد والحزن والغضب.

فى كتابه الكريم:

﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾

إلى قوله:

﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ (١٢)

إذن بالغ لكن الصديق له حقيقة فما لم يعرف حقيقة صداقته لم يغرر المتقى المتورع بنفسه فى ذلك وأول حقيقة الصداقة فى سقوط قدر الشىء من قلبه فإذا لم يعرف بهذا وإن صادقه بكل قلبه فهو مجتهد فى صداقته، ولا يخلو من كراهية، وثقل إن تناولت من ملكة شيئا وقد أذن الله تعالى فى الأموال عن طيب النفس. قال عز من قائل:

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ (١٣)

ولم يقل قلبا لأن القلب ربما طاب ورضى بما فيه من الإيمان والنفس تكره بما فيها من الشهوة.

وقال عليه السلام «لا يحل لأمرئ من عطاء أخيه إلا بطيب نفسه» فالإقدام فى هذا اليوم على مثل هذا جرأة عظيمة إذ لا تعلم هذه الخصلة إلا لأولئك الذين خلت قلوبهم من نفوسهم، وتعلقت بالخالق الكريم، فلا يبالون ما أقبل وما أدبر ومن أخذ ومن أعطى يتناولون من الدنيا لله تعالى، ويمسكونها لله على نوائب الحق، ويعطونها لله تعالى، فإن تناولت من أموالهم لم يرجع عليك وبال منهم إذا أخذتها لله تعالى، فإن تناولته

---

(١٢) النور (٦١/٢٤).
يريد بقوله تعالى (من بيوتكم) أى من أموال نسائكم، ومن ضمنه منازلكم. وقوله (أو ما ملكتم مفاتحه) يعنى بيوت العبيد. كما فى القرطبى (٣١٥/١٢) لأن منزل العبد ملك لسيده. راجع أيضا أبا حيان فى البحر المحيط (٤٧٤/٦) والطبرى (١٣٢/١٨).

(١٣) النساء (٤/٤).

بغير حق يثقل فعله عليهم ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أسخى البشر والدنيا ساقطة عن قلبه.

فقال «إنما أنا خازن الله تعالى بعطى، وأنا أقسم فمن أخذ منى شيئا بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذ منى شيئا وأنا له كاره فإنما يتأبطها نارا» وحاشا أن يظن برسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كره من أجل قدر ذلك الشيء فإن ذلك بخل ولكن إنما كان تطيب نفسه بالإعطاء لمن سأل بحق وأخذ بحق فأما من أحس به أنه يأخذه أشرا وبطرا وحرصا وجمعا فكأن يعطيه على كراهة نفس، ويخبرهم أنه لا يبارك لهم فيه.

وروى فى الحديث أنه قيل: يا رسول الله فلم تعطيه قال: يأبى الله البخل. وكان عليه السلام لا يزن ولا يحصى. وقال لعائشة رضى الله عنها «لا توكى، فيوكى عليك، ولا تحصى فيحصى عليك».

وكان لا يدخر شيئا لغد ليرى الخلق عنده قلة قدره، وقال جابر رضى الله عنه ما سئل شيئا قط فقال لا.

[الأصل الرابع والعشرون والمائتان فى قوة الإيمان ويسر العمل وهو التأييد والصبر والاستعفاف والاستغناء]

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تصبر يصبره الله ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، وما أعطى عبد عطاء هو خير واسع من الصبر»(١). قال أبو عبد الله أعطاهم الله تعالى العقول، ومن عليهم بالإيمان والصبر والعفة والغنى إنما يخرج كله من الإيمان فإذا أعطى الإيمان فقد أعطى هذا كله فبقوة الإيمان يصبر على طاعة الله، ويستعف عن محارمه، وتناول شبهات الدنيا، ويقوم فى العبودة على سبيل الاستقامة ثم لا يتم له ذلك إلا بعون من الله تعالى، لأن النفس تقوم بهدم ذلك، وتدعوا إلى خلافه، ووقع العبد فى المجاهدة معها فلولا عون الله تعالى العبد لما لمت النفس، ولكن سبيل العبد أن لا يتخير فإذا جاء موضع الصبر نصبر نصبر وعزم عليه فوشيكا(٢) يجيئه العون من الله تعالى فوجد اليسر فى أمره فذاك عون الله تعالى فإنه قبل ذلك يدخل فى الأمور مع الجهد لأن النفس تأبى ذلك، فدخلت فيها بإكراه صاحبها لها على ذلك فجاءه العون من الله تعالى فيسر عليها، وعلى ذلك دل عباده إياك نعبد، وإياك نستعين أمره

(١) البخارى فى صحيحه- كتاب الرقاق باب الصبر عن محارم الله (٣٠٣/١١). ومسلم فى صحيحه- كتاب الزكاة- باب فضل التعفف والصبر والقناعة (١٤٥/٧). والترمذى فى سننه- كتاب البر والصلة. باب ما جاء فى الصبر (٣٧٣/٤) وقال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح. وأحمد فى المسند عن حديث أبى سعيد الخدرى (٤٧/٣). ومالك فى «الموطأ» كتاب الجامع- باب ما جاء فى التعفف عن المسألة (٢٥٨/٢).

(٢) وشيكاً: سريعاً.

بالعبادة، وسؤال العون لأنه أعطى القوة على القيام بما أمره إلا أن النفس تدعو إلى خلاف ذلك، فجاءت شهواتها تريد أن تغلب القلب على ما أمر، فاحتاج عند مجاهدة النفس إلى عون من الله تعالى وهو نور على القلب يستنير الإيمان ويمتزج به فيقوى القلب، وتذل النفس وتخمد شهواتها فتذل النفس، فينبغي للعبد أن يقوم على كل أمر أمر به وأن ينتهي عن كل نهى نهى عنه بما أعطى من العلم والعقل والإيمان، وذلك مع جهد شديد ينتظر العون من الله تعالى، ولا يلقى بيده للتهلكة فإذا العون من الله تعالى يجيء وييسر عليه كل ذلك فإن الله تعالى لم يأمرنا بأن نقول إياك نعبد وإياك نستعين ثم يحبس عنا العون وقال الله تعالى:

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (٣)

وقال عليه السلام «لن يغلب عسر يسرين».

فاليسر الأول هو ما أعطى العبد من الآلة والمعرفة والعلم والقوة فلولا النفس التى يحارب صاحبها بدفع ما تريد لكان الأمر قد تم فإنه قد أعطى يسر به يقوم الأمر الذى أمر ولكن جاءت النفس بشهوتها فاحتاج العبد إلى يسر آخر فوعده الله تعالى، فقال عسر عليك الأمر، فأعطيتك مع العسر يسرا، وهو العقل الذى هو حجة الله تعالى على عباده إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ويسر أبعد الأمر حين تأخذه فيه وهو العون فإذا جاء العون انهزمت النفس، وخمدت الشهوة، وهرب العدو وبطل كيده فهما يسران لم يغلبهما هذا العسر الذى بينهما من مجاهدة النفس، وخمدت الشهوة، وهرب العدو وبطل كيده فهما يسران لم يغلبهما العسر الذى بينهما من مجاهدة النفس، حتى يأتيك بحربه وجهاده ليصدك ويقهرك بشهواته.

---

(٣) الشرح (٩٤/٥، ٦).
راجع سبب نزول نزول هذه الآية فى مختصر ابن كثير (٦٥٢/٣).

وهو قوله عليه السلام «لن يغلب عسر يسرين» فبشرهم أن العبد إذا استعمل ما أعطى من اليسر فى وقت هذا العسر الذى عارضته النفس به جاء اليسر الثانى فلن يغلب هذا العسر هذين اليسرين، واليســر الثانى هو عونه وهو عطف الله على العباد ورحمته وإذا عطف على عبد لم يبق للنفس عليه سبيل ولا للعدو مطمع، وقوله من تصبر يصبره الله تعالى أى من استعمل ما أعطى من الصبر الذى يخرج له من الإيمان صبره الله أى جاءه المدد والعون حتى يتم له صبره فى يسر وهكذا قال الله تعالى: «وأصبر وما صبرك إلا بالله» أى لا يتم ذلك إلا بعون الله تعالى، وغياث منه وهكذا قوله من يستعف يعفه الله فأما قوله فمن يستغن يغنه الله أى من التجأ إليه فى الحوائج صدقا فهو أكرم من أن يردك ويلجئك إلى عبيده، روى ثابت رضى الله عنه قال: حبس ابن أخ لصفوان بن محرز فلم يبق بالبصرة رجل له وجه عند الأمير إلا تحمل به عليه فلم يزده إلا شدة فبات ليلة فقيل له فى منامه يا صفوان أطلب الأمر من وجهه فقام وتوضأ، وصلى ركعتين وسأل ربه ثم عاد إلى مضجعه فنودى بالباب يا صفوان هذا ابن أخيك قد جئنا به فصار إلى الباب فإذا ابن أخيه فقال نبه الأمير فى جوف الليل فبعث إلى السجن فنودى: أين ابن أخى صفوان فطلب حتى جىء به فإذا هو ذا، وخرج ابن عمر رضى الله عنهما فى سفر له فإذا بجماعة على طريق فقال ما هذه الجماعة فقالوا: أسد قطع الطريق، فنزل فمشى إليه حتى قفده بيده ونحاه عن الطريق فقال: ما كذب عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنما يسلط على ابن آدم من خافه ابن آدم ولو أن ابن آدم لم يخف غير الله لم يسلط الله عليه غيره وإنما وكل ابن آدم لمن رجا ابن آدم فلو أن ابن آدم لم يرج إلا الله لم يكله الله إلى غيره، وقوله وما أعطى عبد عطاء هو أوسع من الصبر لأن الصدر قد أتسع، وانشرح للنور الوارد على قلبه، وإذا اتسع الصدر يسرت عليه الأمور كلها وإذا استقر النور فى القلب انفسخ الصدر، وانشرح وألقى بيديه سلما لمولاه فى

أمره ونهيه وجميع أحكامه عليه، وتدبيره له ولم يبق للقلب منازع لأن النفس تذل وتموت شهوتها وتلقى بيديها حين يشرق الصدر فيحل بها من ذلك الإشراق خوف الله تعالى، وخوف عقابه فتحل به الرهبة ثم يزداد النور فتدخله العظمة فتحل بها الهيبة والخوف الخالص منه فتيبس وتذهب شهوتها وتخشع لله تعالى فتصير تابعة للقلب، فحين بدأ أول النور وجد العبد متسعا فى صدره فقيل صابر ثم زيد فهو صابر قانع ثم زيد فهو صابر راض، ثم زيد فهو صابر راض مراقب واله، ثم زيد فهو منفرد لربه ولها عن الصبر، والرضى والمراقبة والوله (٤)، وهذا كله له، والانفراد غالب عليه فهو فى قبضته يستعمله، وهو قوله عليه السلام: «كنت سمعه وبصره ويده ورجله ولسانه وفؤاده فبى ينطق وبى يعقل وبى يمشى وبى يبصر وبى يبطش» (٥) وهو قول عمر رضى الله عنه حين شبح على رجلا فقال لعمر رضى الله عنه مررت به وأصغيت إليه سمعى فإذا هو يكلم امرأة بكلام فلم أملك حتى ضربته فقال عمر رضى الله عنه: أيها الرجل أصابتك عين من عيون الله وإن لله فى الأرض عيونا.

والصبر ثبات النفس على حكم الله تعالى، وتدبيره وأمره ونهيه ورمى شهوته ومنيته وإنما يبصر ذلك بالنور الوارد على القلب، فيطيب ويستقر ويوقن وأى شىء أوسع منه وبذلك يثقل ميزانه ويملأ ميزانه وسعة كفته سعة السموات والأرض.

---

(٤) الوله: ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد.
(٥) حديث قدسى عن رب العزة.

[الأصل الخامس والعشرون والمائتان فى النهى عن إسكان النساء الغرف وتعليمهن الكتابة]

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تسكنوا نساءكم الغرف ولا تعلموهن الكتابة»(1).

حذرهم ذلك لأن فى إسكانهن الغرف تطلعا إلى الرجال، وليس فى ذلك تحصين لهن ولا ستر فإنهن لا يملكن أنفسهن حتى يشرفن على الرجال فيحدث البلاء والفتنة فحذرهم أن يجعلوا لها ذريعة إلى الفتنة.

وهو كما قال عليه السلام ليس للنساء شىء خير لهن من أن لا يراهن الرجال، ولا يرين الرجال» لأنها خلقت من الرجال فهمتها فيه وخلق فى الرجل الشهوة فجعلت سكنا له فغير مأمون كل واحد منهما فى صاحبه، وكذلك تعليم الكتابة ربما كانت سببا للفتنة وكتبت إلى من تهوى، وفى الكتابة عين من العيون به يبصر الشاهد الغائب وفى ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان فهو أبلغ من اللسان، فأحب عليه السلام أن يقطع عنهن أسباب الفتنة تحصينا لهن وطهارة لقلوبهن.

---

(١) أخرجه الحاكم فى «المستد » كتاب التفسير- باب النهى عن تعليم الكتابة للنساء (٣٩٦/٢) من رواية عائشة. وقال: ـذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبى: بل موضوع وافقه عبد الوهاب. قال ابو حاتم: كذاب. وأورده السيوطى فى «اللآلئ المصنوعة» (٩٢/٢) من رواية ابن حبان عن عائشة بلفظ قريب. وذكره الشوكانى فى «الفوائد المجموعة» ص١٢٦.

[الأصل السادس والعشرون والمائتان فى أن رأس الحكمة لم صار مخافة الله]

عن عبد الله رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأس الحكمة مخافة الله تعالى» (١).

فمخافة الله تعالى، هى التى ألهت عن الأسباب، حتى صارت رأس الحكم، وهى تعلق القلب بمشيئة الله تعالى.

ولما صار إلى المشيئة أنبهم عليه الأمور فإنه يعلم أنه شاء فخلقه ولا يعلم، أنه لماذا خلقه، فظهر له بعض المشيئة وخفى عليه آخر شأنه من مشيئته وأقلقه وألهاه وأذهله عن النفس، وعن دنياه، فلما زايلته نفسه ودنياه انشرح صدره واتسع فى الحكمة والله أحكم.

---

(١) أخرجه ابن شيبة فى «المصنف» كتاب الزهد ـ باب كلام ابن مسعود (٢٩٥/١٣). وذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (٢٠/١) وعزاه للحكيم الترمذى وابن لال عن ابن مسعود ورمز له بالصحة.

[الأصل السابع والعشرون والمائتان فى حقيقة الفراسة ودواعيها]

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله تعالى» [1].

الفراسة: مشتقة من الفروسية فركضه بالجوارح على الفرس فروسية، وركضه ببصر قلبه بنور الله تعالى هى فراسة.

فبالفرس يقطع مسافة الدنيا، وبنور الله تعالى يقطع مسافة القلب، وذلك أن على الأشياء دلائل، وسمات، وقد وسم الله تعالى خلقه بذلك فبنوره تدرك تلك السمات حتى يدرك ما لم يأت بعد.

وكان عمر رضى الله عنه تفرس روى عبد الله بن سلمة رضى الله عنه قال: «دخلنا على عمر — معاشر وفد مذحج — وكنت من أقربهم منه مجلسا فجعل ينظر عمر إلى الأشتر ويصوب بصره، فقال: لى أمنكم هذا قلت: نعم. فلأى باله تسأله؟ قال: ما له قاتله الله كفى

---

(١) أخرجه الترمذى فى «سننه» كتاب التفسير- تفسير سورة الحجر (٢٩٨/٥) من رواية ابى سعيد الخدرى- وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه. وذكره الطبرانى فى «الكبير» (١٢١/٨) عن راشد بن سعد عن أبى أمامة مرفوعاً. وذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (٩/١) وعزاه للبخارى فى التاريخ الكبير وللترمذى عن أبى سعيد. وللحكيم الترمذى وسمو به والطبرانى وابن عدى عن أبى أمامة وابن جرير الطبرى عن ابن عمر.

وأورده الشوكانى فى «الفوائد المجموعة» ص ٢٤٣ — ٢٤٥. وأورده الهيثمى فى «مجمع الزائد» كتاب الزهد- باب ما جاء فى الفراسة (٢٦٨/١٠) من رواية أبى أمامة مرفوعاً. وقال: رواه الطبرانى وإسناده حسن- وأخرى عن أنس وقال رواه البزار والطبرانى فى الأوسط واسناده حسن.

الله أمة محمد عليه السلام شره، والله إنى لأحسب أن المسلمين منه يوما عصيبا.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: ما حذر عمر شيئا قط فتكلم به إلا كان. وقال النبى عليه السلام: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم» وقال: فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٢)

قال: (للمتفرسين) فالتوسم مأخوذ عن السمة، وهو أن يعرف سمات الله تعالى، وعلائمه فى الأمور.

والتفرس أن يركض قلبه فارسا بنور الله تعالى إلى أمر لم يكن بعد فيدركه مثل ما أدركه عمر رضى الله عنه، وما أدركه الحسن البصرى رضى الله عنه، فإنه روى أنه قال لعمرو بن عبيد هذا سيد فتيان أهل البصرة إن لم يحدث.

وقال لأيوب هذا سيد فتيان أهل البصرة ولم يستثن وقال: الشعبى رحمه الله لداود الأودى وهو يماريه (٣) إنك لا تموت حتى تكوى فى رأسك فكان كما قال: وإذا امتلأ القلب من نور الله تعالى نظرت عينا قلبه بنوره فأبصر فى صدره ما لا يحاط به وصفا فالفراسة من الله تعالى لعبده كائنة.

---

(٢) الحجر (١٥/٧٥).
المتوسمين: المتفرسين. قالت العرب: توسمت الخير فى فلان: أى تبينته.
(٣) يماريه: يجادله.

[الأصل الثامن والعشرون والمائتان فى تفسير الاستئناس]

عن أبى أيوب رضى الله عنه قال: قلنا يا رسول الله هذا السلام فما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة وأن ينحنح فيؤذن أهل البيت» (١).

الاستئناس تنبيه والاستئذان عهد، فندب إلى أن يبتدئ بالتنبيه ثم بالعهد ليكون أوكد للعهد وأقوى للحجة وأنه إذا فوجيء بالسلام والإنسان فى غفلة، والعقل عازب (٢) عنه كانت الحجة عليه أضعف. يقول فوجئت بالسلام وعوجلت به فلم أقبله بالتثبيت.

ألا ترى أن الله تعالى خاطب الخلق فقدم على الدعوة تنبيها؛ فقال: «يا» وهو كلمة تنبيه حرف ذات أصداء لينبهك عما أنت به مشتغل ليرجع إليك عقلك بصوته، كأنه يعنى بهذا أن يقول يا دعوة دعوة تنبيه، ثم قال: أى وهى كلمة الفتش مضمرة فيها من كأنه قال: أيهم أريد بدعوتى، ثم قال: ها هو تنبيه آخر يشير إلى شىء معلوم عينه، معناه من اذكر اسمه أريد بدعوتى، ثم قال الناس: أو الذين آمنوا فهذه

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف» كتاب الأدب- باب فى الإستئذان (٤١٩/٨). وذكره السيوطى فى «الدر المنثور بالمأثور» (٣٨/٥) وعزاه لابن أبى شيبة والحكيم الترمذى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أبى أيوب مرفوعاً. وأخرجه ابن ماجه فى «سننه» كتاب الأدب- باب الاستئذان ٢٧٥/٢.

(٢) عازب: غائب عنه.

التنبيهات من القاء العذر وإتمام الحجة قال الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ (٣)

وقال عليه السلام: «لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى» لذلك بعث الرسل عليهم السلام، فقال تعالى:

﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (٤)

فالاستئناس التنبيه ثم يكون بعده التسليم، وعندهم كان التسليم هو الاستئذان، فإذا ردوا جاء الإذن بعد ذلك، وإن قيل ارجعوا رجعوا، وأدنى الاستئذان النحنحة لأن الحس حس المجيء، وقد يختلف، فإذا سمع لم يدر السامع أسبع أم بهيمة أم داهية من الدواهى، فإذا تنحنح عرف أنه من جنسه فأنس به لأن الآدمى يأنس بجنسه ويستوحش من غير جنسه.

وأعلى الإستئذان التسبيحة ليعلم السامع أنه أخوه المسلم وذلك أفضل لأن بالتنحنح لا يعرف السامع أمسلم هو أم كافر، ولى هو أم عدو فتدخله روعة لمجيئه فإذا ذكر الله كان أوفر للاستئناس.

(وما رواه شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهم أن هذا خطأ من الكاتب إنما هو تستأذنوا وتسلموا على أهلها) فهذا كلام جاهل أو ملحد يكيد الدين، أو ليس فيما روى أبو أيوب رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسير

---

(٣) التوبة (٩/١١٥).

قال صاحب التسهيل (٢/٨٦): نزلت هذه الآية فى قوم من المسلمين استغفروا للمشركين. فخافوا على أنفسهم من ذلك فنزلت الآية تأنيسا لهم. أهـ.

(٤) النور (٢٤/٢٧).

حتى تستأنسوا: أى حتى تعلموا من فى الدار انظر لسان العرب لابن منظور (٧/٣١٢) والبحر المحيط لأبى حيان (٦/٤٤٦) راجع أيضا المعنى فى القاموس المحيط (٢/٢٠٥).

الاستئناس ما يبطل هذا، وكان كتاب الله تعالى بين ظهرانى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مضيعة؛ حتى كتب الكاتب فيها ما شاؤا أو زادوا ونقصوا وكأن الصحابة أهملوا أمر دينهم حتى فوضوا عهد ربهم إلى كاتب (٥) يخطىء فيه ثم يقرؤه أبو بكر وعمر وأبىّ رضى الله عنهم حيث جمعوه فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه، ثم من بعده مرة أخرى فى زمن عثمان رضى الله عنه، وهم على الخطأ وشعبة وأبو بشر رواة لا يعرفون ما غور هذا وإنما ينكر هذه الأشياء ويدفعها الرعاه (٦) الذين عقلوا عن الله تعالى، وعن تدبيره فهموا، وهم المقربون أهل اليقين الذين وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله: «كنت سمعه وبصره» فهو الذى ينفى مثل هذه الأشياء ويدفعه فإذا نقاه، ودفعه فيه ينفى وبه يدفع لأنه به يعقل، وبه ينطق وهو حجة الله تعالى على خلقه، وراعى غنمه، وطبيب عباده فمن عارضه هلك، وهو لا يشعر ولهذا حذر عليه السلام (فقال عن ربه عز وجل «من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وإنى لأسرع شىء فى نصرة أوليائى أفيظن أن يفوتنى كيف وأنا الثائر لهم»).

---

(٥) فى نسخة أخرى [إلى كتاب].

(٦) فى نسخة أخرى [رعاة الدين].

[الأصل التاسع والعشرون والمائتان فى أن أهل الغرف فى الجنة ومراتب الدرجات]

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أهل الجنة ليتراؤن أهل الغرف(1) من فوقهم كما يتراؤن الكوكب الدرى الغائر فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء فلا يبلغها إلا هم. قال: بلى، والذى نفسى بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»(2).

فأهل الغرف أهل العليين الذين قد ارتفعت درجاتهم إلى قرب العرش، والاغتراف الارتفاع، وسميت الغرفة لارتفاعها، والجنة ثلاثة أثلاث أعلاها للسابقين، وأوسطها للمقتصدين، وأدانيها وما فيها دنى للمخلطين، وعدن مقصورة الرحمن، وجنات عدن محل الأنبياء عليهم السلام، والفردوس محل الأولياء، وهى الغرف وهى سرة الجنة بحيال باب العرش؛ فتوهموا أن تلك منازل الأنبياء عليهم السلام لا يبلغها غيرهم فأعلمهم أن ذلك ليست بمنازل الأنبياء عليهم السلام وإنما هو منازل الأولياء والأنبياء فوقهم لأن درجة النبوة أعلى فالأنبياء عليهم السلام فوق

---

(1) الغرف: جمع كثرة، وجمع القلة غرفات.

(2) البخارى فى «صحيحه» كتاب الرقاق- باب صفة الجنة والنار (416/11) عن سيل مرفوعا. ومسلم فى «صحيحه» كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها. 169/17 من رواية ابى سعيد الخدرى. والترمذى فى «سننه» كتاب صفة الجنة- باب ما جاء فى ترائى أهل الجنة فى الغرف (690/4) من رواية أبى هريرة. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح وأحمد فى «المسند» من حديث سهل بن سعد.

الغرف فى جنات عدن، وعدن كالمدينة وجنات عدن كالقرى حولها، والفردوس حول جنات عدن مضموم إليها منسوب منها كعوالى القرى وما دونها من الجنات كالخيام، والمراعى حول عوالى القرى، فأعلم عليه السلام أن الغرف منازل رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين أراد به إيمان الصديقين لا إيمان المخلطين من الموحدين، لأن أهل الغرف أهل الدرجات العلى.

قال تعالى:

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ (٣)

ثم قال:

﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (٤)

أى تطهر من مساخط الله قلبا، وقولا وفعلا.

وهذا شأن الصديقين لأن إيمانهم إيمان طمأنينة به وبجميع أحكامه، وتصديقهم المرسلين تصديق لله تعالى، وسكون.

وقال عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ (٥)

قال: «الغرفة من ياقوته حمراء أو زبرجد خضراء أو درة بيضاء ليس فيها فصم، ولا وصم وأن أهل الجنة ليتراؤن الغرفة فيها كما يتراؤن الكوكب

---

(٣) طه (٢٠/٧٥).
(٤) طه (٢٠/٧٦).
(٥) الفرقان (٢٥/٧٥).

الدرى الشرقى أو الغربى فى أفق السماء وأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما منهم والعلماء».

وقال عليه السلام فيما رواه ابن مسعود رضى الله عنه: «أن المتحابين فى الله لعلى عمود من ياقوته حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة يضىء حسنهم أهل الجنة كما تضىء الشمس أهل الدنيا يقول أهل الجنة بعضهم لبعض انطلقوا بنا حتى ننظر إلى المتحابين فى الله فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم أهل الجنة كما تضىء الشمس أهل الدنيا عليهم ثياب خضر من سندس، مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون فى الله».

فهؤلاء أهل الغرف وهم أهل محبة الله فى الله تعالى، وإنما تحابوا فى الله لمحبة الله تعالى، وهو قوله تعالى:

(حقتَ محبتى للمتحابين بجلالى)(٦).

وقد وصف الله تعالى أهل الغرفة فقال:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

إلى قوله:

﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٧)

وصف مشيهم وخطابهم وانتصابهم له ودعاءهم ونفقاتهم ونزاهتهم، ويقظتهم، وانتباههم وصدقهم، ومحبتهم ونصحهم ثم قال:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ (٨)

---

(٦) لأن هدفهم واحد، وعقيدتهم واحدة.

(٧) الفرقان (٦٣/٢٥).

يمشون على الأرض هونا: رويداً من غير خيلاء ولا كبرياء. راجع المعنى فى البحر المحيط (٥١٢/٦).

(٨) الفرقان (٧٥/٢٥).

والصبر بذل النفس والثبات له وقوفا بين يديه بالقلوب عبادة وقال تعالى :

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم ﴾

إلى قوله :

﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ (٩)

ذكر أن القربة لاتنال بالأموال والأولاد، وإنما تنال بالعمل الصالح يعلمك إن هذا إيمان طمأنينة، وتعلق قلب به فى كل ما نابه وبجميع أموره وأحكامه والعمل الصالح الذى لا يخلطه بضده، فأما المخلط فغير مطمئن بأموره وأحكامه، بل هو نابع لهوى نفسه يعمل على شهوته، وقضاء منيته وهذان، وإن كان إيمانهما بحرب واحد إلا أن ذلك قد جشمت على قلبه شهوات نفسه، فأظلمت صدره وانكمن نوره فلا يعمل شيئا من الإشراق والإنارة.

وهذا البالغ من الله تعالى عليه بنوره وهتك هذه الحجب من الظلمات وأمات منه الشهوات وولج قلبه من عظمة الله تعالى وجلاله فأذهل نفسه واستقام القلب لله تعالى فعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل الغرف هؤلاء، إذ لو جاز أن تنال الغرف بالإيمان والتصديق الذى للعامة لكان جميع الموحدين فى أعالى الدرجات.

---

(٩) سبأ (٣٤/٣٧).
راجع البيضاوى بحاشية زاده (١٢٦/٢).

[الأصل الثلاثون والمائتان فى مراتب أهل الجنة]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من ترك الكذب وهو باطل بنى له فى ريض الجنة، ومن ترك المراء، وهو محق بنى له فى وسطها، ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها» (١).

ترك الكذب هو ترك الشرك، ولا كذب بأعظم من الشرك فحل تاركه فى ربض الجنة، وهو أدانيها فهذا الصنف هو الظالم، وترك المراء إذا اقتضاه الحق أمر الله من أداء فرائضه واجتناب محارمه أن يخضع للحق، ولا يماريه فيذهب برقبته من حق الله تعالى فى أمره ونهيه فهذا مقتصد فحله فى وسط الجنة وأما حسن الخلق فإن الله تعالى دبر لعبده قبل أن يخلقه شأنه من الرزق والأحوال والآثار كل ذلك موقت، مقدر يبرز له فى وقته كما قدره، ودبره مرة سقم، ومرة صحة، ومرة غنى ومرة فقر، ومرة عز، ومرة ذل، ومرة محبوب، ومرة مكروه.

فأحوال الدنيا تتداوله لا ينفك من تدبيره وقضائه، والعبد يريد ما وافقه واشتهاه وتدبير الله تعالى فيه غير ذلك، فإذا راض نفسه وقمعها

---

(١) الترمذى فى «سننه» كتاب البر والصلة ــ باب ما جاء فى المراء (٣٥٨/٤) وقال أبو عيسى: هذا الحديث حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سلمه ابن وردان عن أنس بن مالك. وأبو داود فى «سننه» ــ كتاب الأدب ــ باب فى حسن الخلق (٢٥٣/٤) من حديث سليمان بن حبيب المحاربى عن أبى أمامة. والهيثمى فى «مجمع الزوائد» كتاب الأدب. باب ما جاء فى حسن الخلق (٢٣/٨) عن معاذ بن جبل. وقال: رواه الطبرانى فى الكلاتة والبزار وفى اسناده الطبرانى محمد بن الحصين ولم أعرفه والظاهر أنه التميمى وهو ثقة وبقية رجاله ثقات.

وخشعت لله تعالى بما أيده من نور اليقين حسن خلقه واستقام قلبه وترك جميع مشيئاته فشيئته ينتظر ما يبرز له من تدبيره فى جميع أحواله فيتلقاه بهشاشة قلب، وطيب نفس، فهذا حسن الخلق فحله فى أعالى الدرجات وسوء الخلق حجاب بين العبد وبين ربه لأنه من نفس شهوانية والنفس ما لم تمت شهوتها لا تنقاد للحق، ولا يتخلص القلب من مخالبها، ولا يبرأ الإيمان من سقمه.

قال عليه السلام فى حديث الرؤيا: «رأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله تعالى حجاب، فجاءه حسن خلقه فأدخله على الله تعالى».

وقال عليه السلام: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار» فإن كلمتى سبقت لمن حسن خلقه أن أظله فى عرشى وأن اسكنه فى حظيرة قدسى، وأن أدنيه من جوارى. وحسن الخلق على ثلاث منازل أولها أن يحسن خلقه مع أمره ونهيه. الثانية أن يحسن خلقه مع جميع خلقه الثالثة أن يحسن خلقه مع تدبير ربه فلا يشاء إلا ما يشاء له ربه، ومن أسوء خلقه ممن دبر الله المطر من بركات السماء سقيا لعباده وبلاده يجعل فيه أرزاقهم، ومعاشا لهم، ويحيى بذلك أمة من الأمم والعبد يكرهه ويأباه لأجل أنه يبتلى ثيابه أويتأخر عن سفر يريده فثقل عليه تدبير الله تعالى لهذه الأمة لشهوته لذلك العمل الذى هو فيه.

ومن كان ميت الشهوة فأعماله كلها عبودة لله تعالى، ومن كان يشقل عليه تدبيره وحسن خلقه فى جميع أموره وأحكامه وأن محاسن الأخلاق جاءت من الله تعالى، وقد خزنه الله تعالى عن خلقه فلا يعطيه

إلا من أحبه وسعد جده فمن منحه خلقا من تلك الأخلاق وتخلق بها يرى بهجة ذلك فى شمائله وفى منطقه ومعاشرته حتى فى سيماء وجهه والله أعلم.

[الأصل الحادى والثلاثون والمائتان فى ظن العبد بربه إن كان حسنا حقق له ذلك وإن كان سيئا وكله إليه]

عن واثلة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء» (١).

فالظن ما تردد فى الصدر، وإنما يحدث من الوهم وهو هاجسة النفس وأيد الله تعالى المؤمن بنور التوحيد فى القلب، ونور فى الصدر، ويطوف حول القلب حجابا لذلك النور الأعظم فإذا هجست النفس بعارض أمر ونور الصدر بمكانه يضىء استقرت النفس، فاطمأن القلب، وحسن الظن.

لأن النور الذى فى قلبه يؤدى إليه إن الله تعالى كافيه وحسبه فى كل أموره وأنه كريم رؤف رحيم عطوف.

وإذا كانت النفس ذات شهوة غالبة فارت بدخان شهوتها فأظلمت الصدر فصار الصدر مظلما وجاءت النفس بهواجسها فاضطربت، فذلك سوء ظنها بالله تعالى.

---

(١) أخرجه أحمد فى «المسند» من حديث واثلة بن الأسقع (٤٩١/٣). والدارمى فى «سننه» كتاب الرقاق- باب حسن الظن بالله (٣٠٥/٢) من رواية واثلة بن الأسقع. والحاكم فى «المستدرك» كتاب التوبة والانابة- باب حسن الظن بالله (٢٤٠/٤) من حديث واثلة بن الاسقع. وقال الحاك صحيح. وأقره الذهبى.

والظن ظنان: ظن عطاء فذاك الذى تستقر عليه النفس ويطمئن القلب، ويوفى له بذلك ولا يخيبه.

قال ابن مسعود رضى الله عنه: «والله الذى لا إله غيره ما اعطى عبد عطاء خيرا من حسن الظن بالله».

والظن الآخر: ظن خالطه تهمة فلم يطمئن القلب فإن خيب فغير مستنكر وقوله أنا عند ظن عبدى بى أى أن القلب بيدى لم أكلها إلى أحد. فإذا ظن عبدى بى حسنا حققت له ذلك، ولم أخيبه، وإذا ظن بى سيأ وكلته إلى سيىء ما ظن وتخليت عنه لأنى أعطيته من النور فى القلب ما يؤدى إلى الصدر، وفى الصدر ما يضىء فيتصور له ما يؤدى القلب إليه وضاع ذلك الضوء لقوة ما أتت به النفس من دخان شهواتها وتقوية الشهوات من العبد فعوقب عليه ونسب إليه بتركه تعاهد القلب حتى استولت النفس عليه فألهته عن ذكر الله، وقوله: فليظن بى ما شاء أى يجدنى قريبا وفيا بما آمل ورجا وإنما يحسن ظن من انفرد له بين يديه وأعرض عن نفسه ورفع عنه بالها فانكشف له الغطاء عن رأفته ورحمته فاستقر قلبه.

ومن كان صاحب شهوات، واشتغال بنفسه فلو انكشف له الغطاء عن رأفته، ورحمته لأفسد أمره وضيع حدوده، وركب شهواته واجترأ فستر عنه حتى يكون فى مخافة وحذر.

ولهذا كانت الأنبياء عليهم السلام لما سكنت شهواتهم وماتت نفوسهم وحييت بالله تعالى قلوبهم بشروا بالنجاة فلم تضرهم البشرى، بل زادهم ذلك أى شكرا.

[الأصل الثانى والثلاثون والمائتان فى حكمة دعاء الرمد]

عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصابه الرمد أو أحدا من أهله وأصحابه دعا هؤلاء الدعوات: «اللهم أمتعنى ببصرى واجعله الوارث منى وأرنى ثأرى فيه وانصرنى على من ظلمنى» [1].

جعل الله للبصر فى الجسد محلا رفيعا ومكاناً عاليا (وفى الخبر أن العبد يؤخذ يوم القيامة بنعمة البصر فيوجد قد استفرغ جميع حسنات العبد وبقى سائر النعم عليه مع التبعة).

ومن رفيع درجته على سائر الجوارح أنه ينظر به إلى الله تعالى يوم الزيارة وبه يلذ تنعما برؤيته وبه ينظر إلى العبر فى الدنيا فالعين قالب البصر، والبصر من نور الروح، ولكل ذى جسم لطافة.

فالروح مسكنه فى الدماغ، ومعلقة فى الوتين، وهو نياط القلب، ثم هو منفش فى سائر الجسد، من الظفر إلى شعر الرأس، نفخ فيه الروح

---

(١) أخرجه السيوطى فى «الجامع الصغير» (١٠٢/٢) وقال: أخرجه ابن السنى والحاكم عن أنس ورمز له بالصحة.
وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» كتاب الطب- باب رقية الرمد (٤١٤/٤) وسكت عنه الحاكم. وفى كتاب الدعاء- باب الدعاء (٥٢٣/١) قال الحاكم صحيح من رواية أبى هريرة. ومن رواية على رضى الله عنه (٥٢٧/١) قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» كتاب الدعاء. باب الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٧٨/١٠) بروايات مختلفة.

من طرف إبهامه فى المبتدأ ثم يخرج منه عند القبض من طرف لسانه، لأن الله تعالى رفع درجة اللسان على سائر الجوارح بالتوحيد، وبه يظهر ما فى القلب.

قال عليه السلام: «ما من شىء أحب إلى الله من بضعة لحم وذلك لسان المؤمن وما من شىء أبغض إلى الله من بضعة لحم وذلك لسان الكافر».

فجعل سبيل الروح عند خروجه من طرف لسانه ليكون آخر الجوارح موتا وتكون حركة لسانه عند خروج الروح منه بالتوحيد والحبوة مع الروح والعقل والمعرفة، فالروح نور، والعقل نور، والمعرفة نور، ولكل نور بصر، فبصر العقل متصل ببصر الروح، ولطافة الروح فارق منها وصاف فهو فى العين.

وإذا أبصر الناظر إلى حدقة رأى الرقة واللطافة فى الحدقة فى ذلك السواد فتلك لطافة الروح كالماء وبصر الروح فى تلك الانسانة فى الحدقة فذلك النور المشرق فيه هو بصر الروح والضوء من خارج.

وإدراك الألوان من بين هذا النور الذى فى الانسانة وبين الضوء الذى هو خارج وحتى لا يجتمعان لا يدرك الناظر بعينه الألوان فهذا لعامة الادميين.

ثم خص الموحدون بأن ارواحهم من النور وأرواح الكافرين من النار وليس للكافر عقل فخص الموحد بالعقل، فاجتمع نور التوحيد، ونور العقل، ونور المعرفة، ونور الروح، فى تلك الانسانة، فبها تبصر العين فى الدنيا وتتمثل له أمور الاخرة.

ثم خص الأولياء منهم بنور القربة ولذلك النور أيضا بصر، فالنور فى القلب، وبصره فى بصر العين، فبقوة ذلك يتفرس والفراسة أمر جليل،

من أمور الغيب، خص بها الأولياء عليهم السلام ينظرون بنور الله تعالى إلى سمات القدرة على عبيد الله تعالى فى الغيب، فتوسمهم نظرهم ببصر ذلك العين الذى اتصلت الأبصار فيها بعضها ببعض وغشيها بصر القدرة، فيدركون سمات القدرة والتدبير فيخبرون بالعجائب.

فهذا بصر الأولياء ثم للانبياء عليهم السلام زيادة نور فى أبصارهم وهو بصر النبوة ثم للرسل عليهم السلام بصر الرسالة.

ثم لرسولنا عليه السلام بصر سيادة للرسل صلوات الله عليهم أجمعين فاجتمعت هذه الأبصار كلها فى انسانة تلك الحدقة من عينه صلى الله عليه وسلم.

وقال عليه السلام: «رأيت ليلة اسرى بى من العلى الذرة تدب على وجه الأرض من السدرة المنتهى».

قوله امتعنى ببصرى والامتاع بالبصر أن يرى هذه العجائب من تدبير الله تعالى من أمور الدنيا والاخرة ويرى كل شىء كما خلقه الله تعالى.

قال عيسى عليه السلام: «ارنى الاشياء كما خلقته» فسأله الامتناع ببصره ليتقرب إلى الله تعالى بما ينظر إليه من العبر قال تعالى:

﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ * تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ (٢)

والمنيب الذى قد اناب بقلبه فاقبل على الله تعالى وفرغ قلبه له من حسو الدنيا وطهره من ادناس المعاصى وكدورة الأخلاق وفضول الدنيا فقربه ربه، وأدناه ونقى قلبه بنوره واحتد بصره فى خلقه، وصنعه، وتدبيره فلو نظر إلى ورقة لحار عقلة فيها من العجائب التى فيها من

(٢) ق (٥٠/٧، ٨).

رطوبتها ولونها، وطعمها، وريحها، ولبنها، ومقدارها، وتقطيعها، وهيئتها، ونقوشها، وتخطيطها.

واللطف الذى حواها على هذه الصفة ثم كل شجرة لها، ورق لا يشبه الأخرى فللمؤمن المنيب (٣) فى هذا البصر بهجة.

فأما المكب على نفسه فى خلو من لطائف الله تعالى فيه التى هى عند العارف أحلى من القطايف وبره وتدبيره ورحمته وإنما به شغل نفسه ماذا ينال منها من عاجل النفع أكلا وتمتعا واعتقادا لما فضل منه حرصا على الدنيا وجمعا لها قد اتخذه عدة لنوائبه (٤) دون الله تعالى واعتمد عليه فاستولت بهجة النفس عليهم لينالوا بها عزا، ويمتنعوا لهوا، وسهوا فوقعوا فى الخسران، وحرموا رؤية البهجة، وصار عاقبة أمرهم إلى الكفران.

قال الله تعالى:

﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (٥)

فسأل عليه السلام أن يمنعه ببصره الذى ينال به هذه الأشياء حتى يتوسم به آيات الله وينظر به إلى سمات القدرة ويكون ممن يعبد الله بكل نظرة، فإنما أعطى العباد ليعبدوا الله تعالى بها لا ليتمتعوا بها تمتع الكفار قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ

---

(٣) المنيب: التائب.
(٤) النوائب: المصائب جمع نائبة.
(٥) المنافقون (٩/٦٣).

مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (٦) (٦)

فالمؤمن يتزود في جميع نظره وسعيه، وعمله ينظر بعين العبرة والفكرة في أمر الله تعالى، ويتقرب إلى الله تعالى به ويتزود لآخرته والكافر يتمتع، وإذا نظر المؤمن بعين الغفلة، والشهوة كان تمتعا، فالمتنبه كلما نظر إلى شيء ازداد علما وكان بصره رأس ماله، والمزيد من العلم ربحه.

ولهذا جاءت به الأخبار أن النظر إلى البحر عبادة وإلى العالم عبادة وإلى وجه الأبوين عبادة لأنه عبد الله بتلك النظرة.

وقوله: وأجعله الوارث مني أي اجعل بصري آخر ما يخرج مني فيكون قد ختمت لي بالنبوة والتوحيد والعقل فيكون بصري هو الوارث لجوارحي، فإن هذه الأبصار قد اجتمعت في هذا البصر فكان آخر ما يخرج مني لطافة الروح، وهو بصر العين فقط.

فالسعيد من قبض روحه، وكان آخر ما يخرج منه بصر توحيده، وعقله والشقي من سلب ذلك ثم قبض روحه فكان آخر ما يخرج منه بصر روحه فقط.

قال عليه السلام: «إن الروح إذا فارق الجسد تبعه البصر» ألا ترى إلى شخوص عينيه فسأل عليه السلام الامتاع ببصره أن يديم له ذلك إلى أن تفارقه روحه؛ وكان آخر ما يخرج عنه بصره لأنه كان متصلا ببصر العقل والتوحيد والولاية، والنبوة، والرسالة، والقيادة والسيادة، حتى يكون ذلك ختاما لأمره.

---

(٦) محمد (١٢/٤٧).

وقوله وأرني ثأرى معناه أرني ببصري هذا ما يكون في أمتي إلى آخر الدهر من النصرة لما جئت به فاستجيب له؛ فأرى ملك فارس والروم في أمته ومنازل الحكماء والعلماء والأئمة الهادية بالحق والقائمة بالعدل، والفتن التي هي كائنة في أمته والرحمة التي عمتهم وقوله: «وانصرني على من ظلمني» ظلم الرسول عليه السلام أن يكذب وننفي عنه منة الله تعالى عليه في شأن النبوة فسأل إظهار حقه الذي جاء به، فكانت تلك نصرة النبوة فكان المستعدي عليه على أحد أمرين إما أن يهديه الله تعالى وإما أن يقتله.

[الأصل الثالث والثلاثون والمائتان فى حقيقة الخوف وحقيقة المعرفة]

عن معاذ رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو خفتم الله تعالى حق خيفته لعلمتم العلم الذى لا جهل معه ولو عرفتم الله تعالى حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال»(١).

حقيقة الخوف لمن وصل قلبه إلى فردانيته فامتلأ من عظمة الفردية باهت فى جلاله فأينما وقع بصره على شىء وأينما دارت فكره، وأطلعت نفسه تلك المطالع علم العلم الصافى الذى لا يمازجه شبهة، ولا جهل بمنزلة الشمس إذا أشرقت على أهل الدنيا بضوئه يريك الأشياء كلها حتى لا يخفى عليك منه شىء لعموم إشراقه على الأشياء كلها.

فكذا شأن القلب إذا كمل علمه وأشرق نور الله تعالى فى صدره فذلك الضوء يريك أمر الملكوت وأمور الدنيا والآخرة وإنما ينال هذا العلم بنور الخوف، ونور الخوف ما أشرق فى صدره من نور العظمة الفردية فخافه حق خيفته، وعلم العلم الذى لا جهل معه لأنه يريك ذلك النور باطن الأمور والأسرار التى فى الغيوب التى خص الله تعالى بالكشف عنها الأنبياء والأولياء عليهم السلام، وقوله حق معرفته إن تعرفه بصفاته العلى وأسمائه الحسنى معرفة يستنير قلبك بها.

---

(١) السيوطى فى «الجامع الصغير» (١٣٠/٢) وقال: رواه الحكيم عن معاذ. ومز له بالضعف. وذكره المناوى فى «فيض القدير» (١١٩/٥). وأورده الزبيدى فى «اتحاف السادة المتقين» (٤٧٧/٩).

فإذا عرفته بذلك كان دعاؤك عن معرفة، وحسن الظن به، وقال عز من قائل (أنا عند ظن عبدى بى)، والكريم يستحيى أن يعرف بشىء ثم لا يكون له من ذلك الشىء منه نوال، فما ظنك بعبد يعرف ربه بالكرم ثم يدعوه فيقول: يا كريم هل يخيب العارف له بذلك، وقد عرفه بالكرم معرفة يقين، وقد عرف الموحدون كلهم أنه كريم، ولكن تلك معرفة التوحيد لا معرفة اليقين، ولهذا يعاملونه معاملة اللئام، ولا يأتمنونه على أحوالهم، إذ لو ائتمنه لم يتخير الأحوال وألقى مفاتيح الأمور إليه، حتى يكون هو الذى يختار له.

وإذا اختار له ما تكره نفسه.، ويثقل عليها راض نفسه، وأدبها حتى إذا اختار الله تعالى له ذلك، اهتش إلى المكروه كما يهتش إلى المحبوب ثقة به وتفويضا إليه، فهؤلاء الراضون عن الله تعالى رضى الله عنهم ورضوا عنه فهم أهل الخشية، والذين عرفوه بالكرم معرفة التوحيد يتخيرون له الأحوال؛ فيهربون من الفقر والذل، ويحتالون لأنفسهم الأحوال المحبوبة، ويطلبونها ويدبرون لأنفسهم أمورا وإذا جاءهم المكروه من الأمور، وذلك له صنع من الله جميل رأيت له نفسا دنية وخلقا شكسا فلا يزال ذلك السوء يتردد فى صدره حتى يتكدر عليه عيشه فإن كان صاحب تقوى، اتقى الله بجوارحه، وصدره بهذه الصفة وإن خذل فترك تقواه خرج ذلك من صدره إلى الجوارح فافتضح عند الملائكة وعقلاء خلقه فى الأرض.

[الأصل الرابع والثلاثون والمائتان في أن الطاعم الشاكر لم صار بمنزلة الصائم الصابر وإن الصبر أفضل]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر[1]».

الصوم هو أن يعزم على أن يكف عن الطعام، والشراب، ومباشرة النساء طول النهار، والصائم كل ساعة تتردد فيه شهوة الطعام، والشراب وغير ذلك مما هو ممنوع منه فرد شهوته، وتجرعت نفسه مرارة الرد فهو صابر يتجدد عليه الصبر ساعة بعد ساعة عند تحرك كل شهوة في نفسه، ومنعه منها.

فهو يردها ويثبت على الوفاء بنذره فسمي الصائم الصابر، ولذلك قال الله تعالى: (الصوم لي وأنا أجزي به).

إنما صار مختصا من بين الأعمال بأن نسبه إلى نفسه الكريمة وإن كان الأعمال كلها لله تعالى، لأن الصوم ليس بعمل الأركان، ويقع سرا فيما بينه وبين ربه سبحانه وتعالى.

---

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب الأطعمة ـ باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر (٥٨٢/٩). والحاكم في «المستدرك» كتاب الصوم ـ باب الطاعم الشاكر مثل الصابر (٤٢٢/١). وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأحمد في «المسند» (٢٨٣/٢). والترمذي في «سننه» (٦٥٣/٤). وابن ماجه في «سننه» (٩٥/٢). وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٦)، والبيهقي في السنن (٣٠٦/٤).

والحفظة لا تعلم ذلك، ولا تطلع عليه، وخفى عليه جزاؤه ومقدار ثوابه فولى الله تعالى ذلك لعبده لأنه كلما ترددت شهوة، تجددت للعبد عزمة على الثبات فله بكل عزمة ثواب جديد.

ولهذا قال عليه السلام: «ما من نعمة وإن تقادم عهدها فذكرها العبد فحمد الله عليها إلا جدد الله تعالى له ثواب شكرها كيوم شكره، وما من مصيبة وإن تقادم عهدها فذكرها العبد فاسترجع إلا جدد الله له ثوابها كهيئته يوم أصيب».

فللصائم بكل عزمة استئناف صبر قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢)

فقد خرج هذا من عمل الحفظة وإدراكهم. قال عليه السلام: «الأعمال كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلا الصوم فإنه لا يعلم ثواب عامله إلا الله تعالى».

وقال عليه السلام: «الاعمال عند الله سبعة عملان موجبان، وعملان بأمثالها، وعمل بعشر أمثاله، وعمل بسبعمائة ضعف، وعمل لا يعلم ثواب عامله إلا الله تعالى فأما الموجبان فمن لقى الله يعبده مخلصا لا يشرك به شيئا وجبت له الجنة، ومن لقى الله قد أشرك به وجبت له النار، ومن عمل سيئة جزى بمثلها، ومن عمل حسنة جزى عشرا، ومن أنفق ماله فى سبيل الله ضعفت بسبعمائة، والصيام الذى لا يعلم ثواب عامله إلا الله تعالى».

---

(٢) الزمر (٣٩/١٠).
قال الأوزاعى: ليس يوزن لهم بميزان، ولا يكال بمكيال، إنما يغرف لهم غرفا. راجع مختصر ابن كثير (٣/٢١٥) بتصرف.

وقوله الطاعم، الشاكر، بمنزلة الصائم الصابر، فالإيمان منقسم على الشكر والصبر.

قال عليه السلام: «الإيمان نصفان: نصف للشكر، ونصف للصبر».

لأن العبد فى جميع عمره بين محبوب ومكروه، فالإيمان يقتضى الشكر عند المحبوب، والصبر عند المكروه فإذا وفى لهما وفر إيمانه فإذا طعم وهو محبوب النفس فشكر فقد أتى بنصف وفاء الإيمان، وإذا جاع وهو مكروه النفس، فصبر فقد أتى بنصف وفاء الإيمان وهكذا فى جميع الأعمال.

وهذا لأن العبد لما آمن بقلبه، واعترف بلسانه امتحن صدق ما فى قلبه، وطمأنينة نفسه، بالإيمان بالمحبوب، والمكروه فإن أبرز عند المحبوب شكرا وعند المكروه صبرا فقد أتى بوفاء الإيمان. قال تعالى:

﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (٣)

لأن الشهوة التى فى ابن آدم من المحفوف بباب النار، فإذا أثارها محبوب من الأمور فهى حرفة يقتضى عليها الشكر، وهو رؤيتها من خالقها، والمقدر له وإذا آثرها بمكروه فهى حرفة يقتضى عليها الصبر

---

(٣) العنكبوت (٢/٢٩).
الفتنة المراد منها القتل، والتعذيب، وفى قوله تعالى: (ولقد فتنا الذين من قبلهم) أى ابتليناهم وأختبرناهم. راجع المعنى فى تفسير الطبرى (٨٣/٢٠) والقرطبى (٣٢٥/١٣).

للمقدر الحاكم عليه بذلك؛ لتظهر صحة إيمانه فيباهى الله تعالى به يوم الموقف ملائكته عليهم السلام إذا أتى الله تعالى بالصبر والشكر.

[الأصل الخامس والثلاثون والمائتان فى أدب شرب الماء، وفوائد كل شربة، وحكمة الشكر، والشفاء والوترية]

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا شربتم فاشربوا بثلاثة أنفاس فالأول شكر لشرابه، والثانى شفاء فى جوفه، والثالث مطردة للشيطان، وإذا شربتم فمصوه مصا فإنه أجدر أن يجرى مجراه وأنه أهنأ وأمرأ» (١).

النفس الأول صار شكرا للمنتبهين، لما خلص إليه عذوبة الماء، ورطوبته، وبرودته تراءى لقلبه لطف الله تعالى فى ذلك الماء كيف جرت ربوبيته فيه حتى رطبه وأعذبه وبرده، فكانت رؤيته لذلك شكرا، وإذا كان النفس الأول بهذه الهيئة ذهب بالداء، وإذا ذهب الداء جاءت نوبة الشفاء، فلما شكر هذا العبد فى النفس الأول استوجب من الله تعالى المزيد قال تعالى:

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (٢)

فاجتلب فى النفس الثانى المزيد فصار شفاء لأن البركة قد اشتملت على المزيد، وأما النفس الثالث صار مطردة للشيطان للوترية التى فيه

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٦١٦/١) وعزاه للحكيم الترمذى عن عائشة رضى الله عنها. وذكره أيضا الهندى فى «كنز العمال» (٢٩٠/١٥) وقال: وتفرد الحكيم بروايته، اهـ.

(٢) إبراهيم (٧/١٤).

انظر جامع البيان للطبرى (٧٠/٩).

فإن الله تعالى وتر يحب الوتر، فالنفس الأول رحمته. والنفس الثانى شكره لعبده وهو مزيده والنفس الثالث، محبوبه لسمة الوترية فوتريته تعالى نفت كل خلط فى الأعمال مما يريد الشيطان أن يزاوجه؛ لأنه مستعد لأن يزاوج بما يورد على القلوب فى ملك الصدور والموحد لا ينفى مزاوجته بحظه من وترية الله تعالى، حتى يبطل كيده ويصفو عمله لله تعالى الوتر.

ولذلك كانت العلماء يتوخون الوتر فى كل شيء فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وترا، وإذا تكلم فأعاد الحديث أعاد وترا وكان يتوخى الوترية فى كل شيء، وكان أبو هريرة رضى الله عنه يتوخى الوترية فى كل شيء حتى أنه كان يقرأ فى صلاته بأم القرآن بثلاثة أنفاس وكان ابن سيرين رضى الله عنه يتفقد بطلب ذلك حتى يأمر الخادم أن يضع على مائدته من كل شيء وترا يتوخون بذلك محبوب الله تعالى، والتماس البركة وانطراد الشيطان ونفوره وإذا انطرد الشيطان بقى الشفاء على هيئته وثبت الشكر لصاحبه.

قال عليه السلام «إن الله ليرضى على العبد بالشربة الواحدة، والأكلة الواحدة يشربها أو يأكلها فيحمد الله عليها».

وقال عليه السلام: «ما أنعم الله على عبد من نعمة صغيرة، ولا كبيرة فحمد الله عليها إلا كان قد أعطى خيرا مما أخذ» فالنفس الأول للشكر وإنما يثبت الشكر للوترية فى النفس، الثالث لانطراد الشيطان لأنه إذا لم يكن مطرودا دخل عليه بوسوسة ما يبطل شكره بأن يوسوس إليه فى عذوبته أوفى صفائه أو فى برده خللا ينغص عليه النعمة، حتى يغيب عن قلبه لطف ربوبية الله تعالى فى ذلك الماء فى وقت الشرب، وقد استوجب العبد رضاء الله تعالى فى شربة واحدة لهذه الآداب التى دأب عليها مطيعا لله تعالى، طالبا فيها حسن العمل.

وهذه الشربة الواحدة إنما رضى الله بها عن العبد لأنه سمى فى أولها، وتنفس حين قطع الشكر للمزيد ليجتلبه، فإن المزيد أكثر من الشكر ثم تنفس، فقطع ليجتلب الوترية فينفى العدو الحاسد الذى قد أعدله فى كل شىء حسدا فيثبت له الشكر، فيدوم.

فإذا حمد الله فقد ختمه بكلمة الصدق، فرضى عنه بتلك الكلمة الصادقة، وإذا حمد حمدا مع ترك الأدب كانت كلمته مدخولة فلا يستوجب الرضى، لأنه مع استيلاء الغفلة كحمد السكارى وإذا رضى الله تعالى عن عبده أثنى عليه وأحبه ملائكته.

قال عليه السلام: «من شرب الماء بثلاثة أنفاس بدأ فسمى فى كل مرة وحمد كل مرة سبح الماء فى جوفه حتى يشرب ماء غيره».

وقوله: إذا شربتم فمصوا لأن اللهاة تيبس من حرارة الجوف، ولهبان الكبد فتعطش اللهاة فإذا مص الماء كان كثيرا لبروده على اللهاة فيسكن العطش فاستغنى عن كثرته إذ كثرة الماء تتخم وتحدث داء كثيرة فإذا مص أسرع إلى تسكين العطش، فاستغنى عن الازدياد ولأنه أرفق لمجراه فى العروق.

قال عليه السلام «لا تعبه عبا فإن الكباد من العب» فإنه إذا عب أضر بالكبد لأنه مجمع العروق ومنه تنقسم فى العروق فإذا عبه فى دفعة واحدة كان بمنزلة نهر فتحت مفتحه دفعة واحدة فدخل الماء جملة لم يؤمن البثق، والفساد فكذا إذا شربه عبا لا مصا لم تحتمل العروق وفاضت من المعدة إلى العروق فربما كان على الطريق سدة فى العروق؛ فاحتبس الماء هناك فدوى فصار خاماً، وقوى البلغم فحدثت منه أدواء فى النفس وأورث كسلا عن عبادة الله تعالى، وفتورا فمن لها عن تفقد ذلك، يوشك أن يؤديه إلى ما هو أكبر منه.

فكان عليه السلام شفيقا على الأمة رؤفا رحيما أن يؤدبهم (٣) إلى الله تعالى، مع زينة الإسلام، وبهاء الإيمان فعلمهم تناول الطعام والشراب، وكل شيء للنفس فيه حق، وقد طهره الله تعالى وأدبه واجبا قلبه ونفسه فقبل أدبه وصار مهذبا وأمرنا بالأيتساء به فقال تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (٤)

وجعل الاتباع له علامة محبته فى قلوب العباد فقال:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (٥)

فأوجب محبته لمن اتبعه.

---

(٣) فى نسخة أخرى [يؤديهم إلى الله تعالى] وهو تصحيف من الناسخ.

(٤) الأحزاب (٣٣/٢١).

(٥) آل عمران (٣/٣١).

راجع مختصر ابن كثير فى تفسير هذه الآية الشريفة (١/٢٢٧).

[الأصل السادس والثلاثون والمائتان في أن النوم مع الطهر كالصوم مع القيام]

عن عمرو بن حريث رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النائم الطاهر كالصائم القائم».

الصائم بترك الشهوات يطهر، وبقيامه بالليل يحيى، والنائم نوم العدة محتسباً إذا نام على طهارة بمنزلته فإن نفسه تعرج إلى الله تعالى فإذا كان طاهراً قرب فسجد تحت العرش.

(قال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما: تعرج الأرواح إلى الله تعالى في منامها فما كان طاهراً سجد تحت العرش، وما كان غير طاهر سجد قاصياً).

فلذلك يستحب أن لا ينام الرجل إلا وهو طاهر.

(وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: إذا نام الإنسان عرج بنفسه حتى يؤتى بها إلى العرش فإذا كان طاهراً أذن لها فى السجود وإن كان جنباً لم يؤذن لها فى السجود).

---

(١) أخرجه السيوطى فى «الجامع الصغير» (١٨٨/٢) وعزاه للحكيم الترمذى عن عمرو بن حريث. ورمز له بالضعف. وأخرجه الديلمى فى «مسند الفردوس» زهر الفردوس لابن حجر (١٣١/٤) عن عمرو بن حريث.

وما قال أبو الدرداء رضى الله عنه: إن النفس تعرج أصوب فإنه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: وكل بالنفوس شيطان يقال له الهوّ فهو يخيل إليها ويتراءى إلى أن ينتهى إذا عرج بها فإذا انتهت إلى السماء فما رأت فهو الرؤيا التى تصدق) إلا أن عبدالله بن عمرو استجاز أن يسمى الروح باسم قرينها كالقلب والفؤاد والنفس والروح قرينان.

إلا أن الروح سماوى يدعو إلى الطاعة. ومسكنه فى الرأس، والنفس أرضية تدعو إلى الشهوات، وقد وضع فى كل واحد منها شيىء من الحياة فيعمل بتلك الحياة فبالنفس يأكل ويشرب، ويسمع، ويبصر، وبالروح يعف ويستحيى، ويتكرم، ويتلطف ويعبد ربه ويطيع، والنفس هى الأمارة بالسوء، وهى حارة والروح بارد.

فإذا نام العبد خرجت النفس بحرارتها فعرج بها إلى الملكوت، والروح باق معلق بنياط القلب يحرس القلب بما فيه من التوحيد وأصل النفس باق يتقيد بالروح، وقد خرج شعاعها.

قال الله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٢)

ولذلك نجد النائم إذا استيقظ فى أعضائه بردا فى أيام الصيف لخروج حرارة النفس، والنفوس تشترك بين الآدمى والبهائم وفضل الآدمى بالروح السماوى ليكون داعياً لنفسه إلى الطاعة وإذا نام العبد خرجت النفس فلقيت من أمور الملكوت وأخبار الغيب ما يرجع إلى

---

(٢) الزمر (٣٩/٤٢).
راجع القرطبى (١٥/٢٦٠) ومختصر ابن كثير (٣/٢٢٢).

صاحبها بالعلم الشافى (قال عليه السلام: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٣).

وقال أيضاً عليه السلام: «لم يبقى بعدى من النبوة شيىء إلا المبشرات، رؤيا المؤمن» فإذا عرجت النفس صارت إلى فناء العرش فطهرت بقرب الله تعالى، وبالسجود الذى أذن لها فرجعت إلى صاحبها طاهرة بالقرب محبوة بكرامة السجود فصارت بمنزلة الصائم الذى طهر بترك الشهوات، وحيى بقيام الليل فهذه منزلة الصادقين استوى نومه على طهارة بصيامه وقيامه.

(ولهذا قال معاذ رضى الله عنه لأبى موسى: إنى أنام نصف الليل وأقوم نصفه فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى).

فأما منزلة الصديقين خاصة الله تعالى فهى أرفع من هذا فإن النوم عندهم آثر من القيام لأن نفوسهم قد قلقت بين الأحشاء فهى تطلب الانفلات إلى فسحة التوحيد إلى فحص العرش، وطلبت العقول الوصول إلى الله تعالى؛ فاغتنم ما تطلب النفس فاقترنا فخرج العقل بحظه من القلب اشتياقاً إلى الله تعالى، وخرجت النفس اشتياقاً إلى فسحة العرش، والروح الذى هناك فإذا رجعا إلى البدن أوردا على الروح من الطهارات، والكرامات، ما لا يخطر على قلب بشر حتى يرتاح ويطهر ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوخى نوم السحر.

(قالت عائشة رضى الله عنها ما ألقاه السحر عندى إلا نائماً) فالسحر ساعة نزول الرب سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا واطلاعه على الخلق

(٣) رواه أحمد فى «مسنده»، والبخارى ومسلم فى صحيحها، عن أنس، وأحمد فى «المسند» والشيخان وأبو داود والترمذى عن عبادة بن الصامت، ورواه الشيخان وأحمد وابن ماجة عن أبى هريرة، وصححه السيوطى فى «الجامع الصغير» (٢/٢٢).

والعطف عليهم والنداء ألا هل من داع فأستجيب له ألا هل من تائب فأتوب عليه، ألا هل من سائل فأعطيه، ألا هل من مستغفر، فأغفر له وهو باسط يده لمسيء النهار أن يتوب بالليل، ثم يقول من يقرض غير معدوم، ولا مطول.

فكان عليه السلام يتوخى النوم فى ذلك الوقت لعروج نفسه إلى الله تعالى فتلقاه فى سمائه وهذا أفضل عنده من قيامه لأنه فى حال القيام إنما يعرج إليه قلبه بعقله وفى حالة النوم تعرج النفس والعقل والقلب فاجتماع الثلاثة أفضل عنده.

فخاصة الله تعالى نالوا هذا الحظ، وتوخوا بنومهم ذلك فصاروا أفضل من الصائمين القائمين، وأما الصادق فقد اعتدل نومه بصومه، ومكثه فى نومه بقومته وإليهم أشار صلى الله عليه وسلم فى الحديث.

وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» فهذا شكر الصادقين عدل شكره على طعامه بصبره فى صيامه.

فأما شكر الصديقين فقد فاق وبرز على صبر الصائمين، لأن الصبر ثبات العبد فى مركزه عن الشهوات يرد ما يهتاج منه من الشهوات فى وجه النفس، والشاكر من الصديقين يطعم، ويفتتح طعامه ببسم الله الذى يملأ تسميته ما بين السماء والأرض ويطفىء حرارة شهوته.

ويرى لطف الله تعالى فى ذلك الطعام، ورأفته به فى سياقته إليه ويحمد الله تعالى على ما يرى من صنعة الله تعالى فى ذلك الطعام حمداً لا ينتهى، فقد بان تفاوت ما بين هذين الحالين.

(وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: أبطأ عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاة الفجر؛ حتى كادت الشمس تدركنا ثم خرج

فصلى بنا فخفف فى صلاته ثم انصرف فأقبل علينا بوجهه، فقال على مكانكم أخبركم بابطائى عنكم اليوم فى هذه الصلاة إنى صليت فى ليلتى هذه ما شاء الله تعالى، ثم ملكتنى عينى فرأيت ربى فى أحسن صورة وأجملها فقال: يا محمد قلت: لبيك يا رب، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى قلت: لا أدرى يا رب، ثم قال: يا محمد قلت: لبيك يا رب، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى قلت: لا أدرى يا رب، قال: فوضع كفه بين كتفى، فوجدت برد أنامله بين ثديى؛ فعلمت من كل شىء وبصرته ثم قال: يا محمد، قلت: لبيك يا رب، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى قلت: فى الكفارات، قال: وما هن قلت: فى المشى على الأقدام إلى الجماعات وفى إسباغ الوضوء فى السيرات، وفى القعود فى المساجد بعد الصلوات قال: ثم فيم قال: قلت: وفى إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام، قال: سل قلت اللهم إنى أسألك حب الحسنات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفرلى وترحمنى، وإذا أردت فتنة فى خلقك فنجنى إليك منها غير مفتون.

اللهم وأسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك، ثم أقبل علينا فقال: تعلموهن وادرسوهن فإنهن حق).

فانظركم بين النومة والقومة فهذا قصد المشتاقين إلى الله تعالى فى المنام يتوخون بها تجدد أحوال النفوس، ويتوقعون من الله تعالى المنن وكان أبوبكر رضى الله عنه يقول: لأن أسمع رؤيا صالحة أحب إلى من كذا وكذا.

[الأصل السابع والثلاثون والمائتان فى التعوذ بالله من الرغب]

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعوذوا بالله من الرغب» (١).

قال: وكانت له ابنة رغيبة فدعا الله عليها فماتت» الرغب كثرة الأكل، والشبع مفقود حتى يحتاج صاحبه أن يثابر عليه فى اليوم مرات، وذلك من غلبة الحرص، ولهبان ناره يهضم ذلك الطعام وينشف رطوبته حتى يسرع فى يبسه فيصير ثفلاً يحتاج إلى أن ينفضه نفضاً.

وقال عليه السلام: «الرغب شؤم» لأن ذلك من جعامة النفس، وإذا كانت النفس جعمة فصاحبها مفتون، وجعامة النفس من قلة حظه من الله تعالى، وبعد قلبه منه، وربة نفس مالت جعامتها إلى بطنه فيكون مفتوناً ببطنه ولذة حلقه هالعاً لا يدع رطباً ولا يابساً، وربة نفس مالت جعامتها بها إلى فرجه فكان مهوماً بذلك، وإذا عجز عنه فعلاً لكبر أو ضعف فقلبه منهوم ولسانه رافث وعينه طماحة خائنة.

(قال عليه السلام أكثر ما يدخل الناس الجنة حسن الخلق، وأكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان البطن والفرج).

---

(١) ذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (١٣٢/١) وعزاه للحكيم الترمذى عن أبى سعيد، ورمز له بالضعف. وذكره المناوى فى «فيض القدير» (٢٥٨/٣). وذكره الهندى فى «كنز العمال» (٢٦٠/١٥) وأشار إلى تفرد الحكيم بروايته.

وقال عليه السلام: «أشر ما فى الإنسان شح هالع وجبن خالع».

والشح الهالع: هو الحرص الذى له حريق فى الجوف، وصاحبه لا يشبع والجبن الخالع: هو الذى إذا وقع الخوف فى الرئة انتفخ من الجبن، وسوء الظن حتى يرحل القلب من مكانه فيبقى معلقاً، كالمختلع والرغب مشتق من الرغبة، والرغبة خلقت من أخلاق الكفر.

قال وهب رضى الله عنه: وجدت فى الحكمة مكتوباً بنى الكفر على أربعة أركان على الرغبة والرهبة، والشهوة والغضب، فالرغبة: ربع الكفر والمؤمن لا يرغب بل يتناول على الحاجة، ولا يستمتع بل يتزود لأنه مسافر قد أيقن بالبعث فهو فى السير إلى ربه فما أخذه من الدنيا أخذه تزوداً ليقطع مسافة أيام الدنيا إلى يوم مقدمه عليه بالموت الذى حل به، والكافر قد ركن إلى الدنيا ونعيمها، ولم يقر بالبعث ولا اطمأن إلى أنه صائر إلى الله تعالى، وإلى ما يأمله المؤمن، من الرجاء العظيم، والأمل الفسيح، فيأخذه من الدنيا أخذ متمتع ويأكل أكل متشبع.

قال عليه السلام: «ما ملأ آدمى وعاء شرا له من بطن بحسب ابن آدم لقمات يقمن صلبه فإن كان لا بد فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس».

وقال عليه السلام لأبى جحيفة رضى الله عنه حيث تجشأ: «يا أبا جحيفة أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً فى الدنيا».

ويقال الشبع أب الكفر لأنه يحدث منه الأشر والبطر ومنها يتكبر ويتجبر وقال عليه السلام: «إن الله تعالى يحب القتير من أمتى قيل

يا رسول الله وما المقتير قال: قليل الطعام» وروى عن يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام إنه قال: لإبليس هل وجدت منى شيئاً قط قال: لا إلا أنك ربما شبعت، فثقلت عن الصلاة فعاهد الله تعالى أن لا يشبع حتى يخرج من الدنيا فأمر عليه السلام بالتعوذ منه ليعافى من هذه الآفات إن شاء الله تعالى.

[الأصل الثامن والثلاثون والمائتان فى سبب زيادة العمر]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بنى أسبغ الوضوء يزد فى عمرك» (١).

فزيادة العمر على وجهين أحدهما: أن العبد إذا عمر بالإيمان وبحياة القلب به فذاك كثير وإن قل مدته لأن القصير من العمر إذا احتشى من الإيمان أربى على الكثير لأن المبتغى من العمر العبودة لله تعالى، كى يصير عند الله تعالى وجيها ألا ترى أن المعمرين من الرسل عليهم السلام كلهم عمروا ما بين المائتين إلى الألف.

ومحمد صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة نيفاً وعشرين سنة فأربى على الجميع، وتقدمهم لعظيم حشوه، ووفور حظه ودنو قربه.

حتى قال: «أنا سيد ولد آدم، ولا فخر وإن الله تعالى أعطانى خمساً لم يعط أحداً قبلى سميت أحمد، ونصرت بالرعب، وجعلت لىّ الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لىّ الغنائم» (٢).

---

(١) أخرجه الطبرانى فى «الصغير» (٣٢/٢) وقال الطبرانى: لا .يروى عن أنس بهذا التمام إلا بهذا الاسناد. تفرد به مسلم الأنصارى وكان ثقة. وذكره السيوطى فى «اللآلئ المصنوعة» (٢٠٢/٢) إلى (٢٠٥) بطرق مختلفه.

(٢) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه، وصححه السيوطى فى «الجامع الصغير» (٧٦/٢).

الوجه الثانى أن الله تعالى قدر الآجال، والأرزاق والحظوظ من أهلها فجعل بعضها واجبة، وبعضها هدية ثم أثبت ذلك فى الكتاب الذى عنده، لا يطلع عليه أحد ومنه نسخ إلى اللوح، فيمحو من ذلك الأم ما شاء، ويثبت ما شاء، وإنما يمحو من الهدايا بالأحداث التى تكون من أهلها فى الأرض.

فأما الواجبات فقد وجبت لأهلها فإذا حافظ المؤمن على الوضوء وأسبغه فإنما يدوم هذا الفعل لوفارة إيمانه، واتساع صدره شرحاً للإسلام فهداياه فى أم الكتاب مثبتة تربو بحفظه وصونه للهدايا فإذا استخفف بها دخل التخليط فى إيمانه وذهبت الوقارة، وانتقص من كل شىء بمنزلة الشمس التى ينكسف طرف منها فبقدر ما انكسف ولو مقدار رأس إبرة انتقص من شعاعها وإشرافها فكذلك نور المعرفة بقدر ما ينكسف من شمسها ينتقص من جميع أعماله وأخلاقه، وسيرته فى الدين بين يدى الله تعالى؛ لأن القلب صار محجوباً، ومن حجب عن الله تعالى بمقدار رأس إبرة فزوال الدنيا بكليتها أهون من ذلك، فلا يزال العبد ينتقص ويدوم، ويتراكم نقصانه، وهو أبله لا ينتبه بذلك حتى يستوجب الحرمان فتمحى الهدية، ويبقى العبد خالياً، ولو قد عقل لما حل به، وانتبه له لم يزل صارخاً إلى الله تعالى؛ حتى تثبت له الهدية ويزاد فى العمر فيؤخر أجله، ويزاد فى رزقه وقوته فى أعمال الدين والدنيا ويزاد فى البركة فى كل شىء منه.

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الرجل ليبقى من أجله ثلاثة أيام فيصل رحمه فيزيد الله تعالى فى عمره ثلاثين سنة» وكيف لا يزاد فى عمره وقد تعلق بقميص الرحمة والأخبار مستفيضة فى نسأ من أعمال البر أنه يزاد فى عمره ثواباً لتلك الأعمال فذلك عاجل الثواب بشرى لما أعد له فى الآخرة من الثواب.

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها زيادة العمر ذرية صالحة، يرزقها الله تعالى العبد، يدعون له بعد موته يلحقه دعاؤهم فذلك الزيادة فى العمر.

وعن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان يريد أن يبسط عليه فى رزقه وينسأ فى أثره فليصل رحمه» (٣).

---

(٣) لذلك فإن صلة الرحم منوطة بزيادة الخير، وسعة الرزق، وطول العمر.

[الأصل التاسع والثلاثون والمائتان فى خصائص النبى الأمى وفى سر قوله أعطيت خمساً الخ]

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبى قبلى، ولا أفخر بعثت إلى الأسود والأحمر، وكان النبى قبلى يبعث إلى قومه وجعلت لىّ الأرض مسجداً وطهوراً، ونصرت بالرعب أمامى مسيرة شهر، وأحلت لىّ الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة فدخرتها لأمتى فهى نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً» (1).

الرسول صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الخلق بمنزلة الأمير المؤمر يعطى الإمارة، والولاية، والرعاية، فهو بمنزلة الراعى، يرعى غنمه فى مراعى تسمن عليها، ويوردهم صفو الماء ويرتاد لهم فى الصيف مشتاهم، وفى الشتاء مصيفهم، ويعد لهم لكل ليلة مأوى قبل هجومه، ويفر بها عن مراتع الهلكة، ويجنبها الأرضين الوبئة، ويحرسها من السباع، ويحوطها عن الشذوذ ويلحق شذاذها ويجبر كسيرها، ويداوى مريضها، ويجمع رسلها من الألبان والصوف لرب الغنم فهذا راع ناصح

---

(1) أخرجه مسلم فى «صحيحه» كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥/٥). وأخرجه الترمذى فى «سننه» كتاب السير- باب ما جاء فى الغنيمة (١٢٣/٤). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد فى «المسند» من حديث أبى هريرة (٢٦٤/٢) ومواضع أخرى. ورواه كذلك ابن ماجة فى «سننه» والنسائى فى «سننه» وأبو عوانه فى «مسنده» والدارمى فى «سننه» والبيهقى فى السنن.

لمولاه وأجره موفور عليه يوم الجزاء، ومتوقع من رب الغنم أفضل هدية على قدر ملكه.

فالرسول عليه السلام هو راعى الخلق، والخلق غنمه بعث ليرعاهم فشرع لكل خارجة فى واديها ماذا تباشر، وماذا تجتنب فأحل من كل خارجة بعضاً، وحرم بعضاً وأوردهم من المياه أصفاها وهو العلم الصافى، وهيأ لهم المشتى والمصيف، وهو الاستعداد فى الحياة وأيام الصحة والقوة قبل الهرم، والمرض قبل الموت، وأعد لهم المأوى؛ فبين لهم عند حدوث الفتن كالليل المظلم، إلى أين يأوون وبمن يعتصمون، ويعز لهم عن مراتع الهلكة، وهى الشهوات الدنياوية المشوبة بالحرص، ويجنبهم الأرض الوبئة، وهى الأفراح التى تحل بالقلب منها فيوبأ (٢)، ويمرض منها القلب، ويحرسهم عن الشذوذ مخافة الذئاب، وهو العدو، ويجبر كسيرهم إذا وقعوا فى المعاصى ويدعوهم إلى التوبة، ويعينهم عليها حتى يجبر كسيرهم، ويداوى مريضهم وهو أن يعظ مفتونهم حتى يخلصهم بالمواعظ من فتن النفوس، ويحمل بهماتهم وهو أن يتولى رعاية أطفالهم بالتأديب، ويجمع رسلهم وألبانهم وهو أن يدعو لهم، ويستغفر لهم، ويسأل الله تعالى قبول أعمالهم، فهذا راع، وهو من ذلك أمير يؤدبهم، ويحملهم على المكاره، ويسوقهم ويسير بهم بسوط الأدب على مشارع الاستقامة ليوافى بهم الموقف بين يدى الله عز وجل، فكل راع إلا ومعه عصا يهش بها على الغنم، ويؤدبهم بها.

وقد ذكر سبحانه عصا موسى عليه السلام فى تنزيله فكل راع مؤنته على قدر غنمه، وكل أمير مؤنته على قدر رعيته فالأمير المبعوث إلى كورة محتاج على قدر ولايته إلى آلة الولاية من الخدم والدواب والمراكب، والكنوز على قدر ولايته لينفق فى أمارته.

(٢) يوبأ: يصيبه الوباء.

فمن أمر على مجارستان فهو أقل حظاً من هذه الأشياء التي وصفنا ومن أمر على خراسان كانت حاجته إلى ما ذكرنا أكثر.

ومن كان أمير المؤمنين يحتاج إلى كنز عظيم ومن ملك المشرق والمغرب احتاج إلى خزائن الأموال حتى يضبط بها ذلك الملك، فكذلك كل رسول بعث إلى قوم أعطى من كنز التوحيد وجواهر المعرفة على قدر ما حمل من الرسالة فالمرسل إلى قومه في ناحية من الأرض إنما يعطى من النبوة والكنوز على قدر ما يقوم به في شأن نبوته ورعايته قومه.

والمرسل إلى جميع أهل الأوض كافة إنسها وجنها عليه السلام أعطى من المعرفة بقدر ما يقوم بها في شأن النبوة إلى جميع أهل الأرض كافة فحظنا. من قوله عليه السلام بعثت إلى الأحمر والأسود.

وقوله تعالى له:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ (٣)،

كحظه من ولاية ملك يملك الدنيا، وجواهر شرقها وغربها، وما بينهما ومن ملك الأرض كلها ملك جواهرها، ومعادنها ومن ملك ناحية من الأرض ليس له إلا معدن ناحيته، وجوهر ذلك المعدن.

فلذلك قال عليه السلام اختصر لىّ الكلام، وأوتيت جوامع الكلم.

ولذلك صار كتابه مهيمناً على الكتب، وصار القرآن الكريم مشتملاً على التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وبقى المفصل نافلة لهذه الأمة

(٣) سبأ (٣٤/٢٨).

خاصة، وأوحى إليه بالعربية التى برزت على سائر اللغات بالاتساع وهى لسان أهل الجنة، ولما أعطى الرسالة إلى الكافة أعطى من الكنوز مقدار الكفاية للجميع وأوتى من الحكمة، وجواهرها كلها، وأوتى ختم الرسالة والرعب فبجواهر الرسالة قوى على علم مختصر الحديث، وجوامع الكلم، وكان التوراة يحملها سبعون جملاً موقرة والزبور من بعدها والإنجيل من بعده فجمع له ذلك كله فى القرآن الكريم، والفرقان فى فاتحة الكتاب ولذلك سمى أم الكتاب.

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (٤)،

وهى سبع آيات سميت مثانى لأن الله تعالى جمع الكتب كلها فى اللوح المحفوظ ثم أنزل منها على كل رسول ما علم أنه محتاج إليه هو وأمته، واستثنى فاتحة الكتاب من جميع ذلك، وخزنها لهذه الأمة فجميع علم التوراة والإنجيل والزبور، والفرقان مستخرج من أم القرآن، والقرآن مستخرج من أمه وسائر الكتب فى القرآن.

قال عليه السلام: «أوتيت السبع يعنى الطول مكان التوراة وأعطيت المثانى مكان الإنجيل وأعطيت المئين(٥) مكان الزبور، وفضلت بالمفصل».

فمن عمى قلبه عن الله ولم يكن فى قلبه نور الهداية لم يبصر آثار النبوة على محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما يبصر منه شخصه وجثته.

---

(٤) الحجر (٨٧/١٥).
وقيل هى الفاتحة لأنها تثنى أى تكرر قراءتها فى الصلاة، وقد ورد فى الحديث: «الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته» من زاد المسير (٤١١/٤).
(٥) فى نسخة أخرى [المائتين].

قال تعالى :

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٦)،

ومن هداه الله تعالى لنوره فانفتح عين قلبه بذلك، واستقرت المعرفة فى قلبه أبصر منه شخص النبوة بارزاً من الحياة والذكاء واليقظة، والانقياد (٧) والسرعة، والبراز والسبق، والسماحة والكرم، والسعة، والجود والحياء والسكينة، والوقار والحلم، ومن الأفعال السواك، والحجامة، والتعطر، والجماع، ويرى على شخص النبوة شخص الرسالة فائقاً من الجلال والبهاء، والنزاهة، والحلاوة، والطلاوة، والملاحة، والمهابة، والسلطان وأصل هذا كله من اليقين والحب والحياة.

وإنما نال المؤمنون من معرفة محمد صلى الله عليه وسلم على قدر معرفتهم بالله، وعلمهم به فمن صدق محمداً صلى الله عليه وسلم فى الصحبة كان صدق صحبته على قدر معرفته إياه وعلمه به، وعلى حسب ذلك كان يتراءى لبصر عينه فى الظاهر ما عددنا من الخلال (٨) فأوفرهم حظاً من نور الله أوفرهم علماً به، وقدره، وجلاله وخطير منزلته وأوفرهم علماً به أسرعهم إجابة لدعوته، وأبذلهم نفساً، ومالاً ألا ترى أن أبا بكر رضى الله عنه لما أفشى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مبعوث صدقه على المكان، ولم يتردد، ولم يضطرب.

وقال على كرم الله وجهه حتى أسأل أبى ثم رجع عن الطريق، وصدقه، وصدقه عمر بعد مدة وبعد ما أسلم تسع وثلاثون نفساً فتم بإسلامه عدد الأربعين بعد دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة

---

(٦) الأعراف (١٩٨/٧).

(٧) فى نسخة أخرى [والاتقاد] وهو تحريف وتصحيف.

(٨) الخلال: الطباع والصفات، جمع خلة.

أسلم من الغد: اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام يعنى أبا جهل.

فجرت الدعوة من عدو الله عمرو إلى محق الله عمر رضى الله عنه، فسعد عمر رضى الله عنه وشقى عمرو، ودل اسماهما على حظيهما من الله تعالى، ومقدار الكائن من أمريهما؛ لأن عمر رضى الله عنه أول اسمه مضموم مثقل والمضموم الذى قد آواه الله وضمه إلى باله، وعمرو أول اسمه مفتوح مخفف، والمفتوح هو الذى أهمله الله تعالى، وأخرجه من باله؛ فضمة أول اسم عمر رضى الله عنه دليل على أنه كان مضموماً إلى بال الله تعالى فأعز الله تعالى به الإسلام، عزاً حتى صار بمحل أن جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد أقرىء عمر السلام، وأخبره أن غضبه عز ورضاه حكم، وفتحة أول الاسم فى عمرو تدل على أنه خرج من بال الله تعالى، وقد انكشف الغطاء عن شأنه؛ فكانت كنيته فى قريش أبا الحكم، فجرت كنيته فى أهل الإسلام بأبى جهل، وعلى حسب خروجه من بال الله تعالى عظمت آفته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الإسلام، حتى قتله الله تعالى أذل قتلة، وقد أكرم الله رسوله عليه السلام وأبرز فضيلته، وكرامته بأن جعل لكل نبى وزيراً وجعل لمحمد صلى الله عليه وسلم أربعة من الوزراء، فأبوبكر وعمر رضى الله عنهما وزيرا الرسالة، وعثمان وعلى رضى الله عنهما وزيرا النبوة، ثم نحلهم من الحظوظ من عنده.

فحظ أبى بكر رضى الله عنه منه العصمة والحياء، وحظ عمر رضى الله عنه الحق، والوكالة، وحظ عثمان رضى الله عنه النور والحياء، وحظ على رضى الله عنه الحرمة والخلة، فتفاوت أعمالهم فى صحبتهم الرسول عليه السلام أيام الحياة وفى سيرتهم فى الأمة بعده على قدر حظوظهم.

فلما أحس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالارتحال إلى الله تعالى من الدنيا وابتدئ له فى وجعه، وعجز عن الخروج إلى الصلاة بالأمة أمر أبا بكر رضى الله عنه بالصلاة فاتفقت الأمة على أنه هو الذى ولى الصلاة وكان من صنع الله تعالى للأمة أن خفف الله عنه يوم قبض فخرج، والمسلمون فى صلاة الغداة ورجلاه يخطان الأرض حتى جلس إلى جنب أبى بكر رضى الله عنه فصلى ليعلم الجميع أنه رضى بذلك من فعله لئلا يبقى لمعاند أو طاعن مقال أنه لم يأمر بذلك أو أمره وهو مغلوب على عقله لشدة علته، فأظهر الله ذلك بما خفف عنه حتى خرج وقعد إلى جنبه، فصلى من حيث انتهى أبوبكر رضى الله عنه، ثم صار المتأولون لذلك على صنفين، منهم من يقول أبوبكر هو الإمام وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته، ومنهم من قال: بل رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام وأبوبكر المقتدى.

(قال أنس رضى الله عنه آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم خلف أبى بكر. وقال أبوبكر رضى الله عنه آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفى فى ثوب واحد.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذى مات فيه جاءه بلال يؤذنه بالصلاة فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، قلت: إن أبا بكر رجل أسيف، ومتى ما يقوم مقامك يبكى فلا يستطيع، فلو أمرت عمر يصلى بالناس قال مروا أبا بكر يصلى بالناس، فإنكن صواحبات (٩) يوسف، قالت: فأرسلنا إلى أبى بكر فخرج يصلى بالناس فوجد النبى صلى الله عليه وسلم من نفسه خفة فخرج، وهو يهادى بين رجلين، ورجلاه يخطان بالأرض فلما أحس به أبوبكر ذهب ليتأخر فأومى إليه أن مكانك فجاء رسول الله

(٩) صواحبات يوسف: صواحبه من النساء.

صلى الله عليه وسلم حتى جلس إلى جنبه فكان أبوبكر يأتم بالنبى عليه السلام، والناس يأتمون بأبى بكر.

وروى عبد الله بن زمعة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مروا من يصلى بالناس فخرجت فإذا عمر فى الناس، وكان أبوبكر غائباً فقلت: يا عمر صل بالناس فقام، فلما كبر سمع صوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رجلاً مجهراً فقال: هذا صوت ابن الخطاب فأين أبوبكر يأبى الله ذلك والمسلمون.

فقال عمر: ويحك يا ابن زمعة ماذا صنعت بى ما ظننت إذ قلت لى إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليت بالناس فقال: والله ما أمرنى، ولكن لم أر أبا بكر فرأيتك أحق من حضر بالصلاة.

وحديث عائشة رضى الله عنها حيث قالت: إن أبا بكر رضى الله عنه يصلى فصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم محسبة منها هكذا حسبت، وهى فى البيت.

وحديث أنس رضى الله عنه أصح لأنه خارج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأى العين ولأنه روى أن أبا بكر رضى الله عنه ذهب، ليتأخر ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإمام لكان لا يحبسه عن التأخر، وكان يقوم مقام الأئمة ولأن أبا بكر رضى الله عنه قال: آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفى وأبوبكر رضى الله عنه أعلم بهذه القصة من جميع الناس.

فثبت أن أبا بكر رضى الله عنه هو الذى ولى الصلاة والصلاة عماد الدين، وأول شىء فرضه الله تعالى يوم أوحى إليه، والصلاة إقبال الله

تعالى على العبيد ليقبلوا إليه في صورة العبيد تذللاً بالوقوف، وتسلماً بالتكبير وتبذلاً بالثناء، والتلاوة وتخضعاً بالركوع، وتخشعاً بالسجود، وترغباً بالجلوس، وتملقاً بالتشهد.

وقال عليه السلام: «الصلاة عماد الدين»(١٠) وقال عليه السلام: «الصلاة نور»(١١) وقال عليه السلام: «الله تعالى جعل قرة عيني في الصلاة».

فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما لهما وزارة الرسالة وحاجة الخلق إلى الرسالة أمس.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقتدوا بالذين من بعدي أبوبكر وعمر» فالحاجة إلى الاقتداء بالرسالة آكد، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عليه مدار الدين أبا بكر رضي الله عنه أن يتقدم ليتبعه الأمة ويقتدى فلما رأى أبوبكر رضي الله عنه قوة ما أعطى من تقلده لضمان الصلاة عن الله تعالى لعبيده، وعن العبيد لله تعالى ثم عن الله تعالى للعبيد في مرض الرسول صلى الله عليه وسلم أحس بالتأييد من الله تعالى بعد وفاته، عليه السلام أن الله تعالى مؤيده فيما دون الصلاة من أمور الشريعة وتقلد خلافة رسول الله صلى

---

(١٠) قال في المقاصد: رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف، من حديث عكرمة عن عمر مرفوعاً، ونقل عن شيخه الحاكم أنه قال: لم يسمع عكرمة من عمر.

وعزاه السيوطي في «الجامع الصغير» (٥١/٢) للبيهقي عن ابن عمر، ولم يقف عليه ابن الصلاح، فقال في مشكل الوسيط أنه غير معروف، ولكن النووي قال أيضا في التنقيح أنه منكر باطل إلا أن المناوي استدل برد ابن حجر له لضعفه وانقطاعه فقط وقال أنه ليس بباطل، وقد نبه على ذلك العراقي في حاشية الكشاف، وبسط القول فيه العجلوني في كشف الخفار فراجعه (٣٩/٢، ١٦٢١/٤٠) وهو نفس ما نقله الشيباني في التميز ص٩٥، ص٩٦.

(١١) ورد بلفظ «الصلاة نور المؤمن»، رواه القضاعي، وابن عساكر، عن أنس، وضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» (٥١/٢).

الله عليه وسلم لأمته، ولذلك قالت المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم فى وقت المشورة: قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يؤخرك فبايعوه».

ومما يحقق أنها وزيرا الرسالة ما روى أبو أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى رأيتنى أدخلت الجنة فلما خرجت منها أتيت بكفة فوضعت ووضعت أمتى فى الكفة الأخرى فرجحت بأمتى، ثم رفعت ثم جىء بأبى بكر فوضع فى كفة الميزان، وجى بأمتى فوضعت فى الكفة الأخرى فرجح بها ثم رفع أبوبكر وجىء بعمر فوضع فى كفة الميزان ثم جىء بأمتى فوضعت فى الكفة الأخرى فرجح بها ثم رفع الميزان إلى السماء.

وفى رواية سفينة مولى أم سلمة رضى الله عنها خلافة النبوة ثلاثون عاماً ثم يكون ملكاً فقال: سفينة أمسك سنتى أبى بكر وعشر عمر، وثنتى عشرة عثمان، وست على، فضى أبوبكر محموداً بنعمة الله تعالى عليه فى الخلافة ثم نظر بحظه من الله تعالى، وبما وجد من تأييد الله تعالى بعد الرسول عليه السلام نظراً شافياً لحق الله ثم لنفسه فلم ير أحداً أحق بأن يخلف خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمر رضى الله عنه، وقد كان المهاجرون والأنصار حوله فاختار منهم عمر رضى الله عنه، ورأى الحق له حتى جادلوه فقالوا له: استخلفت علينا فظاً غليظاً، فماذا تقول لربك قال: أتهددونى وتخوفونى بربى، أقول: استخلفت عليهم يا رب خير أهلك، فضى بسبيله وولى الأمر عمر من بعده، فحقق فراسة أبى بكر رضى الله عنه، وإلهامه ووطأ الإسلام، ومهده، وزينه وأعزه.

وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم: «ما من أمة إلا ولها محدث فإن يك فى أمتى فعمر منهم» (١٢).

وقال عليه السلام: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» (١٣)، وقال أيضاً عليه السلام: «الحق بعدى مع عمر حيث كان» (١٤).

وقال عليه السلام: «لو كان بعدى نبى لكان عمر» قد امتثل أبوبكر رضى الله عنه هذه الأشياء من إلهامه وفراسته، فاستخلفه ففتح الله الفتوح على يده ومصر الأمصار، ودرر الأرزاق، وبث السرايا، وجنود الله فى نواحى أقطار الأرض حتى تمهد الإسلام فى الوطن الذى منه بدأ ثم أكرمه الله تعالى بالشهادة، ففوض ذلك إلى ستة نفر أزكن فيهم الخير، وأحسن بهم الظن.

ولو وجد فيهم مساغاً للفراسة أو حظاً من الإلهام لنصه باسمه، ولكنه انسد عليه باب الفراسة، وانقطع حظ الإلهام فرأى التفويض إلى هؤلاء خيراً من إهمال أمر الأمة فقبض إلى الله وترك الأمر شوى بينهم، فاختاروا من بينهم واحداً بعد الاحتياط والتأنى، والتشاور، وافتقدت الأمة وزارة الرسالة، وحضرت نوبة وزارة النبوة فاتفق أمر الستة على أحد وزيرى النبوة إذ لم يبق منهم من الأربعة إلا هذين عثمان وعلى رضى الله عنهما فلم يزالوا يستخيرون الله تعالى حتى اتفقوا على عثمان رضى الله عنه ثم أقبلت الدنيا وجاء كفران النعمة، وهاجت الفتنة وعز اليقين وأدبر الحق راجعاً إلى الله تعالى عند إقبال الدنيا وذهبت حياة القلوب لكفران النعمة وتبديل الأمور وغلبة الهوى، حتى قتل عثمان

(١٢) راجع «العشرة المبشرون بالجنة» للسيد الجميلى ط. دار الكتاب العربى بيروت.
(١٣) أخرجه الحافظ أبو بكر بن أبى عاصم الشيبانى فى كتاب السنة (١٢٥٠/٥٨١/٢).
(١٤) راجع السابق.

رضى الله عنه، وجاءت نوبة على كرم الله وجهه والزمان بتلك الحال فلم يبق لوزارة النبوة من القوة ما يقوم مقام أبى بكر ولا عمر رضى الله عنهما.

بايعوا أبا بكر رضى الله عنه، وسلوا على أهل الردة سيوفهم فلم يغمدوها، ولم يخذلوه ولم ينكثوا (١٥) البيعة وبقى السيف مسلولاً، إلى انقضاء وزارة الرسالة بموت عمر رضى الله عنه، وبايعوا علياً كرم الله وجهه فى وقته، ثم نكثوا بيعته، وسلوا السيوف عليه، وآخرون بايعوه، وسلوا السيوف له، ثم خرجوا عليه مارقين، وآخرون بايعوه وسلوا السيوف له، وهم أهل الكوفة ثم خذلوه، وآخرون امتنعوا من بيعته، وأبوا خلافته وحاربوه، ولو كانت له وزارة الرسالة لصارت القلوب كلها له كقلب واحد، وكانت الفئة القليلة المستضعفة يغلبون الفئة الكثيرة كما كان فى زمن أبى بكر رضى الله عنه.

ومن لحظ إلى على رضى الله عنه بالقرابة والختونة (١٦) ومعانى ليس فى هذا الأمر من شىء إنما هذا أمر الرسالة وإنما يقوم بها القائم، ويقوى بها بحظه من الله الذى ضمن حشو الرسالة وأما القرابة، والميراث، ومقالات جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(من كنت مولاه فعلىّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) (١٧) فلعلى رضى الله عنه من الفضائل والمناقب ما يستحق أن يوالى من والاه ويعادى من عاداه وليس فى ذلك ما يثبت له الخلافة،

(١٥) نكث البيعة والعهد: نقضها.

(١٦) الختونة: القرابة من جهة المرأة. يقال الختن لكل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ وهم (الأختان) هذا عند العرب، وأما العامة فختن الرجل عندهم زوج ابنته.

(١٧) رواه الطبرانى وأحمد والضياء فى المختارة عن زيد بن أرقم وعلى وثلاثين من الصحابة، فالحديث متواتر أو مشهور والله أعلم وذكره العجلونى (٢/٣٧٩/٢٥٩١).

ويتقدم على أبي بكر رضى الله عنه، قال فضيل بن مرزوق: سألت عمران بن على، هل فيكم (١٨) إنسان مفترض طاعته تعرفون له ذلك، ومن لم يعرفه فمات مات ميتة جاهلية قال: لا والله ما هذا فينا، ومن قال هذا فينا فهو كذاب، قلت له: إن ناساً يقولون إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى إلى على رضى الله عنه وإن علياً رضى الله عنه أوصى إلى الحسن رضى الله عنه وأن الحسن أوصى إلى الحسين رضى الله عنهما، وأن الحسين أوصى إلى على بن الحسين، فقال: «والله لما مات أبى وما أوصى بحرفين وإن هؤلاء لمتأكلون بنا قال: وسمعت الحسن بن الحسين أخا عبدالله بن الحسين رضى الله عنهم، وهو يقول لرجل ممن يغلوا فيهم ويحكم أحبونا فى الله فإن أطعنا الله فأحبونا، وإن عصينا الله فأبغضونا فقال الرجل: إنكم لذو قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: والله لو كان الله نافعاً بقرابة منه لنفع بذلك أقرب منه إياه وأمه والله إنى لأخاف أن يضاعف للعاصى منا العذاب ضعفين كما يؤتى المحسن منا أجره مرتين.

ولو كان الأمر على ما يقولون إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى إلى على وأمره بالقيام بالأمر بعده ثم ترك على ما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الرافضى: ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كنت مولاه فعلى مولاه» (١٩) فقال: والله لو عنى به الأمرة والسلطان لأفصح لهم كما أفصح لهم بالصلاة والزكاة فقال: هذا ولى أمركم من بعدى فما كان من وراء هذا فإن أنصح الناس للناس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١٨) فى نسخة أخرى [هل منكم].
(١٩) تقدم فى الصفحة السابقة تخريجه.

وعن زيد بن على قال: لبعضهم ويلك من يخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تعرض بالخلافة فهؤلاء الغلاة قد تعلقوا بمثل هذه الأشياء حتى خرجوا إلى شتم وزيرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونسبوهما إلى الاغتصاب لحق الله تعالى.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن لى وزيرين من أهل السماء، ووزيرين من أهل الأرض فوزيرى من أهل السماء: جبريل وميكائيل عليهما السلام ووزيرى من أهل الأرض أبوبكر وعمر».

وخرج عليه السلام ويمينه على أبى بكر وشماله على عمر فقال: هكذا نبعث يوم القيامة.

وقال عليه السلام: «أحشر أنا وأبو بكر وعمر ونحن مشرفون على الناس، هكذا وأشار بأصابعه الثلاث) وكان سبابته أطول من الوسطى.

(وعن أسيد بن صفوان رضى الله عنه، قال: لما قبض أبو بكر ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبحوه، وجاء على رضى الله عنه باكياً مسرعاً مسترجعاً، وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على باب البيت الذى فيه أبوبكر مسجى فقال: رحمك الله يا أبا بكر، كنت ألف رسول الله وأنيسه، وثقته وموضع سره، ومشاورته كنت أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً، وأخوفهم لله وأعظمهم عناء فى دين الله، وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجدَّبهم على الإسلام، وأيمنهم على أصحابه وأحسنهم صحبة وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوالف، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم، هدياً وسمتاً، ورحمة، وفضلاً، وخلقاً، وأشرفهم منزلة وأكرمهم عليه، وأوثقهم عنده فجزاك الله عن الإسلام، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم

والمسلمين خيراً كنت عنده بمنزلة السمع، والبصر صدقت رسول الله حين كذبه الناس فسماك الله فى التنزيل صديقاً فقال:

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾

واسيته حين بخلوا وقمت معه عند المكاره حين قعدوا، وصحبته فى الشدة أحسن الصحبة ثانى اثنين، وصاحبه فى الغار، والمنزل عليه السكينة ورفيقه فى الهجرة خلفته فى دين الله، وأمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس وقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبى نهضت حين وهن أصحابك، وبرزت حين استكانوا وقويت حين ضعفوا ولزمت منهاج رسوله إذ وهنوا.

كنت خليفته حقاً لم تنازع، ولم تصدع برغم المنافقين، وكبت الكافرين، وكره الكارهين، وصغر الفاسقين، وغيظ الباغين قمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تتعتعوا مضيت بنور إذ وقفوا، فاتبعوك فهدوا كنت أخضعهم صوتاً، وأعلاهم فوقاً، أقلهم كلاماً وأصوبهم منطقاً، أطولهم صمتاً، وأبلغهم قولاً أكبرهم رأياً وأشجعهم نفساً، وأعرفهم بالأمور وأشرفهم عملاً.

كنت والله فى الدين يعسوبا اولا حين نفر الناس عنه، وآخرا حين قفلوا (٢٠) كنت للمؤمنين أبا رحيماً إذ صاروا عليك عيالاً فحملت أثقال ما ضعفوا، ورعيت ما أهملوا وحفظت ما أضاعوا لعلمك ما جهلوا، فشمرت إذ خنعوا (٢١) وعلوت إذ هلعوا، وصبرت إذ جزعوا.

---

(٢٠) قفلوا: رجعوا.

(٢١) خنعوا: خضعوا من الخنوع.

فأدركت اوتار ما طلبوا، وراجعوا رشدهم برايك فظفروا ونالوا بك ما لم يحتسبوا، كنت على الكافرين عذاباً صبيباً ونهباً، وللمؤمنين رحمة وأنساً وحصناً فطرت والله بفنائها، وفزت بحبائها، وذهبت بفضائلها، وأدركت سوابقها، لم تغلل حجتك ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، ولم يزغ قلبك، ولم يخف(٢٢). كنت كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف.

وكنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمنّ الناس عليه فى صحبتك، وذات يدك، وكما قال ضعيفاً فى بدنك، قوياً فى أمر الله، متواضعاً فى نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً فى أعين المؤمنين، كبيراً فى أنفسهم لم يكن لأحد فيك مغمز(٢٣) ولا لقائل مهمز، ولا لأحد مطمع، ولا لمخلوق عندك هوادة، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه والقوى العزيز عندك ضعيف حتى تأخذ منه الحق، القريب والبعيد عندك فى ذلك سواء أقرب الناس إليك أطوعهم لله وأتقاهم له شأنك الحق، والرفق والصدق، قولك حكم وحتم وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم، فأقلعت وقد نهج السبيل، وسهل العسير، وأطفئت النيران واعتدل بك الدين، وقوى الإيمان.

وثبت الإسلام والمسلمون، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون (٢٤)، فجليت عنهم فأبصروا، وسبقت والله سبقاً بعيداً، وأتعبت من بعدك إتعاباً شديداً، وفزت بالخير فوزاً مبيناً؛ فجللت عن البكاء، وعظمت رزيتك فى السماء، وهدت مصيبتك الانام، فإنا لله وإنا إليه راجعون،

(٢٢) فى نسخة أخرى [ولم يخن] وهو تحريف خطير.
(٢٣) مفخر: مطعن.
(٢٤) فى نسخة أخرى [المشركون].

رضينا بقضاء الله، وسلمنا له أمره، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبداً كنت للدين عزاً، وحرزاً وكهفاً.

فألحقك الله بنبيه وجمع بينه وبينك، ولا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك، فإنا لله وإنا إليه راجعون، قال: وسكت القوم حتى انقضى كلامه فبكى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى علت أصواتهم، فقالوا: صدقت يا ختن(٢٥) رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وفر الله تعالى حظ الرسول عليه السلام وأمته على الرسل كلهم، وعلى سائر الأمم.

فحيث ما انتصبوا لله قياماً كان لهم من النور ما يتهيأ لهم الإقبال على الله وأقبل الله عليهم فطهرت لهم بقاع الأرضين، وقوله وطهوراً إذا لم يجدوا الماء الذى جعله الله طهوراً للخلق، وتعذر عليهم وجوده أمرهم أن يتطهروا من أحداثهم بالصعيد الطيب، وهو التراب الذى يصعدونها ويمشون عليها، فجعل ما تحت أقدامهم طهوراً لهم، إذا لم يجدوا ما فوق رؤسهم من الماء، وهو ماء الحياة الراكد تحت العرش الذى خلقه الله حياة كل شىء.

قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (٢٦)

فمنه حياة القلوب والأرواح، ومنه يحيون فى قبورهم يوم النشور(٢٧) وإذا دخلوا الجنة يغتسلون به؛ حتى يكون ذلك لهم طهوراً من الذنوب

(٢٥) ختن: تربيب من قبل الأم.
(٢٦) الأنبياء (٣٠/٢١)
أى جعلنا من الماء سببا لحياة كل كائن حى.
(٢٧) يوم النشور: يوم القيامة والبعث.

والأدران (٢٨) ومن شرب منه زايلهم (٢٩) كل أذى فى أجوافهم وصفت ألوانهم، وجرت النضرة فى أجسادهم، ووجوههم، وأمنوا الموت لقوة الحياة التى فى ذلك الماء.

وقد جعل الله تعالى أرزاق الخلق من ذلك الماء يقدر فى ليلة القدر وهى ليلة يحكم أرزاق جميع المرتزقة من خلقه فى تلك الليلة إلى مثلها من قابل فإذا انفد ذلك البحر نفخ فى الصور وذلك قوله تعالى:

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٣٠)

وأنزل الله تعالى هذا الماء وسماه طهوراً فإن الشيطان بنجاسته ورجاسته قد وجد السبيل إلى الولوج (٣١) فى جوف ابن آدم وبدؤ ذلك كان حين أكل آدم عليه السلام من الشجرة التى أشار العدو إليه بأكله فجعل العدو السبيل إلى المعدة فجعل له هناك موطناً فلذلك نتن ما فى جوفه حين أخرج من الجنة لرجاسة العدو، ونجاسته.

ثم وردت ذلك ولده فأمر آدم، وولده بالوضوء لذلك، وأعلمهم أن هذا الماء طهور لهم يطهرهم من الآفات الظاهرة، والباطنة فالظاهرة ما يخرج من الآدمى من البول، والغائط، فإنه بلغ من عداوته إن تمعدنه فى ذلك الموطن الذى صير له منك معدناً، وهو مجمع الطعام؛ فإذا انطبخ صار روثاً ودماً والدم غذاؤه وموضع الروث منك مجلسه، وبلغ من عداوته أنه ينفخ عليك فإذا خرج منك الصوت هيج الضحك (٣٢) من الطحال فإن الطحال بيته، ومنه يتسخط الآدمى فى أموره وفيه مجمع

---

(٢٨) الأدران: الأوساخ والأقذار جمع مفرده درن.

(٢٩) زايلهم: فارقهم.

(٣٠) الذاريات (٢٢/٥١).

(٣١) الولوج: الدخول.

(٣٢) هذا تصور المؤلف وهو على سبيل المجاز.

تقاية البدن(٣٣) من كدورة الدم، وغيره وذاك الضحك الذى يهيج منك، وممن سمعه من الناس وهو سخرية منه وشماتة، يريد أن يعلمك إنى ههنا ليصغرك عند نفسك، ويريك باطنك ما يستر عنك ليفسد منن الله تعالى عليك فى جسدك الذى خلقه لك.

وقال تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٣٤)

فهذا العدو يحسدك فى كل شىء ويصيبك منه آفاته ساعة فساعة من همزه ونفخه، ونفثه، ونزغته.

ولذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتعوذ منه فقال تعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (٣٥)

وقال تعالى:

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (٣٦)

وقال تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ (٣٧)

(٣٣) فى نسخة أخرى [نفاية البدن].
(٣٤) التين (٤/٩٥)
قال مجاهد: أحسن تقويم، أى أحسن صورة، وأبدع خلق. راجع الطبرى (١٥٦/٢٠).
(٣٥) المؤمنون (٢٣/ ٩٧، ٩٨).
(٣٦) النحل (٩٨/١٦).
(٣٧) الناس (١١٤/ ١ـ ٥).

فهل أمر أن يتعوذ منه إلا من تتابع الآفات وتواليها فجعل هذا الماء طهوراً من هذه الآفات التى تعتوره [٣٨] من هذا العدو الذى لا يفارقه وذلك قوله عليه السلام: «ما من أحد من الآدميين إلا وله قرين من الشيطان موكل به قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن الله تعالى أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير).

ووسواس هذا العدو ونزغاته وهمزاته، ونفثاته تطمس وجه القلب، وتذهب بحياته وذهاب حياة القلب يوهن عقد الإيمان ويرخى عراه [٣٩] ويخمد توقده فيجد العدو سبيلاً إلى إهاجة النفس شهواتها وخدايعها وأمانيها واغترارها فإذا هاجت النفس هاجت رياح الهوى فنسفت النفس، والقلب والأركان فرمته فى آبار المعاصى إلا فيمن دخل فى مأمن الله وحرزه، ووكالته [٤٠]، ومعاقله فجعل الله تعالى هذا الماء طهوراً للمؤمنين من آفاته الظاهرة، والباطنة.

فأما فى الظاهرة فليطهر جوارحه من تلك الأحداث التى جرت عليها وفى الباطن يرد عليه ما ذهب من حياة القلب قال تعالى:

﴿ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا ﴾ [٤١]

فالبلدة فى الظاهر هى الأرض التى إذا وصل إليها ذلك الماء اهتزت، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج [٤٢] والبلدة فى الباطن القلوب تخلص إليها آفات العدو فتموت عن الله فيحييها الله بذلك الوضوء.

---

(٣٨) تعتوره: تحتوشه وتحاصره.

(٣٩) عراه: جمع عروه، وهى عروةالقميص والكنوز.

(٤٠) فى نسخة أخرى [وكلاءته] وهو تحريف خطير.

(٤١) الفرقان (٤٩/٢٥)

راجع التفسير الكبير للفخر الرازى (٩١/٢٤).

(٤٢) بهيج: حسن جميل.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: فى قوله تعالى:

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٤٣)

بلين القلوب من بعد قسوتها.

وقوله عليه السلام: لن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن وقوله عليه السلام لأنس رضى الله عنه: يا بنى إن استطعت أن لا تزال على وضوء فافعل فإنه من أتاه الموت وهو على وضوء أعطى الشهادة، والمؤمن البالغ إيمانه إذا أحدث لم يقدر أن يدوم على حدثه، ولا يطمئن حتى يتوضأ فيكون أبدا على الوضوء لأن قلبه فى وقت الحدث يفتقد نزاهة الإيمان وطيبه، ووسواسه يصير عامله على القلب، فانطفأ بعض توقد ناره فإذا توضأ عاد إلى الحالة الأولى.

فإذا لم يجد الماء صار الصعيد لهم طهوراً بدل الماء لهذه الأمة خاصة لأن الأرض لما أحست بمولد(٤٤) محمد صلى الله عليه وسلم وبظهوره من بطن أمه انبسطت، وتمددت وتطاولت ولبست ثياب الدالة وافتخرت على السموات، وسائر الخلق بأنه منى خلق، وعلى ظهرى تأتيه كرامات الله تعالى، وعلى متنى يتقلب نبياً يعبد ربه، وعلى بقاعى تسجد جبهته، وفى خلال أوديتى يتنزل كلام الله، ووحيه البارز على الكتب كلها، وفى بطنى مدفنه وأنا الذى أتضمن جسده، وعلى ظهرى يكون خاصة الله من أمته، وورثة ميراثه، فجرت الأرض رداء فخرها فجعل ترابها طهوراً لأمته.

---

(٤٣) الحديد (١٧/٥٧).
راجع البحر المحيط (٢٢٣/٨).
(٤٤) فى نسخة [بولود] وهو تحريف من الناسخ.

فبالأرض يتطهرون، وينتصبون بها بين يدى الله تعالى، فحينما ضربوا بأقدامهم بين يدى الله تعالى صارت الأرض من تحت أقدامهم مسجداً.

(قالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله إنك إذا دخلت صليت فى مواضع من البيت أفلا نهيىء لك موضعاً تصلى فيه فقال: يا عائشة أما علمت أن المؤمن إذا وضع جبينه لله طهرت تلك البقعة إلى سبع أراضين). وإنما التيمم لهذه الأمة عوضاً عن الوضوء بالماء دون سائر الأمم لأنه بمجيىء محمد صلى الله عليه وسلم طهرت الأرض؛ فلما جاء بالتيمم إلى الأمة قبلوه، فحيثما مدوا أيديهم إلى بقعة صار ذلك التراب طاهراً بمد أيديهم وزايلته(٤٥) أنجاس الشرك والمعاصى التى عليها.

وإنما صارت طاهرة بمد أيديهم على ذلك القبول الذى قبلوه عن الله تعالى قاصداً بالقلب التطهر قابلاً لما جاء به الهدية وهو محمد عليه السلام من المهدى هذه العطية والتيمم كالطرفة، والتحفة يتحف بها الملك عبده يريد به لطفه، وبره فيطهر ذلك التراب بمد اليد إليه وقبوله للهدية، وهو محمد صلى الله عليه وسلم صار يطهر ما جاء به تراب الأرض طهوراً كطهور الماء الذى أنزله الله من بحر الحياة.

قال تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ﴾ (٤٦)

ثم قال:

﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ

(٤٥) زايلته: فارقته.

(٤٦) المائدة (٥/٦).

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤٧)

وقولنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الهدية صحيح (فإنه قال عليه السلام بعثت إليكم وإنما أنا رحمة مهداة) فهو من الله لنا هدية، والرسل قبله بعثوا على الأمم حجة وعطية والهدية ليست كالعطية.

فمن قبل العطية بورك له، ومن لم يقبل تأكدت الحجة عليه وعوجل (٤٨) بالعقوبة، ورسولنا صلى الله عليه وسلم كان عطية وهدية فمن قبل محمداً صلى الله عليه وسلم عطية وهدية سعد ورشد وصار سابقاً ومقرباً ومن قبله عطية ولم يفطن للهدية سعد، ولم يصب ثمرة الرشد، ونجا بالسعادة ومن أباه وكفر النعمة، وجحدها كان حظه من السعادة النجاة من عقوبات الأمم التى عوجلوا بها فى الدنيا فسعدوا بهذا القدر، وتأخر عنهم العذاب إلى يوم القيامة والأولون عوجلوا بالعقوبة فى الدنيا إلى أن ألحقوا بعذاب الآخرة، فمن قبل محمداً عطية وهدية اجتباه الله ومن قبله عطية هداه الله إليه بالإنابة.

وذلك قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (٤٩)

والعطية من الرحمة والهدية من المحبة فمن رق لعبده ورحمه إذ رآه فى بؤس أو ضعف قواه وجبره بما يذهب ضعفه، وبؤسه فهذه عطية من الرحمة، ومن أحب عبده أهدى إليه خلعاً وحملانا يريد بذلك أن يختصه، ويستميل قلبه، ولذلك سميت هدية لاستماله القلب به.

(٤٧) المائدة (٦/٥).
(٤٨) عوجل بالعقوبة: توقعت عليه بسرعة.
(٤٩) الشورى (١٣/٤٢). راجع القرطبى (١٠/١٦)

فالرسل إلى الخلق عطايا من ربنا سبحانه وتعالى، رحمهم فبعثهم إليهم ليهديهم، ويذهب عنهم بؤس فقر الكفر ويجبر كسيرهم، وربنا عز وجل قد رحمنا فبعث إلينا محمداً صلى الله عليه وسلم عطية وهدية فجعل الإيمان والإسلام فى العطية، وحكمة الإيمان والإسلام فى الهدية.

وذلك قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾

إلى أن قال:

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (٥٠)

فحكمة الإيمان والإسلام هدية لهذه الأمة ببعث محمد صلى الله عليه وسلم خاصة (٥١) فضلاً على الأمم.

والهدية كنوز المعرفة من خزائن السحات احتظى بها هذه الأمة حتى صاروا موصوفين فى التوراة صفوة الرحمن وفى الإنجيل حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء وقال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ (٥٢) الآية.

وقال صلى الله عليه وسلم: «ما أعطيت أمة من اليقين ما أعطيت أمتى» (٥٣) فإنما صير محمداً صلى الله عليه وسلم لنا ليهدينا إلى أعالى درجات الدنيا عبودة لنكون غداً فى أعالى درجات الجنة بالقرب من

---

(٥٠) الجمعة (٦٢/٢).
قال ابن عباس: أى يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان. راجع القرطبى (٩٢/١٨) بتصرف.
(٥١) فى نسخة أخرى [خاصة وفضلا] وهو تحريف من الطابع.
(٥٢) آل عمران (٣/٧٣).
(٥٣) فى نسخة [فإنما خير محمداً] وهو تحريف خطير من الناسخ.

رسولنا لتقر عينه صلى الله عليه وسلم بنا ، وقوله : نصرت بالرعب أصله من فورة سلطان الله تعالى من باب النار فإذا جعل نصرته من الرعب فقد أعطى جنداً لا يقاومه أحد ولم يعط أحد من الرسل ذلك فكان أين ما ذكر من مسيرة شهر وقع ذلك الرعب فى قلب عدوه فذل بمكانه ، وقوله : أحلت لىّ الغنائم كانت الغنائم نجسة لأنها أخذت من العدو، وملك العدو كله نجس ألا يرى ان الله ذكر حلى آل فرعون فقال أوزاراً من زينة القوم ، فكانت لا تحل لهم لنجاستها فكانوا يضعونها فتجىء نار من السماء فتأكلها .

وكان هارون عليه السلام أمرهم أن يقذفوا ما فى أيديهم من تلك الحلى التى استعاروها من آل فرعون وقال لهم : تطهروا فرموا بها فجمعها السامرى ، فاتخذها عجلاً وقذف فيها التراب الذى كان رفعه من حافر فرس جبريل فرس الحياة للفتنة التى كتب الله عليهم بلوى بها .

فلذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ (٥٤)

تسمى أوزاراً لنجاستها وأحلت لىّ الغنائم لهذه ألامة قال تعالى :

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (٥٥)

لمحمد وأمته لأنهم ضربوا السيوف بحرارة حمية حب الله ، وزايلها رجاسة الكفر وأهله لأن حرارة الحب تقطع علائق النفس ، وتحرق أسبابها ، وعلائق النفس من أسباب الشرك ، وسائر الأمم لم يعطوا هذا فلم تطب لهم الغنائم ، ولم تزل رجاسة أهل الكفر منها فلم تحل لهم لأن

(٥٤) طه (٢٠/٨٧) .
(٥٥) الأنفال (٨/٦٩) .
راجع التفسير الكبير للفخر الرازى (١٥/٢٠٢) .

بنى إسرائيل قاتلو على الديار، والأرضين التى كانت لآبائهم قاتلوا عليها ليردوها إلى ملكهم وأنبياؤهم بعثوا للدعوة إلى الله تعالى.

ونبينا صلى الله عليه وسلم بعث للتوبة والملحمة يعنى إن لم يتوبوا لحموا بالسيوف.

قال صلى الله عليه وسلم: «أنا نبى التوبة وأنا نبى الملحمة» ومعنى ذلك أنى بعثت إلى الأمة بأن أدعو إلى لا إله إلا الله فإن أجابت وإلا أمهلهم حتى يتوبوا، وللتوبة انتظار ومدة والعذاب مأمون فيهم يتقلبون فى الشرك مع المدة.

فإن تابوا قبل الله ذلك منهم بأن جعلنى نبى التوبة ومن تمادى فى ذلك لحمت أجسادهم بالبسيوف، فكما صارت الغنائم طيبة من رجاسة الكفر، فكذلك طابت الأرض من رجاسة الكفر، والمعاصى بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الأنوار القدسية فصارت لهم مسجداً وطهوراً وطابت أيضاً بليلة القدر ومشاهدة الرب أهل الأرض، بالقربة وكانت المشاهدة للنبيين على أجسادهم، وأعطيت هذه الأمة على أرضها حتى يراها من سبقت له الحسنى من الله بعينه أشواق المشاهدة.

وقال عليه السلام: «هذه ليلة كشف غطاؤها» وقال على رضى الله عنه: استأذنت ملائكة الروح فى النزول إلى الأرض طمعاً أن ينالوا ما لم يكن عندهم فى مقاومهم.

قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ (٥٦)

---

(٥٦) القدر (٩٧/٤).
تنزل: أصلها تتنزل بحذف إحدى التاءين للتخفيف. راجع تفسير الآية فى القرطبى (٣٣/٢٠) والبحر المحيط لأبى حيان (٤٩٧/٨).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يرمى فى تلك الليلة بنجم ولا يحدث فيها داء» لأن الشياطين قد اختنست من أجل المشاهدة والخلق فى مأمن من مشاهدة السلام فهذا كله لهذه الأمة.

وقوله: أعطيت الشفاعة، فإن تلك دعوة كانت لكل نبى فتعجلتها الأنبياء فى الدنيا وأخرها محمد صلى الله عليه وسلم ذخراً لأمته، ونصيحة من الله فى عباده فاستوجب بنصيحة الله وبرأفته على عبيده أن وضع دعوته فى محل التربية حتى تربو(٥٧) وتتضاعف حتى تخرج له يوم القيامة تلك الدعوة بهية يحتاج(٥٨) الخلق كلهم إليها حتى إبراهيم خليل الله عليه السلام، قال صلى الله عليه وسلم: «لما أتانى جبريل بهذه الدعوة قلت إنى ادخرتها لأمتى فيحتاج الخلق كلهم إلىّ فى هذه حتى إبراهيم خليل الله» عليه السلام.

---

(٥٧) تربو: تزيد.
(٥٨) فى نسخة أخرى [بهيئه يحتاج] وهو تحريف من الناسخ.

[الأصل المائتان والأربعون فى فضل الأمانة]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» (١).

الإيمان عش الأمانة، والأمانة فى جوفه كالفرخ الذى يتقفأ عن البيضة، ووكل العباد بتربيتها كما يربى الطير فرخة فى عشه، ويزقه ويغدو فى طلب تربيته حتى ينقل إليه من أقطار الأرضين ويتنفه (٢) ويدب عنه ويقاتل من يرومه فى عشه تحنناً عليه، وشفقة، وصيانة حتى ينبت له جناح، ويطير معه فكذا المؤمن موكل بحفظ الأمانة، وقد قبلها مع قبول الإيمان، ولم يتم له الإيمان إلا بقبول الأمانة، وكانت مستورة.

فأحب الله أن يبرزها حتى يقبلها آدم عليه السلام ظاهراً فمثلها له درة بيضاء، وجعلها مستورة فى جوفه فعرضت على السموات والأرض والجبال فهبنها وأشفقن منها لأنه انكشف الغطاء عن ذلك لهن، وستر عن آدم عليه السلام لطفاً من الله حتى قبلها لتحرك ما فى قلبه من

---

(١) أخرجه أحمد فى «المسند» من حديث أنس (١٣٥/٣، ١٥٤) وأخرجه البزار فى «مسنده» كتاب الإيمان ــ باب لا إيمان لمن لا أمانة له (٦٨/١). وأخرجه البغوى فى «شرح السنة» (٧٥/١) من رواية قتادة عن أنس وقال: هذا حديث حسن. وذكره السيوطى فى «مسانيد الجامع الكبير» (٢٩٢/٢) من مسند أنس.. وفى الصغير (١٩٨/٢) عزاه لأحمد وابن حبان عن أنس ورمز له بالصحة.

(٢) فى نسخة أخرى [ذل الله رقبته] وهو تحريف خضير من الناسخ.

الإيمان فلم يملك أن أسرع إلى القول مقتدراً، فابتلى باقتداره فسمى، ظلوماً لقبوله على الاقتدار، جهولاً بما فى باطن تلك الدرة فوضعها على العاتق فالزمها عنقه كطوق العبيد، وذلت لله رقبته فتكرر عليه الأمر للاقتدار وإنما عمل فيه الاقتدار وانسد عليه باب التعلق بالله لما كان فى ظهره من الأعداء فابتلى بقبول الأمانة ليميز الخبيث من الطيب، فقبله على الاقتدار فصار القبول حظ الأحباب وصار الاقتدار حظ الاهداء وذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ (٣).

ثم أعلم العباد لم فعل هذا فقال:

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ﴾ (٤) الآية.

ومعناه لأعذب الأعداء وأتوب على الأحباب، فأغفر لهم سيىء ما عملوا، وأرحمهم فى تقصيرهم حتى تؤديهم الرحمة إلى دار رحمتى فتقلد حفظ هذه الأمانة فجرى قبولها من القلب إلى الجوارح السبع فتجزأ حملها على هذه الجوارح، فللعين جزء، وجعل أمانة الفرج من بين الجوارح كلها مستورة، وسميت فاحشة إذا كشف عنها بغير حق والاستعمال لها بغير حق هلكة وتأديبه القتل بالحجارة والتنكيل، والناظر إليها عامداً ملعون، والكاشف عنها منزوع الحياء ممقوت.

وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما: «أول ما خلق الله من الإنسان فرجه ثم قال هذه أمانة خبأتها عندك فلا تبسل منها شيئاً إلا

(٣) الأحزاب (٧٢/٣٣).
والأمانة هى التكليف والفرائض كما فى الطبرى (٣٨/٢٢) وما بعدها، والقرطبى (٢٥٣/١٤)، وما بعدها.

(٤) الأحزاب (٧٣/٣٣)
راجع زاد المسير (٤٣٠/٦) والتسهيل لعلوم التنزيل (١٤٥/٣).

بحقها» فالسمع أمانة والبصر أمانة، والفرج أمانة، والبطن أمانة، واللسان أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة فالذى يكشف لك عما خبأه الله إهمالاً واستعمل بغير حق استوجب هذه العقوبات، والذى فى الدنيا النكال، والرجم، وأما الذى فى الأخرة فإن أهل النار يتأذون من نتن فروج الزناة، ويزدادون بذلك عذاباً.

وإذلك قال عليه السلام: «أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان البطن والفرج» فقد قلد كل جارحة بقسطه من الأمانة فمن استبدل بها خيانة انتقص من وزن إيمانه ومن وضوئه ما دام حيا وضوء الإيمان رأس مال الموحدين به يستضيئون فى السير إلى الله تعالى فى الطاعات فإذا غاب الضوء ضل القلب بمنزلة قمر وقع فى كسوف فكسوف ضوء الامانة فى ظلمة الخيانة؛ فكل فعل حرم الله على جارحة من الجوارح فهتك تلك الجارحة ذلك الستر، وانهتكت تلك الحرمة برفع حجابها فقد خانت الأمانة.

فالمتقون فهموا هذه القصة فخرست ألسنتهم عن أن تنطق بما نهى الله عنه والسمع عن الاستماع إلى ما نهى الله عنه وكل عضو كذلك، وحفظوا القلب وساحته وهى الصدر مع الله تعالى وفيما بينه وبين الخلق فكلما زلت جارحة من جوارحك بفعل حظر الله عليك فقد ضيعت الأمانة، بقدرها وانكسف من ضوء قمرك بقدره ونقص من وزن إيمانك غدا بقدره فإذا أحكمت شأن الجوارح السبع وجعلتها فى وثاق الأمانة فقد نجوت.

فإن كان ممن فتح له الطريق فسار إلى الله صار حفظ الأمانة أصعب وأعظم خطراً وأوفر حظاً من ثمرته لأنه حتى الآن كان فى كسب الجوارح عملاً ينال به أجراً وألان قد وقع فى كسب القلب سعياً

إلى الله ينال به القربة فالحراسة ههنا للأمانة من الخواطر فإن حرسها بحقها وصدقها تحول الضوء الذى كان بدئا شعاعاً؛ يتوهج يخطف بصائر النفس فضوء الإيمان للصادقين مع جهدهم، وشعاعه للصديقين مع تفوبضهم فإن الكفر كليل مظلم الإيمان فى الصدر كالقمر.

فالموحدون يأخذ كل من ذلك القمر بقدره وكل مطيع يأخذ بقدره من الضوء فإذا كان صادقاً مطيعاً لله فى كل جارحة فالظاهر مستقيم، والباطن فاسد مجهود صار كمن أقمر ليلة يدر أو صار ضوء إيمانه كالقمر ليلة البدر إلا أن الضوء ليس له شعاع، ولا حريق ومن فتح لقلبه الطريق إلى الله تعالى فصار على منهج الصدق وهو البذل لنفسه لله غير ملتفت إليها تحول قمره شمساً فإنما يبدو لقلبه من شعاع تلك الشمس بمقدار ما كان يبدو من القمر فى مبتدأ أمره.

فلا يزال حافظاً للأمانة فى العطايا حتى تزول عنه الخيانة ويتبرأ من النفس أو بنسيها وافتقد مشيئته بمشيئة مولاه ونسى أحوال نفسه لما طالع من العظائم وأشرقت شمسه بتمامها بجميع شعاعها، وذلك قوله لداود عليه السلام يمشى تماماً ويقول صواباً.

وقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ (٥)،

وهو المؤمن المستكمل لوقارة الإيمان وبهائه (٦).

---

(٥) الأنعام (٦/١٥٤).

قال الإمام الطبرى: «أى ىتينا موسى الكتاب تماما لنعمتنا عليه فى قيامه بأمرنا ونهينا فإن إيتاء موسى الكتاب نعمة من الله عليه» أهـ. بتصرف من التفسير (١٢/٢٣٦).

(٦) فى نسخة أخرى [لوفارة الإيمان] وهو تصحيف من الناسخ.

(قال أبو بكر رضى الله عنه وددت أنى شعرة فى صدر مؤمن)(٧)
وقال تعالى حين أثنى على إبراهيم عليه السلام:

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨)،

وقال صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة تحت العرش القرآن له ظهر وبطن يحاج العباد والرحم تنادى صل من وصلنى واقطع من قطعنى، والأمانة».

وقال صلى الله عليه وسلم: «انطلق ثلاثة نفر فدخلوا غاراً فأرسل الله عليهم صخرة فانطبق الغار عليهم، فقال بعضهم لبعض: قد ترون ما نحن فيه، وما قد ابتلينا به فلينظر كل رجل منكم أفضل عمل عمله فيما بينه وبين ربه فليذكره ثم يدعو الله تعالى لعل الله يفرج عنا ما نحن فيه، ويلقى عنا هذه الصخرة».

فقال رجل منهم: اللهم إنك تعلم أنه كانت لى بنت عم وكانت من أحب الناس إلىّ فطلبت منها نفسها فأبت على إلا أن أعطيها مائة دينار فجمعتها من حسى ونسى حتى جئتها بها فدفعتها إليها فلما قعدت منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت، وبكت فقالت: يا عبدالله اتق الله ولا تفتح هذا الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها وتركت الدنانير لها من مخافتك، اللهم إن كنت تعلم أنى إنما تركتها، وتركت الدنانير لها من مخافتك فافرج لنا من هذه الصخرة فرجة نرى منها السماء ففرج الله عنهم منها فرجة فنظروا إلى السماء.

---

(٧) هذا قول أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وهو المبشر بالجنة، فما بالك بنا، وبما نحن عليه الآن، نسأل الله اللطف والسلامة.
(٨) الصافات (١٣٢/٣٧).

وقال الثاني: اللهم إنك تعلم إنه كان لى أبوان، وكانت لى صبية صغار فكنت أرعى على أبوى، وكنت أجيء بالحلاب فأبدأ بأبوى فأسقيها ثم أجيء بفضلها[٩] على الصبية فأسقيهم وإنى جئت ذات ليلة بالحلاب فوجدت أبوى نائمين، والصبية يتضاغون من الجوع فلم أزل بهم حتى ناموا ثم قمت بالحلاب على أبوى ليلتى حتى قاما وشربا ثم جئت بفضلها إلى الصبية فأسقيتهم، اللهم إن كنت تعلم أنى إنما فعلت ذلك من مخافتك فافرج عنا منها فرجة، ففرج الله عنهم منها فرجة.

وقال الثالث: اللهم إنك تعلم إنه كان لى أجير يعمل عندى فأعطيته أجره فغمضه[١٠] وذهب وتركه فعملت له بأجره حتى صار له بقر وغنم ثم أتانى بعد حين يطلب أجره فقلت له دونك هذه البقر والغنم وراعيها فخذها وهى لك، فانطلق فأخذها اللهم إن كنت تعلم أنى إنما فعلت ذلك من مخافتك فألقها عنا فألقى الله عنهم فخرجوا يمشون »[١١].

وعن عطاء قال: كان رجل من بنى إسرائيل له مكان من الملوك ليس منهم ملك يموت فيخلفه ملك إلا أنزله منه بمنزلته من الملك الأول، فبعث على بنى إسرائيل ملك صالح دعا الناس إلى الحقوق، والمظالم فارتحلت الأحياء إليه حتّى حتّى ليس منهم أحد إلا وهو ينظر فى شأنه، ومن كانت له مظلمة يرد عليه مظلمته، ومن كان له حق أنصفه من حقه، ومن كانت له حاجة قضى له حاجته حتى ارتحل حى الفتى وارتحل هو فيهم وهم يظنون أن الملك سينزله منه منزلته من الملوك قبله، فدخل على الملك بعض قومه فقضى حوائجهم ورد عليهم مظالمهم حتى

(٩) الفضل: الزيادة.
(١٠) فى نسخة أخرى [فغمصه] وهو تصحيف من الناسخ.
(١١) الحديث متفق عليه رواه البخارى ومسلم.

دخل الفتى فكلمه بمثل ما كان يكلم به الملوك قبله فيعجبهم ويقربونه فقال له الملك: أولا تتقى الله وتؤدى الأمانة قال: أية أمانة فأخذ رجل من حرسته بيده فأخرجه فانصرف إلى قومه فقال: لعل بعضكم سبقنى عند الملك فحلفوا له فصدقهم فانصرف إلى أهله فمات ذلك الملك، وبعث عليهم ملك صالح فدعا الناس إلى ما دعاهم إليه الملك قبله فارتحل الناس إليه فارتحل الفتى مع حية، فلما دخلوا عليه كلمه الفتى بالكلام الذى يكلم به الملوك قبله فيقربونه فقال له الملك: أولا تتقى الله وتؤدى حق الأمانة فقال أية أمانة فأخذه رجل من حرسته بيده، فأخرج فانصرف إلى قومه فقال: لعل بعضكم سبقنى عند الملك فحلفوا له فصدقهم، فانصرفوا وانصرف الفتى إلى أهله فقال: لا أحسب هذا إلا لما كنت أصبت مما لا يصلح لى، فوضع يده اليمنى على اليسرى ثم قال: اللهم إنى أبايعك على أن لا أسأل أحداً شيئاً أبداً فمكث بذلك ثم قال: لا حاجة لى بقرب الناس، ومخالطتهم فانطلق إلى برية فتعبد فيها، وتخرق عنه ثيابه وصار كهيئة المسمار المحترق، وجعل يأكل من نبات الأرض فبينا هو على ذلك إذ هو بشيخين بين أيديهما طعام يأكلانه فتعرض لهما فرفعا رؤسهما ونظرا إليه حتى إذا علما أنه قد علم أنهما قد نظرا إليه أكبا على طعامهما ثم رفعا رؤسهما فدعواه فأقبل فإذا هما يأكلان خبز شعير فنظرا إليه ثم قالا: أجلس فجلس، ثم مد يده إلى كسرة فأمسكاها فنظرا إليه ثم أكبا على طعامهما ثم قالا: كل فكبر فأمسكا بيده، وقالا: لم كبرت على طعامنا قال: إنى كنت حلفت أن لا أسأل أحداً شيئاً فلولا أنكما قلتما كل لم أتناول طعامكما قالا: أو لا تتقى الله، وتؤدى الأمانة قال: وأية أمانة فوالله ما أخرجنى من الناس إلا هذه الكلمة، ولا لقيت ما تريان إلا لها، قالا: اشرف هذا الشرف فانظر ما ترى وراءه ثم ارجع إلينا فأشرف ثم رجع إليهما فقال: رأيت خمسمائة ضأنة أو ستمائة لم أر مثلها حسنا جميعاً قالا: أتأخذها بأمانة

الله على أن تؤدها (١٢) إلينا إذا نحن سألناكها صحاحاً شق الشعرة شطرين قال: نعم فدفعا إليه هذا الغنم وانطلقا فنمت وبارك الله فيها فنزل قرية من القرى، وباع منها فاشترى منها رعاء، فجعلت ترعى جناب القرية، وتأوى إليها فكثرت، ونمت وبارك الله وجعل لا يبيع منها فيتخذ صنفاً من أصناف الأموال إلا بارك الله فيها، ونما فتزوج النساء، واتخذ السرارى، وكثر له الولد.

وكان فى ذلك رجلاً صالحاً يقرى الضيف (١٣) وينول ابن السبيل، ويعطى السائل فبينا هم على ذلك وقد أتى على ذلك سنون إذ هو بشيخين، يقرعان عليه باب داره فنادى غلامه فقال: انظر من يقرع باب الدار فخرج غلامه فإذا هو بشيخين قال: ما حاجتكما؟ قالا: حاجتنا إلى سيدك فرجع إلى سيده فأخبره قال: انطلق بهما ففرغ لهما بيتاً فى ناحية الدار ثم افرشهما واتحفهما وأطعمهما واسقهما فليبيتا بخير ثم ليغدوا لحاجتهما، وهو يحسب أنه كان كمن يضيف.

فرجع الغلام إليهما فقال: إن سيدى أمرنى أن أفرغ لكما بيتاً وأن أفرشكما وأتحفكما وأطعمكما وأسقيكما فتبيتا بخير ثم تعودا لحاجتكما قالا: هذا مكاننا أو يأذن لنا عليه قال: وهى ليلة قرة باردة شديدة البرد فرجع إلى سيده فأخبره فقال: قل لهما إنى قد وضعت ثيابى، وخلوت بأهلى فبيتا ثم أغدوا على حاجتكما فرجع إليهما فأخبرهما قالا: هذا مكاننا أو يأذن لنا فغضب العبد فأغلق الباب دونهما وانصرف إلى مضجعه فلما أصبح دعا غلامه فقال: ويحك ما فعل ضيفانى قال: عرضت عليهما ما أمرتنى فأبيا فأغلقت الباب، وانصرفت قال: ويحك

(١٢) فى نسخة [على أن تردها] وهو تحريف من الناسخ.
(١٣) يقرى الضيوف: يؤدى لهم واجب الضيافة.

تركت ضيفي في سقيع بغير عشاء لأجرم لأفعلن بك، ولأفعلن إيذن لهما فدخلا عليه، فجعل يعتذر إليهما أتيتماني في ساعة لا يدخل على فيها فأمرت الغلام بقراكما فغمضتما ذلك فذكر لى أنه أغلق الباب دونكما لأجرم لأفعلن به ولأفعلن قالا: إن لنا حاجة فأخلنا لحاجتنا فأمر من حوله فارتفع حتى إذا خلوا به قالا: هل تعرفنا قال: لا قالا: أتذكر شيخين أتيتهما ببرية كذا وكذا وبين أيديهما خبز شعير يأكلانه وأنت كالمسمار المحترق.

قال: أذكر قالا: فما فعلت الغنم قال: فعلت خيراً، كثرت ونمت واتخذت أصناف الأموال قالا: ألست قد عرفت شرطنا عليك، قال: بلى صحاحا بشطرين قالا: فادع لنا بمالنا قال: فدعا بدواوينه وإذا الأموال أكثر من أن تحصى إلا بكتاب فدعا بالغنم قسمت شطرين ثم دعا بالأبل والبقر، وسائر الأموال. فقسمت شطرين فقال: قد فعلت، ووفيت لكما بالشرط قالا: ائتينا بأمهات أولادك قال: وما لكما وأمهات أولادى نساء قد ولدن وعتقن قالا: إن أثمانهن من مالنا قال: لا أفعل، قالا اتق الله، وأد الأمانة تعلم أنا لسنا نأخذك بسلطان وليس لنا عليك بينة وإنك إن تجحد يصدقك الناس، ويكذبوننا.

قال: فبات يتسلق على فراشه ويقول أيتها النفس أصبرى، واذكرى الحال الذى كنت عليه صدقاً لعمرى أن أمهات أولادى والنفقة عليهن لمن مالهما فلما أصبح قال: أدعوا بأمهات أولادى فدعا بهن فقسمهن شطرين فجعل يبكى بعضهم إلى بعض قال: قد فعلت فقالا: أتينا بنسائك قال: وما شأن نسائى بنات قوم أحرار فأما أمهات أولادى فهن من مالكما قالا: إن صدقاتهن، والنفقة عليهن من مالنا، قال: لا أفعل قالا: اتق الله وأد الأمانة تعلم أنا لسنا نأخذك بسلطان، وليست لنا عليك بينة وإنك إن تجحد يصدقك الناس، ويكذبوننا قال: يا نفس

اذكرى الحال الذى أتيتها عليه صدقاتهن عليهن والنفقة عليهن من مالها، أيتونى بنسائى فأتى بهن فقسمهن شطرين قال: قد فعلت قالا: أيتنا بولدك قال: وما شأن ولدى أما أمهات أولادى فالثمن والنفقة من مالكما وأما النساء فالصدقات، والنفقة من مالكما وأما ولدى فخرجوا من صلبى فلم أكن لأفعلن قالا: أتق الله وأد الأمانة تعلم أنا لسنا نأخذك بسلطان، وليست لنا عليك حجة وإنك أن تجحد يصدقك الناس ويكذبوننا قال: أيها النفس، أصبرى واذكرى الحال الذى أتيتها عليه، أرأيت كسوة الولد والنفقة عليهم أليست من مالها أيتونى ببنى فأتى بهم فقسموا شطرين فإذا منهم غلام لا يعدل به أحد من الولد قال: قد قسمت وهذا غلام فإن أحببتما أن تقوما قيمته ثم أرد عليكما الشطر فعلت قالا: لا نريد أن تشترى منا شيئاً قال: فهبا لى نصيبكما، قالا: ما نريد أن نعطى أحداً من حقنا شيئاً قال: فأنا أهب لكما نصيبى، قالا: ما نريد أن تكون لك عندنا منة قال: فماذا؟ قالا: قد عرفت شرطنا عليك صحاحا كشق الشعرة قال: أأشقه قالا: أنت أعلم، قال: والله لا أفعل هذا أبداً، قالا: اتق الله وأد الأمانة تعلم، أنا لا نأخذك بسلطان وليست لنا عليك بينة وإنك إن تجحد يصدقك الناس ويكذبوننا قال: يا نفس أصبرى، واذكرى الحال الذى أتيتها عليه قربوا المنشار، فأتى بالمنشار قال: خذا بناحيته، وآخذ بناحيته قالا: نعم ذاك لك قال: فأخذا بناحية المنشار، وأخذ بناحيته ثم أدركته رقة الوالد فقال: ابدئا فأشعراه به، قالا: أنت أحق من بدأ قال: إنى لأجد له ما لا تجدان فاشعراه لى قالا: أنت أحق من بدأ فتقاعس (١٤) فى المنشار ليأشره ورفعاه قالا: ان كنت لفاعلا قال: نعم والله حتى أوفى لله بما جعله له وأؤدى الأمانة.

---

(١٤) تقاعس: تباطأ.

قالا : اذهب فلك أهلك ، وولدك ، ومالك ، وبارك الله لك لسنا من البشر. كان هذا بلاء قضاء الله عليك فبررت ، وأوفيت ونحن منعنا ملكى بنى إسرائيل أن يعطياك شيئاً لما قضاه الله عليك من البلاء فاطمئن فى مالك .

وعن عطاء قال : لما أعتق لقمان أعطاه مولاه مالاً ، فبارك الله للقمان فى ذلك المال فكثر ونما ، وجعل لا يأتيه أحد يستقرضه قرضاً إلا أقرضه لا يأخذ عليه حميلاً ، ولا رهناً إلا أنه إذا أراد أن يدفع إليه المال قال : تأخذه بأمانة الله لتؤدينه إلىّ عام قابل ، فإذا قال : نعم دفعه إليه ، فجعل الناس يأخذون منه ويؤدون فذكر فعل لقمان لرجل يسكن ساحل البحر تجارته فى البحر لص ملط فاجر ، فقال : والله إن رأيت مالاً أضيع من هذا ما يأخذ منى رهناً ، ولا حميلاً ، والله لأتين هذا الرجل ، ولأقتطعن من ماله مالاً عظيماً فأقبل إليه فقال : يا لقمان : ذكر لى معروفك وأنا رجل أسكن كذا وكذا من ساحل البحر ، وتجارتى فيه فإن رأيت أن تقرضنى قرضاً أصبت فيه أؤديه إليك فعلت .

قال : نعم ، وكم تريد فسمى له فأكثر قال : نعم أما أنى لست أسألك حميلاً ، ولا آخذ منك رهناً أتأخذه بأمانة الله أن تؤديه إلى عام قابل فى هذا اليوم قال : نعم فدفع إليه ما سمى ، وكتب عنده اسمه وإسم أبيه ومنزله الذى سمى فذهب بالمال فوضع يده فيه ، وخلطه بماله وعزم أن لا يؤديه إليه وأدرك ابن لقمان فقال : يا أبت أنى أريد أرض كذا وكذا وإن رأيت أن تأذن لى فعلت .

قال : نعم يا بنى . اذهب فاحمل على دوابك ، وشد عليك ثيابك ثم أئتنى أوصيك بوصيتى ، ففعل ذلك ابنه ثم أتاه فقال : قد فعلت يا أبت قد حملت على ظهرى وشددت على ثيابى فأوصنى قال : نعم يا بنى إن

فى طريقك مفازة فأبكر فيها الدلجة فإنه ستعرض لك شجرة واسعة الظل، تحتها عين فلا أعلمن ما قربت الشجرة، ولا نزلت تحتها يا بنى إنى أرجو أن يخرجك الله منها سالماً فتأتى حتّى بنى فلان، وهم لنا أصدقاء قد أعلم أنهم سيكرمونك يا بنى وفيهم امرأة شابة كريمة الحسب، كثيرة المال، وقد أعلم أنهم سيعرضونها عليك، فلا أعلمن نكحتها ولا ضمنت لشىء من أمرها يا بنى أرجو أن يسلمك الله منها وأن رجلاً يسكن ساحل كذا وكذا وقد أتانى منذ حين فاقتطع من مالى كذا وكذا، وهذا اسمه واسم أبيه ومنزله، فأته فاقبض ما عليه ولا تبت عنده ليلة يا بنى انظر الذى أوصيك به فافعله.

قال الفتى: نعم قال: يا بنى إن من أفضل ما أوصيك به إن صحبك فى طريقك هذا رجل أكبر منك فلا تعصه حتى ترجع إلىّ قال: أفعل، فسار ابن لقمان حتى انتهى إلى المفازة (١٥) بكر فيها الدلجة، فإذا هو أبعد من ذلك، واستحق فقام قائم الظهيرة، واشتد الحر وهو فى وسط منها فبينا هو يسير إذ عرضت له الشجرة فلما نظر إليها عرفها بنعت أبيه فإذا تحتها شيخ جالس، فعدل إليها فقال له الشيخ: ما الذى تريد يا فتى قال: أريد أن أسير قال: فلا تفعل فقد قام قائم الظهيرة، وتوقد الحر، ولكن انزل فاستظل فى ظل هذه الشجرة، وضع عن دوابك واشرب من الماء فإذا أبردت فارتحل.

قال الفتى فى نفسه: هذه الشجرة التى نهانى عنها أبى ما أريد أن أفعل قال: أقسمت عليك لتنزلن قال: ووافق ذلك منه هواه، وذكر أن أباه قال: إن صحبك رجل هو أكبر منك، فلا تعصه فنزل الفتى فوضع عن دوابه، واستظل، وأكل وشرب، ثم رقد وأبى الشيخ أن ينام، فلما

(١٥) المفازة: الصحراء لا ماء فيها ولا حياة، وجمعها مفاوز.

استلقى ابن لقمان انحطت حية من رأس الشجرة فلما نظر إليها الشيخ رماها فقتلها ثم قطع رأسها، فجعله فى قرابه، وغيب لحمها حتى إذا برد النهار وأيقظ ابن لقمان، فقام فلم يستنكر من نفسه شيئاً فحمل على دوابه وقال له الشيخ أين تريد قال: أريد أرض كذا وكذا قال: وأنا أريدها فهل لك فى صحابتى قال: ابن لقمان أحب صاحب فلما نزلوا بالحى الذى سماهم له لقمان قالوا: أين لقمان فأنزلوه وأكرموه فبينا هم يأكلون عنده ويشربون إذ قال له رجل منهم يا ابن لقمان: هل لك فى امرأة شابة كريمة الحسب، كثيرة المال تنكحها.

قال ابن لقمان فى نفسه هذه التى منعنيها أبى مالى حاجة بالنكاح، قال الشيخ: ما تعرضون عليه قالوا: نعرض عليه امرأة شابة جميلة كبيرة الحسب، كثيرة المال. قال الشيخ أشباب وجمال، ومال ما يترك هذا أحد أنكحها.

قال: ابن لقمان ما أريد النكاح يا عم وإنى لعلى رحلى قال: أقسمت عليك لتفعلن فوافق ذلك منه هواه وذكر الذى عوفى فى الشجرة وإن أباه قال: إن صحبت رجلا هو أكبر منك فلا تعصه، فنكحها فلما ملك عصمتها أتاه بعض صديق أبيه قال: ما صنعت؟ هذه امرأة قد نكحت تسعة ليس منهم رجل إلا يصبح ميتا على فراشها وانت العاشر فدخل الشيخ على ابن لقمان، وهو مهموم حزين قال: ما يحزنك قال: المرأة التى أمرتنى أن أنكحها نكحت قبلى تسعة ليس منهم رجل إلا يصبح ميتا على فراشها، وأنا العاشر وأنا أكره الموت، قال: انظر الذى آمرك به فافعله فإذا أدخلت عليك فلا تقربها حتى تأتينى فاقبلوا بها إليه حتى أدخلوها عليه، وكان من خلق أهلها وغلمانها أنها إذا أدخلوها على الزوج حفوا بالبيت، فإذا صاح كانت علامة موته دخلوا فاحتملوا صاحبتهم وما معها وتركوه فحفوا بالبيت كما كانوا يصنعون.

وقال ابن لقمان للمرأة إن لى حاجة فخرج إلى الشيخ فقال المرأة فى البيت وأنا عندك، قال: أيتنى بجمرة فيها جمر فأتاه بها ابن لقمان فعمد إلى(١٦) رأس الحية التى قتل عند الشجرة فجعلها على المجمرة ثم قال: انطلق بها فاجعلها تحت المرأة فإذا برد فأتنى بها ففعل بها ابن لقمان، فقال: اجعلى هذا تحتك ففعلت فلما طفىء الجمرة أخرجها فذهب ابن لقمان بها إلى الشيخ فإذا شبه الدودة محترقة فى الجمرة فقال: اذهب إلى أهلك فلا بأس عليك فإن هذه التى كانت تقتل الرجال، فانطلق إلى أهله فأصبح قرير عين وأصبحت فرحة وتفرق الذين كانوا حفوا بالبيت.

فلما أراد ابن لقمان أن يرتحل قال له الشيخ أين تريد قال: غريما لنا فى ساحل بحر كذا وكذا أريد أن آتيه فأقبض حقنا قبله.

قال: فهل لك فى صحابتى قال: أحب صاحب فانطلق معه حتى إذا قدما الساحل سألا عن غريمهما فقال أهل البلد ذاك لص ملط فاجر، وكان قد عمد إلى قصر فبناه على ساحل البحر يمد البحر حين يمد فلا يترك حول القصر شيئا إلا احتمله لا يخلص إلى القصر ولا إلى من فيه فأتاه ابن لقمان، وقال له: حقنا عليك فقال: مرحبا بيتا الليله ثم اغدوا على ما لكما فقال ابن لقمان فى نفسه: هذا الذى منعنى عنه أبى ما أريد أن أبيت الليلة.

قال الشيخ: ما تعرض عليه؟ قال: أعرض عليكما أن تبيتا الليلة ثم تغدوا على ما لكما قال: افعل يا بنى قال: ما أريد ذاك قال: أقسمت عليك لتفعلن قد أنسأته أطول من ليلة فلا تنسئة ليلة فوافق ابن لقمان هواه وذكر الذى عوفى من الشجرة والمرأة فباتا فلما فرغ من عشائهما عمد

---

(١٦) عمد إلى الشيء: قصده.

إلى وطاء تحت القصر ففرش لهما على سريرين وقد علم أن الماء إذا جاء احتملهما وعمد إلى ابن له فاضجعه على سرير فوقهما فى مكان قد علم أن الماء لا يبلغه فرقد ابن لقمان، وأبى الشيخ أن ينام، فلما كان فى جوف الليل أقبل البحر فلما رآه الشيخ أيقظ ابن لقمان فاحتملا سريرهما فجعلاه مكان سرير الغلام، وحملا سرير الغلام وهو نائم فوضعاه موضع سريرهما وأقبل البحر فاحتمل الغلام بسريره فذهب به ولم يخلص إليهما فلما أصبحا اطلع صاحب القصر ينظر ما فعل غريماه، فإذا هما نائمان وإذا ابنه قد ذهب، فناداهما فقال: مكرت بكما وحاق بى المكر فاغدوا على ما لكما فغدوا على ما لهما فانتقداه ثم انصرفا إلى المرأة فأمرها ابن لقمان بالرحيل فارتحلت، فإذا اكثر مال قومها لها مما كانت تصيب من الأزواج، فارتحلت بمال عظيم من أصناف المال واقبل معه الشيخ حتى إذا شارفا منزل لقمان قال الشيخ لابن لقمان أى صاحب وجدتنى فى سفرك قال: خير صاحب كف الله بك ورزق.

قال: أفمالى فيما أصبت نصيب؟ قال: بلى نصفه لك طيبة لك به نفسى، قال: فإما أن تقسم وتخيرنى وإما أن أقسم وأخيرك قال ابن لقمان لا بل أقسم وخيرنى فعرف الشيخ هوى ابن لقمان فى المرأة فعمد إليها وإلى شىء يسير من مالها فعزله وعمد إلى عظيم المال فتركه ثم قال لابن لقمان: اختر قال ابن لقمان أما إنك عدلت وانصفت حين خيرت فإن كنت فعلت ما فعلت اختار المرأة وما معها.

فارتحل ابن لقمان بالمرأة وما معها وقام الشيخ فى عظيم المال، فلما سار ابن لقمان وكاد أن يتغيب عن الشيخ أدركه فقال: أعطيتنى مالك فم ذاك لعلك تخوفت منى شيئا قال ابن لقمان وما عسيت أن أتخوف منك، ولكن لا يذكر صاحب من صاحب أفضل مما أذكر منك وسألتنى قال: أتعطنى ذاك طيبة به نفسك قال: نعم قال: فاذهب فلك أهلك

ومالك بارك الله فيك لست من البشر أنا أمانة أبيك الذى كان يأتمن بها الناس بعثنى الله لأصحبك فى طريقك ثم أردك إلى أبيك صالحا فاطمئن فى مالك مباركا لك فيه فصاحب الأمانة المحافظ عليها فى أمان الله حيث ما انقلب .

وقال صلى الله عليه وسلم : «أول ما يرفع من الناس الأمانة» فالأمانة من الإيمان بمنزلة القلب من الجسد فإذا مال القلب إلى شىء مال الجسد إلى ما مال إليه القلب فالإيمان يسدد عقد القلب ويؤكد عزمه ويقوى ضميره والأمانة فى الإيمان بمنزلة العماد فإذا وهن العماد ، يتضع صاحبه بسقم الإيمان وذهب بقوته فإذا جاءت الخيانة رفعت الأمانة لأنها ضدها ، ولن تجتمعا وإذا رفعت الأمانة سقم الإيمان .

قال عليه السلام : «يا سلمان قال اللهم إنى أسألك صحة فى إيمان ، وإيمانا فى حسن خلق ، ونجاحا يتبعه فلاح» .

والإيمان عطية من المنة والأمانة فى الإيمان هدية من الجود فإذا ضاعت الهدية ذهب بها العطية افتقد صاحبه زينته وحلاوته ولذاذته وذبلت النفس واستراحت وإذا ذهب بها الشىء ، وثقلت عن المحافظة عليها وذهب قوة القلب لذبول النفس ، وثقلها فحلت الخيانة محلها .

والخيانة فى اللغة كل شىء يعمل من وراء وهى مكر النفس فإنها لما لم تقدر على أن تستقبل القلب صبرا بالذى هويت من المعصية أسرته من القلب ، والتمست الغرة والغفلة من القلب فأوجدته اللذة التى وجدت فاستولت على القلب بسلطان اللذة فى وقت غفلته عن الله تعالى وانقطاع المدد من رأفة الله تعالى واقباله عليه بأسباب العصمة فامكنته أسره إياها لأن القلب أضعف ما يكون فى وقت الغفلة فتوجده شرا ومكرا تخادعه بها وتزين له وتموه عليه .

والأمانة قرينها اليقين، وإنما ضاعت من قبل النفس، وليس شيء أعز من اليقين ولا أقل منه، وإذا عز اليقين، وقل كثر الشك، وتذبذب القلب وارتحلت الأمانة إلى المبدأ، وحلت الخيانة محلها فكيف ينتفع العبد بإيمان فى جوفه الخيانة مكان الأمانة كما كان اليقين علاوته فما ظنك بشيء ذهب علاوته وبجسد قطع رأسه أليس قد ذهبت حواسه فلا يبصر، ولا يسمع ولا ينطق، ولا يد الروائح فكذا من افتقد اليقين لم يسمع عن الله ما خاطبه، ولا أبصر ما كشف له وأراه، ولا ينطق عن الله بحكمته، ولا وجد الريح الطيب الذى طيبه الله به، وبذهاب اليقين يموت القلب عن الله تعالى، ولم يمت عن توحيده، ولذلك تجده مخلطا يعمل عمل الموحدين، والمشركين، والموقنين والشاكين والجادين، واللاعبين يعمل عمل الجد بقوة اليقين الذى فى التوحيد؛ فأما اليقين الذى هو عماد القلب وهو الأمانة فى جوف الإيمان فقد فاته فلذلك صار مخلطا.

قال صلى الله عليه وسلم: «خير ما ألقى فى القلب اليقين» (١٧) وقال صلى الله عليه وسلم: «ان عيسى كان يمشى على الماء ولو ازداد يقينا لمشى فى الهواء».

قال: وكان عيسى عليه السلام يقول: ما أنزل فى الأرض شيء أقل من اليقين. وأتى داود عليه السلام بصحيفة مختومة بالذهب من السماء فيها عشر مسائل وأمر أن يسأل ولده منها فمن أجابه بما فيها فهو الخليفة فدعا سليمان من بين أولاده فسأله أى شيء أقل فى الأرض؟ قال: اليقين قال: فأى شيء أكثر؟ قال: الشك قال: فأى شيء آنس؟ قال: الروح فى الجسد، قال: فأى شيء أوحش؟ قال: الجسد إذا خرج منه الروح قال: فأى شيء أحسن؟ قال: الإيمان بعد الكفر

(١٧) لأن اليقين مناط الإيمان.

قال: فأى شىء أقبح؟ قال: الكفر بعد الإيمان قال: فأىّ شىء أمر؟ قال: الفقر قال: فأى شىء أقرب؟ قال: الآخرة إذ هوآت قال: فأى شىء أبعد؟ قال: الدنيا إذا زالت عنك قال: فأى شىء أشر؟ قال: المرأة السوء. ففك داود خاتم الصحيفة فنظر فإذا هو بتفسيرها فى الكتاب لم يغادر منه حرفا فاستخلفه.

وقال صلى الله عليه وسلم: «سلوا الله اليقين والعافية فإن الناس لم يعطوا شيئا خيرا من اليقين والعافية».

ومر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بمصاب فقرأ عليه فبرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما قرأت قال: قرأت أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا (١٨) الآية، فقال عليه السلام لو قرأها موقن على جبل لزال». فأوفر الناس حظا من اليقين أوفرهم حظا من الأمانة وأشدهم له حفظا وحراسة.

قال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن العبد حتى يأمن الناس بوائقه» (١٩) وقال عليه السلام: «المؤمن الذى يأمنه الناس». وقال عليه السلام: «المؤمن فى الدنيا على ثلاثة أجزاء الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله (٢٠)، ثم الذى يأمنه الناس على أموالهم، وأنفسهم ثم الذى إذا أشرف على طمع تركه لله تعالى»، فهذه ثلاثة للإيمان.

---

(١٨) المؤمنون (١١٥/٢٣).

(١٩) البوائق: جمع بائقة وهى الداهية، والشر. لأن حسن الجوار تترتب عليه مصالح الأمة، وغيره يترتب عليه الفساد والتدابر والقطيعة، والأمة المسلمة كالجسد الواحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

(٢٠) الحجرات (١٥/٤٩).

المنزلة الأولى نزلها صنف آمنوا بالله إيمان طمأنينة لا ريب فيه، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله بأداء الفرائض، واجتناب المحارم إلا أن الرغبة فيهم باقية ومن كانت الرغبة فيهم باقية فالخيانة فيهم كائنة، فإن الله تعالى أعطى الخلق الأرواح بما فيها من الحياة عارية وأعطاهم الدنيا عارية ووضعها ممرا للعباد، ومتزوداً فمن اشتغل قلبه بالتمتع صيره كالمستقر، وإنما جعلها للزوال، والانتقال عنها.

فمن تشبث بالحياة ولا يريد مفارقتها وفر من الموت فقد خان لأن العارية إذا امتنع صاحبها عن الخروج منها إلى مالكها قهر وسلب وسمى بامتناعه خائنا فكذا الدنيا وضعت ممرا ومتزوداً فمن صيرها مستقرا سلب يوم الخروج منها، وهو خائن، وهو مع هذه الخيانة يقوم بأداء الفرائض بلا توقير وباجتناب المحارم بلا تقوى وصيانة إنما التقوى إذا خرجت شهوة تلك الأشياء من قلبه وإنما اجتنب من خوف العقاب غدا من غير أن يلتفت إلى صيانة المعرفة التى فى قلوبهم، فإن قال له علام الغيوب غدا إن معرفتى كانت خلعتى على قلبك فاجتنبت محارمى شفقة على جلدك ولحمك، ولم تلتفت إلى خلعتى فتخاف عليها الدنس، والغبار وقد عظم عندك شأن جسدك وجل قدره فباليت به واجتنبت المحارم توقيا عليه لا على خلعتى التى بها طاب جسدك فماذا يقول هذا العبد فهذا من دناءة المنزلة.

المنزلة الثانية من الإيمان صنف زالت عنهم رغبتهم فاشتاقوا إلى دار الله فاطمأنت نفوسهم، وطابت أرواحهم، فأمنهم الخلق على أموالهم وأنفسهم ولم يأمنوا على أديانهم فلا تقبل القلوب منهم مواعظهم وإشارتهم إلى الله وإنما أمنهم الناس للأمانة التى فى جوف إيمانهم ولأن أرواحهم يتعارفون بما تضمنه من روح الإيمان فإذا عاينوا الحق فى فعل عامل به، استنارت له قلوبهم وعرفوا أنه الحق فأمنت قلوب الخلق، واطمأنت

نفوسهم إلى ما عندهم قد أمنوا على النفوس والأموال، ولم يأمنوا منه على الدين.

والمنزلة الثالثة من الإيمان فهم قوم بلغوا ذروة الإيمان، وسماه عليه السلام ذروة لأنه شبه الإيمان بالجبل، والنفس كريشة طياشة تهب بها الريح فكلما كان الجبل، أثقل كانت الريشة أسكن حتى إذا بلغ العبد ذروة الإيمان كان كأنه على قلة (٢١) جبل، والنفس تحته مضغوطة لا يقدر على التحرك فلا يزال كذلك تحت أثقال المعرفة حتى تصفو من عصارتها، وتسيل منها تلك الفضول، وتيبس عن رطوبة الشهوات كما يبس الكسب الذى قد عصر تحت الأثقال حتى سال دهنه، وبقى ثقله يابسا، فعند ذلك تجدها قد ماتت شهواتها، وخمدت نيرانها خمودا افتقد حرها.

فهذا الذى قال صلى الله عليه وسلم: «إذا اشرف على طمع تركه لله».

وإنما قدر على ذلك بقوة ما فيه من الغنى بالله، فالغنى بالله فى ذروة الجبل، وهو أعلى الإيمان أولئك الذين يأمنهم الخلق على دينهم، فتقبل القلوب مواعظم، وإشارتهم إلى الله تعالى لأنهم يسيرون إلى الله وقلوبهم بين يدى نور الإيمان، ووقاره فإذا نطق أحدهم استنارت القلوب لنور مقالته وإذا شخصت أبصارهم إليه توقرت النفوس لوقاره، وهدأت الأركان، وسكنت منهم الأصوات.

وقال عليه السلام: «لما صعدت إلى السماء السابعة إذ هو برجل أشمط (٢٢) جالس على كرسى عند باب الجنة، وعنده قوم جلوس،

(٢١) قلة الجبل: شرفه وأعلاه، ومكة كل شيء أعلاه.

(٢٢) أشمط: من الشَّمَط بفتحتين، وهو بياض شعر الرأس يخالطه سواده، الرجل أشمط، والقوم شمطان مثل أسود وسودان.

بيض الوجوه، أمثال القراطيس، وقوم فى ألوانهم شىء ثم دخلوا نهرا آخر فخرجوا، وقد خلصت ألوانهم ثم دخلوا نهرا آخر فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم فقلت يا جبريل من هذا الأشمط ومن هؤلاء ومن هؤلاء وما هذه الأنهار التى دخلوها؟» قال عليه السلام: «هذا أبوك إبراهيم أول من شمط على الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم (٢٣) وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فقد خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم وأما الأنهار فأدناها رحمة الله والثانى نعمة الله والثالث فسقاهم ربهم شرابا طهورا». وقوله: ولا دين لمن لا عهد له فالدين اسم جامع منتظم لجميع الإسلام إلا أن الإسلام هو تسليم النفس إلى الله عبودة، وترجمة الدين هو الخضوع وأن تجعل نفسك دون أمره ومن قبله فشرطه مع الله أن يكون كل أمره غالبا على قلبه ونفسه وشهواته، وإرادته كلها فمن وفى بها فى جميع الأوقات فهو صادق مطيع قد وفى لله بما قبل منه ومن وفى بعضا وضيع بعضا فدينه منقوص، وعلى حسب ذلك يقبض (٢٤) الجزاء من ديان يوم الدين يوم ليس فيه لأحد أمر يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله وأما العهد فهو تذكرة الله الذى وضعه فيما بينه وبين العباد يوم أخذهم للعبودة قبل خلق السموات والأرض، فلما خرجوا إلى الدنيا نسيه الأعداء وحفظه الموحدون ثم غلب الموحدين غفلة على ذلك الحفظ فوهلوا فأوفرهم حظا من الحفظ، أوفرهم حظا من الذكر.

فالأعداء فى غفلة ومن الغلفة النسيان والأحباب فى غفلة ومن الغفلة الوهلة، ومن الوهلة الخطايا، ونقض العهد، ودروس ذكر العهد

---

(٢٣) الظلم فى الآية هو الشرك.

(٢٤) فى نسخة أخرى [يقيض] وهذا تصحيف من الناسخ.

فأوفرهم حظا من العهد أوفرهم حظا من الدين، وأشدهم انقيادا فالكافر ينسى، والمؤمن يغفل فالكافر ناس لربه، ونفسه من أين وإلى أين.

والمؤمن يتردد بين الغفلات والذكر، فالمؤمن أمين الله فى أرضه ائتمنه على معرفته، ووضعه فى قلبه وجعل قلبه خزانة له، وأمنه عليها بما فيها من كنور المعرفة، ووكله بحراستها من النفس الأمارة بالسوء، ومن العدو الحاسد(٢٥) القائم فى ظل النفس يرمى بالشىء بعد الشىء إلى النفس ينتظر متى يفترص النفس فرصتها من القلب وليس أحد أعز على الملك ولا أصفى حباله من أمينه الذى ائتمنه على جميع الأشياء، فإذا قام العبد بحفظ الأمانة فهو أمين الله فى أرضه وإذا وفى بالقيام وصدق الله فيه فعين الله ترعاه وهو المستحق لاسم الإيمان.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ (٢٦)

فهو واحد الله فى أرضه فى كل وقت وإنما سمى جبريل أمين الله قال تعالى:

﴿ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (٢٧)

فقال أهل التفسير حل من الأمانة محلا أن يدخل سبعين ألف حجاب من نور بغير إذن، وائتمنه الله على وحيه فبرز اسمه فى السموات بأنه أمين واستحق دخول الحجب، بلا إذن وفى كل حجاب سر، ولذلك تجد ملوك الدنيا لا يطلق الدخول لاحد بغير إذن متى شاء إلا لمن ائتمن على أسرار ما فى وراء الحجاب.

(٢٥) فى نسخة أخرى [ومن الغل والحسد].
(٢٦) الدخان (٥١/٤٤).
(٢٧) التكوير (٢١/٨١).

[الأصل الحادى والأربعون والمائتان فى فضيلة غض البصر]

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من نظر إلى محاسن امرأة فغض طرفه فى أول نظرة رزقه الله تعالى عبادة يجد حلاوتها فى قلبه» (١).

فمحاسن المرأة مجالس الشيطان وموضع زينته التى قال تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (٢)

فتلك الزينة يلقيها على المحاسن فإن وجد العبد فى النظرة على غفلة عملت الزينة التى بيده على عين الناظر عملا ينفذ إلى القلب فيأخذ القلب بمنزلة السهم المسموم إذا خلص إلى الجسد فقد سمه من طرف السهم فدب فى جميع الجسد فتلك الزينة التى بيد العود لها سم، فإذا ألقاها على محاسن المرأة فإنما يلقيها ليهيج نفوس الآدميين التى هى ساكنة.

فإذا نظرت العين وحظها من الدنيا زينة الأشياء وألوانها فإذا أخذت الزينة وألوانها على غفلة وتخطى إلى ما لم يؤذن له فى النظر إليها أوفيما أذن له، وهو غير ذاكر لله خلصت تلك الزينة التى بيد العدو إلى النفس فهيجتها فصارت بمنزلة السم يدب فى جميع الجسد، فإذا تأدت

---

(١) ولهذا الحديث معانٍ أخرى يتقوى بها.

(٢) الحجر (٣٩/١٥).

إلى القلب خالطت حلاوة الإيمان وحرارته فتكدر الإيمان، وانكسفت المعرفة، فصارت بمنزلة شمس صارت فى كسوف فعلق القلب بتلك النظرة بالمنظور إليها وصارت كجراحة مسمومة.

والذى حل بداود عليه السلام إنما كان من نظرة واحدة، والعبد أعطى جفون الناظرين حجة عليه وقطعا لعذره وإخراسا للسانه.

وفى الخبر أن الله تعالى يقول: (يا ابن آدم إن نازعتك عينك فأطبق فقد جعلت لها طبقا وإن نازعك لسانك فأطبق فقد أعطيتك طبقا، وإن نازعك فرجك فاطبق فقد أعطيتك طبقا) يريد به الفخذين فهذا من الله تأييد لعبده.

فإذا استقبل زينة الشيطان التى أعدها لغوايته بها بتأييده الذى أيده به جاءت العصمة بعد التأييد، وسكنت النفس، وبطل كيد العدو وأثابه الله فى عاجل الدنيا ثوابا إن رزقه عبادة يجد حلاوتها مع مايدخر له من ثواب الأجل. وفى الخبر ماترك العبد شيئا من الدنيا لله إلا أتاه الله خيرا منه وأفضل.

وقال تعالى فى قصة سليمان عليه السلام:

﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

إلى قوله

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (٣)

---

(٣) ص (٣٨/٤٠).
الزلفى: القربى وحسن المآب: حسن العاقبة والمصير.

أخرجت له خيول من البحر منقوشة ذوات أجنحة فشغله عن صلاة العصر حتى غربت الشمس فدخلت عليه حرقة الفوت، ووجد(٤) من ذلك وجدا شديدا فسخر له الريح ثوابا بالعاجلة ثم أعد له ثواب الأجل. فقال:

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (٣)

فمن غض بصره فقد رد حلاوة هاجت منه حين أحست نفسه بالنظرة الأولى التى كانت له فرد تلك الحلاوة على النفس، فرجعت النفس قهقرى على عقبها وبقيت خزانة الله مصونة فأعقبه الله تعالى فى عاجل دنياه بما صان خزانته فأهاج من الخزانة من شرارات المعرفة حلاوة عبادة طرية وخلصه من وبال النظرة وجعل تلك العبادة حصنه وتلك الحلاوة زاد قلبه، يقطع بها مسافة العبودة أيام الحياة وحلاوة العبادة تحفة من الله تعالى وأصلها من هيجان المعرفة.

فالعبادة كثيرة وحلاوته عزيزة لا تنال إلا من طريق التحف فهى زاد قلوب العابدين، وبالزاد يقطع الأسفار أسفار الملكوت قال عليه السلام: «أحب العيون إلى الله تعالى عينان: عين غضت عن محارم الله، وعين حرست فى سبيل الله».

وقال تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾ (٥)

فخرجت مخرج النصيحة والعطف، والتأييد وقال فى سائر الأشياء افعلوا ولا تفعلوا، وبين الأمر والقول بون بعيد فوجد السابق سبيلا إلى صفاء

---

(٤) وجد: حزن.

(٥) النور (٢٤/٣٠).

الانتهاء، والمقتصد سبيلا إلى الانتهاء مع التنازع.

قال تعالى:

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ (٦)

والمقتصد حظه منه ما يتخلص من خيانة العين، وما في الصدور باق، وكانت أم سلمة وميمونة رضى الله عنها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليه ابن أم مكتوم فقال عليه السلام: احتجبا منه فقالتا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا فقال صلى الله عليه وسلم أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه.

وقال تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ (٧)

ثم قال:

﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ (٨)

اعلم أن المبتغى منهم طهارة القلوب وإنما تطهر القلوب بحفظ الحواس، المؤدية الأخبار إلى الباطن، وقد حذر الله عباده شأن الزنا وعظمه وبين عقوبته وبين الرسول أن لكل جارحة منه حظا.

قال عليه السلام «العين تزنى واليد تزنى والرجل تزنى والسمع يزنى واللسان يزنى ويصدق ذلك كله ويكذبه الفرج».

---

(٦) غافر (٤٠/١٩)
قال قتادة: خائنة الأعين هى همزة بعينه، وإغماضه فيما يحب الله. راجع الطبرى (٢٤/٣٦) والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (١٥/٣٠٣).
(٧)، (٨) الأحزاب (٣٣/٥٣).

فتكذيب الفرج إياهن أن لا يوجب حدا فأما الأدناس والآثام فقد أصابت الجوارح، وحلت به. قال خالد بن عمران: لا تتبعن البصر النظر فربما نظر العبد نظرة ينغل منها قلبه كما ينغل الأديم فى الدباغ فلا ينتفع به، قال عليه السلام «النظر إلى محاسن المرأة سهم من سهام إبليس مسموم فمن صرف بصره عنها رزقه الله تعالى عبادة يجد حلاوتها» وقال عيسى عليه السلام: إياك والزنا فإنه من غضب الرب وإنما يثيره النظر، والشهوة واتباعهما ولا تكونن حديد النظر إلى ما ليس لك فإنه لن يزنى فرجك ما حفظت عينك وإن استطعت أن لا تنظر إلى ثوب المرأة التى لا تحل لك فافعل، ولا تستطيع ذلك إلا بالله.

وعن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لك فى الجنة كنزا وإنك ذو قرنيها فلا تتبعن النظرة النظرة فإن لك الأولى، وليست لك الأخرى» فمعنى الكنز فاطمة وقرنيها الحسن والحسين رضى الله عنهم صيرها بمنزلة الكنز لأن الكنز موضوع مستور إليه الموبل، وسائر المال ظاهر يذهب ويجيئ والكنز أصل المال، فشبه فاطمة رضى الله عنها من نعيم الجنة بالكنز من المال ثم قال: وانت ذو قرنيها نسب القرنين إلى فاطمة رضى الله عنها ومعناه أن الحسن، والحسين رضى الله عنهما قرناها وإنك يا على ذو القرنين أى تجد الحسن والحسين وهما سيدا أهل الجنة لك ولدا.

وقال صلى الله عليه وسلم: «أربع نساء سيدة نساء العالمين مريم، وآسية وخديجة وفاطمة» وقال إنما فاطمة بضعة منى.

وقال لها عند موته «إنك أسرع الناس لحوقا بى فضحكت» فبشر عليا رضى الله عنه بأنها لك فى الجنة ثم أوصاه على أثر البشرى وصية الرسل على التلطف يحذره اتباع النظرة النظرة لئلا يطمس وجه الكنز

ولا يغير ما به من نعمة الله فإنه يحتاج إلى التطهير فى شأن الوصول إلى الكنز.

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خص أحدا من أصحابه بموعظة وتحذير فإنما يقصد قصد النكبة التى يخاف عليه منها وكان الغالب على قلب على كرم الله وجهه محبة الله والمحبة تسير إلى الله فى ميدان السعة، والتشجع فى الأمور، والمحبة لها حلاوة وحرارة تهيج الشهوة، وتذيب ماء الصلب فحذره عليه السلام ما كان يخاف عليه فبشره بالكنز والقرنين ثم أتبعه الوصيــة وحذره كى يشفق على ما بشره له فى الجنة ويكون عونا على غض بصره، ورد نفسه.

قال عليه السلام: «لأعطين رايتى غدا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فشهد له الرسول بحب الله إياه، وبحبه الله والمرء ينسب إلى ما يكون الغالب عليه من الأمور والأعمال فكذلك فى الحظوظ إنما ينسب أصحاب القلوب كل إلى ما وفر له من الحظ من ذلك الشىء فأبو بكر منسوب إلى الرحمة وعمر منسوب إلى الحق وعثمان منسوب إلى الحياء، وعلى منسوب إلى المحبة وإنما نسب كل واحد منهم إلى ما هو الغالب عليه.

وكان على كرم الله وجهه ظاهر الأمر من بين الأصحاب فى شأن الثناء على الله تعالى، وذكر الصفات وهذا علم المحبين، وكان معروفا بالانبساط، والانطلاق والهشاشة إلى الخلق والمزاح، حتى قال عمر رضى الله عنه فى حقه «إنه رجل تلعابة، وقال مرة أخرى به دعابة» وهذا لمن الغالب على قلبه محبة الله تعالى لأن القلب ينبسط عند المحبة، وينقبض عن المخافة فإذا غلبت المحبة على الخوف انبسط وإذا غلب الخوف على المحبة انقبض لأنه يلاحظ العظمة وفى وقت الانبساط يلاحظ جوده

وكرمه، كان انبساط على رضى الله عنه إلى الخلق ومعاملته إياهم حسب ذلك من السعة والبشر، والهشاشة وبتلك القوة أمكنته المحاربة وتشجع فيه ومن كانت هذه صفته كانت شهوته هايجة وكان قرما فى أمر النساء.

وكان يقول: كنت رجلا مذاء فكنت أغتسل فى اليوم مرات حتى شجئت وكنت أستحيى أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل ابنته فأمرت المقداد أن يسأله فقال: يجزيك الوضوء.

وكان قد هم أن يتزوج على فاطمة رضى الله عنها حتى خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال: «إن بنى المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم من على وإن فاطمة بضعة منى يؤذينى، ما آذاها إلا فإنى لا آذن ثم لا آذن».

وكان على رضى الله عنه يريد أن يخطب العوراء بنت أبى جهل فقال صلى الله عليه وسلم: «وما كان لعلى أن يجمع بين ابنة نبى الله، وابنة عدو الله وإن فاطمة بضعة منى يغضبنى ما اغضبها».

ووقعت فى سهمه يوم فتح مكة جارية من سبى هوازن فذهب بها مستعجلا إلى أخته أم هانىء لتزينها فهم فى ذلك إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم خلوا عن السبايا فبقى علىّ على قارعة الطريق ودخلت أم أيمن على فاطمة رضى الله عنها فرأت فى وجهها شيئا أنكرته فسألتها فأبت أن تخبرها فقالت: إن أباك كان لا يكتمنى شيئا فقالت جارية وهبها أبو بكر لعلى فخرجت أم أيمن فنادت أما لرسول الله حق أن يحفظ فى أهله فقال على رضى الله عنه: ما هذا فقالوا له أم أيمن تقول كذا فقال: على رضى الله عنه الجارية لفاطمة رضى الله عنها.

وماث يوم مات عن سبع عشر من بين حرة وأم ولد وكان هذا كله من غلبة ماذكرنا على قلبه وقد حذره عليه السلام النكبة التى عرفها فيه، وعرفه خطرها ووبالها وكان من شأنه صلى الله عليه وسلم إذا عرف من رجل شيئا يخاف عليه منه وعظه من ذلك الباب.

ولهذا أخذ بطرف عمامة الزبير وقال: «يا زبير إنى رسول الله إليك خاصة و وإلى الناس عامة يا زبير إن الله تعالى يقول أنفق أنفق عليك، ولا تصر فأصر عليك» هو إنما قصده بهذا لأن الزبير كان يزن ببخل وبلغ من إمساكه أنه كان يوصى إليه أفاضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أموالهم لعلمهم بإمساكه.

[الأصل الثانى والأربعون والمائتان فى فضيلة صوم شهر رمضان]

عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن شهر رمضان شهر فرض الله على المسلمين صيامه، وسننت لكم قيامه فمن صامه، وقامه إيمانا واحتسابا خرج من الذنوب كيوم ولدته أمه» (1).

صامه إيمانا أى آمن بما افترض الله عليه ثم صامه على تلك النية والصوم العزم على الكف عن كل شىء يطعم ويشرب، وعن إتيان النساء وهذا العزم بين العبد وبين ربه لا يطلع عليه أحد فهو فى كل ساعة من يومه إذا اعترضت له شهوة فإنما يمتنع منها لإيمانه بأن الله تعالى مطلع على سره وإضماره فذاك منه إيمان فى كل وقت وساعة فى رد كل شهوة مع طمأنينة نفسه بأن الله تعالى يعلم عزمه وضميره فى هذا الكف فيستقر لذلك قلبه ويعظم أمله هذا كله إيمان.

وقوله عليه السلام: «إيمانا واحتسابا» فكل عمل ابن آدم إنما يقوم بالنية والحسبة والنية قربتان تجريان فى الأعمال معا فإذا انقطعت النية انقطعت الحسبة. والنية نهوض القلب إلى الله تعالى، وبدؤها الخاطرة، ثم المشيئة، ثم الإرادة، ثم النهوض، ثم اللحوق إلى الله تعالى بعقله،

---

(1) أخرجه النسائى فى «سننه» كتاب الصوم- باب ثواب من قام رمضان وصامه إيمانا واحتسابا (158/2). وأورده السيوطى فى «مسانيد الجامع الكبير» (227/2) من مسند عبد الرحمن بن عوف وعزاه لابن زنجويه.

وعلمه، وذهنه، وهمته، وعزمه، وإضماره، فههنا تتم النية، ومن ههنا يخرج إلى الأركان فيظهر على الجوارح فعله فبدأ النية نهوض القلب، ومنتهاه عزمه ثم الإرتحال يقال ناء ينؤ أى نهض.

والعزم عقد القلب، ولا يكون نية إلا بالعقد فإذا صح العزم خرج الرياء والفخر والخيلاء من جميع أعماله ثم الناس بعد ذلك على طبقات فالعامة لابد لهم من أن يأتوا بهذه الصفة فى كل عمل يلتمسون ثوابه غدا وذلك موجود فى العامة من الموحدين فى كل عمل أخلصوه لله تعالى فهذه الخصال موجودة فى ذلك العمل إلا أنه لا يحسن أن يميز هذا الأسم ويطالعه بقلبه فى صدره لأن صدره مشحون بأشغال النفس وفتنها ووساوس شهواتها فمن أين يبصر فى صدره الخواطر والمشيئات والإرادات والنهوض، والارتحال إلا أن الله لما رحم الموحدين، ومن عليهم بالتوحيد ضمن هذه الأشياء توحيدهم وأودعها قلوبهم فهم بتلك القوة يعملون أعمال البر فربما أخلصوا وربما خلطوا، وربما اطمأنوا وربما نافقوا، ولذلك وقع الحساب فى الموقف لتخلط الإيمان بالنفاق والصدق بالكذب، والإخلاص بشرك الأسباب.

وإنما يستبين ما وصفنا لقلب أجرد أزهر فى صدر فسيح قد شرحه الله للإسلام فهو على نور من ربه رطب بذكر الله قد لان بلطفه ورطب برحمته وصلبت بآلائه وبذلك وصفه صلى الله عليه وسلم فقال: «قلب المؤمن أجرد أزهر» فصدره كمفازة جرداء فيها شموس تزهر.

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «إن لله فى الأرض أوانى ألا وهى القلوب فخيرها أصفاها وأرقها وأصلبها» فأصفاها من كدورة الأخلاق وأرقها للإخوان وأصلبها فى ذات الله تعالى.

فأما الناس في النية على طبقات: فنية العامة ارتحالهم إلى الله بهذا العقل والعلم والذهن والهمة والإضمار والعزم ومبلغ ارتحالهم الجوّ إذ ليس لقلوبهم من القوة ما يرتحلون، ويطيرون لأنه لا ريش لقلوبهم فيطيرون والجو مسدود لأن القلوب لما مالت إلى النفوس، فأطاعتها انسد طريقها إلى ربها لأن القلوب إنما أعطيت معرفة التوحيد ومن عليها بذلك لتمد النفس بما فيها من الشهوات إلى الله فتطيعه فتمت حجة الله على القلب بما أعطى من القوة البالغة، فلما ضعف، ولم يتشمر(٢) لأمر الله بما أعطى من الجنود ولم يجاهد النفس، حتى يغلبها ويأسرها بجميع ما فيها من الشهوات فيذلها.

قال تعالى:

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ (٣)

أي رفعكم من بين الأعداء جباية منه لكم ليتخذكم أحبابا ووضع في قلوبكم التوحيد بحلاوته كي إذا جاءت النفس بحلاوة شهواتها إلى القلب ضربت بتلك الحلاوة وجهها وردها بقوة هذه الحلاوة الممنون عليه فإذا لم يجاهد، وانخدع لنفسه وبما تأتي به تحيرت الجوارح، وتعطلت الأعمال التي بها وكلوا فهناك تجده لا يلتذ بطاعة ولا يستروح إلى ذكر إذ لا يجد رائحة الذكر لأنه يخرج من صدر كالمزابل، محشو بالخبث، والخيانة والظلم والعدوان والرغبة، والتجبر(٤) والتعزز، والتكبر والاستبداد، والحقد، والغلو وحب الأشياء التي يضاهي الله بها وينازع رداءه، فيرجو صاحبه أن يلتذ بطاعة أو يستروح إلى ذكر أو يجاوز قلبه

---

(٢) لم يتشمر لأمر الله: كناية عن التقاعس وعدم الاهتمام به. وفي إحدى النسخ [ولم يستمر].

(٣) الحج (٢٢/٧٨).

(٤) في نسخة [والتحير] وهو من تصحيف الناسخ.

فى عمله رأسه، فإن اجتهد فأخل فى شيء وأخذ بحرمة ذلك التوحيد، وقوته فبجهد شديد ولا يجاوز قلبه الجو، فهذا شأن العامة.

وأما الصادقون: وهم العباد والزهاد والقراء فنياتهم صاعدة عن هذه الأشياء التى ذكرنا من العقل والعلم، والفهم، والهمة والعزم، والإضمار، فإذا بلغ المحل الذى هناك استقر القرار فى بيت العزة فى سماء الدنيا وضعفوا عن تجاوز ذلك إلى ما فوقه لأنه لا يقدر قلبه على الطيران إلى العلى، وعلى قدر علمه وعقله، وذهنه واستعماله ذلك يمكنه أن يطير فتحظى تلك النفوس من ذلك المحل، ويأخذ قوتها، ويستمر فى الطاعة.

وأما العارفون: وهم الصديقون فإن نياتهم قد صارت كلها نية واحدة لأن القلب قد ارتحل إلى الله تعالى بمرة ووجد الطريق، واشتغل بالنفس بما فيها من الشهوات لينة منقادة قد تحولت من الخيانة إلى الأمانة وانقادت للقلب فالقلب أمير والنفس أسير فارتحال قلوبهم إلى المعسكر عند ذى العرض ولهم مطاف وأعمالهم معروضة على الله فى كل معرج وينظر إليها الرب ويتقبلها ثم توضع بعد القبول فى الخزائن الخاصة.

وأما العارفون: حكماء الله فهم الذين اطلعوا على بدو الربوبية ومحل القدرة فهم خاصة الله فى بحور الله يعملون جميع الأعمال، والأعمال غائبة عن القلوب لأن الله تعالى نصب أعينهم فى مجلس الملك، فأجمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر النية فقال: «الأعمال بالنيات وإنما لأمرئ ما نوى» (٥) يعلمك أن للنية درجات كل على درجته ينال ثمرتها.

---

(٥) وفى رواية «وإنما لكل امرئ ما نوى»؛ وهو أول حديث فى صحيح البخارى عن عمر رضى الله عنه.

وقال صلى الله عليه وسلم «لا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا حسبة له »(٦) والحسبة أن يحتسب على الله تعالى فى العبودة التى قبل منه لأن العبد فى رق العبودة إلى يوم خروجه من الدنيا لأنه خلقه ليعبده ثم وعده أن يحرره يوم القيامة إذا أتاه بالعبودة فيقعده ملكا فى دار السلام.

قال الله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٧)

فنحن نسعى فى هذا الرق إلى يوم خروج الروح وقبض النفس عن الدنيا « فمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » (٨) شكر الله لهم بمغفرة الذنوب، والرضاء عنهم وتمليكهم الجنان وقضاء المنى والشهوات على التأييد ورضوان من الله أكبر وإذا آمن العبد بربه ألقى بيديه سلما إليه وقبل أمره وعبودته قبله الله وأقبل عليه بالعون.

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ (٩)

أى فى العون والنصرة وإذا أعرض مغترا بخدائع النفس، وأمانيها وأكاذيبها فأقبل على النفس، وقبل منها ما تأتى به فقد أعرض عن الله تعالى، ومال عنه وأعرض الله عنه، وعذب قلبه وانقطع المدد والعون فإذا

---

(٦) لا حسبة له: لا احتساب له.

(٧) الذاريات (٥٦/٥١)

انظر تفسير جامع البيان (٢٨/٢٧) والقرطبى (٥٥/١٧).

(٨) الإسراء (١٩/١٧).

(٩) النحل (١٢٨/١٦).

تاب إلى الله وفزع وأدركته رحمة الله وغوثه بأن فتح باب الرحمة نظر أمنه لمنته وأياديه التى كانت له عند العبد فوجد القلب خلاصا وعاد العون، والمدد فلم يزل العبد يترقى درجة درجة وتفضل الله عليه بالكرم وجاد بالإقبال فانتعش بعد النكس وحبى بعد الموت حتى توردت بساتين توحيده وانفطر مكنون جواهره كانفطار الينابيع وانفلاق الحبوب عن بذرها وازدهرت وأينعت.

وذلك قوله تعالى:

﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴾ (١٠)

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ (١١)

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ (١٢)

فأخذ العبد يسعى فى الرق والعبودة، فكلما عمل براهن الأعمال أحتسب به على الله فى العبودة التى قبل منه كمن عليه دين فى عنقه فهو يفك رقبته بأدائه شيئا بعد شيء.

وكل شيء يؤديه إلى صاحب الدين احتسب عليه فى قضاء الدين الذى فى عنقه، فهذا العبد يحتسب فى نفسه وفى ذاته بهذا الفعل يحسبه على الله تعالى من قضاء دينه، وهو العبودة التى لها خلق التى قبلها

---

(١٠) الأنعام (٦/٩٥)

قال الإمام القرطبى ــ رحمه الله ــ: «أى يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبة» راجع التفسير (٧/٤٤).

(١١) الأنعام (٦/٩٦)

قال الطبرى ــ رحمه الله ــ: «فالق الإصباح أى شاق الضياء عن الظلام، أى شق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده» (١١/٥٤) بزيادة.

(١٢) الأنعام (٦/٩٥).

فإذا نوى واحتسب فقد اخلص، قال الله تعالى:

﴿ لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (١٣)

فيكتب له أجر العبودة.

ولذلك قال عليه السلام: «لا أجر لمن لا حسبة له» فرب رجل يعمل أعمال البر على العادة لا على يقظة العبودة فلا يكون له احتساب. ولهذا قال عليه السلام «وفى غشيانك أهلك صدقة، قالوا يا رسول الله نأتى شهواتنا ونؤجر قال: أرايت لو وضعتها فى حرام أكنت توزر قالوا: نعم قال فتحتسبون بالشر، ولا تحتسبون بالخير» معناه إذا زنى إنما قصد قضاء الشهوة فاحتسب على النفس بإعطائها منيتها، وقضائها شهوتها، فإذا وضعها فى حلال وأراد العفة عن الحرام احتسب بها قضاء عن العبودة فصار ذلك منه صدقة على أهله.

(ولذلك قال معاذ لأبى موسى أنا أنام نصف الليل وأقوم نصفه فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى) فإذا نام العبد تلذذاً وأتى أهله تلذذاً لم يحتسبها قضاء عن العبودة بطل أجره وبقيت العبودة فى عنقه فلقى الله وقد خسر أجر العبودة فى ذلك الوقت الذى عطله.

وإذا مال بهذه الشهوة إلى الحرام فإنما يقضى عبودة النفس، وقد خلقه الله تعالى ليعبده فقبل منه ثم ذهب فصير نفسه عبداً لنفسه، وشهواته وذهب بعبودة الله إليها.

---

(١٣) البينة (٩٨/٥).

لأن الإخلاص فى العبادة، من أهم دواعى قبولها، وقد قال الأئمة: إن شرط قبول العبادة أن تكون خالصة، وصوابا، ومعنى إخلاصها أن تكون لله وحده سبحانه وتعالى، وصوابها أن تكون على السنة صافية نقية من أدران البدع والشبهات.

ولهذا استوجب اللعنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال: «لعن عبد الدينار، ولعن عبد الدرهم، لعن عبد الخميصة، وشيك فلا انتقش حبذا عبدالله وعبيدالله».

وقال صلى الله عليه وسلم: «لأمرىء ما احتسب وعليه ما اكتسب، والمرء مع من أحب، ومن مات على ذنابى طريق فهو من أهله» معناه ما ذكرنا أن ما احتسب قضاء عن العبودة فهو له، وما لم يحتسب ولكن اكتسب فهو عليه.

وقال تعالى:

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (١٤)

لأن الكسب فعل الأركان والاكتساب فعل الذات يكتسب إتباع الهوى فيما تقضى النفس من مناها وشهواتها ولذاتها فذاك عليه، وإذا جاء الاحتساب من قوة القلب بذكر العبودة مع النية الصادقة فتلك النية تحول العمل فصار للنية لا للهوى فيحتسب به على الله قضاء العبودة لا قضاء النهمة والشهوة.

فإذا صام رمضان إيماناً بما كتبه الله عليه، وبأنه يطلع على عزمه فى صومه ورد شهواته فى ساعات يومه فذاك كله إيمان يتجدد عليه كل ساعة، وهو سر بينه وبينه ربه لا يطلع عليه ملك مقرب، ولا نبى مرسل.

ولذلك قال: (الصوم لى وأنا أجزى به) لأنه فى ما بينه وبينه ففى كل ردة من العبد لشهوة تعرض له جزاء من ربه، وهو لا تدركه الحفظة والكتبة.

---

(١٤) البقرة (٢٨٦/٢). انظر جامع البيان للطبرى (١٧٣/٦).

[الأصل الثالث والأربعون والمائتان فى فضيلة الأمور الثلاثة]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «أوصانى حبيبى أبوالقاسم صلى الله عليه وسلم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر وأن لا أنام إلا على وتر وركعتى الضحى»[1].

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عويمر، حافظ على أن لا تبيت إلا على وتر وركعتى الضحى مقيماً أو مسافراً وصيام ثلاثة أيام من كل شهر تستكمل الزمان كله» أو قال تستكمل الدهر كله.

العبد محسوب عليه عمره معدود له أنفاسه مقتضى منه العبودة فى كل نفس من عمره، فأمر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وقبول ما جاء به الرسول من عنده على صدق الاعتقاد من قلبه ثم اقتضى ما قبل من الله تعالى مجملاً فى جميع عمره، فنه ما اقتضى فى وقت دون وقت وهو الفرائض، ومنه ما اقتضى فى الأوقات كلها، وهو العبودة فى كل نفس.

---

(١) أخرجه البخارى فى «صحيحه» كتاب التهجد ـ باب صلاة الضحى فى الحضر (٥٦/٣) من رواية أبى عثمان عن أبى هريرة. وأخرجه الترمذى فى «سننه» كتاب الصوم ـ باب ما جاء فى صوم ثلاثة أيام من كل شهر (١٢٤/٣)، وقال: حديث حسن صحيح. وأخرجه النسائى فى «سننه» كتاب قيام الليل ـ باب الحث على الوتر قبل النوم (٢٢٩/٣) من طريق عثمان عن أبى هريرة. وأخرجه أحمد فى «المسند» من حديث أبى هريرة (٢٢٩/٢).

فأجمل الله تعالى بعطفه وكرمه للعباد أمراً أجمل به العبودة كي إذا فعلوها استكملوا الدهر كله عبودة فدلهم لعبودتهم في النهار على ركعتي الضحى بعد أداء الفرائض، واجتناب المحارم فإذا أدى المفروضة من صلاة الفجر انتظر طلوع الشمس، وتحليل الصلاة فإذا أضحت صلى ركعتين على سبعة أجزاء بسبع جوارح مقسومة هذه الأجزاء بما ضمنت وحشيت على ثلاثمائة وستين جزءاً ليخرج إلى الله من صدقة النفس.

وذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «إن على كل آدمي ثلاثمائة وستين سلامى على كل سلامى منها صدقة وركعتي الضحى تجزيك من هذا كله»[2] فهذا صلاة يومه للعبودة وأما صيام ثلاثة أيام من كل شهر فالحسنة بعشرة أمثالها، فصوم ثلاثة أيام من كل شهر يعدل ثلاثين يوماً فقد صار العبد بهذا صائماً في جميع عمره، وبركعتي الضحى قائماً بهذا في نهاره كله فأما في ليله فالفوز بصلاة الوتر فإذا كان صائماً قائماً في نهاره وبوتره فائزاً فقد استكمل الزمان كله فهذه دلالة الله لأهل السعادة على ما به يستكملون العبودة بعد أداء الفرائض، واجتناب المحارم.

فمن داوم على هذا كان اسمه في ديوان الصائمين القائمين الفائزين، وهو طاعم وشارب ونائم؛ ليعلم بسر الله تعالى لهذه الأمة، ورفع الحرج عنهم في دينه، وسماحته فيما اقتضاهم مما له خلقهم، فالوتر محبوب الله تعالى فيما خلق من الأشياء، وقد كتب عليهم الخمس المفروضات غياثاً لهم ليطفئوا بها حريقهم، وما من صلاة يدخل وقتها إلا قال أهل السماء: يا بني آدم قوموا إلى نيرانكم فأطفئوها فصرن هذه الخمس مكتوبات والعهد في الكتاب، فإذا أوفوا بالعهود أوجب لهم الجنة، ثم

---

(٢) في نسخة أخرى [ومن ذلك كله].

كان من عطفه أن زادهم صلاة الوتر على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فالصلوات الخمس تكفير لسيئاتهم.

وفى ذلك الموقف من الوتر نوال تملأ منه رغباتهم ومركز يجدون منها معاذاتهم؛ فالنوم بعد النوال أفضل من أن يؤخرها إلى آخر الليل فإذا أوتر أول الليل عرجت نفسه إلى الله فى منامها مع الفوز بالنوال، والمعاذ فلذلك أوصاه عليه السلام أن لا ينام إلا على وتر؛ فكان أبوبكر رضى الله عنه يوتر قبل أن ينام.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «متى توتر يا أبا بكر قال: فى أول الليل، قال: أخذت بالحزم، وقال لعمر رضى الله عنه متى توتر يا عمر؟ قال: آخر الليل، قال: أخذت بالقوة».

فالحزم احتياط وثقة والقوة ملكة النفس.

وأبو بكر لاحظ كنه الوتر ولهذا قال: أحرزت نهبى وابتغى النوافل، معناه أن فى موقف الوتر نثار الله وغنمه فينتهبه، ويبتغى فيما بقى من الليل نوافل الرب، وعمر لاحظ الساعة التى يؤدى فيها الوتر من ساعات الليل، وهى الساعة التى أثرها الله فهبط إلى السماء الدنيا واطلع على عباده وناداهم وهى ساعة اهتز لها العرش، واشتغلت الملائكة فى صفوفها وانقطعت صلاتهم لما رأوا من هبوط الرب إلى سماء الدنيا سماء العبيد، واطلع عليهم، وناداهم وقد جعل الله تعالى للعباد موقفين.

موقف فى كل سنة فى تاسع ذى الحجة وهو موقف الحج.

وموقف فى كل ليلة بعد صلاة العشاء فى الركعة التى وسمها بالوتر به تلك ركعة عليها سمة الله تعالى بأن فضلها على الأعمال.

فوقف الحج نطق به الكتاب، وموقف الوتر نطق به لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وللعباد فى هذين الموقفين من الله نوال وقرات أعين لا يخطر على قلب بشر فوقف الحج موقف المباهاة موقف الإسلام ألا ترى أنه يقال: حجة الإسلام، وقف العبد ليسلم إليه رقبته عبودة ليتخذه عبداً فباهى الله به فى سمائه وهبط إلى سماء العبيد ليطلع إليهم ويباهى بهم ملائكته والمباهاة أن يريهم بهاء الإسلام الذى على عبيده فى تسليمهم النفوس إليه معتذرين متعرضين(٣) ملقين بأيديهم إليه سلما رافعى أيديهم إليه طمعاً، فيقول للملائكة انظروا إلى عبيدى فتلك المباهاة.

وموقف الوتر موقف هدايا المعرفة للأولياء والأصفياء ومرمة الإسلام للصادقين المجتهدين، والرحمة للعامة الموحدين، فيدخل فى ذلك الموقف على الله بالتكبير، ويقف بين يديه فى القنوت يرفع إليه رغباته ويعتذر إليه من عمل نهاره من تقصيره وتفريطه، ويفتقر إلى الله تعالى ويتبائس ويتمسكن ويتخشع ويتضرع (٤) ويتعوذ من الأهوال والأخطار الذى هو عليها، ويخرج منه ثناؤه على ربه، ومحامده له وذكر آلائه (٥) وبث مننه، ونشر صنايعه، واعتراف بمساويه، واعتذار وتوبة إليه وقربة إليه وتنصل بالاستغفار، وترضى، وملق وتضرع واستعاذه بالمعاذ وتختم بالكلمة التى بها يستجاب، ويخاف مما خص الله تعالى هذه الأمة قال عليه السلام: أمرنى جبريل ولقانى عند فراغى من فاتحة الكتاب وعند الدعاء آمين.

---

(٣) فى إحدى النسخ [متضرعين] وهو تحريف من الناسخ.
(٤) أى يتصنع البؤس، والمسكنة، والخشوع، والتضرع.
(٥) آلاء: نعم.

وقال إنه كالطابع على الكتاب وإذا ختم العبد الدعاء بآمين صار الدعاء مطوياً بالكتاب مصوناً عن الآفات وعن تناوله واطلاع ما فيه، وإنما ختم الكتاب لئلا ينشره أحد ولا يطلع عليه.

فإذا ختم العبد الدعاء بآمين صانه عن أن يطلع فيه وصعد إلى الله بالختم، مطوياً مصوناً عن الآفات فيجيبه الله تعالى؛ لأنه قد سبق منه القول بالخصوصية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال تعالى:

﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٦)

وفيهم ما فيهم من قلة الشكر، والوفاء، وكثرة التخليط، والاستخفاف بأمر الله والإعراض عن حق الله، فلو لم يعطهم الختم حتى يختموا دعاءهم بآمين فيصير الختم مانعاً لجميع الخلق بين العبد وبين الله من الهواء إلى العرش فكان ممر دعائنا إلى العرش محل الدعاء، ومعدن الإجابة والقضاء لكن لا يخلو من أن يتعرض متعرض لإفساد ذلك حمية لله تعالى.

فإن الخلق كلهم مطيعون فإذا مرت عليهم دعوة العصاة لم يؤمن أن يرموا فيها شيئاً يكون فيه فساداً (قال صلى الله عليه وسلم إن على أبواب السماء حجاباً يردون أعمال أهل الكبر والحسد والغيبة).

وقال عليه السلام: «إن العبد ليقول يا رب اغفرلى وقد أذنب فتقول الملائكة يا رب انه ليس لذلك بأهل قال الله تعالى لكنى أهل أن أغفر له».

---

(٦) غافر (٤٠/٦٠)
المسلم مطلوب منه أن يتجه بقلبه مخلصاً إلى الحق سبحانه وتعالى بالدعاء، ولا تجد فى المخلوقين أحداً يطلب من رعاياه أن يلوذوا بكنفه فى كل الأوقات فى كل الأحوال.

فقد أعطى الله تعالى هذه الأمة كلمة الختم وهى «آمين» ليصعد دعوتهم إليه مختومة لا يطلع على ما فيها أحد حتى لا يجدوا سبيلاً إلى الطعن فيها ودعاء كل رجل يخرج على قدر ما عنده من قوة القلب فى الدعاء فرب دعاء داع يخرج مع نور وافر بمنزلة شمس تطلع، ودعاء يخرج مع تقصير فنوره بمنزلة قمر يطلع ودعاء يخرج مع تقصير كثير فنوره بمنزلة كوكب، وإنما تفاوت الدعاء لاختلاف مخارجها من المعادن.

قال عليه السلام: «إن القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا دعوتم الله تعالى فادعوه وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله تعالى لن يستجيب دعاء عن ظهر قلب غافل».

فظهر القلب دعاء قد تعلمه العبد يدبر الكلمات (٧) بمضغه لسانه فى حنكه ولهاته، وليس عنده وراء ذلك شىء إلا تلك الإرادة التى فى القلب يبتغى خيراً من عند ربه وهو لا يدرى ذلك الخير وهو عنده الجزاف غيره مفتقر إلى تلك الحاجة فهو كصبى نطق من غير عقل، وليس لكلام الصبى قدر عند الخلق إلا أن الكريم لما علم إرادة الخير من الداعى أعطاه على ذلك أجراً إذا دعا على رجاء أن ينال منه معروفاً.

فأما الاستجابة فهو بعيد منها لأنه لم يخرج منه الدعاء على الجد، والاجتهاد ولو كان ذلك منه جداً لترك الاباق من ربه بالذنوب، والمعاصى، والبطالات والإكباب (٨) على الدنيا، والاستخفاف (٩) بحق الله وبداره (١٠) وبيوم الحساب، وبوعده (١١) ووعيده ومواعظه وموته فإن

(٧) فى نسخة [مدبر الكلمات].

(٨) الإكباب: الانهماك والتهالك.

(٩) الإستخفاف: التقليل من قدره.

(١٠) بداره: مسارعته، من البدار وهى المسارعة.

(١١) الوعيد فى الخير والشر وكذلك الوعيد، لكن الأول فيما يغلب فيه الخير، والثانى فيما يغلب عليه الشر.

الابق (١٢) من مولاه في الدنيا إذا دعاه في حال اباقه وبراسله يستوجب (١٣) بذلك المقت (١٤) من مولاه لأنه في صورة المستهزىء به.

فمن أثقل ظهره من الخبائث فصار كسلان لحماً ودماً ملقى على الأرض وخيماً جلفا جافياً فتعلم الأدعية عن ألسنة الناس ملتمساً بها نوالاً لا عن فاقة (١٥) وافتقار، خرجت من جوفه تلك الكلمات، ولا علم له بما سأل وإن كان أعلم الناس باللغة فهو عالم بالكلمة من طريق اللغة، جاهل بغور (١٦) الكلمة ومعدنها ووقتها وموضعها؛ فهو جاهل بالمعنى أعمى عن حشوه فصاحبه لا يصيب في دعائه جداً ولا اجتهاداً وإنما يدعو عن ظهر قلب فهذا عبد يجاب، ولا يستجاب.

وإنما يجاب لأنه مؤمن فالإجابة للمؤمنين والاستجابة للجادين المجتهدين المفتقرين المرتعنين المتبائسين المتخشعين الموقنين ألا إن الله هو الكريم الجواد أوسع لعبيده فجاء عليهم بالمعرفة التي هي أعظم الأشياء استحيى أن يترك هذا العبد خالياً صفر اليدين (١٧) إذا مد يده إليه حتى يأجره على ذلك فيكون ذلك إجابة لا استجابة.

قال عبد الرحمن بن غنيم: بينما نحن جلوس يوماً عند معاذ بن جبل رضي الله عنه إذ دعا بدعاء لم أسمع داعياً يدعو مثل دعائه فقلت له: رحمك الله يا أبا عبد الرحمن، لو علمتني بعض ما تدعو به فقال: لو كنت أعلم لك فيه خيراً كنت علمتك، فقلت: سبحان الله لم لا تعلم لي فيه خيراً قال: لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو بالدعاء الكبير

---

(١٢) الآبق: الهارب.
(١٣) يستوجب: يستحق، ويقتضي.
(١٤) المقت: الكراهة.
(١٥) فاقة: فقر.
(١٦) غور الكلمة: مدلولها العميق، البعيد الأثر غير الظاهر.
(١٧) صفر اليدين: خالي الوفاض، خالية.

الحسن الجميل الذى لا يستطيع أحد أن يقول مثله فقلت له يوماً يا رسول الله، لو علمتنى بعض ما تدعو به.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو كنت أعلم لك فيه خيراً لعلمتك فقلت: سبحان الله يا رسول الله لم لا تعلم لى فيه خيراً قال: لأن أفضل الدعاء ما خرج من القلب بجد واجتهاد فذاك الذى يسمع ويستجاب وإن قل».

فالجد أن يقف العبد بقلبه فى محل الدعاء والاجتهاد مفتقر القلب إلى الله متبائس النفس، وقوله تعالى:

﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١٨)

أراد إجابة تلبية على ما قاله صلى الله عليه وسلم إذ قال العبد: يا رب قال الله تعالى: لبيك يا عبدى.

وأما الاستجابة فقال تعالى: (ادعونى أستجب لكم) ثم بين فى آية أخرى لمن الاستجابة فقال:

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (١٩)

وينبغى أن يكون الدعاء على هيئة وأدب فإن لكل أدب ثمرة، ولكل هيئة زينة يبدأ بمدائحه، ثم الثناء عليه والتنزيه له ثم محامده وذكر آلائه وبث مننه ونشر صنائعه والاعتراف بالمساوىء والتوبة إليه، والاعتذار والتنصل والاستغفار والتضرع والاستعاذة والاختتام بآمين والله أعلم وأحكم.

---

(١٨) البقرة (١٨٦/٢).

(١٩) الشورى (٢٦/٤٢)

يستجيب بمعنى يجيب. راجع أبا حيان فى البحر المحيط (٥١٨/٧).

[الأصل الرابع والأربعون والمائتان فى بيان أقسام القرآن]

عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن العظيم على عشرة : بشيراً، ونذيراً، وناسخاً، ومنسوخاً، ومحكماً، ومتشابهاً، وعظة، ومثلاً، وحلالاً، وحراماً، فمن ابتشر ببشيره وانتذر بنذيره، وعمل بناسخه، وآمن بمنسوخه، واقتصر على محكمه، ورد علم متشابهه إلى عالمه واتعظ بعظته واعتبر بمثله وأحل حلاله، وحرم حرامه فأولئك هم المؤمنون حقاً لهم الدرجات العلى مع النبيين، والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وهو وارثى ووارث الأنبياء من قبلى، ولولا قسم أنه لانبى بعدى لكان نبياً من أنبياء الله تعالى، ولا يزال فى ضمان الله تعالى، وكيف وحيث ما تلا القرآن غشيته الرحمة، وتنزلت عليه السكينة، وكان بعين الله منوراً له قلبه إلى يوم القيامة ويحشر يوم القيامة فى زمرتى وتحت لوائى ولوائى أبيض العود أخضر الرقعة أفيح (١) الريح له لسانان : لسان يرى بالمشرق، ولسان يرى بالمغرب، يظل حملة القرآن والمتحابين فى الله، ومن ضيع واحدة منهن، فقد ضيع كلهن، ويلقى الله غداً ظمآن محول القلب نادم القلب، مرتعد الفؤاد حاسر (٢) القدم مستحيياً من الرب مغفورله أو معذب » (٣).

---

(١) أفيح : منتشر متضوع.

(٢) حاسر القدم : مكشوفها.

(٣) ذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (١/١٠٩) وقال : أخرجه السجزى فى «الإبانه» عن على رضى الله عنه، ورمز له «بالضعف». =

قوله: ابتشر ببشيره البشرى خبر عن الغيب فإن العبد فى دار المحنة (٤) والبلوى متعرض للآفات ممزوج بها، مسئول عن الشكر عليها، ومقتضى للصبر على مزاجها من الآفات وهو فيما بين ذلك لا يدرى ما يظهر له من غيب الله غداً والخير كائنة له، فأيد الله المؤمنين بخطابه، وبشرهم بخبر نفى حيرتهم حتى قويت القلوب واطمأنت النفوس، وتخلص القلب من وساوسها، وصار حراً مالكاً قوى القلب، وانتشر السرور فى الصدر فنضرت الوجوه، وتلك النضرة تورث البشر.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَّٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (٥)

نضرة فى الوجوه وسروراً. فى القلب فالسرور يفيض القلب من الفرح الذى حل بالنفس، فالفرح فى النفس والسرور تولده فى القلب وانتشاره فى الصدر، ثم يتأدى ذلك من مجمع العروق الذى على القلب إلى العروق التى فى الوجوه، فتشرب جلدة الوجوه من ذلك بمنزلة شجرة شربت عروقها من الماء فى أصلها، فأدت عروقها إلى الأوراق فنضرت فإذا كان كذلك علم أن فى الباطن خيراً سارا فعمل ذلك الكلام فى قلبه وصدره حتى اختلط بذاته فاختلط بسمعه وشمه وبصره، ومخه وجميع جوارحه.

= وفى فيض القدير (٥٥/٣) قال المناوى: أخرجه السجزى فى كتاب الإبانة عن أصول الديانة. عن على أمير المؤمنين. ورواه أبو عبيدة فى فضائل القرآن عن أبى سلمة مرفوعاً.
قال الكمال ابن أبى شريف: ورجال إسناده أئمة من رجال الصحيحين إلا عمر ابن أبى سلمه فن رجال السنن لكن فيه انقطاع.
وأخرج ابن حبان فى «صحيحه» كتاب التفسير باب فى احرف القرآن ص ٤٤١ «موارد الظمأت» حديثا بمعناه من رواية ابن مسعود ورفعه.
(٤) دار المحنة والبلوى: الدنيا.
(٥) الإنسان (١١/٧٦).

وهذا لمن استمع قلبه إلى خطابه بأذنى قلبه ، فاستقر فيه علم ذلك ، وورد العقل على قلبه بنهاء ذلك الخطاب والفهم بمكنون لطائفه ، والفطنة بكشف الغطاء عن صور تلك المطائف فطابت النفس بذلك وازدهرت وأينعت عن الذبول والخمول .

فمن كان بهذه الصفة فقد ابتشر(٦) بالبشرى وقوله انتذر بنذيره فإن العبد قد شرهت (٧) نفسه من الفرح بأحوالها وبسبب نمائها فقطرت فإذا جاءها الوعيد من الله تعالى ذبلت وسكنت تلظى (٨) تلك الأفراح فتنغصت (٩) عليه حلاوتها ، وتكدر عليه صفو النعيم فظهر فى صدره من كدورة دخان الوعيد ومرارة التنغص فتأدى ذلك إلى الوجه ، فأورثه العبوس (١٠) فنجده مرة ذا بشر ونضرة ، ومرة ذا عبوس وكسوف .

فإذا ورد عليه البشرى أقر وجهه بذلك النضرة ، وظهر البشر ، وزال عنه الكسوف وإذا ورد عليه الوعيد انكسف القمر الذى بوجهه وانعبس فمن ابتشر ببشير الله ، وانتذر بنذيره فإنما يفعل ذلك بقلب عامر ومحال أن تجد أحدهما وتفقد الآخر لأن ذلك فعل القلب قوله وعمل بناسخه وآمن بمنسوخه فالناسخ آية قد أمر الله بالعمل بها ، وقد كان قبل ذلك أمر بغير ذلك فى آية نزلت قبلها والناس والمنسوخ بلوى (١١) من الله لعبده ، لينظر أيعبد الله ظاهراً وباطناً أم يعبده فى الظاهر ويعبد هواه فى الباطن .

---

(٦) سر ابتشر: استبشر.
(٧) شرهت : أصابها الشره .
(٨) تلظى : تتحرق بالنار، واللظى : النار.
(٩) تنغصت عليه حلاوتها : تكدرت .
(١٠) العبوس : الكلوح والاكفهرار.
(١١) بلوى من الله : ابتلاء واختبار.

قال الله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ (١٢)

وقال تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (١٣)

معناه حتى نعلم من يجاهد نفسه فى ذاتى ويصبر عما حرمت عليه، وعلى ما افترضت عليه، وعلى ما حكمت عليه من الأحوال المكروهة مثل الفقر، والذل، والبؤس، والمرض.

ثم قال : ﴿ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (١٤)

أين أنتم منى مع هذه المجاهدة والصبر أعلى طيب النفوس أم على خبثها وترددها فإذا آمن بالمنسوخ، وعمل بالناسخ فهذا عبد منقاد لربه قد ألقى بيديه سلما (١٥) قوله : اقتصر على محكمه ورد علم متشابهه إلى عالمه.

فالمحكم ما خرج إلى العباد من الحكمة البالغة مثل قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ (١٦)

(١٢) البقرة (١٤٣/٢).
وهذا للابتلاء والفتنة والاختبار.
(١٣) محمد (٣١/٤٧)
لابد من الابتلاء حتى يتبين المخلص لدينه وربه، من ذلك المداهن الذى يصادى ويداجى لمآرب دنيوية صرفة يرجو بها رياء الناس والخلق.
(١٤) محمد (٣١/٤٧).
(١٥) أى مسلما إليه أمره موقنا به.
(١٦) الأنعام (١٥١/٦)
راجع الطبرى (٢١٩/١٢) وتفسير أبى السعود (١٤٦/٢) والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (١٥٢/٧).

وقوله :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾

إلى قوله :

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ (١٧)

فأعلم العباد أنه لم يأمر بشيء ولا نهى عن شيء جزا(١٨) فأمرهم، ونهاهم بالحكمة البالغة، وقد قال قوم من العلماء ليس لأمره ونهيه علة وإنما تعبد، وليس كما زعم فإنه تعبد لزم العباد العمل به، ولكن تيقن أن الله تعالى لم ينه عن شيء ولا أمر بشيء إلا بالحكمة تعالى الله عن الجزاف المهمل عن التدبير، والتقدير فتطلب تلك الحكمة فى معادنها فإنها تبعثك على إقامة الأمر والنهى.

ونحن نذكر صورة تستدل بها وهو أن الله تعالى افترض(١٩) الصلاة على عباده فرجل أداها تعبداً وآخر طالع الحكمة ببصيرته(٢٠) فوجد العبد موكلاً لحفظ الجوارح السبع: السمع، والبصر، واللسان، والبطن، والفرج، واليدان، والرجلان، بمنزلة عبد وكل بسبعة أغنام لكل شاة منها مرعى على حدة فأمر بأن يرعاها فى مراعيها ومتى تردى(٢١) واحد فى جرف تبادر بإخراجه فإن عنى بشأنهن ورعايتهن نال الكرامة، وإن أهمل ما اكتسب بفعله إلا مقتاً وبعداً فهذا المؤمن فى غفلاته كالراعى فى نفشاته.

وإنما سمى مؤمناً لأنه اطمأن إلى الله عبودة له، واستقر قلبه.

---

(١٧) الإسراء (٢٣/١٧) قضى ربك: أمر ربك، فإن قضاءه بمعنى أمره. راجع المعنى فى غريب القرآن ص٢٥٣.

(١٨) جزافا: مجازفة.

(١٩) افترض: فرض.

(٢٠) أى ببصيرة قلبه.

(٢١) تردى: هلك.

وسمى مسلماً لتسليم جوارحه إليه فى أمره، ونهيه وعليه الوفاء بذلك إلى يوم لقائه، فتى ما ضيع شيئاً من أمره ونهيه دخل فى وفاء تسليمه نقص بقدر ما ضيع.

وقد علم الله من العباد أنهم سيخلطون هذا التسليم بتضييع أموره فافترض عليهم القيام بين يديه عبودة وتذللاً معتذرين مما ضيعوا؛ فقد قام العبد مقاماً جمع جوارحه المنتشرة فى مراعيها بين يديه، قد أزال سمعه عن الأمور والناس وبصره عن النظر إليهم ولسانه عن خطاب الخلق، ويده عن القبض والبسط، ورجله عن المشى وبطنه عن الطعام، وفرجه عن الاعتمال (٢٢).

فهذا من العبد تسليم إلى الله مستقبلاً معتذراً بالثناء والركوع، والسجود مترضياً (٢٣) له حتى يرجع من عنده على تجديد إسلامه ومزيد من فضل الله ورحمته، فعبد أدى فرائضه على هذه الصفة من المطالعة والعلم واليقظة والانتباه وآخر أداها تعبداً وهذا كله مستور عنه فتى يلحق هذا ذاك.

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «إن الرجلين ليكونان فى صلاة واحدة فى سقف واحد، وكما بين صلاتيهما أبعد ما بين السماء والأرض».

فالحكمة موجودة فى جميع الأعمال وعللها قائمة لا يعلمها إلا أهلها، وهم قوم تخلصت قلوبهم من ظلمة الشهوات، وخرجوا إلى البرهان العظيم وإلى النور الأعظم (٢٤) وأما المتشابه فأسرار الله التى طواها عن العباد

(٢٢) الاعتمال: الاصطناع من العمل وهو الاضطراب.

(٢٣) والعبد الذى يقتضى نعته بالعبودة هو كل من قام بمقتضيات العبودية من التزام المنهاج القويم.

(٢٤) أى المتشابه عليهم غير المحكم.

وأسـرار الرسل التى افضاها إليهم وطواها عن العباد وأسرار الأولياء التى أفضاها إليهم وطواها عن سائر الموحدين.

فهذه أشياء قد اشتبه على الخلق لعجزهم عن احتمالها فالمقتصر على محكمه لا يتعدى إلى ما شبه عليه بل يقتصر عنه على المحكم فإن الحاجة به إلى المحكم.

والمتشابه زينة المحكم طواها الله عن العباد، لعجزهم عن احتمالها حتى إذا انكشف الغطاء وتبجحوا (٢٥) فى دار الملك، وزال عنهم رق العبودة وصار الأمر جهراً، وزاروا الله فى داره طرقهم النظر إليه واحتمال لذة كلامه، أفضى إليهم الأسرار التى طواها عنهم.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية:

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (٢٦)

فقال: يا موسى إنه لا يرانى حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده ولا رطب إلا تفاق إنما يرانى أهل الجنة الذى لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم (٢٧)، فقد أعلمك سبب عدم الرؤية فى دار الفناء، وألق عذره إلى موسى حيث قال:

---

(٢٥) تبجبحوا: من البحبحة وهى التفسح والتوسع.

(٢٦) الأعراف (١٤٣/٧).

راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (٢٧٨/٧).

(٢٧) وقد نفى المعتزلة الروية فى الأخرة على طريقتهم العقلية المحضة فى الإستدلال العقلى وتقديمه على الأخبار المتواترة؛ وهذا أوقعهم فى خطأ فادح جسيم، فنحن إزاء النصوص الصريحة المقطوع بها من غير نكير- غير ممتاحين إلى التأويل، وهذا هو مذهب جمهور السلف المتقدمين، ومعتقد أهل السنة والجماعة والذى به ندين، وهؤلاء هم الفرقة الناجية المنصورة إن شاء الله فقد أقروا رؤيته سبحانه وتعالى فى الآخرة، وهذا هو الحق وغيره الباطل المقموع، والخطل المردود.

﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ﴾ (٢٨)

فحل بموسى من الصعق ما حل بالجبل من الدك، ما حل يعلمه أنه لا يطيقه احتماله؛ ولذلك قال: «تبت إليك» (٢٩) لأنه سأله ذلك فى دار فانية قذرت بالشرك، والمعاصى لشغوفه بريه وزلة عقله فلطف الله له إلى أن ألقى إليه عذره فى ترك إجابته، وألجأه إلى التوبة إذ تبين له حتى فزع إلى التنزيه له وإلى التوبة، وذهب قوم من الغلاة المعطلة (٣٠) إلى أن الله تعالى لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة (٣١).

واحتجوا بقوله تعالى:

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (٣٢)

وزعمت أن هذه صفة من صفاته فلا تنسخ ولا تتغير صفته فيكون فى الدنيا بخلاف ما فى الآخرة فلما قيل لهم: فمن عطل صفة من صفاته أليس قد انقطع نظام توحيده، لأن العباد وحدوا رباً بجميع صفاته، فإذا عطلت صفة فقد خرجت من توحيده.

أفتزعمون أنه حين سأل الرؤية انقطع النظام، وعطل صفة من صفاته، ففزعوا من هذا القول، والتجاؤا إلى أن موسى عليه السلام لم يسأل رؤية العين، وإنما سأل مشاهدة القلب، فلما قيل لهم: إن موسى عليه السلام قال: «ربى أرنى أنظر إليك» ولم يقل: قلبى ينظر إليك

---

(٢٨)، (٢٩) الأعراف (١٤٣/٧).

(٣٠) المعطلة: الذين عطلوا صفاته سبحانه وتعالى.

(٣١) كما قال المعتزلة.

(٣٢) الأنعام (١٠٣/٦)

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: نفى الإدراك الخاص لا ينفى الرؤية يوم القيامة إذ يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء، ولهذا كانت عائشة تثبت الرؤية فى الآخرة، وتنفيها فى الدنيا وتحتج بهذه الآية. بتصرف من مختصر ابن كثير (٦٠٥/١).

وإن كان هذا السؤال للقلب فلم تجلى للجبال ؟ قالوا : إنما جعل فى الجبل آية من آياته فتجلت الآية للجبل يقال له يقول الله تعالى : « فلما تجلى ربه للجبل » وأنت تقول آية من آياته كفى له بهذا خزيا .

[الأصل الخامس والأربعون والمائتان فى التعوذ من النفاق]

عن مالك بن أوس رضى الله عنه قال: خطبنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق» قيل يا رسول الله: وما خشوع النفاق؟ قال: خشوع البدن ونفاق القلب» (١).

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال: «لو خشع قلبه لخشع جوارحه» (٢).

قال أبو عبد الله: فخشوع القلب من المعرفة، فكلما كان أوفر حظاً من العلم بالله والمعرفة بآلائه (٣) كان أخشع فأثقال المعرفة حلت (٤) بالقلب فأدت القلب إلى ثلاث: خشعة، وخُضعة، وذلة، فالذلة الحذر، والخضعة اللين، والخشعة الانكسار، والانحناء، فهذه صفة القلب.

---

(١) أورده الهندى فى «كنز العمال» (٥٢٦/٧) وأشار إلى تخريجه عند الحكيم والعسكرى فى الأمثال، والبيهقى فى الشعب من طريق ابن بكر، والحاكم فى تاريخه. وأورده السيوطى فى «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور» (٣/٥) وعزاه للحكيم الترمذى والبهقى. وذكره السيوطى فى «مسانيد الجامع الكبير» (١٠٣٤/١) من مسند أبى بكر. وأشار إليه الزبيدى فى «اتحاف السادة المتقين» (٣٢٦/٨).

(٢) أى الحكيم الترمذى ــ رحمه الله ــ.

(٣) بآلائه: أى بنعمه.

(٤) حلت بالقلب: نزلت به.

وأما صفة النفس تحت أثقال القلب، فلها الخمود مكان ذلة القلب، والانثناء مكان الخضعة، والتهافت والتهاتر، كالرمل مكان الخشعة كما وصف الله تعالى فى كتابه الجبال فقال:

﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ (٥)

أى رملاً ينهار ويتساقط.

فإذا صارت النفس هكذا فصار القلب كما وصفنا بدئاً فقد لزمه اسم الخشوع على الحقيقة وذلك قوله تعالى:

﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (٦)

ذهب الصوت وقوة ذرو(٧) الكلام.

وقال تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ (٨)

أى ساقطة هامدة فمن لم يكن فى قلبه تراكم أثقال المعرفة فتخشع بأركانه فذاك نفاق لأنه تماوت وهو حى فالتماوت (٩) مراءاة والرياء نفاق مرة يرائى الله تعالى، فيبتغى عنده بذلك جاهاً ومدحاً، ومرة يرائى عبيده يبتغى عندهم جاهاً ومدحاً فيتخشع(١٠) وليس بخاشع.

---

(٥) المزمل (١٤/٧٣). الكثيب المهيل: الرمل السائل.
راجع لسان العرب لابن منظور (٢٢٦/٢٠) والقرطبى (١٩٧/١٧).
(٦) طه (١٠٨/٢٠)
قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: «هى همس الأقدام فى مشيها نحو المحشر» من الطبرى (٢١٤/١٦).
(٧) فى نسخة أخرى [وقوة ذرد] وهو تحريف من الناسخ.
(٨) فصلت (٣٩/٤١).
(٩) التماوت: تصنع الموت، والتهالك.
(١٠) يتخشع: يخشع من غير خشية ولا إخبات.

ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قام العبد بين يدى الله لا يتفرغ للعبث فى الصلاة» وإنه كما انتصب لله جسده فى الظاهر فقد انتصب قلبه فى الباطن، وكما رمى ببصره فى الظاهر حيث يقع من الخلقة فكذلك رمى ببصر قلبه إلى المقام الذى رتب له إن كان من أهل المرتبة، وإلا فى متعبده إن لم يكن من أهل المرتبة.

قال له قائل: وأين المراتب قال: الصديقون مراتبهم من العرش على أصنافهم عسكر دون العرش، وعسكر على العرش، وعسكر فى الملكوت، والخاصة فى ملك الملك بين يديه فأبصار قلوبهم هناك، وأبصار وجوههم فى مواقع الخلقة قيل له: وما مواقع الخلقة؟ قال: إن العبد إذا قام على الخلقة ثم رمى ببصره على الخلقة فإنما يقع من الأرض بمكان لو خر[11] ساجداً لوقعت جبهته على تلك البقعة التى لو كان قائماً فرمى ببصره لم يتعد تلك البقعة ولم يقصر عنها.

وإذا ركع فرمى ببصره على الخلقة فإنما يقع على موضع القدمين وإذا سجد فرمى ببصره فإنما يقع على موضع الصدر منه وإذا قعد للتشهد فرمى ببصره فإنما يقع على رأس ركبتيه وطرف فخذيه.

فهذا كله رمى ببصره حيث وقع ليس فيه تكلف[12] ولا أستعمال للبصر وإنما الاستعمال فى وقت النظر فهذا رمى خرج من سلطان البصر وليس بنظر والقلب رام ببصره حيث وصفنا من العلى فى مراتبهم مراتب الأولياء والصديقين.

---

(١١) خر ساجداً: سقط من فوره ساجداً.
(١٢) تكلف: من الكلفة، وهو التصنع.

ومن لم يكن من أهل المراتب، ففى متعبده بيت العزة حيث استقر القرآن فى وقت نزوله جملة فى شهر رمضان فى السماء الدنيا (١٣) فذاك محل المتعبد فمنها قبلوا القرآن بما فيه من العبودة علم العباد هذه الصفة أو لم يعلموا فإنهم داخلون فى هذا الباب كما تجد المسلمين كلهم قد دخلوا فى الميثاق يوم استخرجهم من الأصلاب علموا أو لم يعلموا فإنما يجزون وتجزى أرواحهم، ويحقق لهم بتلك الأشياء من التقرب.

ووجدنا للصلاة ثلاث مراتب عليها أرتب أهل الصلاة وقد ذكرهم الله تعالى فى تنزيله فحافظون، ومداومون وخاشعون فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (١٤)

والذين هم على صلواتهم دائمون، فوعدهم عليها الكرامة فى الجنة.

فقال تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ (١٥)

وقال:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (١٦)

فوعدهم على ذلك الفلاح والفلاح اسم ينتظم الكرامة (١٧) والترقى (١٨)

---

(١٣) نزل القرآن جملة واحدة فى شهر رمضان إلى السماء الدنيا، ليباشر مهمته فيها، ثم نزل بعد ذلك منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب الوقائع والأحداث.

(١٤) المؤمنون (٩/٢٣)

قال صاحب التسهيل: «فإن قيل كيف كرر ذكر الصلوات أولا وآخراً؟ فالجواب أنه ليس بتكرار؛ لأنه ذكر الخشوع أولا، وهنا ذكر المحافظة عليها» أهـ. (٤٩/٣).

(١٥) المعارج (٣٥/٧٠).

(١٦) المؤمنون (١/٢٣، ٢).

(١٧) فى نسخة [ينتظر] وهو تحريف من الناسخ.

(١٨) الترقى فى الدرجات: السمو والعلو.

في الدرجات والأخذ من الجنة بغير حساب والأثرة (١٩) في ذات الله والمحافظة على الوقت، والمداومة على استعمال الأركان بحدودها في الصلاة وهو أن لا يلتفت في وقت الانتصاب (٢٠) ولا يتمايل، و يسكن أطرافه ولا يستعمل منها شيئاً إلا لضرورة، وعلة مثل التراوح على إحدى القدمين، ومثل حك شيء من جسده لذباب يؤذى أو بعوضة تشغله عن الصلاة فتلك ضرورة أو بزاق أو مخاط فهذه كلها علل يعذر فيها وإذا ركع سوى ظهره لركوعه فيكون مقدمه كمؤخره وإذا سجد خوى وجخى التخوية إعطاء كل مفصل، وعضو حظه من الانتكاس للسجود، والتبخية توقيا للانبساط ليكون كهيئة الساجدين لا كهيئة المنبطحين على الأرض. ببطونهم وصدورهم فإن تلك ضجعة أهل النار على وجوههم فإذا جنحى توقى تلك الهيئة وإذا خوى أراد تركيب السجود بعضاً على بعض.

وإنما سمى سجوداً لتركيب الأعضاء بعضها على بعض وإذا رفع رأسه من الركوع لم ينحط حتى يفصل الركوع من السجود بقيام كل عضو منه إلى مكانه وإذا سجد فرفع رأسه لم يعد إلى السجدة الأخرى حتى يعود قاعداً كما كان، ويرجع كل عضو منه إلى مكانه فذاك إتمام الركوع والسجود، وإذا قعد جثا (٢١) على ركبتيه، ونصب اليمنى منه وافترش اليسرى معتمداً بجلسته عليها، فالمداومة على الصلاة ما وصفنا وأما الخشوع فهو على القلب، ومن عنده يبتغى فإذا لم يكن هناك فليس بخشوع إنما هو مداومة فالمحافظة من الخشية والمداومة من الخوف.

والخشعة من التجلى، فإذا خشى القلب حافظ وإذا خاف داوم وإذا خشع فالأركان مستعملة في القبضة ثم يتحول صفات الخشعة على

---

(١٩) الأثرة: إيثار النفس.
(٢٠) الانتصاب: القيام باعتدال واستقامة.
(٢١) جثا: من الجثو على الركب.

اختلاف صور الأفعال فيها فأولها خشعة فى صورة الأسر، ثم من بعدها خشعة الخدمة ثم من بعدها خشعة العبودة، ثم من بعدها خشعة الرق، ثم من بعدها خشعة الحمد، ثم من بعدها خشعة التعلق، ثم من بعدها خشعة التضرع، والملق مع الأمل الفسيح فى خشعته لأنه قد جعل إلى ذلك سبيلاً للأحباب وقال تعالى فى تنزيله:

﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٢٢)

عن المطلب بن أبى وداعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصلاة مثنى مثنى، وتشهد فى كل ركعتين وتباؤس(٢٣) وتمسكن وتقنع يديك وتقول: اللهم اللهم فمن لم يفعل ذلك فهو خداج»(٢٤) قوله تباؤس مأخوذ من البؤس وهو أن تفتقر إلى ربك افتقار من كان تراباً فخلق بشراً، والتباؤس والتخشع قريب أحدهما من الآخر والله أعلم وأحكم.

---

(٢٢) غافر (٤٠/٦٠).

(٢٣) تباؤس: تصنع البؤس.

(٢٤) خداج: ناقصة فهى أيضا مخدوجة، يقال أخدجت الناقة إذ ألقت ولدها ناقصاً لتمام حمله، وخدجت الناقة إذا ألقت وليدها ناقصاً لغير تمام أجل حمله.

[الأصل السادس والأربعون والمائتان فيما يقال عند النوم]

عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع (١) كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ويمسح بهما ما استطاع من جسده، ويبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده ويفعل ذلك ثلاث مرات (٢).

وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه المعوذات، وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عليه بيده رجاء (٣) بركتها.

عن يونس عن الزهري، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آوى إلى فراشه نفث (٤)

(١) في نسخة [جمع بين كفيه] وهو تحريف.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب فضائل القرآن ـ باب فضل المعوذات (٦٢/٩) عن عائشة بلفظه. وأخرجه الترمذي في «سننه» كتاب الدعوات ـ باب ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام (٤٧٣/٥). وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وأخرجه ابن ماجه في «سننه» كتاب الدعاء ـ باب ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه (١٢٧٥/٢). وأخرجه أحمد في «المسند» من حديث عائشة (١١٦/٦، ١٥٤).

(٣) رجاء: راجياً.

(٤) في نسخة [نفث في كفيه] وهو تحريف خطير.

بكفيه يقل هو الله أحد، والمعوذتين ثم يمسح بهما وجهه، وعضده، وصدره حيث ما بلغت من جسده فلما اشتكى أمرني أن أفعل ذلك به فكنت أقول أعطني كفيك أمسح بهما ببركتها قال يونس: فكنت أرى ابن شهاب يفعل ذاك إذا آوى إلى فراشه.

عن زياد بن سعدان بن شهاب حدثه عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات فمسح بيديه فلما اشتكى وجعه الذى قبض فيه طفقت (٥) أنفث عليه بالمعوذات وأمسح عليه بيديه.

قال أبو عبد الله (٦) ففى حديث عقيل يخبر أنه بدأ فنفث فقرأ كأنه دل على أن النفث كان قبل القراءة، وفى حديث مالك بدأ بذكر القراءة ثم النفث وفى حديث يونس بدأ بذكر النفث بالقراءة لأنه قال: نفث بقل هو الله أحد، فلا يكون هذا النفث إلا بعد القراءة.

وإذا فعل الشىء بالشىء كان ذلك الشىء مقدماً حتى يأتى الشىء الثانى فقال فى حديث يونس: نفث بقل هو الله أحد دل على أن القراءة مقدمة ثم نفث ببركتها لأنه يبتغى من قراءة هذه السور أن يصل إلى الجسد نورها وبركتها ولا يقدر على الإيصال إلا بمثل هذا.

وذلك أن العبد إذا قرأ استنار صدره بنور ذلك الكلام الذى يتلوه كل قارئ على قدره فإذا نفث فإنما ينفث من الصدر، فالنفث من الروح، والنفخ من النفس، وعلامة ذلك أن الروح بارد والنفس حارة وإذا قال بف خرجت الريح باردة فذاك من برد الروح وإذا قال هاه خرجت الريح حارة فتلك من النفس، فالأولى نفثة، وهذه الثانية نفخة.

---

(٥) طفقت أنفث: شرعت ذلك.

(٦) هو الحكيم الترمذى.

وإنما صار هكذا لأن الروح مسكنها فى الرأس، ثم هى منفثة فى جميع الجسد، والنفس مسكنها فى البطن ثم هى منفثة فى جميع الجسد وفى كل واحدة منها حياة بها يستعمل الجسد بالحركات، فالروح سماوى، والنفس أرضية، والروح عادتها الطاعة والنفس عادتها الشهوات، فإذا ضم شفتيه اعتصرت الروح فى مسكنها فإذا قصد لإرسالها خرجت على شفتيه مع البرد فذاك النفث وإذا فتح فاه فاعتصرت النفس.

فإذا أرسلت خرجت ريح حارة وإنما جاء الخبر بالنفث لأن الروح أسرع نهوضاً إلى نور تلك الكلمات وأوفر حظاً من النفس، والنفس ثقيلة بطيئة عاجزة فأدى الروح إلى الكفين بذلك النفث ريحاً قد باشرت أنوار الصدر التى أنارتها تلك الكلمات وأشعلتها بما جاء من المزيد فإن فى كل كلمة منها نوراً، وفى كل حرف من تلك الكلمة نوراً.

فإذا صارت الريح إلى الكفين بالنفث مسح بهما وجهه وما أقبل من جسده ثم بعد ذلك حيث ما بلغ من جسده لأن الحق للوجه لأن الصورة فيه ثم الحق من بعد ذلك لما أقبل من الجسد لأن قبالة المؤمن حيث ما كان فهو لقبالة الله.

وكذلك قلبه فى الباطن فالحق له فى النفث أن يبدأ بالوجه ثم بما أقبل من جسده، وتفاوت النفثات من أهلها على قدر نور قلوبهم، وعلمهم بتلك الكلمات.

فإذا فعل ذلك بجسده عند إيوائه (٧) إلى فراشه كان كمن اغتسل بأطهر ماء وأطيبه فما ظنك بمن يغتسل بأنوار كلمات الله تعالى.

---

(٧) إيوائه إلى فراشه: ذهابه إليه.

وكان ذلك أيضاً كثوب نفض من غباره، وخلص من شوكه وتباعد من الزهومات فعاد طرياً طيباً فخرجت نفسه إلى الله فى منامه، كذلك هذا سوى الاستغفار والتوبة والتسبيح.

والدعاء الذى أشار رسول الله صلـــى الله عليه وسلم للأمة عند منامهم وإنما اختار هذه القلات الثلاث لأن فى إحداهن مدحة الله تعالى ونعته (٨) فيه يطهر وينزه ويطيب وبالمعوذتين يتخلص من الشرك ولأن على ابن آدم عدوين عظيمى المؤنة النفس، والشيطان، يأتيان بالشك، والشرك، فى اليقظة، ويأتيان بالعين الحاسدة التى تهدم أركان النعمة.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العين حق وأكثر من يموت من أمتى بعد قضاء الله بالنفس» (٩).

وإنما صار هكذا لأن هذه الأمة أيدت باليقين، وفضلت به وطريقهم إلى الله تعالى واسعة فطولبوا بما فضلوا أن ينسبوا كل شىء يستحسنونه إلى خالقه، ويبركوا فيقولوا: تبارك الله فإذا تركوا ذلك إعجاباً بذلك الشىء تهافت ذلك الشىء، وذهب حسنه وهلك.

ولذلك قال عليه السلام حيث سبق ناقة الأعرابى ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث استبقا فقال: «حق على الله أن لا يرفع الناس أعينهم إلى شىء إلا وضعه الله» (١٠).

وإنما ذم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك العيون (١١) الغافلة عن الله تعالى فسماها حاسدة فقال:

---

(٨) نعته: وصفه.
(٩) فى نسخة [بعد قضاء الله بالعين] وهو تحريف.
(١٠) وضعه: خفضه.
(١١) أى الغافلة عن ذكر الله.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (١٢)

فإنما سمى حاسداً لأنه يحصد الأشياء حصداً ويستأصلها بسوء نظرته العاجزة عن الله تعالى.

والسين والصاد يعتقبان (١٣) يجزىء أحدهما عن الآخر كقولك: صراط وسراط فإن قال قائل فإن كان هذا الناظر بغفلته هو الجانى فما بال المنظور إليه لحقته العقوبة قيل ليس له ذا عقوبة ولكن هذا تدبير الله تعالى فى عباده ألا يرى أن الساحر يسحر بأخذته فيخلص الضرر إلى من سحره (١٤) حتى يعالج.

وكذلك فعل (١٥) برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنزلت عليه المعوذتان (١٦) فكان جبريل عليه السلام يقرأ كل آية، ويحل عقدة.

وذلك قوله تعالى:

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ (١٧)

فالساحر يعقد وينفث فيؤخذ بها أعضاء من يقصده بذلك فكذلك هذا يخلص إليه ضرر نظرته المشوبة (١٨) بالإعجاب حتى يأخذه.

---

(١٢) الفلق (١١٣/٥).
(١٣) يعتقبان: يعقب كل منها الآخر.
(١٤) راجع كتاب (سحر النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤيدين والمشككين) للسيد الجميلى. ط. التراث الإسلامى بالقاهرة. ط. أولى.
(١٥) أى كذلك سُحِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم.
(١٦) وهى سورة الفلق، وسورة الناس.
(١٧) الفلق (١١٣/٤). النفاثات: السواحر، ينفثن فى العقد: ينفلن فيها.
راجع لسان العرب لابن منظور (١٧/٣) والقاموس المحيط للفيروز ابادى (١٨٢/١).
(١٨) المشوبة: المختلطة غير الخالصة.

عدنا إلى حديث يونس عن الزهرى قلنا : فمن أتخذ هذا الفعل عند ما يأوى إلى فراشه عادة رأى النفع الظاهر فى جسده وسائر أموره ، لأن النفس تعرج (١٩) إلى الله فى منامها مع البركة والطهارة ، والنزاهة والتخلص من الشرك بقراءة هذه السورة فتسجد تحت العرش وهى بهذه الصفة قد اغتسلت بهذه الأشياء ، فتنال من حباء (٢٠) الله وكرامته ما ترجع به إلى الجسد بالخير الكثير والزيد الشافى .

وإذا عرجت إلى الله تعالى بغير هذه الصفة (٢١) سجدت وهى خالية عن هذه الأشياء فينال من الحباء والكرامة على قدره .

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : «تعرج الأرواح إلى الله تعالى فى منامها فما كان طاهرا يسجد تحت العرش ، وما لم يكن طاهرا يسجد قاصيا (٢٢) فلذلك يستحب (٢٣) أن لا ينام الرجل إلا وهو طاهر» .

قال أبو عبد الله (٢٤) فإنما ذكر عبد الله بن عمرو فى حديثه الأرواح ، وإنما هى النفوس ، وقد يسمى الشىء باسم قرينه كما قيل قلب ، وفؤاد ، فالقلب : ما بطن ، والفؤاد ما ظهر وفيه العينان والأذنان والخروج فى منامها للنفوس .

وذلك قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ

---

(١٩) تعرج : ترتفع من العروج .
(٢٠) حباء : عطاء ، من يحبو .
(٢١) أى سجدت خشوعا وهيبة ورهبة وفى بعض النسخ [سجد] فى الموضعين .
(٢٢) قاصيا : نائيا .
(٢٣) يستحب : يندب من الاستحباب .
(٢٤) أى الحكيم الترمذى .

عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٢٥)

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: إن النفوس تعرج إلى الله تعالى فى منامها فما كان طاهرا سجد تحت العرش، وما كان غير طاهر تباعد فى سجوده، وما كان جنبا لم يؤذن لها فى السجود.

قال أبو عبد الله (٢٦) فإذا كان بطهارة الوضوء، ينال القربة تحت العرش حتى يسجد هناك فكيف إذا أتى بطهارة، وتوضأ ونزه، وطاب، وطهر بأنوار كلام الله تعالى التى ترددت فى صدره ونفث منها على جسده إن هذه لسجدة لها عند الله خطر عظيم.

---

(٢٥) الزمر (٤٢/٣٩).
(٢٦) أى المؤلف ــ رحمه الله.

[الأصل السابع والأربعون والمائتان في حسن الخلق]

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة الصوم والصلاة»(1).

فدرجة الصوم درجة الصابرين، ودرجة الصلاة درجة الشاكرين فإذا وصل العبد إلى درجة الشاكرين، والصابرين فقد جمع الإيمان كله.

وذلك قول رســول الله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان نصفان نصف للشكر، ونصف للصبر» وإذا جمع العبد الإيمان كله انقطع بقوة هذا الإيمان إلى الله تعالى وإذا انقطع إلى الله نجا من شرور النفس وخدعها وأمانيها وصار في معاذ الله من وساوسها.

روى عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من انقطع إلى الله كفاه مؤنته ورزقه من حيث لا يحتسب» وبذلك أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فقال:

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (2)

---

(1) أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء في حسن الخلق (٣٦٣/٤) عن أبي الدرداء. وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.
وأخرجه الحاكم في «المستدرك» كتاب الإيمان. باب أن الله ليبلغ بالعبد بحسن خلقه درجة الصوم والصلاة (٦٠/١)، وقال الحاكم: صحيح وأقره الذهبي. وأخرجه أحمد في «المسند» من حديث عائشة (١٣٢/٦).

(2) المزمل (٩/٧٣).

فمن تمسك بهذه الآية عاش حرا كريما ومات حرا كريما ولقى الله تعالى عبدا صافيا خالصا.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حديث الرؤيا «ورأيت رجلا من أمتى بينه وبين الله حجاب، فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى» فهذا يحقق ما قلنا بدئا أن حسن الخلق يؤديه إلى الله انقطاعا عن النفس وفتنتها وحسن الخلق على ثلاث منازل.

أول منزلة منها أن يحسن خلقه مع أمره ونهيه، ويأتمر بأمره، وينتهى عن مناهيه فإذا أحكم هذا تخطى إلى المنزلة الثانية.

وهو أن يحسن خلقه مع جميع خلقه على سبيل المساعدة والمقاربة والمساهلة واللين والرفق، والمواتاة والمواراة، ومعاشرة الجميل فإذا أحكم هذا تخطى إلى المنزلة الثالثة.

وهو أن يحسن خلقه مع تدبير الله تعالى فى كل أموره فلا يريد إلا ما يريد الله ولا يشاء إلا ما يشاء الله فعينه مادة إلى ما يبرز له ساعة فساعة من حجاب الملكوت من تلك الغيوب من تدبيره فيتلقاه مهتشا راضيا قد أئتمن الله على نفسه وأحوالها فهذا رجل قد استكمل حسن الخلق واستراح قلبه، واطمأنت نفسه، واستقامت جوارحة، وألقى إلى الله بيديه سلما ووجدته كافيا كريما حسنا مولى، وناصراً فنعم المولى، ونعم النصير.

وإذا قال حينئذ حسبى الله صدقه على عرشه وإذا قال: كفى بالله وكيلا كفاه الله وإذا توكل على الله هيأ له وإذا اتكل على كرمه، وفى له بما هو سأله ولو كان ذلك طى الأرض، والمشى فى الهواء، ولو سأله يوم القيامة أمة لشفعه فيهم وكان مسكنه فى أعلى الجنان يحقق ما قلناه.

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «من ترك الكذب وهو باطل بنى له فى ربض الجنة (٣) ومن ترك المراء (٤) وهو محق بنى له فى وسطها ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها» فالذى قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى الدرداء رضى الله عنه أن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم، وهو عندنا درجة المعاشرة مع خلقه مع الأيتمار بأمره، والتناهى عما نهى عنه فهذا عبد نزل من حسن الخلق درجتين فصار كمن صام نهاره، وقام ليله فهو صابر شاكر وإنما الدرجة العليا فتلك درجة المنفردين (٥) خاصة الله.

(٣) فى نسخة [رياض الجنة].
(٤) المراء: الجدل.
(٥) فى إحدى النسخ [درجة المقربين].

[الأصل الثامن والأربعون والمائتان فى الصبر عند المرض]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مرض ليلية فصبر ورضى بها عن الله خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (١).

قال أبو عبد الله جاد العبد بنفسه على الله ليلة واحدة فجاد الله عليه بمغفرة طهرته من جميع الذنوب فصار كمن لا ذنب له، فهكذا شأن الكريم مع المؤمنين، هذا فيمن جاد عليه بليلة فكيف بمن جاد عليه فى جميع عمره بماذا يجود عليه يجود عليه غدا بوجهه الكريم، حتى يصير بالصفة التى ذكرها فى تنزيله عندما ذكر لظى (٢) نعوذ بالله منها:

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾

إلى قوله:

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ (٣)

أى ابتغى بهذا التقوى والصفاء والإخلاص أن يلقى وجهه الكريم قلبا، ويلقاه غدا فى الموقف رؤية ويلقاه فى الفردوس نظرا وذلك منتهى

---

(١) ذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (١٨٢/٢) وعزاه للحكيم الترمذى عن أبى هريرة ورمز له بالضعف. وأشار له المناوى فى «فيض القدير» (٢٢٨/٥). وأورده المنذرى فى «الترغيب والترهيب» كتاب الجنائز ــ باب الترغيب فى البلاء وفضله (١٥٤/٤).

(٢) اللظى: النار.

(٣) الليل (٢١/٩٢).

المنى ، والنظر أكثر من الرؤية لأنه يراه فى الموقف رؤية الديان (٤) عرضا ، وقبولا وجزاء وفى الفردوس (٥) رؤية الحنان نظرا وبهجة وسرورا ولذة ثم ختمه بقوله ولسوف يرضى أى يعطى حتى يرضى وإنما يعطى ما يعقل العبد ثم بين وراء ذلك ما لم يعقله .

عن جابر بن عبد الله أظنه رفعه قال : يقول الله تعالى : **(يا أهل الجنان بقى لكم شىء لم تنالوه فيقولون وما هو يا ربنا فيقول رضوانى)** .

فالرضوان آخر ما ينال أهل الجنة لا شىء أكبر منه ذكر الله جنات عدن فى تنزيله ثم قال : (ورضوان من الله أكبر) (٦) فكل عبد من أهل الجنة حظه من الرضوان هناك فيها على قدر جوده بنفسه على الله فى الدنيا .

ألا ترى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ؛ حيث بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت وكانت البيعة تحت الشجرة فى ذلك الوادى أنزل الله تعالى :

﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٧)

أوجب لهم الرضاء فى بذله (٨) واحدة بذلوا نفوسهم لله تعالى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف بمن بذل نفسه فى جميع عمره لله فمن أوجب الله له الرضاء عنه فى الدنيا فحظه فى الجنة الرضوان كله .

---

(٤) الديان : الحق سبحانه وتعالى . .

(٥) الفردوس : البستان وهو حديقة فى الجنة .

(٦) التوبة (٩/٧٢) .

الرضوان الأكبر : هو الذى لا يحل بعده سخط أبداً ، وهذا هو هدية الله سبحانه وتعالى للصالحين فى دار المقامة ، جنات النعيم . راجع المعنى فى تفسير الطبرى (١٠/١٨٢) .

(٧) الفتح (٤٨/١٨) .

(٨) بذلة : موقف عطاء واحد ، ومرة واحدة .

[الأصل التاسع والأربعون والمائتان فى مسألة التثبيت للميت عند الدفن]

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن ميتا وقف وسأل له التثبيت وكان يقول مايستقبل المؤمن من هول الآخرة إلا والقبر أفظع منه».

قال أبو عبد الله رحمه الله فالوقوف على القبر وسؤال التثبيت للمؤمن فى وقت دفنه مدد للميت بعد الصلاة لأن الصلاة بجماعة المؤمنين كالعسكر له قد اجتمعوا بباب الملك؛ فيشفعون له والوقوف على القبر لسؤال التثبيت مدد العسكر وتلك ساعة شغل المؤمن لأنه يستقبله هول المطلع وسؤال وفتنة فتانى القبر منكر ونكير فإنما سميا فتانى القبر لأن فى سؤالهما انتهارا (٢)، وفى خلقهما صعوبة ألا ترى أنهما سميا: منكرا ونكيرا فإنما سميا بذلك لأن خلقهما لا يشبه خلق الآدميين، ولا خلق الملائكة ولا خلق طير، ولا خلق البهائم، ولا خلق الهوام بل هما خلق بديع، وليس فى خلقهما أنس للناظرين إليهما خلقهما الله تعالى مكرمة للمؤمنين،

---

(١) أخرجه أبو داود فى «سننه» كتاب الجنائز- باب الاستغفار عند القبر للميت (٣/٢١٥) من رواية عثمان بن عفان مرفوعا بلفظ «كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبت فإنه الآن يسأل».
وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» كتاب الجنائز- باب الإستغفار وسؤال التثبت عند الدفن (١/٣٧٠). وقال الحاكم: هذا حديث صحيح.
(٢) انتهاراً: زجراً وتعنيفاً وتوبيخاً.

وتبصرة وهتكا لستر المنافق فى البرزخ (٣) من قبل أن يبعث حتى يحل عليه العذاب .

وإنما صارت مكرمة للمؤمن لأن العدو لم ينقطع طمعه بعد فهو يتخلل السبيل إلى أن يحيره فى البرزخ .

ومما يحقق ذلك ما روى سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال : حضرت عبد الله بن عمر فى جنازة فلما وضعه فى اللحد قال بسم الله ، وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله ، فلما أخذ فى تسوية اللحد (٤) قال : اللهم أجره من الشيطان ، ومن عذاب القبر، ومن عذاب النار، فلما سوى الكثيب عليه قام جانب القبر ثم قال اللهم جاف الأرض من كشيها ، وصعد روحه ، ولقه منك رضوانا فقلت لابن عمر أشيئا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم شيئا قلته من تلقاء نفسك قال : إنى إذا لقادر على القول بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن عمرو بن مرة قال : كانوا يستحبون إذا وضع الميت فى اللحد أن يقال اللهم : أعذه من الشيطان الرجيم فإنما كانوا يتخوفون من فتنة الفتانين من قبل العدو وأنه يشبه على من كان فى قلبه زيغ (٥) أيام الحياة فروى عن سفيان الثورى أنه قال : إذا سئل الميت من ربك ترأى له الشيطان فى صورة فيشير إلى نفسه أى أنا ربك فهذه فتنة عظيمة جعلها الله مكرمة للمؤمن إذا ثبته ولقنه الجواب . (فلذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بالثبات فيقول اللهم ثبت عند المسائل منطقه وافتح أبواب السماء لروحه) .

---

(٣) البرزخ: الحاجز بين الشيئين، وهو أيضا ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فن مات فقد دخل البرزخ .

(٤) اللحد: الشق فى جانب القبر.

(٥) زيغ: الميل، والجنف، والعدول عن المنهاج، وعن الحق.

فلو لم يكن للشيطان هناك سبيل ما كان ليدعو له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيره من الشيطان وإنما سؤال الميت فى هذه الأمة خاصة لأن الأمم قبلها كانت الرسل تأتيهم بالرسالة فإذا أبوا كفت الرسل فاعتزلت، وعوجلوا بالعذاب فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بعثه بالرحمة وأمانا للخلق فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٦)

فأمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل فى الإسلام من دخل لمهابة السيف، ثم يرسخ فى قلبه فأمهلوا (٧) فمن ههنا ظهر أمر النفاق فكانوا يسرون (٨) الكفر، ويعلنون الإيمان فكانوا بين المسلمين فى ستر، فلما ماتوا قيض لهم (٩) فتانا القبر ليستخرج جاسرهم بالسؤال.

فروى فى الحديث «أنه إذا سئل عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: لا أدرى فيضرب بالمقامع (١٠) فيقال له لا دريت (١١)»

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (١٢)

---

(٦) الأنبياء (١٠٧/٢١).

(٧) أمهلوا: أنظروا.

(٨) يسرون: يبطنون، ولا يجاهرون به، فهم يكتمونه.

(٩) قيض لهم: أعد لهم.

(١٠) المقامع: جمع مقمعة بالكسر من الحديد كالمحجن، قمعه أى ضربه بالمقمعه، وأقمعه: قهره وأذله؛ فانقمع.

(١١) وفى رواية: «لا دريت ولا تليت» وفى أخرى «لا دريت ولا عرفت» راجع التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبى (١٤٨/١) بتحقيق الدكتور الشيخ أحمد حجازى السقا. ط العلمية.

(١٢) إبراهيم (٢٧/١٤)

والقول الثابت هو قول: «لا إله إلا الله» هذا فى الدنيا، وفى الآخرة يكون التثبيت عند سؤال الملكين. راجع صفوة التفاسير للشيخ الصابونى (٦٩٣/١٣).

عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هذه الأمة تبتلى فى قبورها» (١٣) وأما قوله ما يستقبل المؤمن من هول الآخرة إلا والقبر أفظع منه فهذا للمؤمن خاصة وأما الكافر فما يستقبله من شىء إلا وهو أفظع من ما مضى.

لأن المؤمن كلما قرب من ربه تيسر عليه الأمر، وكان أقرب إلى الرحمة فإنما يحاسب المؤمن فى القبر ليكون أهون عليه غدا إذا وقف بين يديه لأن الله تعالى أنزل عبده المؤمن من نفسه أنه يستحيى منه، وأنه أوجب له محبته، ورحمته، ورأفته، فإذا كانت هذه منزلته منه وكان من العبد جفاء وانتهاك شىء حرمه الله واغترار بقول العدو ويستوجب بذلك العقوبة ليرضى الحق أناله ذلك فى القبر ليمحصه (١٤) فيخرج من القبر، وقد اقتص منه وأرضى الحق.

عن حذيفة رضى الله عنه قال: «فى القبر حساب، وفى الآخرة حساب، فمن حوسب فى القبر نجا ومن حوسب فى القيامة عذب».

ولذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل التوحيد الذين تأخذهم النار يميتهم الله إماتة حتى تحرق النار منهم ما تحرق ثم يحيهم فينجيهم».

عن أبى سعيد رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فلا نعلم الإمـــاتة سببا أكشف عن المعنى من الذى ذكرنا أن الله تعالى بعدما أوجب لعبده محبته، ورأفته ورحمته، وبذلك جعله أهلا للكلمة العليا لا إله إلا الله، وكان ممن دخل اسمه فى الآية فى التنزيل حيث يقول:

---

(١٣) راجع ما قاله القرطبى فى التذكرة (١٧٩/١) وشرحه للحديث الشريف.
(١٤) يمحصه: يفتنه ويختبره.

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾

ثم قال:

﴿ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ (١٥)

فمن دخل اسمه فى هذا المديح وفى مثل هذه المرتبة ثم حبسه فى النار حقوق الله تعالى حتى يحترق منه ما يرضى الحق كان غير مدفوع (١٦) أن الله عز وجل يستحيى من العبد، فيميته فى تلك النار حتى يقضى للحق ما وجب له ويرضيه ثم إذا أحياه أنجاه ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يستحيى من عبده وأمته أن يشيبا فى الإسلام شيبة فيعذبهما بالنار» (١٧) وفى حديث آخر «إن الله تعالى ليستحيى من عبده إذا رفع يديه إلى أن يردهما صفرا» (١٨).

---

(١٥) الفتح (٤٨/٢٦).

(١٦) غير مدفوع: قوى ثابت متيقن منه.

(١٧) رواه السيوطى فى الجامع الكبير بلفظين آخرين بسند ضعيف، وذكره الغزالى فى الدرة الفاخرة وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (٧٤٢/٢٨٤/١).

(١٨) صفراً: خاليتين.

[الأصل المائتان والخمسون في بر الوالدين]

عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن في مسجد المدينة فقال: «إني رأيت البارحة عجبا، رأيت رجلا من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرده عنه» (١).

قال أبو عبد الله فبر الوالدين شكر لأنه قال تعالى:

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ (٢)

فإذا برهما فقد شكرهما وقد قال في تنزيله:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (٣)

فإنما وجد العبد العمر من ربه في وقت انفصاله من أمه.

وقد كان في البطن حياة ولم يكن عمر فلما خرج أعطى العمر بمقدار فإذا وصل والديه ببر كان قد وصل الرحم الذي منه خرج، والصلب

---

(١) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (١٠٦/١) من حديث طويل عن عبد الرحمن بن سمره. وعزاه للحكيم الترمذي والطبراني. ورمز له بالضعف. وأشار الزبيدي في «اتحاف السادة المتقين» (١١٩/٨) إلى رواية الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وقال: سنده ضعيف.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» كتاب التعبير- باب فيما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في المنام (١٧٩/٧).

(٢) لقمان (١٤/٣١).

(٣) إبراهيم (٧/١٤).

الذى منه جرى، وكان فى فعله ذلك شاكرا فزيد من ذلك العمر الذى شكر من أجله فرد عنه ملك الموت يوهمك فى هذا الحديث أن العباد إذا وصلوا أرحامهم زيد فى أعمارهم، لأنهم بالصلة صاروا شاكرين، فشكر الله لهم ووفى لهم بما وعد فى تنزيله، فقال:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

فزاد فى أعمارهم.

عن ثوبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يزيد فى العمر إلا البر، ولا يرد القضاء إلا الدعاء وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب الذى يصيبه» (٤).

ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك، قال أبو عبد الله فعذاب القبر من البول، والنجاسات.

كذلك روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن عامة عذاب القبر من البول والتميمة» وإنما صار كذلك، لأن البول من معدن إبليس من جوف الآدمى فإذا لم يتنزه (٥) العبد من ذلك دخل قبره بنجاسات العدو، فعذب فى القبر وعذاب المؤمنين فى البرزخ وعذاب الكفار فى القيامة جعل الله هذا الماء طهورا يطهر نجاسات الدنيا وأدناس الذنوب، فإذا كان العبد مداوما على الوضوء فهو أبدا فى إزالة الأدناس، ونفض الغبار عن دينه وإذا كان يوم البرزخ وجاء العذاب عذاب الأدناس التى اكتسبها بالسيئات جاءه وضوءه فاستنقذه من العذاب.

---

(٤) لذلك فلا غرو إن كانت الفاقة فى كثير من الأحيان نتيجة اجتراحهم السيئات التى جعلت أرزاقهم محبوسة، فليحذر الذين يخالفون أمر الله، وإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا، وشقاء الآخرة.

(٥) يتنزه: يتطهر.

عن ميمونة رضى الله عنها أنها قالت : «يا رسول الله أفتنا عن عذاب القبر قال : من أثر البول فن أصابه منه شيء فليغسله بماء فإن لم يصبه أو يجده فليمسحه بتراب طيب» . قال أبو عبد الله رحمه الله فالغسل لما يعلمه فإذا خفى عليه أن يكون أصابه شيء وخاف من حيث لا يدرى وهابه ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأن عذاب القبر دله على التيمم وذلك أن الجهل به ضرورة ، وفقد الماء ضرورة وقد تفضل الله عز وجل على عبيده عند فقد الماء بالتيمم فصير طهورا فكذلك فى حال الشك ، والتخوف .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : لما توفى سعد بن معاذ رضى الله عنه ووضع فى حفرته سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبح القوم ثم كبر وكبر القوم معه فقالوا يا رسول الله مم سبحت قال : هذا العبد الصالح لقد تضايق عليه قبره حتى فرجه الله عنه ، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : كان يقصر فى بعض الطهور من البول ، ورأيت رجلا من أمتى قد أحتوشه (٦) الشياطين ، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم .

قال أبو عبد الله فالشيطان وجنوده قد أعطوا السبيل إلى فتنة الآدمى ، وتزيين ما فى الأرض له طمعا فى غوايته وقد قال :

﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (٧)

فلو لم يجعل بيده شيء ما قدر على أن يزين ، ولكن قد أعطى سلطانا بتلك الزينة التى أعطيها حتى يوصلها إلى النفوس ويهيجها تهيجا يزعزع

(٦) احتوشته الشياطين: أحصرته واستولت عليه.
(٧) الحجر (١٥/٤٠).

أركان البدن ويستفز القلب حتى يزعجه عن مستقره فلا يعتصم الآدمى بشيء أوثق (٨) ولا أحصن من الذكر لأنه إذا هاج الذكر من القلب هاجت الأنوار فاشتعل الصدر بنار الأنوار، وهيج العدو من نفسه نار الشهوات بنفثه ونفخه، ونار الأنوار تحرق نار الشهوات، وتحرق العدو فإذا رأى العدو هيج الذكر من القلب ولى هاربا، ويترك النفخ، والنفث وخمدت نار الشهوة وامتلأ الصدر نورا فيضل كيده

وذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ (٩)

وقال جل اسمه فى التنزيل:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ﴾ (١٠)

وقال:

﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ (١١)

وقال:

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (١٢)

(٨) أوثق: أكثر وثوقاً.
(٩) الإسراء (١٧/٤٦).
(١٠) الصافات (٣٧/٦)
(١١) الحجر (١٥/١٧)
راجع التفسير الكبير للفخر الرازى (١٩/١٦٩، ١٧٠).
(١٢) الصافات (٣٧/١٠)
أتبعه: لحقه، الشهاب الثاقب: هو النجم المضيء، والثقوب: هى ما تذكى به النار.
راجع تفسير الآية فى الطبرى (٢٣/٢٧) وما بعدها، والقرطبى (١٥/٦٧).

فهذه قصة السماء حرسها بشهب الكواكب، ثم جعل صدور المؤمنين كذلك فجعل قلب المؤمن خزانة لكنوز معرفته، وجعل أعلام الكنوز فى الصدر مرفوعة لعين الفؤاد حتى يؤم عين الفؤاد العلم الذى رفع له فى كل وقت علم الأن الكنوز أنواع ولكل نوع علم فإنما يرفع العلم فى الصدر لعين الفؤاد حتى يتبع العلم، فالأعلام زينة الصدر ومصابيحه.

فهؤلاء حراس السماء يحرسون أخبار السماء حتى لا يسترق العدو سمع ما فى السماء فإذا دنوا للسمع رموا بشهب الكواكب، وهؤلاء حراس الخزنة يحرسون كنوز المعرفة حتى لا يسترق العدو سمع ما فى الصدر ترأى لعين الفؤاد، وتدبير ذات الصدر.

فإذا هاج الذكر فإنما يهيج من هذه الأعلام التى فى الصدر من تلك الكنوز التى فى القلب فاشتعل القلب نورا، ولكل شعلة حريق فإن ترأى العدو فى ذلك الوقت أحرقته تلك الشعلة برمى بشعاعها، ويهرب العدو ويتخلص العبد فعلم العدو أن لله عبادا قد امتحنهم للتقوى، واستخلصهم للكرامة واستثناهم. فقال:

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (١٣)

فإنما استخلصهم الله بالذكر فأصفاهم ذكرا وأطيبهم معدنا للذكر أقواهم على العدو والعدو أشد نفارا منهم.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الشيطان ليفر من حس عمر وما رأى الشيطان عمر إلاَّ خرَّ لوجهه».

وقال تعالى فى تنزيله:

﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ (١٤)

---

(١٣) الحجر (١٥/٤٠).

(١٤) الناس (١١٤/٤).

فإنما سماه خناسا لأنه إذا جاء الذكر انخنس وذهبت قوته وإن تعرض فى ذلك الوقت احترق. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحيى بن زكريا عليهما السلام أمر بأن يأمر قومه بخمس خصال ويضرب لهم مثلا فقال رجل أتى العدو من ناحية فقاتله فلما رأى أنهم أتوه من النواحى دخل الحصن، وأغلق بابه فاستقر آمنا فى الحصن وبقى العدو خارجا.

فالعبد إذا قاتل الشيطان بنوع من أنواع البر جاءه من نوع آخر فإذا جاء الذكر هرب، وتركه لأن للذكر نورا يحرق وليس لأعمال البر تلك القوة التى يحترق منها العدو، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته (١٥) ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم قال: فالعذاب إنما يقصد العبيد الأباق (١٦) الذين هربوا وذهبوا برقابهم من الله وأهل الصلاة كلما أبقوا عادوا إلى الله فى وقت كل صلاة فوقفوا بين يديه تائبين نادمين معتذرين مسلمين نفوسهم مجددين لإسلامهم يقرضونه بالتكبير، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والركوع، والسجود، والرغبة والضرع إلى الله فى التشهد فسقطت عنهم عيوب اباقهم وهربهم، وزالت عنهم العقوبات التى استوجبوها.

ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا كلما ورد حوضا منع فجاءه صيامه فسقاه، وأرواه قال ابو عبد الله فهذا عبد اتبع هواه، وأمعن فى شهواته حتى بعد من الرحمة، فإذا بعد القلب من الرحمة عطش، وإذا عطش يبس وإذا يبس قسا ولذلك قال:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (١٧)

---

(١٥) احتوشته: استولت عليه وحاصرته.

(١٦) الأباق: الهاربون، وأبق خاص بالعبد.

(١٧) الزمر (٣٩/٢٢).

وقال :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (١٨)

فبالرحمة يرطب القلب .

ويروى وببعده من الرحمة يعطش ، فأورثه عطش القلب عطش القيامة حتى رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه فى القيامة فى تلك الحالة ؛ فإذا ترك العبد اتباع الهوى ، وامتنع من الشهوات عادت الرحمة إليه فروى لأن برد الرحمة يسكن حرارة الشهوة التى تؤدى إلى العطش ، والصيام هو ترك الشهوات ، والمنى ورفض الهوى ، وإنما جعل الحوض حوض الرسول غياثا لأهل الموقف ؛ لأنهم يقومون عطاشا من قبورهم ، لأنهم دخلوها مع الهوى والشهوات لم يفارقوها إلا بمفارقة الروح وخروج النفس فخرجوا من الدنيا عطاشا فاحتاجوا إلى الحوض ، ومن خرج من الدنيا ، وفارق الهوى ، والشهوات سكن عطشه وروى برحمة الله من قرب الله فدخل القبر ريان وخرج منها إلى يوم القيامة ريان من كل ماء عطشان إلى الله فاولئك الذين يسقون قبل دخول الجنة حتى يرووا من حيث عطشوا .

روى عن مالك بن دينار انه قال : ينادى مناد يوم القيامة اين اهل العطش فاول من يقوم داود عليه السلام ، فيسقى على رءوس الخلائق فذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (١٩)

وإنما خص داود عليه السلام بذلك لان الخطيئة عطشه فهو وإن تاب ، وقبلت توبته ، وغفر الله له فذلك العطش باق إلى ذلك اليوم .

---

(١٨) البقرة (٧٤/٢).

(١٩) ص (٤٠/٣٨).

ورايت رجلا من امتى والنبيون قعود حلقا حلقا كلما دنا (٢٠) إلى حلقة طرد فجاءه اغتساله من الجنابة فاخذ بيده فاقعده إلى جنبى.

قال ابو عبد الله فالجنابة إنما سميت جنابة لان الماء الذى جرى من صلبه قد كان جاور فى الاصل مياه الاعداء فى ظهر آدم عليه السلام فاصابته زهومة (٢١) تلك المياه بجواره، وممره من الصلب إلى مستقر العدو فى الجوف، ومستقره من المعدة إلى موضع الحدث هو كله معدنه، وإذا خرج من العبد فى يقظته، اوجب غسلا، وإذا خرج فى منامه حلما اوجب غسلا، وإذا خرج منه عند خروج الروح منه يوم الموت اوجب غسلا بعد الموت، ولذلك يغسل الميت ولا يصلى عليه حتى يغسل كما كان الحى لا يجزيه الصلاة إلا بعد الغسل.

والغسل تطهير من اثر العدو، والجنب ممنوع من قراءة القرآن ومن ان يمسه بيده، ومن ان يتخذ المساجد مجلسا لان الطهارة مفقودة، وآثار العدو موجودة، فإذا كان هكذا فهو ممنوع من حلق النبيين، ومجالسهم فى الموقف لان حلقهم فى الموقف على مراتب.

فالرسل مراتبهم معلومة، والانبياء دونهم والاولياء دونهم، كل صنف على مرتبته فهذا الجنب لو لم يكن يغتسل فى الدنيا لمنعه فقد طهارته عنهم، فلما اغتسل فى الدنيا صارت منزلته بطهارته بحيث صلح وجاز ان يقعد إلى سيد الرسل صلى الله عليه وسلم، ولما كان اصل الجنابة من الفرج، وجد المغتسل السبيل إلى اصل الفرج وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ورايت رجلا من امتى من بين يديه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، وهو متحير فيها فجاءه حجة وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وادخلاه النور.

---

(٢٠) دنا : قرب.

(٢١) زهومة: من الزُّهمة وهى الريح المنتنة.

قال ابو عبد الله رحمه الله قد وعد الله تعالى فى تنزيله فى شأن الحج حط الآثام عنه فقال:

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (٢٢)

اى يرجع مغفورا له قد سقط عنه الآثام فتلك الظلمات كانت آثام العبد فإذا قضى حجه، وفى الله له بما وعد.

واما العمرة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم روى عنه انه قال «العمرة الحج الأصغر» ورايت رجلا من امتى يكلم الناس، ولا يكلمونه فجاءته صلة الرحم، وقالت يا معاشر المسلمين، كلموه فكلموه».

قال ابو عبد الله فالرحم اصل المومنين كلهم فمن تمسك بصلته فقد ارضى المومنين كلهم ما بينه وبين آدم عليه السلام، ومن تهيا له صلة الرحم تهيا له إرضاء المؤمنين كلهم، ومن كان قاطعا للرحم آيس(٢٣) المومنون من خيره.

ولذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: «إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم» (٢٤) قال: وإنما صار هكذا لأن الرحمة منقطعة عنه، وهو فى سخط الله، وإن الله خلق الرحم بيده، وشق لها اسما من اسمه فقال: (انا الرحمن، وانت الرحم، خلقتك بيدى وشققت لك اسما من اسمى ثم ارسل حواشى قميص الرحمة من العرش ليتعلق الخلق بها، فمن وصل الرحم فقد تعلق بحاشية القميص، ومن قطعها قصرت يده عن حاشية القميص، فانقطع عن رحمة الله ولم يبق له إلا رحمة التوحيد فهذا الواصل للرحم كان رجلا قد عمل السيئات الكثيرة، وضيع الحقوق، وحسنت سيرته فى هذه الخصلة

(٢٢) البقرة (٢٠٣/٢).
(٢٣) أيس: يئس.
(٢٤) لأن الرحم موصولة بالرحمن، ومشتقة من اسمه.

الواحدة، فلما وصل الرحم نالت يده حواشى القميص فتعلق بها فنال الرحمة فجاءته الصلة فأخبرت المؤمنين فى القيامة كلموه معناه انه دخل فى رحمة الله التى يرحم بها المؤمنين، وصاروا كلهم له بعد ان كانوا عليه، ورايت رجلا من امتى يتقى وهج النار، وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته (٢٥) فصارت سترا على وجهه، وظلا على رأسه.

قال ابو عبد الله رحمه الله فالصدقة إنما صارت سترا للمؤمنين من النار لانه إذا تصدق فإنما يفدى نفسه ويفك غرامة جنايته.

قال أبو عبد الله رحمه الله فالصدقة إنما صارت ستر للمؤمنين من النار لأنه إذا تصدق فإنما يفدى نفسه ويفك غرامة جنايته.

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن يحيى بن زكريا عليهما السلام أمر قومه بالصدقة فضرب لها مثلا فقال: كمثل رجل قتل قتيلا ثم هرب فسأله أولياؤه (٢٦) أن يجعلوا دية القتيل عليه نجوما ففعلوا فأداها نجما نجما ففك رقبته (٢٧) وصار إلى أهله مطمئنا، فالنار إنما تطلب وجوه الجفاة (٢٨) فى الموقف لتلفحها (٢٩) فإذا أدى الجانى غرمه صار الأداء سترا على الوجه، وظلا على الرأس، وهكذا شأن الفدية تأخذ بالحذاء، ومن فوق فتقيك بنفسها من كل ناحية، ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، فاستنقذاه من أيديهم فأدخلاه مع ملائكة الرحمة.

---

(٢٥) فى إحدى النسخ [فضيلة الصدقة].

(٢٦) أى أولياء المقتول.

(٢٧) أى قبلت منه الدية.

(٢٨) الجفاة: القساة، وكانت العرب تقول من بدا جفا، والجفا ضد البر، ويقال تجافى عن الفراش إذا بنا عنه.

(٢٩) تلفحها النار: تحرقها.

قال أبو عبد الله (رحمه الله) فالزبانية شرط الملائكة والشرط لمن جاهر بالمعاصى من أهل الريب (٣٠) يلتمسونهم فى الطرق والمسالك ليأخذوهم فمن استتر بستر الله وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو وإن استعمل أعمال أهل الريب بعد أن يكون مستورا لا ينتهك، فالشرط فى الدنيا منتهون عن أخذه غير ملتمسين أشباه هؤلاء لحرمة ذلك الستر.

فكذلك فى الآخرة إذا طلبت الزبانية فى عرصة القيامة أهل المجاهرة بالمعاصى (٣١) فوقع هذا المستور فى أيديهم نفعه ذلك النهى عن المنكر والأمر بالمعروف، وكل من عمل المعاصى فى الدنيا سرا لا يجاهر به فكائن منه أن ينهى عن المنكر إذا لقيه، وإذا فعل ذلك كانت ملائكة الرحمة أحق به من ملائكة العذاب، ومن استحقته ملائكة الرحمة فى الموقف، فقد نجا.

ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده، فأدخله على الله تعالى.

قال أبو عبد الله رحمه الله ينبئك فى هذا القول أن العبد تحجبه ذنوبه عن الله فى الدنيا قلبا، وفى الموقف غدا بدنا وأن حسن الخلق منيحة (٣٢) من الله لعبده لأن الأخلاق فى الخزائن فإذا أحب الله عبدا منحه خلقا منها ليدر عليه ذلك الخلق كرائم الأفعال، ومحاسن الأمور، فيظهر ذلك على جوارحه، فيزداد العبد بذلك محبة توصله إليه فى الدنيا قلبا، وفى الآخرة بدنا وحب الله عبده يمحق الذنوب (٣٣) محقا، ويتركه من آثامه عطلا.

---

(٣٠) الريب: الشك.
(٣١) أى المكاشفون بها.
(٣٢) منيحة: لعل الأصوب منحة أى هبة.
(٣٣) يمحق الذنوب: يمحوها.

وإذا أحب الله عبدا أهدى إليه خلقا من أخلاقه، وإذا رحم الله عبدا أذن له فى عمل من أعمال البر فهذه ثمرة الرحمة، وتلك ثمرة المحبة، ورأيت رجلا من أمتى قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءة خوفه من الله فأخذ صحيفته، فجعلها فى يمينه قال أبو عبد الله رحمه الله فأعظم الأهوال فى القيامة ثلاثة مواطن: عند تطاير الصحف، وعند الميزان وعند الصراط.

وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أنه قال: «لا يذكر أحد(٣٤) أحدا فى هذه المواطن» فإذا وقعت الصحيفة بيمنه أمن وبانت سعادته قال الله تعالى فى تنزيله:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ (٣٥)

عن الحسن رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال ربكم تبارك وتعالى لن أجمع على عبدى خوفين، ولن أجمع أمنين، من أخفته فى الدنيا أمنته فى الآخرة فمن قاسى خوفه فى الدنيا أوجب له الأمن يوم القيامة فإذا جاءه الهول عند تطاير الصحف، جاءه ذلك الخوف فنفعه بأن جعل صحيفته فى يمينه حتى يأمن، ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه فجاءته أفراطه(٣٦) فثقلوا ميزانه.

قال أبو عبد الله فالأفراط أولاده الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم فإنما ثقل ميزانه لأنهم أطفال موحد قدموا على ربهم بلا شرك(٣٧)، ولا ذنب قدبر الله خلقهم من صلب موحد، فيهم صار من أهل رحمة الله، وإنما يقل الموازين بالرحمة.

(٣٤) وردت بالأصول [أحداً أحداً] وهو تحريف خطير من النساخ.
(٣٥) الانشقاق (٩/٨٤).
(٣٦) أفراطه: متقدماته، وسوابق أعماله.
(٣٧) فى نسخة أخرى [بلا شك ولا ريب] وهو تحريف خطير.

وقال فى حديث آخر «من مات له ثلاثة أولاد لم يبلغوا (٣٨) الحلم أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» والموازين تثقل بالحسنات، ومن أحسن الحسنات ذرية يخرجها الله من صلب موحد ثم يقبضهم لم يتدنسوا بمعصية، ورأيت رجلا من أمتى قائما على شفير جهنم (٣٩)، فجاء وجله (٤٠) من الله فاستنقذه من ذلك ومضى.

قال أبو عبد الله الوجل هو فى وقت انكشاف الغطاء لقلب المؤمن، وهو خشية العبد وإن جهنم حائلة بين العباد وبين الجنة حتى يضرب الجسور، ويهيأ القناطر فعندها يستبين الصراط وهو الطريق لأهله فالخلق كلهم على شفير جهنم وقوف هائبون (٤١) لها فوجل (٤٢) العباد يجعل لهم السبيل ليقطعوها لأن الخشية ثوابها المغفرة.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ (٤٣)

والمغفرة نورها ساطع وهو نور الرأفة فإذا جاءت الرأفة وجل العبد قلبا وذهبت الحيرة، وتشجعت النفس؛ فمضت ورأيت رجلا من أمتى قد هوى فى النار فجاءته دموعه التى بكى من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار.

قال أبو عبد الله: هذا عبد استوجب النار بعمله فأدركته رحمة الله ببكائه من الخشية فانقذته لأن دمعة الخشية تطفىء بحورا من النيران،

(٣٨) فى نسخة [يبلغوا الحنث] وهذا التحريف من الناسخ.
(٣٩) شفير: حرف.
(٤٠) الوجل: الفزع.
(٤١) هايبون: من الهيبة وهى الخوف.
(٤٢) وجل العباد: فزعهم.
(٤٣) الملك (١٢/٦٧).

ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة (٤٤) فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى.

قال أبو عبد الله رحمه الله حسن الظن من المعرفة بالله، وعظم رجاء العبد وأمله لربه من المعرفة فلم يضيع الله معرفة العبد لأنه هو الذى من عليه بها فلم يرتجع فى منه ووفى له بأن أعطاه حسن الظن فى الدنيا من تلك المعرفة الممنون (٤٥) بها عليه ثم حقق ظنه فى ذلك الموقف أى كما عرفتنى ثم ظننت من معرفتك أنى أنجيك فلك النجاة والأمان فسكن رعدته، ورأيت رجلا من أمتى يرجف أحيانا، ويحبو أحيانا، ويتعلق أحيانا، فجاءته صلاته على فأخذته فأقامته ومضى على الصراط.

قال أبو عبد الله رحمه الله الصلاة على الرسول من العبد بنوة لأبيه يريد أن يرى أباه مقام الولد للأب ولذلك أمر الله العباد أن يصلوا عليه فذاك حق للرسول يقضونها بمنزلة الأولاد يقضون حقوق آبائهم، وإذا كان الولد هكذا فمن شأن الوالد أن يأخذ بيد الولد فى وقت عثراته فيقيمه، فصارت صلوات العباد للرسول عليه السلام بمنزلة ذلك، ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب، وأدخلته الجنة.

قال أبو عبد الله رحمه الله فهذه كلمة جعلت مفتاحا لأبواب الجنة، وإنما غلقت دون هذا العبد كأنه جاء بمفتاح ليس له أسنان وقد نجد فى الدنيا أن يجىء الرجل بمفتاح الباب، وقد ضاع بعض أسنانه، فلا يزال يردده ويحركه حتى يفتحه وإذا لم يكن بيده مفتاح لم يفتح فهذا عبد قد ضيع الأسنان فأغاثه الله بما جاء به.

---

(٤٤) السعفة: بفتحتين غصن النخل، وتجمع على (سعف).
(٤٥) الممنون بها: المتفضل بها.

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المؤمنين يدعون من أبواب الجنة وأن أبوابها مقسومة على أعمال البر فباب للصلاة وباب للصيام وباب للصدقة وباب للحج، وباب للجهاد، وباب للأرحام، وباب لمظالم العباد، وهو آخرها فهذه سبعة أبواب مقسومة على أعمال العباد برا وكذلك أبواب النيران مقسومة على أعمال أهلها لكل باب منهم جزء مقسوم، وباب للجنة زائد لأهل الشهادة يسمى باب التوبة، فأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه هذه الرؤيا ليعلم العباد قوة هذه الأفعال التى ذكرها من العبيد أيام الدنيا ماذا لكل نوع من هذه الأعمال من القوة هناك فى الموقف، وفى أى موطن يغيثه ويؤيده ليعلم العباد أجناس هذه الأفعال ليكثر منها كى إذا استقبلته أهوال القيامة وتارات (٤٦) الموقف نسأله عونها وقوتها.

(٤٦) تارات: جمع ترة وهى الثأر.

[الأصل الحادى والخمسون والمائتان فى وصف مشى الرسول عليه السلام]

عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مشى تفلع كأنما يمشى فى صبب»(١).

وعن هند بن أبى هالة الكندى قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطو تكفئا إذا مشى كأنما ينحط من صبب.

عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مشى كأنما يتوكأ على شيء.

قال أبو عبد الله فالمشيء بالقلب، ومن القلب يتأدى قوة المشى إلى الساقين ألا ترى أن القلب إذا فزع وارتاع(٢) وقع القائم، وذهبت رجلاه والسكران إذا غاب ذهنه، وعقله عن قلبه استرخت رجلاه

---

(١) اخرجه الترمذى فى «سننه» كتاب المناقب ــ باب ما جاء فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم (٥٩٨/٥) عن على رضى الله عنه بلفظين:

الأول: «إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما نحط من صيب» وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

والثانى بلفظ: «إذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صبب» وقال: هذا حديث حسن غريب ليس إسناده بمتصل.

وأحمد فى «المسند» من حديث على بن أبى طالب كرم الله وجهه (٩٦/١، ١١٦، ١١٧، ١٢٧، ١٣٤، ١٥١). والزبيدى فى «اتحاف السادة المتقين» (١٥٤/٧) ذكر طرقا مختلة للحديث.

(٢) ارتاع: أخذه الروع، وهو الفزع.

فاختلفتا وربما وقع فإذا أناب إليه عقله، وذهنه قوى ذلك لنعلم أن قوة جميع الأركان بالقلب إذا كان الذهن، والعقل معه فكان قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشحونا بكنوز المعرفة شحن السفينة إذا أثقلت حتى غابت فى الماء إلى منطقتها وكانت كنوزه على صنفين عن اليمين أسرار الله، وعن اليسار سمات الله.

فالرحمة مع الأسرار، والحق مع السمات، وحب الله أمامه جؤجؤ(٣) السفينة وشوق الله له شراع سفينته، وفرحه به رياح الأفراح.

فكان إذا مشى مالت به الصنفان، فمرة أثقال أسرار الله تميل به ومرة أثقال سمات الله تميل به فإذا استقر قائما على المنبر أو قاعدا فى مجلس استقرت به أثقال الحب وإذا هبت رياح الأفراح، وهاج الشوق فأقام إلى الصلاة فقرت عينه (فذلك قوله حبب إلى الصلاة وقيل لى خذ منها ما شئت وإن الله جعل قرة عينى فى الصلاة) فأثقال الأسرار مطوية عن الخلق إلا عن أهل جذبة الله الذين أدرجهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وجعلهم قرة عينه، فسارٍبهم على طريقه وجعل سقياهم من مشربه، ومرعاهم فى ملك الملك بين يديه على مائدته تلك ضيافة محمد صلى الله عليه وسلم لقرة عينه فى عرس الله وهو بدء الربوبية وبدء التدبير.

وتلك حكمة الله، وأثقال السمات حشو ما فى الأمثال العليا، والأسماء الحسنى فتلك حكمة الخلق، والحق موكل بهذه والرحمة العظمى، منهضة بتلك فصار هذا القلب كسفينة موقرة من كنوز المعرفة مشحونة بعلم الله محفوفة بآلاء الله تجرى فى بحر غيب الله، وهو بحر الذكر، وهو ذلك البحر الذى من شرب منه شربة نسى نفسه ولم يلتفت إليها إلى يوم اللقاء.

---

(٣) جؤجؤ السفينة: صدرها.

وهبوب رياح أفراح الله قد هبت في شوق الله إلى عبده ورفعت السفينة بما فيها من الكنوز وميلانها مرة هكذا، ومرة هكذا فالحق يمسكها عن الانقلاب من جانبه، والرحمة تمسكها عن الانقلاب من جانبها، والعدل على كوثل السفينة يستقيم بسيرها بمجذافها، ومجذافها مشيئة الله تعالى، فلولا المجداف لكان الشراع ورياحها تطير بها فتضرب بها صخرة حتى تنكسر وتغرق أوتقذف بها إلى جزيرة يابسة فتلقيها على الأرض لوحا لوحاً، ولكن المجداف الموكل به على كوثلها يستقيم بصدرها، والحب غالب على الأشياء التي في قلب المؤمن.

فلولا الثبات من الله تعالى بالمشيئة أطار الحب به كل مطير، ورمى به في واد فعير(٤) ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ (٥)

فانظر أي وعيد هذا فإنما هاج من رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الحب لله حتى حرصه على دخولهم في الإسلام فأجابوه إلى الدخول في الإسلام على شريطة أن لا يركعوا في صلاتهم وأن يتركهم حتى يتمتعوا باللات سنة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكاد يحترق من الحب لله فيحرص(٦) على دخولهم في الإسلام، فلما جاؤا بهذه الكلمة وهم ثقيف أهل الطائف(٧) وجد رسول الله صلى الله عايه وسلم من

(٤) فعير: بعيد القعر.
(٥) الإسراء (١٧/ ٧٥).
ضعف الحياة: ضعف عذاب الحياة، وضعف الممات: ضعف عذاب الممات. وقد ذكر هذا الطبري في تفسيره. (١٥/ ٨٩) بتصرف.
(٦) في نسخة [حتى حرضه].
(٧) وجد وجداً: حزن حزناً، وغضب غضباً.

هـذه الكـلمة وجـدا شديدا واشتعل نارا ودعا بوضوئه كالمتبرد حتى قال عـمـر رضى الله عنـه «أحـرقتم رسـول الله صـلى الله عليه وسلم أحرق الله أكـبـادكم» وإنما احترق رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل أنهم طمعوا فيه أن يجيبهم إلى ذلك لما رأوا من رفقه وعطفه، وسروره بمجيئهم بعد أن كان قد حاصرهم شهرا فهال رسول الله صلى الله عليه وسلم طمعهم فيه، وخاف أن يكون قد أفرط (٨) فى تعظيم مجئهم وأنزل الله تعالى:

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۞ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ (٩)

فـلـم ينـسبـه إلـى أنـه هـم بـالـركـون (١٠) أو مـال إليهم بل أعلمه أن الثبات هو الذى عصمه بعلمه إن حبه هذا يهيج حرصه حتى تجد النفس السبيل إلى القلب، فيشاركه فى المحبة لأن الحب فى القلب، والحرص فى النفس.

فلولا التثبيت لافتتن فاعلمه المنة عليه بالعصمة وأن خطر الحب عظيم وإنه يسبى (١١) القلب فإذا لم يكن له ثبات ذهبت قوة القلب، فطارت به لغلبة الفرح الذى فى الحب بمنزلة السفينة التى طارت فصدمت بها جبلا؛ فتكسرت قطعة قطعة وتبددت كنوز فى بحر الغيب غرقا فلا حق بقى ولا رحمة.

---

(٨) أفرط: أغرق، وأسرف.

(٩) الإسراء (١٧/ ٧٤).

راجع التفسير الكبير للفخر الرازى (٢١/ ٢٢) والجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٠٠).

(١٠) أى إلى الشروع فى الركون.

(١١) يسبى: يأسر.

[الأصل الثانى والخمسون والمائتان فى أن الأشربة من خمس]

عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأشربة من خمس من الحنطة، والشعير، والتمر، والزبيب، والعسل، فما خمر فهو خمر» (١).

قال أبو عبد الله رحمه الله قوله الأشربة من خمس أى هذه أشياء ينبذ عليها الماء فيستخرج بالماء ما فيهن من القوة قوله: فما خمر فهو خمر يعنى إذا تركته نبا على هيئته التى خرج فلم تأخذه قوته بالنار فشربته خالطت القوة التى فيها قوة العدو التى أعطى؛ فإنه موكل بما أعطى من هذه الأشربة، فإذا تركتها بقوتها جاء العدو وبما بيده فخلطه بها ثم وجد السبيل إلى المعدة بنصيبه فإذا أدخل الجوف خمر القلب أى غطاه، وحال بين القلب والعقل، لأن العقل فى الرأس، وشعاعه فى الصدر، والتدبير للعقل مع القلب فى الصدر لأن عين الفؤاد فى الصدر، وشعاع العقل يشرق فى الصدر فبذلك الإشراق يهتدى القلب إلى ما حسن وقبح، وإنما نزل القرآن بتحريم الخمر، والخمر اسم لما خمر الفؤاد يغطيه، ويحول بينه وبين شعاع العقل، وكل شراب كانت فيه هذه الصفة فقد لزمه اسم الخمر، ولزمه التحريم.

---

(١) الترمذى فى سننه -كتاب الأشربة- باب ما جاء فى الحبوب التى يتخذ منها الخمر (٢٩٧/٤). وقال هذا حديث غريب. وأحمد فى «المسند» من حديث النعمان بن بشير (٤/ ١٣٧٥» والهيثمى فى «مجمع الزوائد» -كتاب الأشربة- باب فيما يسكر (٦٥/٥) وابن ماجة فى سننه -كتاب الأشربة- باب ما يكون منه الخمر (١١٢١/٢).

ولذلك قال عمر رضى الله عنه «الخمر ما خامر العقل» أى غطاه.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام»(٢) المسكر هو المفعل للسكر والسكر سد العقل ومنه يقال لسد النهر سكر ومنه قوله تعالى:

﴿ سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ (٣)

أى سدت، فالماء جار فى النهر، فإذا ألقيت فى بعض طريقه كيسا من التراب وغيره بقى الماء إلى حيث انتهى فصار ما سفل من الكيس من بطن النهر خاليا.

فكذلك العقل قراره فى الدماغ، ثم شعاعه جار إلى الصدر إلى عينى الفؤاد لتدبير الأمور، وتمييز الحسن والقبيح، والضر والنفع فإذا شرب هذا الشراب، ولم يكن أخذ قوته بالطبخ فالعدو منه بنصيبه يخلص إلى الصدر(٤) برجاسته، ونجاسته فإذا وقعت هذه النجاسة، والظلمة فى هذا الطريق بين عينى الفؤاد والرأس، صار سدا فيبقى الصدر مظلما، وما وراه السد مما يلى الرأس مضيئا، مشرقا لا ينتفع بذلك عينا الفؤاد فيبقى الصدر خاليا كما بقى النهر، ويبقى عينا الفؤاد فى ظلمة ما جاء به العدو فسمى ذلك فى النهر سَكَرا بفتح السين، وسمى هذا سكرا بضم السين.

---

(٢) رواه مسلم عن ابن عمر بزيادة «ومن شرب الخمر فى الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب، لم يشربها فى الآخرة. وعزاه النجم لأحمد ومسلم والأربعة عن ابن عمر بهذا اللفظ وذكره العجلونى فى «كشف الخفاء» (٢/١٨٢/ ١٩٩٢).

(٣) الحجر (١٥/١٥).
سكر فى أبصارنا: غشيت، وقرأ الحسن: سُكِرت ــ بالتخفيف ــ وقال: سحرت. راجع الطبرى (١٤/ ١٠) ولسان العرب (٦/ ٤٠) وراجع المعنى أيضاً فى القاموس المحيط (٢/ ٥٢).

(٤) رجاسة: قذارة من الرجس.

فمن أجاز طلاق السكران وفرق بينه وبين المعتوه، والمجنون والصبى فلان السكر سد والعقل وراء السد قائم وهو حجة الله تعالى على العبد، لوجوب الأحكام عليه، والصبى لم يعط عقل الحجة، وهو تمام العقل الذى به يقوم حجة الله، وعلامته أنه إذا تم فحرارة ذلك النور تؤدى إلى الصلب فيخرج منه الماء الذى يوجب الغسل أما بحلم أوبجماع.

فلذلك صيروا الحلم علامة الإدراك، وجرى الحكم عليه، لأن العقل قد تم وقبل ذلك كان صغيرا لا يحتمل دماغة ذلك العقل.

وأما العتاهة فهو التحير وهو أن يهيج من المرة ما يتأدى إلى الدماغ فيفسد العقل، ويخالطه فليس هناك عقل يقدرأن يعمل شيئا لأنه قد خالطه (٥) وكذلك الجنون هو من المرة فكل ما ستر العقل من ورائه على هيئته، لم يخالطه شيء إلا أنه متمكن لانسداد الطريق.

وقد يكون هذا السد سدا رقيقا، وسدا كثيفا فربما عمل بعض عقله من خلال ذلك السد ألا ترى أنه يعقل شيئا ولا يعقل شيئا لأن العقل بمكانه لم يخالطه شيء، وفى حال الجنون خالط العقل ذلك الداء لأنه خلص إلى الدماغ، وأما الصبى فإنه لم يعط تماما وهو يزاد قليلا قليلا باللطف، حتى يبلغ من السن ما يحتمل ذلك وجد العقل مكانا ينفسخ فالذى فرق بين طلاق السكران، وطلاق المعتوه، والمجنون، والصبى (٦) إنما فرق لهذا.

وأما الذين لم يجيزوا طلاقه، فإنما نظروا إلى افتقاد القلب العقل فإذا

---

(٥) خالطه: مازجه.

(٦) الصبى أى الذى لم يبلغ الحنث ولم يحتلم.

افتقده لم يلزموه شيئا (٧) من الأحكام (٨) لأنه إنما تقوم الحجة بالعقل (٩).

(٧) وردت فى الأصول (شيىء) وهو تحريف.
(٨) أى من أحكام التكليف من الأوامر والمنهيات لأن العقل والبلوغ مناط التكليف لم يتم بعد.
(٩) لذلك فإن فاقد العقل معدوم الأهلية.

[الأصل الثالث والخمسون والمائتان في أن القرآن مثله كجراب فيه مسك]

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وأمر عليهم أميرا منهم هو أصغرهم، فلم يسيروا فلقى النبى صلى الله عليه وسلم رجلا منهم فقال: يا فلان مالك أما انطلقتم؟ قال: يا رسول الله أميرنا يشتكى رجله، فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم أو بعث إليه فقال: «بسم الله وبالله وأعوذ(١) بعزة الله، وبقدرته من شر ما فيها» سبع مرات، فبرأ(٢) الرجل، فقالوا له: يا رسول الله أتؤمره علينا وهو أصغرنا؟ فذكر النبى صلى الله عليه وسلم قراءته للقرآن فقال: يا رسول الله لولا أنى أخاف أن لا أقوم به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن القرآن مثله كجراب فيه مسك قد ربط فيه فإن فتحته فاح ريح المسك، وإن تركته كان مسكا موضوعا مثل القرآن إن قرأته وإلا فهو فى صدرك).

---

(١) الهيثمى فى «مجمع الزوائد» -كتاب التفسير» باب فى فضل القرآن ومن قرأه (١٦١/٧). وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه يحى بن سلمة بن كهيل ضعفه الجمهور، ووثقه ابن حبان، والسيوطى فى «مسانيد الجامع الكبير» من مسند عثمان بن عفان (١٠/٢) وعزاه للطيالسى والبغوى فى مسند عثمان، والسيوطى فى «الجامع الكبير» (١٩٣٠/٢) وعزاه للحكيم الترمذى والرامهرمزى فى الأمثال عن عثمان، والترمذى فى سننه -كتاب فضائل القرآن- باب ما جاء فى فضل سورة البقرة، وآية الكرسى (٥٦/٥). وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن.

(٢) برأ: شفى.

عن أبى أمامة رضى الله عنه يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة إن الله تعالى لا يعذب قلبا وعى القرآن».

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو كان القرآن فى إهاب ما مسه النار» (٣)، قال أبو عبد الله من حرمة القرآن أن لا تمسه إلا طاهرا وأن تقرأه وأنت على طهارة، وأن تستاك، وأن تتخلل، وتطيب فإن هذا طريقه وأن تستوى قاعدا إن كنت فى غير صلاة ولا تكون متكئا وأن تتلبس له كما تتلبس للدخول على الأمير لأنك مناج (٤) وأن تستقبل القبلة بقراءته، كان أبو العالية (٥) إذا قرأ أعتم (٦) ولبس وارتدى واستقبل القبلة وأن يتمضمض كلما تنخع.

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يكون بين يديه تور إذا تنخع تمضمض، وأخذ فى الذكر، وأن يمسك عن القراءة إذا تثاءب، فإن التثاؤب من الشيطان وأن يستعيذ بالله ويبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم، وإذا أخذ فى سورة لم يشتغل بشىء حتى يفرغ منها إلا من ضرورة، وإذا أخذ فى القراءة لم يقطعها ساعة بساعة بشىء من كلام الآدميين من غير ضرورة وأن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلامه فيخلطه بجوابه لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة فى البدء وأن يقرأه على تؤدة، وترسل، وترتيل، وأن يشتغل به ذهنه، وفهمه حتى يعقل ما به يخاطب، وأن يقف على آية الوعد فيرتغب إلى الله

---

(٣) إهاب: جلد.
(٤) مناج: من المناجاة.
(٥) تقدمت ترجمته.
(٦) أعتم: لبس العمامة.

تعالى ويسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد(٧) فيستجير(٨) بالله منه، وأن يقف على أمثاله فيمتثلها وأن يلتمس إعرابه وأن يؤدى لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللطف تماما فإن لكل حرف عشر حسنات، وإذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ويشهد بالبلاغ للرسل صلوات الله عليهم ويشهد على ذلك أنه حق فيقول: صدقت ربنا وبلغت رسلك، ونحن على ذلك من الشاهدين اللهم اجعلنا من شهداء الحق القائمين بالقسط ثم يدعو بدعواته وأن لا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأها.

فإنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنه مر ببلال، وهو يقرأ من كل سورة شيئاً فأمره أن يقرأ السور كلها» أو كما قال عليه السلام ومن حرمته إذا وضع الصحيفة أن لا يتركه منشورا وأن لا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدا عاليا على سائر الكتب و وأن يضعه فى حجره إذا قرأه أو على شىء بين يديه ولا يضعه بالأرض وأن لا يمحوه من اللوح بالبزاق ولكن بغسله بالماء، وإذا غسله بالماء أن يتوقى النجاسات من المواضع، والمواضع التى توطأ فإن لتلك الغسالة حرمة وإن من كان من قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته وأن لا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست(٩) وقاية للكتب فإن ذلك جفاء عظيم.

ولكن يمحوها بالماء، وأن لا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرة، فكان أبو موسى الأشعرى(١٠) يقول: إنى لأستحى أن

(٧) الوعيد: التهديد، والتلويح بالعقاب.
(٨) يستجير بالله: يستغيث به.
(٩) درست: عفت وأخلقت.
(١٠) صاحب الإمام على، وأحد الحكمين بعد حرب صفين، أصله من بنى الأشعر، كان شجاعاً فاتحاً ولد فى زبيد باليمن سنة ٢١ ق هـ. وقدم مكة عند ظهور الإسلام فأسلم وهاجر إلى الحبشة، وتوفى بالكوفة سنة ٤٤هـ وله فى الصحيحين ٣٥٥ حديثاً. راجع الإصابة (ت ٤٨٨٩) والطبقات الكبرى (٤/ ٧٩) وحلية الأولياء (١/ ٢٥٦).

لا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرة وأن يعطى عينه حظها منه ؛ فإن العين تؤدى إلى النفس، وبين النفس والصدر حجاب، والقرآن فى الصدر فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فيؤدى إلى النفس وإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد اشتركا فى الأداء، وذلك أوفر للأداء، وكان قد أخذت العين بحظها كالأذن.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اعطوا أعينكم حظها من العبادة قالوا: يا رسول الله، وما حظها من العبادة؟ قال: النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه».

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن» (١١) ومن حرمته أن لا يتأوله عند ما يعرض له من أمر الدنيا والتأول مثل قولك للرجل إذا جاءك: «جئت على قدريا موسى» (١٢) ومثل قولك: «كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية» عند حضور الطعام، وأشباه هذا ومن حرمته أن لا يقال سورة كذا كقولك سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة النحل، ولكن يقال: السورة التى يذكر فيها كذا.

ومن حرمته أن لا يتلى منكوسا كفعل معلمى الصبيان يلتمس أحدهم بذلك أن يرى الحذق من نفسه (١٣) والمهارة، فإن تلك مجانة منهم (١٤)، ومن حرمته أن لا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل

---

(١١) رواه ابن قانع عن أسير بن جابر السجزى فى الإنانة عن أنس رضى الله عنه. وضعفه السيوطى فى «الجامع الصغير» (١/ ٥٠).

(١٢) وهذه الأقوال كثيراً ما يتندر بها البسطاء كنوع من الفكاهة وهم لا يدركون خطورة فعلهم هذا.

(١٣) الحذمة: المهارة.

(١٤) مجانة: لهو.

العشق[١٥]، ولا بترجيع النصارى، ولا نوح[١٦] الرهابنة فإن ذلك كله زيغ[١٧]، وعن حذيفة بن اليمانى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقرؤا القرآن بلحون العرب، وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق، وأهل الكتابين فإنه سيجئ قوم من بعدى يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهابنة والنوح لا يجاوز حناجرهم».

ومن حرمته أن نجلل تخطيطه إذا خططته، عن أبى حليمة[١٨] (أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة فر على بن أبى طالب رضى الله عنه فنظر إلى كتابه فقال له: أجلل قلمك فأخذت القلم فقططت[١٩] من طرفه قطا ثم كتبت، وعلى رضى الله عنه قائم ينظر إلى كتابتى فقال: هكذا نوره كما نوره الله تعالى).

ومن حرمته أن لا يجهر بعض على بعض فى القراءة فيفسد عليه حتى يبغض إليه ما يسمع، ويكون كهيئة المغالبة، ومن حرمته أن لا يمارى[٢٠] ولا يجادل فيه من القراءة ولا يقول لصاحبه ليس كذا فلعل تلك القراءة صحيحة بين القراء؛ فيكون قد جحد كتاب الله تعالى، ومن حرمته أن لا يقرأه فى الأسواق، ولا فى مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء.

---

(١٥) لما فيها من الابتذال السخيف غير المناسب لجلال القرآن وهيبته التى تخالط النفوس.

(١٦) الرهابنة: جمع راهب، ويجمع أيضاً على رهبان.

(١٧) زيغ: عدول عن الحق.

(١٨) فى نسخة أخرى [عن أبى حكيمة].

(١٩) قطط: من قطّ الشيىء قطعه عرضاً، وبابه رد ومنه قطّ القلم، المقطة ما يقط عليه القلم.

(٢٠) يمارى: يجادل، ومنها المماراة.

قال تعالى:

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ (٢١)

هذا إذا مر بنفسه فكيف إذا مر بالقرآن الكريم ومن حرمته أن لا يتوسد(٢٢) المصحف، ولا يعتمد عليه، ولا يرمى به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله، ومن حرمته أن لا يصغر المصحف.

عن علي رضي الله عنه قال: «لا تصغر المصحف» ومن حرمته أن لا يخلط به ما ليس منه، ومن حرمته أن لا يحلى بالذهب، ولا يكتب بالذهب، فيخلط به زينة الدنيا، عن أبي عوانة عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يكره أن يحلى المصحف أويكتب بالذهب أويعلم عند رؤس الآي أويصغر.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا زخرفتم مساجدكم، وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم».

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى مصحفا قد زين بفضة قال: «تغرون به السارق وزينته في جوفه» ومن حرمته أن لا يكتب على الأرض، ولا على حائط كما يفعل به في المساجد المحدثة.

عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب في أرض فقال لشاب من هذيل: ما هذا؟ قال: من كتاب الله كتبه يهودي، قال: لعن الله من فعل هذا لا تضعوا كتاب الله إلا في مواضعه» ورأى عمر بن عبد العزيز(٢٣) ابنا له يكتب

---

(٢١) الفرقان (٢٥/٧٢).

(٢٢) يتوسد المصحف: يجعله تحت رأسه.

(٢٣) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي خامس الخلفاء الراشدين، ولد ونشأ بالمدينة. توفي سنة ١٠١هـ. راجع «صفة الصفوة» (٢/٦٣) ومروج الذهب=

القرآن على حائط فضربه، ومن حرمته إنه إذا اغتسل بكتابته مستشفيا من سقم أن لا يصبه على كناسة أوفى موضع نجاسة، ولا على موضع يوطأ، ولكن ناحية من الأرض فى بقعة لا يطأها الناس، أويحفر حفيرة فى موضع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفير ثم يكبسها أوفى نهر يخلط بمائه فيجرى، ومن حرمته أن يفتتح كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات لئلا يكون فى هيئة المهجور.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله أى العمل أفضل فقال: عليك بالحال المرتحل قال: وما الحال المرتحل قال: صاحب القرآن يضرب فى أوله حتى يبلغ آخره، ثم يضرب فى أوله كلما حل ارتحل، ومن حرمته أن لا يكتب المعاذ منه تدخلها الخلاء إلا أن يكون فى غلاف من أدم(٢٤) أوفضة أوغيرهما فيكون كأنها فى صدرك، ومن حرمته إذا كتبه وشربه سمى الله على كل نفس وعظم النية فيه فإن الله يؤتيه على قدرنيته. عن محمد بن مروان عن أبى جعفر قال: من وجد فى قلبه سوءة فليكتب يس فى جام بزعفران ثم يشربه.

عن مجاهد قال: لا بأس أن يكتب القرآن ثم يغسله، ويسقى المريض. عن هلال بن الصلت أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سورة يس تدعى فى التوراة المعمة قيل: وما المعمة قال: تعم صاحبها خير الدنيا، وتكابد عنه بلوى الدنيا،

= (١٣١/٢) وما بعدها وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (١٠٥/٢) ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى بتحقيق السيد الجميلى ط. دار الهلال بيروت لبنان.

(٢٤) أدم: جلد.

وتدفع عنه أهاويل الآخرة، وتدعى المدافعة القاضية، تدفع عن صاحبها كل شيء، وتقضى له كل حاجة، ومن قرأها عدلت (٢٥) له عشرين حجة، ومن سمعها عدلت له ألف دينار فى سبيل الله، ومن كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف بركة وألف رحمه ونزع من كل غل وداء».

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لكل شيء قلب، وقلب القرآن يس، ومن قرأها فكأنما قرأ القرآن عشر مرات».

فالقلب أمير على الجسد وكذلك يس أمير على سائر السور مشتمل على جميع القرآن. عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى من شغله ذكرى وقراءة القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين، وفضل كلام الله تعالى على سائر الكلام؛ كفضل الله تعالى على خلقه».

فهذا فضل لا يحاط بكنهه (٢٦) إذ كان لا يحاط بفضل الله على جميع خلقه وإنما صار هكذا لأنه كلامه منه خرج. عن عمرو (٢٧) بن دينار قال أدركت سبعين رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: الله الخالق وما سواه المخلوق غير الكلام فإنه منه خرج وإليه يعود (٢٨). عن طاووس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رد العباد إلى الله شيئا أحب إليه من كلامه.

---

(٢٥) عدلت: ساوت.

(٢٦) كنه الشيء: جوهره وحقيقته.

(٢٧) هو عمرو بن دينار الجمحى بالولاء، أبو محمد الأثرم، فقيه، كان مفتى أهل مكة، من أصل فارسى، كان عالماً بالحديث، ورماه أهل المدينة بالتشيع والتحامل على ابن الزبير. توفى سنة ١٢٦ هـ. راجع تهذيب التهذيب (٨/ ٣٠) والأعلام للزركلى (٥/ ٢٤٥).

(٢٨) راجع كتاب «أحمد بن حنبل» للأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى. ط. دار المعارف بمصر.

عن سفيان الثورى رضى الله عنه يقول: سمعت إن قراءة القرآن أفضل من الذكر وجاد ما غاص قائل هذا القول لأن الذكر هو شيء يبتدعه العبد من تلقاء قلبه من علمه بربه، والقرآن قد تكلم به الرب فإذا تلاه العبد فإنما يتكلم بشيء قد كان عند الرب، ولم يخلق، ولا يتدنس فهو على طراءته وطيبه، وأيضا ليس تأليف العبد كتأليف الله تعالى.

قال تعالى:

﴿ لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٢٩)

ألا ترى إلى قول الوليد بن المغيرة (٣٠) حيث استمع إلى القرآن، وتحير فيه فقال: قد عرضته على رجز الشعر، وهزجه، وقريضه فلم يشبهه وليس بسحر ولا كهانة وإن عليه لطلاوة، وإن له لحلاوة وإن أسفله لمغدق (٣١) وإن أعلاه لمثمر (٣٢).

عن محمد بن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «القرآن أفضل من كل شيء دون الله تعالى، وفضل القرآن على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه؛ فمن وقر القرآن فقد وقر الله ومن لم يوقر القرآن لم يوقر الله وحرمة القرآن عند الله تعالى

(٢٩) الإسراء (١٧/٨٨) الظهير هو المشايع والمعاون.

(٣٠) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، من عبد شمس من قضاة العرب فى الجاهلية، ومن زعماء قريش، كان عدلاً، وهو من أشهر خصوم الإسلام الذين قاوموه بعنف وشراسة. راجع رغبة الآمل (٥/٢٩) واليعقوبى (١/٢١٥) وابن الأثير فى الكامل (٢/٦٢).

(٣١) مغدق: كثير.

(٣٢) ورد فى بعض النسخ [وإن أعلاه لمنير] وهو تحريف.

كحرمة الوالد على ولده، القرآن شافع مشفع وماحل (٣٣) مصدق، فمن شفع له القرآن شفع، ومن محل به القرآن صدق، ومن جعله إمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله الملبسون نور الله المعلمون كلام الله من (٣٤) والاهم فقد والى الله، ومن عاداهم فقد عادى الله».

يقول الله تبارك اسمه: (يا حملة القرآن استجيبوا لربكم بتوقير كتابه يزدكم حبا ويحببكم إلى عباده، يرفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا، ويدفع عن تالي (٣٥) القرآن شر الآخرة، ومن استمع آية من كتاب الله كان له خيرا من صبر ذهبا، ومن قرأ آية من كتاب الله كان أفضل مما تحت العرش إلى التخوم وإن في كتاب الله لسورة تدعى العزيزة يدعى صاحبها الشريف يوم القيامة تشفع لصاحبها أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة يس).

---

(٣٣) ما حل: من ممحل. أي مجدب.
(٣٤) والاهم: كان ولياً لهم.
(٣٥) تالي: من التلاوة.

[الأصل الرابع والخمسون والمائتان فى سر كلمة التقوى]

عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «وألزمهم كلمة التقوى لا إله إلا الله» (١).

قال أبو عبد الله إنما سميت كلمة التقوى؛ لأن العبد إذا نطق بها فإنما ينطق عن نور التوحيد الذى فى قلبه، فإذا انتهى إلى الصراط صار ذلك النور له وقاية من النار، ولذلك النور برد يخمد لهب النار لأن ذلك النور نور الرحمة، وتلك الرحمة هى حظ المؤمن من ربه فإذا نال العبد تلك الرحمة أشرق القلب بنور التوحيد، وأضاء الصدر من ذلك الإشراق ونطق اللسان عن نور وضوء.

فإذا انتهى إلى الصراط صار ذلك النور، والضوء وقاية، فالنور يخمد ما تحت قدميه، والضوء يضىء له امامه، وينفرج له الطريق عن تلك الظلمة التى على الصراط من سواد النار، فلذلك قيل: كلمة التقوى لأنه بها يتقى من النار فكلمة لا إله إلا الله أولها نفى الشرك وآخرها

---

(١) الترمذى فى سننه - كتاب التفسير - تفسير سورة الفتح (٥/ ٢٨٦) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه موقوفاً إلا من حديث الحسن بن قزعة. وأحمد فى «المسند» من حديث الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه (٥/ ١٣٨)، والحاكم فى «المستدرك» - كتاب التفسير - باب كلمة التقوى لا إله إلا الله (٢/ ٤٦١) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتركه الذهبى والطبرانى فى «الكبير» (١/ ١٦٨) من رواية الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه. والبيهقى فى «الأسماء والصفات» ص٩٦.

تعلق بالله ؛ فلا يقدر العبد أن يتعلق بالله ؛ حتى يلزمه الله وإنما يلزمه الله بعدما يجعل له إليه سبيلا فإذا رحم عبد افتتح له من قلبه الطريق إليه حتى إذا صار القلب محل التوحيد فهناك يلزمه الله نور الكلمة فيصدر القلب عن الله بتوحيده إلى النفس حتى تطمئن النفس وتسكن إلى ذلك وتستقر عن التردد ، والجولان في طلب معبود سواه ، فيستقر القلب ، والنفس جميعا للعبودة له لما يأمر وينهى فصار تعلقها جميعا به في العبودة ، وهو قوله :

﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ (٢)

فهذه عقدة القلب ، وطمأنينة النفس ثم بعد ذلك تمضي النفس في شهواتها حلالا وحراماً وهي مع ذلك بالله مطمئنة إنه معبوده على إضمار أنها تقضي شهواتها وتعود إلى مكانها ثانية .

وأما القلب فهو منكر لذلك ، مستمسك بعروته مقهور في سلطان النفس حتى إذا أقبل الله على العبد بالرحمة ، وأعطاه سلطان التوبة خمدت نار الشهوة. ، وخرج القلب من آثار النفس ، فالعروة الوثقى هي ذلك النور الذي ألزم الله قلب العبد ، فاستمسك به وقوى لا إنفصام لها ، فإذا انتهى إلى الصراط صار ذلك النور وقاية له من تحت قدمه ، وصار الضوء أمامه يطرق له في الظلمة ؛ حتى يجوزها وقد قلنا بدئا أن كلمة لا إله إلا الله أولها نفي الشرك وآخرها تعلق بالله .

وإنما يتعلق بالله إذا استكمل التقوى وذلك أن الشرك على ضربين شرك عبودة ، وشرك الأسباب ، وكلاهما علاقة وهو مشتق من الشرك

---

(٢) البقرة (٢/٢٥٦) .

الذى ينصب فيتعلق به الصيد فإنما ينصب الشرك (٣) ويلقى هناك حبوب ينخدع الطائر لحاجته إليها حتى يقع فيه فيتعلق.

وكذلك السمك إنما يقع فى حبالته (٤) لشهوة بطنه، وكذلك الآدمى إنما يقع فى حباله العدو حتى يتولى دون الله إلها ويتخذه معبودا لشهوة نفسه يشتهى أن يعاين معبوده فيلتذ بالعبادة، فطلب معبوده فلما لم يجده مده العدو إلى شىء وصوت له من جوفه وزينه له فالتذ بصوته فعبده فهو يعبد الشيطان ولا يدرى بحيث أنه يعبد ذلك الوثن.

وذلك قوله تعالى لهم يوم القيامة:

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٥)

وقال:

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ ﴾ (٦)

قال له قائل: ما ذلك الصوت قال: ذلك صوت أعطى العدو ليفتن به الآدميين أى يهيج الحرقة التى فى جوف الآدمى.

قال القائل: وما تلك الحرقة قال: تلك حرقة الفرح الذى خلق من النار فوضع بباب النار وحفت النار به، وهو الشهوات، فمن سمعها من المخذولين فقد سباه، ومن سمعها من الموحدين لم يقدر أن يسبيه لأن الله

(٣) الشرك: شبكة الصياد.

(٤) حبالة: الشرك والشبكة.

(٥) يس (٣٦/ ٦٠).

ألم أعهد إليكم: ألم آمركم وآوصيكم؟! أنظر القرطبى (١٥/ ٤٧) والطبرى (٢٣/ ١٦).

(٦) الإسراء (١٧/ ٦٤).

استفزاز: استخف واستحث. راجع تفسير الآية فى الطبرى (١٥/ ٨٢).

تعالى من علنيه بالرشد، ومن من عليه بالرشد فقد كره إليه الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة.

وذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ (٧)

فمن أوتي الرشد، لم يتلذذ بذلك الصوت ومن وجد قلبه خاليا عن ذلك سباه (٨) ألا ترى أن الموحدين لما سمعوا صوته في المزامير والمعازف افتتنوا به، ولولا أنه يمازج بصوته ذلك الصوت من المعازف، ما التذوا به.

وقد كره الله الكفر إلى المؤمن، ولم يكن (٩) إليه المعازف وأمره بالمجاهدة فإذا جاهد فتح له في الغيب، فنال من الأنوار ما لا تجد لذة هذه المعازف إليه سبيلا، لأن الذي في جوفه من الشهوة قد مات فلم يجد العدو إليه سبيلا.

وقبل ذلك إنما كان يلتذ بصوت المعازف الممازج لصوت العدو، المهيج لما في جوفه و فلما وقع في منازل القربة؛ ماتت شهوته، وخشع قلبه من جلال الله تعالى، لم يجد العدو إليه سبيلا فصارت لذة قلبه في حبه فدقت حلاوة جميع الأشياء عنده، وصارت جميع الأشياء مرفوضة وإنما يتعلق القلب بالله إذا نجا من تعلقه بالشهوات والمشيئات والإرادات فهذه كلها شرك الأسباب، فإذا تخلص من هذا الشرك لم يبق له متعلق فتعلق القلب بالله فعندها صدق الله في مقالته لا إله إلا الله، وتلك

(٧) الأنبياء (٢١/٥١).
أتينا إبراهيم رشده من قبل: أي وهو غلام.
(٨) سباه: أسره.
(٩) في إحدى النسخ [ولم يكره إليه] وهو تحريف خطير من الناسخ.

المقالة تملأ الكفة من الميزان حتى تستميل بالسموات والأرض، ومن فيهما من الخلق.

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال موسى عليه السلام رب علمنى شيئا اذكرك به وأدعوك به قال: قل ياموسى لا إله إلا الله قال: كل عبادك يقول هكذا قال: قل لا إله إلا الله قال: لا إله إلا الله إنما أريد شيئا تخصنى به قال: ياموسى لو أن السموات السبع، وعمارهن والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة لمالت بهن لا إله إلا الله».

[الأصل الخامس والخمسون والمائتان في آية الكرسي ومايحرس به]

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا المنذر أية آية معك من كتاب الله أعظم؟ قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، قال: فضرب في صدري فقال: أيهن لك العلم أبا المنذر فوالذي نفس محمد بيده إن لهذه الآية للسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش» (١).

أنزل الله تعالى هذه الآية وجعل ثوابها لقارئها عاجلا، وآجلا أما في العاجل فهي تحرس من قرأها من الآفات فإن الله تعالى خلق آدم فأحسن خلقه وقال في تنزيله:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢)

فمن ذا يقدر على صفة حسن تقديره وقال:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٣)

---

(١) مسلم في صحيحه ـ كتاب المسافرين ـ باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٦/٩٣). والحاكم في «المستدرك» ـ كتاب معرفة الصحابة ـ باب أعظم أي القرآن آية الكرسي (٣/ ٣٠٤) وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي. والهيثمي في «مجمع الزوائد» ـ كتاب التفسير ـ.

سورة البقرة (٦/ ٣٢١).

وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وأحمد في «المسند» من حديث ابى بن كعب (٥/ ١٤٢).

(٢) التين (٩٥/ ٤).

(٣) الأنفطار (٨٢/ ٨).

فأخرج تقويمه، وتسويته، وتعديله من باب الرحمة وأخرج تركيب الصورة من باب المشيئة ثم فضله بالروح وقرنه بالنفس وجعل فيها الحياة للحراك للعبودة، ثم جعل تلك البضعة الجوفاء خزانته، وهى القلب وجعل لها عينين تبصران الغيب، وأذنين يستمعان وحيه وكلامه وجعل لها بابا إلى الصدر للسراج المتوقد شعاعه فى الصدر وجعل تلك البضعة معدنا لجواهر التوحيد من الحكم البالغة.، والعلوم العالية ثم خلق الآفات فى ذلك اليوم الذى خلقه وهو يوم الجمعة ليقابل كل شىء من صنعه الجميل فى آدم وولده فى الظاهر منه، والباطن آفة ذلك الشىء، ليكون الآدمى حامدا له، شاكرا يرتبط الصنع الجميل بالحمد والشكر، ويحذر من الآفة.

ولما صار للعبد هفوات، وغفلات من نزغات العدو، ونفثاته ونفخاته من أجل الشهوة المركبة فيه والهواء الهفافة فيها لا هبوب تلك الشهوات.، وهما سلاح العدو، وسبيله إلى الآدمى جعل كلمة الله العليا وهى كلمة لا إله إلا الله وهى كلمة التقوى تقيه آفات الدنيا، والآخرة وإنما تدخل الآفات من التقصير فى الشكر قال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٤)

وجاء فى الخبر عن الله تعالى من قوله لبنى إسرائيل (**إنى أبتدئ عبادى بنعمتى فإن قبلوا أتممت وإن شكروا زدت وإن غيروا نقلت وإن بدلوا غضبت**).

---

(٤) الأنفال (٨/ ٥٣).
قال السدى: نعمة الله على قريش محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وكذبوه. راجع القرطبى (٨/ ٢٩).

قال نوف البكالي: آية الكرسي تدعى في التوراة ولية الله، وتدعى قارئها في ملكوت السموات عزيزا وكان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه إذا دخل بيته قرأ آية الكرسي في زوايا بيته الأربع كأنه يلتمس بذلك أن يكون له حارسا من جوانبه الأربع وأن ينفى الشيطان من زوايا بيته.

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه صارع جنيا فصرعه عمر، فقال له الجنى: خل عنى أعلمك ما تمتنعون به منا فقال: إنكم تمتنعون منا بآية الكرسي وقال الله تعالى: (**من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة أعطيته ثواب الأنبياء**) (٦).

معناه ثواب عمل الأنبياء، فأما ثواب النبوة فليس لأحد إلا للأنبياء عليهم السلام، وقال جبريل عليه السلام لموسى عليه السلام: «إن ربك يقول: من قال في دبر كل صلاة مكتوبة مرة واحدة اللهم إنى أقدم إليك بين يدى كل نفس، ولمحة ولحظة وطرفة يطرف بها أهل السموات والأرض وكل شيء هو في علمك كائن وقد كان أقدم إليك بين يدى ذلك كله الله لا إله إلا هو الحيى القيوم إلى آخرها فإن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ليس منها ساعة إلا يصعد إلى منه سبعون ألف ألف حسنة حتى ينفخ في الصور وتشتغل الملائكة» ولما عجز عن إحصاء هذه الأشياء التى أجمل ذكرها على الانفراد، وقال أقدم بين هذه الأشياء أنه الله لا إله إلا هو كائنه يؤدى معناه إلى أنه قديم لم يزل

---

(٥) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث أبو محمد. كان صحابياً قرشياً. من أكابر الصحابة الأثرياء الورعين. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. وأحد الستة الذين جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ الخلافة فيهم. ولد سنة ٤٤ ق هـ. أى قبل عام الفيل بعشر سنين. ثم أسلم. وشهد بدراً وأحداً وباقى المشاهد كلها. توفى في المدينة سنة ٣٢ هـ.

راجع كتاب «العشرة المبشرون بالجنة» للسيد الجميلى ط. دار الكتاب العربى بيروت لبنان و«حلية الأولياء» (١/ ٩٨) و«صفة الصفوة» (١/ ١٣٥) و«الأعلام» (٤/ ٩٥).

(٦) دبر كل صلاة: بعدها مباشرة.

حى حييت به الأشياء فتحركت ، قيوم به قامت الأشياء فأستقرت الشفع ضم الشىء إلى الشىء يقال : شفع إليه أى رفع إليه شخصه (٧) وحاجته ، وكان فى البدء وترا ، وكل الأشياء لا تكون إلا بإذنه .

وإنما يخص الدعاء لأن الله تعالى أذن فيه فقال :

﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ (٨)

وقال فى سائر الأعمال :

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (٩)

ما بين أيديهم ، الآخرة وما خلفهم ، الدنيا وقيل : بالعكس من ذلك .

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى :

﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ (١٠)

أى علمه معناه وسع ذلك العلم الذى عند الكرسى السموات والأرض . وإنما وضع الله علمه بحركات الخلق هناك ثم قرن الحفظ بذلك العلم فكما لا يؤده علم الحركات لا يؤده حفظها أما قوله إن لها لسانا ، وشفتين معناه أن قراءة القارئ بها يصعد إلى الرحمن فتقدس مليكه عند ساق العرش ، والتقديس سؤال الحراسة لقارئها لأن القدوس به يتقدس الأشياء فإذا تقدست بقيت على هيئتها وتحصنت من الآفات فقراءة العبد الآية

---

(٧) كذا ورد بالأصول .

(٨) غافر (٤٠/ ٦٠) .

(٩) المائدة (٥/٢٧) .

وفى الآية إشارة قيمة إلى أن الطاعة لا تقبل إلا من أهل التقوى من المؤمنين . راجع المعنى فى البيضاوى ص١٤٩ .

(١٠) البقرة (٢/ ٢٥٥) .

اعتراف بما تضمنت به من صفاته وتجديد الإيمان به فيقع لقراءته حرمة تنتهي إلى ساق العرش، فتقدس فجعل ثواب التقديس حراسة العبد لكل ما هيأ الله له من الحال المحمودة والموعود فيها والله أعلم.

[الأصل السادس والخمسون والمائتان فى زمزم واشتقاقه وهى من الجنة]

عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «زمزم لما شربت له» (١).

زمزم بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أنبطه (٢) له غياثا (٣) فى وقت الاضطرار والاشراف (٤) على الموت بعدما كان يتمايل عطشا فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام فأدار بطرف جناحه على تلك البقعة ثم دفعها بعقبه دفعة فانفتقت (٥) عن الماء من عين من الجنة من قبل الركن الذى يستلمه الناس اليوم، وزمزم هزمة جبريل عليه السلام بعقبة اشتقت من الهزمة، والهزمة الدفعة، ومنه الهزيمة.

وقوله:

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (٦)

---

(١) تقدم تخريج هذا الحديث. فى الأصل (١٥٧).

(٢) أنبطه: أنبعه. يقال نبط الماء: نبع وبابه دخل وجلس. والاستنباط: الاستخراج.

(٣) غياثاً: غوثاً.

(٤) الإشراف على الموت: قرب منه.

(٥) انفتقت: ابنجست وانفجرت.

(٦) البقرة (٢/ ٢٥١).

لا يمكن أن يتم النصر فى أية معركة إلا بإذن الله سبحانه وتعالى مهما توافرت أسبابه لأن طلاقة القدرة غير مقيدة بأسباب.

أى دفعوهم وكسروهم. عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: بينما عبد المطلب نائم فى الحجر إذ أتى فقيل: له أحفر برة قال: وما برة ثم ذهب عنه، حتى إذا كان الغد نام إلى مضجعه ذلك فأتى فقيل له أحفر مضنونة قال: وما مضنونة ثم ذهب عنه، حتى إذا كان الغد نام فى مضجعه فأتى فقيل له: أحفر طيبة ثم ذهب عنه، فلما كان الغد عاد لمضجعه فنام فيه فأتى فقيل له احفر زمزم، قال: وما زمزم؟ قال: لا تنزف (٧) ولا تذم ثم نعت له موضعها (٨) فقام، فحفر حيث نعت له.

فقالت له قريش: ما هذا يا عبد المطلب؟ قال: أمرت بحفر زمزم فلما كشف عنه وأبصر الطوى (٩) قالوا: يا عبد المطلب، إن لنا حقا فيها معك إنها بئر أبينا إسماعيل قال: ما هى لكم لقد خصصت بها دونكم فحفرها.

فهذه الأشياء الذى ذكرت لعبد المطلب فى منامه دليلة على ما فيها، فأما قوله برة فمعناه أنها تعطيك الصدق من نفسها لأنها من الجنة، وكل شىء من الجنة فإن الأشياء المشتهات كائنة جميعها فى الواحد منها وذلك قوله:

﴿ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ (١٠)

وقال:

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ ﴾ (١١)

---

(٧) لا تنزف: لا تنصب، ونزف: نزح.

(٨) نعت موضعها: وصفه له.

(٩) الطوى: البئر المطوية.

(١٠) الأنبياء (٢١/١٠٢).

(١١) الزخرف (٤٣/٧١).

وكل شيء من الجنة موجود في واحد منها جميع الشهوات ألا ترى العينين النضاختين المذكورتين في القرآن تنضخان بألوان الأشياء فإن اشتهى ولي الله من تلك العين طعاما نضخت، وإن اشتهى شرابا نضخت وإن اشتهى جواري نضخت، وإن اشتهى دواب نضخت مسرجة ملجمة، وبذلك جاء الخبر وروى في الخبر أيضا أن الصحابة تقف على رؤسهم، فينطف ماؤها فتمطر عليهم (١٢) ما يشتهون وأن الأشجار تنطق، والأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب، وذلك قوله تعالى:

﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ (١٣)

أي لا يفضل عن الري، ولا ينقص منه، وأن الرجل منهم ليمشي في بيوتاته ويصعد إلى قصوره وبيده قضيب فيشير به إلى الماء فيجري (١٤) معه حيث ما دار في منازله على مستوى الأرض في غير أخدود (١٥) ويصعد (١٦) حيث ما صعد من أعلى قصوره وذلك قوله تعالى:

﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (١٧)

وأن الثوب الذي يلبسه ولي الله يتلون عليه في اليوم الواحد سبعين لونا كلما خطر بباله لون تغير لباسه، وتلون عليه بما اشتهت نفسه، وكذلك فيما يطعم ويشرب، كلما تمنى أوخطر بباله شيء تغير ذلك الشيء الذي في فيه يمضغه إلى طعم ما خطر بباله فهذا كله وفاء ربنا لعبده حيث قال:

---

(١٢) في إحدى النسخ [فتنطق ما يشتهون].
(١٣) الإنسان (٧٦/١٦).
(١٤) أي مع تيار الماء.
(١٥) أخدود: بالضمة، شق مستطيل في الأرض.
(١٦) في إحدى النسخ [يتبعه حيث ماصعد].
(١٧) الإنسان (٧٦/٦).

﴿ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ (١٨)

لأنهم ردوا شهوات نفوسهم فى الدنيا فشكر الله لهم فى داره فكلما تناولوا بشهوة من طعام أو شراب أو لباس أو مركب أو شىء من الأشياء فخطر ببالهم فى ذلك الشىء شهوة غيرها تحول ذلك الشىء إلى ما اشتهت أنفسهم؛ لئلا يتنغص عليهم عيشهم، ولا يتكدر عليهم عطاء ربهم.

لأن الله تعالى وعد فى تنزيله أن الجنة عطاء غير مجذوذ أى غير منقطع، ولو كان إذا خطر بباله شىء احتيج إلى مدة، ومهلة، حتى يناله لم يكن فى ذلك وفاء بالوعد فجعل الله الجنة ونعيمها له نهمة كلما خطرت بباله شهوة فى شىء تحولت له تلك فى أسرع من طرفة عين إلى الشهوة الأخرى وفاء له بما وعد ليكون عطاء غير مجذوذ (١٩) دائما أبدا، ألا يرى أنه يأتى زوجته وهى بكر فإذا قضى منها شهوته، عادت بكرا على حالها (٢٠) فهكذا شأن الجنة فإذا خرجت من الجنة إلى الدنيا تلك الأشياء تغيرت أحوالها لأن الجنة محرمة على الآدميين حتى يذوقوا الموت ألا ترى أن الحجر الأسود فى الركن كان يضئ كالشمس، فاسود لأدناس (٢١) الآدميين وسترت زينته عنهم فهو فى الباطن كهيئته ولكنه مستور ولو دق فصار رضيضا (٢٢) لم تجده إلا أسود فى رأى العين وهو فى الباطن على هيئته.

---

(١٨) الأنبياء (٢١/١٠٢).

لأن المؤمن التقى الورع حبس نفسه وفطمها عن الشهوات، واحترس من الفتن، واحترز من أنواع الشرك، فكان جزاؤه لذلك عظيماً فى دار الخلد وجنات النعيم.

(١٩) مجذوذ: مجدود أى مقطوع.

(٢٠) وهذا من كمال اللذة، وتمام المتعة غير المحدودة، لأن نعيم الجنة مقيم لا يحول ولا يزول.

(٢١) أدناس: أرجاس، وأقذار.

(٢٢) كذا ورد بالأصول.

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا ماضيع من الركن من أنجاس الجاهلية وأرجاسها وأيدى الظلمة والأثمة (٢٣) لاستشفى به من كل عاهة ولألغاه اليوم كهيئة يوم خلقه الله وإنما غيره الله بالسواد، لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة وإنها لياقوته بيضاء من ياقوت الجنة وضعه الله لآدم حين أنزله فى موضع الكعبة قبل أن تكون والأرض يومئذ طاهرة لم يعمل عليها شىء من المعاصى، وليس لها أهل ينجسونها ووضع لها صفا من الملائكة على أطراف الحرم يحرسونه من جان الأرض، وسكانها يومئذ الجن، وليس ينبغى لهم أن ينظروا إليه لأنه شىء من الجنة، ومن نظر إلى الجنة دخلها وهم على أطراف الحرم حيث أعلامه (٢٤) اليوم محدقون (٢٥) به من كل جانب فلذلك حرم وسمى الحرم».

عن وهب بن منبه قال: كان الركن كرسيا لآدم عليه السلام يجلس عليه، فالركن حجر من الفردوس بعثه الله يوم أخذ الميثاق فوضعه بينه وبين العباد ليبايعوه على ذلك الحجر فيمسحونه بأيديهم بيعة لله ولذلك أمر باستلامه. عن أبى وليد القرشى قال: سمعت فاطمة بنت الحسين رضى الله عنها تقول: لما أخذ الله ميثاق العباد جعله فى الحجر فمن الوفاء لله بالعهد استلام الحجر فكذلك ماء زمزم هو بهيئته على ما فى الجنة من حلاوته، ولذته، ولونه، إلا أنه ممتنع أن يوجد للشاربين تلك الهيئة التى فيه من الجنة لإغاثة ولد خليل الله عليهما السلام لأن إبراهيم صلوات الله عليه لما ولى نادته هاجر يا إبراهيم إلى من تكلنا قال: إلى الله تعالى فكان خليل الله صادقا في قوله فوفى الله له بصدقه، وأغاث ولده فى وقت الاضطرار وبقى ذلك الغياث لمن بعده.

(٢٣) الأثمة: الآثمون والمجرمون.
(٢٤) أعلام: جبال، جمع مفرده علم.
(٢٥) محدقون به: محيطون به.

وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «زمزم لما شربت له »(٢٦) فالغياث أمر جامع ينعكس ويطرد فى جميع الأمور فإذا ناب العبد نائبة(٢٧) كائنة ما كانت فنواه وقصده وجد ذلك الغوث فيه موجودا وإنما يناله العبد على قدر نيته. قال سفيان الثورى رحمه الله إنما الرقى والدعاء بالنية، فالنية تبلغ العبد عناصر الأشياء، والنيات على قدر طهارة القلوب وسعيها إلى ربها فى تلك المراتب وتفسير النية النهوض، يقال ناه ينوء أى نهض ينهض فالنية نهوض القلب بعقله، ومعرفته إلى الله فعلى قدر العقل، والمعرفة يقدر القلب على السعى والطيران إلى الله.

فالشارب لزمزم أن شرب لشبع أشبعه الله، وإن شربه لرى أرواه الله، وإن شربه لشفاء شفاه الله، وإن شربه لسوء خلق حسنه الله، وإن شربه لضيق صدر شرحه الله، وإن شربه لانفلاق ظلمات الصدر فلقها الله، وإن شربه لغنى النفس أغناه الله، وإن شربه لحاجة قضاها الله، وإن شربه لأمر نابه كفاه الله، وإن شربه للكربة كشفها الله وإن شربه لنصرة نصره الله. وبأية نية شربها من أبواب الخير والصلاح وفى الله له بذلك لأنه استغاث بما اظهره الله تعالى من جنته غياثا.

فأما قوله مضنونة فإنما سميت لأنها قد ضن بها عمن قبله من الآدميين فجاد الله بها على أب العرب إسماعيل عليه السلام لتبقى مكرمتها فى ولده محمد صلى الله عليه وسلم، وفى أمته. وأما قوله طيبة فإنها طابت بذات الله خلقها بيده، ثم طابت بجود الله وبعطفه على ولد خليله صلوات الله عليهما.

---

(٢٦) تقدم تخريجه.

(٢٧) نائبة: مصيبة.

[الأصل السابع والخمسون والمائتان فى سر الدعاء عند المضجع]

عن أبى رمثة الأنمارى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه قال : « اللهم اغفر لى ذنبى ، واخسأ شيطانى (١) ، وفك رهانى ، وثقل ميزانى ، واجعلنى فى النداء الأعلى » (٢) .

أمر بالاستغفار فقال فى تنزيله :

﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (٣)

فالمغفرة درجات بعضها أعلى من بعض ، فمغفرة الرسل عليهم السلام أعلى من مغفرة من دونهم ، ومغفرة محمد صلى الله عليه وسلم أعلاها . (ألا ترى أنه جاء عنه أنه قال : إن لى دعوة أخرتها إلى يوم القيامة وإن إبراهيم عليه السلام ليرغب إلى فى ذلك اليوم) .

وقال : « إذا زفرت النار على أهل الموقف قالت الأنبياء والرسل عليهم السلام : نفسى نفسى ، وقال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أمتى أمتى » .

---

(١) خسأ شيطانى : طرده .

(٢) الحاكم فى « المستدرك » ـ كتاب الدعاء ـ باب الذكر عند الاضطجاع (١/ ٥٤٨) . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأقره الذهبى . وأبوداود فى سننه ـ كتاب النوم ـ باب ما يقول عند النوم (٤/٣١٣) والسيوطى فى « الجامع الصغير » (٢/٨٦) وعزاه لأبى داود والحاكم عن أبى الأزهر . ورمز له بالصحة .

(٣) محمد (٤٧/١٩) .

فهذا لعلو درجته في المغفرة أمر أن يستغفر فلم يزل ذلك دأبه بعد ما بشره الله تعالى في سورة الفتح بقوله:

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (٤)

فنزلت عليه في آخر أمره:

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٥)

إلى آخر السورة وإنما نزلت هذه بعد فتح مكة، والبشرى بالمغفرة في سورة «إنا فتحنا» قبل ذلك بنحو من سنتين، وذلك عند فتح خيبر فلم يزل ذلك دأبه (٦) ولم يفارق الاستغفار إلى أن قبضه الله ومن يحيط بالمغفرة إلا الله فكلما استكثر العبد من سؤالها كان منها أوفر حظا.

وروى في الخبر المأثور أن الاستغفار يخرج يوم القيامة ينادي يا رب حقي فيقول خذ حقك فيحتفل أهله ويجتحفهم.

وروى أن داود عليه السلام خرج يستسقي فلما انتهى إلى البراز قال: اللهم اغفر لنا، ورجع فما تتام آخر الناس حتى رجع أولهم فكأنهم استلقوا ذلك منه فأوحى إليه أن قل لقومك إني من أغفر له مغفرة واحدة أصلح له بها أمر دنياه، وآخرته قوله اخسأ شيطاني.

فإنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشيطان قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم».

---

(٤) الفتح (٤٨/٢).
(٥) النصر (١١٠/١).
(٦) دأبه: عادته.

ثم تأول بعضهم هذه الكلمة فقال: أى أسلم من كيده ودواهيه (٧) ونفر أن يحمل معناه على الإسلام، وليس ذلك بصحيح لأن قوله أسلم مفتوح الميم معناه انقاد وأعطى بيديه سلما كقوله تعالى:

﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ (٨)

أى أعطينا بأيدينا سلما كقوله تعالى:

﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾ (٩)

أى أعطوا بأيديهم وألقوا إلى الله أنفسهم تسليما فقوله اخسأ شيطانى أى أنك إذا أخسأته خسىء لم يبق معه شر ولا كيد والخسأ (١٠) فى لغة العرب الفرد، والزكا الزوج، وكل شىء انضم إليه شىء فزاوجه، فهو زكا ومنه سميت الزكاة فى المال زكاة يقال زكى الزرع وقوله:

﴿ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ (١١)

وقوله:

﴿ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ (١٢)

ومنه قوله:

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (١٣)

---

(٧) دواهيه: مصائبه، جمع داهية.
(٨) الحجرات (١٤/٤٩).
(٩) النحل (٨٧/١٦).
(١٠) الخسأ: الطرد.
(١١) النور (٢٨/٢٤).
(١٢) النور (٢١/٢٤).
(١٣) فصلت (٧/٤١).

أى لا يؤتون كلمة لا إله إلا الله فيخسؤن من نورها فهم خساءى فرد خال عن النور والخير فيقول الله لهم فى النار:

﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (١٤)

أى كونوا فى خلاء منى ومن رحمتى، وعطفى فعندها ينقطع الكلام، والنداء، ويطبق عليهم فلا يبقى لهم من الرب شىء.

فذلك الحال أخلى خلاء فقوله أخسأ شيطانى أى أخله من جميع الشر حتى لا يكيدنى بشىء، قوله فك رهانى فإن النفوس حظها من الدنيا النعمة: نعمة البصر، ونعمة السمع، ونعمة اللسان، ونعمة سائر الجوارح (١٥)، وسائر النعم التى تربى بها الجوارح، وحظها من ربها الحياة والعلم، والذهن، والمعرفة، والعقل، والحفظ، والفطنة، والقوة.

فالنفوس مرتهنة بالنعم وإنما يفكها الشكر فعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أن العباد لا يبلغون كنه الشكر ففزع إلى ربه أن يتولى فك رهانه بجوده وفضله وقال فى تنزيله:

﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (١٦)

وقال

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ (١٧)

فأصحاب اليمين هم الموحدون، وحدوا الله بقلوبهم ثم أبرزوا ذلك التوحيد على ألسنتهم، فنطقوا بلا إله إلا الله فاقتضى الله عباده الوفاء بصدقها، وصدقها مستور عن الخلق، وعند الله ظاهر فاقتضاهم

---

(١٤) المؤمنون (٢٣/١٠٨).
(١٥) فى إحدى النسخ [وسائر النعم].
(١٦) الطور (٥٢/٢١).
(١٧) المدثر (٧٤/٣٨).

حفظ الجوارح السبع عن المناهى، وأداء الفرائض ليبرز صدق الصادق، وكذب الكاذب.

وكل الموحدين قد أخذوا بسهم من سهام يمن اليمين كل على قدر صدقه فأول أصحاب اليمين الرسل عليهم السلام، وآخرهم من أتى الله بكلمة التوحيد نطقا بها ليس معه وراء ذلك شىء، وأصحاب الدرجات فيما بين ذلك.

وكل من أتى الله مع هذه الكلمة بشىء من أعمال البر من حفظ جارحة وأداء فريضة واحدة فقد أتى بسهم من الشكر، وعلى قدر ذلك الشكر فك رهانه، وبقيت سائر السهام عليه غرما (١٨) ولذلك قال تعالى:

﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (١٩)

فأوفرهم حظا من حفظ الجوارح، وأداء الفرائض، أوفرهم حظا من الشكر وهم الرسل عليهم السلام، وهم مع هذا مقصرون عن أنفسهم فى الشكر قال الله تعالى:

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ (٢٠)

أى لن يبلغ أحد أن يقضى أمره على كنه، وكيف يقدر آدمى على أن يخرج من لحمه ودمه الذى أصله من التراب، ومعه شهوات نفسه ووساوسها ما يبلغ به كنه أمره الذى هو أهله هيهات فالآدميون عجزوا عن ذلك، فلذلك فزع إلى ربه فقال: فك رهانى حتى يكون الذى عجز عنه الآدميون هو الذى يفكه بجوده فينجو من رهائن (٢١) الشكر.

(١٨) غُرماً: خسراناً.
(١٩) الفرقان (٢٥/٦٥).
(٢٠) عبس (٨٠/٢٣).
(٢١) رهائن: جمع رهين.

ألا ترى إلى قول موسى عليه السلام: يارب، أسبغت على النعم فشكرتك عليها فكيف لى بشكر شكرك قال: ياموسى تعلمت العلم الذى لايفوقه علم بحسبك أن تعلم أن ذلك من عندى، فهذا موضع العجز فإذا بلغ العبد موضع العجز فزع إلى الله حتى يجود عليه بما بقى عليه من الشكر ففكه من رهنه قوله ثقل ميزانى.

فالرسل فى ستر الله الأعظم فإذا نصبت الموازين أمتلأت الكفتان من نور أعمال النبوة وأفعال الرسالة والصدق لسان موازينهم فأهل الموقف فى أشد الأهوال فى ذلك الوقت لأن الرحمة لم تخرج بعد من الحجب إليهم والرب غضبان أسفا محتجب عن خلقه لشرك المشركين، وعبادة الأوثان، وفرية المفترين فإذا نصبت موازين الرسل، وطارت أنواع أعمالهم من الميزان إلى الله تعالى، سكن الغضب، ورضى عنهم الرب، وخرجت الرحمة من الحجب إلى أهل التوحيد فأحاطت بهم فصار الموحدون فى سراقها فعندها يوزن أفعال العباد.

إنما قال ثقل ميزانى أى وفر على أنوار النبوة والرسالة حتى أكون اعظمهم نورا وأشدهم صدقا حتى يكون عملى هو الذى يسكن غضبك على خلقك ويخرج الرحمة إلى الموحدين.

قوله واجعلنى فى النداء الأعلى فإن الأنبياء عليهم السلام فى الموقف لهم مراتب على نحو مقاماتهم بقلوبهم، فمن كان أقرب منزلة بقلبه فى الدنيا فهو أعلى مرتبة هناك فأعلى النداء هم السابقون الذين يبدأ بهم، فكان هذا دعاؤه حتى بشر بالمقام المحمود. قال مجاهد:

﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ (٢٢)

قال: يجلسه على عرشه.

---

(٢٢) الإسراء (١٧/ ٧٩).

قال المفسرون: المقام المحمود الذى يغبطه صلى الله عليه وسلم عليه الأولون والآخرون هو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة. وعسى من الله سبحانه وتعالى للتحقيق.

[الأصل الثامن والخمسون والمائتان فى أخلاق المعرفة]

عن الحسن رضى الله عنه أنه قال: من لم يحفظ هذا الحديث كان نقصا فى مروءته وعقله، قلنا وما ذاك يا أبا سعيد؟ قال: فبكى وأنشأ يحدثنا فقال (١): لو أن رجلا من المهاجرين الأولين اطلع من باب مسجدكم هذا ما أدرك شيئا مما كانوا عليه ما أنتم عليه إلا قبلتكم هذه ثم قال: هلك الناس ثلاثا قول ولا فعل، ومعرفة ولا صبر، ونفس ولا صدق، ما لى أرى رجالا ولا أرى عقولا. وأرى أجسادا ولا أرى قلوبا دخلوا فى الدين، ثم خرجوا وحرموا ثم استحلوا، وعرفوا ثم أنكروا إنما دين أحدهم على لسانه.

ولئن سألته هل تؤمن بيوم الحساب، قال: نعم كذب، ومالك يوم الدين أن من أخلاق المؤمن قوة فى دين، وحزما فى لين، وإيمانا فى يقين، وحرصا فى علم، وشفقة فى معة وحلما فى علم، وقصدا فى غنى، وتجملا فى فاقة، وتحرجا فى طمع، وكسبا من حلال، وبرا فى استقامة، ونشاطا فى هدى، ونهيا عن شهوة، ورحمة لمجهود.

وإن المؤمن عياذ الله لا يحيف (٢) على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، ولا يضيع ما أستودع، ولا يحسد، ولا يطعن، ولا يلعن، ويعترف

---

(١) السيوطى فى «الجامع الصغير» (١/ ٩٩) وعزاه للحكيم الترمذى. والهندى فى «كنز العمال» (١/ ١٤٠) وقال: أخرجه الحكيم الترمذى عن جندب بن عبد الله.

(٢) من الحيف: وهو الظلم. والجور.

بـالحق وإن لم يـشـهد عليه ، ولا يتنابز بالألقاب فى الصلاة متخشعا إلى الزكـاة مـسرعـا فـى الـزلازل وقـورا فـى الـرخـاء شـكـورا قانعا بالذى له لا يـدعـى مـا ليس له لا يجمع فى القنط ، ولا يغلبه الشح (٣) عن معروف بـريـده يخـالـط الـنـاس كى يعلم ، ويناطق الناس كى يفهم ، وإن ظلم أوبغى عليه صبر ، حتى يكون الرحمن هو الذى ينتصر له ثم قال الحسن : وعـظـنـى بهـذا الحـديث جندب بن عبد الله ، وقال جندب : وعظنى بهذا الحـديـث رسـول الله صـلـى الله عـليه وسلم ، وقال : حق على كل مسلم حفظه وتعلمه .

هـذه الخـصـال كـلـهـا من أخلاق المعرفة ، فمن ترقى (٤) فى درجات المعرفة احتظى (٥) فى كل درجة بخلق من أخلاقها .

قـولـه قـوة فـى ديـن ، فـالـديـن خضوع القلب ، وذبول النفس ، وكل شـىء اتـضـع لـشـىء فقد (٦) دان له ومنه سمى الدون فقيل : هذا دون ذاك أى تحـتـه وأوضـع مـنـه ، فانقياد القلب ، وتوضيع النفس للحق وهو الـديـن فـقـلـب الآدمى كثيف غليظ ، ونفسه (٧) صفيقة ممتنعة بما فيها من الكبر .

فـإذا جـاءت المـعـرفـة بـأنـوارهـا أذابـت تـلك الكثافة ، وانتشفت (٩) الصفاقة والفظاظة ولان القلب ، ورق الفؤاد .

---

(٣) الشح : الحرص مع البخل .

(٤) ترقى : تسامى ، وارتفع .

(٥) احتظى : استمتع وصار ذا حظوة .

(٦) فى إحدى النسخ [فقد دانه] .

(٧) صفيقة : من الصفاقة . وقد وردت فى نسخة [ونفسه شعيفة] وهو تحريف خطير .

(٨) فى إحدى النسخ [وانتشفت الشعافة] وهو تحريف من الناسخ .

(٩) رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين ، والترمذى فى جامعه الصحيح عن أبى هريرة ، وصححه السيوطى فى الجامع الصغير (١/ ٦) .

ولذلك قال عليه السلام: «إتاكم أهل اليمن ألين قلوبا، وأرق افئدة» وإنما تلين القلوب لرطوبة الرحمة التى جاءت مع المعرفة؛ لأن المعرفة لاينالها العبد إلا برحمة الله، فإذا لان القلب برطوبة الرحمة ورق الفؤاد بحرارة النور ضعف القلب، وذبلت النفس، فاحتاجا إلى صلابة فكان من صنع الله تعالى للعبد أن أعطاه من هذه الأنوار الثلاثة حتى دان القلب (١٠) لله وهو نور الرحمة ونور الحياة ونور العظمة فبنور الرحمة يلين القلب، وينقاد بنور الحياة ينصب لله عبودة وبنور العظمة يتصلب ويثبت إذا جاءته أمواج الشهوات ليزيله عن مركزه، ومقامه.

لأن العبد دعى إلى العبودة فمن أجاب ولان قلبه فإنما لان وأجاب بنور الرحمة الذى ناله، والذى لم ينله ذلك قسا قلبه أى يبس بمنزلة غصن شجرة يابسة إذا مددته انكسر، فإذا كان القلب رطبا فمددته انقاد (١١) ثم لما أمر هذا العبد أن يكون منتصبا بين يدى خالقه لعبودته أيد بالحياة فى كبده حتى يتكبد ويقوى للانتصاب وذلك قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ (١٢)

قال منتصبا فقوة الحياة فى الكبد ومن تلك القوة ينتصب قلبه لله تعالى ثم يحتاج إلى ثبات عند الزلازل.

لأن الشهوات إذا هاجت بأمواجها وهبوب رياحها فى عروق النفس، وقعت الرجفة فى النفس، والزلزلة فى القلب بمنزلة سفينة فى بحر قد علت أمواجه، فصارت السفينة تتكفأ بما فيها، فكذلك يصير القلب

---

(١٠) دان: يقال دانه يدينه دِينا بالكسر أذله واستبعده فدان، وفى الحديث الشريف: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت».

(١١) لعله يقصد (مال).

(١٢) البلد (٩٠/٤). الكبد: من المكابدة لأمور الدنيا وأمور الآخرة.

راجع القرطبى (٢٠/٦٢) والطبرى (٣٠/١٢٦) ولسان العرب (٤/٣٧٩) والقاموس المحيط (١/٣٤٤).

وإذا صار هكذا وهن (١٣) وذل فيحتاج هذا القلب إلى ثبات فإذا أيد بنور العظمة صلب وثبت.

ولذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما رزق عبد شيئا أفضل من إيمان صلب».

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله فى الأرض أوانى ألا وهى القلوب وأحبها إلى الله أرقها وأصفاها وأصلبها» أرقها للإخوان وأصفاها من الذنوب وأصلبها فى ذات الله تعالى قوله: وحزما فى لين فإن اللين يظهر على الأركان.

فإذا كان أصله من القلب كان من السكينة وإذا كان أصله من النفس كان من الكسل فإذا كان من الكسل انتشرت أمور دينه، ودنياه وتبددت وضاعت وإذا كان من السكينة ثقل القلب، بثقل السكينة فسكنت الجوارح، وإذا سكنت الجوارح من ثقل القلب ظهر الحزم فى الأمور.

والحزم هو اجتماع الأمور فيرى أمر دينه ودنياه كلها محكمة قد جمعت حزمة حزمة قوله وإيمانا فى يقين، فإن الموحدين من الله عليهم بنور التوحيد فوحدوه ثم للنفس فى الأسباب مرتع فإذا تعلقت بسبب من الأسباب لم تنتقض عقدة التوحيد لأنها معقودة بالعقدة العظمى، وهى العروة الوثقى التى لا انفصام لها.

ولكن دخل النقص فى نوره المشرق، فى صدره فصار محجوبا عن الله وبقى مع الأسباب فتراه الدهر من خوف الرزق مضطربا، ومن خشية الخلق ذاهلا وهن الطمع فيما لديهم أسيرا، ولا يعمل لله إلا كأجير السوء فهذا موحد دنى سفل، لا يقدر على الوفاء، والتوفير لما نطق لسانه يقول: الحمد لله على نعمه ثم تراه كفورا فى الفعل.

(١٣) وهن: ضعف.

ويقول الله أكبر ثم يتكبر على حق الله، ويقول لا إله إلا الله، ثم توله قلبه إلى الأسباب فتراه عبير أهل الدنيا، ويقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ثم يقتدر فى الأمور ويقول صلى الله على محمد ثم يوهن [١٤] عرى [١٥] ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بالسيرة المذمومة والأفعال السيئة.

ويقول: يارب ثم ينازعه فى تدبيره، فى ربوبيته، ويقول توكلت على الله ثم يتخذ من دونه أولياء، فيتعلق بهم لنوائبه [١٦] وحوائجه.

ويقول فوضت أمرى إلى الله، ثم يعرض عن تدبيره ويشتغل بتدبير نفسه ويقول: اللهم خر لى فإذا خار تسخط وتلوى [١٧].

ويقول: حسبى الله ثم تراه يركن إلى كل ظلوم قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [١٨]

فهذا مع هذه العقارب قد يسمى باسم الإيمان باعترافه وتوحيده، وقبوله الإسلام، ولكن حساب طويل وعذاب أليم فى القبر، والقيامة وعلى الجسر فيحتاج مع هذا الإيمان إلى يقين.

فإذا نال اليقين تخلص من هذه العقارب، وصار موحدا شاكرا لله خالصاً متواضعا والها إليه فى كل حاجة، مفوضا ملقيا نفسه بيديه سلما فيتولى الله ويتولاه الله، قد عزر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووقره ونصره، واتبع النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون.

---

(١٤) يوهن: يضعف.

(١٥) عرى: جمع عروة، وهى تلك التى للقميص والكوز.

(١٦) نوائب: مصائب، جمع نائبة.

(١٧) تلوى: تبرم.

(١٨) هود (١١/١١٣).

قال البيضاوى ــ رحمه الله ــ : «الركون إلى الظلمة هو الميل اليسير، أى لا تميلوا إليهم أدنى ميل فتمسكم النار بركونكم إليهم» أهـ. (ص ٢٥٨) بتصرف.

وقال بكر بن عبد الله المزنى : أن أبا بكر رضى الله عنه لم يفضل الناس بكثرة صوم ولا صلاة وإنما فضلهم بشىء كان فى قلبه .

وقال صلى الله عليه وسلم « خير ما ألقى فى القلب اليقين » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أعطيت أمة من اليقين ما أعطيت أمتى » . وقال صلاح أول هذه الأمة بالزهد ، واليقين وفساد آخرها بالبخل والأمل ، ولا يظهر البخل والأمل إلا من فقد اليقين ، ساء ظنهم بربهم فبخلوا ، وتلذذوا بشهوات الدنيا ، فحدثوا أنفسهم بالأمانى الكاذبه .

قوله حرصا فى علم قد اتجه على وجهين وجه منها أن العلم بحر فإذا دخله طالبه فتوسطه فلم ير له ساحلا ولا منتهى وسأم (١٩) ، فيحتاج إلى حرص بعينه على ذلك ، ويذهب بملالته (٢٠) والحرص إنما صار مذموما فى أمر الدنيا لأن النفس كلما أعطيت درجة من الدنيا نزعت إلى أعلى منها وهو فى طلب الدنيا مذموم (٢١) .

ولأنه لا يقنع بما بما قدر له فى اللوح من الرزق الذى قد فرغ الله منه لكل نفس ، والحرص فى طلب العلم محمود لأنه يترقى بعلمه بقلبه إلى علام الغيوب ، فكلما نال درجة قربت منزلته عند ربه .

قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢٢)

وقال عليه السلام « إن يوما لا ازداد فيه علما يقربنى إلى الله تعالى لا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم » .

(١٩) سأم : يئس .
(٢٠) الملالة : السأم .
(٢١) مذموم : وذميم مصيب فيه ، مستطال عليه .
(٢٢) المجادلة (١١/٥٨) .
إن الله سبحانه وتعالى يكرم أهل العلم بهذه الآية ؛ لأنهم أحب خلقه عليه ، لأنهم أقرب إليه ، وظن العالم خير من يقين الجاهل فالعالم يعبد الله سبحانه وتعالى على بصيرة .

فالحرص فى طلب العلم يرقى بصاحبه، والحرص فى طلب الدنيا يحط بصاحبه، والوجه الآخر من الحرص أنه يحرص على البر والتقوى، فيحتاج ذلك الحرص إلى العلم، لئلا يتعدى به حرصه فى بره وتقواه إلى السقوط فى التهلكة فيبر بما يصير عقوقا، ويتقى بما يصير وسوسة ويعمل البر وهو غير مصيب للحق كما فعل جريج الراهب فى بره، وكما فعلت بنو إسرائيل فى تقواهم.

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جريج الراهب كان متعبدا فى صومعة زمن بنى اسرائيل، وكانت له أم تأتيه فتناديه، فتقول: يا جريج، فيقطع صلاته فيكلمها فأتته يوما فجعلت تناديه: يا جريج، فجعل لا يكلمها، ولا يقطع صلاته ويقول يا رب: أمى، وصلاتك فلا يكلمها فلما رأت العجوز ذلك جزعت وقالت: اللهم إن كان جريج يسمع كلامى ولا يكلمنى فلا تمته حتى ينظر فى أعين المومسات، وكانت راعية وراع يأويان إلى ديره فوقع بها الراعى فحملت.

وكان أهل القرية يعظمون الزنا (٢٣) إعظاما شديدا، فلما ولدت أخذوها فقالوا ممن ولدت؟ قالت: من جريج الراهب نزل فوقع بى فحملت فأتاه قومه فنادوه يا جريج فجعل يقول: يا رب قومى وصلاتك وجعل لا يكلمهم فلما رأوا ذلك ضربوا صومعته بالفؤس (٢٤).

فلما رأى ذلك نزل إليهم فقال: ما لكم قالوا: ذكرت هذه أنها ولدت منك فضحك ثم صلى ركعتين ثم وضع يده على رأس المولود فقال: من أبوك فقال: الراعى الذى كان يأوى معها إلى ديرك. فلما رأى قومه ذلك جزعوا مما صنعوا به وقالوا: دعنا نبنى لك صومعتك (٢٥)

---

(٢٣) الزنا: بالقصر، وقد وردت فى إحدى النسخ ممدودة.
(٢٤) جمع فأس.
(٢٥) الصومعة: متعبد النصارى، على وزن فوعلة. وسميت بذلك لأنها دقيقة الرأس.

ونعيدها لك من ذهب، وفضة فقال: لا أعيدوها على ما كانت فقال له قومه لم ضحكت ونحن نريد ما نريد من القتل، والشتم قال: ذكرت دعوة والدتي ألا أموت حتى أنظر في أعين المومسات فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو دعت الله أن يخزيه لأخزاه ولكنها دعت أن ينظر فنظر.

قال مجاهد: كان المولود أحد الثلاثة (٢٦) الذين تكلموا في المهد (عن يزيد بن حوشب الفهري عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لو كان جريج الراهب فقيها عالما لعلم أن إجابة أمه من عبادة ربه»).

عن سعيد بن المسيب قال: جاء عثمان بن مظعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله غلبني حديث النفس، فلم أحب أن أحدث شيئا حتى أذكر ذلك لك، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم وما تحدثك به نفسك يا عثمان، قال: تحدثني نفسي أن أختصي (٢٧) فقال مهلا يا عثمان فإن خصاء أمتي الصيام قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني بأن أترهب في رؤس الجبال.

قال: مهلا يا عثمان فإن ترهب أمتي الجلوس في المساجد انتظارا للصلاة، قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني أن أسيح في الجبال.

قال: مهلا يا عثمان فإن سياحة أمتي الغزو في سبيل الله، والعمرة والحج قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني بأن أخرج من مالي كله.

قال: مهلا يا عثمان فإن صدقتك يوما بيوم، وتكف نفسك، وعيالك، وترحم المسكين، واليتيم فتطعمه أفضل من ذلك. قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني بأن أطلق خولة امرأتي.

---

(٢٦) وردت بالأصول (ثلثة) على الإمالة.
(٢٧) أختصي: أعقم نفسي لعدم الإنجاب.

قال: مهلا ياعثمان فإن الهجرة فى أمتى من هجر(٢٨) ماحرم الله عليه أوهاجر إلى فى حياتى أو زار قبرى بعد موتى أومات وله امرأتان أو ثلاث أو أربع. قال: قال: يا رسول الله فإن نهيتنى أن أطلقها فإن نفسى تحدثنى بأن لا أغشاها قال: مهلا يا عثمان فإن الرجل المسلم إذا غشى أهله أو ماملكت يمينه، فلم يكن من وقعته تلك ولد له وصيف فى الجنة وإن كان من وقعته ولد فمات قبله كان له فرطا(٢٩) وشفيعا يوم القيامة وإن مات بعده كان له نورا يوم القيامة قال: يا رسول الله فإن نفسى تحدثنى بأن لا آكل اللحم.

قال: مهلا ياعثمان فإنى أحب اللحم ولاآكله إذا وجدته ولو سألت ربى أن يطعمنيه فى كل يوم لأطعمنيه قال: يارسول الله فإن نفسى تحدثنى بأن لا أمس الطيب.

قال مهلا ياعثمان فإن جبريل عليه السلام أتانى بالطيب غبا وقال: يوم الجمعة لامترك له، ياعثمان لاترغب عن سنتى(٣٠) ومن رغب عن سنتى فمات قبل أن يتوب ضربت الملائكة وجهه عن حوضى يوم القيامة).

وأما تقوى بنى إسرائيل (فروى عن جامع بن شداد قال: أتيت أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بمكة فقلت: يرحمك الله إذا خرجنا فأكل بعضنا الخبز وتركه بعضنا كراهية له فكيف ترى؟ فقال: أيها الناس لاتغلوا فى دينكم مرتين).

حدثنى أبو هريرة رضى الله عنه أن عيسى بن مريم عليه السلام ندب(٣١) قومه بخبز ولحم وشراب ثم أرسل إليهم فدعاهم فأقبلوا يمسحون

---

(٢٨) هجر: ترك.

(٢٩) فرطا: سابقا متقدما.

(٣٠) رغب عن السنة: جفف عنها وجافى طريقها ومنهاجها.

(٣١) ندب: دعا وحفز واستحث.

أيديهم بملاء الكتان باغين فقالوا لا نأكل من هذا اللحم ، لأن كبشه رضع من كلبة ، ولا نأكل من هذا الخبز ، لأن سنبله نبتت فى مزبلة ، ولا نشرب من هذا الشراب ، لأن حبله نبتت فى مقبرة .

قال : فلم ترهم يا ابن أخى حبب إليهم اللحم حتى أنهم ليأكلون الخصى من حبهم اللحم وأن الفويسقة تقع فى إناء أحدهم فيخرجها ويشرب من حبه الشراب وأنه لا يصلح له شيء إلا بمزبلة ثم التفت إلى مولى له فقال : ولم يكن من أحب زادنا إلينا الخبز. عن أبى قلابة قال : بلغ النبى عليه السلام أن أناسا من أصحابه احتموا النساء واللحم فأوعد(٣٢) النبى صلى الله عليه وسلم فيه وعداً(٣٣) شديداً حتى ذكر القتل فقال : لو تقدمت فيه لقتلت ثم قال : إنى لم أرسل بالرهبانية إن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة وإنما هلكت من قبلكم من أهل الكتاب بالتشديد فتلك بقاياهم فى الصوامع ، والديار اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا واعتمروا ، واستقيموا يستقم لكم) فحتاج الحريص على البر والتقوى إلى العلم حتى يمسك حرصه عن التعدى ، وذلك صدق الحرص الذى قال عبد الله بن مسعود لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما : (يا أمير المؤمنين إن فى هذه الأمة من يبلغ عمله فى الميزان ما يكون عمل يوم وليلة أثقل من سبع سموات فقال : بم ذاك يا ابن أم عبد ، قال : بصدق اليقين وبصدق الورع ، وبصدق الحرص ، على البر والتقوى) .

قوله شفقة فى معة فالشفقة تحنن(٣٤) الرأفة والإكباب(٣٥) على من يشفق عليه والمعة هى الحاوية مشتقة من المعاء معاء البطن فإذا كانت

---

(٣٢) أوعد : من الوعيد .

(٣٣) كذا ورد بالأصول ، وهو خطأ لغوى لأن الأصح أن يقول أوعد إيعاداً ، ووعد وعداً . فهنا الأصوب أن يقول إيعاداً .

(٣٤) تحنن : حدب ورأفة .

(٣٥) الاكباب : الانهماك والتهالك .

الشفقة بغير معة انتشرت وفسدت وإذا كانت فى معة كانت الشفقة فى حسن، فلم ينتشر ولم يفسد لأن هناك شيئا يحويها قال له قائل: وما ذاك الشيء؟ قال: تعظيم حق الله فإذا أشفقت على حق الله تعالى، كانت تلك الشفقة حاوية لهذه الشفقة فلا ينتشر، ولا ينبثق، ولا يتعدى إلى الفساد.

ألا يرى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جزعوا عند الحدود فى مبتدء أمرهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ (٣٦)

وجلد عمر رضى الله عنه ابنه فقال: يا أبت قتلتنى فقال: إذا لقيت ربك فأخبره أنا نقيم الحدود، وكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فاطمة المخزومية حيث أراد قطعها فى سرقة فغضب فقال: والله لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعتها ثم نزل من المنبر فقطعها).

قوله حلما فى علم، فالحلم سعة الخلق وإذا توسع المرء فى أخلاقه ولم يكن له علم أفتقد الهدى وضل لأن توسعه يرمى به إلى تهمات النفس فيحتاج إلى علم يقف به على الحدود، وإذا كان له علم ولم يكن هناك حلم ساء خلقه، وتكبر بعلمه لأن العلم له حلاوة، ولكل حلاوة شره(٣٧) فيضيق أخلاقه ويرمى به ضيق خلقه إلى شره النفس وحدتها فيكون صاحب عنف وخرق(٣٨) فى الأمور فيضيع علمه قال الشعبى، ما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، وقيل الحلم أرفع من العقل، لأن الله تعالى تسمى بالحلم ولم يتسم بالعقل.

---

(٣٦) النور (٢/٢٤).

قال مجاهد - رضى الله عنه -: «لا تعطلوا حدود الله، ولا تتركوا إقامتها شفقة ورحمة». من التفسير الكبير للفخر الرازى (١٤٨/٢٣) بتصرف.

(٣٧) كذا ورد بالأصول.

(٣٨) الخرق: النزق والخفة والطيش.

عن الحسن رضى الله عنه : ما سمعت الله نحل عباده شيئا أقل من الحلم قال : :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ (٣٩)

وقال :

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ (٤٠)

فالحلم سعة الخلق ، والعقل عقال عن التعدى فى أخلاقه ، والواسع فى أخلاقه حر عن رق النفس (٤١) .

ولذلك قال عيسى عليه السلام لبنى إسرائيل لا عبيد أتقياء ولا أحرار كرماء ، فالحليم كريم ، أينما قدته انقاد والحليم يحتمل أثقال الأمر والنهى بلا كبد ولا مجاهدة ، فكان إبراهيم عليه السلام ممن احتمل الأثقال ابتلى بالنار وابتلى بالهجرة والغربة وابتلى بسارة وابتلى بالختان وابتلى بذبح الولد فجاد بنفسه وولده فقال الله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ (٤٢)

قوله قصدا فى غنى القصد القسط إلا أن القصد فى الأفعال والأعمال ، والقسط فى الأوزان قال الله تعالى :

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ (٤٣)

أى أمش المشى الوسط لا الوهن الكسلان ولا السريع العجلان .

---

(٣٩) هود (٧٥/١١) . انظر الطبرى (٨٠/١٢) .
(٤٠) الصافات (١٠١/٣٧) .
(٤١) رق النفس : عبودتها .
(٤٢) هود (٧٥/١١) .
(٤٣) لقمان (١٩/٣١) .

روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءه ضيف فبينما هو قاعد عنده إذ جاءه الراعى على يده بهمة قد ولدها (٤٤) فقال له اذبح شاة ثم قال: للضيف لا تحسبن أنا من أجلك ذبحنا ولكن لنا شياه مائة فإذا ولد الراعى بهمة ذبحنا مكانها شاة فهكذا القصد ان الله إذا رزقه اقتصد قال الله تعالى:

﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ (٤٥)

قال عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ (٤٦)

«من كان فيه ثلاث خصال فقد أوتى ما أوتى آل داود خشية الله فى السر والعلانية، والقصد فى الغنى والفقر، والعدل فى الغضب والرضا».

قوله يحملان فى فاقة (رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا ثائرا شعره فقال «لم يشوه أحدكم نفسه».

ورأى آخر فى ثياب وسخة فقال: «أما يملك هذا ما يغسل ثيابه».

وقال: إن الله نظيف يحب النظافة. وقال نظفوا أفنيتكم فإن اليهود لا ينظفون) فالفقير صاحب الفاقة (٤٧) إذا كان حى القلب صاحب تقوى، وجدته فى نظافة وهيئة من نظر إليه لم يوحشه ومن جالسه لم يثقل عليه، ولم يتأذ به يأخذ شعره ويقلم أظفاره، ويغسل أدرانه (٤٨) ويبيض أثوابه ويتطيب وينظف مجلسه، ويكنس بيته وليس لذلك كثير

---

(٤٤) بهمة: والبهم جمعها وهى ولد الضأن ذكراً كان أو أنثى.
(٤٥) فاطر (٣٢/٣٥).
(٤٦) سبأ (١٣/٣٤).
(٤٧) الفاقة: الفقر.
(٤٨) أدرانه: أقذاره، وأوساخه.

مؤنة وإنما يهملها من يهملها لنذالة النفس ودناءتها لا لأنه لا يجد والقلب إذا مات لم يلتمس النظافات والطهارات.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربط الحجر على بطنه من الجوع، ولا يترك الطيب ويعاهد أحوال نفسه.

وكان لا يفارقه المرآة والسواك والمقراض فى السفر والحضر، وكان إذا أراد أن يخرج إلى الناس نظر فى ركوة فيها ماء فيسوى من لحيته، وشعر رأسه، ويقول إن الله جميل يحب الجمال.

عن مكحول عن عائشة رضى الله عنها فمن أغفل ذلك، ورفع البال عن نفسه ساء منظره ووحشت هيئته فأدخل على إخوانه من المؤمنين الغم والهم من أجله، وكان ذلك كالشكوى إلى العباد من ربه وإذا تجمل فى فاقته(٤٩) كان كالكاتم مصيبته الشاكر لربه المتحمد إلى خلقه.

وروى عن عمران بن حصين رضى الله عنه أنه لبس الخز(٥٠) فقيل له تلبس الخز قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أنعم الله على عبده أحب أن يرى أثر ذلك عليه، وقد لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا جديدا فقال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى الناس.

فهذا التجمل فى الناس لا للناس إنما هو لله شكرا له، ونشرا للجميل عنه، وإذا أصابته مصيبة سترها وكتمها وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من كتم مصيبته أربعين يوما يخرج من الذنوب كيوم ولدته أمه.

---

(٤٩) فاقته: فقره.
(٥٠) الخز: الحرير.

وروى عن على بن الحسين رضى الله عنهما أنه لدغته عقرب فصبر فى ذلك الوجع ليلته إلى الصباح كاتما له لئلا يعلم به أحد فلما أصبح أعتق رقبة شكرا لله أن أعطاه الصبر على كتمانه .

والعبد الحى القلب إذا أنعم الله تعالى عليه نعمة نشرها عند خلقه قولا وفعلا وإذا نكب نكبة سترها وكتمها لئلا يرى العباد من أحوال نفسه ما يتحير العباد فيه من سوء الحال لأن الله تعالى معروف بالمعروف فإذا رأوا سؤا تحيروا حتى يرجعوا إلى إيمانهم به أنه عدل لا يظلم ولا يجور (٥١) .

ولذلك استرجع (٥٢) أهل المصيبة لأنهم عندما يصابوا تأخذهم الحيرة فى أول الصدمة وإذا ذكروا ربهم استرجعوا معنى قولهم إنا لله وإنا إليه راجعون أى رجعنا إليك من حيرتنا وعلمنا أن ذلك لك وأن فعلك هذا بنا خير كله ، قوله تحرجا عن الطمع فالطمع فيما فى أيدى الخلق هو انقطاع عن الله والمنقطع (٥٣) عن الله مخذول ، خائب لأنه عبد بطنه وفرجه وشهواته والطمع ، والرجاء مقترنان إلا أن الرجاء صفة فعله أن يمد القلب عنقه إلى شىء والطمع وجود القلب طعم ذلك الشىء الذى رجاه فهذا فتنة .

(ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعوذ بالله من طمع يهدى إلى طبع) (٥٤) فالطمع (٥٥) إذا عمل فى القلب وتمكن فيه طبع على قلبه لأنه يوله قلبه إلى الخلق عن الله .

---

(٥١) يجور : يظلم .
(٥٢) استرجع: قال «إنا لله وإنا إليه راجعون» .
(٥٣) لأنه لا خير فى اتباع غير سبيل الله .
(٥٤) الطبع: فساد الفطرة ، يقال فلان مطبوع على القَلْبَ أى مفطور على فساد الملكة .
(٥٥) يتملق: يتقرب بالملق والمصانعة والمداهنة .

فتراه يتملق لهذا ويمدح ذاك فى وجهه ويتبع هذا فيصبر كالعبد له فكم من حق يضيعه وكم من أمر يسكت عن الحق فيه فإذا نطق نطق بالهوى (٥٦) فهذا قلب قد خرب ولذلك قال الله تعالى:

(يا داود مامن عبد يعتصم بخلق دونى إلا أسخطت الأرض من تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء من فوقه)

وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: من رجا غيرى وكلته إليه، ومن وكلته إليه فليستعد للفتنة، والبلاء.

قوله كسبا من حلال، كل نفس قد فرغ الله من رزقها وأثبته فى اللوح ثم أنزل بذلك قرآنا فقال:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ (٥٧)

فالمؤمن الموقن قد صار هذا الضمان له معاينة فاطمأن إلى ذلك ولم يتعد إلى الحرام، والذى ضعف يقينه بغلبة شهواته (٥٨) على إيمانه فيفتتن ويتعدى إلى الحرام والشبهة. قوله برا فى استقامة المؤمن إذا كان لين القلب رقيق الفؤاد عطف على الأهل والولد والناس كلهم فإذا برو كان بهذه الصفة لم يؤمن أن يزل عن الحق والصواب فيصير البر عقوقا-عن إبراهيم النخعى كان يستحب أن يسوى الرجل بين ولده حتى فى القبلة.

(عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: اعدلوا بين أولادكم فى النخب كما تحبون أن تعدلوا بينكم فى البر واللطف.

(٥٦) نطق بالهوى: أى بهوى النفس.

(٥٧) هود (٦/١١).

قال أبن مسعود- رضى الله عنه-: مستقرها الأرحام، ومستودعها: الأرض التى تموت فيها.
راجع الدر المنثور للسيوطى (٣٢١/٣) وجامع البيان للطبرى (٣/١٢).

(٥٨) فى نسخة [يغلبه] وهو تصحيف.

وعـن النعمان بن بشير أن أباه نحله غلاما فأتى النبى صلى الله عليه وسلم يشهده فقال: كل ولدك نحلته قال: لا قال فاردده).

فقوله برا فى استقامة شرط وثيق، وهو أن لا يمازجه الهوى والبر والملق (٥٩) قرينان مشتبهان قوله نشاطا فى هدى، فالنشاط هو انحلال النفس وانبساطها والانشوطة هو العقد إذا مددته انحل من غير أن تحله فإذا عمل العبد عملا كان من النفس فيه انقباض، وكسل فإذا قارنها الهوى والشهوة نشطت، وانحلت فأمر صاحب هذا أن يتفقد حتى يكون نشاط نفسه وانحلالها فى هدى لا فى ضلالة قال الله تعالى:

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ (٦٠)

وقال:

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ (٦١)

أى احذروا أن لا يتسلطى عليكم شعاع من نور العظمة فتصير السموات والأرض جمرة واحدة، فالنشاط يحتاج إلى الهدى، كيلا يفوته الحذر مثل الصبى إذا رآى معلمه انقبض وتطأطأ فإذا افتقده انبسط وأبتش. وكان السلف الصالح ينبسطون إلى اهليهم وأولادهم واخوانهم و يظهرون النشاط فى الأمور ويتفقدون من أنفسهم الوقوف عند الحدود كى لا يرتطموا فى النهى.

---

(٥٩) تقدم شرحها حاشية (٢).

(٦٠) آل عمران (٣/٢٨)، (٣/٣٠)

بهذه الآية الكريمة قامت الحجة على الناس؛ حتى لا يكون الطمع فى رحمة الله ذريعة للتحرر من التكاليف، والخروج على المنهج، بل لابد للتقى كلما ازداد من الله قربا ازداد تعلقا بالعمل والمنهج.

(٦١) البقرة (٢/٢٣٥).

أى أن الله يعلم ما تحتالون به فى ذلك على مخالفة أمره، فاحذروا عقابه.

وقال إبراهيم النخعي يعجبني أن يكون الرجل في أهله كالصبي فإذا بغي منه وجد رجلا يعني إذا طولب بما لا يجوز في الحق وجد صلبا (٦٢) في دينه قوله نهيا (٦٣) عن شهوة فإن النفس ذات شهوات فإذا أطعمتها في واحدة طمعت في أخرى ثم لا يزال كذلك حتى تستمر فتشرد على صاحبها شراد البعير.

(وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من السرف (٦٤) أن تأكل كل ما شئت) معناه أن النفس إذا اعتادت هذا من صاحبها استمرت فإذا منعتها لم تقدر على ذلك، وعن عكرمة رضي الله عنه أن النفس إذا أطعمتها (٦٥) طمعت وإن أيستها (٦٦) أيست وإن فوضت إليها ضيعت، قوله رحمة للمجهود، فالمجهود أصناف مجهود في المعاش، ومجهود في العبادة، ومجهود في البلاء، فمن شأنه أن يرحم كل هؤلاء.

قوله إن المؤمن عياذا لله: عياذا لله هو الذي يعيذ عباده من السوء المؤمن البالغ في إيمانه يعيذ العباد بفضل إيمانه من جوره (٦٧) فقد أمه الخلق وصاروا منه في معاذ لا يحيف (٦٨) على من يبغض أي بغضة إياه لا يتحمله على أن يحيف (٦٩) عليه وذلك قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ (٧٠) الآية

(٦٢) أي قويا ليقينه بربه.
(٦٣) أي انتهاء عنها.
(٦٤) السرف: الإسراف والإغراق في الشيء.
(٦٥) في نسخة [أطعمها] وهو تحريف خطير من الناسخ.
(٦٦) أيستها: من أيس بمعنى يئس.
(٦٧) جور: ظلم.
(٦٨) لا يحيف: لا يظلم.
(٦٩) يحيف: يجور ويظلم.
(٧٠) النساء (٤/١٣٥).
القسط العدل. القاسط: العادل أو المشرك أو الظالم أما المقسطون فهم العادلون القائمون بمقتضيات العدل وشرعته.

قوله لا يأثم فيمن يحب، أي لا يحمله حبه إياه أن يأثم فى جنبه فإنه إذا كان على غير ذلك كان بغضه لغير الله وحبه لغير الله.

(وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يبلغ العبد ذروة الإيمان حتى يحب فى الله ويبغض فى الله)(٧١) فمن كان حبه فى الله وبغضه فى الله لم يحمله البغض على أن يجور(٧٢) ولا الحب على أن يأثم، ومن أحب وأبغض لهوى نفسه جار على المبغض، وأثم فى جنب المحبوب قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ (٧٣)

وذلك أنهم لما أرادوا الهجرة امتنع منهم بعض أزواجهم وأولادهم فافتتن بعضهم بالأزواج والأولاد فأقاموا وتركوا الهجرة ومنهم من مضت وتركهم فنزلت هذه الآية فيمن أثم فى جنب محبوبه من الأهل والولد قوله ولا يضيع ما استودع (٧٤) لأنه يشفق على ما يؤتمن عليه كشفقته على مال نفسه لعظيم قدر الأمانة عنده قوله ولا يحسد لأن من عرف الله عرف أنه هو قسم الدنيا بين أهلها بحكمة بالغة.

وقال:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (٧٥)

(٧١) لأن صلة بالله هى ملاك أمره، ومناط حركته فى الحياة موصول به.
(٧٢) يجور: يظلم.
(٧٣) التغابن (١٤/٦٤).
يلاحظ أن (من) هنا بعضية، إذ ليس كل الأزواج ولا كل الأبناء أعداء لأزواجهم وآبائهم.
(٧٤) استودع: جعل وديعة عنده.
(٧٥) هود (٦/١١). مستودع: مستقر، تودع فيه.

ولن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وقال تعالى:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ (٧٦)

وقال:

﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ (٧٧)

فمن أيقن فى إيمانه بهذه الكلمات لم يحسد الناس على فضل أوتوا وقنع بما أوتى.

(وروى عن وهب بن منبه رضى الله عنه أن الله تبارك وتعالى اسمه كتب التوراة بيده فيها عشر كلمات أمره بهن «بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب الله تبارك وتعالى اسمه كتبه لعبده موسى، سبحنى وقدسنى يا موسى إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ولا تشرك بى شيئًا فإن، حق القول منى لتلفحن وجوه المشركين النار واشكر لى ولوالديك إلى المصير أنسألك (٧٨) فى عمرك وأقيك المتالف (٧٩) وأحييك حياة طيبة وأقلبك إلى خير منها ولا تقتل النفس التى حرمت إلا بالحق فتضيق عليك الأرض برحبها (٨٠) والسماء بأقطارها وتبوء (٨١) بسخطى والنار، ولا تحلف باسمى كاذبا ولا آثما فإنى لا أطهر ولا أزكى من لم ينزهنى ويعظم أسمائى ولا تشهد بما لم تع سمعك، ولم يحفظ عقلك، ولم يعمد

---

(٧٦) فاطر (٢/٣٥).
الرحمة فى الآية المراد بها الغيث كما ذكر القرطبى (٣٢١/١٤).
(٧٧) يونس (١٠٧/١٠).
إذ لو أراد الله شيئًا لم يمنعه شىء.
(٧٨) أنسألك فى عمرك: أطال لك فيه.
(٧٩) المتالف: المفاسد.
(٨٠) رحبها: اتساعها.
(٨١) تبوء: ترجع.

عليك قلبك، فإنى واقف أهل الشهادات يوم القيامة على شهاداتهم ثم أسائلهم عنها سؤالا خفيا، ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلى فإنى أنا الجواد بالعطية أعطى من شئت وأمنع من أردت، ولا تنفس عليهم نعمى ورزقى ولا تمدن عينيك ولا تتبعه نفسك، فإن الحاسد عدو لنعمتى مضاد لقضائى، ساخط لقسمى الذى أقسم بين عبادى ومن يك كذلك فلست منه وليس منى وأنا منه برئ (٨٢) ولا تزن، ولا تسرق فاحجب عنك وجهى ويغلق دون صوتك أبواب السماء ولا تغدر بحليلة جارك فإنه كبر مقتا عندى، وأحبب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك، ولا تذبح لغيرى فإنه ليس يصعد إلى قربان أهل الأرض إلا ما ذكر عليه اسمى وتفرغ للسبت (٨٣) وفرغ له آنيتك وأسقيتك، وثورك وحمارك ودوابك وجميع أهل بيتك»

وذكر وهب رضى الله عنه أن هذه الكلمات العشر التى كتب الله لموسى عليه السلام فى الألواح مكتوبات فى القرآن وذلك أن الله تعالى يقول:

﴿ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (٨٤)

وقال الله تعالى فى الوالدين:

﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (٨٥)

---

(٨٢) الحليلة: الزوجة.

(٨٣) كذا ورد بالأصول وفى بعض النسخ [وتفرغ عليه للسبت].

(٨٤) المائدة (٧٢/٥).

قال الإمام ابن قيم الجوزية ارن أحداً من الموحدين لن يخلد فى النار، وسيخرج الناس أجمعون بشفاعته صلى الله عليه وسلم تباعاً، ولن يخلد فيها إلا من حبسه القرآن.

(٨٥) لقمان (١٤/٣١)

قرن الله سبحانه شكر الوالدين بشكره دلالة على عظم حقها على الإنسان.

وقال فى القاتل:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (٨٦)

وقال فى الحلف:

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ (٨٧)

وقال فى الشهادة:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (٨٨)

وقال فى الحسد:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (٨٩)

وقال فى الزنا:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (٩٠)

---

(٨٦) النساء (٤/٩٣).

(٨٧) البقرة (٢/٢٢٤)

أصل العرضة فى كلام العرب: القوة، والمراد من ذلك تقوية الكلام باسم الله. راجع المعنى فى جامع البيان (٤/٤٢٥).

(٨٨) الإسراء (١٧/٣٦).

راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (١٠/٢٥٧) وجامع البيان للطبرى (١٥/٦٢).

(٨٩) النساء (٤/٥٤).

يقصد بالناس النبى صلى الله عليه وسلم كما ذكر الطبرى (٨/٤٧٩) وفضله الله المراد به التوسعة عليه فى تعدد النساء.

(٩٠) الإسراء (١٧/٣٢).

ساء سبيلا: قبح فعلاً وطريقا مؤدية إليه.

وقال في السرقة :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾ (٩١)

وقال في حليلة الجار :

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ (٩٢)

وقال في التحاب بين الناس :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٩٣)

وقال :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٩٤)

وقال في الذبائح :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ (٩٥)

وقال في السبت :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ (٩٦)

---

(٩١) المائدة (٣٨/٥).
(٩٢) النساء (٢٤/٤).
(٩٣) الحجرات (١٠/٤٩).
(٩٤) الفتح (٢٩/٤٨). راجع تفسير الطبرى (٧١/٢٦).
(٩٥) الأنعام (١٢١/٦).
(٩٦) البقرة (٦٥/٢).
الخاسئين : المطرودين المبعدين، يقال خسأت الكلب إذا طردته. راجع القاموس المحيط (١٤/١).

فمن عادى نعمة الله بحسده وسخط أمره وضاد قضاءه فمعرفته فى سجن مظلم، وسويداء قلبه لا أدرى أتبقى معه حتى يختم له بها أم يسلب فيموت كافرا عدوا لله وإن تفضل الله عليه بأن يتركها عليه، وختم له بها لا أدرى متى ينجو من النار قوله لا يطعن، فالطعن قد يكون من الحسد وقد يكون من الغيرة.

والغيرة من إبليس فى صدر الآدمى كالعذرة من الآدمى فحق على كل مؤمن أن يعاف من الغيرة فإذا طعن فقد هتك الستر وإنما يطعن فى ستر الله ولو أن رجلا طعن فى ستر ملك من عظماء ملوك الدنيا لخاطر بنفسه وأهلكها فكيف بستر الله لأن المؤمن فى سبعين حجابا من نور فإذا عمل خطيئة ثم تناساها حتى يعمل أخرى هتك عنه حجابا من تلك الحجب فلا يزال كلما عمل خطيئة ثم تناساها حتى يعمل أخرى هتك عنه حجابا فإذا عمل كبيرة هتك عنه الحجب كلها إلا حجاب الحياء، وهو أعظمها حجابا فإن تاب تاب الله عليه، ورد تلك الحجب كلها.

فإن عمل خطيئة بعد الكبائر ثم تناساها حتى يعمل أخرى قبل أن يتوب هتك عنه حجاب الحياء فلم يلقه إلا مقيتا (٩٧) ممقتا فإذا كان مقيتا ممقتا نزعت منه الأمانة فإذا نزعت منه الأمانة لم يلقه إلا خائنا مخونا فإذا كان خائنا مخونا نزعت منه الرحمة فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا فظا غليظا فإذا كان فظا غليظا نزعت منه ربقة الإيمان فإذا نزعت منه ربقة الإيمان لم تلقه إلا لعينا ملعنا شيطانا رجيما. عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: ما من رجلين مسلمين إلا بينهما من الله ستر فإذا قال أحدهما لصاحبه هجرا هتك ستر الله).

---

(٩٧) مقيتا: ممقوتا، مكروها.

قوله لايلعن اللعنة إذا خرجت من العبد إستأذنت ربها فإذا صارت إلى من رجمت إليه فلم تجد مساغا رجعت إلى ربها فقالت: رب إنى لم أجد مساغا فأمرت بالرجوع إلى صاحبها قوله: يعترف بالحق وإن لم يشهد عليه فالمؤمن أسير الحق يعلم أن الشاهد عليه علام الغيوب، وقد أيقن بما أنزل عليه من قوله:

﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (٩٨)

فقد اجتمع على قلبه أمران إثنان العلم والشهادة فأخذته هيبة العلم، وحياء الشهادة. وقال تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ (٩٩)

وقال:

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ (١٠٠)

فلا يحوج المُوقن بهذا إلى أن يشهدوا عليه فهو معترف بالحق أبدا له أو عليه.

(عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة قالوا الله ورسوله أعلم قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوا بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم) قوله لا يتنابز بالألقاب (١٠١) فالنبز من شأن

---

(٩٨) يونس (٦١/١٠).

(٩٩) محمد (١٩/٤٧).

راجع التفسير الكبير للفخر الرازى (٥٩/٢٨).

(١٠٠) العلق (١٤/٩٦).

انظر التسهيل لعلوم التنزيل (٢٠٨/٤).

(١٠١) تنابزوا بالألقاب، لقب بعضهم بعضا.

البطالين الذين رفعوا عن أنفسهم البال وشرهت نفوسهم إلى التلذذ بالبطالات، وفى ذلك حقارة للمؤمنين.

(وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه أنه قال له رجل يا أصلع فقال لقد كنت غنيا عن لعنة الملائكة).

وبلغ من تعظيم حق المؤمن أن يكنى ويدعى بالكنية لأن الاسم قد نالته البذلة فى صغره، فلما بلغ وحل محل الإجلال جعلت له دعوة طرية مرفوعة عن البذلة فكنى عن الاسم بشىء آخر تعظيما له، وكانت الأعراب لجفائهم يتنادون يا محمد، يا محمد، يا محمد، فنزل لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا فعلموا أن يقولوا: يا نبيَّ الله، وكانت كنيته أبا القاسم، ولو دعى بتلك الكنية لكان مدعوا بما قد ابتذل قبل النبوة قوله فى الصلاة متخشعا لخشوع من فعل القلب فإذا علم القلب أين قام ولمن قام تخشع وإذا استقام القلب ذلت النفس، وإذا ذلت النفس هدأت الجوارح.

(ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فى صلاته قال: لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، قوله إلى الزكاة مسرعا؛ فالسرعة هى من حياة القلب يعلم أن المال ميال بالقلوب عن الله فإذا مال القلب عن الله بشىء نزعت البركة من ذلك الشىء فأمر بالتصدق منه ليظهر صدق ايمانه بانى لما ملت إلى هذا المال، وأحببته ملت عنه إلى الله تعالى بهذه العطية، وبأن أخرجته من ملكى فسميت صدقة ثم سميت زكاة لأن المال بسبب هذه العطية عادت إليه البركة فزكى وطهر العبد من الميل عن الله فزكى؛ قوله فى الزلازل وقورا الوقار يثقل قلب العبد فإذا نالته زلزلة بين بلوى وشدة لم تستفزه، ولم يتكفأ يمينا وشمالا والوقار إكليل الإيمان.

قـال زيـد بـن أسلم ان على الحق نورا وعلى الايمان وقارا قال داود عليـه السلام: إلهى دلنى على عمل إذا أنا عملته نلت به وقارك فأوحى الله إلـيـه يا داود: أحـبـب المؤمـنين من أجلى ولا يزال لسانك رطبا من ذكـرى واعـمل لى حتى كأنك ترانى. قوله فى الرخاء شكورا، لأن وقت الـرخـاء الـنـفـس سـاكـنـة والقلب، مفتوح الباب، مشرق النور منكشف الـغـطـاء فـإذا تـناول النعمة على نور من ربه كان شكورا ومن كان فى الـرخـاء شـكـورا كان فى البلاء صبورا. قوله قانعا بالذى له القناعة ثواب الله العاجل للعبد بما أطاعه، وهى طيب النفس والحياة الطيبة.

قال الله تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (١٠٢).

وقـال صـلـى الله عـلـيـه وسلم: «من استغنى بالله أغناه الله» وقال صـلـى الله عـلـيـه وسـلـم «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس».

عـن زيد بن رافع المدنى رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلـم أنـه قال: إن الله أنزل فى بعض ما أنزل من الكتب قسما يقسمه يـقـول: وعـزتـى وجـلالـى وجمالى وعلوى ودنوى، وارتفاع مكانى لمن آثر هـواى عـلـى هواه لأجمعن له شمله، ولأكفينه ما أهمه، ولأجعلن غناه فى نـفـسـه، ولأضـمـنن الـسـموات والأرض رزقه، ولأتجرن له من وراء تجارة كـل تـاجـر، ولمن آثر هواه على هواى لأشتتن عليه أمره، ولأجعلن فقره بين عـينيه، ولأحضرنه همومه الحاضر منها، والغائب والقديم منها والحديث حتى لا يدرى من أين يجيئه ومن أين يأخذه).

---

(١٠٢) النحل (١٦/٩٧).

وكان حق هذه الكلمة فى الاعراب أن يقال قنعا بالذى له ولكن الرواة ربما لحنوا فى الأداء، ولذلك قال الحسن البصرى أهلكتهم العجمة، وقيل للحسن إنك لاتلحن قال: إنى سبقت اللحن، والقانع السائل يقال: قنع يقنع قنوعا أى سأل وقنع يقنع قناعة أى رضى قال الله تعالى:

﴿ وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ (١٠٣)

وقال الشاعر:

لمال المرء يصلحه فيغنى مفاقره أعف من القنوع

أى من السؤال قوله لا يجمع فى القنط القنط حرارة الحرص وإذا جمع كذلك لم يدعه الحرص أن يتورع فى مكاسبه.

(عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المؤمن كيس فطن حذر وقاف متثبت لا يعجل، عالم ورع، والمنافق همزة لمزة حطمه كحاطب ليل لا يبالى من أين كسب وفيم أنفق (١٠٤).

سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن أبى بكر رضى الله عنه فقال: كان كالخير كله من رجل كان فيه حدة، وسئل عن عمر رضى الله عنه فقال كان كالطير الحذر الذى يرى أن له فى كل طريق شركا يأخذه.

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من طلب الدنيا حلالا واستعفافا عن المسألة وسعيا على عياله، وتعطفا على جاره جاء

---

(١٠٣) الحج (٣٦/٢٢) القانع: السائل، وهو القول المختار عند الطبرى (١٢١/١٧)، والمعتر: هو الذى يعتريك لتعطيه من غير سؤال. انظر أبا حيان (٣٤٧/٦).

(١٠٤) فى نسخة [ومم أنفق] وهو تحريف.

يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ومن طلب الدنيا حلالا مفاخرا مكاثرا مرائيا لقى الله وهو عليه غضبان) .

قوله لايغلبه الشح عن معروف يريده الشح أقوى من البخل لأن الشح يدعو إلى أن يأخذ مال غيره وما حرم عليه ، ويمنع حقوق الله فى ماله ، والبخل يدعو إلى أن يمنع المعروف من ماله ، والشح إنما هو من شح ، والحاء منه مضاعفة إنما هو شاح يشوح أدغمت الألف فى الحاء فشددت ، وقوله حاش يحوش هو أن يطرد الصيد من النواحى إلى الصائد .

وكذلك الحرص يجمع أسباب المنال إلى ملكه ، فالحوش فى فعل الظاهر ، والشح فى فعل الباطن ، والبخل والخلب بمعنى إلا أن الخلب أن يخادع الناس فى معاملاته والبخل أن يخادع ربه فى معاملته على المعروف قوله يخالط الناس كى يعلم يعنى لا يخالطهم مخالطة استرواح إليهم وأنس بهم ، ولكن مخالطة خبرة واعتبار وحذر وأخذ بالحزم .

(روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يسأل الناس عما فى الناس وكان سؤاله على هذه الجهة لا للتجسس ، قوله يناطقهم كى يفهم أى يفهم أحوالهم وأمورهم .

لأن الأسرار إنما تظهر بالمناطقة ولذلك قيل إنما المرء بأصغريه وهما القلب واللسان فإذا ناطقهم عرف كلا على درجته ولم يناطقهم لشهوة الكلام جزافا بل يناطق الحكماء ليزداد بالله علما والعامة ليفهم أحوالهم .
قوله : وإن ظلم أوبغى عليه صبر حتى يكون الرحمن هو الذى ينتصر له الصبر الحبس ، ومنه المصبورة وهو ان ينصب طائرا غرضا ويرميه والمؤمن يعرف أن الله عدل يأخذ من الظالم فإذا ظلم وجد الله مليا فى

الانـتـصـار، وأمـا فـىٰ البغى فإن صبر فقد أخذ بباب السلامة فإن انتصر فقد أثنى الله على المنتصر فقال:

﴿ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ (١٠٥)

المنتصر ينتصر لحق الله لا لنفسه فإن خاف أن تشركه النفس فيأخذ بحظها فالصبر أسلم.

---

(١٠٥) الشورى (٣٩/٤٢).
يجب أن ينتصروا بالعدل الذى يدفع عنهم البغى دون زيادة. راجع معنى ذلك فى مختصر ابن كثير (٢٨٠/٣).

[الأصل التاسع والخمسون والمائتان فى دفع الوسوسة]

عن أبى المليح عن أبيه أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إنى أدخل فى صلاتى فا أدرى أعلى شفع أنفتل، أم على وتر من وسوسة أجدها فى صدرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا وجدت ذلك فاطعن أصبعك هذا يعنى السبابة فى فخذك اليسرى وقل بسم الله فإنها سكين الشيطان أومدية الشيطان»(١).

معناه أن الطعنة بالسبابة مدية الشيطان إذا كان مبتدأها باسم الله والمدية السكين الذى له وجهان كالخنجر فى المقدار إلا أنها ذات وجهين فبسم الله تخلص تلك الطعنة بالسبابة إلى الشيطان فينال منه فخذه وساقيه حتى يصير مقعدا زمنا فذلك أن الوسواس جاء صفته فى الحديث كيف هو من الآدمى.

(عن عثمان بن أبى العاص رضى الله عنه أنه شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوسواس فقال: ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسست بشىء منه فاتفل عن شمالك ثلاثا ثم تعوذ بالله منه.

---

(١) البزار فى «مسنده»- كتاب الصلاة- باب فيمن ينسى فى صلاته (٢٧٩/١). والطبرانى فى «الكبير» (١٦٠/١) من رواية أبى المليح بن أسامة عن أبيه والهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١٥١/٢) وقال: رواه الطبرانى فى الكبير، والبزار والسيوطى فى «الجامع الكبير» (٨٤٧/١) وعزاه للحكيم والبارودى والطبرانى عن أبى المليح عن أبيه.

عن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قال: سألت الله عز وجل أن يرينى الشيطان ومكانه من ابن آدم فرأيته يداه فى يديه، ورجلاه فى رجليه متشاعب فى جسده غير أن له خطما كخطم الكلب، فإذا ذكر الله خنس، ونكص، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه).

فعلى نحو ما وصف أبو ثعلبة أنه متشاعب فى الجسد أن فى كل عضو منه لشعبة منه. عن عبد الرحمن بن الأسود أنه قال بعدما كبر سنى، وضعفت ما أمنت من الزنا وما يؤمننى أن يدخل الشيطان ذكرى فيؤيده فهذا القول ينبئك أنه ينشعب فى الجسد.

عن الأعمش عن جثيمة أنه كان يقول: يقول الشيطان كيف ينجو منى ابن آدم وأنا فى صدره وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه إنما يطير إلى الرأس فى وقت الغضب لأن العقل فى الرأس وإشراقه من الرأس إلى الصدر لينظر عين الفؤاد بنور العقل فيميز بين الأمور ويدبر فإذا رأى الشيطان الغضب قد هاج من الآدمى طار إلى رأسه حتى يحجب العقل عن أن يشرق فى الصدر.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم» فجرى الدم هى العروق المشتملة على جميع الجسم فدلت هذه الأحاديث أن الشيطان متشاعب فى الجسد ثم سلطانه ومقعده فى الصدر وقت الوسوسة.

عن يحيى بن أبى كثير قال: الوسواس له باب فى صدر ابن آدم يوسوس إليه منه، عن وهب بن منبه أن إبليس وضع ابنا له بين يدى حواء وقال: اكفليه فجاء آدم عليه السلام فقال: ما هذا يا حواء.

قالت: جاء عدونا إبليس بهذا وقال لى: أكفليه فقال: ألم أقل لك لا تطيعيه فى شىء هو الذى غرنا حتى وقعنا فى المعصية وعمد إلى الولد فقطعه أربعة أرباع وعلق كل ربع على شجرة غيظا له.

فجاء إبليس فقال: ياحواء أين ابنى فأخبرته بما صنع آدم عليه السلام فقال: ياخناس فحيى فأجابه فجاء به إلى حواء وقال: اكفليه فجاء آدم عليه السلام، فحرقه بالنار وذر رماده فى البحر.

فجاء إبليس عليه اللعنة فقال: ياحواء أين ابنى فأخبرته بفعل آدم به فذهب إلى البحر فقال: ياخناس فحيى فأجابه فجاء به إلى حواء الثالثة وقال: أكفليه فنظر إليه آدم فذبحه، وشواه وأكلاه جميعا.

فجاء إبليس فسألها فأخبرته حواء فقال ياخناس، فحيى فأجابه فجاء به من جوف آدم وحواء.

فقال إبليس: هذا الذى أردت، وهذا مسكنك فى صدر ولد آدم وهو ملتقم قلب ابن آدم مادام غافلا يوسوس، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وانخنس.

عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الشيطان ملتقم قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس عنه، وإذا نسى الله التقم قلبه) وأما التفل الذى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم به أن يتفل عن يساره فإن التفلة واصلة إلى وجه الشيطان، فيصير قورحا، وكذلك رمى الجمار إنما يرمى رأس الشيطان ومطلعه حيث طلع لآدم عليه السلام ثم لخليل الله عليه فبقيت سنة لأن تلك الطلعة منه كائنة لكل مسلم حاج.

فإذا رمى الجمار شدخ رأسه، وطلعته حتى يختسىء وإنما أمر بسبع حصيات لأنه أطلع رأسه من سبع أرضين، ونفسه موثقة فى سجين، ولذلك سجنه تحت الأرض السابعة فبكل حصاه يختسىء فى الأرض حتى يبلغ خسأته بالحصاة السابعة الأرض السابعة إلى مستقره.

فكذلك التفلة مع تعوذك بالله يرد الذى جاء به من النزغة والوسوسة كالنار إلى وجهه فيحرق فيصير قروحا.

وروى عن الربيع بن خيثم أنه قصت عليه رؤيا منكرة وذلك أنه أتاه آت فقال : إنى رأيت فى المنام كأن قائلا يقول أخبر الربيع أنه من أهل النار فتفل عن يساره ثلاثا وقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فرأى ذلك الرجل فى منامه فى الليلة الثانية كأن رجلا جاء بكلب فأقامه بين يديه فى عنقه حبل وعلى جبهته قروح فقال هذا ذلك الشيطان الذى أراك فى منامك رؤيا الربيع ، وهذه القروح تلك التفلات الثلاث التى كانت منه .

[الأصل المائتان والستون في أن كمال المرء في سبع]

عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم، وفضل عائشة عن النساء كفضل الثريد على الطعام» (1).

كمال المرء فى العلم، والحق، والعدل، والصواب، والصدق، والأدب، واللبق، وذلك أنه إذا لم يعلم فهو جاهل بأمر الله، فإذا علم أمر الله احتاج أن يكون محقا فيعمل بذلك العلم.

فإذا عمل بذلك العلم احتاج إلى إصابة الصواب فى ذلك العمل بأن لا يكون فى غير وقته كالصلاة عند طلوع الشمس، وترك اجابة الأم فى الصلاة والغزو بغير إذن أبويه وقبل ذلك احتاج إلى العدل بأن يكون يريد به وجه الله فى ذلك العمل.

فإذا عدل احتاج إلى الصدق أن لا يلتفت إلى نفسه، فيوجب لها ثوابا فتحتجب عنه المنة فيصير معجبا، فإذا صدق العبودة احتاج إلى

---

(1) البخارى فى «صحيحه» كتاب الأنبياء ـ باب قول الله تعالى: (وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة فرعون» إلى قوله: «وكانت من القانتين» (٤٤٦/٦). وباب قوله تعالى: «إذ قالت الملائكة يامريم» (٤٧١/٦).

ومسلم فى «صحيحه» كتاب فضائل الصحابة. باب فضائل خديجة رضى الله عنها (١٩٨/١٥). والحاكم فى «المستدرك» كتاب فضائل الصحابة. باب ذكر قرة بن اياس أو معاوية المزنى رضى الله عنه (٥٨٧/٥). والترمذى فى «سننه» كتاب الأطعمة. باب ما جاء فى فضل الثريد (٢٧٥/٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الأدب حتى يعمله كأن الله يراه بوقار وسكينة، وهيبة ويقظة فإن الأدب بساط العمل وإذا قام الأدب احتاج إلى اللبق، وإنما يدرك اللبق بحياة القلب بالله فهذا الكامل لأنه يعمل على المشاهدة على بصيرة.

قال الله تعالى:

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ (٢)

أى لا يقبل عذره لأنه أعطى البصيرة فأعماها بهوى النفس والبصيرة للقلب من نور معرفة الفطرة، والعمى من دخان النفس، وحريق الشهوات وظلمتها ثم من الله على مختاريه من ولد آدم من كل ألف واحد فوضع فيه الخير حتى صار مختارا، ثم منّ عليه بنو التوحيد وفى جوف ذلك النور نور المحبة.

فلما وجدت النفس حلاوة نور المحبة رفضت حلاوة عبادة الأوثان وقبح عنده الشرك وقويت بصيرته فهتكت كل حجاب بينه وبين ربه وصدرت أعماله من صدره إلى الأركان على مشاهدة النفس، ومعاينة القلب محل المقادير، والقضاء من ملك الجبروت.

وذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣)

---

(٢) القيامة (١٥/٧٥).
راجع الطبرى (١١٥/٢٩) والقرطبى (٩٥/١٩)، والتفسير الكبير للفخر الرازى (٢٢٢/٣٠).
(٣) يوسف (١٠٨/١٢).
البصيرة: اليقين، يقال: فلانٌ متبصر فى كذا: أى مستيقن له.

فلم يجعل الدعاء إلى الله على بصيرة إلا لتابعي محمد صلى الله عليه وسلم وتابعوه من هاجر عما نهى الله عنه، ونصر الحق فى كل موطن، وكان له السبق فهذا عبد قد رضى الله عنه وأعطاه حبه فأحبه فاحتدت بصيرته حتى انتهت إلى المقام بين يدى الله فباطن الأشياء له معاينة كظاهر الأشياء لأهل الغفلة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وقال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى يأثره عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى أنه قال: (ما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء فرائضى (٤) وأنه ليتقرب إلى بعد ذل بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى به يسمع وبصره الذى به يبصر، ولسانه الذى به ينطق ويده التى بها يبطش ورجله التى بها يمشى وفؤاده الذى به يعقل فبى يستعمل هذه الأشياء) فإذا أدى الفرائض، وهو إقامة الأمر والنهى فقد هاجر وإذا تنفل بعد إقامة الأمر والنهى فقد نصر الحق وإذا قطع العلائق نال السبق لأنه قد انفلت من المتعلقين فصار إلى ربه فهذا التابع بإحسان.

قال الله تعالى:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ (٥) الآية

فالسبق والأولية فى كل أمر، وعمل لهذه الطبقة التى هاجرت عن الآثام ونصرت الحق فهم أهل الرضاء ومحبوا الله لأنهم اتبعوا رأس (٦)

(٤) جمع فريضة.
(٥) التوبة (٩/١٠٠).
راجع ما قاله أبو حيان فى البحر المحيط (٥/٩٢).
(٦) ورد فى إحدى النسخ [رأس المحبوبين].

المحبين محمدا صلى الله عليه وسلم فنالوا من تلك المحبة التى أعطى محمد صلى الله عليه وسلم وقال فى تنزيله:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (٧)

فجعل اتباع محمد صلى الله عليه وسلم علما لمحبة الله فمن اتبعه صدقا نال حبه صدقا. عن أبى الدرداء رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى:

«قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله»

قال: على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس).

فالبر والتقوى هو الهجرة التى ذكرناها، والتواضع هو السبق لأن من تواضع رفعه الله، وذلة النفس نصرة الحق قال له قائل: وكيف صار نصرة الحق فى النوافل دون الفرائض قال: إن نصرة الحق منه فى الفرائض منكمنة لأنه إن ترك الفرائض فخوف الوعيد يحمله على القيام بها.

فما دام يؤدى الفرائض فهو ناصر للحق، ولكن النصرة مكمنة (٨) لأنه ربما أداها من خوف العقاب والوعيد فإذا تنفل فقد انكشفت النصرة لأنه يعمل لا من خوف الوعيد إنما يريد أن يتودد، ويتقرب، ويتحبب إلى ربه ألا ترى أنه قال فى حديثه: وإنه ليتقرب إلىّ بعد ذلك بالنوافل حتى أحبه فإنما أوجب له حبه بما تحبب إليه بالنوافل فقد تقرب العبد بالفرائض وتحبب، ولكن كان ذلك منه مكمنه لأن خوف الوعيد قد مازجه، فبالنوافل ظهر ما كان منكمنا فأظهر له حبه فأوجبه له.

---

(٧) آل عمران (٣/٣١).

(٨) منكمنة: كامنة.

عن جابر رضى الله عنه قال: جاء العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثياب(٩) بيض فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه فقال: يا رسول الله ما الجمال قال: صواب القول بالحق قال فما الكمال قال: حسن الفعل بالصدق.

عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثله غير أنه زاد فيه فرآه تبسم (١٠) فقال ما يضحكك يا رسول الله أضحك الله سنك قال: يضحكنى جمالك قال وما الجمال يا رسول الله فذكر بقية الحديث).

فهذا الكمال موجود فى الرجال بفضل العقول وتفاوتها لأن المعرفة مع العقل والنساء منقوصات فى العقل ولذلك صارت شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فأما مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم فأنهما برزتا على النساء بما أعطيتا فكملتا قال له قائل فماذا أعطيتا حتى كملتا قال أعطيتا السبيل إلى الوصول إلى الله ثم الاتصال به.

وذلك ما ندب الله إليه عباده المؤمنين فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

وفيما قص الله علينا من نبأهما دليل على كمالهما من قوله

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾

أى صفة للذين آمنوا ليتمثلوه فيطلبوا هذا المثل من أنفسهم امرأة فرعون

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾

(٩) فى نسخة أخرى [ثياب بياض] وهو تحريف من الناسخ.
(١٠) فى إحدى النسخ [فتبسم].

والعند فى اللغة أقرب القرب بين يديه فسألت ربها مستقرا بين يديه فى داره فى مكان القربة فلم تسأل ذلك إلا وقد طالعت نور القربة ثم قالت:

﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾ (١١)

سألت أن يخلصها من سلطان فرعون حتى لا يجتمعا فى شأن البضاع (١٢) على رائحة الشرك ولذلك حرم الله على المؤمنين مشركات النساء حتى لا تجتمع رائحة التوحيد مع رائحة الشرك وأباح نساء أهل الكتاب لأنهن من الكفار غير مشركات ثم قال:

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ (١٣)

فالتصديق بالكلمة أعظم الأشياء لأنها لم تعاين الملائكة وإنما سمعت صوت البشرى ان الله يبشرك بكلمة منه، فصدقت ولم تردد فسماها الله صديقة فى تنزيله فقال:

﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ (١٤)

فبالاتصال بلغ العباد أعلى منازل الصديقين فلا ينالهم فى أمر الله حيرة ألا ترى أن سارة لما بشرت بإسحق كيف اضطربت حتى أنكرت الملائكة من قولها: «إن هذا الشىء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله».

---

(١١) التحريم (١١/٦٦).
راجع بسط القول فى ذلك فى مختصر ابن كثير (٥٢٥/٣).
(١٢) البضاع: الملامة، والمخالطة والموافعة.
(١٣) التحريم (١٢/٦٦).
(١٤) المائدة (٧٥/٥).

فتبين ههنا منها نقص وتبين الكمال من مريم حيث بشرت بالكلمة من قوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (١٥)

فعندها قالت :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ (١٦)

فإنما سألت من أين هذا الولد لأنه قد جاءها من أمر الله ما ليس في البشر مثله ، والذى جاء من أمر سارة ليس بمستنكر قد يكون مثله في البشر ألا ترى أنه لما جاء الولد من إبراهيم وسارة لم يفتتن الخلق به ، ومجيء عيسى عليه السلام فتنة على المفتونين .

---

(١٥) آل عمران (٣/٤٦) .
(١٦) مريم (١٩/٢٠) .

[الأصل الحادى والستون والمائتان فى أخلاق الله المائة والسبع عشر]

عن عبد الله بن راشد قال: حدثنى مولاى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله مائة وسبعة عشر خلقا من أتى بواحدة منهن دخل الجنة»(١).

وعن مروان يقول: سمعت عثمان بن عفان يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن لله تعالى مائة وسبعة عشر خلقا من جاء بخلق منها دخل الجنة بغير حساب، فقلنا بينها لنا قال: كظم الغيظ، والعفو عند المقدرة، والصلة عند القطيعة، والحلم عند السفه، والوقار عند الطيش، ووفاء الحق عند الجحود، والإطعام عند الجوع، والعطية عند المنع، والإصلاح عند الفساد، والتجاوز عن المسىء، والعطف على الظالم، وقبول المعذرة، والإبانة للحق والتجافى عن دار الغرور، وترك التمادى فى الباطل، ألا وليس فى أخلاق الله شىء أحب إليه من الجود والكرم فإذا أراد الله بعبد خيرا وفقه لأخلاقه فتخلق بها، وإذا أراد الله بعبد شرا خلى بينه، وبين أخلاق إبليس وأن من أخلاق

---

(١) البزار فى «مسنده». كتاب الإيمان- باب الشرائع (٢٨/١) وقال البزار: وهذا لا نعلق عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه. والهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٣٦/١) وقال: رواه البزار من طريق عبد الله ابن راشد. وفى اسناده عبد الواحد بن زيد وهو ضعيف جداً. والسيوطى فى «الجامع الصغير» (٩٤/١) وغزاه للحكيم الترمذى وأبو يعلى والبيهقى. ورمز له: بالحسن.

إبليس أن يغضب فلا يرضى وأن يسمع فيحقد، وشراهية النفس وهنتها (٢)، وأخذ ما ليس لها ونزقها (٣) إلى اللهو والباطل، ألا وإن إبليس ليس هو على أحد أشد منه على القراء الذين هم عند أنفسهم قراء لا يزال فيما بينهم يذهب، ويجيئ حتى يورث بينهم العداوة والبغضاء، فلو قلت قلت حقا ما أقل من يجتمع منهم غدا فى الآخرة إلا قوم عطف بعضهم على بعض، وتركوا الحقد والغضب، وألحوا (٤) فى الطلبة إلى الله أن يقبلهم ويقبل معذرتهم.

قال أبو عبد الله فالأخلاق موضوعة فى الطبع، ومعقلها فى الصدر، ومثل ذلك مثل ملك له خزانة. وقواد ومملكة فإن كانت الخزانة قليلة كنوزها وكورته صغيرة ضاق بهؤلاء القواد، وقال بعضهم لبعض هذا ملك له اسم الخزانة والكنوز، وليس لكنوزه مادة يجرى علينا، ويعيننا حتى نتخذ عدة للعدو الذى بمرصد منا، ومن ملكنا هذا وليست له مملكة فسيحة ننتشر فيها فيأخذ كل قائد منا ناحية من المملكة فيدبر أمر الملك فى أهل ناحيته فتعالوا ننتقل عن هذا إلى ملك لمملكته فسحة ومنتشر فنتسع فى نواحيها فيقود الجيوش إلى أعمالنا. فإن العدو بمرصد ولا نأمن أن ينتهز منا فرصة فالملك هو القلب وخزانته جوف القلب ففيه كنوز المعرفة وجواهر العلم بالله، والعقل وزيره، والصدر فسحته وساحته ومملكته، والأخلاق قواده والأركان رعيته ونواحيه، وهى الجوارح السبع.

فهؤلاء القواد هم الأخلاق فى الصدر قواد الملك قيام بين عينى الفؤاد والعقل شعاعه يشرق بين عينى الفؤاد يدبر أمر القلب والنفس فى الجوف رابضة فى مكانها تطلب الملك وترصد لانتهاز الفرصة، ليخرج على الملك لأن شهوة الامرة فيها، والهوى بباب النفس يتلهث عطشا، ويتلظى بين يدى بصيرة النفس.

(٢) الهنة: اللمم من الذنوب، وصغار الهفوات.
(٣) النزق: الطيش والعجلة والخرق.
(٤) ألحوا فى الطلب: من الإلحاح، لهجوا به، والإلحاح كالإلحاف.

وذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (٥)

وهى أبدا فى طلب الامارة لتتملك، وتتأمر على الجوارح فإذا خطرت الخاطرة فى الصدر بين عينى الفؤاد نظر العقل فإن رآها حسنة وأمرا رشيدا قدر ودبر ماذا يراد، وكم يراد، ومتى يراد، وإلى متى يراد وإن رآها سيئة وغيا (٦) نفاها من الصدر ففى هذا الوقت للنفس منازعة مع القلب، والهوى مع العقل فى هذه الخاطرة النفس تشتهى والهوى يزعج النفس، ويشجعها والعدو يزين ويمنى ويغر فإذا جاء مدد الأخلاق بطل تزيين العدو وأمانيه وانكشف غروره وأدبر الهوى قهقرى وجاء مدد كنوز المعرفة ومد الملك يده إلى جواهر العلم بالله فى الخزانة فانمحقت (٧) الخاطرة وأسبابها وجنودها وأعوانها.

فإن الخاطرة كانت طليعة النفس والهوى والعدو هذا إن كانت خاطرة الغى وإن كانت رشدا كانت طليعة الحق عز هذا الملك ومنعته وقوام مملكته بهذه الكنوز وهؤلاء القواد وهى الأخلاق التى أحدقت (٨) بالقلب فإذا دبر العقل وقدر ما رآه حسنا أمضاه القلب لأن محاسن الأخلاق كائنة فى الطبع والنفس تتماسك فى الأمر، وتنقاد للقلب بالطبع، فإذا كان الخلق بالطبع ظهر ذلك الخلق وسلطانه فى الصدر حتى يقوى القلب به فيخرج من الصدر إلى الأركان ذلك الخاطر الذى قدره العقل فعلاً حسناً مقدراً مدبراً فى يسر بلا عسر، ولا تلجلج ولا تردد ولا تقديم، ولا تأخير ولا غلو، ولا تقصير ولا التفات إلى رشوة النفس من طريق الثواب، والعلائق لأن الأخلاق تصير النفس حرة سخية وسخاوتها

---

(٥) يوسف (١٢/٥٣).

(٦) الغَىُّ: الضلال والخيبة.

(٧) انمحقت: هلكت.

(٨) أحدقت بالقلب: أحاطت به، وأحتوشته.

حريتها، والسخاء والخساء بمعنى واحد إلا أن الخساء هو البعيد من الأشياء، والسخاء هو انفراد النفس من الشىء وعتقها من رقها، والخسا، والزكا هما ضدان.

والخسا الفرد والزكا الزوج، وهما مقصوران غير ممدودين، فجميع محاسن الأخلاق تؤل إلى الجود والكرم والسخاء، فإذا سخت النفس تكرمت وإذا تكرمت جادت فأخلاق الله تعالى اخرجها لعباده من باب القدرة، وخزنها للعباد فى الخزائن وقسمها على أسمائه الحسنى وأمثاله العليا فإذا أراد بعبد خيرا منحه خلقا ليدر عليه من ذلك الخلق فعلا حسنا جميلا يهيأ فجبله فى بطن أمه على ذلك الخلق، وإذا لم يكن مجبولا (٩) بذلك الخلق فى بطن أمه قدر له علم ذلك وحسنه وبهاءه ليتخلق العبد بذلك وتخليقه أن يحمل نفسه على فعل ذلك الخلق حتى تعتاد نفسه ذلك.

وروى عن وهب بن منبه أنه قال: من داوم على خلق أربعين يوما صار ذلك له خلقا أى بقى معه ذلك ولا يكون أصليا لأن المجبول (١٠) عليه منحة الله تعالى وهديته وإذا أهدى له ثبت له ذلك، وكانت نفسه معجونة (١١) بذلك الخلق والرب لا يرتجع (١٢) فى هديته.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من أدرك التكبيرة الأولى فى صلاة الجماعة أربعين يوما كتب له عتق من النار.

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى أربعين يوما فى جماعة لا يفوته الركعة الأولى

---

(٩) فى نسخة [وإن لم يكن] وهو تحريف.
(١٠) المجبول عليه: المفطور عليه.
(١١) معجونة: مختلطة.
(١٢) أى لا يرجع فيها.

كتب له عتق من النار» فهذا إذا صار المشى إلى جماعة أربعين يوما خلقا فكذلك سائر الأخلاق لأن الأخلاق احتمال أثقال المكاره، والمشى إلى الجماعة احتمال مكروه لأنه لو شاء صلاها فى بيته فلما أمر بالمشىء إلى الجماعة احتمل أثقال المكروه فقدر له رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدار أربعين يوما ليصير له خلقا، ويسقط عنه الأثقال لأن سوء الخلق فى طلب الراحة وأن هذه الأخلاق تفضل الله بها على عبيده على قدر منازلهم عنده فمنح أنبياءه منها.

فمنهم من أعطاه منها خمسا، ومنهم من أعطاه منها عشرا أوعشرين وأكثر من ذلك وأقل، فمن زاده منها ظهر حسن معاملته ربه، وحسن معاملته خلقه على قدر تلك الأخلاق، ومن نقصه منها ظهر عليه ذلك.

ولذلك ابتلى يونس عليه السلام بما ابتلى به حتى صار ذنبا وسجنه فى بطن الحوت حتى طهره، وجعل ما حل به موعظة للموحدين، وإنما سماه آبقا فى تنزيله أبق (١٣) إلى الفلك المشحون لتضايق أخلاقه وترك احتمال أثقال الخلق فى ذات الله تعالى؛ فعتب الله عليه ثم اجتباه (١٤) بعطفه ورحمته وهذبه بكرمه.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (١٥) فأنبأنا فى قوله هذا أن الرسل قد مضت ولم تتمم هذه الأخلاق كأنه بقيت عليهم من هذا العدد بقية فأمر أن يتممها فأعلمنا فى قوله هذا أن تلك الأخلاق التى كانت فى الرسل فيه ثم هو مبعوث لإتمام ما بقى منها ليقدم على الله بجميع أخلاقه التى ذكرها مائة وسبعة عشر خلقا فلا يجوز لنا أن نتوهم عليه أنه بعث لأمر فقدم على ربه وهو غير متمم له.

---

(١٣) فى نسخة [إذ أبق] وهو تحريف من الناسخ.

(١٤) اجتباه: اصطفاه واختاره.

(١٥) أورده مالك فى الموطأ، وقال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة رضى الله عنه، وغيره مرفوعاً.

ومن أشرق فى صدره نور اسم من أسماء الله كانت له تلك الأخلاق التى لذلك الاسم هذا للمجبولين (١٦) ومن تخلق بذلك الخلق ولم يكن جبل عليه كان تخلقه طهارة لصدره، وقلبه من دنس (١٧) الخلق السيء الذى هو ضد هذا الخلق فإذا تطهر من سيئ الأخلاق لتخلقه بمحاسن الأخلاق بجهد، وكد شكر الله له ذلك فوجد قلبه طريقا إلى ذلك الاسم وذلك قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٨)

حسن الله أخلاقه جهدا فكان الله معه بالتأييد، والنصرة، والعون حتى تمت المجاهدة فشكر الله له ذلك فهداه السبيل إليه بأن كشف عنه السوء حتى أشرق (١٩) فى صدره نور ذلك، وهو قوله تعالى:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ (٢٠)

وإذا كشف السوء صلح للخلافة فى دينه ووجب عليك طاعته، وذلك قوله تعالى:

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (٢١)

فلذلك قيل فى حكمة الحكماء المعرفة فى صفاء الأخلاق، وطهارة القلب.

---

(١٦) المجبولين: المطبوعين.
(١٧) دنس: قذارة، ورجس.
(١٨) العنكبوت (٢٩ / ٦٩).
(١٩) أى نور الهداية.
(٢٠) النمل (٢٧/ ٦٢).
(٢١) النساء (٤ / ٥٩).

فإذا طهر القلب من الريب (٢٢) وصفت الأخلاق من الدنس، والكدورة نال العبد المعرفة التى فى القربة والوصول إلى ربه فإذا وصل القلب إلى ربه دان له فعندها أصاب الدين الذى يدين الله به ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخلق وعاء الدين». رواه أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالدين هو خضوع القلب مشتق من الدون والوضوع فإذا تواضع القلب وخشعت النفس وألقت بيديها لله سلما فذلك دين العبد فإذا أمره بأمر إئتمر وإذا نهاه انتهى، وإذا قسم له من الدنيا قنع، وإذا حكم عليه بحال رضى محبوبا كان أومكروها فهذه عبودة العبد، وإنما قدر العبد على إقامة العبودة فى هذه الأشياء بخشعة النفس، وخضعة القلب، وتواضعه فذلك دينه.

وإنما قال: الخلق وعاء الدين لأن ذل الخلق إذا كان للعبد مثل الجود والسخاء، والكرم كانت النفس حرة من رق (٢٣) الهوى والقلب حرا من رق النفس فهان عليه التواضع، والخضوع لله والقناعة بما قسم والرضاء بما حكم والائتمار بأمره، والانتهاء عن نهية وإنما يسر عليه إقامة الدين من أجل ذلك الخلق فإذا كان للعبد ذلك الخلق كان وعاء لدينه من ذلك الخلق يخرج له الدين، وهو الخضوع والخشوع، وبذل النفس لله، واحتمال اثقال المكروه، ولما كان هذا الإسلام أشرف الأديان أعطاه أقوى الأخلاق وأشرفها وهو الحياء.

عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء والحياء أصله من الحياة فإذا حيى القلب بالله استحيى، وكلما ازداد حياة بالله ازداد

---

(٢٢) الريب: الشك.

(٢٣) رق الهوى: عبوديته.

حيـاء منـه ألا ترى أن المستحيى يعرق فى وقت الحياء فعرقه من حرارة الحياة التى هاجت من الروح فمن هيجانه يفور الروح بتلك الحرارة فيعرق الجسد منه ويعرق منه ما علا لأن سلطان الحياء فى الوجه والصدر.

عـن عـروة (٢٤) عـن عـائشة رضى الله عنها قالت: إن جبريل عليه السلام نزل على النبى صلى الله عليه وسلم وبين يديه شىء من حبوب يأكله متكئا فجلس يتصبب عرقا، فقمت إليه فجعلت أمسح العرق عن وجهه وأقول بأمى وأبى يا رسول الله مالك قال: إن جبريل عليه السلام أتانى، وأنا آكل متكئا فقال: يسرك أن تكون ملكا (٢٥) فهالنى قوله قالت عائشة رضى الله عنها فما رأيت النبى عليه السلام أكل متكئا بعد ذلك حتى فارق الدنيا .

وإنما تصبب عرقا لفوارن حرارة حياته بالله فكلما كان حياة القلب بالله أعظم كان تسليمه لله أكثر وأوفر ونفسه أسلس للانقياد لأن الإسلام هو تسليم النفس لله، والدين خضوعها وانقيادها فلذلك صار الحياء خلقا للإسلام، ووعاء للدين يستحيى فيتواضع، ويستحى فيخضع، ويستحيى فيبذل نفسه لله ولا يبخل بها عليه، ومن الحياء انكسار النفس، وذهاب رجوليتها ألا ترى أن المرأة لما فضلت على الرجل بتسعة وتسعين جزءا من الحياء كيف كسرت شهوتها التى فضلت بها على الرجال.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن المرأة فضلت على الرجل بتسعة وتسعين جزءا من الشهوة، وفضلت من الحياء بتسعة وتسعين جزءاً لتكسر تلك الشهوات ما فضلت به من أجزاء الحياء. فقد

---

(٢٤) هو عروة ابن الزبير، ابن أخت عائشة رضى الله عنها.
(٢٥) هالنى: راعنى.

بـان لـك أن الحيـاء يكسـر ويذهب القوة والجلادة (٢٦) والصلابة من الـنفس ، وإذا كان ذلك يقوى القلب لأن الحياء من الحياة بالله والحياة بالله من نفس المعرفة فأما ما ذكرنا من شأن المجبول على خلق ومن شأن الممنوح المتخلق به فروى عن العلاء بن كثير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن محاسن الأخلاق مخزونة عند الله فإذا أحب الله عبدا منحه منها خلقا حسنا أوخلقا صالحا .

وعن هـود العبدى القصرى عن جده قال : بينا رسول الله صلى الله عـليه وسلم يحدث أصحابه إذ قال لهم أنه سيطلع عليكم من هذا الوجه ركب هم من خير أهل المشرق .

فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتوجه فى ذلك الوجه فلقى ثلاثة عشر راكبا فرحب وقرب ، وقال : من القوم قالوا : نفر من عبد القيس قال : فما أقدمكم هذه البلاد ، التجارة قالوا : لا قال : أفتبيعون سيوفكم هذه قالوا : لا قال : فلعلكم إنما قدمتم فى طلب هذا الرجل ، قالوا : أجل ، فمشى معهم يحدثهم حتى إذا نظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : هذا صاحبكم الذى تطلبونه .

فرمى القوم بأنفسهم عن رحاله فنهم من سعى ومنهم من هرول (٢٧) ، ومنهم من مشى حتى أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخذوا بيده فقبلوها وقعدوا إليه ، وبقى الأشبح وهو أصغر القوم فأناخ الإبل ، وعقلها (٢٨) وجمع متاع القوم ثم أقبل يمشى على تؤدة حتى أتى النبى عليه السلام فأخذ بيده ، فقبلها .

---

(٢٦) الجلادة : من الجلد وهو الصلابة والتحمل .
(٢٧) هرول : فر مسرعاً .
(٢٨) عقلها : قيدها بعقال .

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله قال: وما هما يارسول الله؟ قال: الأناءة والتؤدة قال: يانبى الله أجبلا جبلت (٢٩) عليه أم تخلقا منى قال: لا بل جبلا جبلت عليه فقال: الحمد لله الذى جبلنى على ما يحب الله ورسوله، وأقبل القوم قبل تمرات يأكلونها، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يخبرهم بها يسمى لهم هذا كذا وهذا كذا.

قالوا: أجل يانبى الله، ما نحن بأعلم بأسمائها منك قال: أجل فقالوا، لرجل أطعمنا من بقية القوس الذى بقى من نوطك، والقوس قطعة تمر فأتاهم بالبرنى (٣٠) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا البرنى أما إنه من خير تمركم لكم أما إنه دواء لا داء فيه.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قلة الحياء كفر» والكفر الغطاء (٣١) على القلب فإذا حل الغطاء بالقلب ذهب الحياء، ومات القلب وإذا انكشف الغطاء فإنما ينكشف لحياته بالله فإذا حيى استحيا ولذلك قال سفيان بن عيينة: الحياء أخو التقوى، ولا يخاف العبد أبدا حتى يستحيى وهل دخل أهل التقوى فى التقوى وفى أمر الله إلا من الحياء.

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها.

وقال أبو بكر رضى الله عنه استحيوا من الله فإنى لأدخل الكنيف (٣٢) فأقنع رأسى حياء من الله تعالى. رجعنا إلى مبتدأ

---

(٢٩) جبلت عليه: فطرت وطويت عليه.
(٣٠) البرنى: خير أنواع التمر.
(٣١) وأصل الكفر الستر.
(٣٢) الكنيف: الساتر، لأنه يكتنف الداخل فيه.

ما وصفنا من شأن المثل المضروب (٣٣) قلنا فإذا أراد العبد أن يتخلق بخلق من هذه الأخلاق احتاج إلى أن يمكن له فى الصدر الذى هو ساحة القلب فمن كان أوسع صدرا كان بمنزلة من كان أوسع مملكة من المال حتى تجد قواد الملك منفسحا فيأخذ كل قائد ناحية فيتملك فيها على حشمة فإذا اتسع صدره أخذ كل خلق من هذه الأخلاق ناحية من صدره وتمكن فيه ويسهل على القلب انفاذ أمر الله عز وجل، وإذا ضاق صدره لم يستقر فيه خلق بمنزلة أولئك القواد لما لم يجدوا فسحة انتقلوا إلى ملك آخر أوسع مملكة منه وأوفر كنوزا ولذلك سأل موسى عليه السلام أول ما سائل حين بعثه إلى فرعون فقال:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴾ (٣٤)

فبشرح الصدر قدر على احتمال أثقال المكروه حيث احتاج إلى أن يستقبل فرعون بالمكاره قد هرب منه خوفا من القتل ومبتدأ هذا الأمر أن يعمل فى توسيع الصدر؛ حتى تصير له هذه الأخلاق وتوسعه أن يترك الشهوات، والنهمات (٣٥) ويجعل المكاره على النفس؛ حتى تصير مدبوغة فعندها تطهر الأخلاق ويشرق أنوار الأسماء فى صدره فعنده يغزر علمه بالله تعالى فيعيش عبدا غنيا بالله ما عاش (٣٦).

---

(٣٣) المثل المضروب: السائر.
(٣٤) طه (٢٠/٢٥).
(٣٥) النهمات: جمع نهمة وهى بلوغ الهمة والغاية من الشىء.
(٣٦) أى مهما عاش، أو طول عمره.

[الأصل الثانى والستون والمائتان فى صورة النفس وأحيائها]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربع من كن فيه حرمه الله تعالى على النار، وحفظه من الشيطان من ملك نفسه حين يرغب، وحين يرهب، وحين يغضب، وحين يشتهى، وأربع من كن فيه نشر الله عليه رحمته، وأدخله فى محبته، من آوى مسكينا ورحم ضعيفاً، ورفق بالمملوك وأنفق على الوالدين»(١).

قال أبو عبد الله فالنفس فى هذا الجسد ومعدنها فى البطن ثم هى منغشية(٢) فى جميع الجسد والروح معدته فى الرأس، ثم هو متغش(٣) فى جميع الجسد والجسد قالب للروح، والنفس كليهما والحياة موضوعة فى كليهما، وحياة الروح أقوى وأكثر وأخلص وأصفى من حياة النفس، والدليل على ذلك أن الروح يأمر بالطاعة وذلك لأن حياته أكثر وأقوى لأن أصله من روح الحيوان الذى ماء الحيوان منه الذى إذا شرب منه أهل الجنة بباب الجنة لم يموتوا، وقال تعالى فى تنزيله:

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ (٤)

---

(١) السيوطى فى «الجامع الصغير» (٣٧/١) وعزاه للحكيم الترمذى عن أبى هريرة ورمز له: بالصحة. والسيوطى فى «الجامع الكبير» (٨٩٠/١) وعزاه للحكيم الترمذى عن أبى هريرة والديلمى عن عثمان.

(٢) منغشية: متفشية.

(٣) فى بعض النسخ [منفش] وهو تصحيف من النساخ.

(٤) العنكبوت (٦٤/٢٩).

فهـهنـا حياة وفى الدار الآخرة حيوان ، فهذه الحياة التى فى الروح قـليلة ، والماء الذى فى الجنة والنهر الذى بباب الجنة لاغتسال أهل الجنة يـوم يـدخـلونها كله من ماء الحيوان ، والماء الذى تحت العرش بحر راكد على مقدار أرزاق العباد وهو من ماء الحيوان وذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (٥)

فـإذا أنزل الله عز وجل إلى الأرض منه أحيا به الأرض وذلك قوله تعالى :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ (٦)

ثم قال :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ (٧)

أى ميتة لا تتحرك .

﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ (٨)

فاهتزازها ، وربوها وحركتها من الحياة التى دخلت فيها ثم قال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا ﴾

يعنى الأرض

﴿ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ (٩)

---

(٥) الأنبياء (٢١/٣٠) .
(٦) ق (٥٠/٩) . راجع جامع البيان (٢٦/٩٦) .
(٧) فصلت (٤١/٣٩) .
(٨) الحج (٢٢/٥) .
(٩) فصلت (٤١/٣٩) .

وقال تعالى:

﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ (١٠)

فإنما أحياء الأرض بماء الحيوان وينزل الله تعالى على أهل القبور قبل نفخة الصور من ماء الحيوان، حتى تنبت أجسادهم، وتحياهم، ثم يبعث الأرواح وهم فى قبورهم يتحركون قال له قائل: وكيف يتحركون بلا روح قال بالحياة التى نالتهم من ذلك الماء، ويتحركون كما تحركت الأرض بماء الحياة «اهتزت وربت» واهتزازها بالحياة التى نالت أغصان الأشجار حتى أورقت(١١) وكل شىء يتحرك إنما يتحرك بالحياة فالروح أوفر الأشياء حظا من هذه.الحياة لأنه خرج من روح الحياة الأصلى ثم من بعد ذلك أوفر الأشياء حظا من الحياة بعد الروح هذه النفس فالنفوس لجميع الدواب والبهائم، والطيور وفضل الآدمى بالروح للخدمة لأنه خادم ربه وسائر الخلق سخرة للآدمى، فالروح بما فيه من الحياة يدعو القلب إلى الطاعة، والنفس بما فيها من الحياة تدعو إلى الشهوات والأفراح والقلب أمير على الجوارح وعن أمره يصدرن إلى الأعمال فالأمير يأمر بقوة المعرفة والعلم بالله، فقوله من ملك نفسه فالملك للقلب على النفس.

فمن كان قلبه مالكا لنفسه فى هذه الأحايين الأربع حين الرغبة، وحين الرهبة، وحين الشهوة وحين الغضب، فقد حرم على النار وأختسأ شيطانه لأن الدنيا كلها فى هذه الأربع؛ فإذا ملك القلب النفس بقوة المعرفة والعلم بالله فإن للمعرفة، والعلم سلطانا عظيما وجنودا كثيفة، وكنوزا جمة للجنود فقد دقت(١٢) دنياه فى عينه وصغرت وتلاشت(١٣)

---

(١٠) ق (١١/٥٠).

(١١) أورقت: أثمرت وأظهرت ورقها.

(١٢) دقت دنياه فى عينه: أى صارت قليلة القدر وضيقة القيمة.

(١٣) تلاشت: تدهورت واختفت.

حتى صارت كالهباء (١٤) ومن ملكت نفسه قلبه بقوة الهوى (١٥) وسلطان هذه الأربع وحدتها وغليانها صارت دنياه فى عينه كل شعبة منها كالجبال أوكالبحور، وعظم فى عينه شأنها وشأن أحوال نفسه فيها، وصارت الآخرة فى عينه كالحلم، فإن المحتلم يتعشق فى منامه على جارية حسناء، ويثب إليها ويلقى نفسه عليها من شدة الشبق (١٦) لأن شيطانه يريد ذلك ويخدع نفسه البلهاء (١٧) فيما مثل لها فى منامه فإذا انتبه وجد نفسه خاليا مما رأى، وإذا هو لم يزد على أن بال فى فراشه فهذا لم يزد على أن ضحك به الشيطان فهذه صفة من يتعشق على الجنان من شهوة نفسه لسماع الاذن لا بحياة القلب، وإذا هو ميت على الدنيا من حبها ويعظمها تعظيا لا ينام ولا ينيم حرصا وأشرا (١٨) وشرها ويطرأ حتى يأخذها من الشبهات بتصنيع الأمانات والتفريط فى الفرائض، ونسيان الموت، والمعاد والقبر والقيامة والحساب بين يدى الله تعالى، وقطع النار على الجسور، ويمنع الحقوق، ويعرض عن مواعظ الله عز وجل.

وإذا تلا القرآن فكأنما ينشد شعرا أويحكى كلام الناس لا يتحرك قلبه لوعد، ولا لنبأ (١٩) من أنباء القرآن ولا تدمع عينه ولا يدرى ما تلا إنما همه أن يطيب نفسه بأتى قرأت، وتلوت. فهو فى مثل هذا القلب الخرب (٢٠) ممتلئ من الغش والغل، والحق وطلب العلو، والتعزز والتحبير، والتكبر، وإهمال الجوارح وتضيع «البندكية» على الجوارح السبع،

---

(١٤) الهباء: هو دقاق التراب، والهبوة: الغبرة.
(١٥) الهوى: هوى النفس وغوايتها.
(١٦) الشبق: شدة الغلمة.
(١٧) البلهاء: جمع أبله، وهو الساذج، الفر.
(١٨) أشرا: بطراً.
(١٩) أى خبر.
(٢٠) القلب الخرب: الفارغ، غير المعمور بذكر الله.

وهى الميثاق يتعشق على الحور، ويتلمظ (٢١) على فواكه الجنة ويتشمم برياحين الجنان (٢٢) من بعد لسماع الأذن أبله من الأبالهة (٢٣) زبونا من زبون الشيطان، أحمق من حمقى أهل الغى ليس من الحياة فى قلبه أن إذا سمع بذكر الجنة قال: الجنة دار الله فغمض عينيه حياء من الله تعالى.

وقال: مثلى يصلح لدار الله وأنا لا أصلح لدار أمير المؤمنين الذى هو عبده فى الدنيا ثم دمعت عيناه وأحترق جوفه مخافة الفوت، والبعد من الله تعالى، لفوتها وأخذته الحسرة، والندامة حتى أداء ذلك إلى التضرع (٢٤) والحزن الدائم، والتوقى والتورع، وملك النفس، فهذه النفس بغفلتها هى كالمحتلم الذى وصفنا أنه إذا انتبه استحيا من نفسه بما سخر به شيطانه، ووجد فى نفسه حسرة حيث رأى نفسه خالية عما رأى فى منامه، فهو بين حسرة وحياء كذلك هذا المتعشق بغفلته إذا قدم على الله استحيا منه حتى يتصبب عرقا، وتحسرت نفسه إذا رأى ما فاته من موعود (٢٥) الله للمطيعين الأتقياء.

فمن أتاه الله المعرفة إذا تذكر الجنة بكى حياء من الله إن رأى جسدا توسخ وتدنس الوسخ من الأثام، والدنس من العيوب، ورأى الجنة مقدسة بقدس الله، مطهرة بطهر الله مسفرة (٢٦) تضحك إلى أولياء الله تعالى، فرجع إلى قلبه فرآه مع الأوساخ والأدناس فاستحيى من الله، وبكى على أيامه التى عطلها على اكتساب رضوان الله، واكتسب بها معاصى الله فهذا له الرجاء كل الرجاء إذا قدم على الله.

---

(٢١) يتلمظ: يتتبع بلسانه بقية الطعام فى فمه، وأخرج لسانه فمسح به شفتيه.
(٢٢) رياحين: جمع ريحانة.
(٢٣) الأبالهة: أى البلهاء.
(٢٤) التضرع: الضراعة، واللهج بالدعاء.
(٢٥) موعود الله: وعده، مثل مصنوع الله أى صنعه.
(٢٦) مسفرة: من أسفرت، أى أضاءت فهى مضيئة.

والنفس فى هذه الأربعة صورتها عجيبة إذا اشتهت فصورتها كالريشة تهب بها الريح، وشهوة الأشياء متفاوته (٢٧) وفرح النفس بكل شهوة على قدرها والشهوة فى الأول، واللذة فى الآخر، وإنما قيل: شهوة لهشاشة النفس، والميل إلى ذلك الشىء والمبادرة إليه لخوف الفوت، فتلك هشاشة يقال: هش واهتش، وشهى واشتهى، فالشهوة مأخوذة من هناك، واللذة إذا نال الشىء فانتهى إلى آخره فذل ذلك التهيج وسكن سلطان الهشاشة يقال لذو ذل والذل انكسار، وسكونها عن الاهتياج والاغتلام (٢٨) والغلى.

فأول الشهوة كضرمة (٢٩) النار، ولهبها، ودخانها، وآخره وهى اللذة كالجمرة التى بعدما كانت تتلظى سكن ضرامها ولهبها وصارت خامدة (٣٠) علاها الرماد، فصورة النفس فى الشهوة كريشة هبت بها ريح نكباء (٣١) فهى تدبر النفس دوران الرحى، وصورة النفس فى الرغبة كعطشان يكاد يقطع عنقه من العطش فإذا رأى الماء عبه (٣٢) عبا يكاد يلتهم التهاما أوكجائع غرثان (٣٣) وجد طعاما فالتقمه وبلعه بلعا من غير مضغ.

وصورة النفس فى الرهبة كالعلق من الديدان بينا هى منبسطة مقدار أصبع طويلة إذ هى منقبضة مقدار فتر وكالقنغذ من الهوام بينما هى منبسطة ترى صورتها وخلقتها إذا هى منقبضة كالكرة قد اقشعرت

---

(٢٧) متفاوتة: متباينة.

(٢٨) الاغتلام: من الغلمة، وهى الشبق.

(٢٩) ضرمة النار: اشتعالها.

(٣٠) خامدة: الكابية هى التى علاها الرماد، ولكن خامدة هى التى سكن لهبها، وقد أخطأ المؤلف ـ رحمه الله ـ فى ذلك عن غير قصد.

(٣١) الريح النكباء: التى تأتى بين مهبى ريحين، وقيل إن النكباء هى الريح التى تهب بين الصبا والشمال خاصة. راجع المعنى فى أساس البلاغة للزمخشرى ص٩٨٨.

(٣٢) عبَّ الماء عبًّا: شربه من غير معى، كشرب الحمام والدواب، وبابه ردّ.

(٣٣) غرثان: جائع.

وشكست (٣٤) لضيق خلقها، وكالكلب اللهثان المخلوع (٣٥) الفؤاد من الجبن، وكاللبدة البالية الملقاة ذلا وجبنا، وصورة النفس فى الغضب كالأسد الذى يفترس، ويمزق ويقعد عليه، ومرة كالنمر يثب وثبة من لا يهاب ولا يبالى؛ فيمزق ويكسر، ويبدد.

فإذا كان القلب بعقله، ومعرفته وبعلمه بالله حدود الله فى هذه الأحايين الأربعة فإذا اهتاجت الشهوة من النفس أعطاها القلب بمقدار ما أذن الله لها فيه وأحل لها ومنعها ما حرم عليها، واستوثق منها حتى لا يتطاير شررها، ويشتعل نيرانها فى العروق حتى يجاوز الحدود.

لأن قوة النفس فى العروق وأعطاها من الرغبة ما أحل الله لها وصيره لها غنى، وقوة فى دينها ودنياها، واستوثق فى جنبيها حتى لا يفيض من مجاريها وينطفح من الجانبين فينبثق من المجارى، ومن الرهبة بمقدار ما حذر الله أن يرهب وقواها فى جنبها وأمدها وشجعها بقوة العلم وأيدها بالمعرفة بالله وأعطاها من الغضب بمقدار ما أطلق الله لها من ذلك فلا يحملها غضبها على أن يجاوز الحدود فى الأمور ولا يتعدى إلى الظلم، ويكون مع غضبها متمسكة بالعدل ولا يتعداه إلى جور (٣٦) فصاحب هذه الصفة هو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه حرمه الله على النار، وإذا خلا القلب من هذه المعرفة والعلم صار أسيرا للنفس بعد أن كان أميرا عليها، وذهب سلطانه، وصار مملوكا للنفس؛ فبرزت الشهوة فى وقتها فأحرقت والرغبة فى وقتها فأفسدت، والرهبة فى وقتها فأضرمت، والغضب فى وقته فتسلط فجاء الخراب والضياع والفساد، فهذا ملك النفس للقلب، وذاك ملك القلب للنفس.

---

(٣٤) شكست: ساء خلقها.
(٣٥) المخلوع الفؤاد: طائر الفؤاد من الفرق والفزع.
(٣٦) جور: ظلم.

(عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب).

فالقلب ملك بصلاحه يصلح الجسد لأن التدبير إليه والنفس تحب الملك وتشتهيه، وتبارى القلب فهى تطلب الفرصة، وإذا نالت تملكت على القلب فأفسدته، وبفساده يفسد الجسد بمنزلة أمير وقع فى الجيش، وخارجى قد ملك على البلد فضاعت الحدود، والأحكام، ووخربت الكورة وظهر الظلم والعدوان والحريق والغارات فالحريق المعاصى، والغارات غارات كنوز القلب.

وصار الصدر كله معدن الجهل والشر والبطر والشهوة، والكبر والعلو والحرص، والحسد والحقد، وأخلاق الكفر، وقد أمر الله عز وجل بمجاهدة النفس، فقال:

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ (٣٧)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجهاد جهادان وأفضلهما جهاد النفس» (٣٨) وإذا التقى القلب، والنفس للمحاربة هذا بجنود الله من العلم، والعقل، والمعرفة والفهم والفطنة والحفظ والكياسة، وحسن التدبير والحراسة فأشرقت هذه الأنوار، واشتعلت شعاعاتها فى النفس بجنود العدو من الهوى والشهوة والغضب والرغبة والكبر والحرص، والمكر والخديعة والمدد من الزينة والأفراح فاضطربا وتحاربا فذلك وقت يباهى الله تعالى بعبده ملائكته، والنصرة موضوعة فى ملك المشيئة فى حجاب القدرة.

فإذا رأى الهوى النصر ذل وانهزم العدو بجنوده وأقبل بجمعه، وجنوده على النفس حتى أسرها وحبسها فى سجنه، وقعد أميرا وجمع جنوده

---

(٣٧) الحج (٧٨/٢٢).

(٣٨) لأن غرائز النفس وأهواءها شىء، لذلك كانت مجاهدتها شاقة عسيرة.

وقواده الذين ذكرنا فى الأصل المتقدم، وهى الأخلاق، وفتح باب بيوت الأموال والخزائن ورزق الجنود من الأموال وزادهم من الخزائن فى الآلة والعدة.

فهذا ملك القلب للنفس حين تغضب، وحين ترغب، وحين ترهب وحين تشتهى قد خسأ شيطانها وحرمت جوارحها على النار كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا التقى القلب، والنفس للمحاربة والتقى الجمعان كانت صفته كجبريل مع محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر وإبليس مع الكفار يشجعهم ويقوى أمرهم ويعدهم ويمنيهم (٣٩) فلما رأى جبريل نكص (٤٠) على عقبيه هاربا.

وقال: «إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله» وإنما خاف الأسر أن يأسره جبريل فيفضحه، ويريه الناس فهرب، وترك الجمع.

وكذلك الهوى (٤١) لما رأى المعرفة بسلطانها قد أقبلت، والعقل على مقدمتها والعلم بالله محيط بالعسكر، والجنود نكص الهوى على عقبيه، وتبرأ من الجنود ثم من بعد هذا ملك آخر لأولياء الله، وهو أن يحصل القلب فى سلطان قبضة الله ويملكه الله، ويستعمله فإذا تعدى الحدود فى الظاهر لم يفسد ولم يخرب ولم يخبر أحد أن يستعمله بتغيير لأن ذلك حد الله فى الباطن وقد خفى على الخلق، والحد عندهم فى الظاهر غير ذلك.

فهذا قلب غلب عليه سلطان القبضة، فلكه واستعمله الله فى قبضته كما استعمل الخضر فى خرق السفينة، وقتل الغلام، وكان ذلك فى الباطن حد الله، وفى الظاهر مخفيا عند الخلق، ولذلك أنكره موسى عليه السلام.

---

(٣٩) يمنيهم: يعدهم الأمانى.
(٤٠) نكص على عقبيه: ارتد ورجع، وأحجم عن الشىء.
(٤١) الهوى: هوى النفس.

فهذه قلوب ملكها سلطان القبضة ، وتلك قلوب ملكها سلطان الحق ، والقلوب التى ذكرنا بدئا ملكها سلطان النفس ومما يحقق ما قلنا ماروى عن على رضى الله عنه أنه مر برجل وهو مقاوم امرأة فأصغى إليه سمعه فأنكر ما سمعه منه فشجه فجاء الرجل إلى عمر رضى الله عنه والدماء تسيل فقال : ويحك من فعل بك قال : على فقال : عمر ما هذا يا أبا الحسن فقص عليه فقال عمر أصابتك عين من عيون الله ان لله فى الأرض عيونا وأن عليا من عيون الله .

[الأصل الثالث والستون والمائتان في حقيقة الفقة وفضيلته]

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل العبادة الفقه وأفضل الدين الورع » (١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى دين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شىء عماد وعماد هذا الدين الفقه » (٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من يرد الله به خيرا يفقه فى الدين» (٣) .

قال أبو عبد الله الفقه مشتق من التفقه (٤) وهو انكشاف الغطاء عن الشىء يقال : تفقأت الثمرة عن أكمامها (٥) . وتفقأ الحب عما فيه وفقأ عينه إذا انخرق الحجاب ، وانكشف عن الحدقة .

---

(١) الحاكم فى «المستدرك» كتاب العلم - باب فضل العلم أحب من فضل العبادة وخير الدين الورع (٩٢/١) عن أبى وقاص مرفوعا . وقال صحيح . ورواية أخرى عن حذيفة مرفوعا ، وقال صحيح . الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١٢٠/١) . والبزار فى «مسنده» - كتاب العلم - باب فضل العالم والمتعلم (٨٥/١) .

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث .

(٣) رواه البخارى ومسلم ، وأحمد فى «المسند» ، عن معاوية رضى الله عنه ، والترمذى وأحمد فى «المسند» عن ابن عباس ، ورواه أيضا ابن ماجة عن أبى هريرة . راجع الجامع الصغير للسيوطى (١٨٣/٢) .

(٤) وردت بإحدى النسخ [التفقؤ] وهو تحريف خطير .

(٥) أكمام الثمرة : جمع كم ، وهو وعاء الطلع .

فعلوم الأشياء فى الصدر مجتمعة متراكمة بعضها على بعض فإحساس القلب من ذلك العلم هو علم القلب أداه إلى الذهن وإلى الحفظ عند الحاجة كنبعان العين ينفجر منه الشىء فمادام هكذا فهو ساكن خامد لا قوة له، فإذا تصور فى الصدر لعين الفؤاد قوى القلب بذلك الذى تصور، فذلك علم مستتر وفى القلب بقية من الضعف، والخمود.

فإذا انكشف الغطاء عن الصورة التى تصورت فى الصدر فذلك الفقه لأنه حين تصور فى الصدر أحس القلب بتلك الصورة علما ولم يرها لأن الغطاء بينه وبين العلم قائم، وهو ظلمة الهوى فهو عالم بذلك الشىء يترجمه بلسانه، ويتضمنه بحفظه وتمثل صورته لعقله وليست له قوة ينتصب قلبه لذلك، ويتشمر لفعله ويطمئن إليه حرارة العلم وقوته.

فإذا انكشف الغطاء عن تلك الصورة التى صورها عقله صار عيانا للفؤاد، فيقال لذلك العيان علم اليقين، قال الله تعالى:

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ (٦)

فعين اليقين يوم القيامة وعلم اليقين فى الدنيا فى الصدر فسماه رؤية ليعلم أن هذه رؤية عين الفؤاد وتلك فى الآخرة رؤية عين الرأس (٧) فهذا الذى انكشف له الغطاء وانفقأ الحجاب عن مكنون (٨) العلم أبصر بعين الفؤاد صورة ذلك الشىء المعبأ فسمى ذلك فقها.

وإنما هو فى الأصل فقىء الياء مهموزة، فأبدلت بالهمزة هاء فقيل فقيه قال الله تعالى فيما يحكى عن قول شعيب عليه السلام حيث قال

---

(٦) التكاثر (٢-٧/١)
راجع القرطبى (١٧٢/٢٠) والتسهيل (٢٧٦/٤) والبحر المحيط (٥٠٨/٨).
(٧) أى بمجر النظر فى الدنيا.
(٨) منكون: مضمر.

لقومه يا قوم يا قوم يا قوم :

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٩)

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ (١٠)

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ ﴾ (١١)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيبا عليه السلام يقول : ذاك خطيب الأنبياء لحسن دعائه قومه ، ومراجعته وتلطفه فى الدعوة فقال فى آخر ذلك :

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾

فمن فقه قلبه ما يقال له تبين عليه أثره فهؤلاء الذين انتحلوا (١٢) هذا الرأى ، وأكثروا فيه الخوض سموا هذا فقها وخيل إليهم أن هذا هو الذى ما عبد الله بمثله وهو هذه المسائل التى عندهم فقط ، ولا يعلمون أن أستاذيهم تكلموا بها ثم قالوا : وددنا أنا نجونا منها كفافا (١٣) لا لنا ولا علينا ، مثل إبراهيم النخعى ، والشعبى ، والحسن ، وابن سيرين رحمهم الله فى زمانهم وأبى حنيفة ، وسفيان والأوزاعى ، ومالك ، رحمهم الله فى زمانهم .

---

(٩) هود (٨٦/١١) . راجع تفسير الطبرى (١٠٠/١٢) .

(١٠) هود (٥٢/١١)

وهذه الآية دليل على أن التوبة والاستغفار سبب نزول الأمطار ، وتنزل الرحمات وفيوض البركات . راجع أيضا رأى الطبرى (٥٨/١٢) .

(١١) هود (٨٩/٢٢)

لا يجرمنكم شقاقى : لا يكسبنكم عداوتى ، أن تهلكوا ، راجع جامع البيان (٦٣/١٢) .

(١٢) انتحلوا هذا الرأى : نحلوه ، أى أخذوه من غيرهم ، ونسبوه لأنفسهم ، وكذلك يقال : انتحل فلان شعر غيره أو قول غيره إذا ادعاه لنفسه .

(١٣) كفافا : ما يكتفى ويتبلغ به ، وهو من القوت أيضا ما يكف الإنسان عن السؤال .

فكل تمنى الخلاص منه لا له ولا عليه، وهؤلاء أعرضوا (١٤) عن سائر العلوم التى حاجة الناس إليها فى كل وقت وصار هذا النوع فتنة لهم فتراه طول الدهر يقول يجوز ولا يجوز يدخل فيما بينه وبين عباده مع الحيرة فى ذلك، ولا يدرى أصواب هو أم خطأ، ثم تراه فى خاصة أمره ودينه عوج (١٥) كله فإقباله على نفسه حتى يكف منها ما لا يجوز خير له من إهماله نفسه، وإقباله على إصلاح الناس ذلك ليعلم أنه مفتون وكان المتقدمون أولى بالشفقة على الأمة والحرص على الدين، والنصيحة لله فشغلهم إصلاح أنفسهم عن الخوض فى هذه الأشياء حتى يلهيه عن عيوب نفسه ويقال لهذا المعجب إن كان هذه الفضائل لمن تفقه فى هذا النوع الواحد وكيف إذا فقهت كلام رب العالمين الذى أدب به عبيده، وعظم وعطف به عليهم كى يجعلهم غدا ملوكا فى دار السلام (١٦). فمن فقه عن الله عز وجل قوله :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (١٧)

أمسك عن الصغير والكبير، والدقيق (١٨) والجليل من الشر، ولم يستحقر مادق (١٩) من الخير، وصغر ولم يستهن به وأمات هذا الوعيد من نفسه البطالات كلها.

---

(١٤) أعرضوا: انصرفوا عنها وأهملوها.
(١٥) عوج: اعوجاج.
(١٦) دار السلام: اسم من أسماء الجنة.
(١٧) الزلزلة (٩٩/٧)
راجع التفسير الكبير للفخر الرازى (٦١/٣١).
(١٨) الدقيق: القليل النزر جدا، والجليل: الكبير والعظيم.
(١٩) مادق: مالطف.

(ألا ترى إلى الأعرابى الذى سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة قام وركب راحلته وقال : حسبى حسبى ومر على وجهه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقه الأعرابى) فهكذا يكون الفقه .

ومن فقه ما فى السورة من شأن الأرض وأخبارها عن السرائر وذكر الصدر من بين يدى الله :

﴿ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٢٠)

ثم وجد أعماله موزونة بمثاقيل الذر من الخير والشر كيف لا يكون هذا حسبه فيما بينه وبين الله .

ومن فقه عن الله قوله عز وجل :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (٢١)

فكيف لا يكون هذا حسبه فيما بينه وبين العباد حتى ينصف الخلق من نفسه ، ويؤدى إلى كل ذى حق حقه من نفسه وماله .

ومن فقه عن الله قوله تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٢٢)

كيف لا يكون هذا حسبه فيما بينه وبين معاشه ، ولا يخرج هم الرزق من قلبه حتى يثق بربه ويطمئن إلى ضمانه .

ومن فقه عن الله قوله عز وجل :

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ (٢٣)

---

(٢٠) الزلزلة (٩٩/٦) .
(٢١) الأنبياء (٢١/٤٧) .
(٢٢) هود (١١/٦) . راجع الجامع لأحكام القرآن (٩/٥) .
(٢٣) سبأ (٣٤/٣٩) .

كيف لا يكون هذا حسبه من الثقة بخلفه حتى لا يجد فى وقت الإنفاق ضيقا فى صدره[٢٤] ولا حرارة فى نفسه.

ومن فقه عن الله قوله عز وجل:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [٢٥]

كيف لا يكون هذا حسبه[٢٦] فى نزوله على ما اختار له ربه حتى يلهو عن حب هذه الشهوات ويتشمر[٢٧] فى طلب الذى اعلمه الله أنه خير من ذلك.

ومن فقه عن الله عز وجل قوله:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [٢٨]

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [٢٩]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٣٠]

كيف لا يكون هذا حسبه فى معاملته ربه حتى ينكمش فى الإحسان.

ومن فقه عن الله عز وجل قوله:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٣١]

---

(٢٤) الضيق فى الصدر من جراء الانفاق كناية عن الغيظ والكمد.
(٢٥) آل عمران (٣/١٤).
(٢٦) حسبه: يكفيه.
(٢٧) يتشمر فى طلب كذا: يجد فى طلبه، ويصر عليه.
(٢٨) الكهف (١٨/٧).
(٢٩) الكهف (١٨/٣٠).
(٣٠) التوبة (٩/١٢٠).
(٣١) الذاريات (٥١/٥٦).

كيف لا يكون هذا حسبه حتى يعلم أنه خلق للعبودة وأن عبودته فى جميع حركاته كلها فإن كانت حركاته مما حسنها الله فى تنزيله وعلى ألسنة رسله فقد عبده وإن كانت سيئة فقد ترك عبودته.

ومن فقه عن الله تعالى قوله:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٣٢)

كيف لا يكون هذا حسبه حتى تهون عليه المصائب كانه قال: إنما قاصصتك بهذه المصيبة بشيء يسير من ذنوبك حتى أنبهك من رقدتك.

ومن فقه عن الله قوله عز وجل:

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ (٣٣)

كيف لا يكون هذا حسبه حتى ينقطع رجاءه عن المخلوقين ويصير حرا من رق نفسه، ومن تبصبص خلقه، وتخلص من تعيير الله حيث عير المنافقين فقال:

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣٤)

براء من الفقه من كان رهبته من المخلوقين غالبة على رهبته من الله وقال عز وجل فى المنافقين:

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣٥)

(٣٢) الشورى (٣٠/٤٢).
(٣٣) يونس (١٠٧/١٠).
(٣٤) الحشر (١٣/٥٩).
(٣٥) المنافقون (٧/٦٣).

فمن رأى حاجته ورزقه من الدنيا بيد الخلق دون الله حتى يضيع حقوقه ويداهن(٣٦) فى دينه فقد برأه القرآن من الفقه.

ومن فقه عن الله عز وجل قوله:

﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٣٧)

كيف لا يكون هذا حسبه حتى يعلم أن الله عز وجل أكرمه بغاية الكرامة فلو أن ملكا كتب إلى عبد من عبيده أرفع إلى حوائجك لا متلأ سرورا واتكل على هذا الكتاب مع أنه عبد مثله لا يقدر على شىء فى الحقيقة؛ فهذا كتاب رب العالمين ينطق بأن الله تعالى قال هذا ولم يخرجه مخرج الأمر، ولكن أبرزه فى معرض القول فقال:

«وقال ربكم إدعونى أستجب لكم»

فمن يعلم ما فى حشو هذه الكلمة اشتفى(٣٨) به ثم إذا دعا دعا على يقين من الإجابة ثم ينتظر الوقت كما قال الله لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٩)

أى أن سبيل الذين لا يعلمون الاستعجال (ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل ربه قيل: كيف يستعجل ربه يا رسول الله؟ فقال يقول: دعوت فلم تستجب لى).

فهل استعجاله إلا من قلة فقهه لا يفقه أن ربه قد خار(٤٠) له حين يأتى وقته فيعطيه أكثر مما سأل.

---

(٣٦) يداهن: يصانع.
(٣٧) غافر (٤٠/٦٠).
(٣٨) اشتفى به: تداوى به وشفى به.
(٣٩) يونس (١٠/٨٩).
(٤٠) خار له: اختار له.

(وروى فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا دعا العبد قال الله تعالى: ياجبريل احبس حاجة عبدى فإنى أحب صوته وقد أجبته إلى ما سأل) فإذا فقه هذا لم يستبطئ إجابته ولم يستعجل ربه.

فالفقه فى هذا لا فى تلك المخاتلات(٤١) والخدائع التى يجدها العبيد الأباق فى سيرهم إلى الله فى معايشهم من نهب الدنيا حرصا وجمعا، وتضييعا لدين الله وربما يكون صاحب هذا ممن خدعته نفسه فيقول أنا اشتغل بتسوية أمور الناس، فيهمل أمر نفسه لمحبة أن ينزل الخلق كلهم على قوله ويصدروا عن مشيئته فإذا هو جبار عات قد رمى بالعبودة وتشبه بالأرباب فى تسوية أمورهم على الأقتدار.

---

(٤١) المخاتلات: المخادعات، وأساليب الغدر.

[الأصل الرابع والستون والمائتان فى سر غفرانك بعد الفراغ]

عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج من الخلاء قال: «غفرانك» (١).

قوله غفرانك طلب المغفرة على قالب فعلان وهو أعظم القوالب وأوفرها كأنه طلب المغفرة الوافرة لأنه نظر إلى أمر عظيم، وذلك أن آدم عليه السلام عجن الله طينته وخمرها وصوره وخلقه بيده ونفخ فيه من روحه.

(عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خلق الله آدم عليه السلام من تراب وعجنه بماء من ماء الجنة فلم يكن يصلح له مكان يليق به من هذه المكارم إلا داره فتوجه وكلله وختمه بخاتم الملك، وكساه ونظفه ووضعه على سرير هو وزوجته، وأمر ملائكته بحملهما إلى داره ولم يزالا فى داره طاهرين عالمين بالله فرحين مسرورين مكرمين حتى إذا جاء وقت الشقوة، وغلب القضاء، والقدر على جميع ما أعطاهما وخلص العدو إليهما فأكلا بأمر العدو وصارت تلك الأكلة فرصة إبليس منهما والمأكول حظه منهما فصارا عاريين من جميع

(١) الترمذى فى «سننه»- كتاب الطهارة- باب ما يقول إذا خرج من الخلاء (١٢/١) وقال أبو عبس: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث اسرائيل عن يوسف عن أبى برده. والحاكم فى «المستدرك»- كتاب الطهارة- باب ما يقول إذا خرج من الغائط (١٥٨/١)، وقال الحاكم صحيح وأقرة الذهبى. وأحمد فى «المسند» من حديث عائشة (١٥٥/٦). وابن ماجة، وأبو داود، والدارمى، والبيهقى، وابن السنى وغيرهم.

هذه الكرامات، وأخرجا مذمومين وصار مستقر تلك الأكلة سلطان إبليس ومملكته.

والشيء المأكول منتنا وإنما أنتن لكينونة العدو ونجاسته، وكفره فيها فكلما ظهر من ذلك الموضع بول أوغائط أوريح أمر بالوضوء، وغسل ذلك المكان، فالوضوء من توضئه الأعضاء التى هى جوانب الجسد، حتى تصير وضيئة فإنما لاحظ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من الخلاء ذلك الذى حل بأبيه، فورثه عنه فظهر ذلك عليه فالتجأ إلى عظم المغفرة فقال: غفرانك أى إنما ألقينا من تلك الخطيئة فلو أن رجلا وقف تحت ميزاب (٢) الكعبة حتى جرى من الميزاب فتلقاه نغبة من الماء الذى نزل من السماء ولم يمازجه (٣) شيء من الدنيا فدخل جوفه ثم خرج من هذه المخارج لأمر بالغسل والوضوء، وحكم له بحكم النجاسة لأن هذا الماء صار إلى المعدة فى مجاورة العدو الذى جعل له السبيل إلى الآدمى.

(كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، قالوا ومنك يا رسول الله قال: ومنى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم) (٤) فمستقره تحت المعدة على مطحن العلف ثم يجرى مع الدم فى العروق سلطانه، فالمتنبه إذا دخل الخلاء وأحس حياة قلبه بما يخرج منه استحيا وعرف أن هذا ميراث تلك الخطيئة، وذكر بدو أمره وأنه بسبب تلك الخطيئة ألقى إلى الدنيا، وقارف (٥) غيرها من الخطايا فالتجأ إلى سؤال الغفران.

---

(٢) الميزاب: المثعب، وهو فارس، وقد عرب بالهمزة، وجمعه إذا لم يهمز: ميازيب.
(٣) يمازجه: يخالطه، وقيل يماذقه.
(٤) تقدم تخريج هذا الحديث.
(٥) قارف: ارتكب، ومنها اقترف.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقنع رأسه (عن حبيب ابن صالح رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل المرفق لبس حذاءه، وغطى رأسه وروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال: إنى لأدخل الكنيف (٦) فأقنع رأسى حياء من الله تعالى) فهذه ملاحظة الرسل والأنبياء والأولياء عليهم السلام، وأما العامة فهم لا يرون هذا بقلوبهم ولا يعرفونه وإنما أدبوا بالحمد أن يقولوا الحمد لله الذى أذهب عنى (٧) الأذى، وعافنى فردوا إلى حال النفس، ونعمة الله عليهم.

(عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى الخلاء قال: اللهم أذهب عنى الرجس النجس، الخبيث المخبث الشيطان الرجيم، فإذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى) (٨) فهذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينه وبين الأمة.

فأما الكلمة الأولى ففيما بينه، وبين الله تعالى، وكذلك شأن الكبراء كلامهم فى الباطن مع الله تعالى غير كلامهم فى الظاهر.

قال له قائل: مثل ماذا؟ قال فى الظاهر مع الخلق يقولون لا إله إلا الله وحده لا شريك له وفى الباطن معه يقولون لا إله إلا الله فقط، وفى الظاهر يقولون: الحمد لله الذى أطعمنى وسقانى وأشبعنى وأروانى، وكسانى ولو شاء أجاعنى وأظمأنى، وأعرانى، وفى الباطن يقول: الحمد لله فقط وفى الظاهر يقولون: ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون،

---

(٦) الكنيف: الساتر، لأنه يكتنف ما يدخله.

(٧) فى نسخة [اذهب عنا].

(٨) رواه ابن ماجة (٣٠١) وإسناده ضعيف، ورواه ابن السنى موقوفا من حديث أبى ذر فى «عمل اليوم والليلة» رقم (٢١) وإسناده ضعيف أيضا، وقال الحافظ فى «الأذكار» كما فى «شرح ابن علان» (٤٠٥/١) «وحديث أبى ذر حسن» أهـ.

وفى الباطن يقولون: ما شاء الله ينشرون (٩) مع الخلق عن الله تعالى ذكر ربوبيته، وآلهيته، وصنائعه ليكون ذلك منشورا مشهورا وفى الباطن إذا قالوا لا إله إلا الله بقيت قلوبهم فى ألوهيته، ولا يلتفتون إلى شرك الشركاء.

فإن القلوب الواهة (١٠) يصعب عليها الالتفات إلى غيره وكذلك فى الحمد إذا رفعوا الحمد إليه بقلوبهم صعب عليهم أن يلتفتوا إلى النعمة وكذا فى المشيئة إذا وقعوا فى بحرها ارتفع عنهم ذكر كان ويكون.

وعن ابن مقاتل رضى الله عنه قال: كان ابن سيرين رحمه الله إذا خرج من الكنيف فلم يره أحد (١١) خر ساجدا باكيا بما أنعم الله عليه أن سهل له خروج الأذى.

(٩) ينشرون: يبثون.
(١٠) الوالهة: من الوله، وهو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد.
(١١) فى نسخة أخرى [ولم ير أحدا] وهو تحريف من الناسخ.

[الأصل الخامس والستون والمائتان في سر العمل وعلانيته]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله إني كنت أصلي في بيتي فأسره فاطلع على رجل فأعجبني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لك أجران أجر السر وأجر العلانية»(١).

قال أبو عبد الله: هذا رجل ناصح الله في خلقه، أسر العمل لا عن ضعف يقين، ولكن خلا بربه بناجيه فلما اطلع عليه أعجبه رؤيته اياه كي ينتدب لمثله، ويقتدى به، ولم تعمل فيه رؤيته فتتحرك من نفسه شهوة المدح لقوة يقينه.

(وروى معمر عن زيد رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خير أعمالكم التي تحبون أن يعلم بها قال زيد والذي يكتمها ليسلم رفعه زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم).

وقد أثنى الله عز وجل على قوم فسماهم عباد الرحمن، وبين أن مثواهم غرف الجنة وعدد خصالهم التي أثنى بها عليهم، ثم حكى عن دعائهم قوله تعالى:

﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٢)

---

(١) الترمذي في «سننه». كتاب الزهد. باب عمل السر (٥٩٤/٤) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. والهيثمي في «مجمع الزوائد» كتاب الزهد. باب ما جاء في عمل السر (٢٩٠/١٠) وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات. والسيوطي في «مسانيد الجامع الكبير» (٦٩٠/٢) وعزاه لابن جرير وصححه.

(٢) الفرقان (٧٤/٢٥).

سألوه أن يجعلهم أئمة لمن يقتدى بهم فلا يكون أمر هذا مكتوما ، وكيف يؤتم به أن أسر العمل فهؤلاء نصحاء الله ، والدعاء إلى الله يدعون إلى الله باقوالهم ، وبأفعالهم التى يظهرونها على أعين الخلق يحدون الخلق على ذلك .

وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى هريرة لك أجران أجر السر ، وأجر العلانية ؛ لأنه نوى بالسر أمرا وبالعلانية أمرا ولو لم يكن هكذا لم يكتب له أجران ، فإنه لا أجر لمن لا نية له ، فهذا عبد نوى أن يسر بعمله ليخلو بربه كى لا يشكره عليه أحد غيره ثم لما اطلع عليه نوى أن ينتفع به غيره بأن يقتدى به فالسر مضاعف على العلانية بسبعين ضعفاً ، وعلانية هذا مضاعفة على سره بسبعين ضعفا لأن سره خلوه بربه كيلا يشكره عليه أحد غير ربه وإعلانه نصحه له فى عباده ليس له فى وقت سره التفات إلى مدح الناس فيهرب منه ولا فى علانيته المنزلة عند الناس .

(وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «السر أفضل من العلانية والعلانية أفضل لمن أراد به الإقتداء» (٣) وإنما صار عمل السر مضاعفا على العلانية بسبعين ضعفا من جهات ، فجهة منها أن الذى يسرها إنما أسرها ليصفو له لأنه إذا أحست نفسه بشعور الناس به علمت أنه ينال بذلك عند الخلق رفعة وكرامة ، وسارت له من القلب منزلة تقضى حوائجة ، ويعظم فرحه بذلك فإذا هو يطلب الجزاء من الله تعالى ، والثواب من الخلق فهذا الذى (٤) هو فى نفسه هذه الفتنة كائنة يجاهد نفسه فى وقت العمل إذا أعلن به حتى ينكر عليها ذلك ، ولا يرضى ، ولا يقبل منها هذه الوساوس

---

(٣) الاقتداء : القدة والتأثر.

(٤) فى نسخة أخرى [فهو الذى] .

فإن أغفل المجاهدة طرفة عين وجد نفسه فى عين هذه الفتنة فصاحب هذا ضعيف اليقين.

وإذا هرب من الإعلان فأسره ضوعف له عمله بسبعين ضعفا لأنه يفرغ لله قلبه من أشغال النفس، فإذا أعلنها نصحا لله تعالى فى عباده وحبا لأن يعبده الخلق صار السبعون مضاعفا الضعف الذى لا يحصية إلا الله تعالى، فإذا لم يكن من رجال الإعلان ولم يبلغ قلبه من المنازل محلا تموت فتنة نفسه، ويفتقد منها حب المدح من الخلق وفرح الرياسة والعلو أمسك عن الإعلان وأسره وصفا العمل لصاحبه بتلك النية الصادقة، وسلمت النية بما أسره فهذا الوجه للمقتصدين، ووجه آخر للسابقين المقربين، فإذا أسر العمل إنما يسره ليخلو بربه فى تلك الطاعة فإن الله تعالى موجود بكل مكان، وفى كل طاعة فإذا أسر العمل وخلا بربه برز له وجوده فى صدره بين عينى فؤاد، فمن يقدر أن يصف ذلك البروز وتلك الحلاوة، وذلك الطيب، ومن يقدر أن يصف تصور القلب فى أحواله، وهشاشة النفس فى أحوالها.

(وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سأله جبريل عليه السلام ما الإيمان وما الإسلام وما الإحسان فأجابه فى كل مسئلة وقال: فى الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا محسن قال: نعم قال: صدقت قال: فعجبنا من تصديقه له) لأنهم لم يعرفوا أنه جبريل، حتى أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك.

(وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه لحقه ابن الزبير فى الطواف، فخطب إليه ابنته ولم يكلمه ابن عمر فلما قدما المدينة ولقيه عروة قال له ابن عمر: إنك كلمتنى فى الطواف بما كلمتنى وإنا كنا نتراءى الله بين أعيننا فهل لك فيما سألت قال: نعم فزوجه.

وعن أبى بن كعب رضى الله عنه قال: كنت جالسا فى المسجد فدخل رجل فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم جاء آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فلما انصرفا دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته بذلك (٥).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل، اقرأ فقرأ ثم قال للآخر إقرأ فقرأ فقال: أحسنتما أو أصبتما فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حسن قرأتها سقط فى نفسى ووددت أنى كنت فى الجاهلية.

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غشينى ضرب بيده فى صدرى ففضت عرقا وكأنى أنظر إلى الله فرقا (٦).

فقال يا أبى إن ربى أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أى رب هون على أمتى فرده إلى الثانية أن أقرأ على حرفين، فقلت: يا رب هون على أمتى فرده، إلى الثالثة أن اقرأ على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها فقلت اللهم أغفر لأمتى مرتين وأخرت الثالثة إلى يوم رغب إلىّ فيه الخلق حتى إبراهيم عليه السلام.

وعن عبد العزيز بن أبى رواد رضى الله عنه رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصة حارثة حيث قال له: كيف أصبحت يا حارثة قال مؤمنا حقا قال: ما حقيقة إيمانك قال: كأنى أنظر إلى الله فوق عرشه) هذا فى رواية عبد العزيز.

---

(٥) فى إحدى النسخ [وأصبتا].
(٦) فرقا: خوفا وفزعاً.

(وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: فى حديثه كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا) رجعنا إلى ذكر صفة السابقين المقربين أنه إذا أسر العمل خلا بربه فى العمل، فبرز له وجوده على القلب فى الصدر.

والأول المقتصد أسر العمل فخلا بطاعته وعبودته لا بربه فبرز له توحيده على قلبه فى صدره، فالمقتصد يتولى تربية عمله التوحيد والسابق يتولى تربية عمله ربه الجواد الكريم، فإذا أسر السابق الذى هذه صفته عملا من أعماله فإنما يسره ليخلو بربه فيجده فى العمل وذلك قول عامر بن عبد قيس: ما نظرت إلى شىء إلا رأيت الله أقرب منه.

وقول محمد بن واسع: ما نظرت إلى شىء إلا رأيت الله فيه فقد تباين قولاهما مع رفعة قوليها، وجلالة حظيها فى القولين فإذا وجده السابق فى العمل عمل على مشاهدة القلب فعظمه وحسنه، وبالغ فيه ثم جعله من وراء ظهره فلم يلتفت إليه لأنه إنما يسره من أجل شيئين أحدهما أنه يريد أن يطفىء نار شوقه إلى ربه بوجوده فى العمل لأنه إذا وجده فأول ما يلاقى فى قلبه يرد الرحمة وقرة العين، فإذا قرت عينه وناله برد الرحمة انطفأت(٧) نار الشوق وسكنت فهذا وجه ووجه آخر أن عين قلبه مادة إلى جلاله وعظمته يسأل بذلك نزاهة اليقين فيزداد حياة بالله ولم يسره يريد بذلك تصفيته مما يخالط من فتنة النفس؛ لأن نفس هذا قد ماتت، وافتقدت وساوسها.

قال له قائل: هذا لم لم يعلن العمل حتى يقتدى به الخلق قال صاحب هذا فدلها عن الثواب ووله بالماجد الكريم، ومن وجه آخر يسره يريد بذلك أن يغيبه عن أعين الخلق فإنهم إذا رأوا صلاة وصوما وصدقة، رأوا زينة وبهاء وزهدا، ونزاهة وسخاء فأكرموه، وعظموا منزلته

---

(٧) كذا وردت بالأصول.

فإنما يسر أعماله لئلا يكتسب بها من الخلق هذه المنزلة غيرة لربه، وإذا أسرها من هذا الوجه كان ممن يباهى الله به ملائكته، وقال هذا عبدى حقا ولم يكن الله ليباهى به ويثنى عليه ثم لا يفيده شيئا. وأول ما يفيده أن ينشر ثناءه(٨) الذى أثنى به عليه فى ملائكته على قلوب أهل الأرض حتى ينظروا إليه بتلك العين وتتناسم الأرواح برؤيته، وتتباشر القلوب بلقائه وتلتذ العيون الشاخصة بالنظر إليه.

قال عيسى عليه السلام إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن شفتيه وإذا تصدق فليخف يمينه عن شماله، وإذا صلى فليدل على بابه سترة فإن الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق. فهذه وجوه أسراره للعمل وإذا أعلنه فإنما يعلنه حبا لأن يعبد الله فى أرضه بمثل ما يعبده نصحا لله فى ذاته وفى دينه، وفى كتابه ورسوله وخلقه.

(ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا إن الدين هو النصيحة ثلاث مرات قيل لمن قال: لله ولكتابه، ولأئمة المسلمين، وعامتهم رواه تميم الدارى) فنصيحته لله فى ذاته أن تكون عينه مادة إلى عظمة الله وفى دينه إلى حسن تدبيره وفى كتابه إلى العمل بما فيه وفى رسوله إلى اتباعه وفى العامة إلى حملهم على ما فيه نجاتهم.

(وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيار عباد الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون العباد إلى الله ويمشون لله فى الأرض نصحا)(٩) قوله يحببون الله إلى عباده أى يذكرونهم آلاء الله ونعمه، وإحسانه، ويحببون العباد إلى الله أى يأمرونهم بالطاعة، حتى يطيعوه فيحبهم، ويمشون لله فى الأرض دعاة إلى الله، وإلى دينه فالدعاة إلى الله دأبهم(١٠) فى شهرهم ودهرهم أن يعلنوا الخير كى يقتدى الناس

(٨) فى إحدى النسخ [ثناؤه] وهو خطأ تحريف من الناسخ.
(٩) أى نصحا للعباد.
(١٠) دأبهم: عادتهم.

بهم ولذلك أثنى الله تعالى على من سأله فقال:

﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (١١)

وإذا أسـروا فالوجه الذى وصفنا فهم على مفرق الطريقين وهم على كلا الطريقين مستقيمون وجيهون عند الله.

(عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما خلق الله الأرض جعلت تميد(١٢) فخلق الجبال فألقى عليها فاستقرت فتعجبت الملائكة من شدة الجبال، فقالت: يا رب، هل من خلقك شىء أشد من الجبال قال: نعم الحديد قالت: يا رب هل من خلقك شىء أشد من الحديد قال: نعم النار قالت: يا رب، هل من شى أشد من النار قال: نعم الماء قالت: يا رب، هل من خلقك شىء أشد من الماء قال: نعم التراب، قالت: يا رب هل من خلقك شىء أشد من التراب قال: نعم الريح، قالت: يارب هل من خلقك شىء أشد من الريح، قال: نعم الإنسان، يتصدق بيمينه يخفيه من شماله هذه رواية أنس رضى الله عنه.

وروى على رضى الله عنه هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال عندما بلغ ذكر خلق الإنسان فى هذا الحديث ثم خلق الإنسان يغلب الريح يتقيها بيده، ثم خلق النوم يغلب الإنسان، ثم خلق الهم يغلب النوم، فأشد خلق ربك الهم، فحديث على رضى الله عنه موافق لحديث أنس رضى الله عنه لأنه إذا صار يتصدق سرا يخفى ذلك السر بيمينه من شماله كان قويا، وهذا تمثيل فاليمين هى القلب، والشمال هى النفس.

---

(١١) الفرقان (٢٥/٧٤).

(١٢) تميد: تتحرك، ومادت الأغصان: مالت.

ألا ترى أن الطاعات تخرج من إيمان القلب، والمعاصي من شهوات النفس.، فتأويل هذه الكلمة عندنا الذى قال: يتصدق بيمينه يخفيها من شماله أى يتصدق بقلبه، ويخفيها من نفسه فالإيمان فى القلب، والهوى فى النفس فإذا أخفاها من الهوى فهذا الإنسان يغلب الريح، يتقيها بيده كما وصفه على رضى الله عنه، لأن الهوى تنفس النار فهو ريح يخرج منها فتمر بباب النار فتحمل الشهوات إلى الآدمى إلى الموضع الذى قد ركب فى الأدمى من تلك الشهوة حتى يثيرها فيشتغل فى العروق ويأخذ القلب فرجع الروايتين إلى شىء واحد وهو أن يعمل عملا مبتدأه من الإيمان من القلب فيسره من الهوى وأسراره أن لا يلتفت إليه حتى يعجب به أويرى لنفسه عملا فيتكل عليه.

وإذا تعلق بالأعمال نزع يده من التعلق بالرحمة فوكله لله إلى نفسه وعمله، ومنها بدأ هلاكه، ولذلك قال الله تعالى: يا داود بشر المذنبين وأنذر الصديقين قال: وكيف ذاك يا رب، قال: بشر المذنبين أن لا يتعاظمنى ذنب أغفره وأنذر الصديقين أنه ليس منهم أحد أنصبه للحساب وأقيمه على عدلى إلا هلك فالملتفت إلى أعماله يريد أن ينجو من ربه بأعماله وإذا هو هالك.

(وهذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس أحد منكم ينجيه عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته)(١٣) والذى يغلب الريح هو الذى يغلب هواه فى كل بر يعمل لله تعالى، وآثر الأمور عنده ما ثقل عليه لأنه يعلم أنه أصفى، وأبرأ من هيأت النفس وموردات(١٤) الهوى فهو يجتهد أن يخفيه من نفسه فأما المقربون فإنهم عملوا لله كأنهم يرونه فلو أن أحدهم صار له عمل الأولين والأخرين لتلاشى فى عينه إذا صار قبالة عظمة الله وجلاله.

---

(١٣) تقدم هذا الحديث.

(١٤) موردات: جمع مورد.

وإنما قلنا أن حديث على رضى الله عنه موافق لحديث أنس من أجل أن النوم فى الظاهر يغلب الإنسان وفى الباطن النوم هو الغفلة لا غفلة القلب، ولكن غفلة النفس عن أحوالها فى الدنيا فإذا جاءت الغفلة نام القلب عن شهوات النفس وأحوالها وأفراحها فإذا جاء الهم طار النوم، فحيى القلب بالله فذاك الهم فى الظاهر هو أحوال النفس وفى الباطن هم ربه فلذلك قدر أن يتصدق بقلبه ويخفيها من نفسه؛ لأن صفته إن قطع همه بربه عند نومة الغفلة فرجع الكلام إلى ما قلنا أن المؤمن إذا صار بهذه الصفة كان أشد وأقوى من الأرضيين والجبال والحديد والنار، والماء والريح فهو أشد خلق ربه.

لأن ذلك الهم هم النفس من أحوال الدنيا يطرد النوم، وينقيه وهم القلب من أحواله فى الملكوت يطرد عنه النوم نوم القلب، ونوم العين، فالهم قد غلب هذه الأشياء.

(فلذلك قال ابن مسعود لعمر رضى الله عنهما إنا نجد أن عمل المؤمن فى يوم واحد أثقل من سبع سموات وسبع أرضين).

وقال موسى عليه السلام فيما روى عنه: يا رب، إنى أجد صفة قوم فى قلوبهم من النور أمثال الجبال الرواسى تكاد البهائم تخر لهم سجدا (١٥) إذا رأتهم من النور الذى فى قلوبهم قال: يا موسى، تلك قلوب طوائف من أمة محمد إنما بلغوا ذلك بإقبالهم على أنفسهم، وذمهم لها وإنما هلك من هلك من قومك بالعجب بأنفسهم.

(وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن لله ملائكة موكلين بأرزاق بنى آدم ثم قال لهم: أيما عبد وجدتموه جعل الهم هما واحدا فضمنوا رزقه السموات والأرضين والطير، وبنى آدم).

---

(١٥) أى تسقط لهم سجداً.

فأما قول عيسى عليه السلام إن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق فإنما يقسم الثناء على القلوب على أقدار محل العباد عنده وإنما يحل العباد عنده حيث يحلون ربهم عز وجل من قلوبهم (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب أن يعلم ما منزلته عند الله فلينظر ما منزلة ربه عنده، فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه)..

فقلوب الخلق فى قبضته وبين إصبعين من أصابعه فيرى القلوب محل العبد من صدق العبودة حتى يحبه العبيد وذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ (١٦)

(وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من هاب الله أهاب الله منه كل شيء، ومن خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن أحبه حببه الله إلى عباده وأثنى عليه»)(١٧) وهو قوله تعالى لموسى عليه السلام:

﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي ﴾ (١٨)

وقوله تعالى عند ذكر أنبيائه:

﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ (١٩)

فإنما ينزل الثناء على القلوب، ويظهر السمات على الشخص قيل: فى قوله تعالى: «**وألقيت عليك محبة**» قال الحلاوة والملاحة، وعن الزهرى قال: يعطى الصادق ثلاثا الحلاوة والمهابة والطلاوة.

(وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى:

---

(١٦) مريم (٩٦/١٩).
(١٧) لأن الخضوع لله عز وقوة وتمكين.
(١٨) طه (٣٩/٢٠).
(١٩) الصافات (٧٨/٣٧، ١٠٨، ١١٩، ١٢٩).

﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (٢٠)

قال: إن الله عز وجل أعطى المؤمن المحبة والمقة (٢١) والمهابة فى صدر الصالحين. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله».

وروى فى حديث آخر قال موسى: يا رب، من أولياؤك قال: الذين إذا ذكروا ذكرت، وإذا ذكرت ذكروا.

وقيل يا رسول الله من نجالس؟ قال: خياركم، قيل: ومن خيارنا يا رسول الله؟ قال: من يذكركم بالله رؤيته، ويزيد فى عملكم منطقة، ويزهدكم فى الدنيا عمله) فقسمة الرزق على التدبير فى الباطن، وقسمة الثناء على منازل العباد فى الباطن فى كينونتهم له (٢٢) عبيدا وتسليمهم إليه نفوسا ولأمره انقيادا، ولأسمائه علما؛ فيورثهم خشوعا وطمأنينة وثقة، فإذا هبته (٢٣) هابك الخلق، وإذا عظمته عظمك الخلق، وإذا أحببته أحبك الخلق، وإذا وثقت به وثق بك الخلق، واطمأنت نفوسهم إليك، وإذا أنست به أنس بك الخلق، وإذا نزهته نظر إليك الخلق بعين النزاهة والطهارة يحكى لقلوب الخلق (٢٤) عن قلبك ما يراه من قلبك فإن شئت فازدد وإن شئت فانقص، فإنما تنقص من حظ نفسك فمنتهى قسمة الثناء إن خلط ذكره بذكره وجعل على شخصه طلاوة سماته فإذا ارأوه ذكروا الله.

---

(٢٠) مريم (٩٦/١٩). الود: المحبة فى قلوب الناس.
(٢١) المقة: المحبة.
(٢٢) أى فى حالة كونهم عبيداً له.
(٢٣) من المهابة: الخوف.
(٢٤) فى نسخة [تجلى لقلوب الخلق].

قال له قائل: وما تلك السمات؟ قال: سمات الحظوظ، قال: حظوظ من ماذا؟ قال: حتى تخرج من المهد وتنفطم عن الرضاع فعندها تعرف السمات إن شاء الله تعالى.

قال: وما المهد وما الفطام؟ قال: الإنسان من حين يولد فهو راكب هواه غير مفارق لشهواته ونهماته، فهو في مهد مناه كالصبى فى المهد يريد فى كل أمر أن يبر ويلطف له، ويعطف عليه، ويعمل بهواه، ويعلل كالصبى ويدارى (٢٥) ويوافق فى مشيئاته، هذا حاله إلى أن يشيخ، ويكبر، ويدخل قبره (٢٦) لم يدخل فى عبودة الله تعالى قط ولا تولى الله قط ولاية الحق إنما تولاه ولاية التوحيد وحده بما من عليه من عقد الإيمان وقبل منه الإيمان والإسلام أن يكون مطمئن القلب فى الله تعالى، فى كل حال ساكنا عند أحكامه مسلما إليه جميع جوارحه عند أمره ونهيه ثم هو عبد آبق منخلع العذار(٢٧) مستبد حرون جموح إذا أمره تثاقل وحزن، وإذا نهاه جمح وإذا قسم له بحسن تدبيره من الأحوال أرسل مشفريه (٢٨) كمشفرى البعير، وعبس (٢٩) وجهه، وانقبض انقباض القنفذ وإذا حكم عليه التوى، ودلك بقدميه الأرض.

فهذا عبد دنياه، وعبد بطنه، وعبد فرجه، وشهواته ومناه فمتى يقدر هذا أن يعظم حقوق الله ويعظم أمره ويتذلل له عبودة ومتى يصير هذا عالما بالله، عارفا له وبمننه وإحسانه شاكرا خاشعا خائفا لزوال النعمة مستحييا منه هيأت ما أبعد هذا فهذا رضيع فى المهد فلينظر أين يكون من تلك العرصة العظيم شأنها، ومن تلك الصفوف، كما يكون الصبى

---

(٢٥) يدارى: يداجى ويصانع.
(٢٦) يقال قبره: أعد له قبراً، وأقبره: أدرجه فيه وأدخله.
(٢٧) منخلع العذار: كناية عن العصيان والتمرد.
(٢٨) المشفر: للبعير بوزن المِغفر كالجحلة من الفرس.
(٢٩) عبس: قطب، وكلح.

من محافل الدنيا مع مخاطه، وأدناسه، وأوساخه، ولهوه، ولعبه من وراء الباب لا يعبأ (٣٠) به ولا يهيأ له مجلس والذى فطم حتى تأدب، وشب وأخذ الزينة، والهيئة، والبهاء، واللباس، والأدب أين يقعد فلذلك من فطم نفسه عن الشهوات، وعن ارتضاع (٣١) حلاوة الدنيا، ورمى بعلل نفسه، ورفع باله عن الخلق ماذا يقال له وماذا يكون أعتقه الله من رق النفس بأنوار الهدى، وحشا صدره من أنوار الحظوظ ووسمه بسماته (٣٢) فالدنيا كلها تحت قدمه، والخلق من وراء ظهره، والله نصب عينه يتخطى على أعناق الخلق فى الموقف إلى الله يسبق الصفوف صفا صفا، ويقال له أدن حتى يغبطه (٣٣) الناظرون إليه من أهل القرية.

وهو ما رواه أبو مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اعقلوا واعلموا أن لله عبادا ليسوا بأنبياء، ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء لمكانهم وقربهم من الله فقام أعرابى فقال: يا رسول الله من هم حلهم لنا فسر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول الأعرابى، فقال هم قوم لم تصل منهم أرحام متقاربة من أفناء الناس (٣٤) ونوازع القبائل تحابوا فى جلال الله عز وجل، وتصافوا فيه، وتزاوروا فيه وتباذلوا فيه يضع الله لهم منابر من نور، فيجلسون عليها وإن ثيابهم لنور، ووجوههم نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يفزعون إذا فزع الناس، أولئك أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

---

(٣٠) لا يعبأ به: لا يهتم به، ولا يكترث.
(٣١) ارتضاع: رضاع.
(٣٢) وسمه: علمه، والسمة: الهيئة.
(٣٣) يغبطه: يتمنى مثل حال المغبوط من غير أن تتمنى زوالها عنه.
(٣٤) أفناء الناس: وأفانين أى أجناس.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تعالى إذا أحب عبد أثنى عليه من الخير مثل عمله سبع مرات، وإذا أبغض عبد أثنى عليه مثل عمله من الشر سبع مرات.

وعن أبى الهيثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله إذا أحب عبدا أثنى عليه بسبعة أضعاف من الخير لم يعمله، وإذا أبغض عبدا أثنى عليه بسبعة أضعاف من الشر لم يعمله.

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تدرون من المؤمن قالوا الله ورسوله أعلم، قال: المؤمن من لا يموت حتى يملأ مسامعه مما يحب ولو أن عبدا اتقى الله فى بيت فى جوف بيت إلى سبعين بيتا على كل بيت باب من حديد ألبسه الله تعالى رداء عمله حتى يتحدث به الناس، ويزيدون والكلام مثل ذلك فى فجوره، قيل: وكيف يزيدون يا رسول الله قال: إن التقى لو استطاع أن يزيد فى بره لزاد، والفاجر لو يستطيع أن يزيد فى فجوره لزاد.

وقال عليه السلام نية المؤمن أبلغ من عمله (٣٥).

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: يقول الله عز وجل لعبده يوم القيامة عبدى عبدتنى أكرمك الناس ووضعوك على رؤسهم، زهدت فى الدنيا راحة تعجلتها هل واليت لى وليا أوعاديت لى عدوا.

عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: يؤتى يوم القيامة بعبد محسن فى نفسه لا يرى أن له سيئة فيقال له هل كنت توالى أوليائى؟ قال: يا رب كنت من الناس سلما قال: فهل كنت تعادى أعدائى قال: يا رب انى لم أكن أحب أن

(٣٥) لأن الأعمال بالنيات.

يكون بيني وبين أحد شيء فيقول: وعزتي لاينال رحمتي من لم يوال أوليائي، ولم يعاد أعدائي، فأما الذي يفعل ويحب أن يحمد فهو على وجهين فإن كان حبه للحمد لأن يعلو بذلك منزلته عند الخلق؛ فهذا فتنة وإن كان حبه للحمد من نزاهة نفسه وشرف قلبه في الدين يطلب الجمال، والهيئة والله جميل يحب الجمال.

فإن طلبه في أموره أن يحمد فهو محمود لأنه لم يطلب بذلك لحمد دنيا وإنما طلب به مسكة الدين، والعصمة لئلا يذل في خلقه فيذل دينه.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس للمؤمن أن يذل نفسه»(٣٦). وقال في خطبته «طوبى لمن تواضع في غير مذلة»(٣٧) قال بشر الشعلبي كنت جالسا عند أبي الدرداء رضي الله عنه فمر بنا ابن الحنظلة رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رجلا متوحداً أقل ما يجالس الناس إنما هو صلاة فإذا انصرف إنما هو تسبيح، وتكبير وتهليل، حتى يأتي أهله فمر بنا فقال أبو الدرداء كلمنا كلمة تنفعنا ولاتضرك فقال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فقدمت فقال رجل: لو رأيتنا حين لقينا العدو فطعن فلان فلانا فقال: خذها وأنا الغلام الغفاري ورجل إلى جنبه فقال: كيف ترى؟ قال: ما أراه إلا أبطل أجره قال الآخر: لا أرى بذلك بأسا فتنازعا في ذلك؛ حتى سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: سبحان الله لا بأس أن يؤجر، ويحمد فسر بذلك أبو الدرداء فقال: أنت سمعت هذا فجعل يقول نعم.

---

(٣٦) لأن العزة لله، ولرسوله، وللمؤمنين.
(٣٧) التواضع عن قوة هو خلة الكرام.

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله إنى أحب أن أحمد كأنه يخاف على نفسه قال: وما يمنعك أن تعيش حميدا وتموت فقيدا (٣٨) وإنما بعثت لأتمم محاسن الأخلاق (٣٩) وفى رواية أخرى أن هذا الرجل الذى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ثابت بن قيس بن شماس) فهذا يحب الحمد لشرف نفسه، وللتجمل هربا من الذم، ونزاهة (٤٠) من دناءة النفس، لأن الحمد والذم ضدان فإذا فقد الحمد ظهر الذم، وأما الذى يحب الحمد للمباهاة، وطلب العلو فذلك مذموم قال الله تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (٤١)

وقال تعالى:

﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾ (٤٢)

(وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة أن لا تكون بشىء مما فى يدك أوثق منك بما فى يد الله تعالى أن يكون ثواب المصيبة أحب إليك من أن لو نفيت عنك المصيبة، ولكل حق حقيقة، ولا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ولا يبلغ العبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن يحمد على شىء عمل لله عز وجل) (٤٣) فهذا فعل السابقين ومنزلة أخرى فى هذا الباب أشرف من

(٣٨) فى نسخة أخرى [فقيرا] وهو تحريف.
(٣٩) تقدم هذا الحديث.
(٤٠) نزاهة: تنزهاً واستبراءً.
(٤١) القصص (٨٣/٢٨).
(٤٢) آل عمران (١٨٨/٣).
(٤٣) لأنه يحتسبه عند الله، ولا يقصد به شيئا من خلق الله.

هذا كله، وهو أن يحب أن يحمد، ومنبع حبه للحمد حب الله تعالى، فهذا يحب أبدا أن يكتسى حمده فيرى عليه تلك الكسوة، وتنطلق الألسنة بذلك الحمد له فتكون تلك الألسنة شهود الله له فى أرضه، فهذا أشرف المنازل، وهو الذى سأل إبراهيم عليه السلام ربه فقال:

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (٤٤)

أى الثناء الحسن فأجيب إلى ذلك فقال:

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (٤٥)

ومحمد صلى الله عليه وسلم فوض ذلك إلى ربه فزاده فقال:

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (٤٦)

فقرن ذكره بذكر نفسه، ثم جعل لأمته من ذلك أوفر الحظ فقال موسى عليه السلام: يا رب، من أولياؤك قال: الذين إذا ذكروا ذكرت، وإذا ذكرت ذكروا.

(وقيل يا رسول الله، من أولياء الله قال: الذين إذا رأوا ذكر الله.

عن أنس رضى الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم إذ مرت به جنازة فسأل عنها، وأثنوا عليها خيرا فقال: وجبت، ثم مرت به أخرى فأثنوا عليها شراً فقال عليه السلام: وجبت فقلنا: يا رسول الله، قلت وجبت قال: إن المؤمنين شهود الله فى الأرض، إذا شهدوا للعبد بخير أوجب الله له الجنة، وإذا شهدوا للعبد بشر أوجب

---

(٤٤) الشعراء (٨٤/٢٦).
(٤٥) الصافات (٧٨/٣٧).
(٤٦) الشرح (٤/٩٤).

الله له النار، وما من عبد يشهد له أمة إلا قبل الله شهادتهم، والأمة الواحد إلى ما فوقه قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (٤٧)

وقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (٤٨)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يوضع فى قبره فيثنى عليه ثلاثة أهل بيت من جيرانه خيرا إلا قال الله تعالى لملائكته: قد قبلت شهادة عبادى لعبدى، فيما ظهر وغفرت لهم ما لا يعلمون» رجعنا إلى ذكر السر والعلانية.

(عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى:

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾ (٤٩)

قال جعل الله صدقه التطوع بفضل سرها علانيتها سبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها بفضل سرها بخمسة وعشرين ضعفا، وكذلك جميع الفرائض والنوافل فى الأشياء كلها).

وقال فى حديث آخر صلاة الرجل فى جماعة يعنى الفريضة تزيد على صلاته وحده بخمس وعشرين درجة وروى عن أبى جعفر محمد ابن على رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾ (٤٩)

---

(٤٧) النحل (١٦/١٢٠).
(٤٨) البقرة (٢/١٤٣).
(٤٩) البقرة (٢/٢٧١).

قال الفرائض ،

﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ ﴾ (٥٠) .

قال : التطوع ، وجاد ما غاص أبو جعفر رضى الله عنه وحق لمعدن النبوة أن يكون هكذا ، وصف الله تعالى إبداء الصدقة بالنعمة فقال : نعما هى ، وإنما هو نعم كقولك فعل وهو ضد بئس (٥١) من البؤس والنعمة والبؤس ضدان ، وكل شىء جسم واحتشا ، ورطب فهو نعمة ، وكل شىء هزل (٥٢) ويبس ، فهو بؤس ثم نسب فعل نعم إلى ما ولفظ ما باطن الأشياء كأنه قال : إبداء الصدقة نعم باطنه وإنما نعم الإبداء لأنه فريضة افترضها الله على عباده دواء لأسقام قلوب العباد لأن القلوب سقمت بحب المال ، ولذلك سمى مالا لأن القلوب تميل بحبها عن الله فأمر بمفارقته على سبيل التصدق ، وهو إظهار صدق الإيمان لأن الله تعالى :

﴿ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (٥٣)

فسمى زكاة والزكاة عبارة عن النماء لأن فيه نمو ما نقص من نور قلوبهم ، وارتحل من بركاتهم عن القلوب وتطهرا عن أدناس الميل إلى المال من الله تعالى ، وتنزها عن حب المال .

(وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان حلو نزه فنزهوه وسمى صدقة لأن فيه إظهار صدق الإيمان ، وقد حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : والذى نفسى بيده ما نقصت صدقة مالا قط » (٥٤) .

---

(٥٠) البقرة (٢/٢٧١) .

(٥١) كذا بالأصول .

(٥٢) فى إحدى النسخ [هزل وبئس] وهو تحريف .

(٥٣) التوبة (٩/١١١) .

(٥٤) وفى رواية : «ما نقص مال من صدقة» . والحديث رواه مسلم فى الصحيح والترمذى

وقال عليه السلام حين تصدق من تمر قدر مد قبضة قبضة والشيء مكانه على هيئته فقيل : يا رسول الله نراك تعطى ، ولا ينقص فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أما تقرأون :

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ (٥٥)

ولكنكم لا ترون الخلف بقلة اليقين .

وقال عليه السلام : لو أن أم إسماعيل عليه السلام لم تغرف من زمزم لكان زمزم عينا معينا .

وروى أن عامر بن عبد قيس كان يأخذ عطاءه فى ثوبه ثم يعطيها قبضة قبضة فإذا بلغ المنزل وزن فيوجد كما هو، وكان بنو أعمامه يفعلون مثل ذلك فينقص فقالوا له فى ذلك فقال : إنكم تجربون الله عز وجل وأنا لا أجرب ، وسمى المال خيرا فى التنزيل ، والخير منه ما كان منزوع الحمة ، وحمة المال ، وسمه حبك له ، وما لم ينزع حمته فهو مال لأنه مال بقلبه عن الله .

قال الله تعالى :

﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (٥٦)

وقال :

﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ (٥٧)

من حديث أبى هريرة مرفوعاً بنحوه، وأخرجه القضاعى من حديث أم سلمة مرفوعا به. راجع التمييز ص ١٤٦ بتصرف .

(٥٥) سبأ (٣٤/٣٩) .

(٥٦) النور (٢٤/٣٣) .

(٥٧) ص (٣٨/٣٢) .

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (٥٨)

وقوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ (٥٩)

سماه خيرا عند حضور الموت لأنه عند انطفاء الشهوات وانطماس حب المال ، وقال :

﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (٦٠)

لأن ذلك وقت عطف ورحمة من السيد على عبده ، يرغب فى عتقه من الرق وتأخذه الحاجة لأن المال قوام الدين ، فمن أحب المال لحب الدين فقد صدق الله فى إيمانه ولم يدخل عليه فى حب إيمانه ممازجة ، ولا شوب(٦١) وعلامته أن يكون بما أعطى أشد فرحا منه بما بقى فى يده ، ولذلك قال الله تعالى لداود عليه السلام : يا داود هل تدرى أى المؤمنين أعظم منزلة عندى ، الذى هو بما أعطى أشد فرحا بما حبس .

(ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة أن لا تكون بشىء مما فى يدك أوثق منك بما فى يد الله تعالى ، وأن يكون ثواب المصيبة أحب إليك من أن لو نفيت المصيبة عنك .

عن سعيد بن جبير رضى الله عنه أن ملك الموت أتى إبراهيم عليه السلام فأخبره بأن لله خليلا فى الأرض ، فقال : يا ملك الموت ، من هو

---

(٥٨) العاديات (١٠٠/٨) .
أى وإنه لحب المال لشديد حريص بخيل . راجع المعنى فى الجامع لأحكام القرآن (١٦٢/٢٠) والطبرى (١٨٠/٣٠) .
(٥٩) البقرة (٢/ ١٨٠) .
(٦٠) النور (٣٣/٢٤) .
(٦١) لا شوب : لا ممازجة ، ولا تخليط .

حتى أكون له خادما قال: فإنك أنت هو قال: بماذا قال: إنك تحب أن تعطى ولا تحب أن تأخذ) وقوله تعالى:

﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ (٦٢)

سماه خيرا لأن الله عز وجل أعطاه تلك الخيل المعروضة عليه بالعشى تلك الصافنات (٦٣) الجياد (٦٤)، فكانت تلك عطية الله تعالى لاحقة بما أعطى من الملك.

قال تعالى:

﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ (٦٥)

قال له قائل: فما الذى حل به من حبه حتى طفق مسبحا بالسوق (٦٦) والأعناق فضرب سوقها وأعناقها قال: لأنه شغله حبه إياها عن صلاة (٦٧) العصر حتى فاتته ولم يكن حبه حب فتنة لأنه أعطى الملك بلا حساب، فعصم من الفتنة وما أعترض تلذذا وتلعبا (٦٨) بالدنيا إنما اعترض عطية الله التى أعطاها بلا تبعة ولا حساب تلذذا بعطف الله ورأفته، ثم لما شغله عن حب ما هو أعظم منه رمى به كالمعرض (٦٩) عنه لأنه رأى فى الصلاة إقبال الله تعالى على عبده ولم ير فى العطية ولا فى اعتراضه

---

(٦٢) ص (٣٨/٣٢).

(٦٣) الصافنات: جمع صافن من الخيل، وهو الحصان القائم على ثلاث قوائم، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر.

(٦٤) الجياد: الخيل.

(٦٥) ص (٣٨/٣٩).

قال المفسرون: أى فأعط أو أمسك. راجع الدر المنثور (٥/٣١٤) وهذا قول قتادة والسدى، وقال الفراء إنما أراد أنه إذا أعطاه فهو من، لذلك سمى العطاء منا. راجع لسان العرب (١٧/٣٠٦).

(٦٦) السوق: جمع مفرده ساق:

(٦٧) راجع قصص الأنبياء لابن كثير بتحقيقنا.

(٦٨) تلعبا بالدنيا: لهوا بها.

(٦٩) المُعرض عنه: المنصرف عنه.

للعطية إقبال الله تعالى، فلما رأى فوت الإقبال هاجت منه حرقة فوت الإقبال فرمى بهذا وتخلى عنه فشكر الله له تلك الحرقة فأعطاه بدلا من الخيل ما لم يعط أحدا من الآدميين وهو الريح.

قال تعالى:

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ ﴾ (٧٠) الآية

وقوله تعالى: ، :-

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (٧١)

المال في الأصل قوام العباد في أمر دينهم به يصلون، ويصومون، ويزكون، ويتصدقون فالابدان لاتقوم إلا بهذا المال، وأعمال الأركان لاتقوم إلا بهذا المال منه يطعم، ومنه يشرب، ومنه يكتسى، ومنه يسكن من الحر والبرد، وبه يتوقى الأذى والمشقة، ويدفع الشدائد من الأحوال.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ (٧٢)

أعلمك أن هذا قيامك أى قوامك فى أمر دينك، ودنياك [illegible] دينه ودنياه جميعا فى دنياه وإن عمل لآخرته فإنما يعمل فى دنياه وإن عمل لدنياه فإنما يعمل فى دنياه فهذا المال على ما وصفنا حقيق أن يسمى خيراً لأن الخيرات به تقوم فإذا أحبه فاشتد حبه له فغير معيب، ولا ملوم (٧٣) ثم يفترق حبه له فيصير على ضربين فإن كان حبه للمال

---

(٧٠) ص (٣٨/٣٦). راجع تفسير الطبرى (٢٣/١٠٣).

(٧١) العاديات (١٠٠/٨).

(٧٢) النساء (٤/٥).

(٧٣) ملوم: الذى يلام على ما لايقترف.

من أجل حب الله فهو محمود، وإن كان حبه له من أجل حب نفسه الدنية البالية غدا في التراب فهو مذموم لأن حبه له من هذا الوجه حب فتنة والفتنة تهديه إلى النار لأن ذلك الحب شهوة، والشهوة بباب النار.

(وقال عليه السلام حفت النار بالشهوات)(٧٤) وإن كان من حب الله أحبه فذلك الحب نور على قلبه قال له قائل: وكيف يكون حب المال من حب الله تعالى قال: علم العبد أن الله تعالى أمره بأمور وجعل مرضاته في تلك الأمور وأن تلك الأمور لا تقوم إلا بالمال فمن أحب ربه أحب أمره وابتغاء مرضاته ثم نظر فإذا تلك الأمور لا تقوم إلا بالمال فليس من المحال أن يحب شيئا من أجل حب ربه ثم يعلم أن ذلك الشيء لا يقوم، ولا يتهيأ له إلا بشيء آخر، ثم لا يحب هذا الشيء الثاني، وكيف لا يحب العبد نعمة يلتذ بها ويجد تلك النعمة سببا لحمد ربه، فإذا خلصت إليه لذة ذلك الشيء هيجت منه ذكر المنعم فأثارت في صدره نورا يجدد حمده، وينكشف له الغطاء عن عطف ربه، ورحمته عليه فيزداد بذلك خضوعا وذلة وحياء منه وتتراكم عليه أثقال الشكر فالنعم على هذا الوجه محقوقة أن تحب ومن هذا القبيل ما أنعم به على سليمان عليه السلام، ومن توهم أنه سأل ملكا لا ينبغي لأحد من بعده لحب نفسه، ولحب دنياه مع أن الله تعالى أثنى عليه وقال:

﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (٧٥)

وقال تعالى:

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (٧٦)

---

(٧٤) تقدم هذا الحديث.
(٧٥) ص (٣٨/٤٤).
(٧٦) ص (٣٨/٤٠).

وقال :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ (٧٧)

ثم قال فى آخر الآية :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (٧٨))

فسماه مهديا وأوابا (٧٩) وصاحب زلفة (٨٠) وحسن مآب (٨١) فقد رد على الله فلم يؤمن عليه الكفر. (عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : لما قتل أبى يوم أحد دعانى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أتحب الدراهم قلت نعم قال : لو جاءتنى (٨٢) دراهم أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا وهكذا.

فقبض النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يعطينى ، فلما اِستخلف أبو بكر أتاه مال من البحرين فدعانى فقال : خذ كما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت بكفى جميعا ، وأخذت الثانية أقل منه فقلت : عدوا هذا فأعطونى مثله مرتين.

فعد فوجد سبعمائة وخمسين فأعطونى مثلها مرتين) فلو كان حب جابر رضى الله عنه للدراهم حب النفس ، والدنيا لكان معيبا.

وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهديه ، ولكنا نظن بجابر الأولى ، والأحق حيث ناطق بهذه الكلمة رسول الله صلى الله عليه

---

(٧٧) الأنعام (٨٤/٦).
(٧٨) الأنعام (٩٠/٦).
(٧٩) أوّابا : منيبا ، والجمع أوّابون.
(٨٠) زلفة ، وزلفى : قربى.
(٨١) حسن مآب : حسن مرجع.
(٨٢) فى نسخة [لقد جاءتنى].

وسلم ووعده على ذلك جزلا ، وقيل لابن عون أتحب الدراهم؟ قال : نعم قيل : لم ذاك قال لأنها تنفعنا .

وقال كعب (٨٣) رضى الله عنه «أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه السلام» (٨٤) وقال لاتصلح المعيشة إلا بهما .

وعن وهب بن منبه الدنانير والدراهم خواتيم رب العالمين وضعها الله تعالى معايش لبنى آدم لا يؤكل ، ولا يشرب إلا بهما من جاء بخاتم رب العالمين قضيت حاجته .

---

(٨٣) هو كعب الأحبار، تابعى، كان فىالجاهلية من كبار أحبار اليهود فى بلاد اليمن ، وقد أسلم متأخراً بعد مقتل سيدنا عمر رضى الله عنه ، وتوفى فى حمص سنة ٣٢ هـ. راجع حلية الأولياء (٣٦٤/٥) والنجوم الزاهرة (٩٠/١) وتذكرة الحفاظ (٤٩/١) .

(٨٤) لم نعثر على هذا الحديث.

[الأصل السادس والستون والمائتان فى أن الله تعالى إنما ينظر إلى القلوب لأن كنوز المعرفة فيها وإلى الأعمال]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وأحسابكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (١).

قال أبو عبد الله إنما ينظر إلى القلوب لأنها أوعية الجواهر وكنوز المعرفة فيها، وينظر إلى أعمال الجوارح، لأن مبتدأ الأعمال من القلوب فإذا نظر إلى الجواهر وجدها طرية سليمة كهيئتها محروسة من آفات النفس، مكنونة عن تناول النفس، وتلمسها شكر لعبده، فزاده فى الجواهر، وبصرلاه بأقدارها وأخطارها حتى يزداد بها غنى.

ومن أستغنى بالله عز وجل، فلا قوى أقوى منه قد أيست (٢) النفس من إجابته إياها وأيس (٢) العدو من غوايته وإنما ندب (٦) العبد إلى التقوى وصار العبد لله وليا بأن حرس ما فى قلبه من المعرفة لله، وصبره فى وقاية من آفات النفس، فلا تصل إليه آفاتها من أجل صون تلك

---

(١) مسلم فى «صحيحه». كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (١٩٨٦/٤). وابن ماجه فى «سننه» كتاب الزهد. باب القناعة (١٣٨٨/٢). وأحمد فى «المسند» من حديث أبى هريرة (٢٨٥/٢). والبيهقى فى الأسماء والصفات ص ٤٨٠ من رواية أبى هريرة.

(٢) أيس: يئس.

(٣) ندب العبد: استحثه وأمره.

الجواهر فإن العدو يأتي بأضدادها يريد أن يضعهـا في تلك الأمكنة وينفى عن قلبه ماوضعه الله تعالى، فإن لم يقدر على النفى غطاه بما أورد عليه، بمنزلة رجل في يده جواهر، ودنانير فأكب عليه خائن مخادع (٤) يصحبه، ويخالطه في الأخذ والإعطاء فإذا أخذ منه جوهرا، لينظر إليه يأخذ ياقوتة حمراء.

فلا يزال يقلبها في كفه ينتظر بلاهته، ويلتمس غرته (٥) حتى يبدله بها خرزة حمراء صافية تشبهها، وصاحبه قليل البصر بالجواهر إنما معرفته بها ماينظر إليه من ظاهرها ويأخذ منه لؤلؤة فيبدل بها عظما صافيا يشبهها ويأخذ منه فيروزجا فيبدله بخزف ملون أزرق صقيل (٦)، ويأخذ منه زمردة فيبدل بها فلقة من جوهر الزجاج، ويأخذ منه دينارا فيبدل به فلسا أصفر مدورا.

فهو لا يعرف من الدينار إلا صفرته، وتدويره وكتابته ومن الزمرد إلا خضرته، ومن اللؤلؤة إلا بياضها، ومن الياقوتة إلا حمرتها فإذا رأى مثلها من الهيئة لم ينكر ذلك فكذلك هذا الموجد أعطى المعرفة ليوحد ويتوجه إلى الواحد ويقبل على الواحد، ويبذل نفسه له عبودة، ويأتمنه على نفسه، ويتخذه وكيلا، ويفوض إليه أموره ويترك التدبير عليه، ويثق به ويركن إليه ويتذلل لربوبيته، ويتواضع لعظمته، ويتزين لبهائه ويتخذه عدة لكل نائبة من دنيا أو آخرة، فلما رأى العدو ذلك حسده، وشمر لاستلاب (٧) ما اعطى العبد فلم يقدر أن يكابر، ويستقبله بالقهر كما

(٤) مخادع: مخاتل.
(٥) غرته: غفلته.
(٦) صقيل: مصقول.
(٧) استلاب: سلب.

قهر الكفار، وكابرهم (٨) ولكنه خادعه (٩) وأخفى خداعه في ظل النفس فهو يوسوس إلى النفس والنفس توسوس إلى القلب.

فإذا كان القلب أبله، ورفض الكياسة وكان مستثقلا في نوم البلاهة والغفلة انخدع لما يورد العدو فاورد على توحيده شرك الأسباب بدلا وبالتوجه إليه توجها إلى أولياء الأسباب، وبالإقبال إليه إقبالا على أحوال النفس ويبذل النفس له عبودة بذل النفس لها وشهواته وبائتمانه على نفسه أئتمان ما جمع وحوى من الدنيا وباتخاذه وكيلا اتخاذ علمه، وبصره، وحذقه بالأمور وكيلا بالتفويض إليه تفويض في تدبيره وقوته مقتدراً وبالركون إليه ركونا إلى خدمة فليس ما أعطى من الكنوز بهذه الأشياء فانقطعت قوته، ومادة معرفته من الله تعالى فإنه مغبون أعظم غبنا من هذا فبعداً له لأنه قد ترك نصيحة الله له فإنه أنزل عليه نصيحته تنزيلا. فقال:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ (١٠)

فإنما يذكر الله تعالى من وحده في جميع أموره دينا ودنيا، وتوجه إليه في جميع نوائبه (١١) وحوائجه وأقبل عليه بكل همومه وبذل له نفسه بذل من يعلم أنه مملوك مخلوق من تراب، ممنون عليه بخلقه، وبعظائم المنن، وأئتمنه على نفسه سكونا إليه واتخذه وكيلا؛ فاستراح من المخاوف، وفوض إليه وقعد ببابه ينتظر خروج تدبيره إليه وركن إليه

---

(٨) في نسخة [يكابدهم] وهو تحريف خطير من الناسخ.
(٩) خادعه: ختله وغره.
(١٠) المنافقون (٩/٦٣).
(١١) نوائبة: مصائبه، جمع نائبه.

ركون من استند إلى جبل شامخ لا يقدر أن يؤتى من قبله، واطمأن فمن ألهاه حب ماله، وولده عن ذكر الله بهذه الأشياء فخسرانه أعظم من أن يوصف لأنه خدع فأبدل بما أعطى من الجواهر الخرز والخزف، والزجاج، والعظام، والفلوس، فليت شعرى (١٢) فى أى واد بقى توحيده وفى أى واد هو أولئك ينادون من مكان بعيد (١٣).

عن أبى معبد بن حبان أو عن حبان بن حجر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يأتى على الناس زمان القرآن فى واد وهم فى واد غيره» (١٤) فإنما صار فى واد لأن جواهرهم ودنانيرهم قد صارت خرزا وخزفا، وفلوسا وعظاما، وزجاجا. فالقرآن كلام رب العالمين جرى إليهم من أصل الجواهر ليعقلوا عنه كلامه بأنوار تلك الجواهر فإذا خدعهم العدو بنفخة الكبر فيهم ونفثة الشهوة، وسلطان الهوى، صارت هذه الأشياء بدلا فلم يوجد للخرز والخزف والفلوس أنوار تشرق ليستنير الصدر لكلام رب العالمين أويتراءى لعين الفؤاد فى ظلمات الكبر تلك المعانى، واللطائف، هيهات! ما أبعد ما وقع القوم أنخدعوا للعدو بخيانة نفوسهم حتى أهلكهم.

قال الله تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ (١٥)

---

(١٢) ليت شعرى: ليتنى أعلم.

(١٣) فصلت (٤١/٤٤).

هؤلاء الذين ينادون من مكان بعيد قليلو الفهم، لأنه يقال للرجل القليل الفهم: أنت تنادى من مكان بعيد، ويقال للفاهم: أنت تسمع من قريب. راجع جامع البيان (٢٤/٨١) والقرطبى (١٥/٣٦٩).

(١٤) من الغفلة.

(١٥) الأعراف (٧/١٤٦).

تلك قلوب عز ربى وجل عن أن ينظر إليها حتى يزين فيها الخرز والحصى، والخزف بدل والفلوس تلك الجواهر، وتلك قلوب صرفها الله عن آياته، ودلائله فعميت ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور تلك قلوب [16] أعرض الله عنها وشغلها بما كثر عليها من دنياها الخربة من زينتها ولهوها ولعبها ومتاع غرورها، تلك قلوب فرحت بنفسها ودنياها الدنية وشهواتها الردية فطمسها الله عن الفرح به، والقلوب المطموسة معرض عنها خالقها.

قال الله تعالى:

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ [17]

وإذا أعرض الله عن قلب صار الصدر كنهار غربت شمسه وإذا أظلم الصدر انقبض القلب، وذبل وافتقر وصار أسير النفس فالفرح بالله برد يطفىء حرارة النفس وشعاع ينير الصدر وحياة تهزم جميع الشهوات، ولطافة [18] تجرى فى جميع عروقك حتى تتأدى [19] إلى مخ أعظمك، وحلاوة تسكرك عن كل حلاوة دونها، ولذة تلهيك عن كل لذة دونها، وبشرى يغرق فيها جميع آمال قلبك، وهيمان فى تلك البشرى يدق الدنيا والآخرة فى جنبها، والفرح بأحوال النفس له حرارة تحرق وجه القلب، وساحته، وهى الصدر حتى يصير للقلب حزونة كحزونة [20] الأرض فيصبح حزينا على فوت الدنيا.

---

(١٦) أعرض عنها: أشاح بوجهه عنها.

(١٧) النساء (٤٧/٤)

نطمس وجوها: نمحو مافيها من عينين وأنف وحاجب وفم، فردها على أدبارها: نصيرها كأقفائهم.

(١٨) لطافة: خفة.

(١٩) تتأدى تنتهى.

(٢٠) حزونة الأرض: ضد السهولة.

روى عن أبى جعفر محمد بن على رضى الله عنه: من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطا على ربه. وعن فرقد السنجى قال: قرأت فى التوراة (٢١) من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطا على ربه، ومن تضعضع (٢٢) لغنى ذهب ثلثا دينه، ومن نزلت به مصيبة فشكاها إلى الناس فإنما يشكو ربه، والفرح بأحوال النفس إذا إضطرم عليه نيران الحرص امتلأ الجو من دخانها حتى يصير صدره كالليل الدامس (٢٣) وتعمى بصيرته (٢٤) والفرح بأحوال النفس له سلطان يميت القلب، ويحيى النفس وتهتز الشهوات بتلك الحرارة فهو يستحيى من الخلق، ولا يستحيى من خالقه، كما قال فى تنزيله:

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ (٢٥)

وله حلاوة تسكر عن الله وبرد كبرد السم يدب (٢٦) فى العروق، ويحذر عن الإيمان بالله، ويصيرك كأنك خال عنه ويشتمل على روحك حتى يتغير إلى طبع النفس، وكدورتها وله لذة تلهيك عن الله تعالى، وعن يوم الميثاق، ويوم الميعاد لوفاء الميثاق وله آمال كاذبة وأمانى خادعة يهيم فيها هيمان المحتلم يثب على كل مفروح من الدنيا وثبان المحتلم على جارية قد عشقها فإذا انتبه وجد نفسه عما وثب إليه خاليا،

(٢١) وردة فى إحدى النسخ [النوبة] وهو تحريف من الطابع.
(٢٢) تضعضع: تخاذل وتصاغر.
(٢٣) الدامس: الشديد العتمة.
(٢٤) أخطأ المؤلف ـ رحمه الله ـ فى قوله عمى البصيرة، فإن الحقيقة أن العمى لا يكون إلا للبصر، ويقال للآخر عمه البصيرة.
(٢٥) النساء (٤/١٠٨).
(٢٦) يدب فى العروق: يسرى فيها.

وفى فراشه بائلا كذلك الفرح بالدنيا إذا قبض روحه يجد نفسه خاليا من أفراح النفس ودنياها يقدم على ربه جنبا قد بال فى دينه، وعبوديته وراث فيها كروث (٢٧) الحمار الذى قد حمل عن الله أسفارا على ظهره من قبل أن يتطهر بماء الندم، والكيس نظر إلى هذه الحال فاقشعر منها، ورجع إلى نفسه فوجدها كريمة حرة تنقاد، وتسلس بلا كزازة (٢٨) فقام على الساق متشمرا فى تصفية قلبه، وتطهيره، ليرق ويجلى فإن المرآة إذا جليت فقابلها نور الشمس تولد من بينها إشراق

يضيء البيت منه فكذلك القلب إذا جلى ثم يلاحظ نور الملكوت (٢٩) أضاء الصدر وامتلأ من شعاعه فأبصرت عينا الفؤاد باطن أمور الله فى خلقه فذاك قلب قد استكمل الزينة والبهاء بما سبق من الطهارة والصفاء، فصار قلبه موضع نظر الله من بين خلقه فكلما نظر إلى قلبه زاده به فرحا، وله حبا ومنه قربا واكتنفه (٣٠) بالرحمة.

عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله تعالى فى الأرض أوانى ألا وهى القلوب، فأحبها إلى الله أرقها وأصفاها وأصلبها أرقها للإخوان وأصفاها من الذنوب، وأصلبها فى ذات الله فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه» وإنما يصلح إذا سكنت النفس بشهواتها والهوى بجنوده، واطمأن القلب أميرا على الجوارح نافذا سلطانه فعندها يحظى العبد من الله الحنان فإذا تحنن عليه، وجد القلب ريح الرأفة فيزداد طمأنينة إلى ربه واهتاجت آماله فيأخذ فى السير إليه فعنده تظهر الكنوز وإذا استغنى القلب بالكنوز وصل

---

(٢٧) روث الحمار: خبثه.
(٢٨) الكزازة: الانقباض.
(٢٩) الملكوت الغيبى غير المرئى.
(٣٠) اكتنفه بالرحمة: شمله بها.

العبد إلى زينة الأعمال وإنفاق الكنوز لمحاسن الأخلاق ومحمود الفعال فعند ذلك ينظر الله إلى قلبه وإلى عمله.

[الأصل السابع والستون والمائتان فى فضل العلم بالله]

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : أى الأعمال أفضل ؟ قال : العلم بالله. ثم أتاه فسأله فقال له مثل ذلك قال : يا رسول الله إنما أسألك عن العمل قال : إن العلم ينفعك معه قليل العمل وكثيره ، فإن الجهل لا ينفعك معه قليل العمل ولا كثيره (١). قال أبو عبد الله رضى الله عنه : فالعلم ثلاثة أنواع علم بالله وعلم بتدبير الله ، وربوبيته وعلم بأمر الله .

وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال : العلماء ثلاثة عالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله كان عيسى عليه السلام جعل العلم بتدبيره وربوبيته مع العلم بالله علما واحدا وإنما صيرناه ثلاثة أنواع لأنا أردنا أن يتميز عند من لا يعقله علم الله من علم التدبير لأن علم التدبير للعباد ، وهو داخل فى باب العبودة ، وعلم الله هو الثناء الذى يظهر على الألسنة من القلوب فالعلم رأس كل أمر ، وخلق الله الخلق أصنافا ثم أعطى كل شىء علمه الذى

---

(١) ابن عبد البر « جامع بيان العلم وفضله ». باب جامع فى فضل العلم (٤٥/١) من رواية أنس.. وقال : وقد روى مثل هذا عن عبد الله بن مسعود أيضا باسناد صالح . السيوطى فى « الجامع الصغير » (٤٩/١) وعزاه للحكيم الترمذى عن أنس . ورمز له بالضعف . الزبيدى فى « اتحاف السادة المتقين » (٨٥/١) وقال العراقى : أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف .

ينبغى له فبالعلم يعرف ربه، وبالعلم يعبد ربه، وهو جواب موسى عليه السلام لفرعون حيث قال: «فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» (٢).

أى أعطاهم خلقهم، ثم هداهم من خلقهم ومن كونهم ومن يملكهم، وبمن قوامهم فالهدى: هو العلم الذى أعطى كل شيء من خلقه حتى هداهم إلى نفسه؛ فالعرش فمن دونه إلى الثرى (٣) كلهم أعطاهم خلقهم ثم عرفهم نفسه، وهداهم خلق كل شيء، فوضع فيه الحياة وأعطاهم العلم به واقتضاهم القنوت له فقال تعالى:

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ (٤)

والقنوت الركود بين يديه فى مقامه الذى أقامه ثم بدأ خلق آدم عليه السلام، وذريته فجعل الأشياء سخرة للآدميين، وضع فيها تلك الأشياء التى فيها منافع الآدميين وقوام معايشهم، وأعطاها علم إخراج ذلك إلى الآدميين بمقدار معلوم ووزن معلوم، وفى وقت معلوم، وفى موضع معلوم، فالعرش مقصد القلوب، والسموات ظلال أبدانهم، وموضع أرزاقهم، وتدبير أمورهم بما فيها من الشمس، والقمر، والنجوم والرياح والحر والبرد والليل والنهار ومافى الأرض كلها سخرة لبنى آدم فهم كلهم إلى الثرى (٥) مسخرون، موكلون بإخراج ما وضع فيهم من المنافع إلى الآدميين وأعطاهم العلم على قدر ذلك من الحاجة إلى إخراج السخرة

(٢) طه (٢٠/٥٠).
ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه: أى أعطى كل ذكر خلقه مثل الإناث. ثم هدى: أى هدى الذكر لإتيان النساء. راجع غريب القرآن ص٢٧٩.
(٣) الثرى: التراب.
(٤) الروم (٣٠/٢٦).
كل له قانتون: أى مقرون بالعبودية. انظر الطبرى (٢١/٢٣) والبحر المحيط (٧/١٦٩).
(٥) أى مصيرهم إلى العفاء.

إليهم وخلق الآدميين للخدمة، ووضع فيهم أنواره، ليخرج الخدمة لله من باطنه فالحاجة بالآدمى إلى العلم بالله تعالى حسب ماله خلق فانظر كم بين السخرة والخدمة فالسخرة لنا والخدمة لله تعالى.

فلو أن أحدنا أقيم لخدمة ملك من ملوك الدنيا لعظم شأنه، واحتاج إلى علم كثير، وأدب عظيم وكياسة وافرة حتى يصلح لخدمته، ولدوام القيام بين يديه ماثلا ليله ونهاره، حتى لا يضيع شيئا فكيف بمالك الملوك، ورب العزة واله العالمين فعلى حسب ذلك الذى خلقنا له أعطانا من العلم وأوتينا من العلم ماعجزت الملائكة عنه وقالت:

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ (٦)

فعند هذا:

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ (٧)

فنحن خلقنا لما لم يخلق هؤلاء فهؤلاء للسخرة لنا وللوكالة لإخراج المنافع إلينا لنقيم عبودته بأركاننا بقوة تلك المنافع، ولنتمثل بقلوبنا بين يديه على مثال الخدم لا تبرح (٨) قلوبنا بين يديه قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٩)

فلو لم تصل هذه المنافع إلينا من قبل المسخرين الموكلين بنا لشغلت النفوس منا بحوائجها وضروراتها قلوبها فتزيلها عن مواضعها فلا تكاد تثبت

(٦) البقرة (٢/٣٢).

(٧) البقرة (٢/٣٣).

(٨) لا تبرح: لا تزول.

(٩) الذاريات (٥١/٥٦).

يعنى المؤمنين الموحدين، ليوحدونى، ومثل هذا قول الحق تبارك وتعالى: «فأنا أول العابدين» أى الموحدين. راجع الطبرى (٢٧/٢٨) والقرطبى (١٧/٥٥).

فخلق لنا ما فى الأرض جميعا، وسخر لنا مافى السموات فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (١٠)

وقال:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (١١)

فإذا انقضت العبودة ذهب السخرة وأعيد من خلق من التراب، ومن خلق من النار والنور رجع إلى معادتها فعندها يستقبلك منافع لا تنقطع فى دار السلام (١٢) أو مضار فى دار الهوان (١٣) لا تنقطع أما ملكا محبورا (١٤) وأما عبدا آبقا مدحورا (١٥)، فأوتى هؤلاء علم السخرة، وأوتينا علم الخدمة.

قال الله تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (١٦) الآية

فلما نال العلم بالله والعلم بتدبير الله يسرت عليه الخدمة؛ لأن هذين النوعين يهديانه للخدمة، قال له قائل: ما الخدمة وما علمها قال: أما الخدمة فالقنوت بقلبك بين يديه ماثلا منتصبا كالمتشمر فى قراطق الخدمة

(١٠) البقرة (٢٩/٢).
(١١) الجاثية (١٣/٤٥).
(١٢) دار السلام: اسم من أسماء الجنة.
(١٣) دار الهوان: الدنيا.
(١٤) محبوراً: مسروراً.
(١٥) مدحوراً: مهزوما.
(١٦) البقرة (٣١/٢)
قيل إنه علمه الأسماء كلها وهى أسماء ذريته، وأسماء الملائكة دون سائر أجناس الخلق. راجع تفسير الطبرى (٤٨٥/١).

مخفا مبادرا مسارعا، سابقا مركبك فى جميع أمورك، وأما علم الخدمة فعلم البساطين، قال له قائل: وما البساطان قال بساط القدرة، وبساط العبودة، فإذا طالعت بساط القدرة بعقل وافر ثم طالعت بساط العبودة بكياسة، وحذق (١٧) حتى أدركت تدبيره فى العبودة وباطن أمره ونهيه، وعلل التحليل والتحريم، لماذا أحل ولماذا حرم فبعلم بساط القدرة تملك نفسك، وبعلم بساط العبودة تمكل جوارحك، وخواطر قلبك فلم يقتض الله العباد شيئا لم يعطهم فالأشياء كلها من عند الله كان الله ولا شيء معه، فبسط بساط الربوبية من باب القدرة، وبسط بساط العبودة من باب العظمة ثم كان آخر خلقه الإنسان ابتدأ خلقه من التراب، وجمع ترابه بالماء فعجنه، ثم صوره وركب جسده وجعله أجوف ثم وضع فيه الروح والنفس الحياة والقوة والعلم والمعرفة والذهن والفهم والفطنة والحفظ والعقل والكياسة والصبر (١٨) والشهوة والرحمة، والرأفة واللطف، والحب والفرح والغضب والسخط ثم اقتضاه (١٩) استعمال ذلك كله وإبرازه من باطنه إلى ظاهر جوارحه فيكون أعمالا عليها يثاب (٢٠) ويعاقب وفتح لعينى قلبه طريقا إلى المظهر للمعاملة لتفيض منه أرزاقه، وعطاياه، وما يدر عليه من رحمته ومن ربوبيته، وخلق العدو وأعطاه السبيل إلى أحوافنا فيجرى فى عروقنا، ومسكنه فى صدورنا وجعل جنده وعظم قوته فى الهوى، والهوى مثير الشهوات، ودواعى الآدمى إلى مكايد العدو، وغروره، فمن لم يعطه روحا أو قوة أو علما أو ذنا أو شيئا من هذه الأشياء لم يقتضه ما يخرج له من ذلك الشيء كما أنه لو لم يعطك القائمة لم يقتضك الصلاة قائما ولو لم يعطك القوة لم يقتضك

---

(١٧) حذق: مهارة.

(١٨) كذا ورد بالأصول ولكن فى نسخة [والبصر والشهوة] تحريف.

(١٩) اقتضاه: استوجبه، واستعمله.

(٢٠) يثاب: من الثواب، يجازى.

الصوم، ولو لم يعطك المال لم يقتضك الزكاة ولا الحج ولو لم يعطك الكسوة أجزئ عنك الصلاة عريانا، ولو لم يعطك الماء أجزى عنك التيمم فكذلك في الباطن كل شيء لم يعطك لم يقتضك استعماله وإبرازه عنك وكل شيء اعطاكه ووضعه فيك فإنما أعطاك لتبرزه فيكون ربك محمودا (٢١) على ما وضع فيك ناشرا في خلقه جماله ومحاسن فعاله وتكون عليه مثابا مكرما فإذا منعته إبرازك إياه فقد ظلمت نفسك، وضيعتها وضاعت عنك الأشياء التي وضعها فيك من الحياة حيي القلب، وزاد علمه ومعرفته وانبسط ذلك العلم في الصدر وتميزت الأشياء وتدبر العقل في صدره فميز الحسن من السيء فالعلم إلى الذهن، والتدبير والتمييز إلى العقل فجعل للقلب عينين، وجعل لهما طريقا إلى المظهر وهو العرش ومد بصر قلبك إلى مظهر نور العلم بالله والمعرفة لله حتى يرجع بصره إلى صدرك بعلم عزيز وأموره مستقرة يعلم كنهها، وكيفيتها ووضع الشهوات في الجوف ففوران الشهوات لها دخان وغيوم لأنها من باب النار وجالبها ونافلها الهوى فإذا صارت إلى الصدر صار الصدر كيوم مغيم قد حال بين نور الشمس، وبين قلبك فإلى أين تهتدى، وأى طريق تسلك في ذلك الغيم، وأي شيء (٢٢) تتوقى حتى لا تتردى (٢٣) فيه مع ذلك الدخان وأي أرض مشاكه تتجنبها حتى لا تقع فيها وأي مزبلة تحيد عنها، حتى لا تتلوث في أقذارها فإذا سكنت الغيوم، وذهب الفوران، وبرزت الشمس، فأشرقت اهتديت للطريق وتتجنب الآفات لأنها صارت رأى العين، فإذا ذهبت الغيوم، ورميت ببصر العين الذى على الفؤاد امتد البصر إلى ذلك الذى جعل لك الطريق إليه؛ فجلت ببصر

---

(٢١) في نسخة أخرى [فتكون عند ربك محموداً].
(٢٢) تتوقى: من الوقاية.
(٢٣) التردى: الوقوع في المهالك.

عينك(٢٤) في ملكوت العرش فرجع إلى القلب بالعجائب من تلك المشاهد، ووقفت على تدبير عظيم من أمر الله تعالى في شأنك، فكل حركة ظهرت منك فإنما يظهرها الحياة وكل حركة ظهرت منك بغير ذكر الله عز وجل، فقد فاتك من الخدمة بقدرها وبقسطها يفقدك ذكر الله تعالى إياك.

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت لم يذكروا الله فيها» روى ذلك معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سيروا سبق المفردون قالوا يا رسول الله، وما المفردون قال هم المستهترون بذكر الله حط الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا»(٢٥) وعن أبي جعفر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أشد الأعمال ثلاثة ذكر الله على كل حال، ومواساة الأخ من مالك، والإنصاف من مالك» فأدوم الناس على الذكر أوفرهم للخدمة لكنا لا نقدر على مداومة الذكر مع كل طرفة، ومع كل نفس إنما هذا للملائكة الذين عروا(٢٦) من الشهوات، ونحن لا نقدر على ما قدرت عليه لأن آفات الجسد من الجوع والعطش والآلام تشغلنا وتذهلنا فرضي منا عز وجل أن يكون ذكره مع استعمال كل جارحة(٢٧) لا مع كل حركة، وتلك الجوارح السبع الكواسب(٢٨) للخير والشر وهي السمع،

(٢٤) جولان البصر يكون في الملك لا في الملكوت كما ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فلعله قد حمل ذلك على سبيل المجاز.

(٢٥) تقدم ذكره.

(٢٦) عروا من الشهوات: عراة منها.

(٢٧) جارحة: عضو، والجمع جوارح.

(٢٨) الكواسب: جمع مفرده كاسب.

والبصر واللسان واليد والقدم والبطن والفرج ، فإذا ذكرنا مع تحريك كل جارحة بخير فرضى به ذكرناه بنعمة تلك الجارحة علينا فهذا ذكر يترقى به (٢٩) العبد درجات حتى يبلغ منازل المقربين الذين يدوم ذكرهم على كل حال لأن قلوبهم قد ملكتها عظمة الله عز وجل ، وسبتها (٣٠) محبته .

وأما من دونهم فإذا حرك جارحة من هذه الجوارح السبع بتلك الحياة التى فيها فإنما يحركها بالقلب والقلب أمير وذلك التحريك منه استعمال لها فإذا قصد الخير فإنما يقصد ذكر الله وإياه أراد ، وإذا قصد الشر بما دعاه إليه الهوى والشهوة ، فقد حاد عن الله تعالى واستعمل أمارته فى طريق الجور (٣١) فجار على جوارحه ، وظلم نفسه حيث أرادها وأوجب لها النار وحرمها ثواب الله والحركات التى ذكرنا أولا التى خرجت من أركانه من غير استعمال لها بقلبه مع كل نفس ، ومع كل طرفة لا تبعة عليه فيها لأنها حركات الحياة ليس فيها أمر ولا نهى مثل نظرة الفجأة لأن عينيك مفتوحتان فليس عليك تبعة فى وقوع بصرك على الأشياء التى تراها بأول النظرة حتى تستعمله بقلبك وكذلك تقلبك فى مقعدك من قبض يد وبسط ، واتكاء واحتباء (٣٢) وأشباه ذلك لاهذا مما لا يمتنع منه الآدمى من الحركات فإن ظهرت منك فى ساعات تمر بك فإن كان قلبك غافلا عن الله كانت خدمة قد فاتتك وثواب ضاع عنك المنعم يجرى عليك رزقه ويذكرك بادرار نعمه عليك ، وقد ضيعت فى ذلك الوقت الخدمة فهو فى ذكرك وأنت عنه فى غفلته فإن لم تتبع

(٢٩) يترقى : يسمو.
(٣٠) سبتها : أسرتها ، من السبى وهو الأسر.
(٣١) الجور: الظلم .
(٣٢) الاحتباء : الجلوس على الاسناه ، يقال احتبى بالثوب : أى اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم الحبوة . راجع القاموس المحيط للفيروز ابادى (٣١٦/٤) .

بالتبعات؛ لحقتك الحسرة الى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما يتحسر(٣٣) أهل الجنة فى الموقف لا فى الجنة لما عرضت عليهم أيام الدنيا وماذا خرج لهم من ذكر الله تعالى، أما ثواب عمل الأركان من قصور الجنة ونعيمها، وثواب الذكر من فرح الله بالعبد، وحبه له وتقريبه والبسط منه، ثم نظروا إلى الساعة الأخرى التى لم يذكروا الله فيها وقد حرموا ثوابها، والمسخرون قد عملوا أعمالهم وأوصلوا منافع السخرة إلى هذا الآدمى، فضاعت الخدمة عن الآدمى بقدر ما غاب عن قلبه ذكره ولو طرفة أولحظة وذلك موضوع عن الآدمى لأنه خلق فى غيب الملائكة فى جهر وكشف وعروا عن الشهوات والآدمى مبتلى بها فهو نساء خطاء عجول و فلما خلق الله تعالى خلقنا هكذا! رحمنا وعطف علينا فأعطانا فى القلوب من العلم به ما أنبأنا فى كتابه أن الملائكة عجزت عن ذلك العلم

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ (٣٤)

فالملائكة يطالعون بعيون أجسادهم ما تحت العرش وقلوب الآدميين تطالع ما وراء الحجب من عظائم الأمور التى لا تدور الألسنة بذكرها ثم الآدميون على ضربين (٣٥) ضرب أهل القلب حتى خرجت الحركات منه بغير ذكر ولا نية فيما أذن الله له من الأكل والنوم والشرب فهو فى ذلك الوقت مضيع للخدمة بطال فتعظم حسرته، والضرب الآخر أهل القلب حتى خرجت حركات فى أمر لم يأذن به الله تعالى، فصار ذنبا ومعصية فذهب العبد بالرقبة أكل رزقه وأبق فاجتمع عليه أمران: فوت ذهاب الخدمة وعار الاباق فهو أعظم حسرة، وأشد عقوبة فلما علم الله

---

(٣٣) يتحسر: يتلهف ويندم.

(٣٤) البقرة (٢/٣٢).

(٣٥) ضربين: نوعين.

تعالى أن ذلك نازل بعبيده لم يؤيسهم (٣٦) من رحمته بل ترك لهم بابين مفتوحين: باباً عن اليمين وهو باب التوبة، وبابا تجاهه وهو باب الدعاء وبسط يده فتركها مبسوطة لمن رجع إليه، وبايعه على رد الرقبة وبذل النفس.

عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام باسط يده لمسيء النهار أن يتوب بالليل، ولمسيء الليل أن يتوب بالنهار، حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره» (٣٧) فإذا تاب وأقام على سواء الطريق اشرق له نوران: نور الحق ونور العدل فنور الحق يمنعك عن الباطل، والمعصية، ونور العدل: يمسك عن الميل فى الحق وهو أن تكون فى الطاعة مرائيا (٣٨) أومتصنعا أومداهنا فتذهب عن الاستقامة وهو قوله تعالى:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (٣٩)

فإذا ظفرت بهذين النورين، وكانا لك فلزمتها فأنت فى كل أمر يحدث يخرج حركاتك إلى الجوارح من قلب محق عدل فهذا قد أكل رزقه، وقبض منافعه من المسخرين، وأدى إلى الله تعالى خدمته وفى خلال ذلك يستغفر للتقصير الذى يتخوف منه فلم يبق للسموات والأرض، ولا للشمس، والقمر والليل، والنهار عليه تبعة ولا خصومة ومن كان بخلاف ذلك فهؤلاء كلهم خصماؤه فويل له من أرضه التى يدفن فيها ماذا تعمل به وكيف تعصره عصرا وكيف تضغطه ضغطا، ومن سمائه

(٣٦) يؤيسهم: يجعلهم يائسين قانطين.
(٣٧) من شدة النور.
(٣٨) مرائيا: مصانعا، مداهناً.
(٣٩) الأعراف (١٥٩/٧).

التى يصعد بروحه إليها ومن ملائكة الله حيث يمر بروحه عليهم (٤٠) ومن جميع خلقه المسخرين له يقولون قد استرحنا من هذا العبد الآبق.

(ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مستريح ومستراح منه) فالمستريح من غفر له والمستراح منه من هؤلاء خصماؤه يقولون أوصلنا إليك السخرة فأين الخدمة فمن تاب وتطهر تولاه الله تعالى، واتخذه حبيبا كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٤١)

ثم أرضى عنه خصماءه (روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ينادى مناد يوم القيامة ألا من كان لله وليا فليعتزل ثم يقول أنا ضامن لمن ادعى قبلهم حقا) فهؤلاء الذين ضمن لهم آدميون ونادى جبريل عليه السلام بحب الله له فبرأه من تبعة أهل السخرة.

(ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاتكم علىّ معروضة يوم الجمعة فأكثروا على الصلاة فقال قائل كيف وقد رممت فقال: إنا معاشر الأنبياء حرم الله على الأرض أجسادنا أن تأكلها)(٤٢) أخبر عن حال الأنبياء عليهم السلام أن الأرض تبرأت منهم ولم تتبعهم بما أكلوا فيها لأنهم تناولوا ما تناولوا منها بالحق والعدل.

(يحقق ما قلنا حديث جابر بن عبد الله أن شهداء أحد لما نقلوا عن قبورهم إلى موضع آخر فى زمن معاوية حيث أراد أن يجرى الماء فى ذلك الموضع أخرجوا عن قبورهم بعد نحو من أربعين سنة رطابا حتى

---

(٤٠) بكيفية لاتعلمها.
(٤١) البقرة (٢/٢٢٢).
(٤٢) تقدم هذا الحديث.

أصابت المسخاة قدم حمزة رضى الله عنه فانبعث دما طريا) وقد حذر الله (٤٣) عن الميل عن الحق واتباع الهوى. قال تعالى:

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٤٤)

أعلمنا أن نسيان يوم الحساب يجرئنا على استعمال (٤٥) الهوى، وترك الحذر من العمل بالهوى وأعلمنا فى آية أخرى أن فى يوم الحساب إبلاء السرائر (٤٦) واستخراج حاصل الصدور (٤٧) فإن قال قائل: إن الله تعالى وضع فى علما ومعرفة وقوة وذهنا وغير ذلك من الأشياء، ولكن منعنى الإذن فبقى هذه الأشياء فى غير عاملة، ولا مستعملة فمن حجة الله تعالى أن يقول إنما أعطيتك هذه الأشياء ووضعتها فى وعائك، والوعاء هو القلب، والنفس فإذا ذهبت بقلبك، ونفسك عنى، وأقبلت على الشهوات واستعمال الهوى فقد ذهبت بالنفس، وبما فيها من هذه الأشياء الموضوعة فيك، وهى نعم منى فيك فلما غيرت بأن ذهبت بنفسك انقطع الإذن وبقيت الأشياء غير عاملة وقال فى تنزيله:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٤٨)

(٤٣) الميل عن الحق: الزيغ والجور وفى نسخة [يحذرنا عن استعمال].
(٤٤) ص (٣٨/٢٦).
(٤٥) نتيجة الغفلة، وعدم استحضار مشاهد هذا اليوم.
(٤٦) إبلاء السرائر: اختبار الدخيلة.
(٤٧) حاصل الصدور: ما أُضمِرَ فيها من بواطن الأمور.
(٤٨) الأنفال (٨/٥٣).

وإذا ذهبت بروحك وحياتك وقوتك وعلمك وذهنك وفهمك وفطنتك وحلمك وبصرك وكياستك فازجتها بالهوى، والهوى دنس قد خرج من النار ومر بالشهوات فاحتملها إلى شهوتك الموضوعة فى نفسك فأثارها فاغبر(٤٩) عليك صدرك، وبقيت عينا الفؤاد فى الصدر فى ذلك الغبار تائهة فغيرت النعم بأن قطعت الإذن عنك فإن وقفت نفسك بين يدى بما فيها من الأشياء الموضوعة فقد بذلت نفسك لى، وصرت أمينا من أمنائى، فأذنت للأشياء الموضوعة فيك إذنا عاما لا يحتاج إلى أن تستأذننى فى كل أمر مثال هذا العبد المحجور الذى لم يوثق بأمانته فإنه يحتاج فى كل تصرف إلى إذن خاص، ولا يلزم السيد ضمان ما استدان بغير إذنه بل تعلق رقبته فيه يوم العتق، والعبد الذى يوثق بامانته يكون مأذونا مطلقا تاجرا أمينا فلا يحتاج فى كل تصرف إلى إذن خاص، وكل ما يركبه من الديون يلزم السيد كذلك عبدى المتهم الذى لا يبذل لى نفسه أحجر عليه لأضبطه أما إذا بذل لى نفسه، وتخلى عن الهوى والشهوة اجتنبته(٥٠) وهديته كما وصف خليله شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه فهو فى قبضة الله يستعمله على مشيئته، ومحبته فإذا نطقوا فيه نطقوا وإذا نظروا فيه نظروا، وإذا سمعوا فيه سمعوا وإذا بطشوا فيه بطشوا، وإذا مشوا فيه مشوا، وإذا تدبروا فيه تعلقوا كذلك جاء عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل صلوات الله عليه عن الله تبارك وتعالى قال: وما بذل النفس لربه قال: أن يترك جميع مشيئاته لمشيئته فإن الله تعالى خلقه لما شاء لا لما شاء العبد، ودبر له من أمر دنياه ما علم أن صلاحه فيه فإذا ترك العبد مشيئته فصارت عينا قلبه شاخصتين(٥١) إلى ما يبرز له

(٤٩) أى أسود عليك.
(٥٠) اجتبيته: اصطفيته.
(٥١) شاخصتين: مفتوحتين لا تطرفان.

من الغيب فرضي به ، وقد فوض إليه قبل ذلك أموره فقد بذلك له نفسه ، وزالت عنه التهمة وصار أمينا من أمنائه ، فأذن لجميع ما وضع فيه أن يعملوا أعمالهم فى الباطن ، ويؤدوا إليه ثمراتهم فصار عبدا مأذونا تدور رحى حركاته بالقطب وهو الإذن وعند ذلك صارت مشيئه ربه فى مشيئته ، فمتى ما شاء شيئا نفذه ، وكان ذلك الشيء الذى شاء العبد مشيئة ربه فهو الذى يقسم على ربه .

(عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه (٥٢) به لو أقسم على ربه لأبره) (٥٣) فإن كان من حجة العبد أن يقول وضعت فى العقل ، والعلم والقوة والحياة ولكن حبست عنى الإذن وهذه الأشياء كلها جنود (٥٤) القلب ، والقلب أمير فمن حجة الرب تعالى أن يقول إنى وضعت هذا فيك لتكون النفس لى وقائمة بين يدى فتجانت ، وزاغت ولم تنظر إلى مشيئتى وتدبيرى الذى سبق خلقها والخائن كالعبد المحجور يطلق له الإذن فى شيء ولا يطلق فى شيء لأنه يفسد ولا يضبط قال تعالى فى تنزيله :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (٥٥)

فالإذن للنفس بما وضع فيها فإن قال العبد مخاصما فهل أقدر أن أبذل نفسى وأترك مشيئتى إلا بما تعطينى فإنك وضعت فى الشهوات وإنما زاغت بى حلاوة شهواتى ، وقوة هوانى (٥٦) فمن حجة الرب تعالى أن

---

(٥٢) لا يؤبه به : لا يكترث له .

(٥٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ، وأخرجه غيره عن أبى هريرة رضى الله عنه وذكره صاحب التميز ص ٨٠ .

(٥٤) فى نسخة أخرى [جنود العقل] وهو تحريف من النساخ .

(٥٥) آل عمران (٣/١٤٥) .

(٥٦) الهوان : الذل والضعة .

يقول أعطيتك حلاوة معرفتي وقوة الحياة بي، وقائمة من عندي وتعلقا بحبلي فهلا جررت حلاوة شهواتك إلى حلاوة معرفتي بقوة تلك الحياة (٥٦) وبثبات تلك القائمة ورسوخ قدمك في القائمة، حتى تنغمر حلاوة شهواتك في حلاوة معرفتي، وتعلقك بحبلي حتى لا يقدر الهوى أن يمد بك فههنا تنقطع الحجة وتتحير العبيد فالمؤمنون منَّ الله عليهم في السير بمشيئته، وليس لأحد في المشيئة منازعة أن يقول لم شئت لفلان ولم تشأ لي (٥٧) وكذلك المحبة فخلق الله الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره، فلما أصاب من أصاب بمشيئته وأخطأ من أخطأ بمشيئته فقد علم من بصيبه ممن يخطئه، فلما أبرز السلطان النفر الذين لم ينالوا من ذلك الرش شيئا فتباعدوا فلما خرجوا من صلب آدم عليه السلام، خرجوا سودا عميا عن الله فأقروا به كرها على وجه التقية وذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ (٥٨)

كذلك هؤلاء الموحدون أعطاهم كلهم آلات الطاعة في الباطن، من العلم والذهن والعقل ثم لم يعطهم ما به يبذلون أنفسهم له حتى لا يشاءون شيئا إلا ما شاء الله من أجل الشهوات التي ركبت فيهم لأن للشهوات حلاوة وحبا وإنما أعطى ذلك من بذل نفسه لله، وقطع عن نفسه حب الشهوات مجاهدا لنفسه ومحاربا لهواه مادا بقلبه إلى ربه ضرعا (٥٩) باكيا تجرى دموعه على خديه، فمرة يجثو (٦٠) ومرة

---

(٥٦) ورد في نسخة [تذكاوة تلك الحياة].
(٥٧) لأن هذا اعتراض على المشيئة بما لا يليق وقدسيتها.
(٥٨) آل عمران (٨٣/٣).
(٥٩) ضارعا: ذليلاً.
(٦٠) يجثو: يجلس على ركبتيه غير مستقر.

ينتصب (٦١) ومرة يضع خده بالأرض (٦٢) ومرة يدعو، ومرة يتملق (٦٣) حتى رحمه ربه واطلع على صدق بذله فمن عليه بذلك الحب الذى هو أصل الحب عنده فأحياه بذلك وأذاقه من حلاوته ما جرف (٦٤) كل حلاوة فى نفسه كالسيل الذى يجيىء فيجرى بالكناسات، وما فيها وبالمزابل بما فيها من الأقذار والميتات (٦٥) فصارت بقاعا طاهرة فكذلك صدر هذا العبد بما نال من هذا الحب فذهبت مشيأته بحب خالقه فصار مأذونا بجميع ما فيه من الأشياء الموضوعة فيه حتى أينعت (٦٦) ثمراتها ونورت عمالاتها على الجوارح ثم صيره فى أحوال الدنيا مقسما على ربه فى ملكه.

قال الله تعالى:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ (٦٧)

فرتب لتارك المشيئة مرتبة القسمة أن يتناول من ملكه حاجته من خزائن تلك الحاجة بقلبه ثم برفعه إلى ربه متمسكا ينتظر مشيئه فيجعل الرب مشيئته فى مشيئة عبده (فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أقسم على الله لأبر قسمه) فأقسامه أن يأخذ العبد من القسمة بمشيئته فيمضى أخذه وأقاسمه فهذا الحب (٦٨) بمشيئته يعطى، وبمن ليس لأحد

(٦١) ينتصب: يقوم مستقيماً.
(٦٢) أى من الذل.
(٦٣) يتملق: يداهن.
(٦٤) جرف: اكتسح وأزال.
(٦٥) الميتات: جمع الميته.
(٦٦) أينعت: نضجت.
(٦٧) الزخرف (٣٢/٤٣). راجع البحر المحيط لأبى حيان (١٣/٨).
(٦٨) فى نسخة [فهذا الحكم] وهو تحريف خطير من الناسخ.

أن يقول لم شئت له ولم تشأ لى، ولم أحببته، ولم تحبنى.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى إذا أحب عبدا قال: يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل عليه السلام فيوضع له القبول فى الأرض» فاعلم بالله يؤدبك فى باطنك والعلم بتدبير الله يؤدبك فى ظاهرك قال له قائل: كيف يؤدبه فى الباطن قال: يجعل ذلك العلم مراقبا لله، فيقف به على حدود المراقبة فى الأمور كلها ويورثه الحياء(٦٩) منه، ويقف به على مهابة أسرار الله، ويرض نفسه رضا فى أثقال الأعمال حتى يؤديه إلى التعلق به فى كل الأحوال قال: فكيف يؤديه علم التدبير فى ظاهره قال: إذا علم التدبير تصور له صور الأعمال فرأى مرات الأعمال عند الله فالصلاة إقبال العبد على الله والزكاة فرار من شرك النفس والصوم وثاق(٧٠) النفس ورباطها لله، والجهاد حمية وتعصب لله، والحج وفاء البيعة الأولى وتجديد بيعة أخرى، والجمعة قبول ضيافة الله وتناول جوائزه، والأعياد اعتراض العبيد على الله، ومجالس الذكر تملق العبيد لله ومرتع فى رياض الله ومؤاخاة المؤمنين ومعاملاتهم مرمة عسكر الله، والدعاء إلى الله نصيحة الله، والرغبة إلى الله افتقار العبد إلى الله، فانظر إلى ما نطق به التنزيل وإلى ما جاءت به الأخبار عن الرسول عليه السلام من ثواب هذه الأشياء وحسن الجزاء هل يشبه بعضه بعضا، فإذا نظرت إلى ذلك علمت أن بينهن تفاوتاً(٧١) وإنما اختلفت مثوباتها لأختلاف صورها، ومن التدبير خرجت الصور، فمن عرف هذه الصور من الأعمال فإنما يعرفها بالعلم بتدبير الله تعالى فعلى حسب ذلك يقيم

---

(٦٩) فى إحدى النسخ [ويؤديه الحياء منه].
(٧٠) وثاق: قيد.
(٧١) تفاوت: تباين، واختلاف.

حرمتها ويضعها مواضعها، ألا يرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان إذا صلى يعطى كل عضو منه حقه من الصلاة (ولذلك قال عمر رضى الله عنه أعطوا مرافقكم حظها من السجود).

معناه أن لا يبسط ذراعيها فيبطل حظها من السجود.

(وقال ابن مسعود رضى الله عنه لأن يرض إبهامى رضا أحب إلى من أن استقبل بهما غير القبلة إذا وضعت كفىّ بالأرض فى حال السجود) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفريضة لم يصل فى مكانه شيئا من التطوع إقامة لحرمة الفريضة وكان إذا تطوع تياسر (٧٢) ويأمر بذلك ولا يتيامن إقامة لحرمة اليمين، وكان إذا صلى إلى عمود أو سارية أو عصىً جعله على حاجبه الأيسر ولم يجعله نصف عينيه إقامة لحرمة القبالة وكان على رضى الله عنه إذا سلم خفض تسليمته الأخرى قليلا من التسليمة الأولى لحرمة كاتب اليمين وأشباه ذلك محفوظة عندهم.

---

(٧٢) تياسر: بدأ باليسار، وتيامن: بدأ باليمن.

[الأصل الثامن والستون والمائتان فى سر رواية الحديث بالمعنى]

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نضر الله امرءاً سمع منا حديثا فبلغه كما سمع منا فإنه رب مبلغ هو أوعى له من سامع (١).

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نضر الله امرءاً أسمع منا حديثا فبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه غير فقيه» (٢).

عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيف من منى فقال نضر الله عبداً سمع مقالتى فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها فرب حامل فقه لا فقه له ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

قال أبو عبد الله اقتضى العلماء الأداء، وتبليغ العلم فلو كان اللازم لهم أن يؤدوا تلك الألفاظ التى بلغت أسماعهم بأعيانها بلا زيادة

---

(١) الترمذى فى «سننه» ـ كتاب العلم ـ باب ما جاء فى الحث على تبليغ السماع (٣٤/٥) .. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والحاكم فى «المستدرك» كتاب العلم- باب نضر الله عبدا سمع مقالتى فوعاها (٨٦/١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأقره الذهبى. وأحمد فى «المسند» من حديث عبد الله بن سعد (٤٣٧/١). وابن ماجه، وأبو داود، والدارمى، وغيرهم.

(٢) رواه أصحاب السنن وغيرهم بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عن ابن مسعود رضى الله عنه وغيره. راجع كشف الخفاء للعجلونى (٢٨١٣/٤٤١/٢).

ولانقصان، ولا تقديم ولا تأخير لكانوا يستودعونها (٣) الصحف كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن فكان إذا نزل الوحى دعا الكاتب فكتبه مع ما توكل الله له بجمعه وقرآنه فقال:

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ (٤)

وقال:

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (٥)

فكان الوحى محروسا مع الحرس يكتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كانت هذه الأحاديث سبيلها هكذا لكتبها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل جاءنا عن أحد منهم أنه فعل ذلك.

(وجاء عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صحيفة فأذن له) وأما سائر الأخبار فإنهم تلقنوها منه حفظا وأدوها حفظا فكانوا يقدمون، ويؤخرون وتختلف ألفاظ الرواية فيما لا يتغير معناه فلا ينكر ذلك منهم، ولا يرون بذلك بأسا.

(وروى أنه لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)(٦) أمسك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرواية مخافة تغير الألفاظ، ثم سألوه عن ذلك فهداهم السبيل وأوضح لهم الطريق (عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يحدث بالحديث فيقدم

---

(٣) يستودعونها الصحف: يضعونها فيها.

(٤) القيامة (١٧/٧٥)

راجع الطبرى (١١٨/٢٩) والبحر المحيط (٣٨٨/٨) ومختصر ابن كثير (٥٧٦/٣).

(٥) الحجر (٩/١٥).

(٦) يتبوأ: ينزل.

ويؤخــر، ويزيد وينقص قال: إذا أصاب المعنى فلا بأس [٧]. عن عبد الله بـن أكـيمة رضى الله عنه قال: قلنا يا رسول الله إنـا نسمع الحديث فـلا نؤديه كما تؤديه كما سمعنا قال: ما لم تحرموا حلالا، ولا تحللوا حراما وأصبتم المعنى فلا بأس».

عـن مـكحول قال: خرجنا إلى واثلة بن الأسقع فقلنا: يا أبا الأسقع حـدثـنـا بحديـث غض لا تقدم فيه ولا تؤخر حتى كأنا نسمعه من رسول الله صـلـى الله عـلـيـه وسـلـم قـال: فـغضب الشيخ، وكان شيخاً كبيراً فـقـال: أجـلـسونى فأجلس فقال: أما منكم أحد قام فى ليلة بشىء من القرآن قلنا ما منا إلا من قد قام بما رزق الله تعالى قال: فكأن أحدكم حـالـفـاً بـالله مـا قـدم حـرفـاً مـن كـتـاب الله ولا أخره إنا كنا أمسكنا عـن [٨] الحـديث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعناه يـقـول: إنـه لا بأس بالحديث قدمت فيه أو أخرت إذا أصبت معناه) لما تـداولـت هـذه الأحـاديـث طبـقات القرون، واشتبهت عليهم أصول العلم وهـى الحكمة وافـتـقـدوا غــور الأمــور كـثــر الـتـخـلـط بمـال الزيـادة والـنـقـصـان، والـتـقديم والتأخير فالحكماء ميزوا رواية الرواة صحيحها من سـقـيـمـهـا قـال لـه قـائـل: مـثـل مــاذا قــال: (مـثـل مـا روى عـن أبـى هـريـرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أتـاكـم أهـل اليمن ألين قـلـوبـاً وأرق أفئدة) [٩] فـمـيـزت الحـكـمـاء بين اللـفـظين، وحكموا لـكـل واحـد بـالصواب، وذلك أن القلب هو البضعة البـاطنة، والفؤاد البضعة الظاهرة التى فيها العينان، والأذنان، والنور فى

---

(٧) فى إحدى النسخ [عن يعقوب عن عبد الله].

(٨) فى نسخة [عن الأحاديث].

(٩) تقدم هذا الحديث.

القلب ويتأدى إلى الفؤاد، فالرؤية للفؤاد، والتقلب للقلب، ولذلك سمى قلباً والله تعالى يقلبه وفى الدعاء «يا مقلب القلوب ثبت قلبى» (١٠) وقال:

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ (١١)

ولكن أصل التقليب للقلب وإن نال الفؤاد منه حظاً، ولذلك لم يسم قلباً، وسمى فؤاداً ونسب الرؤية إلى الفؤاد فقال:

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ (١٢)

لأن العينين على الفؤاد يقال: هذا خبز فئيد لخبز ملة لأن له ظاهراً، وباطناً وظاهره مفشى عليه، فاللين للقلب، والرقة للفؤاد لأنه إذا دخل النور القلب فبالرحمة دخل فرطب القلب بالرحمة، ولأن ثم لا يزال ذلك النور يعمل فى ذلك القلب بحره وحريقه حتى يرقق هذه البضعة الظاهرة لذوب تلك اللحمة فمن زيد فى نور قلبه كان أرق لفؤاده لذوب تلك البضعة من فؤاده واللين من قلبه لرطوبة الرحمة فإنما وصف أهل اليمين بذلك وأخبر بحظهم من الله فمن لم يصل إلى معرفة هذا الذى وصفنا وكانت روايته حفظاً اشتبه عليه الأمر فمرة يقول ألين قلوباً أرق أفئدة، ومرة يقول ألين أفئدة وأرق قلوباً فقلب المعنى واستحال الكلام ولم يكن عنده تمييز الحكماء.

(ومثل قوله فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه «البكر تستأذن والثيب تستأمر» (١٣) فروى ابن المبارك رضى الله عنه عن على بن

(١٠) تقدم أيضا.

(١١) الأنعام (١١٠/٦).

(١٢) النجم (١١/٥٣)

والذى رآه صلى الله عليه وسلم هو جبريل وليس رب العزة سبحانه وتعالى كما يتوهم البعض. راجع أيضا البحر المحيط (١٥٨/٨).

(١٣) وإذن البكر صماتها، لأنها تستحى أن تتكلم، ولكن الثيب لابد أن تتكلم لأنها سبق أن عاشرت الرجال.

المبارك رضى الله عنه بهذا اللفظ، وروى وكيع عن على بن المبارك البكر تستأمر والثيب تستأذن) فالذى فقه هذا ميز الصواب من الخطأ فقال: البكر تستأذن ألا ترى أنه قال: إذنها صماتها، والثيب تستأمر حتى تتكلم وتأمر فإنها لا تستحيى فمن روى أن البكر تستأمر فقد أحال لأن الاستئمار لمن ينطق بالأمر والاستئذان لمن سكوته إذن فهو البكر(١٤)، فمن أراد أن يؤدى إلى من بعده حديثاً قد سمعه جاز له أن يغير لفظه، ما لم يتغير المعنى وجاز له أن يقول أخبرنى وحدثنى وكذلك إذا كتب إليه من بلدة أخرى جاز أن يقول أخبرنى، وحدثنى فإن الخبر يكون شفاهاً ويكون بكتاب وذلك قوله تعالى فى تنزيله:

﴿ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (١٥)

فإنما صار نبأ وخبراً بوصول علم ذلك إليه، وكذلك يجوز أن يقول حدثنى لأنه قد حدث إليه الخبر فسواء حدث شفاهاً أو بكتاب، وكذلك إذا ناوله كتابه فقال: هذا حديثى لك، وهذا خبرى إياك فحدث عنى وأخبر عنى جاز له أن يقول حدثنى، وأخبرنى وكان صادقاً فى قوله لأنه قد حدث(١٦) إليه وأخبره فليس للممتنع أن يمتنع من هذا تورعاً ويتفقد الألفاظ مستقصياً فى تحرى الصدق يتوهم أن ترجمة قوله أخبرنى، وحدثنى لفظه بالشفتين، وليس هو كذلك فاللفظ لفظ، والكلام كلام والقول قول، والحديث حديث، والخبر خبر، فالقول ترجيع الصوت والكلام كلم القلب بمعانى الحروف، والخبر إلقاء المعنى إليك فسواء ألقاه إليك لفظاً أو كتاباً وقد سمى الله القرآن فى تنزيله حديثاً حدث به العباد وخاطبهم به، وسمى الذى تحدث فى المنام حديثاً فقال:

---

(١٤) ولا يصح ينسب إلى الثيب الساكتة قبول.
(١٥) التحريم (٣/٦٦).
(١٦) فى أحد النسخ [أحدث] وهو تحريف من الناسخ.

﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ (١٧)

(١٧) يوسف (٢١/١٢). راجع الطبرى (١٧٤/١٢).

[الأصل التاسع والستون والمائتان فى فضل الفاتحة]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله قال قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين نصفها لى ونصفها لعبدى يقول العبد: الحمد لله رب العالمين يقول الله تعالى: حمدنى عبدى، يقول العبد الرحمن الرحيم يقول الله تعالى: أثنى على عبدى، يقول العبد: مالك يوم الدين، يقول الله تعالى: مجدنى عبدى، يقول العبد إياك نعبدو وإياك نستعين، يقول الله تعالى: هذه بينى وبين عبدى، قال: يقول: اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة، يقول الله تعالى: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»(١) قال أبوعبدالله قوله: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فالصلاة تصلية المرء بين يدى ربه، لينال من سبحات وجهه الكريم لأن العبد إذا وقف بين يدى ربه مصلياً أقبل على الله بوجهه الذى هو مكارم بدنه ثم وضع وجهه بمكارمه على الأرض تذللاً وتواضعاً لوجهه الكريم، ولذلك قال داود وغيره من الأنبياء عليهم السلام: سجد وجهى لوجهه الكريم، وكان من جزاء الله له أن أقبل عليه بوجهه، فالمصلى هو كالمصطلى بنار

---

(١) رواه مسلم فى «صحيحه»- كتاب الصلاة- باب قراءة الفاتحة فى كل ركعة (١٠١/٤). والترمذى فى «سننه» كتاب الصلاة- باب ما جاء أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب (٢٥/٢) من رواية أبى هريرة. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد فى «المسند» من حديث أبى هريرة (٢٤١/٢). وابن حبان فى «صحيحه»، وأبو داود فى «سننه»، والنسائى فى «سننه»، وابن ماجه فى «سننه»، والبيهقى فى «السنن»، والدارقطنى فى «السنن» ومالك فى «الموطأ»، وابن أبى شيبة فى «المصنف».

يقف على النار حتى يدفىء جسده من حر النار فأمر العباد أن يقفوا بين يديه بالإقبال عليه قلباً، وبدناً فيقبل عليه بوجهه الكريم، فينالهم من سبحات وجهه ما يحيى قلوبهم من موت الشهوات، ويطهر جوارحهم من أدناس الذنوب، فسمى ذلك الوقوف صلاة مشتقاً من الصلى فإذا وقف العبد فمن أدب الوقوف أن يترضى ربه بالثناء عليه؛ فيذكر مدائحه وصنائعه ثم يسأل حاجته.

وكانت لمحمد صلى الله عليه وسلم ولأمته حظوظ مخزونة عند الله في سره وغيبه ليست لأحد من ولد آدم عليه السلام ولو أبرزها لمدت الرسل والأمم عينها إلى تلك الحظوظ، وظهرت الخصومة، وكانوا يقولون في أنفسهم: نحن عبيدك من طينة واحدة فما هذه الحظوظ لهم دوننا وتحيرت الملائكة في شأن هذه الأمة فأسر هذه الحظوظ في غيبه وألقاها إلى الدعاء ليخيل إلى الجميع أنهم إنما نالوها من الدعاء، وفتح لهم من باب الدعاء ما لم يفتح لأحد من الأمم نزل:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٢)

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أعطيت أمتى ما لم يعط إلا الأنبياء كان الله تعالى إذا بعث نبياً قال له: ما جعل عليك في الدين من حرج وقال لهذه الأمة: «وما جعل عليكم في الدين من حرج» وكان الله إذا بعث نبياً جعله شهيداً على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس.

وكان خالد الربعى يقول عجبت لهذه الآية «ادعونى أستجب لكم» أمرهم بالدعاء، ووعدهم الإجابة وليس بينها شرط، قال له قائل: مثل ماذا قال: مثل قوله:

---

(٢) غافر (٤٠/٦٠).

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ (٣)

فههنا شرط ، وقوله :

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (٤)

ليس فيه شرط العمل ومثل قوله :

﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (٥)

فههنا شرط وقوله : ادعونى استجب لكم ليس فيه شرط ، وكانت الأمم تفزع إلى أنبيائها فى حوائجهم ؛ حتى يسأل الأنبياء لهم ذلك .

وروى عن علـى رضى الله عنه أنه أوحى الله إلى عبده المسيح أن قل لبنى إسرائيل إنى لا أستجيب لأحد منهم دعوة ولأحد منهم قبله مظلمة » (٦) وقال فى حديث آخر: « يا عيسى ، قل لبنى إسرائيل أن لا يمدوا أيديهم بالرغبة إلى حتى يبرؤا من أنجاس الذنوب » .

وقال فى حديث لموسى عليه السلام : « لو دعانى حتى تنقطع أوصاله ما استجبت له حتى تخرج الذنوب من بين أعضائه » فإنما خص الله هذه الأمة من بين الأمم بما أطلق لهم من الدعاء ، ورفع الشرط الذى كان منه على بنى إسرائيل ليصل إليهم تلك الحظوظ التى سبقت لهم من الله الحسنى من قبل دعائهم فأعطاهم من اليقين ما نفذ بقلوبهم إلى محل الإجابة والإجابة هى جوبة الدعاء أن ينجاب لهم عن الحجاب دعاؤهم بنور اليقين الذى فضلوا به .

---

(٣) البقرة (٢/٢٥) .
(٤) يونس (١٠/٢)
قدم صدق : أى عمل صالح قدموه . وهو ما قاله الطبرى فى جامع البيان (٥٩/١١) .
(٥) غافر (٤٠/١٤)
راجع مختصر ابن كثير (٢٣٩/٣) بتصرف .
(٦) مظلمة : شكاية .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت أمتي من اليقين ما لم يعط أمة» (٧) وذلك قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٨)

أى واسع لمن أعطى، عليم بمن هو أهل لذلك

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٩)

فالاستجابة والإجابة هو أن ينفذ دعاء العبد بقوة نور اليقين حتى ينجاب الحجاب فيجوز الدعوة إلى الله تعالى فيقف بين يديه مقتضياً للحاجة ولذلك قال تعالى:

﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١٠)

أى أجعل لدعوته جوبة، وهو المستقر حتى تقتضيني الحظ الذى وضعت له بين يدى فأقضى أى أمضى له من بين يدى حتى يصل إليه، ولو لم يكن حظ لم يتل شيئاً ولم أترك دعوته مهملة بل ذخرت له ذخيرة إذا أقدم عليها، ودانه لم يستجب له لما يرى منه فضل تلك الذخيرة على ما سأل.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة» (١١)، أى معكم نور اليقين حتى ينجاب (١٢) لكم الحجاب وتنفذ الدعوة إلى ربها فلما كان شأن هذه الحظوظ على ما وصفنا وأحب

(٧) ذكره بنحوه السيوطى فى الجامع الصغير (٤٧/١).

(٨) المائدة (٥/ ٥٤). راجع الطبرى فى تفسيره (٤٥٠/١٠).

(٩)آل عمران (٣/ ٧٤).

(١٠) البقرة (١٨٦/٢).

راجع لسان العرب لابن منظور (١٧٥/١).

(١١) لأن اليقين بالاجابة من موجبات القبول، لأن فيها حسن الظن بالله تعالى.

(١٢) ينجاب: يزول، وينجلى.

الله أن يوصلها إليهم من طريق دعائهم هيأ لهم فاتحة الكتاب فأنزلها على هذه الأمة دون سائر الأمم وخصهم بها كما خصهم بالدعاء فجعل نصفها دعاء ونصفها ثناء؛ ليثني العبد بقوله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣)

إلى قوله: **(إياك نعبد)** ثم يرفع حاجته من قوله: **(وإياك نستعين)** إلى آخرها ثم أعطاهم آمين خصهم من بين سائر الأمم ليصير التأمين طابعاً على دعائهم فيختم به فأنزل عليهم فاتحة الكتاب، وخزنها عن الأمم ليثنوا عليه بأبلغ الثناء، ويسألوه أوجز المسائل ففي ذلك الثناء مجمع الثناء، وفي تلك المسألة مجمع الحاجات، وهذا لا يعقله إلا أهله، ثم وضعها في التنزيل، وسماها القرآن العظيم فقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (١٤)

فروى عن أبي هريرة عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «والذي نفسي بيده إنها السبع المثاني وإنها القرآن العظيم يعني فاتحة الكتاب» (١٥)، فوفر الله حظ محمد صلى الله عليه وسلم وحظوظ أمته في حظه، وبرز بذلك على الخلق فجعل ذلك الحظ كله في:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

---

(١٣) الفاتحة (١/١).
(١٤) الحجر (٨٧/١٥).
(١٥) راجع التفسير الكبير للفخر الرازي.

﴿ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

فختمها بآمين فجعل مفتاحها بسم الله الرحمن الرحيم، وختمها آمين ووضعها فى أم الكتاب الذى لم يطلع عليه أحد فى الحجب (١٦) مع الحكمة، والرحمة بين يديه ثم أصدرها مع سائر الكتب من أم الكتاب إلى اللوح المحفوظ ثم أنزل الكتب إلى الرسل إلى الأمم واستثنى هذه السورة منها فخزنها عن الرسل والأمم وادخرها لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته، وصيرت هذه السورة كلمات حروفها مؤلفة منتظمة تلك الحروف لجميع حروف القرآن؛ فسميت أم الكتاب؛ لأن الكتاب استخرج منها، وسميت مثانى لأنها استثنيت من الرسل عليهم السلام فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ (١٧)

أى سبع آيات مما استثنياه من الكتب فادخرناه لك ولأمتك.

وروى عن ابن عباس رضى الله عنها أنه قال: «الآية السابعة بسم الله الرحمن الرحيم».

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه بنحوه من ذلك، قال له قائل: فكيف إذا قرأها الإمام افتتحها بالحمد لله ولا يجهر ببسم الله قال: إن علة (١٨) مثل هذا لا يدرك إلا بالخبر.

عن سعيد بن جبير رضى الله عنه قال: «كان المشركون يحضرون المسجد فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم

(١٦) أى فى ضمير الغيب.
(١٧) الحجر (٨٧/١٥).
(١٨) علة: سبب.

قالوا: هذا محمد يذكر رحمن اليمامة [١٩] يعنون مسيلمة فأمر أن يخافت بسم الله الرحمن الرحيم».

ونزلت:

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [٢٠].

فبقى إلى يومنا هذا على ذلك الرسم وإن زالت العلة كما بقى [٢١] الرمل فى الطواف، وإن زالت العلة وبقيت المخافتة فى صلاة النهار وإن زالت العلة فجعل الله عظيم الدعاء وجملته موضوعاً فى هذه السورة نصفها فيه مجمع الثناء، ونصفها فيه مجمع الحاجات، ثم قال فى آية أخرى:

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [٢٢]

فأنزل هذه السورة لنتلوها ولندعو بها فكما خزن هذه السورة عن سائر الأمم كذلك خزن قوله:

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [٢٢]

عن سائر الأمم فكانت الأمم تفزع إلى أنبيائها وقت الحاجة [٢٣] وإنما كانت هذه للأنبياء عليهم السلام فجعل لسانك مطلقاً بالدعاء وكفيك مبسوطتين بالتناول، وجعل هذا الدعاء الذى فى هذه السورة أفضل من الذى تدعو به؛ لأن هذا كلام قد تكلم به رب العالمين جل وعز فبينه،

---

(١٩) أى مسيلمة الكذاب.

(٢٠) الإسراء (١٧/١١٠).

لاتخافت بها: لاتخفها. وابتغ بين ذلك سبيلا: وسطا بين الجهر والإخفاء طريقاً قصداً. والترتيل فى القراءة: التبيين لها.

(٢١) الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً، وإيجابا وسلبا.

(٢٢) غافر (٤٠/٦٠).

(٢٣) تفزع: تلهج وتلوذ بهم.

وبين ما تدعو به من كلام نفسك بون بعيد(٢٤)، وإنما أطلق الله لهذه الأمة وفتح لهم باب الدعاء لنيلهم الحظوظ التى جعل لهم فى الغيب كى إذا وصلت إليهم فظهرت عليهم تلك الأشياء ظن الخلق أنهم نالوها من قبل الدعاء ولذلك قيل: ليس شيء أكرم على الله من الدعاء، وصار للدعاء من السلطان ما يرد القضاء.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء»، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن نفع حذر من قدر فإن الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء»، عن ثوبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البروان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»(٢٥) والله أعلم.

---

(٢٤) بون بعيد: بين بعيد.
(٢٥) تقدم هذا الحديث.

[الأصل السبعون والمائتان فى أن من لا يرحم لا يرحم]

عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» (١).

قال أبو عبد الله الرحمة موضوعة فى الآدمى فأوفرهم حظاً منهم أرحمهم لنفسه ولخلقه فإذا رحم نفسه جنبها المعاصى، والمساخط وطلب لها حسن عواقب الأمور ليحسن منزلته عند ربه فينزله غدا داره الحسنى (٢) وذلك جزاء المحسنين، فبالرحمة يتخطى إلى الإحسان إلى نفسه، ومنها يتخطى إلى الإحسان إليهم وكل من رحمته رق قلبك له ودعتك الرقة إلى الإحسان إليه والعطف عليه بدوام الإحسان ومن أبخس (٣) حظه من الرحمة غلظ قلبه، وصار فظاً فإذا غلظ قلبه؛ لم يرق لنفسه ولا لأحد من خلقه قال الله تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ

---

(١) البخارى فى «صحيحه» - كتاب الأدب - باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (١٠/٤٢٦). ومسلم فى «صحيحه» - كتاب الفضائل - باب رحمته صلى الله عليه وسلم وتواضعه (١٥/٧٧). والترمذى فى «سننه» كتاب البر والصلة - باب ما جاء فى رحمته بالمسلمين (٤/٣٢٣). وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد فى «المسند» (٢/٢٢٨). وابن حبان فى «صحيحه»، وأبو داود فى «سننه»، والبخارى فى «الأدب المفرد»، والهيثمى فى «مجمع الزوائد»، والبزار فى «مسنده».

(٢) الحسنى: الجنة.

(٣) أبخس حظه: نقص.

﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ ﴾ (٤)

فالشديد يشدد على نفسه فى الأحوال، ويعسر، ويضيق وكذلك على الخلق فهو من نفسه فى تعب، والخلق منه فى أذى واللين لان قلبه، ورطب بماء الرحمة وانتشف (٥) ماء الرحمة يبوسة نفسه وأذهب حزازتها (٦) وكزازتها (٧) وأذهب قسوة قلبه فمن لم يكن له وفارة حظ من الرحمة وجدته حديد النفس يابس الخلق قاسى القلب، مكدود الروح مظلم الصدر عابس (٨) الوجه منكر الطلعة ذاهباً بنفسه تيهاً (٩) وعظمة غليظ الرقبة (١٠) سمين الكلام، عظيم النفاق، قليل الذكر لله تعالى، ولدار الآخرة، ولهادم اللذات (١١)، عن عائشة رضى الله عنها قالت: «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصبى فقبله فقال رجل أتقبل هذا ما قبلت صبياً قط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما أملك إن كان الله نزع من (١٢) قلبك الرحمة».

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال خليلى وصفيى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: «ما نزعت الرحمة إلا من شقى» (١٣)، وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنها قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحم من فى الأرض يرحمك من فى

---

(٤) آل عمران (٣/١٥٩).
(٥) انتشف: نضب.
(٦) الحزازة: الغضب والكد فى الصدر.
(٧) الكزازة: الانقباض.
(٨) عابس: كالح ومكفهر الوجه.
(٩) تيهاً: كبراً.
(١٠) أى قيم الكلام.
(١١) هازم اللذات: الموت.
(١٢) فى إحدى النسخ [نزع عن قلبك].
(١٣) وفى رواية: «ما تنزع الرحمة إلا من شقى».

السماء » [١٤]، فالرحمة المكتوبة على نفسه مائة رحمة، والمقسومة منها واحدة بين خلقه فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فالواحدة التى قسمها بين خلقه احتظى منها الآدمى، وسائر الأمم حتى الطيور، والوحوش، والبهائم فتلك رحمة العطف فيها يتعاطفون قد اشترك فيها البر، والفاجر، والولى، والعدو، وأما هذه الرحمة التى وصفنا بدئاً فهى رحمة الإيمان مأخوذة من الرحمة العظمى التى منها بدت تلك المائة فأوفرهم حظاً من المعرفة بالله والعلم به أوفرهم حظاً من القربة وأوفرهم حظاً من القربة أوفرهم حظاً من الرحمة، فكلما كان القلب أقرب إلى الله كان ألين وفؤاده أرق، وكلما تباعد القلب من الله بمعصية يأتيها كان قلبه أقسى وأبعد من الرحمة ألا يرى إلى قوله تعالى:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [١٥]

فإنما قست قلوبهم بالتباعد من الله من أجل نقض الميثاق وذلك لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة إلا رحيم، قالوا: يا رسول الله كلنا يرحم، قال: ليس رحمة أحدكم خويصته [١٦] يعنى أهله وولده ولكن حتى يرحم العامة» فرحمتك الخويصة هى رحمة العطف من الرحمة المقسومة بين خلقه ورحمتك العامة من رحمة المعرفة بالله تعالى.

---

(١٤) ولهذا الحديث معان أخرى يتقوى بها.

(١٥) المائدة (١٣/٥)

القلوب القاسية: الغليظة اليابسة غير اللينة، التى لا تنفعل للطاعة حتى تستوجب الرضوان.

(١٦) خويصة: تصغير «خاصة».

[الأصل الحادى والسبعون والمائتان فى جمع الهموم وتشعبها]

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: «من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم آخرته ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديتها وقع» (1).

قال أبو عبد الله رضى الله عنه فالهم للقلب، وهو أمير الجسد، وهو وعاء كنوز المعرفة، ومنها يفرق على جنده، فالعقل والحفظ والذهن والفهم والفطنة والروح هؤلاء كلهم مرتزقة من عند القلب، والقلب ينفق عليهم من كنزه الذى أعظى، وهو المعرفة بالله تعالى، والعلم به فإذا جاءته هموم أحوال النفس، فقد تشعب قلبه شعباً وشغل القلب يشعبها فضيع الكنز، وفرق الجند وبقى مأسور فى يدى النفس، وأحوالها فلم يبال الله فى أى أوديتها من تلك الشعوب هلك؛ لأن هموم النفس ووساوس العدو تخوفك بالرزق، وتخوفك بأحوال الدنيا، وتقلبها وترغبك فى الجمع، والمنع وتحل فى قلبك ما فيه مصرعك، وهلاكك وتزين لك أحوال الدنيا فهذه كلها سموم قاتلة للقلب؛ فمن تخلى (2) من هذه

---

(1) الحاكم فى «المستدرك» كتاب التفسير- تفسير سورة حم عسق (٤٤٢/٢) عن ابن عمر مرفوعا. وقال: صحيح الإسناد واقره الذهبى. وابن ماجه فى «سننه» فى المقدمة- باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٩٥/١) عن ابن مسعود. وابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله- باب ما ورد فى ذم التاجر من العلماء (١٨٧/١).

(2) تخلى من الهموم: تحرر منها.

الهموم كلها حتى صارت همومه كلها هماً واحداً كفاه الله الهموم من أمر الدنيا والآخرة، والهم دبيب القلب وهو على وجهين أحدهما هم دبيب وهو متجاوز عنه، والآخر: هم حلول، فالقلب إذا بدت له خاطرة (١٠) دب إليها ثم يبقى فى الطريق متحيراً عاجزاً قد أنسد عليه الطريق فهذا هم يتجاوز عنه، والهم الآخر يدب القلب بالخاطرة إلى الشيء الذى بدأ حتى ينتهى منتهاه فيحل به فحلوله عزم، وإضمار (١١) فإن كانت سيئة صار قد هم بسيئة فهى وإن لم تكتب عليه قد انحط عن درجته؛ لأنه قد عزم على معصية فهذا هم حلول القلب، وإنما يصير همه هماً واحداً إذا نسى نفسه وأحوالها وهو أن ينكشف له الغطاء عن المعرفة بالله تعالى؛ حتى يرى الله كافياله فى كل أمر من دنيا وآخرة، فعندها يرفع باله عن التدبير لنفسه ويلقى ذلك كله إلى الله تعالى تفويضاً، ويراقب ماذا يخرج له من تدبيره ساعة فساعة فتدبير الله تعالى للمؤمن أعلى من تدبيره لنفسه فإذا رفض العبد تدبيره وأقبل على محافظة (٥) تدبير الله فى كل وقت ماذا يظهر له فقد استراح فإنما همه فى كل ساعة التوخى (٦) لمحاب الله فى كل أمر من متقلبه فإنه إنما خلقه عبداً ليكون له عبداً عارفاً له عالماً به فينظر بعين المعرفة والعلم إلى عظمته وجلاله وبهائه وكبريائه وسلطانه، ورحمته إلى ملكه وتدبيره فيقر عينه، ويمتلىء قلبه فرحاً به فعندها تظهر محبته على قلبه ويشتاق إلى لقائه، ويتبرم بحياته، ويقلق بمكانه ينتظر متى يدعى فيجيب فهو مسجون (٧) يرمق الحياة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وسنته»، فالآدمى إذا أسنت ضاقت عليه المعيشة، واشتد العيش

---

(٣) خاطرة: أى خطرت له.
(٤) إضمار: إكنان الشيء فى الضمير.
(٥) فى إحدى النسخ [على ملاحظة].
(٦) التوخى: الطلب.
(٧) أى مقيد برمق هذه الحياة.

فهو ينتظر الخصب والسعة والمسجون وإن أحاطت به نعم الدنيا فى سجنه فعينه شاخصة إلى باب السجن متى يخلى عنه فيخرج عنه، فالمؤمن اشتاق إلى لقاء من عرفه بما ذكرنا فضاق بالحياة فى الدنيا وانتظر الدعوة فهمه فى الدنيا هم واحد، وهو أن يلتمس محاب الله فى كل أمر دق أو جل فيكون ظاهر أمره حركات فى طاعة الله وباطن تلك الحركات حب الله تعالى به يغلى قلبه فهو الذى جعل همه هماً واحداً، وانقطع من الخلق إلى الله تعالى فمن العباد يصعد إلى الله أعمال الجوارح ومن هذا أنوار الحب مع كل نفس فنور هذا متواتر صاعد إلى السماء وأنوار العمال منقطعة قال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (٨)

فاسم الرب هو الاسم الأعظم المكنون الذى منه خرجت الأسماء فمن وصل إلى ذلك الاسم المكنون وانكشف له الغطاء عنه فقد تبتل إليه وانقطع عن الخلق، واتخذه وكيلاً فعندها بطلت وكالة النفس، وتعطلت الهموم وانتصب ذلك الهم الواحد بين عينى فؤاده؛ فاستكمل الصدر(٩) نوراً فتتابعت أنوار حبه متواترة إلى العلى.

عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من انقطع إلى الله كفاه الله مؤنته ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها» (١٠)، عن أبى هريرة رضى

---

(٨) المزمل (٨/٧٣)

التبتل: التحنث والانقطاع لعبادة الله سبحانه وتعالى وحده، راجع مختصر ابن كثير (٥٦٤/٣).

(٩) فى نسخة [فاشتعل الصدر].

(١٠) لأن فضل الله غير محدود، فمن ركن إلى الله فقد عوّل على فضل غير محدود.

الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله ملائكة موكلين بأرزاق بنى آدم ثم قال لهم: أيما عبد وجدتموه جعل الهم هماً واحداً فضمنوا رزقه السموات والأرض، والطير وبنى آدم أيما عبد وجدتموه طلبه فإن تحرى العدل لطيبوا له، ويسروا وإن تعدى إلى غير ذلك فخلوا بينه وبين ما يريد ثم لاينال فوق الدرجة التى كتبتها له».

[الأصل الثانى والسبعون والمائتان فى الاعتزاز بالعبد]

عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من اعتز بالعبيد أذله الله» (١).

الاعتزاز بالعبيد مفتاحه حب العز وطلبه فإذا طلب العز للدنيا طلبه من العبيد فترك العمل بالحق والقول بالحق لينال ذلك العز فعاقبة أمره الذلة؛ فإن الله تعالى يمهل المخذول (٢) حتى ينتهى به خذلانه إلى أن يستحق لباس الذل، وإن الله تعالى أظهر عزه وأخرج إلى العباد إزار العز ليجعل لهم من ذلك حظاً، فإنما سماه إزار ليعقل العباد عنه أن هذه قوة أخرجها إلى العباد؛ ليقووا به على الأعداء، وليقوى به المحق على المبطل، والأزر هو القوة وذلك قوله تعالى:

﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ (٣)

---

(١) الزبيدى فى «اتحاف السادة المتقين» (٩/٤٦٣) وقال: قال العراقى: رواه العقيلى فى «الضعفاء» وأبو نعيم فى الحلية من حديث عمر، وأورده العقيلى فى ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموى وقال لايتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان فى الثقات وقال يخالف فى روايته. وكذلك رواه الحكيم فى نوادر الأصول والرافعى فى التاريخ والديلمى وعبد الله بن عبد الله حجازى لين الحديث. ابن أبى نعيم فى «حلية الأولياء» (٢/١٧٤) من رواية سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب مرفوعاً.

(٢) أى رداء العز.

(٣) الفتح (٤٨/٢٩)

أى قواه والإزار موضعه من الآدميين من الوسط يتزرون على أوساطهم؛ ليقووا ولذلك سمى إزاراً لأنه قوة المرء فمن أسلم وجهه لله أوجب له حظاً من ذلك العز، ومن أعرض عنه فأشرك به غيره فى ملكه حرمه عزه، ومن احتظى بذلك العز فقد تزكى، والزكاء النماء والاحتشاء، والاكتناز، فالمؤمن زكى محتش مكتنز والكافر خال خاو رخو، ضعيف فمن ازداد لله تسليماً، وإليه طمأنينة فى الأحوال كلها ازداد نمواً واحتشاء، واكتناز قال الله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (٤)

وقال تعالى:

﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ (٥)

وقال تعالى:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ (٦)

فمن تزكى فبفضله، ورحمته تزكى، وهو نور التوحيد ثم قواه حتى ربى ذلك النور بالشكر واستوجب المزيد وقال تعالى:

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ (٧)

= قال أبو عبيدة: شطء الزرع: صغاره وفراخه وهذا ما اختاره الجوهرى وغيره فى الطبرى (٧٢/٢٦) ولسان العرب (٩٤/١) والقرطبى (٢٩٩/١٦).

(٤) الأعلى (١٤/٨٧). (٥) فاطر (١٨/٣٥).

(٦) النور (٢١/٢٤). (٧) طه (٧٥/٢٠).

وقال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨)

فقوى رسوله والمؤمنين بتلك العزة التى أخرجها من عزه وسماه عزة وسماه إزاراً ؛ ليعلم العباد أنها قوة لهم كل يحتظى منه على قدر بذل نفسه لله فى الأئتمار بما يأمره، ووضع له نفسه بالأرض ذلة وخشوعاً فى الانتهاء عما نهوا عنه، وترك مشيئته فى أحواله كلها لمشيئته فعلى قدر ذلك يستوجب الحظ من تلك العزة، فذلك قوله تعالى :

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٩)

---

(٨) الصافات (٣٧/١٨٠).

(٩) المنافقون (٦٣/٨).

[الأصل الثالث والسبعون والمائتان فيمن يقص وتحقيق القصص]

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مرائى» (١)، القصص اسم جامع دخلت فيه الموعظة والتذكرة والدعوة إلى الله والنشر عن الله مننه وإحسانه، ثم سمى ذلك قصصاً من أجل أن قلب هذا يقتص أثراً لكل شيء ويشير بقلبه إلى شيء ثم يعبر إشارات قلبه بلسانه للخلق فهو قاص عليهم لتلك الأشياء أثراً أثراً، فهذه كلمات لزمت أشياء كثيرة مما تشابهت صورها بعضها ببعض، فيقال قص (٢) أثره وهو أن يتبع أثره ويقال: قص خبره وهو أن يتبع بقلبه صفة ذلك الشيء الذى يخبر به فيتبع الصفة شيئاً بعد شيء، ويقال قص شعره، وظفره وهو أن يتبع بما زاد من شعره، وظفره خروجاً من جسدة فيتبع ذلك فأزاله عنه فالدعاء إلى الله بالموعظة والتذكرة لمن وصل إلى الله قلباً، وكان مركز قلبه الحق والعدل وهو قوله تعالى:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (٣)

---

(١) أبو داود فى «سننه»- كتاب العلم- باب فى القصص (٣٢٣/٣)، وابن ماجه فى «سننه» كتاب الأدب- باب فى القصص (١٢٣٥/٢)، والدارمى فى «سننه» كتاب الرقاق- باب فى النهى عن القصص (٣١٩/٢)، وأحمد فى «المسند» من حديث عمر بن شعيب (١٧٨/٢)، والهيثمى فى «مجمع الزوائد» كتاب العلم- باب فى القصص (١٩٠/١) وقال: رواه أحمد واسناده حسن.

(٢) قص أثره: تتبع خطاه.

(٣) الأعراف (١٥٩/٧).

فقوم موسى عليه السلام أعطوا ذلك فى عزلة من الخلق من ورائهم الرمل من ناحية المشرق حيث لا يخلص إليهم أحد، ولقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به فعلمهم القرآن، وعرض عليهم الشريعة فقبلوها فأعطيت هذه الأمة فى الجماعة، والعامة ما أعطى أولئك فى العزلة فساروا فى الجماعة بما سار أولئك فى العزلة بفضل يقينهم، ووصول قلوبهم إلى الله فركب قلوبهم الحق وطريقهم إلى الله على العدل فى ذلك الحق وهم أمراء الدين فى كل وقت وهو قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ (٤)-

فالقصص لهم ولمن يرونه أهلاً لذلك المقام، والثالث مرائى متكلف مذموم فهو دخيل لا يجب أن يسمع منه.

(٤) النساء (٥٩/٤).

[الأصل الرابع والسبعون والمائتان فى محبة الأسباب ومعرفة الشرك والتوحيد فيها]

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشرك أخفى علي أمتى من دبيب الذر على الصفا» (١).

عن معقل بن يسار رضى الله عنه قال: قال أبو بكر رضى الله عنه وشهد به على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ذكر الشرك فقال: هو أخفى فيكم من دبيب النمل وسأدلك على شىء إذا فعلت أذهب عنك صغار الشرك وكباره تقول: «اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك فيما أعلم وأستغفر لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات» (٢).

عن ابن جريج قال: بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل فقال أبوبكر: هل الشرك إلا ما عبد من دون الله قال: يا أبا بكر الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل إن من الشرك أن يقول الرجل ما شاء الله وشئت، ومن الند

---

(١) السيوطى فى «الجامع الصغير» (١/٤٢) وعزاه للحكيم الترمذى عن ابن عباس ورمز له بالضعف. والحاكم فى «المستدرك» كتاب التفسير- تفسير سورة آل عمران (٢/٢٩١) عن عائشة بمعناه وقال: صحيح الإسناد. والهيثمى فى «مجمع الزوائد» كتاب الزهد- باب منه فى الرياء وخفائه (١٠/٢٢٣) عن عائشة مرفوعا. وقال: رواه البزار وفيه عبد الأعلى ابن أعين وهو ضعيف.

(٢) يجب ألا ينفك المسلم فى كل أوقاته من هذا الدعاء، فإن كل جزئيات الزمن لا تخلو من فتن هوج، فلابد أن يكون دائم الاستحضار لهذا الدعاء لينفى عن نفسه درن الشرك الخفى أعاذنا الله تعالى منه.

أن يقول الرجل: لولا فلان لقتلني فلان، أفلا أدلك على ما يذهب الله عنك به صغار الشرك وكباره قال: بلى يا رسول الله، قال: تقول كل يوم ثلاث مرات: «اللهم إني أعوذ بك ان أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم».

عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد كنت أكره لكم أن تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد».

قال أبو عبدالله: الرب واحد، وجعل ربوبيته فى الغيب، وخلق العباد فى الغيب وأوله قلوبهم إليه فأقر كلهم بالعبودة له وعلى ذلك فطرهم (٣) فكلهم يفزعون (٤) عند الحاجة إلى اسمة الله الذى جعل موله (٥) قلوبهم، فثبت فريق منهم على إخلاصه، وأشرك فريق، وذلك قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٦)

فجعل أمور العباد كلهم يوصلها إليهم فى الغيب قد ستر أموره بالأسباب فقال: أنا الرزاق ثم جعل أرزاقهم فى ماء الحيوان تحت العرش، ثم وكل ملائكته بالقطر، ثم السحاب لقبوله وسخر الرياح لتحمل كثيف السحاب ركاماً، ويبسط كيف يشاء ثم أمر السحاب أن يدر القطر(٧) مطراً ثم أمر الأرض أن تقبل ودائع القطر، ثم أمرها أن تنفجر عن ذلك

---

(٣) فطرهم: خلقهم.
(٤) يفزعون: يخفون، ويهرعون.
(٥) موله: من الوله.
(٦) العنكبوت (٢٩/٦٥).
(٧) القطر: أول المطر. وفى المثل: أول الغيث قطر.

القطر فى أصلب موضع منها من أجواف الصخور من الجبال، وذلك قوله تعالى:

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (٨)

وقوله تعالى:

﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ (٩)

ثم علم الآدميين أن يحرثوا الأرض ثم أمر الأرض أن تنبت من كل زوج بهيج، وقال تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ (١٠)

ثمّ أمر الشمس أن تسير بحرها على وجه الأرض لتربية هذه الثمار والنبات ثم أمر الريح عند الحصاد أن تذروه ثم علم الآدميين طحنه وخبزه، وأنزل النار وجعلها فى الشجر الأخضر وقال فى تنزيله:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ (١١)

فالنار موجودة فى كل شجرة خشبية تحتك بالأخرى فتورى ناراً وقال:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ (١٢)

ومن اللباس غزل قطنه، ونسجه، وغسله وخياطته حتى يكتسوا وكذلك سائر الأشياء التى اضطر إليها الآدمى فهذه كلها أسباب والآدمى يرى

---

(٨) الزمر (٢١/٣٩).
(٩) يس (٣٤/٣٦)
(١٠) الواقعة (٦٤/٥٦).
(١١) يس (٨٠/٣٦)
(١٢) الواقعة (٧٣/٥٦).

ما ظهر من هذه الأشياء التي ذكرنا وفى باطنها ربوبيته وهو الذى دبر هذا كله من القدرة، وأمضى التدبير بمشيئته وأوصل إلى العباد قضيته فى خفاء والعباد إنما يرون المطر، والحر، والبرد، والرياح والأرض والماء والزرع والحصاد والأيدى التى تتداوله وربوبيته فى جميع الأشياء قائمة لا يكون شىء إلا بإذنه ولا يقوم إلا به ولا يدوم إلا به فقلوب الآدميين ونفوسهم معلقة بالأسباب التى يرونها فإذا احتاجوا إلى شىء طلبوا ذلك الشىء من مظانه (١٣) الذى هناك عاينوه فمن الله على الموحدين بمعرفتهم أن الرب واحد، والوله بالقلوب فى الحوائج إلى الواحد الذى اسمه الله الذى خرجت الأشياء من ذلك الاسم، ولذلك أمروا أن يبدؤا فى كل أمر يقول: «بسم الله» كأنه يقول: هذا الشىء بهذا الاسم خرج، ومن حرم المنة بقى مع الأسباب، قلوبهم معلقة بها مفتونة فيها فاتخذوا دونه أولياء فعبدوه؛ ثم قالوا:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (١٤)

وقالت الرسل لهم:

﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ (١٥)

حتى قال إبراهيم عليه السلام:

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (١٦)

والأف كلمة للشتم، والضعة وأنزل على المؤمنين وحياً يثبت قلوبهم ويعلمهم الحجة فقال:

---

(١٣) التى يعتاد وجوده فيها.
(١٤) الزمر (٣٩/٣).
(١٥) المائدة (٥/٧٦).
(١٦) الأنبياء (٢١/٦٧).

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٧)

فقال المشركون أرنا آية فأنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾

إلى قوله :

﴿ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٨)

فأعلم أن العقل يدل عليه فيما أراهم من قدرته .

وقال :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٩)

وأهل اليقين طلبوا الأشياء من المظان نفساً وجسداً ، ومن الله قلباً ويقيناً وإخلاصاً ، فمن ضعف يقينه كان السبب بين عينيه فإذا طلب شيئاً طلبه من السبب قلباً ونفساً وإذا فاته منها شيء تلهف ، وأسف على الفوت ، ولام وذم وتردد فى اضطراب حتى يخرج دينه ويسقم إيمانه ، وإذا صار إلى القول يقول : لا يكون إلا ما شاء الله ، ولا يكون إلا ما قدر الله ، وإلا ما قضى الله ، وإذا قضى فلا يقوم شيء ، ولا يدوم إلا بالله فإذا علم أن الكون من الله ، والدوام بالله كان هذا من علم التوحيد وإنما هو كلحظة ثم يخفى فى صدره هذا العلم حتى لا يشرق نوره ، وإنما كانت شررة أو كلمحة أو برقة ثم ذهبت ، وبقى العبد مع

(١٧) البقرة (٢/١٦٣) .
(١٨) البقرة (٢/١٦٤) .
(١٩) المؤمنون (٢٣/٩١) .
راجع مختصر ابن كثير (٢/٥٧٣) .

شرك السبب، فكلما لحظ العبد إلى شيء من هذه الأسباب دونه فقد أتى بالشرك فإذا رأى السحاب استبشر وإذا أنبت الأرض ابتهج ثم فرح وأشر وبطر؛ لأن قلبه فى غفلة عن الله عز وجل، فهذا قلب الموحد، وقلب الكافر فى غلفة(٢٠) فقلب المؤمن المتعلق بالأسباب غافل، وقلب الكافر أغلف فالغلفة غلاف(٢١) القلب، والغفلة حجاب القلب، وهو هذه الأسباب التى ذكرنا وقد أنشق عنه الغلاف الذى كان فى وقت الكفر، وبقيت الغفلة فهذه الغفلة لا يذهبها إلا ذكر الله تعالى، فلا يزال الذكر الدائم يذيبها بحرارة الحياة التى يزاد القلب بالذكر؛ حتى يهتك حجب الأسباب كلها، ويذهب الخفاء ويصير الأمور كالمعاينة له فهو يمضى فى الأسباب، ولا يغفل عن الله فيقبلها من عنده، فإذا هاجت الريح استبشر بصنع الله لأنه علم أنه هو الذى أرسلها بشرابين يدى رحمته، وإذا رأى تراكم السحاب استبشر بصنع الله ثم برى المطر سقيا كما قال:

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ (٢٢)

إلى غير ذلك فأهل اليقين هتكوا هذه الحجب بقوة نور اليقين حتى انكشف لهم الغطاء، وفضل الله هذه الأمة باليقين حتى صار ما بقى منهم من الشرك أخفى من دبيب النمل فى القلة، والرقة فهذا مدح لهذه الأمة لأن شرك الأسباب ذاب فيهم، وتلاشى بفضل يقينهم حتى صار أخفى من دبيب النمل؛ لأن دبيب النمل لا يؤثر على الصفا(٢٣)، وكذلك ما بقى من الأسباب لا يؤثر على أهل اليقين لأن قلوبهم صلبت(٢٤) باليقين وصار كزبرا(٢٥) الحديد والصخر.

(٢٠) لعل الأصوب [غفلة].
(٢١) أى مطبوع على الطبع.
(٢٢) الحجر (١٥/٢٢).
(٢٣) أى يبست وتجمدت؛ فلم تعد تتسع لنداء الخير.
(٢٤) الصفا: الصخر الأملس وكذا الصفوان.
(٢٥) زبر الحديد: قضيب الحديد.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء، وأدناه أن يحب على شىء من الجور(٢٦) أو يبغض على شىء من العدل» وهل الدين إلا الحب فى الله، والبغض فى الله قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (٢٧)

فاما قوله ان يحب على الجور ويبغض على العدل إنما يحب على الجور رجاء المنفعة منه، ويبغض على العدل خوف المضرة، ورجاء المنفعة».

عن وهب بن أبان عن عبد الله بن عمر قال: خرج عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى سفر له فإذا بجماعة على طريق فقال: ما هذه الجماعة قالوا: أسد قطع الطريق فنزل فمشى إليه حتى قفده بيده، ونحاه عن الطريق ثم قال: ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما يسلط على ابن آدم من خافه ابن آدم، ولو أن ابن آدم لم يخف غير الله لم يسلط الله عليه غيره، وإنما وكل ابن آدم إلى من رجاه ابن آدم، ولو أن ابن آدم لم يرج إلا الله لم يكله الله إلى غيره».

وإنما هو شرك وشك والشك هو ضيق الصدر فإذا أحست النفس بمكروه فى الأمر انتفخت الرئة للجبن الذى حل بها فضاق الصدر حتى زحزح القلب عن مكانه فإذا ضاق على القلب مكانه ضاق موضع التدبير وهو الصدر لأن عينى الفؤاد مفتوحتان فى الصدر وعند العينين تدبير الأمور ثم يصدر إلى الجوارح، ولذلك سمى صدراً لأن الأمور تصدر(٢٨) من هناك وإنما سمى شكاً لأن ذلك النائب من الأمر يشك

---

(٢٦) الجور: الظلم.
(٢٧) آل عمران (٣/ ٣١).
(٢٨) كذا ورد على سبيل المجاز.

سعة الصدر، كما يشك الثوب المبسوط فيجمع بعضه إلى بعض، ويشك بشوكة أو بأبرة أو بخيط فيقال: شك الثوب وهو مشكوك فإذا انتفخت الرئة بما خطر على بال القلب من الخواطر وضاق على القلب مكانه ترحل القلب عن مستقره، وتذبذب(٢٩) وكان كالدلو المعلق أو القنديل المعلق فإذا تحرك القنديل اضطرب الإشراق، فصار بعضه ظلاً، وبعضه إشراقاً ففى الظل الضلالة، وفى الإشراق الهدى فكلما تراكمت الأظلة أنقبض الصدر، فصار مشكوكاً كالثوب الذى شك، وقبض بعضه إلى بعض فصار متراكماً بعضه على بعض، وصارت له زوايا كذلك الصدر إذا انقبض حدثت له فى زواياه أظلة، فنها يضل عن الله، ويفتقد الهدى وأما الشرك فهو مأخوذ من الشرك، والشرك حبل فيه معاليق يعلق بها أرجل الطير أو أعناقها أو أجنحتها حتى تؤخذ صيداً فكذلك الأسباب التى وضعت فيها حاجات الآدمى، فتلك الأسباب تأخذ بقلبه لأن شهوة تلك الأشياء فى نفسه فإذا اشتهاها له أحبها فإذا وصل حبها إلى قلبه ثم رأى القلب تلك الأشياء من تلك الأسباب أحب تلك الأسباب من أجل تلك الأشياء وذلك قوله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾

ثم عدد الشهوات فقال:

﴿ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ (٣٠) الآية.

فالشك ضيق الصدر والشرك تعلق القلب بالشىء، وإنما يوسع القلب نور اليقين، فكلما كان الصدر باليقين أنور كان أوسع وأكثر انشراحاً فباليقين ينجو العبد من وبال الشك، وبالإخلاص ينجو من وبال الشرك

---

(٢٩) فى نسخة [وندبدب] وهو تصحيف.
(٣٠) آل عمران (٣/١٤).

فعندها يتولاه الله، وذلك قوله تعالى، لداود عليه السلام: «يا داود هل تدرى متى أتولاهم إذا طهروا قلوبهم من الشرك، ونزعوا من قلوبهم الشك»، فخلق الآدمى والأسباب مشتبكة به لا يرى مسبباً إلا فى غيب وربوبية الرب قائمة فى ذلك الغيب(٣١)، وفى جميع الأسباب لا تكون إلا به فالله مكونها وبالله يدوم ما كُوِّن والآدمى لم ير التكوين، ولا التدويم، إلا رؤية الإيمان بالغيب، فاستقر قلبه إيماناً بذلك، ثم جاءت النفس بشكها، وشركها فأوردت ولو رجعت على القلب حتى صار القلب ذا شك وشرك فلا يزال صاحبها يضيع هذا الأمر ويهمله، حتى يحل العقد، ومنه عقدة الإيمان فيكفر والذى أغاثه الله وأيده لما رأى ضعف اليقين، وانقياد القلب للنفس بما أوردت عليه فزع إلى الله حتى قواه، وأيده فإذا رزق الله عبداً نور اليقين، ونور التوحيد صار القلب موقناً، مخلصاً فبقوة هذين يمحو خواطر النفس فى الصدر تلك الخواطر التى تورد شكاً، وشركاً فاستقام القلب، وصلب، واستقرت النفس منقادة للقلب، فإذا صار بهذا الحال خفى ذلك الشك، والشرك فلم يؤثر ما بقى من ذلك فى قلوبهم كما لا يؤثر دبيب النمل على الصفا لأن الذى خفى من البقية لا يقدر أن يزعزع النفس، أو يشغل القلب عن الله ألا ترى أنه قال فى حديث أبى بكر رضى الله عنه: «أفلا أدلك يا أبا بكر على ما يذهب الله به صغار الشرك وكباره عنك، قال بلى يا رسول الله، قال: تقول كل يوم ثلاث مرات اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم» فصغار الشرك مثل قول الرجل: ما شاء الله وشئت، ومن الند أن يقول: لولا فلان لكان كذا وكذا.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم واللو فإن اللو يفتح عمل الشيطان».

---

(٣١) لعله (فجميع).

واللو مفتاح الحسرات، وإذا تحسر القلب تعرى عن خلع الله».

عن عبد الله رضى الله عنه قال: جاء رجل فقال: يارسول الله أى الذنب أعظم قال: «أن تجعل له نداً وهو خلقك».

فالند هو شبيه بالضد لأن الضد صورة إبطال من يضاده، والند من الندو وهو التباعد، والنفار معناه أن تجعل من دونه دافعاً عنك فلا يدفع عنك إلا من ولى خلقك.

وجاء فى الحديث: «ومن الند أن يقول لولا فلان لقتلنى فلان» وإنما صار أعظم الذنوب لأنه يضعف اليقين، ويعمل فى حل العقدة، وسائر الذنوب يعمل فى قضاء الهمة والتلذذ بالشهوات.

ومعنى قوله عليه السلام: «الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا» أن هذه الأمة لما خصوا به من اليقين لا يؤثر فيهم ما بقى من الشرك إلا ما يخفى أثره والخبر سيق فى معرض مدحهم، وإظهار فضلهم على سائر الأمم، وليس كما يتوهمه قوم أن المراد من الخبر أن الشرك يخفى عليهم لغمارتهم(٣٢) وجهلهم؛ لأنه ما جاء فى الحديث أن الشرك أخفى فى الآدميين ولكنه قال: أخفى فى أمتى ما بال هذه الأمة يخفى عليها من الشرك ما لا يخفى على بنى إسرائيل ويقين هذه الأمة أوفر.

قال عليه السلام: «ما أعطيت أمة من اليقين ما أعطيت أمتى»(٣٣)، وإنما معنى الخبر أن هذه الأمة لليقين الذى نالوه من فضل الله، ورحمته يذيب خواطر الشك والشرك فى صدورهم، فتدق وتخفى حتى لا ترى، وتضعف حتى لا يؤثر كونها على القلب كما لا يؤثر دبيب

---

(٣٢) من الغمرة.

(٣٣) تقدم هذا الحديث.

الذر(٣٤) على الصفا، وأما كبار الشرك فهو أن يعمل بطاعة الله يريد به غير الله، رجاء اتخاذ المنزلة عنده فهذا موحد قد غلب عليه الجهل، فأمل غيره وإذا رجع إلى توحيده علم أنه لا يملك أحد نفعاً ولا ضراً دون الله.

رئى شداد بن أوس في مصلاه وهو يبكي قيل: ما أبكاك يا أبا عبد الرحمن قال: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل، وما هو قال: بينا أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً إذ رأيت بوجهه أمراً ساءني، قلت: بأبي أنت، وأمي يا رسول الله ما الذي أرى بوجهك قال: «أمر أتخوفه على أمتي من بعدي، قلت: وما هو؟ قال: الشرك، والشهوة الخفية، قلت: يا رسول الله (٣٥) ويشرك أمتك من بعدك قال: يا شداد أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا حجراً ولا وثناً، ولكنهم يراءون(٣٦) بأعمالهم، قلت: يا رسول الله والرياء شرك هو؟ قال: نعم، قلت: فما الشهوة الخفية، قال: يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهوات الدنيا فيفطر» (٣٧)، وقال الحسن رضي الله عنه الرياء شرك قال الله تعالى:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (٣٨)

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج ذات يوم إلى أصحابه وهم يتناجون فقال: «ما هذا النجوى؟ قالوا: يا رسول الله كنا نتحدث عن فتنة المسيح الدجال فقال عليه السلام: ألا أخبركم بأعظم فتنة من الدجال؟ رجل يعمل لمكان رجل».

(٣٤) الذر: وهي عند العرب أصغر النمل، وقد ضربت به المثل في دقة الجرم.
(٣٥) لعل الأصوب (أو تشرك؟).
(٣٦) يراءون: يصانعون.
(٣٧) من جراء النظر بشهوة.
(٣٨) الكهف (١٨/ ١١٠).

[الأصل الخامس والسبعون والمائتان في غياث العباد في أربع السلطان والقرآن وأهل الايمان وأشرف[1] المكان الكعبة]

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «السلطان ظل الله[2] يأوى إليه كل مظلوم من عباده، فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر، وإذا جار[3] كان عليه الإصر[4] وعلى الرعية الصبر، وإذا جارت الولاة قحطت السماء، وإذا منعت الزكاة هلكت المواشي وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر، والمسكنة، وإذا خفرت[5] الذمة أديل الكفار[6]»[7].

قال أبو عبد الله رضي الله عنه: إن الله تعالى أغاث عباده في أرضه بأربع القرآن وهو كلامه كي يهتدوا به إلى الله تعالى وبالسلطان[8] وهو ظله كي يتمانعوا به عما في أيديهم من المهجة،

---

(١) في نسخة [وأشرف البنيان] وهو تحريف من الناسخ.

(٢) في نسخة أخرى [ظل الله في الأرض].

(٣) جار عليه: ظلمه.

(٤) الإصر: الذنب والإثم.

(٥) خفرت الذمة: حفظت، وصينت فأصبحت مصونة.

(٦) أديل الكفار: أي دالت دولتهم وتدابروا.

(٧) الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/١٩٦) وقال: رواه البزار. وفيه سعيد بن سنان أبومهدي وهو متروك، والسيوطي في «الجامع الصغير» (٢/٣٨). وعزاه للبزار والحكيم والبيهقي عن ابن عمر، والحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/١٣٧) وأشار إلى تضعيف الحديث.

(٨) يقصد ظل الله.

والمال، والأهل، والولد، وبالإيمان وفيه نور كى يهتدوا به إلى خالقهم، وبالكعبة وهى أشرف البنيان كى يفوزوا بالرحمة التى فيها إذا طافوا بها فإذا قصدوا الله جعلوا نوره مرآة قلوبهم، فينظرون فيها إلى عجائب ما أبرز من ملكه من لدن عرشه إلى الثرى، وإلى عجائب تدبيره فيهم وإلى قدرته عليهم فأداهم ذلك النظر بقوة ذلك النور إلى عظمته، وجلاله، ونفاد قدرته وإلى وجوده وكرمه، ولطفه وعطفه عليهم، وبره بهم، وعظيم مننه فامتلأت صدورهم، وقلوبهم به غنى، وقويت أركانهم للقيام بأموره، وانقادت نفوسهم، واستسلمت لله وإذا قصدوا القرآن جعلوا بسم الله الرحمن الرحيم علماً لعسكر القرآن، فإن القرآن بمنزلة جند وعسكر فيه ألوان الأسلحة، وآلات الحرب، والعدة فيه يحارب الهوى والنفس، والعدو، ويبطل مكايدهم

قال تعالى:

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (٩)

وبسم الله الرحمن الرحيم قسم من ربنا عند رأس كل سورة يقسم لعباده إن هذا الذى وصفت لكم يا عبادى فى هذه السورة حق، وأنى أفى لكم بجميع ما ضمنت فى هذه السورة من وعدى ولطفى وبرى، ثم خص الشىء الذى به عظمت فتنة العباد، وهو الرزق فخصه بقسم آخر فقال:

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (١٠)

وإذا قصدوا الكعبة لاذوا بها(١١)، وجددوا بيعة الإسلام الذى دنسوه

---

(٩) طه (٢٠/١٢٣).

(١٠) الذاريات (٥١/٢٣).

(١١) لاذوا بها: لجأوا إليها فراراً.

وأخلقوه(١٢) باستلام الحجر الذى فيه بيعتهم حين استخرجهم من الأصلاب للميثاق(١٣)، وإذا قصدوا السلطان ارتبعوا فى ظلمه، وسكنت نفوسهم فى المستراح من ذلك الظل؛ فإن الظلم له وهج، وحرارة تحرق الأجواف، وتظمأ الأكباد فإذا رأت الغنم الظل، وأحست بالماء اندفعت فى السير وصيرته مفزعاً، فإذا صارت إلى الظل مع الظمأ، والعطش الشديد لم تجد الماء فبقيت على اليبس، ووجدت الذئاب قد سبقن إلى الظل، وقعدن بمرصد للغنم، فما ظن العاقل بتلك الغنم ماذا يكون حالها، وما ظنه برب الغنم ماذا يقول للراعى، وعسى أن يقول له ألم يكن معك أسلحة وحراس تطرد الذئاب عن هذا المستراح، وكيف سددت مجرى العيون حتى عطشت الغنم، وأما قوله إذا جارت الولاة فحطت السماء معناه انقطاع المطر من ماء الحيوان الذى ينزل من تحت العرش من بحر الأرزاق إلى السماء فى الابزن إلى السحاب، والابزن هو مستنقع الماء فى السماء فإذا أصاب السماء القحطاء(١٤) انقطع عن الأرض القطر(١٥) فإذا انقطع القطر ماتت الأرض، فلم تنبت لأن الأرض إنما تنبت بحياتها وحياتها من ماء الحيوان فإذا جارت(١٦) الولاة ذهب العدل عن الأرض، وإذا ذهب العدل منعت الحياة ماء الحيوان عن أن يقطر، فالوالى فاصل بين الحق والباطل، فإذا ذهب الفاصل انقطعت الرحمة، وأما قوله إذا منعت الزكاة هلكت المواشى فإن الزكاة نمو المال والنمو من البركة وإذا منعت الزكاة دنس المال، ولا بقاء للبركة مع الدنس، وإذا ارتحلت البركة

---

(١٢) أخلقوه: أبلوه.

(١٣) وذلك فى قوله تعالى: «وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى».

(١٤) القحط: الجدب.

(١٥) القطر: المطر.

(١٦) جارت: ظلمت.

عن شيء هلك ذلك الشيء، وأما قوله إذا ظهر الزنا ظهر الفقر فمن أجل أن الغنى من فضل الله تعالى، والفضل لأهل الفرح بالله وبعطائه، والمناكحة بمحاب الله وبأمره وحبه يلتقى الزوجان على الأفراح بالله، وعدهم الله بذلك فى تنزيله الغنى من فضله فقال:

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (١٧) الآية

وبين فى الآية من أين يغنيهم فقال: «**من فضله**» والفضل قبل القسمة ولذلك قال عمر رضى الله عنه ما وجدنا الطلب للغنى (١٨) فى مثل الباءة وتلا هذه الآية، فإذا زنى فقد آثر (١٩) الفرح الذى هو من قبل العدو السابى (٢٠) لقلبه على الفرح الذى ندب (٢١) الله عز وجل إليه عباده فقال:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ (٢٢)

فذهب الفضل والغنى لأنه قد جاوره من يدنسه، وأما قوله إذا أخفرت الذمة أديل الكفار لأن المؤمن عاهد الله بالوفاء بذمته فإذا أخفر نقض العهد، وإذا نقض العهد، وهى عقدة المعرفة لأن المعرفة مقرونة بالعهد، معقودة به فينقض العهد يخاف انحلال العقدة، ومن قبل الانحلال تذهب هيبة الإسلام، ويقذف الوهن فى القلوب.

عن ثوبان مولى النبى عليه السلام قال: سمعت النبى عليه السلام قال: «ليتداعى عليكم الأمم كما يتداعى، الأكلة إلى قصعتها قلت: يا

---

(١٧) النور (٢٤/٣٢).
(١٨) أى للزواج، والإحصان، وفى نسخة [طلب الغنى].
(١٩) آثر: فضَّل.
(٢٠) السابق: الآسر.
(٢١) ندب: دعا واستحث.
(٢٢) يونس (١٠/٥٨).

رسول الله ومن قلة بنا يومئذ قال : لا بل أنتم كثير ولكم غثاء (٢٣) السيل ولينزعن الله المهابة من صدور عدوكم منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن (٢٤) فقلت : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت » .

(٢٣) غثاء السيل: ما يحمله السيل من القماش.
(٢٤) فى نسخة أخرى [فى القلب].

[الأصل السادس والسبعون والمائتان في ما تراءى للحكيم في منازل القربة مجاوبات للآية التي فيها السجدة]

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد قال: «سجد لك سوادي، وخيالي، وآمن بك فؤادي، أبوء[1] بنعمتك علي، وأبوء بذنبي هذا ما جنيت على نفسي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنب العظيم إلا أنت»[2].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في سجود القرآن بالليل: «مراراً سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته».

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كله دقيقه وجليله، أوله وآخره، سره وعلانيته».

---

(١) أبوء: أرجع.

(٢) الحاكم في «المستدرك» -كتاب الدعاء- باب الدعاء الجامع -ابن مسعود رضي الله عنه (١/ ٥٣٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد إلا أن الشيخين لم يخرجاه، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٢٨) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات، والسيوطي في «مسانيد الجامع الكبير» (٢/ ٧٢٨) من مسند عائشة وعزاه لابن شاهين في الترغيب، والزبيدي في «اتحاف السادة المتقين» (٥/ ٩٦) وقال: قال العراقي: رواه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال بل هو ضعيف..

عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى سجوده: «أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، جل وجهك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ياعظيم، فقلت: يا رسول الله لقد سمعتك تقول فى سجودك شيئاً ما سمعتك تذكره، قال: وقد علمت ذلك قلت: نعم، قال: تعلميهن، وعلميهن فإن جبريل عليه السلام أمرنى أن أكررهن فى السجود».

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه فقال: يارسول الله رأيتنى هذه الليلة فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة ورأيت كأنى قرأت السجدة فسجدت، فرأيت الشجرة مكانها سجدت لسجودى، وهى تقول: اللهم اكتب لى بها عندك أجراً وضع عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخراً، واقبلها منى كما قبلت من عبدك داود عليه السلام، قال ابن عباس رضى الله عنهما: فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم السجدة ثم سجد، فسمعته يقول كما قال الرجل عن قول الشجرة».

[الأصل السابع والسبعون والمائتان فى الحكمة فى فتانى القبر]

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما فتانى القبر فقال: عمر بن الخطاب رضى الله عنه أترد إلينا عقولنا يا رسول الله قال: نعم كهيئتكم اليوم فقال عمر: رضى الله عنه ففى فيه الحجر(١)..

قال أبو عبد الله رضى الله عنه قد فسرنا هذا الحديث فى الأصل السادس والعشرين، وبقيت علينا نكتة لم نأت على تفسيرها وذلك أنا سئلنا ما سبب هذه الفتنة فى القبر وقد انقطعت العبودة عند خروج الروح إلى الله موحدا، وانكشف الغطاء والجواب فى ذلك والله أعلم أن الله تعالى مَنَّ على الموحدين المؤمنين بمعرفته وتوحيده، وذلك من فضله ورحمته، وخاب الآخرون عن فضله ورحمته، وكان يبعث الرسول بعد الرسول إلى الأمم فكان الممنون(٢) عليه يؤمن به، ويتبع الرسول فى شريعته، والخائب يكذب الرسول ويتخذ من دون الله وليا يعبده فكان يمهلهم حتى يريهم الآيات ثم إذا لم يؤمنوا بعث عليهم عذابا، ودمرهم ثم ينشئ قرنا آخر فكان هذا سنة الله فى الذين خلوا من قبل، وقال فى

---

(١) ابن حبان فى صحيحه ـ كتاب الجنائز ـ باب فى الميت يسمع ويسأل ص١٩٦ من رواية عبد الله بن عمر، وأحمد فى «المسند» من حديث عبد الله بن عمر (٢/١٧٢)، والهيثمى فى «مجمع الزوائد» ـ كتاب الجنائز ـ باب السؤال فى القبر (٣/٤٧). وقال: رواه أحمد والطبرانى فى «الكبير» ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) الممنون عليه: المنعم عليه.

تنزيله عندما قص نبأ نوح وإبراهيم وعاد وثمود وشعيب، وموسى، وفرعون ثم قال:

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ (٣)

ثم بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٤)

وكان من رحمته أن أعطاه السيف بدل العذاب الذى كان يأتى الأمم بغتة (٥) فيهلكهم كى يخوفهم بالسيف حتى يدخلوا فى الإسلام طوعا، وكرها ثم إذا مرنت نفوسهم الكارهة فى الدين على شريعة الإسلام انقادت وأطاعت وزايلهم (٦) الغش والنفاق، ومنهم من لم يزل النفاق فيهم إلى أن مات فستر الله عليهم ذلك فكان المنافقون يخالطون المسلمين فى مناكحاتهم، ومواريهم، ومغازيهم، ومعاملاتهم والنفاق فى القلب، ولم يكن قبل ذلك نفاق إنما كان تصديق، وتكذيب لأنه لم يكن هناك تخويف بالسيف فكان المكذبون يجهرون بالتكذيب، حتى يأتيهم عذاب الله بغتة فلما جاءت هذه الأمة وخوفوا بالسيف، دخلوا فى الدين طوعا وكرها فجاءهم الابتلاء فى القبر ليظهر نصرة الله للمطيع فى الحياة الدنيا الثابت فى قبوله الإسلام، ويلقن الجواب عند السؤال، ويضل الله

---

(٣) العنكبوت (٢٩/٤٠).

الحاصب: الحجارة، وهى أيضاً الحصباء، يعنى قوم لوط. راجع أيضاً «لسان العرب» (١/٢١٠) والقاموس المحيط (١/٥٧) والطبرى (٢٠/٩٦) والقرطبى (١٣/٢٤٤).

(٤) الأنبياء (٢١/١٠٧).

(٥) بغتة: فجأة.

(٦) زايلهم: فارقهم.

الظالم الذى كان مع النفاق أيام الحياة (يحقق ما قلنا ما روى عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هذه الأمة تبتلى فى قبورها»)(٧) أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الأمة خصوصا وإنما ابتلوا ليميز الله الخبيث من الطيب، قال الله تعالى:

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (٨)

وقال:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (٩) الآية

وقال:

﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (١٠)

وقوله تعالى:

﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (٨)

---

(٧) تقدم هذا الحديث.

(٨) إبراهيم (١٤/٢٧).

(٩) آل عمران (٣/١٧٩).

(١٠) العنكبوت (٢٩/٣).

والفتنة الابتلاء، والاختبار وهى هنا فى هذه الآية المراد بها هنا القتل والتعذيب، وهو المختار عند الطبرى (٢٠/٨٣) والجامع لأحكام القرآن (١٣/٣٢٥).

تأويله والله أعلم أن من مشيئته أن يرفع مرتبة أقوام عن السؤال وهم الصديقون والشهداء.

(وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قيل له ما بال الشهداء لا يفتنون فى قبورهم، فقال: كفى ببارقة السيوف عليهم فتنة) معناه أنه أظهر صدق ما فى ضميره حيث برز للحرب، والقتل فلماذا يعاد عليه السؤال فى القبر فإذا كان الشهيد لا يفتتن فالصديق أحرى (١١) أن لا يفتتن.

(عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من مات يوم الجمعة أوليلة الجمعة وقاه الله فتنة القبر».

عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات مرابطا فى سبيل الله أجير(١٢) من فتنة القبر وجزى على صالح عمله الذى كان يعمله إلى يوم القيامة) فمن مات يوم الجمعة انكشف الغطاء عماله عند الله تعالى، لأن يوم الجمعة لا يسجر(١٣) جهنم ويغلق أبوابها فإذا قبض الله عبدا من عبيده يوم الجمعة (١٤) كان دليل سعادته، وحسن مآبه عند الله) فيوم الجمعة يوم الله الذى خلق فيه آدم، وذريته، ويومه الذى تقوم فيه الساعة فيميز بين الأحباب والأعداء ويومه الذى يدعوهم إلى زيارته فى جنات عدن، فلم يكن ليعطى بركة هذا اليوم إلا من كتب له السعادة عنده فلذلك يقيه فتنة القبر على أن سبب فتنة القبر إنما هو لتميز المنافق من المؤمن فى البرزخ (١٥) من قبل أن يلقى الله لأن كلا الصنفين صلى عليهما، وفعل

---

(١١) أحرى: أولى.
(١٢) أجير: حفظ وعوفى.
(١٣) يسجر: يعزم، يقال سجر التنور إذا أحماه.
(١٤) من علامات حسن الخاتمة موت المسلم يوم الجمعة أو ليلتها.
(١٥) البرزخ: ما بعد الموت وحتى البعث، وتسمى هذه الفترة: الحياة البرزخية.

بها سنة الموتى من الغسل، والتكفين فامتحنا بالسؤال.، ليهتك المنافق من ستره بقوله لا أدرى إذ ستر الله عليه نفاقه بجرمة ما أظهر من المنطق الجميل، فقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(وروى عن سفيان الثورى أنه جاء فى الخبر أنه عندما يقال له من ربك يدخل الشيطان عليه فيتمثل له ويشير إلى نفسه فيقول أنا) فطلبنا تحقيق هذا فوجدنا فى الأخبار (عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول عند دفن الميت «اللهم أجره من الشيطان».

عن سعيد بن المسيب قال: حضرت مع عبد الله بن عمر فى جنازة فلما وضعها فى اللحد قال: بسم الله وفى سبيل الله وعلى ملة رسول الله فلما أخذ فى تسوية اللبن(١٦) على اللحد قال: اللهم أجرها من الشيطان، ومن عذاب القبر، ومن عذاب النار، فلما سوى الكثيب(١٧) عليها قام جانب القبر فقال: اللهم جاف الأرض عن جنبها، وصعد روحها، ولقها منك رضوانا فقلت لابن عمر رضى الله عنها أشيئاً سمعته(١٨) من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم شيئاً قلته من رأيك قال: إنى إذا لقادر على القول، بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن عبد الله بن محمد أن إبراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم توفى فخرج به، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى أمام سريره ثم دخل قبره فلما رأه قد وضع فى اللحد فاضت عيناه فلما رأزا ذلك أصحابه بكوا حتى ارتفعت أصواتهم ثم أقبل أبو بكر رضى الله عنه فقال: يا رسول الله تبكى، وأنت تنهى عن البكاء فقال: يا أبا بكر

---

(١٦) أى الطوب اللبن، غير المحمى.
(١٧) أى كثيب الرمل.
(١٨) أى سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تدمع العين، ويوجع القلب، ولا نقول ما يسخط الرب ثم دفن فقال رسول الله صلى الله وسلم: أما من أحد يأتينا بماء نطهر به قبر إبراهيم فأتى بماء فأمر به فرش على القبر، ثم وضع يده اليمنى عليه من عند رأسه فقال: ختمت عليك بالله من الشيطان الرجيم، والله أعلم).

[الأصل الثامن والسبعون والمائتان فى استكمال العبودية]

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن يؤمن عبد حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» (1).

قال أبو عبد الله الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله هو العبودة التى لها خلقوا قال الله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (2)

وقال:

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ (3)

فالعبودة فى ترك الهوى واتباع ما جاء به فكل امرئ اجتمع فيه هذه الخصال الست فقد استكمل العبودة الحق والصواب، والعدل والصدق والأدب والبهاء، فإذا رفع أمرك إلى الله وقد اجتمعت هذه الست فيه لبق وإذا لبق قبل إذا عرض على الله وإذا صلى الرجل فدعته أمه فلم يجبها فالصلاة حق وليس بصواب فالحق كل أمر رضى الله به والصواب

---

(1) البغوى فى «شرح السنة» (1/213) وعقب بالهامش: إسناده ضعيف لضعف نعيم بن حماد، والهندى فى «كنز العمال» (1/217) وعزاه للحكيم وأبونصر السجزى فى الابانة، وابن رجب فى «جامع العلوم» ص496 عن ابن محمد عبد الله بن عمرو بن العاص ورفعه وذكر الحديث وقال النووى: حديث حسن صحيح رويناه فى كتاب الحج بإسناد صحيح.

(2) الذاريات (51/56).

(3) الأنعام (6/102).

كـل أمـر رضى الله به فى ذلك الوقت، وأما العدل فأن يكون قلبك فى إصـابـة الحـق والـعمل به لايميل إلى النفس يريد به الرياء وأما الصدق فـى الـعـدل فـأن يـرمى ببصر قلبه إلى موضع المشاهدة، وأما الأدب فأن تـضـع كـل شيء من الحركات موضعه وأما البهاء فوقاره وسكينته وزينته ولبقه.

[الأصل التاسع والسبعون والمائتان فى فضل العقل]

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل كيف عقله فإن قالوا غير ذلك قال: لن يبلغ» [1] وذكر للنبى صلى الله عليه وسلم عن رجل من أصحابه شدة عبادة واجتهاد فقال: كيف عقله قالوا ليس بشىء قال: لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون.

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله».

قال أبو عبد الله رضى الله عنه: فالعقل خلق مخلوق من نور البهاء مقسوم بين الموحدين من ولد آدم موضوع فى الدماغ، وإشراقه وشعاعه ومعتملة [2] فى الصدر بين عينى الفؤاد فهو مدبر لأمره، وآمر وزاجر ومميز ودليل وهاد، ومبصر فيه عرف ربه وبه علم ربوبيته، وبه نظر إلى تدبيره وإلى ما أظهر لخلقه من ملكه، وعجائب قدرته وصنعه وبه عرف

---

(١) الزبيدى فى «أتحاف السادة المتقين» (٨/ ٤٩٠) وقال: قال العراقى: رواه الحكيم الترمذى فى النوادر وابن عدى ومن طريق البيهقى فى الشعب وضعفه، والهندى فى «الموضوعات» ص٢٩ وقال: ضعيف وكل حديث ورد فيه ذكر العقل لا يثبت، والسيوطى فى «اللآلىء المصنوعة» (١/ ٦٧) وفيل مروان متروك وليس يشىء، الهندى فى «كنز العمال» (١٦/ ٣٥٤)، والسيوطى فى «الجامع الكبير» (٣/ ٣١٩) وعزاه للحكيم الترمذى.

(٢) معتملة: اضطرابه.

جواهر الأمور من أمر الدين والدنيا ، وبه نهض إلى ربه وذلك النهوض اسمه على ألسنة الخلق ، النية من قوله ناء ينوء أى نهض ينهض وإنما ينهض بقصده وإلقاء همته لا أنه ينخلع عن مكانه فهمه ، وقصده نيته ، وهى النهوض عن سكونه فهم القلوب يطير إلى الله بنور العقول التى لها كل على قدر حظه من العقل الذى قسم له ربه وبين القسم تفاوت وإنما تفاوتت الرسل والأنبياء عليهم السلام ، ومن دونهم من الموحدين فى منازل الدين وفى درجات الجنان غدا يتفاضل العقول ، فالعبادة والاجتهاد فيها من ذات النفس ، وما هو وبال على صاحبه لأن ذات النفس هى الهوى الذى حذرنا اتباعه فى التنزيل ؛ فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٣)

فإذا كانت العبادة والاجتهاد فيها مخرجها من تدبير العقل استقام الأمر وصفت العبادة ، وذهب الجهد من ضيق النفس ، وعسرتها والهوى يضيق أمرها عليها فإذا كان العقل ولى القلب غالبا للهوى ، فالهوى مقصى مدحور(٤) القلب آمر مؤمر عدل فى أمارته فلا يستعمل جارحة إلا بما يدبر له العقل ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع بعبادة رجل سأل عن عقله فإذا كان العقل مغلوبا كان القلب أسير الهوى ، والنفس فهو وإن اجتهد فى العبادة فعامة عبادته خطأ ، وجهل كما سبق فى قصة جريج الراهب .

---

(٣) ص (٣٨/٢٦) .
(٤) مدحوراً : مهزوماً .

[الأصل الثمانون والمائتان فى الثلاثة التى تحت العرش]

عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة تحت العرش القرآن له ظهر وبطن يحاج (١) العباد والرحم تنادى: صل من وصلنى، واقطع من قطعنى، والأمانة» (٢).

قال أبو عبد الله رضى الله عنه فظهر القرآن يحاج الظالمين أهل التخليط وبطن القرآن يحاج المتقصدين لأن ظاهر القرآن لأهل الجنان وباطن القرآن لأهل الغرف (٣) وهم السابقون وإنما يحاج المقتصدين، لأنهم أقاموا ما أنزل إليهم من ربهم على مجاهدة منهم لأنفسهم فأهل الجهد لا يقدرون على صفاء الأمر، وإنما يقيمونها مع كدورة النفس وعسرتها وترددها ونكدها، فلا يبلغون حقائق الأمور على الصفاء وإنما يبلغ حقائق الأمورصافية. السابقون الذين عتقوا من رق (٤) النفس (٤) فهم أحرار كرماء، وأولئك عبيد أتقياء كما قال عيسى عليه السلام لبنى إسرائيل لا عبيد أتقياء ولا أحرار كرماء.

---

(١) يحاج: يجادل.

(٢) أى وقطع الأمانة.

الزبيدى فى «أتحاف السادة المتقين» (١/ ٥٢٩)، والسيوطى فى «الجامع الصغير» (١/ ١٣٩) وعزاه للحكيم ومحمد ابن نصر عن عبد الرحمن بن عوف. ورمز له بالحسن، والبغوى فى «شرح السنة» -كتاب البر والصلة- باب ثواب صلة الرحم واثم من قطعها (١٣/ ٢٢)، والشجرى فى «الآمالى» (٢/ ١٣٠).

(٣) الغرف: جمع كثرة، والغرفات: جمع قلة.

(٤) رق النفس: عبوديتها.

[الأصل الحادى والثمانون والمائتان فى وصية نوح عليه السلام بنيه وهى أربع كلمات]

عن معاذ بن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «ألا أخبركم عن وصية نوح عليه السلام بنيه (١) حين حضره الموت قال: إنى واهب لك أربع كلمات هن قيام السموات والأرض وهن أول كلمات دخولا على الله تعالى، وآخر كلمات خروجا من عنده ولو وزن بها أعمال بنى آدم لوزنتهن، فاعمل بهن واستمسك حتى تلقانى أن تقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والذى نفس نوح بيده لو أن السموات والأرضين، وما فيهن، وما تحتهن، وزن بهؤلاء الكلمات لوزنتهن» (٢).

قال أبو عبد الله رضى الله عنه فنعم الوهب، ونعمت المواهب ونعم الموهوب له هذا نوح رأس المرسلين صلوات الله عليه، وعليهم أجمعين أوصى ابنه عند وفاته، وخروجه من الدنيا ثم صير الوصية هبة ليكون تمليكا، ولا يكون تمليك إلا من مالك فدلت هذه الكلمة من قول نوح عليه السلام إنى واهب لك أن هذه الكلمات وهبت لى فأنا واهب لك

---

(١) فى نسخة [ابنه] وهو تحريف من الناسخ.

(٢) ذكر ابن ماجة فى سننه (١٢٥٣/٢) حديثاً عن سمرة بن جندب بلفظ «أربع أفضل الكلام لا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» وهو بمعنى الحديث الذى أخرجه الحكيم فى النوادر عن معاذ بن أنس.

من قبل أن يزول ملك الهبة منى بمزايلة (٣) الروح الجسد، لأن أولاد الرسل إنما (٤) يورثون إرث النبوة بحكم الله قال الله تعالى:

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ (٥)

وقال زكريا عليه السلام:

﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ (٦)

وهذا الولد هو سام بن نوح فيما روى فى الخبر، وهو أب العرب، والعجم المجاورين للعرب، وهم فارس والروم، وأما حام فهو أب الحبشة والهند والسند، وأما يافث فهو أب الترك والصقالية ويأجوج ومأجوج، فكان هؤلاء الثلاثة ممن ركبوا السفينة معه وامتنع كنعان الابن الرابع وحال بينهما الموج فكان من المغرقين وإنما صارت هذه الكلمات الأربع قيام السموات والأرض، وما فيهن بالحق لأن الله تعالى خلق السموات والأرضين، وما فيهن بالحق لتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون، وحقيقة القيام بالحق فى الوفاء بمقالة سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وإنما يطالب الله عباده بحقيقة القيام بهذه الكلمات الأربع، حتى يرضى الحق فالسموات والأرض، ومافيهن مسخرات للآدمى ليقوم هذا الآدمى بمقالة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر منطقا، وعملا ووفاء لطهارة هذه الأربع ونزاهتهن وقدسهن فمن قام من الآدميين بهذه الأربعة بهذه الصفة التى وصفنا كان ولى هذه الكلمات وكان ولى الله وبه تقوم السموات والأرض، وما فيهن وإنما صارت فى الوزن أثقل من السموات والأرض وما فيهن وأوزن من أعمال

---

(٣) مزايلة: مفارقة.
(٤) لأن الأنبياء لا يورثون أموالاً ولا عقاراً. [يرثون] فى نسخة.
(٥) النمل (٢٧/١٦).
(٦) مريم (١٩/٦).

بنى آدم لأن هذه الكلمات عماد الأعمال، فبالتسبيح تطهر الأعمال وبالتقديس تحط أثقال النعم، والتهليل تقبل الطاعات، وبالتكبير ترفع وينال الثبات وأما قوله أولهن دخولا على الله وآخرهن خروجا من عند الله فإن هذه الكلمات رؤس الكلام، وأمناؤه ومهيمن على سائر الكلام فالأمناء أولهن دخولا على الملك يوم يقعد لعرض الأخبار(٧) وتدبير الملك فيرفعون إليه أمور الرعية ثم يأذن للرعية فيعترضهم فإذا خرجوا من عنده كان التدبير مع الأمناء وقضاء حوائج الرعية على أيديهم وقبول معاذيرهم، ونوال عطاياهم، فكذلك هذه الكلمات يدخلن على الله يوم تعرض الأعمال فى كل اثنين وخميس (٨) ثم تجىء الأعمال بعد ذلك على أثرهن فتعرض على الله فتزكية الأعمال، وتوفيرها من هؤلاء الأمناء يشهدون لها بالصدق وإذا خرجت الأعمال بقى هؤلاء عنده لتوفير التقصيرات، وتصحيح الأعمال وسؤال القبول، والثبات وتربية الأعمال وتقوية النفوس، ومدد القلوب، فهن المستأذنات للأعمال والمسهلات لسبل الأعمال والشفعاء والمزينات لأن على طريق العرض سماطى الملك، ملك الرحمة وملك العظمة وملك السلطان، وملك البهجة، وملك الجمال، وملك الجلال، وملك البهاء فهذه الكلمات تطرق الأعمال إلى مالك الملك، وتسهل السبيل، وتشفع وتزين وبهن يقرع الباب، ومثل ذلك مثل ملك أصبح فعرضت عليه أعمال الرعية، واجتمعت الرعية على باب الملك فأول من يدخل عليه الوجوه وسراة (٩) الرعية، والمختصون بالوسائل فإذا دخلوا عليه قربهم فى المجلس، وأدناهم من نفسه وأحلهم محل الأمناء والخاصة فإياهم يأتمن، وعليهم يقبل، ومنهم وإياهم يسعف بالحوائج ومن أجلهم يأذن لهم وعلى قدر ما يثنى كل واحد منهم

---

(٧) فى نسخة [لعرض الأجناد].
(٨) كذا ورد بالأصول.
(٩) سراة الرعية: أكابرهم، جمع سرى، وسراة كل شيء أعلاه.

على الرعية ، وينشر عن طاعتهم للملك ، وصدقهم ووفائهم ، ونصحهم بقبل الملك على هذه الرعية ، ويقضي حوائجهم ، ويجزل عطاياهم ، فهؤلاء وفود الرعية فهذا مثل هؤلاء الكلمات ثم للقائلين بها درجات تتفاوت ، ومثل ذلك مثل هذا الملك يجتمع ببابه هؤلاء الوفود فأول من يدخل عليه أوجههم عند الملك وأحسنهم هيئة ، وأعقلهم وأعذبهم منطقا ، وأفصحهم لسانا وأصبحهم وجها ، وأطهرهم خلقا ، وأبهاهم زيا ، وسمنا وأنقاهم ثيابا وأقصدهم مشيا ، وأفهمهم عنه إشارة ، وأوعاهم علما فالحظ كل الحظ والإسعاف كل الإسعاف بالحوائج لمن كانت هذه صفته من بين الوفد فكذلك هذه الكلمات قد وعتها القلوب ووعت معانيها الصدور ، وزينتها العقول لأفئدة القلوب وأشرقت أنوارها بين أودية الأفكار وعلى بصائر النفوس ، وأسماع هواجس (١٠) الأحلام فمن كان قلبه واعيا لنور الله الأعظم ، وصدره مشرقا بذلك النور ، وعين فؤاده منكشفة الغطاء عن زينة العقل ، وبهائه قدسد تراكم أنواره خلال الروايات (١١) واجتذت لها أبصار النفوس ، وأذنت أسماع الهواجس ، واحتشت (١٢) من نور الحياة فإنما تخرج الكلمات إلى الله من بين هذه الأشياء فهذا بحر الله فيه جواهر الله فإنما يصعد إلى الله جواهر قد غاص عليها قائلها من بحره فولى البحر أعلم بأثمان تلك الجواهر وقد عجز عن تحلم أثمانها جميع الخلق قال له قائل : ما أثمانها قال : حب الله فمن ذا يدرك حرارة الحب ، وفورانه (١٣) وشعله ويعلم كنهها إلا محبوبه الذى يشيره قال قائل : وكيف يثيره ؟ قال : يثير الحب الذى وضعه في العبد بالحب الذى عنه للعبد فمن خرجت منه هذه الكلمات من حبه فدخلت هذه الكلمات منه على الله كن أول من يدخل ثم يعرض أعماله بعد

(١٠) هواجس : جمع هاجس ، وهو خاطر النفس .

(١١) أى أثناء الروايات .

(١٢) أى غصت وامتلأت .

(١٣) أى ثورانه . وقد وردت بإحدى النسخ [فوارنه] وهو خطأ تحريف .

دخولهن ، وكل عمل إنما يقتضى ثوابه هذا الحب الذى إنما صار هذه الكلمات وجيهة عند الله بهذه الأشياء التى وصفنا وإنما نال هذه الأشياء بلب هذه الأشياء (١٤) ولبه حب العبد لله ولب ذلك حب الله لعبده ، ومن كان قلبه خاليا من جميع ما وصفنا إلا أنه مؤمن بهذه الكلمات ، قد تضمن توحيده نفس هذه الكلمات ، وعلما بها ومعرفة لها فهو مقر بها ناطق بها باستقرار القلب بذلك التوحيد ، والإيمان قد خلا قلبه عن أنوارها وحشو ما فيها فإنما يصعد إلى الله إيمانه بتلك الكلمات ، فيدخل من قائلها على هذه الهيئة وتلك على الهيئة ، فإنما تكون كلمته من الله قُربا ودنوا (١٥) ووسيلة ، وجواز قول ، ونوال عطية على قدر هيئته ، أو تلك على قدر هيئتها فاعتبر بهذا المثل الذى ضربنا لك بدءاً من شأن الملوك والسراة (١٦) المقدمين فى الاذن قال الله تعالى :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١٧)

﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ (١٨)

فالغائص فى بحر الله على هذه الكلمات هو عبد قد طالع مقاسم الكلمات هو عبد قد طالع مقاسم الكلمات كيف انقسمت على أمور العباد فى موضع المقسم على العرش ، وطالع حكمة التأليف لحروف الكلمات فى ملك الملك ، وطالع ما فى حشو كل حرف منها فى المبدأ فهو إذا نطق بها لاحظ المقسم فوجه يلحظه كل كلمة من معدنها التى عزيت هذه الكلمة إلى المعدن منه جرى إلى العبد وكل كلمة لها نوبة

---

(١٤) لبه: خالصه.
(١٥) دنواً: قرباً.
(١٦) السراة: الأكابر.
(١٧) الحشر (٥٩/٢١).
(١٨) العنكبوت (٢٩/٤٣).

مـن الأمـور والأفـعال ؛ فالتسبيح تنزيه من الهواجس ، والحمد يكشف عن النعم والصنايع ، والتهليل يبرأ عن العلائق ، والكبير يثبت القيومية له عن الـزوال ، فعين فـؤآده يـدور مع دوران لسـانـه حتـى تـقـسـم اللحظات الـكلمات على الأمور ، فيلاحظ الهواجس ويلاحظ النعم ويلاحظ الشرك ويـلاحـظ الـزوال فـيـنـتـقل لحظاته كما ينتقل دوران لسانه من كلمة إلى كلمة .

[الأصل الثانى والثمانون والمائتان فى رأس النعم وشكر المنعم]

عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى فى البيت كسيرة ملقاة فمشى إليها فرفعها ومسحها وقال: «ياعائشة أحسنى مجاورة نعم الله فقلّ ما نفرت عن قوم فكادت ترجع إليهم» (١).

قال أبو عبد الله رضى الله عنه: فرأس نعم الدين نور التوحيد معرفة بالقلب وشهادة باللسان أن لا إله إلا الله، ورأس نعم الدنيا هذا الجسد الذى هو قالب لهذه النعمة الفائقة للنعم فإن الله تعالى أنعم عليك بنور التوحيد، حتى عرفته، ثم وضع حول قلبك فى صدرك بيدراً (٢) من الأنوار يتربى فيها نور المعرفة وأنعم عليك بهذا القالب المجسد ووضع حوله بيدرا (٢) من نعم الدنيا يتربى فيها هذا الجسد، وأمرت بحسن مجاورة نعم هذين، فحسن المجاورة مع نور المعرفة أن لا تذكر كل شىء (٣) سواه وأن لا تؤثر عليه أحدا وأن لا تقرن بمشيئاته مشيئات النفس وأن لا يلهيك (٤) الهوى عن الوله (٥) إلى الله تعالى فى كل حالاتك. وحسن مجاورة الجسد أن لا تستعمل جارحة من جوارحك إلا له ولرضاه عز وجل.

---

(١) ابن ماجة فى سننه ـ كتاب الأطعمة ـ باب النهى عن إلقاء الطعام (١١١٢/٢) عن عائشة، وأبو يعلى فى مسنده ف(١٦٧/٢)، والخطيب البغدادى فى «تاريخ بغداد» (٢٢٩/١١) من رواية مالك عن عائشة.

(٢) البيدر: ربما أراد المؤلف البدر.

(٣) كذا ورد بالأصول. وفى نسخة [تنكر كل شىء].

(٤) يلهيك: يشغلك، ويصرفك عنه.

(٥) الوله: شدة الوجد والتحير وذهاب العقل من الحب.

[الأصل الثالث والثمانون والمائتان فى طنين الأذن]

عن أبى رافع رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا طنت أذن أحدكم فليصل على النبى عليه السلام، ويقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ذكر الله من ذكرنى»(1) وعن عبيد الله بن المغيرة رضى الله عنه أنه كان يقال: إذا ضرب أذن العبد فإن الله يذكره فليذكر الله أو فليحسن ذكر الله.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الأرواح لتتلاقى فى الهوى، وأحدهما من صاحبه على مسيرة يوم وليلة وأن الأرواح خلقت قبل الأجساد بألفى عام فتشامت(2) كما تتشام الخيل، ثم هى جنود مجندة فإذا التقوا فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

هذا كله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال سلمان للحارث: كيف أنت ياحارث قال: ومن أين عرفتنى قال: عرف

---

(1) الطبرانى فى «الكبير» (301/1) من رواية ابن رافع.
ـ وابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» باب ما يقول إذا طنت أذنه ص58.
ـ والنووى فى «الأذكار» باب ما يقول إذا طنت أذنه ص133.
ـ والشجرى فى الآمالى (129/1) عن معمر بن محمد بن عبيد الله بن أبى رافع مولى النبى صلى الله عليه وسلم.
ـ والهيثمى فى «مجمع الزوائد» ـ كتاب الدعاء ـ باب ما يقول إذا طنت أذنه (138/10) وقال: رواه الطبرانى فى الثلاثة، والبزار باختصار شديد وإسناد الطبرانى فى الكبير حسن.
(2) تشامت: يقال شام مخايل الشيىء: تطلع نحوها ببصره منتظراً له.

روحى روحك، وكذلك قال أويس لهرم بن حبان رحمها الله ولولا أن الرّوح مشغولة بالنفس وشهواتها لأوردت عجائب على صاحبها من درك الأشياء لأن لها سطوعا فى الجو تجول ثم تصعد إلى الله إلى مقامها الذى منه بدت ولكنها تدنست بما لبست من أثواب اللذات وتكدرت بما شربت من كأس حب الدنيا، وخالطت الهوى، ومالت نحوه فمن صفاه وأخلصه ونزهة فقد ظفر بنور اليقين، وفاز بالحظ العظيم، والكأس الأوفى.

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قبض قيل له إلى أين يا رسول الله قال: إلى السدرة المنتهى) فلكل رسول فى السماء مستقر إذا قبض، فلأدم عليه السلام فى السماء الدنيا وليحيى وعيسى عليهما السلام فى السماء الثانية، وليوسف عليه السلام فى السماء الثالثة، ولإدريس عليه السلام فى السماء الرابعة، ولهارون عليه السلام فى السماء الخامسة، ولموسى عليه السلام فى السماء السادسة ولإبراهيم عليه السلام فى السماء السابعة، ولمحمد صلى الله عليه وسلم فى السدرة المنتهى، بباب الله عند الحجاب فهو متشمر هناك يسأل الله لأمته فى كل يوم، لكل صنف فللمتهافتين التوبة وللتائبين الثبات، وللمستقيمين الإخلاص، ولأهل الصدق الوفاء، وللصديقين وفارة الحظ.

(وكذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «حياتى خير لكم ومماتى خير لكم» (٧).

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أنى لكم بمكان صدق حياتى وإذا مت فقال عمر رضى الله عنه: يا رسول الله إذا مت قال: لا أزال أنادى فى قبرى: رب أمتى أمتى

(٣) هذا الحديث ذكر كثير من الحفاظ أنه موضوع.

حتى ينفخ فى الصور النفخة الأولى ثم لاتزال دعوتهم لى مجابة حتى ينفخ فى الصور النفخة الثانية).

فطنين الأذن من قبل الروح أنه بحدة بصره، وخفته وطهارته، حياته وسطوعه إلى المقام أدرك فى وقت سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم بباب الله له(٤) وذكر الله إياه بخير فرجع إلى أصله المتمكن فى رأسه وقلبه بذلك الخير والبشرى، فطنت الأذن لصوته، وما جاء به من الخير، فلذلك قال: فليصل على النبى صلى الله عليه وسلم لأنه ذكره عند الله فى ذلك الوقت، وطلب منه شيئا فاستوجب منه الصلاة؛ ليكون فيه أداء حقه، فهذا وما أبه مكرمات الموحدين من ولد آدم عليه السلام، وكذلك العطاس هو فى ذلك الوقت ذكر من الله لذلك الروح بخير فابتهج الروح وسطع نوره، فذلك الصوت من سطوعه، ولذلك قيل عطس و سطع، وهما كلمتان مستعملتان فى نوعين يقال عطس وسطع فلذلك أمر أن يحمد ربه وأول من فعل ذلك آدم عليه السلام لما استقر فيه الروح، وذكر بخير فازدهر وسطع نوره كالمسرور.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: العطاس من الله.

وقال صلى الله عليه وسلم: من حدث بحديث فعطس عنده فهو حق)(٥) لأن ذلك وقت ذكر الله للأرواح فلا يقول صاحبه إلا حقا، ولذلك وجب للمسلم على المسلم حق التشميت لأنه ظهر عليه أثر نعمة(٦) الله تعالى فى ذلك الذكر.

(وروى أنه قال الله: ياداود سمعت عاطسا من وراء سبعة أبحر فاذكرنى)

---

(٤) بياض بالأصول.

(٥) هذا الحديث تقدم، وقد ذكرنا أنه موضوع.

(٦) فى نسخة [أثر رحمة الله].

[الأصل الرابع والثمانون والمائتان فى أن الدنيا ملعونة إلا عن ثلاثة]

عن عبد الله بن حمزة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا ملعونة ملعون من فيها إلا من ذكر الله أو معلم أو متعلم» (١).

قال أبو عبد الله رضى الله عنه: فالدنيا هذه الدار التى دورت أرضها تدويراً بجبل قاف، وأحيط عليها بالجبل، والآخرة هى الدار الآخرة وهذه أولى، قال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (٢)

وسميت هذه دنيا لأنها أدنى إليك والآخرة تعقب هذه إذا ذهبت هذه جاءت تلك فتلك اسمها عاقبة قال الله تعالى:

﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣)

---

(١) الترمذى فى سننه -كتاب الزهد- باب منه فى هوان الدنيا على الله عز وجل (٤/ ٥٦١) وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجة فى سننه -كتاب الزهد- باب مثل الدنيا (٢/ ٣٧٧)، والبغوى فى «شرح السنة» (١٤/ ٢٣٠) من رواية لعبد الله بن ضمرة مرفوعاً، وابن عبد البر فى كتابه «جامع بيان العلم وفضله» باب الحث على طلب العلم وتعليمه (١/ ٢٧).

(٢) الليل (٩٢/ ١٣).

(٣) الأعراف (٧/ ١٢٨).

وسميت هذه عاجلة لأنها عجلت ، وتلك آجلة لأنها أجلت ؛ ففى هذه الدار زينة وحياة وفى تلك الدار زينة وحياة ، وحياة هذه من الروح المركب فى هذا القالب الذى هو من اللحم والدم والعظم والعصب ، والعروق ، والشهوة ، واللذة فى هذا القالب ، وأصل الشهوة من الفرح ، وأصل اللذة من الذهن وأصل القالب من التراب ، والحياة مسكنها فى الروح ، والروح مسكنه فى الدماغ ثم هو منفش فى جميع الجسد وأصله معلق فى الوتين (٤) عرق القلب مشدود هناك ، وذلك العرق نياط القلب (٥) والنفس (٦) مسكنها فى الباطن ، ثم هى متفشية (٧) فى جميع الجسد ، وأصلها مشدود بهذا العرق والشهوات فى النفس ، واللذة منها وعملها من الذهن ، فهذه الزينة والحياة التى فى النفس تستعمل هذا القالب ، فما كان من عمل العين خرج إلى العين ، وما كان من عمل السمع خرج إلى السمع وما كان من عمل المنطق خرج إلى اللسان ، وما كان من عمل اليد خرج إلى اليد ، وما كان من عمل الرجل خرج إلى الرجل فخرجت أعمال الجوارح السبع من الفرج الذى فى القلب ، ومن الزينة والحياة التى فى النفس ، فإذا حزن القلب ذبلت النفس ، وانطفأت نار الشهوة ، وتعطلت الجوارح عن العمل وسكنت الحركات ، وإذا فرح القلب هاجت النفس ، وصارت قوية طرية ، وأثارت نيران الشهوات واستعملت الجوارح ، فالفرج رأس مال أعمال الجوارح ، والعبد مبلو بهذا الفرج ، فإذا حيى القلب بالله ففرح بشىء من زينة الدنيا تراءى بذلك النور الذى فى قلبه وتلك الحياة التى لقلبه صنع الله فى تلك الزينة وخلقه لها ورحمته فيها ، ورأفته على عبده ، بذلك فقبلها من ربه واستبشر بها وصار ذلك الفرح لله ، ونطق بالحمد لله

---

(٤) الوتين : العرق الأبهر المتصل بالقلب ، يقطعه يموت الإنسان .

(٥) نياط القلب : حياله .

(٦) فى نسخة أخرى [متنفس] .

(٧) متفشية : منتشرة ، مبثوثة .

وأضمر على الطاعة شكر الله، وإظهاراً لعلمه أن هذا له من الله حتى يأخذ الفرح من صدره فى جميع جوارحه، فيذهب كسله، وتقوى عزيمته، وتتجدد نيته وتطيب نفسه، فهذا عبد حامد لله شاكر له قد صدق علمه بأنه من الله يقول بلسانه: الحمد لله، ثم يصدقه بفعل جوارحه شكراً لله، وإذا هاج الفرح بتلك الزينة من قلبه، وكان قلبه محجوباً عن الله، وصدره مظلماً بغيوم الهوى، ودخان الشهوات، ورين الذنوب، لم يتراءى لعينى فؤاده فى صدره صنع الله تعالى فى تلك الزينة، ولا خلقه لها، ولا رحمته فيها، ولا رأفته عليه، فجاء الهوى بكبره، والنفس بعلوها وتجبرها فصار الفرح للنفس، وبالدنيا وبمراءاة الأشكال، ومباهاة الأضداد فظهر الفساد من الجوارح، وخرجت السيئات من الجسد، كل سيئة من معدنها من قلة الرحمة، وقلة المبالاة، وترك النصيحة، وظهرت الفظاظة، واليبوسة، والغلظة (٩)، والقسوة، ورذائل الأخلاق حتى صارت الجوارح إلى الغش، والمكر، والمخادعات، وإلى أفعال الجسد، وإلى سوء النيات، والمقاصد وخرج إلى الفرعنة والتجبر كل على قدره يتنعمون بنعم الله، ويتلذذون بتلك الزينة، وتلك اللذات فرحاً وأشراً، وبطراً فى هيئة أهل الكفر بالله، والجحود له فقد تبين أن أصل هذا الأمر كله الفرح فمن قدر أن يصرف هذا الفرح منه إلى الله فى كل عمل، وفى كل أمر من دنيا أو آخرة بنور قلبه وإلا فقد وقع فى الوبال (١٠) فإن كان فرحه فى أمر الدنيا أشر، وبطر وإن كان فى أمر الآخرة أعجب وتكبر وصار مرائياً، فمن صرف ذلك إلى الله، لم يزدد لربه إلا خشوعاً، وحباً فحمده، ودعاه ذلك إلى شكره بجميع جوارحه، وذلك حفظ الجوارح السبع على أمر الله وإقامة فرائض الله،

---

(٨) مبلو: مبتلى.

(٩) فى نسخة [والعطلة] وهو تصحيف من الناسخ.

(١٠) الوبال: الهلاك.

والقيام بحقوق الله، ومن لم يقدر على ذلك سباه (١١) فرحه، فصار سبياً من سبى النفس، وإذا نالت النفس الفرح كان بمنزلة رجل متغلب وجد كنزاً وأموالاً جمة، فاحتوى عليها، وفرقها فيمن اجتمع إليه من الغوغاء (١٢) حتى صاروا أعوانه، وأتباعه فخرج بتلك القوة على أمير البلد، وعمد إلى الأمير فسجنه، فالأمير فى الوثاق (١٣) فى السجن، والخارجى يرؤس أهل البلد، فإن تداركه أمير المؤمنين بمدد وجيش، وكنز فقد نصره وإن تركه مخذولاً فقد ذهبت الامرة فهذا شأن القلب مع النفس وقد حذر الله تعالى عباده فى تنزيله فى قصة قارون فقال: _

﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ (١٤)

وقال:

﴿ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴾ (١٥)

وقال تعالى:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١٦)

فذلك على الفرح بفضله ليصرفك عن الفرح بالجمع، فإن فرح الجمع هلاك الدين، والقلب، وفرح الفضل، والرحمة يؤديك إلى الله لأن كل

---

(١١) سباه: أسره.

(١٢) فى نسخة [الغواة] وهو تحريف خطير.

(١٣) الوثاق: القيد.

(١٤) القصص (٢٨/٧٦) لا تفرح: لا تبطر، ولا تأشر وليس النهى عن مجرد الفرح. راجع تفصيل ذلك عند الطبرى (٢٠/٧١) أما السرور فليس بمكروه.

(١٥) الرعد (١٣/٢٦).

(١٦) يونس (١٠/٥٨).

فضل الله سبحانه وتعالى: الإسلام، ورحمته القرآن. راجع الطبرى (١١/٨٧).

من فرح بشيء أقبل عليه وطلبه، فإذا رأى الله من عبد إقبالاً على هذه الدنيا الدنية، وعلى هذه الشهوة الرديئة أعرض عنه، ووكله إليها حتى يكون همه دنياه، وهمته شهوات نفسه، وطلبه العلو فيها، حتى يضاد أقضية الله وتدبيره فخسر الدنيا والآخرة، وإذا رأى إقباله على ربه صنع له جميلاً، وهيأ له تدبيراً ينال به فوز العاجل، والآجل، وسعادة الدارين.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فما أقبل عبد بقلبه على الله إلا أقبل الله تعالى عز وجل بقلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع» فإذا نظر الله إلى عبد بالرحمة، وقلبه مأسور(17) في إسار النفس أمده من عنده بما إذا صار المدد إليه تاب، ومن رحمة الله تعالى على عبده إقباله فإذا أقبل عليه تلظت(18) جمرة الإيمان في القلب، فتوردت(19) أشجار الخيرات، وأينعت كما تتورد بساتين الدنيا، وتتورد أشجارها إذا وجد الحر فإذا وجد القلب هذه القوة أقبل على النفس بالزجر لها بسلطان قوى؛ حتى يقمعها(20) بمنزلة ما ضربنا له من المثل الخارجي إذا سمع أن جيش أمير المؤمنين قد أقبل هرب عن البلد وخلى عنها، وخرج الأمير من السجن فقعد في أمرته وأحتوشته(21) الجنود، وفرق الأموال، والكنوز التي جاءته من أمير المؤمنين في جنده وقصد الخارجي يحاربه، ويتباعد قليلاً قليلاً، والأمير خائف من هذا الجند، لا يأمن بياته وافتراصه(22)، فهو مشغول بحرس

(17) مأسور: مقيد في إسار، وهو القيد.
(18) تلظت: استقرت وتوقدت والتهبت.
(19) توردت: أي نضرت كالورد.
(20) يقمعها: يقهرها ويذلها.
(21) احتوشته: أحصرته واستولت عليه.
(22) افتراضه في نسخة [افتراضه] وهو تصحيف.

جنده، ونفسه، ويسأل أمير المؤمنين زيادة فى مدده(٢٣) فلا يزال يمده حتى إذا أمده بغاية المدد أخذه أسيراً، ويكون الخارجى قد نظر إلى كثرة المدد فعلم أنه لا يقاوم أمير المؤمنين، فألقى بيده سلماً وأسلم، وتاب على يدى أمير المؤمنين، فهذه صفة التائب إذا تاب احتاج إلى مجانية النفس، ومجاهدتها فى كل أمر؛ فلا يزال كذلك، ويزداد مدداً وهو لا يأمنها مع ذلك المدد، يخاف أن يثب وثبة من زوايا جوفه فيأخذه لأن مكرها أعظم من أن يوصف، حتى إذا تجلى لقلبه شأن الملكوت وأشرق فى صدره أنوارها؛ فامتلأ صدر العبد من جلال الله، وعظمته فبسلطان الجلال يأسر النفس ويسبيها، وبالعظمة يولهها فأما إن يأخذها بتلك القوة فيحبسها حتى تموت فى سجن القلب غماً وإما أن تلقى بيديها سلماً وتذعن(٢٤) للقلب وتنقاد له فتصير فى يدى القلب كالأسير؛ حتى إذا وجدت تلك اللذات التى وردت على القلب من تلك الملكوت من العطايا اعتصمت بالقلب؛ فتركت لذاتها الفانية الدنية فعندها وصل العبد إلى أوائل العبودة، ووضع فى هذا القالب الحياة، والحياة فى الروح والنفس، وهما ريحان أحديهما أرضية والأخرى سماوية فالحياة ههنا فى الروح، والنفس والجسد قالب، فإذا خرجا بقى القالب لحماً مواتاً وحياة الآخرة فى كل شىء منه فكل شىء منه حى من قرنه إلى قدمه كل شعرة وكل ظفر حى بحياته وذلك إذا شربوا ماء الحياة بباب الجنة، قال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٥)

أخرجه على قالب فعلان لبلوغ الغاية فى التكثير كقولك: رحمن ورحيم، وعريان وعار، والذى يشرب ماء الحياة فى الآخرة يجد اللذة والنعيم

---

(٢٣) المدد: المعونة.

(٢٤) تذعن: تخضع.

(٢٥) العنكبوت (٢٩/٦٤).

كل شعرة منه على حدتها ويقوى على نعيم الجنة بقوة تلك الحياة فجميع ما في هذه الدار التي سميت دنيا كله متاع هذه الحياة والمتاع المنفعة والبلغة قال الله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾

إلى قوله:

﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (٢٦)

ثم قال:

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ (٢٧) الآية

ثم ضرب المثل بالغيث ليريك عاقبتها وقال:

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (٢٨)

ثم قال:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ (٢٩)

ثم أخبرك لأي شيء جعل هذا فقال:

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٣٠)

ثم ضرب المثل فقال:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (٣١)

---

(٢٦) آل عمران (٣/١٤).
(٢٧) الحديد (٥٧/٢٠).
(٢٨) الحديد (٥٧/٢٠).
(٢٩) الكهف (١٨/٧).
(٣٠) الملك (٦٧/٢).
(٣١) يونس (١٠/٢٤).

ثم قال فى آخره :

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ (٣٢)

ثم قال :

﴿ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ (٣٣)

وبين ذلك الخير ما هو فقال :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (٣٤)

ثم بين لمن هى فقال :

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾

إلى قوله :

﴿ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ (٣٥)

وإنما صارت الدنيا ملعونة مذمومة من أجل أنها غرت النفوس بنعيمها وزهرتها ولذتها والشهوة واللذة فى النفوس فإذا ذاقت النفوس طعم النعيم اشتهت ولذت فمالت عن العبودة إلى هوى النفس، وإنما جعلها زينة فى نفوس العباد، وأعطى من تلك الزينة العدو ليوسوس بتلك الزينة، ويمازج بها تلك الزينة التى وضعها الله فى العباد، وحبها وشهوتها ليبلوهم (٣٦) أيهم أحسن عملا فى هذه الزينة ليتواضع لله فيما أعطاه من

(٣٢) دار السلام: من أسماء الجنة.
(٣٣) آل عمران (٣/ ١٥).
(٣٤) البينة (٩٨/ ٨).
(٣٥) آل عمران (٣/ ١٦، ١٧).
القانتون: المصلون. وقد بيّن الطبرى فى تفسيره (٥/ ٢٣٤) الوجوه المختلفة التى تتصرف عليها كلمة القنوت. فراجعها إن شئت.
(٣٦) ليبلوهم: ليختبرهم.

الزينة، ويشكره عليها أو يتكبر عليه، ويكفره كما قال سليمان عليه السلام حيث قال:

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ (٣٧)

فقال ذلك الجنى:

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ (٣٨)

فاستبطأه فقال الذى عنده علم من الكتاب، وهو اسم الله الأعظم:

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾(٣٩)

أعنى السرير قال:

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (٤٠)

أى أقدر هذا الإنسى على ما لم أقدر عليه وأعطى ما لم أعط، فابتلانى برؤية ما أعطى؛ ليبلونى ءأشكر فأعتده بما أعطاه من نعمة على لأنه من خولى أو أحسده فأكفر النعمة، فهذه الأشياء إنما غرت المفتونين الذين لما تناولوها عميت عيونهم عن تدبير الله وتقديره، وسياقته إليهم، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا؛ فوضع الله

---

(٣٧) النمل (٢٧/٣٨).

(٣٨) النمل (٢٧/٣٩).

أى أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك هذا، والمقام: هو المجلس. راجع التفسير فى الطبرى (١٩/١٠٢) ولسان العرب (١٥/٣٩٩).

(٣٩) النمل (٢٧/٤٠) قبل أن يرتد إليك طرفك: أى قبل أن تطرف، ولكن ذكر بعض المفسرين أن المراد بذلك: «قبل أن يأتيك الشيىء من مد البصر» راجع «البحر المحيط» (٧/٧٧).

(٤٠) النمل (٢٧/٤٠).

تأمل فطنة سليمان حيث أدرك فى توه أن هذا ابتلاء، واختبار، ولم يقل إن هذه ولاية أو كرامة، كما يزعم كثير من المغرورين والفتونين.

الدنيا مع زينتها وبهجتها وخلقنا فيها فحرم، وأحل، وأمر، ونهى، فمن انتهى عن المحرمات وأدى الفرائض وتناول من الدنيا فعبده بتناولها لأنه أخذها على الحاجة، ومن السبيل التى أطلقت له فقد خرج من الذم وبرىء من الدنيا المذمومة وإن تناول بشهوة ونهمة فى غفلة عن الله تعالى؛ فقد أخذ الدنيا المذمومة ولا يصل إلى هذه المرتبة التى تبرأ من عارها، وذمها ووبالها إلا من وصل إلى الله فعظمته على قلبه، وخشيته فى صدره، وذكره دائم على لسانه، فليست هذه دنيا مذمومة وإنما هو رزق ومعاش، وتزود يأخذ العبد من مولاه ليقوم بخدمته لأنه خلقه للخدمة، وجعل هذه الأشياء كلها سخرة له؛ فهو يأخذه من السخرة للخدمة، والآخر يأخذ من هذه السخرة لقضاء الشهوة، والنهمة ليفرح بها أيام الحياة ليلهيه ذلك الفرح عن الله تعالى، ويورثه الغفلة حتى يهتاج منه الكبر وينظر إلى نفسه، وهيأته وما أعطى من الدنيا فيعجب به فيفاخر الناس، ويناطح أشكاله؛ فهو عبد فرجه عبد بطنه عبد هواه قد دخل فى لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «لعن عبد الدينار، لعن عبد الدرهم»، ثم قال: «بئس العبد عبد نسى المبتدأ والمنتهى، بئس العبد عبد سها ولهى، ونسى القبر والبلى، بئس العبد عبد تجبر واعتدى، ونسى الجبار الأعلى، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى، يضله، بئس العبد عبد يختل الدنيا بدينه»، فهذا كله جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته، وقال الله تبارك وتعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ (٤١)

---

(٤١) القصص (٢٨/٨٣).

روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: «إن الرجل ليعجبه شراك نعله يريد به أن يكون أجود من صاحبه فيدخل فى هذه الآية» فاللعن واقع على ما يطلب به العلو ويلهى عن ذكر الله، وعلى ما غرك من الدنيا لأعلى النعيم، واللذة فإن النعيم واللذة قد تناولته الرسل والأنبياء والصديقون عليهم السلام فردهم تناولهم إلى الله ذكراً وشكراً ثم آووا منه إلى المأوى، وهو حفظ الحدود والقيام بحقوق الله تعالى فذلك محل الاستثناء والله أعلم.

[الأصل الخامس والثمانون والمائتان فى أن القنوت وقوف العبد وإقباله وركود وخشوع]

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل حرف ذكر الله فى القرآن القنوت فهى الطاعة»(١) قال أبوعبدالله رضى الله عنه: إنما صرفه إلى الطاعة لأنها أكشف الأشياء وأشهرها عند الناس، والعامة إنما تعرف الطاعة والمعصية فكل ما أمر الله به فهو طاعة وكل ما نهى عنه فهو معصية، فأما حاصل الاسم فالطاعة بذل النفس لله فيما أمر ونهى، والمعصية إمتناع النفس واشتدادها لأن الله تعالى دعا العبد إلى الوقوف بين يديه كالعبيد فالمؤمنون أجابوا دعوته وقبلوا العبودة ثم دعاهم بعد ذلك إلى شىء بعد شىء فمن أئتمر بأمره وانتهى عن نهيه فقد وفى بتلك الإجابة فى المبتدأ، وبذلك القبول فقيل أطاع فهو مطيع أى أعطى ذلك البذل الذى قبله فى المبتدأ فقوله: أعطى وأطاع مشتق بعضه من بعض، وحروفها فى العدد سواء وفى التأليف مختلفة، قدم العين هنا وأخر العين هناك؛ ليستعمل هذا فى عطاء العبودة، ويستعمل ذاك فى عطاء الأشياء المملوكة، والمعصية من التعيص وهو اشتداد النفس وامتناعها ومنه سمى العصا، يقال فى اللغة تعيص عليه أى امتنع وتشدد، وأما القنوت فهو الركود وكل شىء استقر

---

(١) السيوطى فى «الجامع الصغير» (٩٢/١)، وعزاه لأحمد وابن يعلى وابن حبان عن ابن سعيد ورمز لضعفه، وأحمد فى «المسند» من حديث أبى سعيد الخدرى (٧٥/٣)، والهيثمى فى «مجمع الزوائد» ـ ك.ب التفسير. باب تفسير سورة البقرة (٣٢٠/٦).

فى مكانه فلم يتحرك فهو راكد، ومن ذلك سمى الماء راكداً إذا أمسك عن الجرى، والسفن رواكد قال الله تعالى:

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦ ﴾ (٢)

يقال قنت ونتق والنتوق أن يقابل الشىء بالشىء راكداً عليه.

وذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ (٣)

ومنه قول على رضى الله عنه حيث سئل عن البيت المعمور فقال: «هو بيت فى السماء السابعة نتاق هذا البيت» أى بحذائه، والقنوت مقابلة قلبك عظمة من وقفت له وبين يديه فإنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا صلى العبد أقبل الله عليه بوجهه» فمن حق إقباله عيه أن يقبل العبد بقلبه على عظمته وجلاله؛ فهذه مقابلة العبد بقلبه قبالة (٥) ربه فهذا القنوت ومرجعه إلى ما كشفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «هو الطاعة» لأنه إذا قابله بقلبه فقد أعطاه بذل النفس فقد أطاعه، وإنما صار إذا قابله باذلاً لنفسه لأن القلب إذا لاحظ ببصر فؤاده جلاله، وعظمته خلص إلى النفس هول الجلال، والعظمة فانقبضت وانقمعت، وانخشعت، وذهلت عن هشاشتها، وخمد تلظى نيران شهواتها لما أحست به

---

(٢) الشورى (٣٣/٤٢) يقصد بذلك: أى يظللن سواكن على ظهر البحر.

(٣) الأعراف (١٧١/٧).

نتقنا الجبل: زعزعناه، وقد كان نتق الجبل أن قطع جزء منه على قدر قوم موسى فأظل عليهم كالغمامة، فقال لهم موسى: إما أن تقبلوا التوراة وإما أن يسقط عليكم. راجع الطبرى (٧٥/٩).

(٤) فى نسخة أخرى [حين سئل] وهو تحريف.

(٥) قبالة ربه: أمامه.

عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله تعالى :

﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ (٦)

قال : القنوت الركود والخشوع فجاد ما غاص مجاهد صار إلى الأصل وأما التى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قانتين أى مطيعين فقول ابن عباس رضى الله عنهما ظاهر التفسير، وقول مجاهد باطن التفسير، وقوله تعالى :

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ ﴾ (٧)

روى فى التفسير أنه قال : قومى لربك والقيام غير القنوت ، ولو كان القنوت قياماً لاستحال أن يقول قوموا لله قانتين ، والقنوت صفة تحدث عن القيام ، فقوله تعالى لمريم : « اقنتى لربك » أى أطيعى ربك فهذا تفسير ظاهر ولكن أريد من مريم القنوت فى الباطن ، وهو أن تقبل بقلبها على الله مظلاً على النفس ، مشتملاً على شهواتها لئلا تتحرك ، وتتفرق غلياناً وتجيش (٨) حتى يفور دخانها إلى الصدر إلى محل إشراق نور الألوهية ، فإنه ليس من حق عطايا ربنا أن يعطى عبداً إشراق نور عظمته فى صدره فيهمل العبد حراسته ورعايته حتى تفور حرارة شهواته كفوران القدر التى تغلى إلى صدره كالدخان بين يدى نور العظمة فى صدره ، فإذا فعل ذلك حجب لأن ذلك الفوران كالدخان ، فإذا هاج من النفس ، وتأدى إلى الصدر امتنع الإشراق ، واحتجب وبقى العبد محجوباً كأنه صار خالياً من الزكاء فأمرت مريم بالقنوت أى بالدوام وبالركود بمقابلة القلب قبالة عظمة الله حتى يدوم لها التعظيم لجلال الله ، ولذلك سمى دعاء الوتر قنوتاً لأن الصلاة وقوف تخشع وتذلل يؤدى

---

(٦) البقرة (٢/٢٣٨).

(٧) آل عمران (٣/٤٣).

(٨) تجيش : تفيض.

فرضه فإذا اقنت فإنما خرج من صلاته التى افترضت عليه وقال له متعرضاً (٩) لربه إلى موقف آخر لرغبة أو رهبة فسمى قنوتاً لأن ذلك مقام، خرج من فعل صلاته إليه ودخل فيه بتكبيره فقابل بقلبه محل الرغبة والرهبة، ومن قبل التكبيرة كان فى محل التذلل، والتخشع بين يدى عظمته، والآن فى محل الرغبة والرهبة بين يدى جوده وكرمه فتباين التقابلان والموقفان.

(٩) فى نسخة أخرى [مفترضاً لربه].

[الأصل السادس والثمانون والمائتان في عثرة الحليم وتجربة الحكيم]

عن أبي سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا حليم إلا ذو عثرة ولا حكيم إلا ذو تجربة»(1).

قال أبو عبد الله رضى الله عنه: فالحلم يعطى العبد من نور الجود فإذا خلص إلى القلب نور الجود انحلت عقد النفس، وكلت مخالبها (2) وتخلص القلب من رق النفس ومن سخرتها (3) ووثاقها (4) واتسعت النفس بما نالت من القلب من نور الجود، فتولدت السماحة (5) فيها فظهر الحلم وهى فى تلك السعة، سعة الحلم غير عالمة بالتمسك بتلك السعة، والسماحة وإذا عثرت؛ فوقعت فى الذنب فهناك تبصر، وتنفسح لما رأت عثرتها اتسعت لغيرها فى تلك العثرة وأبصرت أن العاثر هو كمثله أما مغبوناً مخذولاً، وأما معاقباً، ولما رأى فى نفسه فى وقت العثرة أنه مغبون أو معاقب أو جاهل فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(1) البخارى فى صحيحه - كتاب الأدب - باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (10/529)، والحاكم فى «المستدرك» - كتاب الأدب - باب لا حليم إلا ذو عثرة ولا حكيم إلا ذو تجربة (4/ 293) وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وأقره الذهبى والترمذى فى سننه - كتاب البر والصلة - باب ما جاء فى التجارب (4/379) وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(2) مخالبها: جمع مخلب وهو الظفر.

(3) سخرتها: تسخيرها.

(4) الوثاق: القيد.

(5) السماحة: الجود.

«لا حليم إلا ذو عثرة» أى بعد العثرة وصل إلى حقيقة الحلم وكنهه فأما قبل العثرة فقد يكون حليماً وليس على كنهه كأنه لم يكمل حلمه بعد لأن نفسه لم تتسع بعد فى الحلم الذى أعطى فإذا جاءت العثرات اعتبر بها ورأى غيره فيها كما رأى نفسه فى وقتها فهناك يجد الحلم، وهذا قول رسول الله صلـــى الله عليه وسلم فى حديث آخر: «ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس، وليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذى قعد فى بيته وقنع»، فذاك الذى كثر عرضه، هو أيضاً غنى، ولكن الغنى على كنهه وحقيقته هو غنى النفس، والمسكنة على الحقيقة، وعلى كنهها فى من قعد فى بيته، وقنع بما أوتى، وأما قوله: «لا حكيم إلا ذو تجربة»، فالحكمة من نور الجلال فإذا أعطى العبد انفجرت ينابيع الحكمة على قلبه فهذه الحكمة ينبوعها على قلبه فهى جاثمة(٦) متراكمة، وما لم يأخذه التجارب لم تقدر النفس على مطالعة الحكمة؛ لأن النفس بلهاء(٧) غنمية مشغولة بالشهوات فكيف تدرك الحكمة، والحكمة باطن الأمور وأسرار العلم فهى تعاين الظاهر، ولا تدركه فكيف تدرك الباطن فإذا جرت الأمور صارت هذه التجارب له كالمرآة ينظر فيها لأنها صارت معاينة.

ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما: «ينتهى عقل الرجل إلى ثمان وعشرين ثم من بعد ذلك التجارب».

فالعقل للقلب، والتجارب للنفس لأن العقل باطن والتجارب ظاهر تبصر العين، وتسمع الأذن ويشم الأنف، ونلمس اليد، ويذوق اللسان، وإللهاة، والتجارب ههنا، وهذه الأشياء مسالك إلى النفس، وعندها تشعر النفس بذلك للعقل الذى أعطى لأن العقل مسكنه فى

---

(٦) جاثمة: رابضة.

(٧) بلهاءُ: ساذجة.

الدماغ وفى الصدر يشرق بين عينى الفؤاد، والنفس لا تعلم بشىء من ذلك إلا ما يعلمها القلب، ويفطن لها فإذا نالتها التجارب عرفت وأيقنت لأنها صارت معاينة ما أدى إليها القلب من الحكمة ودلالة العقل .

[الأصل السابع والثمانون والمائتان فى كلمة التقوى، وصورة معناها فى القلب والكنية والختم، والقفل على القلب]

عن أبى بن كعب عن أبيه رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «وألزمهم كلمة التقوى قال لا إله إلا الله»(١) قال أبوعبدالله رضى الله عنه إنما سميت هذه الكلمة كلمة التقوى لأنها صارت وقاية لتوحيده لأنه أثبت عقد المعرفة بإلهه قلباً وباللسان نطقاً إنه إلهه فلما أحدث الأعداء هذا الحدث، وهو الشرك فأشركوا فى ملكه غيره، وذهبوا بوله قلوبهم فى الضر والنفع إلى الذى قصدوه بالعبودة رجاء وتأميلاً لنوال نفع ودفع(٢) ضر اقتضى الله المؤمنين كلمة نفى ذلك الحدث، وهو قوله: لا فنفوا بقولهم لا هذا الحديث الذى أحدثته الفجرة الغواة الظلمة فصار قوله لا نزاهة لرجاسة ما أتوابه، وطهارة لنجاسته، ووقاية لذلك العقد الذى اعتقدوه، وحصناً كثيفاً لما فى ذلك العقد، وهو التوحيد ونور المعرفة فنسبت هذه الكلمة إلى التقوى وإنما هو فى الأصل وقوى مأخوذ من الوقاية؛ أى صار وقاية لعقدة التوحيد أن لا يمازجه(٣) شرك ثان معه فإنه واحد لا ثانى له فرد لا نظير

---

(١) الترمذى فى سننه -كتاب التفسير- تفسير سورة الفتح (٥/٣٨٦) وقال: هذا حديث غريب لا تعرفه موقوفاً إلا من حديث الحسن بن قزعة، وأحمد فى «المسند» من حديث الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه (٥/١٣٨)، والطبرانى فى «الكبير» (١/١٦٨)، والبيهقى فى «الأسماء والصفات» ص٩٦، والحاكم فى «المستدرك» -كتاب التفسير- باب كلمة التقوى: لاإله إلا الله (٢/٤٦١)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتركه الذهبى.

(٢) دفع الضر: مقاومته.

(٣) يمازجه: يخالطه، ويشوبه.

له، وهذه الكلمة فى قالب الافتعال لا فى قالب فعل لأن فعل هو قالب الظاهر، وافتعل هو قالب الظاهر، والباطن فقيل: اتقى، وكان حقه أن يقول: أو تقى لأن الواو فى أصل الكلمة موضوعة لأنها أصلية من قوله وقى يقى وقاية فلما صار افتعل، كان حقه أن يقال أو تقى فثقلت على الألسنة لاجتماع الواو والتاء فأدغمت الواو فى التاء، وشددت التاء فقيل اتقى يتقى اتقاء، والاسم منه تقوى، فقوله لا إله ينفى وقوله إلا الله استثناء لئلا يقع النفى على الجميع، فلو قال: لا إله ثم اقتصر لكان نفى الجميع، فابتدأ بنفى الحدث بقوله: لا إله ثم قال: إلا الله لئلا يقع النفى على هذا الاسم، وهو قوله الله فاسماهما كلمتان نفى بلا وأثبت بإلا فقوله لا حرفان لام ثم ألف وإلا أربعة أحرف ألف ثم لامان مدغمة أحدهما فى الأخرى، ثم ألف فكإنما أخرجت هذه الكلمة على صورة إشارات القلوب، وقصدها لأن القلب لما حيى بنور الحياة انفتحت عينا الفؤاد بالنور وجاء نور الهداية، ونور المعرفة فترأى لعينى الفؤاد انزعج القلب مرتحلاً عن وطنه إلى ذلك النور الذى عاين؛ حتى لقيه فاطمأن وسكن إلى معبوده، وبذلك النفس للعبودة ثم خطر بقلبه بال إلهه وأنه أشرك فى ملكه غيره وأن قلوباً ولهت إلى غيره افتقاراً فهاجت منه المحبة المنطوية فى نور التوحيد، والهداية والمعرفة فحمى القلب من حرارة المحبة، فمن تلك الحرارة قوى القلب حتى قام منزعجاً بعضلاته، وعروقه فنفى ولههم، وافتقارهم إلى من دونه وابطاله فلما احتاج إلى إبراز تلك القوة للنفى أبرز باللام ثم بالألف، وإنما ابتدئ باللام لأن عظم القوة فيها وهى نزيع الألف فإنه كان أولا ألفاً ثم نزع منها لام فعظمت القوة فى اللام فنفى القلب كل رب ادعى العباد له ربوبية وولهت قلوبهم إليه دونه فابتداء هذا القلب الذى وصفنا بالنفى لأرباب الأرض ثم سما عالياً حتى انتهى إلى الرب الأعلى فوقف عنده، وتذلل وخشع له، واطمأن ووله إليه وقال الله تعالى لنبيه صلى

الله عليه وسلم:

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ (٤)

أى أن هذه أرباب متفرقون والربّ الله الواحد القهار فهداه إلى الرب الأعلى وقال:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (٥)

فهذه صورة فعل القلب فلما احتاج إلى النطق والإبراز باللسان أعطى تلك الحروف ففى النفى لام وألف وفى المستثنى الذى هو المنتهى ألف مخفوضة، ولامان وألف لاجتماع قوة اللامين على صورة فعل القلب يدلك على ذلك من قولنا كسر الألف وخفضها لأن القلب من السفول ينزعج نافياً للأرباب ويصعد إلى الرب الأعلى بالألف الآخر من قوله إلا، فيثبته رباً لا شريك له واحداً، لا ثانى له أحداً لا نظير له فرداً لا ند له، صمداً لا شبيه له، حياً لا مثيل له، قيوماً لا زوال له إلهاً لا وله إلا إليه، فأما قوله:

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (٦)

فإنه ألزم قلوبهم هذه الكلمة بنور المحبة حتى نطقوا بها وذلك أنهم أعطوا المعرفة مع المحبة وأعطوا العقل، والعقل من نور البهاء؛ فوجد القلب حلاوة المحبة، ووجدت النفس فرح زينة نور البهاء فسكن القلب، واطمأن إلى الحلاوة، واستقرت النفس للزينة فنشر عليه التكلم بقول لا إله إلا الله وهو قوله ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (٧)

---

(٤) الأعلى (٨٧/١).
(٥) النجم (٥٣/٤٢).
(٦) الفتح (٤٨/٢٦).
(٧) الحجرات (٤٩/٧).

فبحلاوة الحب وزينة البهاء صارت الكلمة لازمة لقلوبهم، حتى خرجت إلى اللسان فدلت الألسنة بها ودارت بحروفها التى نطقت بمعناها فصارت منطقاً أحاط بمعناها، ولزمها وشددها كما أحاطت المنطقة بوسط الرجل، وشددت فهو الذى ألزمهم هذه الكلمة بما من عليهم بحلاوة الحب وزينة البهاء وأما قوله تعالى:

﴿ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ (٨)

فإنما صاروا كذلك لأن الله تعالى خلق المقادير، قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام.

«فيما روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الله ولا شىء فخلق المقادير وخلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل» فقد علم من يخطئه ممن يصيبه. عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقبلوا البشرى يا بنى تميم، قالوا قد بشرتنا فأعطنا قال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن قالوا: قد بشرتنا فأخبرنا قال: كان الله ولا شىء، ثم خلق العرش فجعله على الماء، وكتب فى الذكر كل شىء».

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلـــى الله عليه وسلم: «إن الله خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل».

---

(٨) الفتح (٤٨/٢٦).

وعن عبد الله بن الديلمى قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص بلغنا أن تقول : جف القلم بما هو كائن قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الله خلق خلقه ، ثم جعلهم فى ظلمة ثم أخذ من نوره ما شاء فألقاه عليهم فأصاب النور من شاء الله أن يصيبه ، وأخطأ من شاء أن يخطئه ، فمن أصابه بالنور يومئذ أهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك ما أقول جف القلم بما هو كائن» .

قال أبو عبد الله رضى الله عنه فيوم المقادير خلقهم ، وهم كالنجوم الدرارى (٩) ، ثم سلبهم الضوء ووضعهم فى ترابية التربة التى أراد منها إنشاء خلق آدم عليه السلام ، وقد طمس ضوءهم ؛ فلبثوا فى تلك الظلمة مليا إلى أن مضى من المدة مقدار خمسين ألف سنة أو نحوه فصاروا فى طول ذلك اللبث فى تلك الظلمة ثلاثة أصناف فصنف منهم زعم أن الذى ملكنا لم يدم ملكه فعجز عنه ، ولو لم يكنْ كذلك لم يتركنا ههنا كالمنسى ، وقال الصنف الآخر تركنا ههنا فنحن ننتظر ما يكون وما يظهر لنا من أمره فالأول كفر والثانى نفاق ، وشك وقال : الصنف الثالث تركنا ههنا ، وهو دائم ، ونحن له يجعلنا حيث شاء ، فأما الصنف الأول لما تكلموا بما ذكرنا صارت تلك الترابية فى أفواههم وقال لهم : ما الذى رأيتم منى حتى نسبتمونى إلى العجز وانقطاع الملك فصارت هذه الكلمة ختماً على أفواههم ، على تلك الترابية وهو قوله تعالى :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (١٠)

---

(٩) الدرارى: المضيئة .

(١٠) البقرة (٢/٧) .

ختم الله على قلوبهم: طبع عليها، وأراد بذلك أنه أغلقها فلا تعى خيراً ولا تسمع خيراً؛ وكل شيىء ختمته فقد سددته . راجع أيضاً الطبرى (١/٢٦٢) .

فالختم غير مرفوع أبداً وأما الصنف الثانى فشكوا فهم فى الزندقة ينتظرون ما يكون، ولم يستيقنوا ولا استقرت قلوبهم فتناثرت تلك الترابية على أفواه قلوبهم لتذبذبهم مرة إقبالاً على الله ومرة إعراضاً عنه ومرة إقبالاً على بال النفس، فلم يصر ختماً ولكن صار قفلاً قد يرفع ويفتح إن شاء والختم لا يرفع أبداً وذلك قوله تعالى:

﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (١١)

وأما الصنف الثالث فقالوا ربنا الذى يملكنا دائم يجعلنا حيث يشاء إن شاء جعلنا فى ظلمة وإن شاء جعلنا فى نور ثم مدوا أيدى القلوب نحوه للتعلق به فضرب بيديه إلى قلوبهم، فقال أنتم لى عملتم أو لم تعملوا فصارت هذه الكلمة مكتوبة على قلوبهم فمن أصابته يده اليمنى فهم الأولياء، ومن أصابته يده الأخرى فهم عامة الموحدين تناولهم فصيرهم فى قبضته، وصارت تلك الكلمة مكتوبة بين أعين الفؤاد على قلوبهم، وذلك قوله تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ (١٢)

وقال للآخرين:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (١٣)

فالطبع هو الختم فهذه كانت صفتهم فى البدو ولم يزل ينقلهم من حال إلى حال إلى أن نقلهم إلى الطينة المعجونة طينة أدم عليه السلام قال تعالى فى تنزيله:

---

(١١) محمد (٤٧/٢٤).
(١٢) المجادلة (٥٨/٢٢).
(١٣) محمد (٤٧/١٦).

﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (١٤)

ثم لما نفخ فيه الروح أخرج المتعلقين من كتفه الأيمن كهيئة الذر فى صفاء وتلألؤ، وأصحاب الشمال كالحمة سواداً من كتفه الأيسر، والسابقون أمام الفريقين المقربون وهم، الرسل والأنبياء والأولياء عليهم السلام فقررهم وأخذ عهدهم وميثاقهم على الإقرار له بالعبودة، وأشهدهم على أنفسهم وشهد عليهم بذلك ثم ردهم إلى الأصلاب ليخرجهم تناسلاً من الأرحام أرحام الأمهات.

عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الله تبارك وتعالى خلق آدم فضرب بيمينه على كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاً كالفضة ومن اليسرى، سوداً كالحممة، ثم قال «هؤلاء فى الجنة ولا أبالى، وهؤلاء فى النار ولا أبالى» (١٥). معنى قوله هؤلاء فى الجنة ولا أبالى، والله أعلم أنى لا أبالى ما يعملون من خير أو شر فأقبل خيرهم، وأغفر شرهم، وذلك قوله تعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾

إلى قوله:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ (١٦)

---

(١٤) الحجر (١٥/٢٨).
(١٥) راجع التذكرة للقرطبى.
(١٦) الأحقاف (٤٦/١٦).

وهو الوعد الذى وعدهم حيث ضرب بيديه إليهم تناولاً ثم قال لهم: أنتم لى عملتم أو لم تعملوا وإنما صاروا بيضاً كالفضة من أجل ذلك النور الذى أصابهم والآخرون سوداً من أجل الظلمة التى خلقهم فيها.

عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله خلق آدم وأخذ الخلق من ظهره، فقال هؤلاء فى الجنة ولا أبالى، وهؤلاء فى النار ولا أبالى، فقال رجل: يا رسول الله فعلى ماذا إذاً نعمل قال: على مواقع القدر».

عن هشام بن يسار الجهنى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن هذه الآية:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (١٧)

فقال عمر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم فمسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيده فاستخرج ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل أهل الجنة، فيدخله الجنة، وإذا خلق للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت وهو على عمل أهل النار فيدخله به النار».

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة نطفة ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله الملك بأربع كلمات فيقول له أكتب أجله وعمله ورزقه وشقى

---

(١٧) الأعراف (٧/١٧٢).

أو سعيد، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيغلب عليه كتابه الذى سبق فيختم له بعمل أهل النار فيدخله الله النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيغلب عليه كتابه الذى سبق فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخله الله الجنة ».

فهذه قصة هذا الخلق سبق لهم من الله ما سبق قال فى تنزيله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (١٨)

فالحسنى هى الجنة فمن سبقت له الجنة بوعد من الله تعالى:

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾ (١٩)

أى فى الجنة فشكر الله لهم ما كان لهم فى تلك الظلمة من الطمأنينة إلى الله تعالى فى وقت مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وعرفهم مننه عليهم فقال:

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (٢٠)

ثم شكر لهم قديمهم فى تلك الظلمة فأثنى عليهم بقوله:

﴿ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ (٢١)

أى أحق بهذه الكلمة وأهلاً لهذه الكلمة بما تقدم منهم وإنما استقروا هناك فى تلك الظلمة ونطقوا بما نطقوا بما رش عليهم من نوره هناك فأوجب لهم يومئذ محبته، وجعل لهم ذلك النور حظهم من ربهم

---

(١٨) الأنبياء (٢١/١٠١).
(١٩) الأنبياء (٢١/١٠٢).
(٢٠) و (٢١) الفتح (٤٨/٢٦).

وأصحاب الختم لم يصبهم النور، فلم يكن لهم حظو أصحاب القفل منهم من لا حظ له فهو لاحق بأصحاب الختم، ومنهم من له حظ فى الغيب مكنون وحظهم أدنى الحظوظ ألا يرى إلى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (٢٢)

ثم قال:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ (٢٣)

فشرط لهم أربع شرائط ثم قال:

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٤)

ولم يقل من المؤمنين، فهؤلاء لاحقة بهم فهم فى عدد المؤمنين، وحظهم من المحبة قليل وهم من أصحاب القفل أدركتهم الرحمة الواسعة فصاروا متخلصين من النفاق، ورفع القفل عنهم حتى انفتحت عيون أفئدتهم مع هذه الشرائط الأربع التوبة إلى الله والإصلاح لما خرب، والاعتصام بالله والاخلاص لله فحينئذ ألحقهم بالمؤمنين ليعلم أنهم لم يكونوا من المؤمنين الذين كتب فى قلوبهم الإيمان يومئذ بقوله: أنتم لى عملتم أو لم تعملوا فهؤلاء يعتريهم (٢٥) ذلك النفاق بعد إيمانهم فى أعمالهم، فهم الذين يدلون على الله بأعمالهم فى الشريعة ويعجبون بشأن أنفسهم ويكبون على أموالهم فى عامة عمرهم يتكثرون بها، ويتعالون على الخلق ويعاملون الله فى السر بخلاف العلانية ويراؤن بأعمالهم، ويتفاخرون على طلب الدنيا، وجاهها وعزها وفخرها، وخيلاها ويضاهؤن الله فى

(٢٢) النساء (١٤٥/٤).
(٢٣) و (٢٤) النساء (١٤٦/٤).
(٢٥) يعتريهم: يصيبهم.

مدائحه، فالعزة لله جميعاً والعلو لله (٢٦)، والكبرياء لله فهم في شهرهم ودهرهم طالبون لعز الدنيا ذهاباً بأنفسهم عن الخالق، وعلواً عن أحوالهم وتكبراً عن الانقياد للحق؛ لكبرياء نفوسهم ساخطين (٢٧) لأقدار الله في الخلق وفي أنفسهم حاسدين لعباد الله في نعمهم مضادين لأقضيته، وتقديره، وتدبيره فيهم فهؤلاء أصحاب الأقفال الذين كانت لهم فيهم مشيئة أن تدركهم رحمته، وجوده فإن للجود بعد انقضاء الرحمة المقسومة يوم القيامة بين أهل الجنة عملاً، وشأناً عظيماً جاد الله على من بقى في النار آلافاً من السنين، وليس عنده مثقال ذرة خير إلا توحيده خرج له أيام دنياه من باب الجود، والرحمة العظمى فهم أصحاب الأقفال الذين كانت لله تعالى فيهم مشيئة أن أدركتهم رحمته العظمى؛ فلم يبال بما صنعوا فرفع عنهم القفل في الدنيا حتى نطقوا بالكلمة العليا، وهي كلمة التقوى وأدخلهم الجنة بلا عمل، ولا يخز قدموه نالوا هذا من باب الجود في محل القدرة، ونال المؤمنون المحبة من الذات، وولهت قلوبهم، بالذات حباً له.

---

(٢٦) من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل.

(٢٧) غير راضين بها.

[الأصل الثامن والثمانون والمائتان فى مبدأ الاستقامة ومنتهاها]

عن علقمة عن عبد الله رضى الله عنه قال: لما نزلت

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (١)

شق ذلك على المسلمين فقالوا: وأينا لم يظلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس بذلك ألم تسمعوا إلى قول لقمان

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ »(٢).

عن الأسود بن هلال عن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما أنه سأل أصحابه عن هاتين الآيتين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ (٣)

---

(١) الأنعام (٦/٨٢).
أى لم يلبسوا إيمانهم بشرك؛ والظلم فى الآية هو الشرك، ومن ذلك قوله تعالى «إن الشرك لظلم عظيم» (لقمان ١٣). وهذا هو المختار عند الطبرى (٧/١٧١).

(٢) لقمان (٣١/١٣).
البخارى فى صحيحه -كتاب الإيمان- باب ظلم دون ظلم (١/٨٧) عن عبد الله بن مسعود. وكتاب الأنبياء، وكتاب التفسير، وكتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، ومسلم فى صحيحه -كتاب الإيمان- باب صدق الإيمان واخلاصه (٢/١٤٣)، والترمذى فى سننه -كتاب التفسير- تفسير سورة الأنعام (٥/ ٢٦٢)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد فى «المسند» من حديث عبد الله بن مسعود (١/٣٨٧).

(٣) الأحقاف (٤٦/١٣).

وقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (٤)

فقالوا استقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أى بشرك.

عن الحسن رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ (٣)

أمتى ورب الكعبة مرتين أو ثلاثاً فقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله ما ذكرك بهذه الآية قال: «إن اليهود قالوا ربنا الله فلم يستقيموا فقالوا فى عزيز عليه السلام ما قالوا، وان النصارى قالوا: ربنا الله فلم يستقيموا فقالوا فى المسيح ما قالوا وإن أمتى قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلم يشركوا»، قال أبوعبد الله الاستقامة اسم لفعل. ولكل فعل حدان فحد منه مبتدأه، والحد الآخر منتهاه فالاستقامة مبتدأها انتصاب القلب لله تعالى رقاً (٥) وتذللاً وإلقاء باليدين سلماً فهذا أول العبودة ومبتدأ الاستقامة ثم قد يروغ (٦) يميناً وشمالاً عن الانتصاب لله تذللاً وخشعة، وينالـه تجبر الكبرياء ثم يتوب، ويرجع إلى الله تعالى، ويعود إلى مقامه من التذلل، والرق ويصير إلى الاستقامة فى مقامه فلا يزال هذا دأبه مرة هكذا ومرة هكذا يقطع عمره على هذه الصفة فيختم له بإحدى المنزلتين ومن أيد فى الاستقامة حتى يمر إلى الله تعالى، ولا يروغ فى سيره يميناً وشمالاً فإذا وصل إلى الله فقد ذهب الروغان، واستقام على الباب بعد موت شهواته فهذا منتهى الاستقامة، ورأيت فيما يرى النائم

---

(٤) الأنعام (٦/ ٨٢).
(٥) رقا: عبودة.
(٦) يروغ: روغان الثعلب.

كان سائلاً يسألنى عن قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾

فأردت أن أجيبه بما عندى من ظاهر العلم فرأيت قبالتى شخصاً بيده صحيفة يقابل بها وجهى، مكتوب فيها «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا أى اشتاقوا إلى لقائه، ثم انتبهت فقلت فى نفسى: هذا عين التفسير وإذا نزل العبد منزلة المشتاقين فنهمته وشهوته اللحوق بربه فقلبه بالباب عاكف، والعاكف لاتزول استقامته فالناس فيما بين الحدين من مبتدأه إلى أعلاه كل قد أخذ من هذا بحظ فالديان يحاسبهم، فيعطيهم من ثواب هذه الاستقامة كلاً على قدر ثباته وانتصابه لله، وتوقيه للروغان عنه، وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾

فالإيمان هو طمأنينة القلب إلى الله واستقرار النفس بما استقر عليه القلب وإنما صار ذلك كذلك بالنور فذلك النور اكتساب القلب به يكرم وعليه يثاب، وبه يجوز الصراط إلى دار السلام، فإذا أذنب فالذنب ظلمة فقد ألبس ذلك النور ظلمة وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أذنب العبد نكت فى قلبه نكتة سوداء، فإن عاد نكت أخرى، فلا يزال كذلك حتى يسود القلب فإذا تاب ونزع صقل قلبه يعنى يرفع عنه تلك النكت؛ فينجلى القلب بنوره بمنزلة شمس خرجت عن كسوفها فتجلت» فأقل الظلم ترك أصغر شيء من أمر الله وأعظم الظلم الشرك فذاك مبتدأه، وهذا منتهاه. فترك أدنى أمر الله هو ظلم وبقدر ذلك أطبق على نور الإيمان وأظلم الصدر منه، بقدر ذلك لأنه افتقد إشراق ذلك النور على قدر ما أطبق؛ فكلما ازداد ذنباً ازداد افتقاد للإشراق، وازداد ظلمة حتى يطبق عليه كله إذا انتهى إلى منتهاه، وهو رأس الذنوب، وهو أعلاها والخلق فيما بين الحدين كل قد ألبس إيماد

يعنى من هذا الظلم، ومثل ذلك مثل الشمس، إذا انكسفت فعلى قدر ما ينكسف منها يفتقد الخلق إشراقها من الأرض، فإذا انكسفت كلها صار نهارهم كالليل فأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلق منتهاه فى حديث ومبتدأه فى حديث آخر وكذلك أبوبكر، وعمر رضى الله عنهما من بعده.

فقال أبو بكر رضى الله عنه: «استقاموا فلم يشركوا، وقال عمر رضى الله عنه: استقاموا فلم يروغوا روغان الثعالب»(٧)، فقصد أبوبكر لأدناه وعمر لأعلاه، وأما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير ساره إذ عرض له أعرابى على بكر له (٨) فدنا فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاه المهاجرون والأنصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خلوا عنه فقال: يا رسول الله والذى بعثك بالحق لقد جئتك من بلادى وتلادى (٩) لأهتدى بهداك وآخذ من قولك فما بلغتك حتى ما لى طعام إلا من خضر الأرض، فأعرض الإسلام على فعرض عليه فقبل، فازدحمنا عليه فدخل خف بكره فى بيت جرذان فتردى الأعرابى فانكسر عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدق والذى بعثنى بالحق لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليهتدى بهداى، ويأخذ من قولى فما بلغنى حتى ما له طعام إلا من خضر الأرض كما قال، أسمعتم بالذى عمل قليلاً وجزى كثيراً هذا منهم أسمعتم «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن، وهم مهتدون» فإن هذا منهم، والذى بعثنى بالحق ما بلغ الأرض حتى ملىء شدقه من ثمر الجنة أغسلوا أخاكم؛ وكفنوه وصلوا عليه قالوا: يا رسول الله أنشق، أم

(٧) روغان الثعالب: كناية عن المراوغة والمماطلة.
(٨) دنا: قرب.
(٩) تلادى: من التليد وهو القديم.

نلحد؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللحد لنا، والشق لغيرنا».

عن سخيرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أعطى فشكر، وابتلى فصبر، وظلم فغفر، وظلم فاستغفر، ثم سكت فقيل: ما له يا رسول الله قال: أولئك لهم الأمن وهم مهتدون».

فهذا أعلاه وحديث علقمة عن عبد الله أدناه فوعد الله فى تنزيله للمستقيم الأمان من الخوف والحزن، والبشرى بالجنة، ولمن لم يلبس إيمانه بظلم الأمن والاهتداء فكل إنما ينال من ذلك الوعد بقدر ما فيه من الاستقامة، وقلة اللبس، فالمؤمن لما آمن تقبل الله إيمانه ودخل فى أمانه فله الأمن فى الدنيا والآخرة من كل آفة فلما أذنب خرج من أمان الله بقدر ذلك الذنب ونقص من الأمن بقدر ذلك، واستحق العقوبة بقدر ذلك وهو أن يزول نعمة من نعمه، عنه بقدر ذلك وإن شاء تفضل وعفا وإن عاقب زالت عنه من النعم بقدر ذلك، وذلك قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١٠)

فالنعمة اسم جامع جملة لهذا الآدمى فى بدنه ودينه ودنياه فلو لم يذنب، لم يأخذ منه شيئاً وكان على هيئته وإنما جاءت الأمراض، والنوائب والأحوال المتغايرة لمكان الخطايا والذنوب غيروا فغير الله ما بهم، وعفى عن كثير وقال الله تعالى فى تنزيله:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾(١١)

---

(١٠) الأنفال (٨/٥٣).

(١١) الشورى (٤٢/٣٠).

فالاعتبار فى هذا الأمر بقصة أبينا آدم عليه السلام فإن الله تعالى خلقه بيده وأسجد له ملائكته وبوأه (١٢) مع زوجته وعهد إليه عهداً إن هذا الذى أبى أن يسجد لك هو عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى، وعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملهنا فنظر آدم إلى إباء هؤلاء فأخذته الغيرة، وهاج منه الحب لله فاحتملها، وتقلدها فبقيت قلادة (١٣) فى عنقه فقيل له: هذه الجنة مسكنك فانظر أن لا يخرجك، وزوجتك هذا العدو من هذا المسكن بأن يغرك حتى تحدث فيه حدثاً يكون خيانة للأمانة وقيل له إن لك فيها أى فى هذه الجنة أن لا تجوع فيها، ولا تعرى، وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى، وهذه الأربع قوام الآدمى، ومعاشه يعرفه أنك إن أحدثت أخرجت منها فإذا أخرجت شقيت أى صرت بمعزل من النعيم، ولحقتك الشدة، والتعب والنصب فى هذه المعيشة فتحتاج إلى أن تتكلف لجوعك طعاماً، ولعريك لباساً، ولظمأك ماء ولضحاك، وهو حر الشمس مسكناً وكنا فلما أحدث أخرج منها وألقى عليه هذا الذى حذر من الشقاء دون حواء، فقيل: تشقى، ولم يقل تشقيان، ومن ههنا علمنا أن نفقة المرأة على الزوج، فبقى ولده فى هذا الشقاء إلى انقضاء الدنيا فكل من كان من ولده، أحفظ لهذه الأمانة كان أوفر حظاً من أمان الله فى الدنيا والآخرة لأنه إنما قبل الله منه إيمانه بقبوله للأمانة فأوفرهم حظاً من وفاء الإيمان، وحفظ الأمانة أوفرهم حظاً من قبوله، وإذا قبله فهو فى أمانة فى الدنيا والآخرة وذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (١٤)

---

(١٢) بوأه: أنزله.

(١٣) قلادة: ما يتقلد فى العنق.

(١٤) الحج (٢٢/٣٨).

وكان داود عليه السلام يقول فى دعائه: اللهم دافع عنى من كل جانب، وكان يسأل الدفاع، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأنه أن يقول أعوذ بك من كذا وبذلك أمر فى تنزيله، وهو قوله تعالى:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (١٥)

وعليه أنزلت المعوذتان فالدفاع سؤال من بعد فى الفرقة، والتعوذ تعلق به فى القربة من القربة.

---

(١٥) المؤمنون (٢٣/٩٧).

[الأصل التاسع والثمانون والمائتان فى تمثيل الحرص والسرف بالذئبين]

عن كعب بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والسرف لدينه» (1).

قال أبو عبد الله رضى الله عنه وضع الله الحرص فى الآدمى ثم زمه فى المؤمنين بزمام التوحيد، واليقين وقطع علائق الحرص بنور السبحات، فمن كان حظه من نور اليقين، ونور السبحات أوفر كان وثاق (2)، حرصه أوثق والحرص محتاج إليه الآدمى، ولكن بقدر معلوم، فإذا لم يكن لحرصه وثاق، تعدى القدر الذى يحتاج إليه فأفسد قال له قائل، وما حاجة الآدمى إليه قال: إن الحرص مدد القوة الموضوعة فى الآدمى ومثيرها وهى نار تتقد وأصلها من نور الحياة وبقدر ما تتلظى نار الحرص يظهر لهبها فى الجوارح فإذا استعمل تلك الجارحة استعملها باستفزاز وخفة، وإذا سكن الحرص فترت (3) القوة، فبالحرص يقوى

---

(1) الحاكم فى «المستدرك» - كتاب معرفة الصحابة - باب مذمة حب المال (٣/٤١٠) ولم يعلق عليه الحاكم، والترمذى فى سننه - كتاب الزهد - (٤/٥٨٨) من رواية كعب بن مالك الأنصارى. وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، والدارمى فى سننه - كتاب الرقاق - باب ما ذئبان جائعان (٢/٣٠٤)، وأحمد فى «المسند» من حديث كعب بن مالك (٣/٤٥٦).

(2) وثاق: قيد.

(3) كذا ورد بالأصول.

على تعب الأركان في أعمال البر، وبالحرص يصابر على طاعة الله تعالى وبالحرص يسمو(٤) إلى معالي الدرجات، ومن شأن الحرص الترقي في الدرجات، وطلب الازدياد من كل شيء يناله من الدنيا والآخرة، وكذلك قيل في الحديث: ما أعطى العبد شيئاً من الدنيا إلا زيد مثليه في الحرص، والحرص والصرح، مشتق بعضه من بعض، فالصرح البناء العالي المشرف الناتي(٥) على البنيان وهو قوله تعالى:

﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴾ (٦)

فهذا في الظاهر صرح، وذاك في الباطن سمي حرصاً لأنه به يطلب الازدياد، ويترقى في درجات المزيد علواً ثم إذا نظر إلى من دونه اعتراه(٧) العجب فصال(٨) به على الخلق واستطال(٩) فرمى به من ذلك العلو فلا يبقى عضو إلا انكسر، فأعطى الآدمي الحرص ليتقوى به على الازدياد من أعمال البر وأمر أن يكون حرصه مزموماً بزمام الخوف والخشية مشحوناً بأثقال السكينة والوقار؛ ليكون معصوماً من الإعجاب، وترك الأدب في الدين.

ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكرة حيث دخل المسجد، والناس ركوع فركع ومشى في ركوعه حتى وصل إلى الصف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «زادك الله حرصاً ولا تعد».

---

(٤) يسمو: يرتقي.
(٥) المشرف الناتيء: العالي الظاهر.
(٦) غافر (٤٠/ ٣٦).
أسباب السموات: أبوابها وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين كالسدي والزهري وقتادة على ما في القرطبي (١٥/ ٣١٤).
(٧) أعتراه: أصابه.
(٨) صال: تاه.
(٩) استطال: وقع فيه.

وكان قد تقدم إليهم فقال: «إذا أتيتم الصلاة فأتوها بالسكينة والوقار فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاقضوا».

وقال في حديث آخر: «التأني من الله والعجلة من الشيطان».

عن الحسن رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من استعجل أخطأ» فالعجلة من الخفة، والخفة من هيجان الحرص، يزيل السكينة والوقار فهذا صاحب الدين، وأما صاحب الدنيا فحرصه يحمله على طلب الإزدياد طالباً لعلو الدرجات وقال الله تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ (١٠)

فزجر عن طلب العلو في درجات الدنيا، وحرم طالبه الدار الآخرة وهى الجنة لأن الدنيا مقدرة مقسومة لن ينال عبد منها إلا ما قدر له، وهى درجات بعضها فوق بعض ليبلونا (١١) فيما آتانا قال تعالى فى تنزيله:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (١٢)

وقال:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ (١٣)

---

(١٠) القصص (٢٨/٨٣).

(١١) ليبلونا: ليختبرنا.

(١٢) الأنعام (٦/١٦٥).

خلائف الأرض: سكانها، ورفعة البعض على البعض فى المال والشرف والمجد للاختبار والامتحان. راجع معنى ذلك وقريباً منه فى تفسير القرطبى (٨/٨٤).

(١٣) هود (١١/٦).

المستقر: الأرحام، والمستودع: الأرض التى تموت فيها. راجع تفسير ذلك فى الطبرى (١٢/٣).

ثم قال:

﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

وإنما ضمن بيان مقداره لتسكن النفوس إلى ما قدر ويتفرغ القلب لما خلق له من العبودة وإذا هاج الحرص وقع فى الكبائر حتى يصبو إلى عبادة الأوثان فإنهم عبدوا الأوثان بأهواء النفوس، كلما زين الشيطان فى قلوبهم شجرا أو حجر، انصبوه وثنا فعبدوه، وحرصوا على ذلك وابتدروه قال الله تعالى:

﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (١٤)

والوفض السرعة فى المشى ولم يزل شأن الله مع الأنبياء أن ينزع إرادتهم ومشيأتهم، ليقفوا على مراقبة مشيئته حتى استقاموا فرضى الله عنهم، بموافقتهم إياه وتخيلتهم عن الجبرية فإن الجبار واحد قهار فليس للعبيد أن يتجبروا فيضاهئون الله وإنما سمى الجبار جباراً لأنه مستبد بكبره يجبر الخلق على مشيئته، فالجبار مضاد لله مضاد لحكمه قال الله تعالى: «يا داود تريد وأريد ويكون ما أريد فإن أردت ما أريد كفيتك ما تريد وإن أردت غير ما أريد عنيتك فيما تريد، ويكون ما أريد» ولم يزل يهذب نبينا صلى الله عليه وسلم عن التحارص(١٥) فى الدين حتى يكون بمقدار ومقداره أن يراقب أمر الله وما يبدو له من مشيئته فى كل أمر فيطمئن إليه حتى استقام فأثنى عليه فقال:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٦)

---

(١٤) المعارج (٧٠/٤٣).
النصب: الحجر الذى ينصب، ويذبح عنده، وقال البعض: هو صنم يقال له نصب كما ذكر الجوهرى فى القرطبى (١٠/٢٥٦)، ويوفضون: يسرعون. راجع اللسان (٩/١١٩).
(١٥) التحارص: من الحرص والبخل مع الحرص يسمى الشح.
(١٦) القلم (٦٨/٤). راجع البحر المحيط (٨/٣٠٧).

فسئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه فقالت: «كان يرضى برضاه ويسخط بسخطه» أى برضاء الله وسخطه كأنه لم يبق له مشيئة وبلغ من استقامته أنه فيما روى حين كان يقبض جاءه جبريل عليه السلام فقال: إن ربك يخيرك بين لقائه وبين الخلد فقال: لا أختار حتى يخار لى ربى».

فهذا غاية رفض المشيئة لم يحمله الشوق إلى ربه على اختيار اللقاء ولم يحمله الكون بين الأمة فى خالص العبودة، ولذة الطاعات، وتربية الأمة اختيار الكون بين ظهرانيهم فألقى الاختيار إلى ربه فرفع جبريل عليه السلام إليه وقد كان قال لملك الموت: لا تنزعن عن محمداً حتى آتيك، فرجع وملك الموت ينتظره فقال يا محمد إن الله اختار لك لقاءه فقال: «تقدم يا ملك الموت فما زال يقول: لقاء ربى لقاء ربى»، حتى خرجت نفسه، وكذلك فعل حيث خير بين أن يكون عبداً نبياً أو ملكاً نبياً فلم يختره حتى أشار إليه جبريل صلوات الله عليه وقد صار جبريل كهيئة الحلس(١٧) الملقى ميتاً من الفرق(١٨) فأشار إليه بيده أن تواضع.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نبياً عبداً» فقيل له إن لك بما تواضعت أنك أول من تنشق عنه الأرض، وأول خطيب وأول شفيع ولواء الحمد بيدك، ومفاتيح الكرم بيدك وتوقف جبريل فلم يختر له حتى ينظر ما يتجلى له من ربه من ملكه، فلما تجلى له ما تجلى صار كالميت من الفرق فذاك ملك الجلال واستدل بذلك جبريل عليه السلام فى ذلك الوقت أنه اختار له التواضع فجاء جبريل بما جاء وأشار

---

(١٧) الحلس: هو كساء يبسط تحت حر الثياب. وفى الحديث: كن حلس بيتك: أى لا تبرحه.

(١٨) الفَرَق: الخوف والفزع.

له بالتواضع لو أراد أن يختار له أن يكون نبياً ملكاً لكان عسى أن يتجلى له ملك الجمال والبهجة فكان ينبسط جبريل عليه السلام، ويأنس بما يتجلى[19] له فيستدل به على ما يختار له ربه فهذا شأن النبى عليه السلام، وإذا كان الحرص فى الدين يضر فكيف بما حرص على دنيا دنية يطلب بها العلو على الخلق فمن فعل ذلك فى دينه سمى جاهلاً كما قال له:

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [20]

ويكون قد عميت بصيرته قال الله تعالى:

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [21]

فعمى قلبه فى ظلمات المعاصى جمعا من غير حق ومنعاً من حق وإنفاقاً فى غير حق.

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ [22]

وقال عليه السلام: «حبك الشيء يعمى ويصم» إنما حرص على جمعه لحبه إياه فأعماه، وأصمه عن أمر الله فيه، وعن حقوقه فيه، وعن حدوده فيه وألهاه تكاثره به عن ذكر الموت حتى زار المقابر أصم، أعمى قد لحقته حقوق المال كالزنابير[23] تلسعه وكالعقارب تلدغه وكالحيات

---

(١٩) ينجلى: يظهر واضحاً مجلواً.
(٢٠) الأنعام (٦/٣٥).
(٢١) الحج (٢٢/٤٦).
(٢٢) الإسراء (١٧/٢٧).
(٢٣) الزنابير: جمع زنبور الذى يلسع به النحل.

تنهسه (٢٤) قال الله تعالى :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (٢٥)

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذى جمع من غير حله، ومنع الحقوق منه تمثل له ماله حية يطوق بها عنقه فتقض قضا بأسنانها شئون رأسه، يأكل دماغه، ثم يعود كما كان ثم يفعل به مثل ذلك فما زال هذا حاله فى الموقف حتى يقضى الله بين العباد ثم مصيره إلى ما شاء الله من النار أو غيرها فالحرص فى الدين يطمس العلم ويكون صاحبه جاهلاً أن خرج الحرص من الوثاق، فإذا كان فى وثاق (٢٦) انتفع به صاحبه لأن الله تعالى وضعه فى الآدمى؛ ليكون عوناً له وقوة على ما يحتاج إليه فى الدين والدنيا وإذا كان الحرص مفقوداً أداه إلى العجز والكسل فى أمر الله تعالى، وفى عبودته، فالحرص على الدنيا إذا كان فى وثاق يقفه على القناعة بما قسم الله له من دنياه فكلما أتاه شىء منها من حله من غير طمع ولا إشراف نفس قبله من ربه وحمده عليه وقنع به والحرص فى دينه إذا كان فى وثاق يقفه على حدود مراقبة المشيئة وتدبير الله.

وروى لنا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليه بهدية كأنه امتنع من قبولها فقال له: «يا عمر ما آتاك الله من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف نفس فخذه فإنما هو رزق ساقه الله إليك» فمن أدبه الله وهذبه كان حرصه على ما وصفنا.

---

(٢٤) تنهسه: تنهشه ولكن بأطراف الأسنان.
(٢٥) آل عمران (٣/ ١٨٠).
(٢٦) وثاق: قيد.

[الأصل التسعون والمائتان فى أن مراتب الشهداء سبع أو ثمان]

عن جابر بن عتيك (١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب عليه فصاح به فلم يجبه فاسترجع (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «غلبنا عليك يا أبا الربيع» فصاح النسوة، وبكين فجعل ابن عتيك (١) يسكتهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعهن فإذا وجب فلا تبكين باكية» قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال: «إذا مات» قالت ابنته: والله إنى (٣) كنت لأرجو أن تكون شهيد فإنك قد كنت قضيت جهادك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته ثم قال: ما تعدون الشهادة فيكم قالوا القتل فى سبيل الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشهادة سبع سوى القتل فى سبيل الله: المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذى يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيد» (٤).

---

(١) تقدم ذكره وفى نسخة [ابن عتيك] فى الموضعين.

(٢) استرجع: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) فى نسخة أخرى [والله إن كنت].

(٤) الحاكم فى «المستدرك» -كتاب الجنائز- باب الشهادة سبع سوى القتل فى سبيل الله (١/٣٥٢) وقال الحاكم: صحيح ووافقه الذهبى، والنسائى فى سننه -كتاب الجنائز- باب النهى عن البكاء على الميت (٤/١٣)، وابن ماجة فى سننه -كتاب الجهاد- باب ما يرجى فيه الشهادة (٢/٩٣٧)، وابن حبان فى صحيحه -كتاب الجهاد- باب جامع فيمن هو شهيد (٣٨٩) «موارد الظمآن»، وأحمد فى المسند من حديث جابر بن عتيك (٥/٤٤٦).

قال أبو عبد الله فالشهادة لها مرتبة عظيمة عند الله، والصدق أعظم مرتبة وقد ذكر الله فى تنزيله الصنفين فقدم الصدق على الشهادة فقال:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٥)

فبدأ بالأول فالأول ذكر النبوة، ثم الصدق، ثم الشهادة ثم الصلاح فالصديق صدق الله فى بذل نفسه له فى جميع عمره، والشهيد صدق الله فى بذلك نفسه له فى وقت الوفاة وإنما نال الكرامة كل هؤلاء الأصناف ببذل النفس، ومن بذل نفسه لله تعالى، فقد آثر(٦) الله على نفسه وذلك أن الله تعالى وضع للعبد فى هذا القلب أعنى الجسد روحاً به حيى وبالنفس التى فى جوفه وهى الأمارة بالسوء المحبة للحياة فى الدنيا فعظم الآدمى هذه الحياة ههنا ليلتذ بالأشياء بقوتها وعظم الله الحياة فى الدار الآخرة وقال تعالى فى تنزيله:

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٓخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧)

فالحيوان فى الجنة والحياة فى الدنيا وكل شىء على قالب فعلان فهو أكثر من قالب فعيل، وفاعل كقوله الرحمن الرحيم، والعريان والعارى، وحسان وحسن وندمان(٨) ونديم، فالعريان هو المتجرد عن الثوب والعارى الذى أخلق(٩) ثيابه وبلى، قال النابغة

---

(٥) النساء (٤/ ٦٩).

(٦) آثر: فضَّل.

(٧) العنكبوت (٢٩/ ٦٤) أى أن الدار الآخرة هى الحياة الدائمة التى لا موت بعدها.

(٨) ندمان: صنعة من نديم، على وزن فعلان.

(٩) خلقا ثيابى: بالية.

أتيتك عاريا خلقا ثيابى على خوف يظن بى الظنون

فالحياة العظمى هى حياة الحى الذى لا يموت فمن حيى قلبه بالله سعد وللحياة بين العباد درجات فالكافر ميت القلب حى الجسد بحياة الروح فيه وحياة النفس الأمارة بالسوء، والمؤمن حى القلب، حى الجسد فحياة قلبه بالله وحياة جسده بالروح والنفس، فنال بتلك الحياة التوحيد ثم لم يزل بعمل الطاعات يتقرب بها إلى ربه فكلما ازداد قرباً زاده الله حياة قلب به وكلما ازداد من الله قربة إزداد حياة حتى ينال درجة الشهادة، فيبذل نفسه لله ويؤثر الله على نفسه عند كل أمر لأن المؤمن ممتحن بالشهوات فإذا عارضته شهوة آثر الله على تلك الشهوة فرفضها، ولم يذق نفسه طعمها عادى نفسه فى ذات الله، فهذا عبد قد أراد الله، ورفض نفسه؛ فحق على الله أن يريده ويؤثره وإن للشهوة حلاوة ولذة، ولوجود الله بالقلب لذة، وحلاوة ووجوده أن يتراءى لفؤاده نور من أنواره فيهيج من قلبه حبه له وشوقه إلى لقائه فكلما كان ذلك النور أعلى كان هيجان القلب وفوران الشوق، وسلطان الحب أقوى، وأشد فمن عارضته شهوة من شهوات الدنيا فأعطى نفسه حلاوتها ولذتها فقد آثر نفسه على الله تعالى، فهو محجوب عن الله بقدر ما آثر لأن قلبه قد صار والهاً (١٠) عن الله بتلك الشهوة فبقدر ما صار محجوباً، وصار ولهه إلى الشهوة نقص وله الذى يوله إلى الله، وبقدر ذلك نقص من نور كلمة لا إله إلا الله فإن نور كلمة لا إله إلا الله أثقل فى الميزان من سبع سموات وسبع أرضين، وجميع ما فيها من الخلق.

وكذلك روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال موسى عليه السلام يا رب دلنى على عمل أعمله قال: يا موسى قل

(١٠) والهاً: من الوله.

لا إله إلا الله قال: يا رب دلني على عمل أعمله قال: يا موسى قل لا إله إلا الله قال: يا رب دلني على عمل قال: فأراد نبي الله أن يعمل عملاً ينهك منه بدنه؛ فقال: يا موسى إن السموات والأرضين ومن فيهما من الخلق لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن».

عن محمد بن علي[11] رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمسى في الأنصار بقباء عشية خميس وأمسى صائماً فأتاه أوس بن خولة[12] الأنصاري لما أمسى بقدح فذاقه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما شرابك فقال: ماء وعسل أو لبن وعسل قال: فوضعه وقال: أما إني لا أحرمه، ولكن أتركه تواضعاً لله تعالى، فإنه من تواضع لله رفعه الله، ومن اقتصد أغناه الله، ومن بذر أفقره الله».

فهذا يحقق لك ما قلنا بدءاً أن من آثر الله على شهوة فقد بذل نفسه لله، ومن آثر الشهوة لقي ما لقي الخضر عليه السلام، حيث عوتب على فعله وإنما يعاقب الأحباب، والخواص[13] من العباد والأباعد لا يعاتبون، ولا يبتغى منهم ذلك.

روى عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال: «بينما الخضر عليه السلام قاعد على شط البحر إذ أتاه سائل فوقف عليه فقال له: أيها

---

(11) هو محمد بن الحنفية بن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو أخو الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، أمه خولة بنت جعفر الأنصارية، توفي بالمدينة سنة ٨١هـ. راجع وفيات الأعيان (١/٤٤٩) وحلية الأولياء (٣/١٧٤).

(12) هو أوسى بن خولة الأنصاري:
لم نقف على ترجمة مفصلة له إلا أن ابن سعد ذكره في الطبقات الكبرى في مواقف سريعة ج٢ ص٢٧٩، ص٣٠٠.

(13) الخواص: الخاص من وليجة الرجل.

القاعد أسألك بوجه (١٤) الله أن تعطف على بخير فغشى على الخضر عليه السلام ساعة من مقالة السائل بوجه الله فأفاق ثم قال أيها السائل سألتنى بوجه الله لا أدرى، ما أكافيك به وليس من الأشياء أكرم على شيء من نفسى، فقد بذلتك نفسى بعزة وجه الله، فدونك فبعها، وانتفع بثمنها فذهب به السائل فعرضه على البيع، فباعه من رجل غنى يقال له ساحم بن أرقم (١٥) فذهب به إلى منزله، وله بستان صغير فى داره بجنبها جبل كبير فدفع المسحاة إليه، وأمره أن ينحت شيئاً من ذلك الجبل الذى فى البستان قدر ما يغرس فيه شييء وغاب ساحم إلى حاجته وأقبل الخضر على النحت من ذلك الجبل فأبطأ مولاه فى حاجته فجاء إلى بيته ممسياً فقال لمن فى البيت: أطعمتم هذا الغلام قالوا: أيما غلام قال: الذى اشتريته اليوم وجعلته فى البستان قالوا: لا علم لنا به فاسترجع (١٦) وأخذ الطعام، ودخل عليه فإذا هو فرغ من ذلك الجبل وهده وذلك الجبل فرسخ (١٧) فى فرسخ قد سوى فى ذلك البستان وأصلحه وفرغ منه، وقام إلى الصلاة فنظر ساحم إلى أمر عظيم، وفزع من ذلك فتعجب، وكاد يغشى عليه فدنا (١٨) منه فقال له: من أنت؟ قال: أنا عبدك قال: نعم فما قصتك؟ وما جنسك؟ وممن أنت؟ قال: أما القصة فعبد بيع وآخر اشترى، وأما الجنس: فمن آدم عليه السلام وآدم من تراب قال: فمن أين لك هذه القوة التى أرى؟ قال: من الله قال: فأسألك بوجه الله لما صدقتنى من أنت؟ فغشى على الخضر، وسقط ساعة مغشياً عليه فلما أفاق قال: أنا الخضر المذنب؛ فغشى على ساحم ساعة علم أنه الخضر فأفاق ثم غشى عليه ثم أفاق وهو يقول:

(١٤) هذا خطأ فإنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة.

(١٥) كذا ورد بالأصل.

(١٦) استرجع: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(١٧) الفرسخ: واحد وهو يجمع على فراسخ، فارسى معرب.

(١٨) دنا منه: قرب منه.

سبحان الله خالق النور اعتقت عبد عبدك، ووليك وحبيبك، وصفيك خضر لوجهك وأسألك التوبة مما كان من استعمالى إياه فسجد الخضر سجدة، وهو يقول: يا رب بوجهك بذلك نفسى وبوجهك أقررت بالرق، وبوجهك بعت رقبتى، وبوجهك رددت إلى نفسى فمن الذى رجاك فخيبته، ومن الذى خافك فلم تؤمنه، ومن الذى دعاك فلم تجبه يا رب أدعوك دعوة الخاطئين يا رب اعتقنى ساحم فمن يعتقنى من ذنوبى الموبقة(١٩) خلصنى ساحم من عبودته، فمن يخلصنى من سيآتى وذنوبى عند ذى العرش فقال له ساحم: أقسمت عليك بعزة الله أن تخبرنى بالسبب كيف صرت عبداً؟ وما الذى صيرك إلى أن بعت نفسك؟ قال: الوجه الذى أعتقنى له ثم قص عليه القصة قال: وقد عظمت علينا منتك يا ساحم، فإن رأيت أن أقيم فأؤدى بعض ما يجب من حقك أقمت وإن أذنت لى بالرجوع بعد إذ أعتقتنى فأنت المأجور فيه فقال ساحم: فقد أذنت لك يا ولى الله ارجع بسلام واذكرنى فى دعائك فقال: اللهم اغفر لساحم، وارحمه رحمة لا عذاب بعدها قال: فنودى قد أجبت يا خضر قال: ومضى خضر حتى أتى البحر فإذا هو برجل قائم على وجه الماء شاخص ببصره إلى السماء وهو يقول يا من أمسك السموات بأمره فلا يسقط بعضها على بعض، يا من دحا الأرض وما فيها فأحصى عدد ما فيها من مثاقيل رملها، وحصبائها(٢٠) يا من عاقب الخضر بذنبه وابتلاه بالعبودة بذنبه خلصه، واجعل توبته مقبولة بوجهك أكرم الوجوه فدنا منه الخضر فقال: السلام عليك يا عبد الله، من أنت الذى تسأل التوبة للخضر؟ قال: أنا الذى آمنت بجلال ربى؛ فاشتغلت بأداء شكر إيمانى، وأن الخضر لم يزل معصوماً حتى رغب فى الدنيا وأدخل فى قلبه حبها فابتلى فقد رحمته وأخلصت له دعائى فقال

---

(١٩) الموبقة: المهلكة.

(٢٠) الحصباء: الرمل، ودقائق الحصى.

له : أنا الخضر فقال : إليك(٢١) إليك أيها المذنب لا تخالطني أيها الميال إلى الميالة ، والذيال إلى الذيالة ، والمغرور إلى المغرورة ، أنسيت نعيم الآخرة ، فجرك النسيان إلى طلب نعيم الدنيا ، أو قد نسيت شدة الآخرة وبؤسها فطلبت راحة الدنيا ، وسرورها أليس الله أبلاك بما ابتلاك عقوبة منه عليك؟ فلو قد نجوت مما قد رأيت لربحت يا خضر الخاطىء تبوأت(٢٢) لنفسك مكاناً كأنك تخلد فيها وقد غرست لراحتك ظلاً كأنك باق فيها أو ما علمت أن أمكنتها مبدلة ، وأن أغراسها منقلعة ، وأن عمرانها مخربة ، وأن نعيمها زائلة ، بمن فيها يا خضر الخاطىء أين كان قلبك ساعة غرستها ، حتى فرغت قلبك لغرسها أين كانت فكرتك عن الآخرة أليس قد خلا قلبك عن ذكر الآخرة بذكر الدنيا ساعة ، وأن الساعة في ذكر الآخرة لبلاغاً للعاقلين يا خضر قد ابتليت بالدعاء لك من عبودة الرحمن قال : وذلك أن الخضر كان له موضع معلوم على بعض شواطىء البحر فإذا خرج الخضر إلى البر عبد الله تعالى فيه قال : فغرس في ذلك الموضع شجرة يعبد الله تعالى في ظل أغصانها إذا اشتهى العبادة فيها استتر بها في عبادته ، فعلم الله منه حب الدنيا بقدر ما اشتهى من تنزهه بها وإن كان ذلك في طاعته ، عاقبه الله تعالى بذلك السائل ؛ حتى صارت عبادته في عبودة عبد من عباد الله ولم يدر الخضر أنه ابتلى بذنب حتى سمع ما سمع من العابد القائم على ظهر الماء ، وكان اسمه سادون بن اشى فلما سمع الخضر بذلك خر ساجداً وهو يقول : يارب ، ما طلبت بذلك إلا وجهك ورضاك فنودى : يا خضر ، آثرت الدنيا على الآخرة ، وفرغت قلبك لحبها دون حب الآخرة وعزتي مالي في حبها رضاء ولا أكرم من أحبها ، ولو كان لي في حبها رضاء

(٢١) إليك إليك : بمعنى إليك عنى أى ابتعد .
(٢٢) تبوأت : نزلت منزلاً .

لخصصت بها أوليائى ولكن أزويها (٢٣) عنهم لهوانها (٢٤) على وكرامتهم لدى أذهب فلا مرغب لى فيمن رغب فى الدنيا وأمكنها (٢٥) من قلبه فلولا ما أدركك من دعاء سادون لأنزلت عليك بوائقى (٢٦) ولتتابعت عليك عقوباتي قال: وذلك أن سادون طلبه فى مكانه الذى كان يسكن فيه أن يراه فلم يره فى مقعده، ولم يجده فدعا الله أن يدله على الخضر أو يعلمه مكانه، وكان يعرف الخضر، والخضر لا يعرفه قال: فأرى أن الخضر أحب الدنيا وزهرتها، وعوقب بعقوبة كذا وكذا فوقف بين يدى الله قائماً على الماء شاخصاً ببصره إلى السماء، وهو يقول: يا رب إن أنت أهنت عبدك الخضر بعد كرامته فمن يكرمه يا رب، ارتكب عظيماً، وحمل ثقيلاً، وخان نفسه، ونسى العهد يا من لا ينسى كل ما كان ويكون من أعمر عباده اذكر عند ذنوب الخضر ما مننت به عليه من أنواع طاعتك وعظيم عبادته إياك يا من ناصية الخضر بيده، يا من ليس له حراك نفس، ولا عصمتها، ولا طرفة عين إلا بأمرك ومشيئتك، وقدرتك يا رب فاغفر له، ما قدرت عليه من معصيتك، وقدر عليه طاعتك فإنها تذهب معصيتك، يارب. فاستجاب الله له وخلص الخضر مما كان ابتلى به من العقوبة قال: فرفع الخضر رأسه وأتى من ساعة سادون وهو يقول: يا سادون الممنون على بمنة اللهَ وجلاله أين عرفتنى، ولم أعرفك يا أخى فقال له سادون: يا خضر، إن قلوب أولياء الله زاهرة ثائرة لها شعاع كشعاع الشمس، تطلع على قلوب أولياء الله الا ترى إلى الشمس ما أعظم قدرها وأكثر ضوءها فلو غشيتها الظلمة القليلة لأذهبت بأكثر ضوءها، وكذلك قلب ولى الله صاف طاهر فلو غشيه حب الدنيا بقدر ذرة لأكدر ضوءها، ولأضعف شعاعها فإذا خلص

---

(٢٣) أزويها: أحجبها.
(٢٤) هوانها: قلة قدرها.
(٢٥) أى أرسخها فى قلبه.
(٢٦) البوائق: الدواهى والمصائب.

القلب من حب الدنيا تراه ينظر إلى أولياء الله فى مظانهم[٢٧] وقد عرفك قلبى فوالله لو كان قلبك للدنيا مثل قلبى؛ لعرفنى قلبك كما عرفك قلبى فقال له الخضر: يا سادون وكيف قلبك للدينا، قال: بلغ من بغض الدنيا ما لو ان الله تعالى عرض على الدنيا والجنة لأبيت قبولها، ولست أريد الجنة مع ما أبغضها الله، وذلك أنى أوثر[٢٨] رضاء الله على رضائى فإن رضاء الله ترك الدنيا، ورضائى دخول الجنة، ولو أن الله خيرنى بين أن أبقى فى الدنيا ونعيمها خالداً مخلداً أبدا لا أموت فيها وبين أن يقبضنى ويدخلنى النار الساعة لاخترت أن يقبضنى، ويدخلنى النار الساعة، وذلك أنى أوثر سخطى على سخط الله تعالى، وأن حب الدنيا سخطاً لله، ودخول النار سخطى، أفتجد ذلك فى قلبك يا خضر، قال: لا قال: لو كان ذلك فى قلبك لكان يرانى قلبك اذهب فليكن أكثر عبادتك بغض ما أبغض الله، وهى الدنيا ليس حب الدنيا بجمع أموالها، وشهواتها، وزهرتها ولكن حب الدنيا أن يشغل قلبك عن حب الآخرة، ولو طرفة عين أبغضها بغضاً لا يكونن شىء أبغض إليك منها؛ فإنك لا تطيق أن تحب الآخرة إلا على قدر ما تبغض الدنيا فقال: يا سادون ادع الله تعالى أن يتوب على بما ارتكبت فإنى أستحيى من ربى أن أدعوه فقد حاربته مع عدوه، فقال سادون: يا رب، قدرت على عبدك الذنب فارتكب من الذنب ما ارتكب، وما كان أهلاً لذلك، وهو عدل منك يا رب، ثم قدرت له الخلاص[٢٩] من عقوبتك يا رب، وألهمته طلب التوبة من ذنوبه يا رب، فتب عليه فقد عرف ذنبه توبة مصر غير عائد يا رب إن الخضر سألنى أن أدعوك، فقد دعوتك مدلا عليك بما وعدتنى من حسن إجابتك فى أوليائك،

---

(٢٧) مظانهم: ما يُظن وجودهم ثمّ.

(٢٨) أوثر: أفضل.

(٢٩) فى نسخة أخرى [اخلاص] وهو تحريف.

فنودى مر الخضر أن يزهد فى الدنيا فإذا زهد فى الدنيا اشتاق إلى ومن اشتاق إلى اشتقت إليه ولا أشتاق إلى من لا أريد مغفرته، ولم أرض عنه فأخبره سادون فزهد بعد ذلك الخضر زهداً لم يزهد أحد مثله، وكان سادون رجلاً ملاحاً فكان ذات ليلة نائماً على شط البحر إذ خرجت سمكتان فوقعتا حذاءه فسكت عنهما سادون، رجاء أن يخرجا إلى البر فيأخذهما (٣٠) فنادته إحداهما يا سادون: أبلغ حبك الدنيا أن تطمع فى برها وبحرها والله إنك طمعت أن تصطاد من هو أعبد إلى الله منك فنادتها صاحبتها يا هذه أتمنين على سادون بعبادتك، ولم تؤد شكر نعمة أنعمها الله عليك فقلت: من أنتما فقالت الأخيرة أما التى نادتك بالكلام الأول منت على الله فسخها الله الآن فها هى ذى ممسوخة خرساء، وأما أنا فمن جنس السمك الذى كان يونس (٣١) بن متى عليه السلام فى بطنها فقال سادون: كيف خصها الله بيونس عليه السلام من بين دواب البحر قالت: كانت تعبد الله فى البحر بزهدها، قال: فكيف كان زهدها قالت: كانت لا تبرح (٣٢) فإن أوتيت صيداً عفواً (٣٣) أكلته وإلا صبرت، فكانت دواب البحر تسميها السمكة الزاهدة فأكرمها الله بنبيه ورسوله عليه السلام إكراماً لها بزهدها فزهد سادون فى مكانه، زهداً وأخلص لله عبادته، فقام من ساعته فر على الماء فلما توسط البحر، وقف فلم يزل إلى أن صار إلى الخضر يعبد الله ويدعوه، قال أبو عبدالله فنور هذه الكلمة بلغ هذا المبلغ فإنما بلغ بصدق القائل، ولو كان غير الصدق لكان المنافق قد قاله، واليهود والنصارى قد قالوها فأصدقهم فى المقال أعظمهم نوراً والصدق فى المقال إنما يظهر من العبد

---

(٣٠) أى يصطادهما.

(٣٢) هو سيدنا يونس عليه السلام.

راجع قصص الأنبياء لابن كثير بتحقيق السيد الجميلى.

(٣٢) لا تبرح: لا تزول.

(٣٣) عفواً: زائداً.

ببذل النفس لله وإيثاره ربه على نفسه فى كل مشيئة وإرادة وشهوة فإذا آثر الله فقد صدق الله فى إرادته ربه، ورفض نفسه فالنبى بفضل ثبوته أراد الله إرادة بزيادة الحياة التى فى قلبه، والصديق هو دون النبى والشهيد دونهما، وهو أقل حياة من الصديق والصديق أقل حياة من النبى والصالح أقل حياة من الشهيد ومن حيى بالله نال نور اليقين فهؤلاء الأصناف على درجاتهم على ما وصفنا فى الحياة بالله واليقين به فأوفرهم حظاً من الحياة واليقين أشدهم شوقاً إليه وارادة له وإيثاراً له على شهوات نفسه، فالنبى رأس الشهداء ثم الصديق من بعده، ثم القتيل فى سبيل الله ثم من بعد ذلك من هذه الأصناف التى ذكرها فى الحديث وأصناف آخرون مذكورون فى غير هذا الحديث، وإنما قال فى هذا الحديث الشهادة سبع، ولم يقل ولا يكون شهيداً من وراء السبع إنما ذكر السبع فى ذلك الموطن، ثم ذكر بعد ذلك أن الغريب (٣٤) إذا مات فهو شهيد ومن مات مرابطاً فهو شهيد، ومن خرج فى طلب العلم فمات فهو شهيد، ومن دام على الطهارة متوضئاً فهو شهيد، ومن مات فى يوم الجمعة فهو شهيد.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «موت الغربة شهادة» (٣٥)، عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «موت الغربة شهادة»، عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقاه الله فتنة القبر» (٣٦)،

---

(٣٤) فى نسخة [إذمات] وهو تحريف خطير من الناسخ.

(٣٥) رواه أبو يعلى وابن ماجة والطبرانى، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس به مرفوعاً، وله شواهد أخرى.

راجع التمييز ص ١٧٤ وص ١٧٥.

(٣٦) تقدم هذا الحديث.

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله وزاد فيه «وغذى وريح عليه من الجنة»، أى برزقه تعالى فأما تفسير الشهادة فإنه روى فى الخبر أن الله تبارك وتعالى اسمه لما خلق الموت فزعت الملائكة منه وعظم شأنه عندهم فقالوا: من يقوم لهذا فقال تعالى؛ فيما روى عنه «أن لى عباداً يتمنونه حباً للقائى يتجرعون مرارته ويهون ذلك عليهم اشتياقاً إلى ويرفضون الحياة الدنيا طالبين لى فعجبت الملائكة من شأن هؤلاء العبيد، وحنت إلى رؤيتهم، قال: فعرضت تلك الأرواح عليهم يومئذ فمن شهد ذلك العرض يومئذ أثبت اسمه وسمى شهيداً» أى شهداء العرض، وكان من أهل هذه الصفة فإذا خرج الروح منه صار إلى ذلك المعرض وكان من الأحياء المرزوقين فلما صارت تلك الأرواح إلى الأجساد فى الدنيا كانت قلوبهم حية بالله على الصفة التى وصفنا بدءاً فهم الصديقون أولياء الله يتمنون الموت لحب الله، قال الله تعالى فى تنزيله حين ادعت اليهود ولايته فقال:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (٣٧)

ثم قال:

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٣٨)

ثم هؤلاء الأصناف الذين ذكرهم فى الحديث هم فى الغيب فى ذلك العرض قد اثبتت أسماؤهم فى الشهداء لذلك المحل، والعرض فوفق الله لهم هذه الأحوال، فمن غرق فأخذ الماء بنفسه كانت موتته موتة وحية

(٣٧) الجمعة (٦٢/٦).
(٣٨) الجمعة (٦٢/٧).

أى ســريعة بلا لبث فبذل نفسه لما أيس (٣٩) من الحياة واختار لقاء الله، وكذلك صاحب الحريق، وصاحب الهدم، والنفساء بجمع إذا نشب الولد فى البطن أيست من الحياة وآثرت لقاء الله وكذلك المطعون.

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون فقال: «وخز أعدائكم من الجن فذاك قتيل الجن (٤٠) يائس صاحبه من الحياة فكذلك المبطون وصاحب ذات الجنب وهو صاحب السل قد آيسا من الحياة لأن قوة الحياة قد ذهبت من المبطون، والمسلول، وقد أحست نفوسهما بالموت، وكذلك الغريب إذا أشرف على الموت فلم ير أهله وولده ولا أحبابه تمنى الموت، وبذل نفسه لأن هؤلاء إذا كانوا بالحضرة اشتد على النفس فراقهم فأحبوا الحياة ففى هذا نقصان ولذلك تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أعوذ بك من حب العيش عند حضرة الموت» فإذا أحب أن يعيش فى ذلك الوقت الذى دعاه الله إليه فتلكأ، وتردد فذاك عيب، ونقص فأصحاب الفرش فى هذا العيب لا يتمنون الموت إذا حضر لحب العيش وفتنة قلوبهم بالأهل والولد، وحطام الدنيا فذاك نقص وعيب.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشهداء أمناء الله قتلوا أو ماتوا على فرشهم».

عن راشد بن سعد رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس كل قتيل شهيداً رب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته» فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رأس الشهداء ثم من بعده أبوبكر رضى الله عنه كذلك فإنهم صاروا شهداء بأنهم أمناء الله جعل الله أرواحهم وأجسادهم عارية فيقبضهم عند نفاد آجالهم، فكانوا فى

---

(٣٩) آيس: يئس.
(٤٠) فى نسخة أخرى [كناك قتيل الله].

أيام الحياة يعدونها عارية وكانت أعينهم مادة إلى الدعوة متى يدعون فيستجيبون بلا تلكأ (٤١) ولا تردد فمن أحب العيش فى الدنيا، ولم يكن له حب لقاء الله فحضره الموت تلكأ، وتردد فى بذل الروح فخرج من أن يكون من أمناء الله تعالى، وكذلك وضع فيما بين العباد لو أن رجلاً أعطى شيئاً عارية (٤٢) وأودع وديعة ثم استردها صاحبها فتلكأ هذا فى ردها على مالكها فقد خان وضيع الأمانة فإنما يؤخذ منه بعد ذلك قهراً فأمناء الله هم الذين أرواحهم عندهم عارية بأمانة الله فهم يتمنون الموت حباً للقاء الله تعالى، فإذا جاءهم الموت تجرعوا مرارته حباً للقائه ولم يتلكؤا فى رد العوارى (٤٣)، فلذلك صاروا أمناء الله، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هم الشهداء» لأنهم كانوا يومئذ شهدوا ذلك العرض، واليوم حين خرجت منهم الأرواح صارت إلى المحل؛ فشهدوا القربة فهم شهود عند الله فى القرية أحياء فهذا يحقق ما قلنا بدءاً فقد صير فى حديثه القتيل، والذين ماتوا على فرشهم بمنزلة وسماهم شهداء يعلمك أن الشهادة ليست على القتيل حدثت إنما إسم الشهادة لزمهم لما وصفنا والكرامة نالوها من أجل أنهم رفضوا الحياة وآثروا لقاء الله وأرادوه فأرادهم، وكذلك الذى لا يزال على وضوء أيام الدنيا لأن الله تبارك وتعالى قال:

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ (٤٤)

أى فعولاً للطهر؛ لنحيى به بلدة ميتاً فالأرض تحيا بذلك الماء، وتنبت والآدمى خلق من الأرض فإذا أذنب مات قلبه عن الله على قدر ذنبه فإذا توضأ كان ذلك الماء الذى أنزله طهوراً يطهر جوارحه ويزيل عنه

---

(٤١) بلا تلكؤ: من غير تريث أو إبطاء.
(٤٢) عارية: وديعة مؤداة لصاحبها بعد أجل معين، وفى الحديث: «العارية مؤداة».
(٤٣) العوارى: جمع عارية.
(٤٤) الفرقان (٢٥/٤٨).

المعاصى فيعود القلب إلى الحياة التى كانت فإذا دام وضوءه، وتتابع كانت حياة قلبه دائمة فإذا دامت حياة قلبه تمنى الموت ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه لأنس: «أن حفظت وصيتى فلا يكونن شىء أحب إليك من الموت».

عن ابن مسعود رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده الشهداء فقال: «إن أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش، ورب قتيل بين صفين الله أعلم بنيته».

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس من أحد إلا وله كرائم من ماله يأبى بهم الذبح فإن لله تعالى خلقاً من خلقه يأبى بهم الذبح أقوام يجعل موتهم على فرشهم ويقسم لهم أجور الشهداء».

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لله أضن بدم عبده المؤمن من أحدكم بكريمة ماله حتى يقبضه على فراشه» فهذه صفة عبد مؤمن قد اطمأنت نفسه إلى ربه ولها عن الدنيا وأحوال النفس، وأناب قلبه(٤٥) إلى ربه وجاد(٤٦) بنفسه على ربه يقبل أحكامه وأقضيته على نفسه قبول مهتش مشتاق إلى لقاء محب له بكل قلبه فكما جاد بنفسه على ربه ضن به ربه عن أحوال البلاء ولم يدفعه إلى تلك الأحوال فلذلك يأبى به عن القتل فى سبيله حتى يقبضه على فراشه فيقسم له أجر الشهداء لأن الشهيد إنما بذل نفسه ساعة من نهار؛ حتى قتل لهذا بذل نفسه فى جميع عمره فالله يضن بدمه كما يضن أحدنا بنجيبته، فإن النجيبة من كرائم ماله فلا تسخو نفسه أن يذبحها فكذلك ربنا يضن به عن البلاء أن يعرض نفسه

---

(٤٥) أناب قلبه: رجع.
(٤٦) جاد: سخا.

للبلاء. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث عن حوشب قال: قال رسول الله صلى اله عليه وسلم: «إن لله ضنائن».

وفى رواية: «ان لله عباداً يصونهم عن الأمراض، والأسقام يحييهم فى عافية، ويميتهم فى عافية فيدخلهم الجنة فى عافية».

قال له قائل فأين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون»، قال: هذا إذا ابتلاهم فمن ابتلى من الأنبياء فهو أشد الناس بلاء.

ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث دخلوا عليه وبه حمى قال أبوسعيد رضى الله عنه فما كادت يدى تقار من شدة الحر حين وضعت يدى عليه فقلت له يا رسول الله ما أشد حماك قال: «إنى أوعك كما يوعك الرجلان منكم وإن أشد الناس بلاءً الأنبياء».

فهذا إذا ابتلى فهو أشد الناس بلاء، والذى قلنا باب آخر إنما ذلك فى التتابع، والتواتر فكثير من الأنبياء تتابعت عليهم، وتواترت حتى قتلوا بأنواع القتل وأما الخواص من الأنبياء فقد عوفوا منهم إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام إنما ابتلى ببلية من البلوى، ثم لم يزل معافى (٤٧) وإسماعيل، وإسحاق، وموسى، وهارون، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين فقد عرضوا للبلاء، ثم رفع عنهم ولم يبتلهم فيشملهم البلاء إنما البلاء لمثل أيوب عليه السلام، ومثل يحيى بن زكريا عليهما السلام حيث قتل صبرا، ولزكريا عليه السلام، حيث نشر بالمنشار فى الشجر، ومثل جرجيس وأشباهه عليهم السلام. عن ابن عمر رضى الله عنهما عن

---

(٤٧) وردت بالمطبوعة [معافاً].

رسول الله صلـــى الله عليه وسلم قال: «إن لله ضنائن من خلقه تغذوهم رحمته محياهم فى عافية، ومماتهم إذا توفاهم الله إلى جنته، أولئك الذين تمر عليهم الفتن كمثل قطع الليل المظلم وهم منها فىعافية» والله أعلم.

[الأصل الحادى والتسعون والمائتان فى أن القلب الحقيقى فى أثقال العظمة يتحمل بالمزاج]

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس من اللهو إلا ثلاثة تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه ونبله»(١).

وفى رواية عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل لهو المؤمن باطل إلا ثلاثاً فإنهن حق رمية بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته».

قال أبو عبد الله رضى الله عنه: فاللهو ما يلهى قلب المؤمن عن الله تعالى، وهو كله مذموم إلا فى هذه الثلاثة الأنواع لأن فى هذه الثلاثة عوناً على الدين، وقواماً له يرمى بقوسه، لئلا تذهب عادته للرمى ولا يتشنج أعضاؤه ومفاصله، وكتفاه ويؤدب فرسه لئلا يجمح، ولا يكون مستولياً على النزع منه والفروسية لئلا تنقطع عنه شجاعته ويكون جرياً ذا قلب فإذا ترك ذلك ضعف قلبه، وجبن وملاعبته أهله ليسكن ما به

---

(١) الحاكم فى «المستدرك» ـ كتاب الجهاد ـ باب من علم الرمى ثم تركه (٢/ ٩٥). وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى، والترمذى فى سننه ـ كتاب فضائل الجهاد ـ باب ما جاء فى فضل الرمى فى سبيل الله (٤/ ١٧٤) وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، والبيهقى فى «السنن الكبرى» ـ كتاب الشهادات ـ باب ما لا ينتهى عنه من اللعب (١٠/ ٢١٨)، وأبوداود فى سننه ـ كتاب الجهاد ـ باب فى الرمى (٣/ ١٣)، وابن ماجة، والنسائى، وأحمد بن حنبل؛ والطحاوى.

وبها، وهذا كله وإن كان ملهياً فهو في الأصل حق، وإنما رخص للمؤمن في التلهي بهذا لأن قلبه في أثقال العظمة فإذا دام عليه ضاق به، والتمس تفرجاً وتخفيفاً فيلجأ إلى هذه الأشياء التي هي في الأصل حق حتى يكون مزاجاً للمؤمن.

ألا يرى أن رسول الله صلـــى الله عليه وسلم لما أسرى به فانتهى إلى السدرة (٢) وغشيها ما غشيها قال: رأيت نوراً ثم حال دونه فراش من ذهب وأخذني كالشبات فذاك مزاج له ليتحمل رؤية ذلك النور كأنه لم يقدر على احتمال ذلك النور حتى مازجه (٣) بذلك الفراش؛ فأطاق احتماله كذلك المؤمن البالغ إذا تراكمت على قلبه أثقال العظمة التمس متنفساً ليقوى على احتمالها؛ فصير رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه هذا اللهو الملهي لقلبه حقاً، وتخفيفاً عنه فإنما صارت هذه الأشياء ملهية؛ لأن الرجل إذا رمى عن قوسه توخى (٤) بقلبه تسديد السهم وأصابته للهدف فهو يجتهد في علم ذلك، ووضعه يده حيث وضع ففي ذلك مشغلة تلهي قلبه، ولا يخلو من ذلك وفي إصابته حيث وضع شفاء للنفس، وقوة للقلب فسمي لهواً لأنه يلهيه، وذلك اللهو حق وكذلك تأديبه الفرس حتى لا يحرن، ولا يجمع، ويفهم شأن العنان، ويتعلم السير والوثبان، والوقوف والاستدارة، وفي ذلك مشغلة تلهيه، وذلك حق، وكذلك ملاعبته امرأته؛ يريد بذلك تسكينها وعفتها عن الرجال، ففي ذلك ما يهيج عليه، من الشهوة ويلهيه ففي هذه الأشياء تفرج، وخفة عن أثقال العظمة على قلب المؤمن فيكون مزاجاً، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

---

(٢) هو سدرة المنتهى.
(٣) مازجه: خالطه.
(٤) توفى: قصد.

هذا آخر كتاب نوادر الأصول فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والحمد لله على توفيق إتمامه، والصلاة والسلام على نبيه وحبيبه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله الطاهرين وأصحابه أجمعين.

المراجع والمصادر

- **القرآن الكريم.**
- **إبراهيم: الشيخ محمد زكى إبراهيم**
أبجدية التصوف ط العشيرة المحمدية.
- **الأشعرى: أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى**
مقالات الاسلاميين تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد.
- **الأصفهانى: الراغب**
المفردات فى غريب القرآن.
- **الألوسى: أبو المعالى محمود شكرى الألوسى**
غاية الأمانى فى الرد على النبهانى.
ــ روح المعانى ــ ط القاهرة.
- **الانصارى: الشيخ زكريا الانصارى.**
نتائج الأفكار القدسية شرح الرسالة القشيرية.
- **الأهوانى: الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى**
القيم الروحية فى الإسلام.
- **أمين: الدكتور عثمان أمين**
الجوانيــة.
- **ابن تيمية: أبو العباس بن تيمية تقى الدين أحمد**
ــ حقيقة مذهب الاتحاديين.

- **ابن الجوزى:** هو الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على ابن محمد بن على الجوزى القرشى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ.
  - تلبيس ابليس
  - صفة الصفوة.
- **ابن حجر العسقلانى:** أبو الفضل أحمد على الكتانى توفى سنة ٨٥٢ هـ
  - لسان الميزان.
- **ابن حزم:** أبو محمد على بن محمد- توفى سنة ٤٥٦ هـ
  - الفصل فى الملل والأهواء والنحل.
- **ابن خلدون:** عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى المتوفى سنة ٧٨٤ هـ
  - المقدمة.
- **ابن رجب:** زين الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين المتوفى سنة ٧٩٥ هـ.
  - اختيار الأولى فى شرح حديث الملأ الأعلى.
- **ابن شرف الدين:** زكريا يحى ٦٣١ — ٦٧٧ هـ
  - التبيان فى آداب حملة القرآن.
- **ابن عبد الله:** الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله
  - الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب.
- **ابن عجيبة:** أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى
  - الفتوحات الالهية.
- **ابن عربى:** محمد بن على الطائى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ
  - الفتوحات المكية.

ـ القسطاس المستقيم على هامش ختم الأولياء.

ـ **ابن قيم الجوزية:** شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ

ـ الروح.

ـ مفتاح دار السعادة وشعور ولاية العلم والارادة.

ـ **ابن قتيبة:** أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ

ـ تأويل مختلف الحديث.

ـ **ابن كثير:** عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

ـ تفسير القرآن العظيم ـ ط كتاب الشعب.

ـ **ابن ماجه:** الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ٢٠٧ ـ ٢٧٥ هـ

ـ سنن ابن ماجه ـ ط الحلبى ١٩٥٣.

ـ **ابن منظور:** أبو الفضل محمد بن جلال الدين

ـ لسان العرب ـ ط دار المعارف.

ـ **ابن النديم:** محمد بن اسحاق

ـ الفهرست ـ ط دار المعرفة بيروت.

ـ **أبو حفص:** الشيخ أبو حفص عمر بن بدر الموصلى

ـ المغنى ـ ط الأزهر ١٤٠٣ هـ.

ـ **أبو داود:** أبو داود سليمان بن الأشعث بن اسحاق الازدى السجستانى

ـ سنن أبى داود ـ ط الحلبى ١٣٧١ هـ.

- **ابو عوانة: يعقوب بن اسحاق الاسفرائنى**
  - المسند ـ ط دار المعرفة بيروت.
- **أبو شهبة: الدكتور محمد محمد ابو شبهة**
  - دفاع عن السنة ـ ط الأزهر ١٩٨٥م.
- **ابو الشيخ: ابو محمد عبد الله الاصبهانى**
  - أخلاق النبى وآدابه ـ ط السعادة بمصر.
- **أبو شيبة: الحافظ عبد الله بن محمد بن ابى شيبة**
  - المصنف ـ ط السلفية ١٤٠٢هـ.
- **أبو نعيم: الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى ٤٣٠هـ**
  - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ ط دار الكتاب العربى بيروت ١٢٨٧هـ.
- **أبو طالب المكى: محمد بن على بن عطيه المتوفى سنة ٣٨٦هـ**
  - علم القلوب ـ تحقيق الاستاذ عبد القادر أحمد عطا ـ ط مصر ١٩٦٤.
  - قوت القلوب ـ ط دار صادر بيروت.
- **البخارى: ابو عبد الله محمد بن اسماعيل ١٩٤ ـ ٢٥٦هـ**
  - الأدب المفرد ـ طبع محب الدين ١٣٧٩هـ.
  - صحيح البخارى ـ ط الشعب.
- **بدوى: الدكتور عبد الرحمن بدوى**
  - تاريخ التصوف الإسلامى ـ ط وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٨.
- **بركة: الدكتور عبد الفتاح بركة**
  - الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ـ ط مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧١م.

ـ في التصوف والأخلاق ـ نصوص ودراسات المطبعة المحمدية ١٤٠٠هـ.

ـ بركة: الدكتور عبد الفتاح بركة
ـ في التصوف والأخلاق ـ ط المحمدية ١٤٠٠هـ.

ـ البغدادي: اسماعيل باشا البغدادي
ـ هداية العارفين ـ ط اسطنبول ١٩٥٥.

ـ البيهقي: الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي المتوفى سنة ٤٦٣هـ
ـ الأسماء والصفات ط مطبعة السعادة.

ـ البيهقي: الحافظ ابو بكر أحمد بن الحسين صاحب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٤٥٨هـ
ـ الجامع لشعب الإسماء ـ ط المطبعة العزيزية الهند ١٣٩٥هـ.
ـ السنن الكبرى ـ ط الهند ١٣٤٤هـ.

ـ التفتازاني: الدكتور ابو الوفا الغنيمي التفتازاني
ـ ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ـ ط القاهرة ١٩٥٨.

ـ البغوي: ابو محمد الحسين بن مسعود البغوي
ـ شرح السنة ـ ط دار الكتب المصرية ١٣٩٢هـ.

ـ البيضاوي: الشيرازي البيضاوي
ـ أنوار التنزيل ـ ط الحلبي ١٣٧٥هـ.

ـ جعفر: الدكتور محمد كمال جعفر
ـ التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ـ ط دار المعرفة الجامعية ١٩٨٠.

ـ الجيلاني: أبو صالح عبد القادر بن موسى

– الغنية لطالبى طريق الحق – ط الحلبى ١٣٧٥هـ
– فتوح الغيب – ط الحلبى ١٣٩٢هـ.

– الحسينى: عبد المجيد هاشم وكيل شيخ الأزهر
– أصول الحديث النبوى – ط دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢.

– الحسينى: الدكتور عبد المحسن
– مقدمة كتاب «حقيقة الأدمية» للحكيم الترمذى نشر مجلة كلية الأداب جامعة الأسكندرية الجزء الثالث ١٩٤٦م.
– المعرفة عند الحكيم الترمذى – ط القاهرة ١٩٦٨.

– الحكيم الترمذى: أبو عبد الله محمد بن على المتوفى سنة ٣٢٠هـ
– أبواب فى صفة العلم – مخطوط بمعهد المخطوطات رقم ١٠٤.
– اثبات العلل – مخطوط ولى الدين رقم ٧٧٠.
– الاحتياطات – مخطوط باريس رقم ٥٠١٨.
– اداب المريدين وبيان الكسب – تحقيق الدكتور عبد الفتاح بركة – ط السعادة بمصر.

– الحكيم الترمذى: ابو عبد الله محمد بن على المتوفى سنة ٣٢٠هـ.
– أسرار مجاهدة النفس – تحقيق إبراهيم الجمل.
– الأكياس والمغترين – مخطوط معهد المخطوطات العربية رقم ١٠٤.
– الأمثال من القرآن والسنة – تحقيق على محمد البجاوى – ط دار نهضة مصر.
– بدو شأن أبى عبد الله – مطبوع ضمن ختم الأولياء.
– بيان العلم – مخطوط.
– بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب تحقيق الدكتور نقولا هير – ط عيسى البابى الحلبى ١٩٥٨ مصر.

ـ تحصيل نظائر القرآن ـ تحقيق الاستاذ حسنى نصر زيدان ـ ط السعادة ١٣٩٠هـ.
ـ جواب كتاب من الرى ـ تحقيق الدكتور الجيوشى ـ ط منبر الإسلام ع ٨ السنة ٤٠.
ـ الحج واسراره ـ تحقيق الاستاذ حسنى زيدان ط دار السعاد بمصر.
ـ حقيقة الأدمية ـ ط مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية مجلد سنة ١٩٤٦م.
ـ ختم الأولياء ـ تحقيق الدكتور عثمان اسماعيل يحى ط المطبعة الكاثوليكية ببيروت.

ـ **الحكيم الترمذى:** أبو عبد الله محمد بن على المتوفى سنة ٣٢٠هـ.
ـ خمس رسائل للحكيم الترمذى ـ تحقيق الدكتور عبد الفتاح بركة ـ ط مجلة كلية أصول الدين بالقاهرة المجلد الأول.
ـ درجات الذكر ومراتب الذاكرين ـ مخطوط بمكتبة الدكتور الجيوشى.
ـ الرياضة وأدب النفس ـ تحقيق الدكتور على حسن والمستشرق اربرى ـ ط الحلبى ١٣٦٦هـ.
ـ الرد على الرافضة ـ مخطوط.
ـ الرد على المعطلة ـ مخطوط بمكتبة الاسكندرية رقم ١٤٥.
ـ شفاء العلل ـ مخطوط رقم ٧٧٠ ولى الدين.
ـ الصلاة ومقاصدها ـ تحقيق الاستاذ حسنى زيدان ـ ط القاهرة ١٩٦٥.
ـ العقل والهوى ـ مخطوط بمكتبة الجيوشى.
ـ علم الأولياء ـ تحقيق الدكتور سامى نصر لطف ـ ط مكتبة الحرية ١٩٨٣م.

ـ العلل ـ مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٢٥.
علل العبادات ـ مخطوط رقم ٧٧٠.
ـ غرس العارفين ـ مخطوط معهد المخطوطات العربية.
ـ غور الأمور ـ مخطوط المكتبة الأهلية بباريس ٥٠١٨.

ـ الحكيم الترمذى: أبو عبد الله محمد بن على المتوفى سنة ٣٢٠هـ.
ـ الفروق ومنع الترادف ـ مخطوط باريس رقم ٥٠١٨.
ـ فى خلق هذا الأدمى ـ مخطوط بمعهد المخطوطات رقم ١٥٤.
ـ الكلام على معنى لا إله إلا الله ـ تحيق الدكتور الجيوشى ـ ط حسان بالقاهرة.
ـ كيفية السلوك إلى رب العالمين ـ مخطوط رقم ٣٥٣ بخزانة تطوان المغرب.
ـ مسألة الايمان والاسلام والاحسان ـ تحقيق الدكتور الجيوشى ـ ط منبر الاسلام عدد ١٦ لسنة ٣٨.
ـ المسائل المكنونة ـ تحقيق الدكتور الجيوشى ـ ط دار التراث العربى بمصر ١٤٠٠هـ.
ـ معرفة الاسرار ـ تحقيق الدكتور الجيوشى ـ ط دار النهضة العربية بمصر ١٩٧٧م..
ـ مكر النفس ـ تحيق الدكتور بركة ضمن كتاب فى التصور والاخلاق دراسات ونصوص.
وتحقيق الدكتور الجيوشى ضمن كتاب المسائل المكنونة.
ـ منازل القرية ـ مخطوط دار الكتب رقم ٧٧٠.
ـ منازل العباد من العبادة ـ تحقيق الدكتور الجيوشى ـ ط دار النهضة العربية بمصر ١٩٧٧.

ـ الحكيم الترمذى: أبو عبد الله محمد بن على المتوفى سنة ٣٢٠هـ
ـ المنهيات: تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول ـ ط

دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٤هـ.
ــ المنهيات: تحقيق محمد عثمان الخشت ــ ط مكتبة القرآن بمصر ١٩٨٦م.
نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول ــ ط تركيا.

ــ **الحكيم**: الدكتورة سعاد الحكيم
ــ المعجم الصوفى ــ ط المؤسسة الجامعية بيروت ١٤٠١هـ.

ــ **الحكيم**: محمد تقى الدين الحكيم
ــ الأصول العامة للفقة المقارن ــ ط بيروت ١٩٦٣م.

ــ **حلمى**: الدكتور محمد مصطفى حلمى
ــ الحياة الروحية فى الإسلام ــ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.

ــ **الحميدى**: الحافظ أبو بكر عبد الله الحميدى
ــ المسند ــ الطبعة الأولى نشر المجلس الأعلى بالهند.

ــ **الخراز**:
ــ الطريق إلى الله أو كتاب الصدق ــ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ــ ط دار الكتب الحديثة ١٩٧٥م.

ــ **الخطيب البغدادى**: الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن ثابت ٤٦٣هـ
ــ الكفاية فى علم الرواية ــ ط دار الكتب الحديثة.
ــ تاريخ بغداد ــ ط الخانجى ١٣٤٩هـ.

ــ **الخطيب**: الأستاذ عبد الكريم الخطيب
ــ نشأة التصوف ــ ط مؤسسة الشرق للطباعة ١٣٨٠هـ.

ــ **الدارمى**: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن ١٨١ ــ ٢٥٥هـ
ــ سنن الدارمى ــ ط شركة الطباعة الفنية المتحدة ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٦م.

- **دار شكوه:**
  - سفينة الأولياء — مخطوط.
- **الدارقطنى:** الامام على بن عمر الدارقطنى
  - سنن الدارقطنى — ط عالم الكتب بيروت.
- **دنيا:** الدكتور سليمان دنيا
  - مفهوم التصوف — ط مؤسسة الشرق للطباعة ١٣٨٠ هـ.
- **الدهلوى:** شاه ولى الله أحمد ت ١١٧٦ هـ
  - حجة الله البالغة — ط مصر ١٣٢٣ هـ.
- **الديلمى:** أبو الحسن على بن محمد
  - سيرة الشيخ الكبير أبو عبد الله الشيرازى. ترجمة الدكتور ابراهيم شتا — ط الهيئة العامة لشئون المطابع ادارة النشر بالأزهر ١٣٩٧ هـ.
- **الذهبى:** الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد
  - تذكرة الحفاظ — ط حيدر أباد — الهند ١٣٣٤ هـ.
- **الذهبى:** أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان توفى سنة ٧٤٨ هـ
  - ميزان الاعتدال — تحقيق الاستاذ على محمد البجاوى — مصر ١٣٢٥ هـ ١٩٦٣ م.
- **زادة:** طاش كبره زاده
  - مفتاح السعادة — ط حيدر أباد الدكن الهند.
- **ذكرى:** الدكتور أبو بكر ذكرى
  - تاريخ النظريات الأخلاقية — ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٧٨ هـ.
- **الرازى:** الإمام الفخر الرازى.

ـ التفسير الكبير ـ الطبعة الأولى مصر
ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ـ ط الامبابى ١٣٩٨ هـ.

ـ **الزركلى:** خير الدين الزركلى
ـ الاعلام ـ الطبعة الثانية بيروت.

ـ **زروق:** أبو العباس أحمد بن أحمد زروق.
ـ قواعد التصوف
تحقيق الدكتور محمد زهرى النجار والدكتور على معبد فرغلى ـ ط الكليات الأزهرية ١٣٩٦ هـ.

ـ **الزينى:** محمد بن اليمنى الناصرى الجعفرى الزينى.
ـ ضرب نطاق الحصار على أصحاب نهاية الانكسار ـ ط المطبعة الأهلية المغرب ١٣٤٥ هـ.

ـ **السايح:** أحمد عبد الرحيم السايح.
ـ عباس محمود العقاد فيلسوفا.
رسالة ماجستير ١٩٧٥م مكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة.

ـ **السايح:** سيدى محمد العربى بن السايح.
ـ بغية المستفيد لشرح منية المراد ـ ط مصطفى محمد بمصر.

ـ **السباعى:** الدكتور مصطفى السباعى.
ـ السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ـ ط المكتب الإسلامى بدمشق ١٣٩٨ هـ.

ـ **السبكى:** تاج الدين عبد الوهاب بن على المتوفى سنة ٧٧١ هـ.
ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ ط البابى الحلبى.

ـ **السراج:** أبو نصر عبد الله بن على الطوسى توفى سنة ٣٧٨ هـ.
ـ اللمع ـ ط مصر سنة ١٩٦٠م.

- **سعد:** الدكتور الطبلاوى محمود سعد.
- التصوف فى تراث ابن تيمية ـ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.

- **السكندرى:** ابن عطاء الله السكندرى.
- تاج العروس على هامش التوير ـ ط القاهرة.
- شرح الشيخ الرندى على الحكم ـ ط البابى الحلبى ١٣٥٨هـ.

- **السلمى:** أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى توفى سنة ٤١٢هـ.
- طبقات الصوفية ـ تحقيق شربية.
- طبقات الصوفية ـ تحقيق الشرباصى.

- **السهرودى:** شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله توفى سنة ٦٣٢هـ.
- عوارف المعارف ـ ط مصر ١٩٣٩م.

- **السيوطى:** جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد.
- الاتقان فى علوم القرآن ـ ط الهيئة المصرية ١٩٧٤م.

- **السيوطى:** جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ٨٤٩هـ ـ ٩١١م
- تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى ـ ط دار الكتب الحديثة.
- جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير
١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م
- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ـ ط المكتبة الإسلامية ومكتبة كعفر فى طهران ومكتبة اعتماد فى بغداد.
- اللألىء المصنوعة ـ ط المطبعة الأدبية ١٣٨٦هـ.
- مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة ـ ط دار الهدى بالكويت.

- **الشاذلى:** الدكتور الشاذلى.
ــ مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة.
رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة.

- **شرف:** الدكتور محمد جلال شرف.
ــ أعلام التصوف فى الإسلام ــ ط دار الجامعات المصرية بالاسكندرية ١٩٧٦.

- **الشرقاوى:** الدكتور حسن محمد الشرقاوى.
ــ ألفاظ الصوفية ومعانيها ــ ط دار المعرفة بالاسكندرية.
ــ نحو علم نفس إسلامى ــ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- **الشعرانى:** أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على توفى سنة ٩٧٣ هـ.
ــ الطبقات الكبرى ــ ط مصر ١٩٢٥م.
ــ تنبيه المغتربين ــ طبعة دار احياء الكتب العربية.
ــ لطائف المنن والأخلاق ــ ط عالم الفكر بمصر.

- **شفق:** الدكتور س. ر. شفق.
ــ الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ــ ط مؤسسة فرانكلين.

- **الشنقيطى:** سيدى عبد الله بن إبراهيم العلوى.
ــ نشر البنود على مراقى السعود ــ ط وزارة الأوقاف المغرب.

- **الشهرستانى:** محمد بن عبد الكريم بن أحمد المعروف بالشهرستانى متوفى سنة ٥٤٨ هـ.
ــ الملل والنحل ــ ط بيروت.

- **الشوكانى:** محمد بن على متوفى سنة ١٢٥٠ هـ.
ــ فتح القدير ــ الطبعة الأولى ــ ط الحلبى ١٣٥٠ هـ.

- **صبحي:** الدكتور أحمد محمود صلحى.
التصوف ايجابياته وسلبياته ـ ط عالم الفكر الكويت.

- **صقر:** الأستاذ حامد صقر.
ـ نور التحقيق ـ ط دار التأليف بمصر ١٣٦٩ هـ.

- **صليبيا:** الدكتور جميل صليبيا.
ـ المعجم الفلسفى ـ ط دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٨م.

- **طاش كبرى زاده:** حسام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل المتوفى سنة ٩٦٢هـ.
ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة ـ ط مطبعة الاستقلال الكبرى ١٩٦٨م.

- **العروسي:** مصطفى بن محمد الصغير المتوفى عام ١٢٣٩هـ.
ـ انتاج الأفكار القدسية فى بيان معانى شرح الرسالة القشيرية ـ ط بولاق ١٢٩٠هـ.

- **عبد الرازق:** مصطفى عبد الرازق ولوى ماسينون.
ـ الإسلام والتصوف ـ ط دار الشعب ١٩٧٩م.

- **عبد اللطيف:** الدكتور عبد الموجود محمد عبد اللطيف.
ـ كشف اللثام عن أسرار تخريج حديث سيد الأنام ـ نشر مكتبة كليات الأزهر ١٤٠٤هـ.

- **عبده:** الشيخ الامام محمد عبده.
ـ رسالة التوحيد ـ ط كتاب الهلال ١٢٨٢هـ.

- **عبود:** الأستاذ منشاوى عثمان عبود.
ـ الاحتجاج بالحديث فى اللغة ـ مجلة كلية اللغة بالرياض المجلد الثانى.

- **العسقلاني:** الامام شهاب الدين أبى الفضل العسقلانى ابن حجر ٧٧٣ــ ٨٥٢ هـ.
  - فتح البارى ــ ط الحلبى ١٣٨٧ هـ.
- **العسقلاني:** أبو الفضل أحمد على الكنانى.
  - لسان الميزان ــ ط حيدر آباد الهند.
- **العطار:** فريد الدين أبو حامد العطار.
  - تذكرة الأوليــاء ــ تحقيق نيكلسون ــ ط لندن ١٣٢٥ هـ.
- **العقــاد:** عباس محمود.
  - عقائد المفكرين ــ ط دار الكتاب اللبنانى.
- **عفيفى:** الدكتور أبو العلا عفيفى.
  - الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ــ ط عيسى البابى الحلبى ١٣٦٤ هـ.
- **العــوا:** الأستاذ عادل العوا.
  - المذاهب الأخلاقية ــ ط بيروت.
- **علوية:** الأستاذ محمد على علوية.
  - المسلمون أمة واحدة دعوة للتقريب ــ ط المجلس بالقاهرة.
- **عياد:** الأستاذ أحمد توفيق عياد.
  - التصوف الإسلامى ــ ط الأنجلو المصرية ١٩٧٠م.
- **عيسى:** الأستاذ عبد القادر عيسى.
  - حقائق عن التصوف ــ ط مطبعة البلاغة حلب ١٣٩٠ هـ.
- **الغزالى:** محمد بن محمد الغزالى.
  - ثلاث رسائل فى المعرفة تحقيق الدكتور محمود حمدى زقزوق ــ ط مكتبة الأزهر ١٣٩٩ هـ.

ـ القسطاس المستقيم.
ـ المنقذ من الضلال ـ ط دار الكتاب اللبنانى بيروت.
ـ منهاج العابدين ـ ط مكتبة الجندى ١٣٩٢ هـ.

ـ **غـلاب:** الدكتور محمد غلاب.
ـ التنسك الإسلامى ـ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

ـ **غنـى:** الدكتور قاسم غنى.
ـ تاريخ التصوف فى الإسلام ـ ط النهضة المصرية ١٩٧٠م.

ـ **فرغـل:** الدكتور يحى هاشم فرغل.
ـ أصول التصوف الإسلامى ـ مطبعة الجبلاوى ١٤٠٤ هـ.

ـ **فـريـد الـديـن الـعـطـار:** أبو حامد محمد بن أبى بكر العطار النيسابورى.
ـ تذكرة الأولياء ـ ط لندن ١٣٣٥ هـ.

ـ **الفيروزابادى:** مجد الدين محمد بن يعقوب.
ـ بصائر ذوى التمييز ـ ط المجلس الأعلى بالقاهرة ١٣٨٩ هـ.

ـ **القاشانى:** عبد القادر القاشانى.
ـ شرح فصوص الحكم ـ ط عيسى البابى الحلبى ١٣٨٦ هـ.

ـ **القرطبى:** أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى.
ـ الجامع لأحكام القرآن ـ ط كتاب الشعب.

ـ **القشيرى:** أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان توفى سنة ٤٦٥ هـ.
ـ الرسالة القشيرية ـ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود ابن شريف ـ ط القاهرة.

ـ **القوصى:** الدكتور محمد عبد الفضيل القوصى.

ـ قراءة إسلامية فى علم النفس العام ـ ط دار الطباعة المحمدية ١٤٠٥هـ.

ـ قميحة: الدكتور جابر قميحة.
ـ المدخل إلى القيم الإسلامية ـ ط دار الكتاب اللبنانى ١٤٠٤هـ.

ـ القيسي: أحمد ناجي القيسي.
ـ كتاب فريد الدين العطار النيسابورى ومنطق الطير ـ طبع جامعة بغداد ١٣٨٨هـ.

ـ الكردى: الدكتور محمد ضياء الدين الكردى.
ـ نشأة التصوف الإسلامى ـ ط مطبعة السعادة ١٤٠٤هـ.
ـ الأخلاق الإسلامية والصوفية ـ ط سنة ١٤٠٤هـ.

ـ كرم: الدكتور يوسف كرم.
ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ـ ط دار المعارف.

ـ الكلاباذى: أبو بكر محمد بن إسحاق البخارى توفى سنة ٣٨٠هـ.
ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ـ ط مصر ١٩٦٠م.

ـ الكنانى: أبو عبد الله محمد بن جعفر الكنانى.
ـ نظم المتناثر من الحديث المتواتر ـ ط دار الكتب السلفية ١٩٨٢م.

ـ ماسنيون: المستشرق لويس ماسنيون.
ـ دراسات فى أصول الصياغات الفنية فى التصوف الإسلامى ـ ط المكتبة الفلسفية بباريس ١٩٥٤م.

ـ مالك: الامام أبو عبد الله مالك بن أنس.
ـ الموطأ.

ـ تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ـ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٧ هـ .

ـ **مبارك**: الدكتور زكى مبارك .
ـ التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ـ ط المكتبة العصرية صيدا بيروت .

ـ **متستك**: الدكتور أ. ى. متستك .
ـ مفتاح كنوز السنة ـ ط ادارة ترجمان السنة بيروت .

ـ **مجمع اللغة العربية**:
ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم ـ ط الهيئة المصرية العامة .

ـ **المحاسبى**: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى توفى سنة ٢٤٣.
ـ الرعاية لحقوق الله ـ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ـ ط دار المعارف ١٩٨٤م .

ـ **المحاسبى**: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى توفى سنة ٢٤٣ .
ـ العقل وفهم القرآن ـ ط دار الكندى بيروت ١٩٧١م .
ـ التوهم ـ تحقيق محمد عثمان الخشت ـ ط مكتبة القرآن بمصر ١٩٨٤م .

ـ **محمود**: الامام الدكتور عبد الحليم محمود .
ـ المدرسة الشاذلية وامامها أبو الحسن الشاذلى ـ ط دار الكتب الحديثة .
ـ فلسفة ابن طفيل ـ ط الأنجلو المصرية .
ـ الفيلسوف المسلم ـ ط الأنجلو المصرية .
ـ المنقذ من الضلال ـ ط دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٩م .

ـ **المدنى**: الشيخ محمد محمد المدنى .

ـ دعوة المجلس الأعلى بالقاهرة .

ـ مزروعة : الدكتور محمد مزروعة .
ـ المنهج الاستدلالى فى القرآن الكريم ـ ط مجلة كلية أصول الدين المجلد الأول .

ـ مسلم : أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى ٢٠٦ هـ ـ ٢٦١ هـ ـ
صحيح مسلم
ط دار احياء الكتب العربية ١٣٧٤ هـ .

ـ مصطفى : الدكتور محمد مصطفى .
ـ الرمزية عند محى الدين بن عربى ـ رسالة دكتوراه بمكتبة الدكتور محمد مصطفى .
ـ علم التصوف ـ ط السعادة ١٤٠٣ هـ .

ـ المنذرى : الحافظ زكى الدين عبد العظيم عبد القوى ٦٥٦ هـ .
ـ الترغيب والترهيب .

ـ المناوى : عبد الرءوف المناوى .
ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ـ ط المكتبة التجارية الكبرى .
ـ الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية ـ مخطوط دار الكتب .

ـ المنوفى : السيد محمود أبو الفضل المنوفى .
ـ التمكين فى شرح منازل السائرين ـ ط دار نهضة مصر ١٩٦٩ م .
ـ جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف ـ ط الحلبى بالقاهرة ١٩٦٧ م .

ـ النابلسى : الشيخ عبد الغنى النابلسى .
ـ تعطير الأنام فى تفسير الأحلام ـ ط دار الكتب العربية .

- **نجاتي:** الدكتور محمد عثمان نجاتي.
  - القرآن وعلم النفس ــ ط دار الشروق ١٤٠٢ هـ.
- **النجار:** الدكتور عامر النجار.
  - التصوف النفسي ــ ط دار المعارف بمصر ١٤٠٥ هـ.
- **النجار:** الدكتور عبد المجيد النجار.
  - العقل والسلوك فى البنية الإسلامية ــ ط تونس.
- **النسائي:** الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائى.
  - سنن النسائي ــ ط الحلبى ١٩٨٣ هـ.
- **النشار:** الدكتور على سامى النشار.
  - نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ــ ط دار المعارف ١٩٧٧ م.
- **النووي:** محى الدين النووى الشافعى.
  - الأذكار ــ ط الحلبى ١٣٤٨ هـ.
  - رياض الصالحين ــ ط القاهرة.
- **الهجويري:** على بن عثمان الجلابى الغزنوى توفى سنة ٤٦٩ هـ.
  - كشف المحجوب.
  تحقيق الدكتورة اسعاد قنديل ــ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- **الهروي:** أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى.
  - منازل السائرين إلى الحق عز شأنه ــ ط الحلبى بالقاهرة ١٣٨١ هـ.
- **هلال:** الأستاذ محمد أمين هلال.
  - منهج التصوف الإسلامى فى تربية النفس ــ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٢ هـ.

- الهنـدى: العلامة علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى البرهان فورى ٩٧٥هـ.

  ـ كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال ـ ط مؤسسة الرسالة ١٣٩٩هـ.

- الهيثمى: الحافظ نور الدين على بن أبى بكر ٨٠٧هـ.

  ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ ط دار الكتاب العربى.

  ـ مورد الظمآن إلى زوائد من حبان ـ ط السلفية.

- اليافعى: أبو عبد الله اليافعى.

  ـ نشر المحاسن الغالية ـ ط الحلبى.

فهرس محتويات الجزء الثانى

الأصل	الموضوع	الصفحة

الأصل	الموضوع	الصفحة

الأصل	الموضوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٨ / ٢٨٤٥

مطابع الأهرام التجارية — القاهرة — مصر